الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

المجلد السابع

دار
إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الثالث عشر

عطیہ

برائے دار العلوم محمدیہ سیالکوٹ

از

برادرم محمد رمضان صاحب ۔ وزیر آبادی ضلع گوجرانوالہ

حال مقیم قصر شام العین ابوظبی

محرم ۱۴۰۳ ہجری

أعادت طبعه بالأوفست
دار إحياء التراث العربي
بيروت

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفرقان

مكية كلها فى قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة، وهى : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ » إلى قوله : « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » . وقال الضحاك : هى مدنية، وفيها آيات مكية؛ قوله : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ » الآيات .

ومقصود هذه السورة ذكر موضع عظم القرآن ، وذكر مطاعن الكفار فى النبوّة والرد على مقالاتهم؛ فمن جملتها قولهم : إن القرآن افتراه محمد ، وإنه ليس من عند الله .

قوله تعالى : تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣)

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ « تبارك » اختلف فى معناه؛ فقال الفرّاء: هو فى العربية و « تقدّس » واحد، وهما للعظمة . وقال الزجاج : « تبارك » تفاعل من البركة . قال : ومعنى البركة الكثرة من كل ذى خير . وقيل : « تبارك » تعالى . وقيل : تعالى عطاؤه، أى زاد وكثر . وقيل : المعنى دام وثبت إنعامه . قال النحاس : وهذا أولاها فى اللغة والاشتقاق؛ من برك الشيء إذا ثبت؛ ومنه برك الجمل والطير على الماء، أى دام

Marfat.com

وثبت . فأما القول الأول فمخلّط ؛ لأن التقديس إنما هو من الطهارة وليس من ذا فى شىء . قال الثعلبي : و يقال تبارك الله ، ولا يقال متبارَك ولا مبارَك ؛ لأنه ينتهى فى أسمائه وصفاته إلى حيث ورد التوقيف . وقال الطِّرِمَّاح :

تبارَكتَ لا مُعْطٍ لشيء منعته * وليس لما أعطيتَ يا ربّ مانع

وقال آخر :

* تبارَكْتَ مَا تَقْدِرْ يقعْ ولك الشكرُ *

قلت : قد ذكر بعض العلماء فى أسمائه الحسنى « المبارك » وذكرناه أيضا فى كتابنا . فإن كان وقع آتفاق على أنه لا يقال فيسلَّم للإجماع ، و إن كان وقع فيه آختلاف فكثير من الأسماء آختلف فى عدّه ؛ كالدهر وغيره . وقد نبهنا على ذلك هنالك ، والحمد لله .

و « الفرقان » القرآن . وقيل : إنه آسم لكل مُنزل ؛ كما قال : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ الفُرْقَانَ » . وفى تسميته فرقانا وجهان : أحدهما — لأنه فرّق بين الحق والباطل ، والمؤمن والكافر . الثانى — لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام ؛ حكاه النقاش . ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ يريد محمدا صلى الله عليه وسلم . ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ آسم « يكون » مضمر يعود على « عبده » وهو أولى لأنه أقرب إليه . ويجوز أن يكون يعود على « الفرقان » . وقرأ عبد الله بن الزبير « على عِبَادِهِ » . ويقال : أنذر إذا خوّف ؛ وقد تقدم فى أول « البقرة »(1) . والنذير : المحذِّر من الهلاك . الجوهري : والنذير المنذر ، والنذير الإنذار . والمراد بـ « بالعَالَمِينَ » هنا الإنس والجن ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد كان رسولا إليهما ، ونذيرا لهما ، وأنه خاتم الأنبياء ، ولم يكن غيره عام الرسالة إلا نوح فإنه عمّ برسالته جميع الإنس بعد الطوفان ، لأنه بدأ به الخلق .

قوله تعالى : ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عظّم تعالى نفسه . ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ نزه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون من أن الملائكة أولاد الله ؛ يعنى بنات الله سبحانه وتعالى . وعما قالت اليهود : عزير آبن الله ؛ جلّ الله تعالى . وعما قالت النصارى : المسيح آبن الله ؛ تعالى الله عن ذلك . ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ كما قال عبدة الأوثان .

(1) راجع جـ ١ ص ١٨٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لا كما قال المجوس والثَّنَوِيّة : إن الشيطان أو الظلمة يخلق بعض الأشياء . ولا كما يقول من قال : للخلوق قدرة الإيجاد . فالآية ردٌّ على هؤلاء . ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أى قدر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد ، لاعن سهوة وغفلة ، بل جرت المقادير على ما خلق الله إلى يوم القيامة وبعد القيامة ، فهو الخالق المقدّر ؛ فإياه فآعبدوه .

قوله تعـالى : ﴿وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ ذكر ما صنع المشركون على جهة التعجيب فى آتخاذهم الآلهة ، مع ما أظهر من الدلالة على وحدانيته وقدرته . ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ يعنى الآلهـة . ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لمـا آعتقد المشركون فيها أنها تضر وتنفع ، عبّر عنها كما يعبّر عما يعقل . ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أى لا دفع ضرّ وجلب نفع ، فحـذف المضـاف . وقيل : لا يقـدرون أن يضروا أنفسهم أو ينفعوها بشيء ، ولا لمن يعبدهم ، لأنها جمادات . ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ أى لا يميتون أحدا ، ولا يحيونه . والنّشور : الإحياء بعد الموت ؛ أنشر الله الموتى فنَشَروا . وقد تقدم[(١)] . وقال الأعشى :

حتى يقولَ الناسُ مما رَأَوْا * يا عجبًا للميِّت النّـاشِـرِ

قوله تعـالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾

قوله تعـالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى مشركى قريش . وقال آبن عباس : القائل منهم ذلك النضر بن الحـرث ؛ وكذا كل ما فى القرآن فيـه ذكر الأساطير . قال محمـد بن إسحق : وكان مؤذيا للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿إِنْ هَذَا﴾ يعنى القرآن . ﴿إِلَّا إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ﴾ أى كذب آختلقه . ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ يعنى اليهود ؛ قاله مجاهد . وقال آبن عباس :

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢٩ طبعة أولى أو ثانيـة .

Marfat.com

المراد بقوله «قَوْمٌ آخَرُونَ» أبو فُكَيْهة مولى بنى الحضرمى وعدّاس وجبر، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب . وقد مضى فى « النحل »[1] ذكرهم . ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا ﴾ أى بظلم . وقيل : المعنى فقد أتوا ظلما . ﴿ وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ قال الزجاج : واحد الأساطير أسطورة؛ مثل أحدوثة وأحاديث . وقال غيره : أساطير جمع أسطار؛ مثل أقوال وأقاويل . ﴿ ٱكْتَتَبَهَا ﴾ يعنى محمدا . ﴿ فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ ﴾ أى تلقى عليه وتقرأ . ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ حتى تحفظ . و « تملى » أصله تُملَل ؛ فأبدلت اللام الأخيرة ياء من التضعيف ؛ كقولهم : تقضّى البازى ؛ وشبهه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى قل يا محمد أنزل هذا القرآن الذى يعلم السر ، فهو عالم الغيب ، فلا يحتاج إلى معلم . وذكر « السر » دون الجهر؛ لأنه من علم السر فهو فى الجهر أعلم . ولو كان القرآن مأخوذا من أهل الكتاب وغيرهم لما زاد عليها ، وقد جاء بفنون تخرج عنها ، فليس مأخوذا منها . وأيضا ولو كان مأخوذا من هؤلاء لتمكن المشركون منه أيضا كما تمكن محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهلا عارضوه فبطل اعتراضهم من كل وجه . ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ يريد غفورا لأوليائه رحيما بهم .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ ﴾ .

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « وَقَالُوا » ذكر شيئا آخر من مطاعنهم . والضمير فى «قالوا» لقريش ؛ وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس مشهور، وقد تقدم

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٧٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

فى « سبحان »[1] . ذكره ابن إسحق فى السيرة وغيره . مضمنه — أن سادتهم عتبة بن ربيعة وغيره اجتمعوا معه فقالوا : يا محمد ! إن كنت تحب الرياسة وليناك علينا ، وإن كنت تحب المال جمعنا لك من أموالنا ؛ فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك رجعوا فى باب الاحتجاج معه فقالوا : ما بالك وأنت رسول الله تأكل الطعام ، وتقف بالأسواق ! فعيروه بأكل الطعام ؛ لأنهـم أرادوا أن يكون الرسول ملكا ، وعيروه بالمشى فى الأسواق حين رأوا الأكاسرة والقياصرة والملوك الجبابرة يترفعون عن الأسـواق ، وكان عليه السـلام يخالطهم فى أسواقهم ، ويأمرهم وينهاهم ؛ فقالوا : هـذا يطلب أن يتملك علينا ، فماله يخالف سيرة الملوك ؛ فأجابهم الله بقوله ، وأنزل على نبيه : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » فلا تغتم ولا تحزن ، فإنها شكاة ظاهر عنك عارها .

الثانيـــة — دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب المعاش . وكان عليه السلام يدخلها لحاجته ، ولتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته ، ويعرض نفسـه فيها على القبائل ، لعـل الله أن يرجع بهم إلى الحق . وفى البخارى فى صفته عليه السلام : « ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق » وقد تقدم فى « الأعراف »[2] . وذكر السوق مذكور فى غيرما حديث ، ذكره أهل الصحيح . وتجارة الصحابة فيها معروفة ، وخاصة المهاجرين ؛ كما قال أبو هريرة : وإن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق[3] بالأسـواق ؛ خرجه البخارى . وسـيأتى لهـذه المسئلة زيادة بيان فى هذه السورة إن شاء الله .

قوله تعـالى : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْـهِ مَلَكٌ ﴾ أى هـلا . ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ جواب الاستفهام . ﴿ أَوْ يُلْقَى ﴾ فى موضع رفع ؛ والمعنى : أو هلا يلقى ﴿ إِلَيْـهِ كَنْزٌ ﴾ ﴿ أَوْ ﴾ هلا ﴿ تَكُونُ لَهُ جَنَّـةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ « يأكل » بالياء قرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين بالنون ، والقراءتان حسنتان تؤديان عن معنى ، وإن كانت القراءة بالياء أبين ؛ لأنه

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٨ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٩ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) الصفق : التبايع .

Marfat.com

قد تقدّم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وحده فأن يعود الضمير عليه أبين ؛ ذكره النحاس .
﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ تقدّم في « سبحان »(١) والقائل عبد الله بن الزِّبَعْرى فيما ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ أي ضربوا لك هذه الأمثال ليتوصلوا إلى تكذيبك . ﴿ فَضَلُّوا ﴾ عن سبيل الحق وعن بلوغ ما أرادوا . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ إلى تصحيح ما قالوه فيك .

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ ﴾ شرط ومجازاة، ولم يدغم « جَعَلَ لَكَ » لأن الكلمتين منفصلتان، ويجوز الإدغام لاجتماع المثلين . ﴿ وَيَجْعَلْ لَكَ ﴾ في موضع جزم عطفا على موضع « جعل » . ويجوز أن يكون في موضع رفع مقطوعا من الأوّل . وكذلك قرأ أهل الشام . ويروى عن عاصم أيضا « وَيَجْعَلُ لَكَ » بالرفع ؛ أي وسيجعل لك في الآخرة قصورا . قال مجاهد : كانت قريش ترى البيت من حجارة قصرا كائنا ما كان . والقصر في اللغة الحبس، وسمى القصر قصرا لأن من فيه مقصور عن أن يوصل إليه . وقيل : العرب تسمى بيوت الطين القصر . وما يتخذ من الصوف والشعر البيت . حكاه القُشَيري . وروى سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن خَيْثَمة قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن شئت أن نعطيك خزائن الدنيا ومفاتيحها ولم يعط ذلك من قبلك ولا يعطاه أحد بعدك ، وليس ذلك بناقصك في الآخرة شيئا ؛ وإن شئت جمعنا لك ذلك في الآخرة ؛ فقال : "يجمع ذلك لي في الآخرة" فأنزل الله عز وجل « تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٧٢ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً » . ويروى أن هذه الآية أنزلها رضوان خازن الجنان إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ وفى الخبر: إن رضوان لما نزل سلم على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ثم قال: يا محمد! رب العزة يقرئك السلام، وهذا سَفَط[(1)] — فإذا سَفَط من نور يتلألأ — يقول لك ربك: هذه مفاتيح خزائن الدنيا، مع أنه لا ينقص مالك فى الآخرة مثل جناح بعوضة؛ فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كالمستشير له؛ فضرب جبريل بيده الأرض يشير أن تواضع؛ فقال: " يا رضوان لا حاجة لى فيها الفقر أحب إلىّ وأن أكون عبدا صابرا شكورا ". فقال رضوان: أصبت! الله لك. وذكر الحديث.

قوله تعالى: بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ يريد يوم القيامة. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ يريد جهنم تتلظى عليهم. ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أى من مسيرة خمسمائة عام. ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ قيل: المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم. وقيل: المعنى إذا رأتهم خزانها سمعوا لهم تغيظا وزفيرا حرصا على عذابهم. والأول أصح؛ لما روى مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من كذب على متعمدا فليتبوأ بين عينى جهنم مقعدا " قيل: يا رسول الله! ولها عينان؟ قال: " أما سمعتم الله عز وجل يقول: « إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا » يخرج عُنق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول وُكِّلت بكل من جعل مع الله إلها آخر فلهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه " فى رواية " فيخرج عُنق من النار فيلتقط الكفار لقط الطائر حب

(١) السفط: الذى يعبى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء. وقيل: كالجوالق.

Marfat.com

السمسم " ذكره رزين فى كتابه، وصححه ابن العربى فى قبسه، وقال : أى تفصلهم عن الخلق فى المعرفة كما يفصل الطائر حب السمسم من التربة . وخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . " يخرج عُنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول إنى وُكِّلت بثلاث بكل جبّار عنيد وبكل من دعا مع الله إلها آخر و بالمصوِّرين " . وفى الباب عن أبى سعيد قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال الكلبي : سمعوا لها تغيظا كتغيظ بنى آدم وصوتا كصوت الحمار . وقيل : فيه تقديم وتأخير، سمعوا لها زفيرا وعلموا لها تغيظا . وقال قطرب : التغيظ لا يسمع، ولكن يُرى، والمعنى : رأوا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا؛ كقول الشاعر :

ورأيت زوجك فى الوَرَى * مُتقلِّدا سيفًا ورُمحا

أى وحاملا رمحا . وقيل : « سَمِعُوا لَهَا » أى فيها ؛ أى سمعوا فيها تغيظا وزفيرا للمعذَّبين . كما قال تعالى : « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ » و « فى واللام » يتقاربان؛ تقول : أفعل هذا فى الله ولله .

قوله تعالى : ﴿ وإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أن عبد الله كان يقول : إن جهنم لتضيِّق على الكافر كتضييق الزُّج(١) على الرمح؛ ذكره ابن المبارك فى رقائقه . وكذا قال ابن عباس، ذكره الثعلبي والقشيرى عنه، وحكاه الماوردى عن عبد الله بن عمرو . ومعنى « مُقَرَّنِينَ » مكتَّفينَ ؛ قاله أبو صالح . وقيل : مصفَّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال . وقيل : قرنوا مع الشياطين ؛ أى قرن كل واحد منهم إلى شيطانه ؛ قاله يحيى بن سلام . وقد مضى هذا فى « إبراهيم »(٢) وقال عمرو بن كلثوم :

فآبُوا بالنِّهاب وبالسَّبايا * وأُبْنا بالملوك مُقرَّنينا(٣)

﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أى هلاكا؛ قاله الضحاك . ابن عباس : ويلا . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أول من يقوله إبليس وذلك أنه أول من يكسى حلة من النار

(١) الزج (بالضم) : الحديدة التى فى أسفل الرمح . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) الرواية فى البيت : « مصفدينا » .

Marfat.com

فتوضع على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول واثبوراه" . وانتصب على المصدر، أى ثبرنا ثبورا؛ قاله الزجاج . وقال غيره : هو مفعول به .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ فإن هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة . وقال ثبورا لأنه مصدر يقع للقليل والكثير فلذلك لم يجمع ؛ وهو كقولك : ضربته ضربا كثيرا ، وقعد قعودا طويلا . ونزلت الآيات فى ابن خطل وأصحابه .

قوله تعالى : قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾. إن قيل : كيف قال « أَذَٰلِكَ خَيْرٌ » ولا خير فى النار ؛ فالجواب أن سيبويه حكى عن العرب : الشقاء أحب إليك أم السعادة ، وقد علم أن السعادة أحب إليه . وقيل : ليس هو من باب أفعل منك ، وإنما هو كقولك : عنده خير . قال النحاس : وهذا قول حسن ؛ كما قال [(١)] :

* فشركما لخيركما الفداء *

قيل : إنما قال ذلك لأن الجنة والنار قد دخلتا فى باب المنازل ؛ فقال ذلك لتفاوت ما بين المنزلتين . وقيل : هو مردود على قوله : « تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ » الآية . وقيل : هو مردود على قوله : « أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » . وقيل : إنما قال ذلك على معنى علمكم واعتقادكم أيها الكفار ؛ وذلك أنهم لما كانوا يعملون عمل أهل النار صاروا كأنهم يقولون إن فى النار خيرا .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ أى من النعيم . ﴿ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ قال الكلبى : وعد الله المؤمنين الجنة جزاء على أعمالهم ، فسألوه ذلك الوعد فقالوا : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ » . وهو معنى قول ابن عباس . وقيل : إن الملائكة تسأل لهم

(١) هو حسان بن ثابت — رضى الله عنه — يمدح النبى صلى الله عليه وسلم ويهجو أبا سفيان ، وصدر البيت :

* أتهجوه ولست له بكفء *

Marfat.com

الجنة؛ دليله قوله تعالى : « رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ » الآية . وهذا قول محمد ٱبن كعب القُرظى . وقيل : معنى « وَعْدًا مَسْئُولًا » أى واجبا وإن لم يكن يسأل كالدَّين ؛ حكى عن العرب : لأعطينك ألفا . وقيل : « وَعْدًا مَسْئُولًا » يعنى أنه واجب لك فتسأله . وقال زيد بن أسلم : سألوا الله الجنة فى الدنيا ورغبوا إليه بالدعاء، فأجابهم فى الآخرة إلى ماسألوا وأعطاهم ما طلبوا . وهذا يرجع إلى القول الأول .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ قرأ ٱبن محيصن وحميد وٱبن كثير وحفص و يعقوب وأبو عمرو فى رواية الدورى «يَحْشُرُهُمْ» بالياء . وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله فى أول الكلام «كَانَ عَلَى رَبِّكَ» وفى آخره «أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هؤلاء» . الباقون بالنون على التعظيم . ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ من الملائكة والإنس والجن والمسيح وعُزير؛ قاله مجاهد وٱبن جريج . الضحاك وعكرمة: الأصنام. ﴿فَيَقُولُ﴾ قراءة العامة بالياء وهو ٱختيار أبى عبيد وأبى حاتم. وقرأ ٱبن عامر وأبو حيوة بالنون على التعظيم . ﴿ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ وهذا ٱستفهام توبيخ للكفار . ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أى قال المعبودون من دون الله سبحانك؛ أى تنزيها لك ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِى لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ . فإن قيل : فإن كانت الأصنام التى تعبد تحشر فكيف تنطق وهى جماد ؟ قيل له : ينطقها الله تعالى يوم القيامة كما ينطق الأيدى والأرجل . وقرأ الحسن وأبو جعفر « أَنْ نُتَّخَذَ » بضم النون وفتح الخاء على الفعل المجهول. وقد تكلم فى هذه القراءة النحويون؛ فقال أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر:

Marfat.com

لا يجوز « نُتَّخَذَ » . وقال أبو عمرو : لو كانت « نُتَّخَذَ » لحذفت « مِن » الثانية فقلت : أن نُتَّخَذَ من دونك أولياءَ . كذلك قال أبو عبيدة : لا يجوز « نُتَّخَذَ » لأن الله تعالى ذكر «مِن» مرتين، ولو كان كما قرأ لقال : أن نُتَّخذ من دونك أولياء . وقيل : إن « مِن » الثانية صلة ؛ قال النحاس : ومثل أبي عمرو على جلالته ومحله يستحسن ما قال ؛ لأنه جاء ببينة . وشرح ما قال أنه يقال : ما ٱتخذت رجلا وليـا ؛ فيجوز أن يقع هـذا للواحد بعينه ؛ ثم يقال : ما ٱتخذت من رجل وليا فيكون نفيا عاما ، وقولك «وليا» تابع لمـا قبله فلا يجوز أن تدخل فيه «مِن» لأنه لا فائدة في ذلك . ﴿وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ أي في الدنيا بالصحة والغنى وطول العمر بعد موت الرسل صلوات الله عليهم . ﴿حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ أي تركوا ذكرك فأشركوا بك بطرا وجهلا فعبدونا من غير أن أمرناهم بذلك . وفي الذكر قولان : أحدهما — القرآن المنزل على الرسل؛ تركوا العمل به؛ قاله ٱبن زيد . الثاني — الشكر على الإحسان إليهم والإنعام عليهم . إنهم ﴿كَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ أي هلكى؛ قاله ٱبن عباس . مأخوذ من البوار وهو الهلاك . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه وقد أشرف على أهل حِمص : يأهل حمص! هلم إلى أخ لكم ناصح، فلما ٱجتمعوا حوله قال : مالكم لا تستحون ! تبنون مالا تسكنون ، وتجمعون مالا تأكلون ، وتأمُلون مالا تدركون، إن من كان قبلكم بنوا مشيدا و جمعوا عبيدا ،وأملوا بعيدا، فأصبح جمعهم بورا، وآمالهم غرورا ، ومساكنهم قبورا ؛ فقوله « بورا » أي هلكى . وفي خبر آخر : فأصبحت منازلهم بورا؛ أي خالية لا شيء فيها . وقال الحسن : «بورا» لا خير فيهم . مأخوذ من بوار الأرض، وهو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير . وقال شهر بن حَوْشَب : البوار الفساد والكساد؛ مأخوذ من قولهم : بارت السلعة إذا كسدت كساد الفاسد ؛ ومنه الحديث "نعوذ بالله من بوار الأيِّم" . وهو ٱسم مصدر كالزّور يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث . قال ٱبن الزِّبَعْرَى :

يارسـولَ المليـكِ إنّ لسـاني * رَاتِقٌ ما فَتقتُ إذ أنا بُورُ
إذ أُبارى الشيطانَ في سَنَنِ الغَـ * ـيِّ ومَنْ مَالَ ميـلَه مَثْبُـورُ

Marfat.com

وقال بعضهم : الواحد بائر والجمع بُور . كما يقال : عائذ وعُوذ، وهائد وهُود . وقيل : « بُوراً » عميا عن الحق .

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أى يقول الله تعالى عند تبرّى المعبودين : « فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ » أى فى قولكم إنهم آلهة . ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعنى الآلهة صرف العذاب عنكم ولا نصركم . وقيل : فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون ﴿صَرْفًا﴾ للعذاب ﴿ وَلَا نَصْرًا ﴾ من الله . وقال ابن زيد : المعنى فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد ؛ وعلى هذا فمعنى « بما تقولون » بما تقولون من الحق . وقال أبو عبيد : المعنى ؛ فيما تقولون فما يستطيعون لكم صرفا عن الحق الذى هداكم الله إليه، ولا نصرا لأنفسهم مما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم . وقراءة العامة « بِمَا تَقُولُونَ » بالتاء على الخطاب . وقد بينا معناه . وحكى الفراء أنه يقرأ « فَقَدْ كَذَبُوكُمْ » مخففا، «بِمَا يَقُولُونَ» . وكذا قرأ مجاهد والبزّى بالياء ، و يكون معنى «يَقُولُونَ» بقولهم . وقرأ أبو حيوة «بِمَا يَقُولُونَ» بياء « فَمَا تَسْتَطِيعُونَ » بتاء على الخطاب لمتخذى الشركاء . ومن قرأ بالياء فالمعنى : فما يستطيع الشركاء . ﴿ وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ ﴾ قال ابن عباس : من يشرك منكم ثم مات عليه . ﴿ نُذِقْهُ ﴾ أى فى الآخرة . ﴿ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ أى شديدا، كقوله تعالى : «وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا» أى شديدا .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ نزلت جوابا للشركين حيث قالوا : « مالِ هَـذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ » . وقال ابن عباس : لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة وقالوا : « مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ »

Marfat.com

الآية حزن النبي صلى الله عليه وسلم لذلك فنزلت تعـزية له ؛ فقال جبريل عليه السـلام : السلام عليك يا رســول الله ! الله ربك يقرئك السلام و يقول لك : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » أى يبتغون المعايش فى الدنيا .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ إذا دخلت اللام لم يكن فى «إن» إلا الكسر ، ولو لم تكن اللام ما جاز أيضـا إلا الكسر؛ لأنها مستأنفة . هـذا قول جميع النحويين . قال النحاس : إلا أن عليّ بن سليمان حكى لنا عن محمد بن يزيد قال : يجوز فى « إن » هـذه الفتح و إن كان بعدها اللام ؛ وأحسبه وهَما منه . قال أبو إسحق الزجاج : وفى الكلام حذف ؛ والمعنى وما أرسلنـا قبلك رسـلا إلا إنهم ليأكلون الطعام ، ثم حذف رسلا ، لأن فى قوله : « مِن المرسلين » ما يدل عليه . فالموصوف محذوف عند الزجاج . ولا يجوز عنده حذف الموصول وتبقية الصلة كما قال الفراء . قال الفراء : والمحذوف « مَن » والمعنى إلا مَنْ إنهم ليأكلون الطعام . وشبهه بقوله : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » ، وقولـه : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » أى ما منكم إلا من هو واردها . وهذا قول الكسائيّ أيضا . وتقول العرب : ما بعثت إليك من الناس إلا مَن إنه ليطيعك . فقولك : إنه ليطيعك صلة من . قال الزجاج : هذا خطأ ؛ لأن من موصولة فلا يجوز حذفها . وقال أهل المعانى : المعنى ؛ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل إنهم ليأكلون ؛ دليله قوله تعالى : " ما يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ » . وقال ابن الأنبارىّ : كسرت « إنهم » بعد « إلا » للاستئناف بإضمار واو . أى إلا و إنهم . وذهبت فرقة إلى أن قوله : « لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » كناية عن الحدث .

قلت : وهـذا بليغ فى معناه، ومثله « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ » . ﴿ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ قرأ الجمهور « يَمْشُونَ » بفتح الياء وسكون الميم وتخفيف الشين . وقرأ عليّ وآبن عوف وآبن مسعود بضم الياء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة، بمعنى يُدْعَون إلى المشى و يحملون عليـه . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَميّ بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشدّدة، وهى بمعنى يَمْشُونَ ؛ قال الشاعر :

Marfat.com

ومَشَّى بأعطان المَبَاءة وَابتغى * قلائصَ منها صعبةٌ ورَكُوبُ (١)

وقال كعب بن زهير :

منه تظل سِباعُ الجَوِّ (٢) ضامِزَةً * ولا تُمَشِّي بوادِيه الأَرَاجيلُ

بمعنى تَمْشي .

الثالثــة — هذه الآية أصل فى تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك . وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع ، لكنا نذكر هنا من ذلك ما يكفى فنقول : قال لى بعض مشايخ هذا الزمان فى كلام جرى : إن الأنبياء عليهم السلام إنمـا بعثوا ليسنوا الأسباب للضعفاء ؛ فقلت مجيبا له : هذا قول لا يصدر إلا من الجهال والأغبياء ، والرعاع السفهاء، أو من طاعن فى الكتاب والسنة العلياء؛ وقـد أخبر الله تعالى فى كتابه عن أصفيائه ورسله وأنبيائه بالأسباب والاحتراف فقال وقوله الحق: «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ» وقال: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ» قال العلماء : أى يتجرون ويحترفون. وقال عليه الصلاة والسلام: "جُعِل رزقى تحت ظل رُمْحى" وقال تعالى: «فَكُلُوا مِمَّـا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا» وكان الصحابة رضى الله عنهم يتجرون ويحترفون وفى أموالهم يعملون، ومن خالفهم من الكفار يقاتلون ؛ أتراهم ضعفاء! بل هم كانوا والله الأقوياء ، وبهم الخلف الصالح ٱقتدى، وطريقهم فيه الهدى والاهتداء . قال : إنمـا تناولوها لأنهم أئمـة الاقتداء، فتناولوها مباشرة فى حق الضعفاء ، فأما فى حق أنفسهم فـلا ؛ و بيان ذلك أصحاب الصُّفة .

قلت: لو كان ذلك لوجب عليهم وعلى الرسول معهم البيان؛ كما ثبت فى القرآن «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِـمْ» وقال: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى» الآية . وهذا من البينات والهدى. وأما أصحاب الصُّفة فإنهم كانوا ضيف الإسلام

(١) فى روح المعانى: «ذلول» بدل «ركوب» . (٢) الجو : البر الواسع . وضامزة : ساكتة ، وكل ساكت فهو ضامز . والأراجيـل : جمع أرجال كأناعيم جمع أنعام ، وأرجال جمع رجل . يصف الشاعر أسدا بأن الأسود والرجال تخافه ، فالأسود ساكتة من هيبته والرجال ممتنعة عن المشى بواديه .

Marfat.com

عند ضيق الحال، فكان عليه السلام إذا أتته صدقة خصهم بها، وإذا أتته هدية أكلها معهم، وكانوا مع هـذا يحتطبون ويسوقون المـاء إلى أبيات رسول الله صـلى الله عليه وسلم . كذا وصفهم البخارى وغيره . ثم لمـا آفتتح الله عليهم البلاد ومهد لهم المهاد تأمّروا ، وبالأسباب أُمروا . ثم إن هـذا القول يدل على ضعف النبي صـلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ لأنهـم أيدوا بالملائكة وثُبِّتوا بهـم ، فلو كانوا أقوياء ما آحتـاجوا إلى تأييـد الملائكة وتأييـدهم إذ ذلك سبب من أسباب النصر ؛ نعوذ بالله من قول وإطلاق يؤول إلى هـذا ، بل القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله ، وهو الحق المبين ، والطريق المستقيم الذى آنعقد عليه إجمـاع المسـلمين ؛ وإلا كان يكون قوله الحق : « وَأَعِدُّوا لَهُـمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْـلِ » — الآية — مقصورا على الضـعفاء ، وجميـع الخطابات كذلك . وفى التنزيل حيث خاطب موسى الكليم « اضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ » وقد كان قادرا على فلق البحر دون ضرب عصا . وكذلك مريم عليها السلام « وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ » وقد كان قادرا على سقوط الرطب دون هز ولا تعب ؛ ومع هـذا كله فلا ننكر أن يكون رجل يلطَف به ويعان ، أو تجاب دعوته ، أو يكرم بكرامة فى خاصة نفسـه أو لأجل غيره ، ولا تهدّ لذلك القواعد الكلية والأمور الجملية . هيهات هيهات! لا يقال فقد قال الله تعالى : « وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » فإنا نقول: صدق الله العظيم ، وصدق رسوله الكريم ، وأن الرزق هنا المطر بإجمـاع أهل التأويل ؛ بدليل قوله : « وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا » وقال : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِـيدِ » ولم يشاهد ينزل من السماء على الخلق أطباقَ الخبز ولا جفان اللحم ، بل الأسباب أصل فى وجود ذلك ؛ وهو معنى قوله عليه السلام : "آطلبوا الرزق فى خبايا الأرض" أى بالحرث والحفر والغرس . وقد يسمى الشىء بمـا يؤول إليه ، وسمى المطر رزقا لأنه عنه يكون الرزق ، وذلك مشهور فى كلام العرب . وقال عليـه السلام: "لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل أحدا أعطاه أو منعه" وهذا فيما خرج من غير تعب من الحشيش والحطب . ولو قُدِّر رجل بالجبال منقطعا عن الناس لمـا كان له بد من الخروج إلى ما تخرجه الآكام وظهور الأعلام حتى يتناول من ذلك ما يعيش

Marfat.com

به ؛ وهو معنى قوله عليه السلام : " لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكّله لرزقتم كما تُرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا " فغدوّها ورواحها سبب ؛ فالعجب العجب ممن يدعى التجريد والتوكل على التحقيق ، ويقعد على ثنيات الطريق ، ويدع الطريق المستقيم ، والمنهج الواضح القويم . ثبت فى البخارى عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزوّدون ويقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس ؛ فأنزل الله تعالى «وَتَزَوَّدُوا» . ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد ، وكانوا المتوكلين حقا . والتوكل اعتماد القلب على الرب فى أن يلم شعثه ويجمع عليه أربه ؛ ثم يتناول الأسباب بمجرد الأمر . وهذا هو الحق . سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل فقال : إنى أريد الحج على قدم التوكل . فقال : اخرج وحدك ؛ فقال : لا، إلا مع الناس . فقال له : أنت إذن متكل على أجربتهم . وقد أتينا على هذا فى كتاب « قمع الحرص بالزهد والقناعة وردّ ذل السؤال بالكتب والشفاعة » .

الرابعة — خرّج مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها " . وخرّج البزّار عن سلمان الفارسىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لاتكونن إن استطعت أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته " . أخرجه أبو بكر البرقانىّ مسندا عن أبى محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ — من رواية عاصم — عن أبى عثمان النهدىّ عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكن أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرّخ " . ففى هذه الأحاديث ما يدل على كراهة دخول الأسواق، لاسيما فى هذه الأزمان التى يخالط فيها الرجال النسوان . وهكذا قال علماؤنا لما كثر الباطل فى الأسواق وظهرت فيها المناكر : كُره دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم فى الدين تنزيها لهم عن البقاع التى يُعصى الله فيها . فحق على من ابتلاه الله بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محل الشيطان ومحل جنوده ، وأنه إن أقام هناك هلك، ومن كانت هذه حاله اقتصر منه على قدر ضرورته، وتحرز من سوء عاقبته وبليته .

Marfat.com

الخامســـة — تشبيه النبيّ صلى الله عليه وسلم السوق بالمعركة تشبيه حسن ؛ وذلك أن المعركة موضع القتال، سمى بذلك لتعارك الأبطال فيه، ومصارعة بعضهم بعضا . فشبه السوق وفعل الشيطان بها ونيله منهم ممــا يحملهم من المكر والخديعة ، والتساهل فى البيوع الفاســدة والكذب والأيمان الكاذبة، واختلاط الأصوات وغير ذلك بمعركة الحرب ومن يصرع فيها.

السادســـة — قال ابن العربيّ : أما أكل الطعام فضرورة الخلق لا عار ولا درك[١] فيه، وأما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون : لا يدخل إلا ســوق الكتب والسلاح، وعندى أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يأكل فيها؛ لأن ذلك إسقاط للمروءة وهدم للحشمة ؛ ومن الأحاديث الموضوعة[٢] " الأكل فى السوق دناءة " .

قلت : ما ذكرته مشيخة أهل العــلم فنعما هو ؛ فإن ذلك خالٍ عن النظــر إلى النسوان ومخالطتهن؛ إذ ليس بذلك من حاجتهن . وأما غيرهما من الأســواق فمشحونة منهن، وقلة الحياء قد غلبت عليهن،حتى ترى المرأة فى القيساريات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينتها ، وهذا من المنكر الفاشى فى زماننا هذا . نعوذ بالله من سخطه .

السابعـــة — خرّج أبو داود الطيالسيّ فى مسنده حدّثنا حماد بن زيد قال حدّثنا عمرو ابن دينار قهرمان[٣] آل الزبير عن سالم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال : "من دخل سوقا من هذه الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حى لا يموت بيــده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنــه ألفَ ألفِ سيئة وبنى له قصرا فى الجنة " خرّجه الترمذيّ أيضا وزاد بعد " ومحا عنه ألفَ ألفِ سيئة " : "ورفع له ألف ألف درجة وبنى له بيتا فى الجنة ". وقال : هذا حديث غريب. قال ابن العربيّ : وهذا إذا لم يقصد فى تلك البقعة سواه[٤] ليعمرها بالطاعة إذ غمرت بالمعصية، وليحليها بالذكر إذ عطلت بالغفلة، وليعلم الجهلة ويذكر الناسين .

(١) الدرك (يسكن ويحرك): التبعة .　(٢) الحديث رواه الطبرانى عن أبى أمامة والخطيب عن أبى هريرة وضــعفه السيوطى .　(٣) القهرمان : هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل ، بلغة الفرس .　(٤) سواه : أى سوى الله تعالى .

Marfat.com

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ أى إن الدنيا دار بلاء وآمتحان، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم فى جميع الناس مؤمنٍ وكافرٍ، فالصحيح فتنة للريض، والغنى فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغنىّ . ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه ؛ فالغنى ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه . والفقير ممتحن بالغنىّ، عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق؛ كما قال الضحاك فى معنى « أَتَصْبِرُونَ » : أى على الحق . وأصحاب البلايا يقولون: لِمَ لم نعافَ؟ والأعمى يقول: لم لم أجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كل آفة . والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار فى عصره . وكذلك العلماء وحكام العدل . ألا ترى إلى قولهم: « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » . فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى، ويحقر المعافى المبتلى . والصبر : أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذاك عن الضجر . « أَتَصْبِرُونَ » محذوف الجواب، يعنى أم لا تصبرون . فيقتضى جوابا كما قاله المزنى ، وقد أخرجته الفاقة فرأى خصيا فى مراكب ومناكب ، فخطر بباله شىء فسمع من يقرأ الآية « أَتَصْبِرُونَ » فقال : بلى ربنا ! نصبر ونحتسب . وقد تلا آبن القاسم صاحب مالك هذه الآية حين رأى أشهب بن عبد العزيز فى مملكته عابرا عليه ، ثم أجاب نفسه بقوله : سنصبر . وعن أبى الدرداء أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ويل للعالِم من الجاهل وويل للجاهل من العالم وويل للمالك من المملوك وويل للملوك من المالك وويل للشديد من الضعيف وويل للضعيف من الشديد وويل للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان وبعضهم لبعض فتنة وهو قوله « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ »" أسنده الثعلبى تغمده الله برحمته . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل آبن هشام والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، وعقبة بن أبى مُعيط وعُتْبة بن ربيعة والنضر آبن الحرث حين رأوا أبا ذر وعبد الله بن مسعود ، وعمارا وبلالا وصُهيبا وعامر بن فُهَيرة ، وسالما مولى أبى حُذيفة ومِهْجَعا مولى عمر بن الخطاب وجبرا مولى الحَضْرمى، وذويهم ؛ فقالوا على سبيل الاستهزاء : أنسلم فنكون مثل هؤلاء ؟ فأنزل الله تعالى يخاطب هؤلاء

Marfat.com

المؤمنين : «أَتَصْبِرُونَ» على ما ترون من هذه الحال الشديدة والفقر؛ فالتوقيف بـ «أَتَصْبِرُونَ» خاص للمؤمنين المحققين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . كأنه جعل إمهال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للمؤمنين ، أى آختبارا لهم . ولما صبر المسلمون أنزل الله فيهم « إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا » .

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ أى بكل آمرئ و بمن يصبر أو يجزع ، ومن يؤمن ومن لا يؤمن ، و بمن أدّى ما عليه من الحق ومن لا يؤدّى . وقيل : «أَتَصْبِرُونَ» أى آصبروا . مثل «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» أى آنتهوا ؛ فهو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالصبر .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ يريد لا يخافون البعث ولقاء الله ، أى لا يؤمنون بذلك . قال :

إذا لَسَعَتْه النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَهَا　*　وخالَفَها فى بيت نُوبٍ عواملِ (١)

وقيل : « لَا يَرْجُونَ » لا يبالون . قال :

لعمرك ما أرجو إذا كنتُ مُسْلِمًا　*　على أىِّ جَنْبٍ كان فى الله مَصْرَعِى (٢)

آبن شجرة : لا يأملون ؛ قال :

أترجو أُمَّةٌ قتلتْ حسينا　*　شفاعةَ جدّه يومَ الحسابِ

﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ ﴾ أى هلا أنزل . ﴿ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾ فيخبروا أن محمدا صادق . ﴿ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ عيانا فيخبرنا برسالته . نظيره قوله تعالى : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ

---

(١) البيت لأبى ذؤيب وتقدم شرحه فى جـ ٨ ص ٣١١ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) البيت من قصيدة لخبيب بن عدى قالها حين بلغه أن الكفار قد اجتمعوا لصلبه .

Marfat.com

يَنْبُوعًا » إلى قوله « أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا » . قال الله تعالى : ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ حيث سألوا الله الشطط ؛ لأن الملائكة لا ترى إلا عند الموت أو عند نزول العذاب ، والله تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، فلا عين تراه . وقال مقاتل : « عُتُوًّا » علوا فى الأرض . والعتو : أشد الكفر وأفحش الظلم . وإذا لم يكتفوا بالمعجزات وهذا القرآن فكيف يكتفون بالملائكة ؟ وهم لا يميزون بينهم و بين الشياطين، ولا بد لهم من معجزة يقيمها من يدعى أنه مَلَك ، وليس للقوم طلب معجزة بعد أن شاهدوا معجزة، وأن ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ يريد أن الملائكة لا يراها أحد إلا عند الموت ، فتبشر المؤمنين بالجنة، وتضرب المشركين والكفار بمقامع الحديد حتى تخرج أنفسهم . ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ يريد تقول الملائكة حراما محرما أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله إلا الله، وأقام شرائعها ؛ عن ابن عباس وغيره . وقيل : إن ذلك يوم القيامة ؛ قاله مجاهد وعطية العوفي . قال عطية : إذا كان يوم القيامة تلقى المؤمن بالبشرى، فإذا رأى ذلك الكافر تمناه فلم يره من الملائكة . وانتصب « يَوْمَ يَرَوْنَ » بتقدير لا بشرى للمجرمين يوم يرون الملائكة . « يَوْمَئِذٍ » تأكيد لـ « يَوْمَ يَرَوْنَ » . قال النحاس : لا يجوز أن يكون « يَوْمَ يَرَوْنَ » منصوبا بـ « بُشْرَى » لأن ما فى حيز النفى لا يعمل فيما قبله ، ولكن فيه تقدير أن يكون المعنى يمنعون البشارة يوم يرون الملائكة ؛ ودل على هذا الحذف ما بعده . ويجوز أن يكون التقدير : لا بشرى تكون يوم يرون الملائكة، و « يَوْمَئِذٍ » مؤكد . ويجوز أن يكون المعنى : اذكر يوم يرون الملائكة، ثم ابتدأ فقال : « لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا » أى وتقول الملائكة حراما محرما أن تكون لهم البشرى إلا للمؤمنين . قال الشاعر :

أَلَا أَصْبَحَتْ أسماءُ حِجْرًا مُحَرَّمًا * وَأَصْبَحْتُ من أَدْنَى حُمُوَّتِها حَمَا (١)

أراد ألا أصبحت أسماء حراما محرما .

(١) قاله رجل كانت له امرأة فطلقها وتزوجها أخوه ؛ أى أصبحت أخا زوجها بعد ما كنت زوجها .

Marfat.com

وقال آخــر :

حنّت إلى النّخلة القُصْوى فقلتُ لها * حِجْــرٌ حرامٌ ألّا تلكَ الدَّهارِيسُ (١)

وروى عن الحسن أنه قال: «وَيَقُولُونَ حِجْرًا» وقفٌ من قول المجرمين؛ فقال الله عز وجل: «مَحْجُوراً» عليهــم أن يعاذوا أو يجاروا؛ فحجر الله ذلك عليهم يوم القيامــة . والأول قول ابن عبــاس وبه قال الفراء؛ قاله ابن الأنبــارى . وقرأ الحسن وأبو رجاء « حُجْراً » بضم الحــاء والناس على كسرها . وقيل : إن ذلك من قول الكفار قالوه لأنفسهم؛ قاله قتــادة فيما ذكر المــاوردى . وقيل : هو من قول الكفار للملائكة . وهى كلمة استعاذة وكانت معروفة فى الجاهلية؛ فكان إذا لقى الرجل من يخافه قال : حجرا محجورا؛ أى حراما عليك التعرض لى . وانتصابه على معنى: حجرت عليك، أو حجر الله عليك؛ كما تقول: سقيا ورعيا. أى إن المجرمين إذا رأوا الملائكة يلقونهم فى النار قالوا : نعوذ بالله منكم؛ ذكره القشيرى، وحكى معناه المهدوى عن مجاهد . وقيل : « حِجْرًا » من قول المجرمين . « مَحْجُورًا » من قول الملائكة؛ أى قالوا للملائكة نعوذ بالله منكم أن تتعرضوا لنا . فتقول الملائكة : « مَحْجُورًا » أن تعاذوا من شر هذا اليوم؛ قاله الحسن .

قوله تعــالى : وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

قوله تعــالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ﴾ هذا تنبيه على عظم قدر يوم القيامة؛ أى قصــدنا فى ذلك إلى ما كان يعمله المجرمون من عمل بر عند أنفسهم . يقال : قدِم فلان إلى أمر كذا أى قصده . وقال مجاهد : « قَدِمْنَا » أى عمدنا . وقال الراجز :

وقَــدِم الخوارجُ الضُّلالُ * إلى عِباد ربِّهــم فقالوا

* إن دماءكم لنــا حلالُ *

(١) البيت للتلمس؛ والنخلة القصوى : واد . والدهاريس : الدواهى . يقول لناقته : هذا الذى حنت إليه ممنوع . وبعده :

أمى شآمية إذ لا عراق لنــا * قوما نودّهم إذ قومنا شوس

Marfat.com

وقيل : هو قدوم الملائكة، أخبر به عن نفسه تعالى فاعله .(١) ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ أى لا ينتفع به ؛ أى أبطلناه بالكفر . وليس «هَبَاءٌ» من ذوات الهمز وإنما همزت لالتقاء الساكنين . والتصغير هُبَىٌّ فى موضع الرفع، ومن النحويين من يقول : هُبَيٌّ(٢) فى موضع الرفع؛ حكاه النحاس . وواحده هباة والجمع أهباء . قال الحرث بن حِلِّزة يصف [ناقة] :

فَتَرَى خَلْفَهَا من الرَّجْع والوَقْـ * ـع مَنِينًا كأنه أهباء(٣)

وروى الحرث عن على قال : الهباء المنثور شعاع الشمس الذى يدخل من الكوّة . وقال الأزهرى : الهباء ما يخرج من الكوّة فى ضوء الشمس شبيه بالغبار . تأويله : إن الله تعالى أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور . فأما الهباء المنبث فهو ما تثيره الخيل بسنابكها من الغبار . والمنبث المتفرق . وقال ابن عرفة : الهَبوة والهَباء التراب الدقيق . الجوهرى : ويقال له إذا ارتفع هَبَا يَهْبُو هُبُوًّا وأهبيته أنا . والهَبْوة الغَبَرة . قال رؤبة :

تَبْدُو لنا أَعْلَامُهُ بعد الغَرَقْ * فى قِطَعِ الآلِ وهَبَوَاتِ الدُّقَقْ(٤)

وموضعٌ هابِى التراب أى كأن ترابه مثل الهباء فى الرقة . وقيل : إنه ما ذرته الرياح من يابس أوراق الشجر؛ قاله قتادة وابن عباس . وقال ابن عباس أيضا : إنه الماء المهراق . وقيل : إنه الرماد؛ قاله عبيد(٥) بن يعلى .

قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ .

تقدم القول فيه عند قوله تعالى : « قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ »(٦) . قال النحاس : والكوفيون يجيزون «العسل أحلى من الخل» وهذا قول مردود؛ لأن معنى فلان خير من فلان أنه أكثر خيرا منه ولا حلاوة فى الخل . ولا يجوز أن يقال : النصرانى خير من اليهودى؛ لأنه لا خير فيهما فيكون أحدهما أزيد فى الخير . لكن يقال : اليهودى شر

(١) كذا فى الأصل ؛ وعبارة ابن عطية : « أسنده إليه لأنه عن أمره » .
(٢) قال النحاس : والتقدير عنده هبى .
(٣) قوله «خلفها» أى خلف الناقة . والرجع : رجع قوائمها . والوقع : وقع خفافها . والمنين : الغبار الدقيق الذى تثيره .
(٤) الدقق : ما دق من التراب ، والواحد منه الدق كما تقول الجلى والجلل .
(٥) كذا فى الأصل ؛ وفى « روح المعانى » : يعلى بن عبيد .
(٦) راجع ص ٩ من هذا الجزء .

Marfat.com

من النصرانى؛ فعلى هذا كلام العرب . و « مُسْتَقَرًّا » نصب على الظرف إذا قدر على غير باب « أفعل منك » والمعنى لهم خير فى مستقر . و إذا كان من باب « أفعل منك » فانتصابه على البيان؛ قاله النحاس والمهدوى . قال قتادة : « وأحسن مقيلا » منزلا ومأوى . وقيل : هو على ما تعرفه العرب من مقيل نصف النهار . ومنه الحديث المرفوع " إن الله تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق فى مقدار نصف يوم فيَقِيلُ أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار" ذكره المهدوى . وقال ابن مسعود : لا ينتصف النهار يوم القيامة من نهار الدنيا حتى يقيل هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار، ثم قرأ « ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم » كذا هى فى قراءة ابن مسعود. وقال ابن عباس : الحساب من ذلك اليوم فى أوله ، فلا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار . ومنه ما روى " قِيلُوا فإن الشياطين لا تَقِيل " . وذكر قاسم ابن أصبغ من حديث أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة " فقلت : ما أطول هذا اليوم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا " .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾ أى واذكر يوم تشقق السماء بالغمام . وقرأه عاصم والأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وأبو عمرو « تَشَقَّقُ » بتخفيف الشين وأصله تتشقق بتاءين فحذفوا الأولى تخفيفا ، واختاره أبو عبيد . الباقون « تَشَّقَّقُ » بتشديد الشين على الإدغام ، واختاره أبو حاتم . وكذلك فى « ق »[1] . « بِالْغَمَامِ » أى عن الغمام . والباء وعن يتعاقبان ؛ كما تقول : رميت بالقوس وعن القوس . روى أن السماء تتشقق عن سحاب

(١) فى قوله تعالى : « يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ... » آية ٤٤

Marfat.com

أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم فتنشق السماء عنه؛ وهو الذي قال تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ » . ﴿ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ ﴾ من السموات ، ويأتي الرب جل وعز في الثمانية الذين يحملون العرش لفصل القضاء ، على ما يجوز أن يحمل عليه إتيانه؛ لا على ما تحمل عليه صفات المخلوقين من الحركة والانتقال . وقال ابن عباس : تتشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس ، ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممن في سماء الدنيا ، ثم كذلك حتى تنشق السماء السابعة ، ثم ينزل الكروبيون (١) وحملة العرش ؛ وهو معنى قوله : « وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » أي من السماء إلى الأرض لحساب الثقلين . وقيل : إن السماء تنشق بالغمام الذي بينها وبين الناس ؛ فبتشقق الغمام تتشقق السماء ، فإذا انشقت السماء انتقض تركيبها وطويت ونزلت الملائكة إلى مكان سواها . وقرأ ابن كثير « وَنُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ » بالنصب من الإنزال . الباقون « وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ » بالرفع . دليله « تَنْزِيلًا » ولو كان على الأول لقال إنزالا . وقد قيل : إن نَزَّل وأنزل بمعنى ؛ فجاء « تنزيلا » على « نَزَّل » وقد قرأ عبد الوهاب عن أبي عمرو « وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » . وقرأ ابن مسعود « وَأَنْزَلَ الْمَلَائِكَةَ » . أبيّ بن كعب : « وَنُزِّلَتِ الْمَلَائِكَةُ » . وعنه « وتنزلت الْمَلَائِكَةُ » .

قوله تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ « الملك » مبتدأ و « الحق » صفة له و « لِلرَّحْمَٰنِ » الخبر ؛ لأن الملك الذي يزول وينقطع ليس بملك ؛ فبطلت يومئذ أملاك المالكين وانقطعت دعاويهم ، وزال كل ملك وملكه ، وبقي الملك الحق لله وحده . ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ أي لما ينالهم من الأهوال ويلحقهم من الخزي والهوان ، وهو على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة ؛ على ما تقدم في الحديث. وهذه الآية دالة عليه ؛ لأنه إذا كان على الكافرين عسيرا فهو على المؤمنين يسير . يقال : عَسِر يَعْسَر ، وعَسُر يَعْسُر .

---

(١) الكروبيون (بفتح الكاف) : سادة الملائكة ، منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل هم المقربون . والكرب القرب .

Marfat.com

قوله تعـالى : وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ المـاضى عضضت . وحكى الكسائىّ عضَضت بفتح الضاد الأولى . وجاء التوقيف عن أهل التفسير، منهـم آبن عباس وسعيد آبن المسيب أن الظالم ها هنا يراد به عقبـة بن أبى مُعيط، وأن خليله أمية بن خلف؛ فعقبة قتـله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ؛ وذلك أنه كان فى الأسـارى يوم بدر فأمر النبىّ صلى الله عليه وسـلم بقتله؛ فقال : أأقتل دونهم ؟ فقال . نعم، بكفرك وعتوّك . فقـال : من للصبية ؟ فقال : النار . فقام علىّ رضى الله عنه فقتله . وأمية قتله النبى صلى الله عليه وسلم، فكان هذا من دلائل نبوّة النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه خبّر عنهما بهذا فقتلا على الكفر . ولم يسميا فى الآية لأنه أبلغ فى الفائدة ، ليعلم أن هذا سبيل كل ظالم قَبِل من غيره فى معصية الله عز وجل . قال آبن عبـاس وقتادة وغيرهما : وكان عقبة قـد همّ بالإسـلام فمنعه منه أبىّ بن خلف وكانا خِدنين ، وأن النبى صـلى الله عليه وسلم قتلهما جميعا : قُتل عقبة يوم بدر صـبرا ، وأبىّ بن خلف فى المبـارزة يوم أحد ؛ ذكره القشيرىّ والثعلبىّ ، والأوّل ذكره النحاس . وقال السهيلىّ : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » هو عقبـة بن أبى معيط ، وكان صـديقا لأمية بن خلف الجمحىّ ويروى لأبى بن خلف أخ أمية ، وكان قـد صنع وليمـة فدعا إليهـا قريشا ، ودعا رسـول الله صلى الله عليه وسـلم فأبى أن يأتيه إلا أن يسلم . وكره عقبـة أن يتأخر عن طعامه من أشراف قريش أحد فأسـلم ونطق بالشهادتين ، فأتاه رسول الله صلى الله عليـه وسلم وأكل من طعامه ؛ فعاتبه خليله أميـة بن خلف ، أو أبىّ بن خلف وكان غائبا . فقال عقبـة : رأيت عظيما ألا يحضر طعامى رجل من أشراف قريش . فقال له خليله : لا أرضى حتى ترجع وتبصق فى وجهه وتطأ عنقه وتقول كيت وكيت . ففعل

Marfat.com

عدو الله ما أمره به خليله ؛ فأنزل الله عز وجل : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » . قال الضحاك : لما بصق عقبة فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع بصاقه فى وجهه وشوى وجهه وشفتيه ، حتى أثر فى وجهه وأحرق خديه ، فلم يزل أثر ذلك فى وجهه حتى قتل . وعضه يديه فعل النادم الحزين لأجل طاعته خليله . ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ فى الدنيا ، يعنى طريقا إلى الجنة . ﴿ يَا وَيْلَتَا ﴾ دعاء بالويل والثبور على محالفة الكافر ومتابعته . ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً ﴾ يعنى أمية ، وكنى عنه ولم يصرح بآسمه لئلا يكون هذا الوعد مخصوصا به ولا مقصورا ، بل يتناول جميع من فعل مثل فعلهما . وقال مجاهد وأبو رجاء : الظالم عام فى كل ظالم ، وفلان : الشيطان . وآحتج لصاحب هذا القول بأن بعده « وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً » . وقرأ الحسن « يَا وَيْلَتِي » وقد مضى فى « هود »(١) بيانه . والخليل : الصاحب والصديق وقد مضى فى « النساء »(٢) بيانه . ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ أى يقول هذا النادم : لقد أضلنى من آتخذته فى الدنيا خليلا عن القرآن والإيمان به . وقيل : « عَنِ الذِّكْرِ » أى عن الرسول . ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ قيل : هذا من قول الله لا من قول الظالم . وتمام الكلام على هذا عند قوله : « بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي » . والخذل الترك من الإعانة ؛ ومنه خذلان إبليس للشركين لما ظهر لهم فى صورة سراقة بن مالك ، فلما رأى الملائكة تبرأ منهم . وكل من صدّ عن سبيل الله وأطيع فى معصية الله فهو شيطان للإنسان ، خذولا عند نزول العذاب والبلاء . ولقد أحسن من قال :

تَجَنَّبْ قرينَ السُّوءِ وآصرِمْ حبالَه * فإن لم تجد عنه محيصًا فداره
وأحبب حبيب الصدق وآحذر مراءه * تنل منه صفو الود مالم تماره
وفى الشيب ما ينهى الحليم عن الصِّبا * إذا آشتعلت نيرانه فى عذاره

آخر :

أصحب خيار الناس حيث لقيتهم * خير الصحابة من يكون عفيفا
والناس مثل دراهم ميزتها * فوجدت منها فضة وزيوفا

(١) راجع جـ ٩ ص ٦٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٥ ص ٤٠٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

وفى الصحيح من حديث أبى موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يُحذيك(١) و إما أن تبتاع منه وإمّا أن تجد ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك و إما أن تجد ريحا خبيثة " لفظ مسلم . وأخرجه أبو داود من حديث أنس . وذكر أبو بكر البزّار عن آبن عباس قال : قيل يا رسول الله ؛ أى جلسائنا خير ؟ قال : " من ذكركم بالله رؤيته وزاد فى علمكم منطقه وذكركم بالآخرة عمله " . وقال مالك بن دينار : إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص(٢) مع الفجار . وأنشد :

وصاحب خيار الناس تنج مسلّما * وصاحب شرار الناس يوما فتندما

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ ﴾ يريد محمدا صلى الله عليه وسلم، يشكوهم إلى الله تعالى . ﴿ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ أى قالوا فيه غير الحق من أنه سحر وشعر؛ عن مجاهد والنخعيّ . وقيل : معنى « مَهْجُورًا » أى متروكا؛ فعزّاه الله تبارك وتعالى وسلّاه بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى كما جعلنا لك يا محمد عدوا من مشركى قومك — وهو أبو جهل فى قول آبن عباس — فكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من مشركى قومه ، فآصبر لأمرى كما صبروا ، فإنى هاديك وناصرك على كل من ناوأك . وقد قيل : إن قول الرسول « يا رَبِّ » إنما يقوله يوم القيامة؛ أى هجروا القرآن وهجرونى وكذبونى . وقال أنس قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من(٣) تعلّم القرآن وعلّق مصحفه لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء

(١) أحذاه : أعطاه .   (٢) الخبيص : حلواء تعمل من التمر والسمن .   (٣) فى الأصل : « من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفا ... » وتصحيح هذا الأثر من روح المعانى والبيضاوى والشهاب على أنهم تكلموا فى صحته إذ فى سنده أبو هدبة وهو كذاب .

Marfat.com

يوم القيامة متعلقا به يقول يارب العالمين إن عبدك هذا آتخذنى مهجورا فآقض بينى و بينه". ذكره الثعلبي . ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ نصب على الحال أو التمييز، أى يهديك وينصرك فلا تبال بمن عاداك . وقال آبن عباس : عدوّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أبو جهل لعنه الله .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ آختلف فى قائل ذلك على قولين : أحدهما — أنهم كفار قريش؛ قاله آبن عباس . الثانى — أنهم اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقا قالوا : هلا أنزل عليه جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور [على داود][(1)] . فقال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى فعلنا ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ نقوى به قلبك فتعيه وتحمله ؛ لأن الكتب المتقدّمة أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرءون ، والقرآن أنزل على نبيّ أميّ؛ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففرّقناه ليكون أوعى للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وأيسر على العامل به؛ فكان كلما نزل وحى جديد زاده قوة قلب .

قلت : فإن قيل هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه إذ كان ذلك فى قدرته؟ . قيل : فى قدرة الله أن يعلمه الكتاب والقرآن فى لحظة واحدة، ولكنه لم يفعل ولا معترض عليه فى حكمه، وقد بينا وجه الحكمة فى ذلك . وقد قيل : إن قوله « كَذَٰلِكَ » من كلام المشركين، أى لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك، أى كالتوراة والإنجيل، فيتم الوقف على « كَذَٰلِكَ » ثم يبتدئ « لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » . ويجوز أن يكون الوقف على قوله : « جُمْلَةً وَاحِدَةً » ثم يبتدئ « كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » على معنى أنزلناه عليك كذلك متفرقا لنثبت به فؤادك . قال

(1) زيادة يقتضيها المقام .

Marfat.com

ابن الأنباري : والوجه الأول أجود وأحسن ، والقول الثاني قد جاء به التفسير، حدّثنا محمد ابن عثمان الشيبي قال حدّثنا منجاب قال حدّثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » قال : أنزل القرآن جملة واحدة من عند الله عز وجل في اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء، فنجمه السفرة الكرام على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل عليه السلام على محمد عشرين سنة . قال : فهو قوله « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ » يعني نجوم القرآن « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . قال : فلما لم ينزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ، قال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ؛ فقال الله تبارك وتعالى: « كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » يا محمد . ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ يقول : ورسّلناه ترسيلا؛ يقول : شيئا بعد شيء .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ يقول : لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة ثم سألوك لم يكن عندك ما تجيب به ، ولكن نمسك عليك فإذا سألوك أجبت . قال النحاس : وكان ذلك من علامات النبوة؛ لأنهم لا يسألون عن شيء إلا أجيبوا عنه ، وهذا لا يكون إلا من نبيّ ، فكان ذلك تثبيتا لفؤاده وأفئدتهم ، ويدل على هذا « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » ولو نزل جملة بما فيه من الفرائض لثقل عليهم، وعلم الله عز وجل أن الصلاح في إنزاله متفرقا، لأنهم ينبهون به مرة بعد مرة، ولو نزل جملة واحدة لزال معنى التنبيه وفيه ناسخ ومنسوخ، فكانوا يتعبدون بالشيء إلى وقت بعينه قد علم الله عز وجل فيه الصلاح، ثم ينزل النسخ بعد ذلك ؛ فمحال أن ينزل جملة واحدة : افعلوا كذا ولا تفعلوا . قال النحاس : والأولى أن يكون التمام « جُمْلَةً وَاحِدَةً » لإنه إذا وقف على « كَذَلِكَ » صار المعنى كالتوراة والإنجيل والزبور ولم يتقدم لها ذكر . قال الضحاك : « وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » أى تفصيلا . والمعنى : أحسن من مثلهم تفصيلا، فحذف لعلم السامع . وقيل : كان المشركون يستمدّون من أهل الكتاب وكان قد غلب على أهل الكتاب التحريف

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

والتبديل، فكان ما يأتى به النبيّ صلى الله عليه وسلم أحسن تفسيرا مما عندهم ؛ لأنهم كانوا يخلطون الحق بالباطل ، والحق المحض أحسن من حق مختلط بباطل ، ولهذا قال تعالى : « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » . وقيل : « لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ » كقولهم فى صفة عيسى إنه خلق من غير أب . ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أى بما فيه نقض حجتهم كآدم إذ خلق من غير أب وأم.

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ تقدم فى « سبحان »(١) . ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ لأنهم فى جهنم . وقال مقاتل : قال الكفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هو شر الخلق؛ فنزلت الآية . ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أى دينا وطريقا . ونظم الآية : ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق، وأنت منصور عليهم بالحجج الواضحة، وهم محشورون على وجوههم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يريد التوراة . ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ تقدم فى « طه »(١) ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا﴾ الخطاب لهما . وقيل : إنما أمر موسى صلى الله عليه وسلم بالذهاب وحده فى المعنى . وهذا بمنزلة قوله : « نَسِيَا حُوتَهُمَا » . وقوله : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » وإنما يخرج من أحدهما . قال النحاس : وهذا مما لا ينبغى أن يجترأ به على كتاب الله تعالى، وقد قال جل وعز : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى . قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى . قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى . فَأْتِيَاهُ فَقُولَا

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ » . ونظيرهذا « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » . وقد قال جل ثناؤه « ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِآيَاتِنَا» قال القشيرى : وقوله فى موضع آخر : « ٱذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى » لاينافى هذا؛ لأنهما إذا كان مأمورين فكل واحد مأمور. ويجوز أن يقال : أمر موسى أولا ، ثم لمـا قال « وَٱجْعَـلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي » قال « ٱذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ » . ﴿ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ يريد فرعون وهامان والقبط . ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ ﴾ فى الكلام إضمار ؛ أى فكذبوهما ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً ﴾ أى أهلكناهم إهلاكا .

قوله تعـالى : وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا ٱلرُّسُـلَ أَغْرَقْنَـٰهُـمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ فى نصب « قوم » أربعة أقوال : العطف على الهاء والميم فى « دَمَّرْنَاهُم » . الثانى — بمعنى اذكر . الثالث — بإضمار فعل يفسره ما بعده ؛ والتقدير : وأغرقنا قوم نوح أغرقناهم . الرابع — أنه منصوب بـ « أغرقناهم » قاله الفـراء . ورده النحاس قال : لأن « أغرقنا » ليس ممـا يتعدّى إلى مفعولين فيعمل فى المضمر وفى « قَوْمَ نُوحٍ » . ﴿ لَمَّـا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴾ ذكر الجنس والمراد نوح وحده؛ لأنه لم يكن فى ذلك الوقت رسول إليهم إلا نوح وحده؛ فنوح إنمـا بعث بلا إله إلا الله ، و بالإيمـان بمـا ينزل الله ، فلما كذبوه كان فى ذلك تكذيب لكل من بعث بعده بهذه الكلمة . وقيل : إن من كذب رسولا فقد كذب جميع الرسل؛ لأنهم لا يفرق بينهم فى الإيمـان ، ولأنه ما من نبيّ إلا يصدق سائر أنبيـاء الله ، فمن كذب منهم نبيا فقـد كذب كل من صـدّقه من النبيين . ﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ أى بالطوفـان ، على ما تقدّم فى « هود » . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ أى علامة ظاهرة على قدرتنا ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى المشركين من قوم نوح ﴿ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أى فى الآخرة . وقيل : أى هذه سبيلى فى كل ظالم .

قوله تعـالى : وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ كله معطوف على « قَوْمَ نُوحٍ » إذا كان « قوم نوح » منصوبا على العطف ، أو بمعنى آذكر . ويجوز أن يكون كله منصوبا على أنه معطوف على المضمر فى « دَمَّرْنَاهُمْ » أو على المضمر فى « جَعَلْنَاهُمْ » وهو آختيار النحاس ؛ لأنه أقرب إليه . ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار فعل ؛ أى آذكر عادا الذين كذبوا هودا فأهلكهم الله بالريح العقيم ، وثمودا كذبوا صالحا فأهلكوا بالرجفة . و﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾ والرس فى كلام العرب البئر التى تكون غير مطوية ، والجمع رِساس . قال[1] :

* تنابلة يحفرون الرِّساسا *

يعنى آبار المعادن . قال آبن عباس : سألت كعبا عن أصحاب الرس قال : صاحب «يس» الذى قال : « يَاقَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ » قتله قومه ورَسُّوه فى بئر لهم يقال له الرس طرحوه فيها ، وكذا قال مقاتل . السدى : هم أصحاب قصة «يس» أهل أنطاكية ، والرس بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار مؤمن آل «يس» فنسبوا إليها . وقال علىّ رضى الله عنه : هم قوم كانوا يعبدون شجرة صنوبر فدعا عليهم نبيهم ؛ وكان من ولد يهوذا ، فيبست الشجرة فقتلوه ورَسُّوه فى بئر ، فأظلتهم سحابة سوداء فأحرقتهم . وقال آبن عباس : هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياء فجفت أشجارهم وزروعهم فماتوا جوعا وعطشا . وقال وهب بن منبه : كانوا أهل بئر يقعدون عليها وأصحاب مواشى ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم شعيبا فكذبوه وآذوه ، وتمادوا على كفرهم وطغيانهم ، فبينما هم حول البئر فى منازلهم آنهارت بهم و بديارهم ؛ خسف الله بهم فهلكوا جميعا . وقال قتادة : أصحاب الرس وأصحاب الأيكة أمتان أرسل الله إليهما شعيبا فكذبوه فعذبهما الله بعذابين : قال قتادة : والرس قرية بفَلْج اليمامة . وقال عكرمة : هم قوم رَسُّوا نبيهم فى بئر حيا . دليله ما روى محمد بن كعب القرظىّ عمن حدّثه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة عبد أسود وذلك أن الله تعالى بعث نبيا إلى قومه فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود فحفر أهل القرية بئرا وألقوا فيه نبيهم حيا وأطبقوا عليه حجرا ضخما

(١) هو النابغة الجعدى .

Marfat.com

وكان العبد الأسود يحتطب على ظهره ويبيعه ويأتيه بطعامه وشرابه فيعينه الله على رفع تلك الصخرة حتى يدليه إليه فبينما هو يحتطب إذ نام فضرب الله على أذنه سبع سنين نائما ثم هبّ من نومه فتمطى واتكأ على شقه الآخر فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم هبّ فآحتمل حُزمة الحطب فباعها وأتى بطعامه وشرابه إلى البئر فلم يجده وكان قومه قد أراهم الله آية فاستخرجوه وآمنوا به وصدّقوه ومات ذلك النبي". قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن ذلك العبد الأسود لأول من يدخل الجنة" وذكر هذا الخبر المهدوى والثعلبي، واللفظ للثعلبي، وقال : هؤلاء آمنوا بنبيهم فلا يجوز أن يكونوا أصحاب الرس ؛ لأن الله تعالى أخبر عن أصحـاب الرس أنه دمرهم ، إلا أن يدمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم . وقال الكلبي : أصحاب الرس قوم أرسل الله إليهم نبيا فأكلوه . وهم أول من عمل نساؤهم السَّحْق؛ ذكره المـاوردى . وقيل : هم أصحاب الأخدود الذين حفروا الأخاديد وحرّقوا فيها المؤمنين، وسيأتى. وقيل : هم بقايا من قوم ثمود، وأن الرّس البئر المذكورة فى «الحج» فى قوله : « وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ » على ما تقدم(١) . وفى الصحاح : والرس آسم بئر كانت لبقية من ثمود. وقال جعفر بن محمد عن أبيه : أصحاب الرس قوم كانوا يستحسنون لنسائهم السَّحْق، وكان نساؤهم كلهم سحاقات . وروى من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن من أشراط الساعة أن يكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السَّحْق" وقيل : الرس ماء ونخل لبنى أسـد . وقيل : الثلج المتراكم فى الجبـال ؛ ذكره القشـيرى . وما ذكرناه أولا هو المعروف ، وهو كل حفر آحتفِر كالقبر والمعدن والبئر . قال أبو عبيدة : الرس كل ركيّة لم تطو ؛ وجمعها رِساس . قال الشاعر :

وهم سائرون إلى أرضهــم * فياليـــتهم يحفرون الرِّساسا

والرّسّ آسم واد فى قول زهير :

بَكَرْنَ بُكُورًا وآسْتَحَرْنَ بِسُـحْرةٍ * فهـنّ لوادى الرَّسِّ كاليـدِ للفمِ

ورسست رسًّا : حفرت بئرا. ورُسَّ الميتُ أى قُبِر. والرّس : الإصلاح بين الناس، والإفساد أيضا وقد رَسَسْتُ بينهم؛ فهو من الأضداد. وقد قيل فى أصحاب الرس غير ما ذكرنا، ذكره

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٥ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

الثعلبي وغيره . ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ أي أمما لا يعلمهم إلا الله بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس . وعن الربيع بن خيثم آشتكى فقيل له : ألا نتداوى فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر به؟ قال : لقد هممت بذلك ثم فكرت فيما بيني و بين نفسي فإذا عاد وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا كانوا أكثر وأشد حرصا على جمع المال ، فكان فيهم أطباء، فلا الناعت منهم بقي ولا المنعوت ؛ فأبى أن يتداوى فما مكث إلا خمسة أيام حتى مات، رحمه الله .

قوله تعالى : وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ﴾ قال الزجاج . أي وأنذرنا كلا ضربنا له الأمثال و بينا لهم الحجة ، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة . وقيل : آنتصب على تقدير ذكرنا كلا ونحوه؛ لأن ضرب الأمثال تذكير ووعظ؛ ذكره المهدوي . والمعنى واحد . ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ أي أهلكنا بالعذاب . وتبرت الشيء كسرته . وقال المؤرج والأخفش : دمرناهم تدميرا . تبدل التاء والباء من الدال والميم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ ﴾ يعني مشركي مكة . والقرية قرية قوم لوط . و﴿ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ الحجارة التي أمطروا بها . ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ أي في أسفارهم ليعتبروا . قال آبن عباس : كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كما قال الله تعالى : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ » وقال : « وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ » وقد تقدم [(١)] . ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ أي لا يصدقون بالبعث . ويجوز أن يكون معنى « يَرْجُونَ » يخافون . ويجوز أن يكون على بابه ويكون معناه : بل كانوا لا يرجون ثواب الآخرة .

(١) جـ ١٠ ص ٤٥ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ جواب « إذا » « إن يتخذونك » لأن معناه يتخـذونك . وقيل : الجواب محذوف وهو قالوا أو يقولون : « أَهَـٰذَا الَّذِى » وقوله : « إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا » كلام معترض . ونزلت فى أبى جهل كان يقول للنبي صلى الله عليه وسـلم مستهزئا : ﴿ أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُـولًا ﴾ والعائد محذوف ، أى بعثه الله . « رَسُولًا » نصب على الحال والتقدير : أهذا الذى بعثه الله مرسلا . « أَهَذَا » رفع بالابتداء و « الَّذِى » خبره . « رَسُولًا » نصب على الحال . و « بَعَثَ » فى صلة « الَّذِى » واسم الله عز وجل رفع بـ « بَعَثَ » . ويجوز أن يكون مصدرا ؛ لأن معنى « بَعَثَ » أرسل ويكون معنى « رَسُولًا » رسالة على هذا . والألف للاستفهام على معنى التقرير والاحتقار . ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾ أى قالوا قد كاد أن يصرفنا . ﴿ عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ أى حبسنا أنفسنا على عبادتها . قال الله تعالى : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَـذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ يريد من أضل دينا أهم أم محمد ، وقد رأوه فى يوم بدر .

قوله تعالى : أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ عجّب نبيه صلى الله عليه وسلم من إضمارهم على الشرك وإصرارهم عليه مع إقرارهم بأنه خالقهم ورازقهم ، ثم يعمد إلى حجر يعبده من غير حجة . قال الكلبي وغيره : كانت العرب إذا هوِى الرجل منهم شيئا عبده من دون الله ، فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبد الأحسن ؛ فعلى هـذا يعنى : أرأيت من اتخذ إلهه بهواه ؛ فحذف الجـار . وقال ابن عباس : الهوى إله يعبد من دون الله ، ثم تلا هـذه الآية .

Marfat.com

قال الشاعر :

لعمر أبيها لو تبدّت لناسك * قد آعتزل الدنيا بإحدى المناسك
لَصلَّى لها قبل الصلاة لربه * ولا آرتد فى الدنيا بأعمال فاتك

وقيل : « آتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ » أى أطاع هواه . وعن الحسن لا يهوى شيئا إلا آتبعه ، والمعنى واحد . ﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ أى حفيظا وكفيلا حتى تردّه إلى الإيمان وتخرجه من هذا الفساد . أى ليست الهداية والضلالة موكولتين إلى مشيئتك ، و إنما عليك التبليغ . وهذا رد على القدرية . ثم قيل إنها منسوخة بآية القتال . وقيل لم تنسخ ؛ لأن الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ ولم يقل أنهم لأن منهم من قد علم أنه يؤمن . وذمهم جل وعز بهذا . « أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ » سماع قبول أو يفكرون فيما تقول فيعقلونه ؛ أى هم بمنزلة من لا يعقل ولا يسمع . وقيل : المعنى أنهم لما لم ينتفعوا بما يسمعون فكأنهم لم يسمعوا ؛ والمراد أهل مكة . وقيل : « أَمْ » بمعنى بل فى مثل هذا الموضع . ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ﴾ أى فى الأكل والشرب لا يفكرون فى الآخرة . ﴿ بل [illegible] ضَلُّ ﴾ إذ لا حساب ولا عقاب على الأنعام . وقال مقاتل : البهائم تعرف ربها وتهتدى إلى مراعيها وتنقاد لأربابها التى تعقلها ، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربهم الذى خلقهم و رزقهم . وقيل : لأن البهائم إن لم تعقل صحة التوحيد والنبوّة لم تعتقد بطلان ذلك أيضا .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين ، ويجوز أن تكون من العلم . وقال الحسن وقتادة وغيرهما : مدّ الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وقيـل : هو من غيوبة الشمس إلى طلوعها . والأول أصح؛ والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة ؛ فإن فيهـا يجد المريض راحة والمسافر وكل ذى علة، وفيهـا ترد نفوس الأموات والأرواح منهـم إلى الأجساد ، وتطيب نفوس الأحياء فيها . وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب . وقال أبو العالية : نهار الجنة هكذا؛ وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر . أبو عبيدة : الظل بالغـداة والفيء بالعشى ؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس؛ سمى فيئا لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب . قال الشاعر، وهو حميد بن ثور يصف سرحة(١) وكنى بها عن آمرأة :

فلا الظِّلُّ من بَرْدِ الضُّحَا تَسْتَطِيعُهُ * ولا الْـفَيْءُ من بَرْدِ العشِيّ تـذُوقُ

وقال آبن السكيت : الظل ما نسخته الشمس والفيء ما نسـخ الشمس . وحكى أبو عبيدة عن رؤبة قال: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظـل . ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ أى دائمـا مستقرا لا تنسخه الشمس . آبن عباس : يريد إلى يوم القيامة، وقيل : المعنى لو شاء لمنع الشمس الطلوع . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ أى جعلنا الشمس بنسخها الظل عنـد مجيئها دالة على أن الظل شيء ومعنى ؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها ولولا الشمس ما عرف الظل ، ولولا النـور ما عرفت الظلمة . فالدليل فعيل بمعنى الفاعل. وقيل بمعنى المفعول كالقتيل والدهين والخضيب . أى دللنا الشمس على الظل حتى ذهبت به ؛ أى أتبعناها إياه . فالشمس دليل أى حجة و برهان ، وهو الذى يكشف المشكل و يوضحه . ولم يؤنث الدليل وهو صفة الشمس لأنه فى معنى الاسم ؛ كما يقال: الشمس برهان والشمس حق . ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ ﴾ يريد ذلك الظل الممدود . ﴿ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أى يسيرا قبضه علينا . وكل أمر ربنا عليه يسير . فالظل مكثه فى هـذا الجو بمقدار طلوع

(١) السرحة : واحدة السرح ؛ وهو شجر كبار عظام لا ترعى و إنما يستظل فيه .

Marfat.com

الفجر إلى طلوع الشمس ، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضا ، وخلفه فى هـذا الجو شعاع الشمس فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها، فإذا غربت فليس هناك ظل، إنمـا ذلك بقيـة نور النهار . وقال قوم : قبضه بغروب الشمس؛ لأنهـا ما لم تغرب فالظل فيه بقية، وإنمـا يتم زواله بمجىء الليل ودخول الظلمة عليه . وقيل : إن هذا القبض وقع بالشمس ؛ لأنها إذا طلعت أخذ الظل فى الذهاب شيئا فشيئا ؛ قاله أبو مالك وإبراهيم التيمى . وقيل : « ثُمَّ قَبَضْنَاهُ » أى قبضنا ضياء الشمس بالفىء « قَبْضًا يَسِيرًا » . وقيـل « يَسِيرًا » أى سريعا ؛ قاله الضحاك . قتادة : خفيا ؛ أى إذا غابت الشمس قبض الظل قبضا خفيا ؛ كلمـا قُبض جزءٌ منه جُعل مكانه جزءٌ من الظلمة، وليس يزول دفعة واحدة . فهـذا معنى قول قتادة، وهو قول مجاهد .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

فيـه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِبَاسًا﴾ يعنى سترا للخلق يقوم مقام اللباس فى ستر البدن . قال الطبرى : وصف الليل باللباس تشبيها من حيث يستر الأشياء ويغشاها .

الثانيـة — قال ٱبن العربى : ظن بعض الغفلة أن من صلى عريانا فى الظـلام أنه يجزئه ؛ لأن الليل لباس . وهذا يوجب أن يصلى فى بيته عريانا إذا أغلق عليه بابه . والستر فى [الصلاة][1] عبادة تختص بها ليست لأجل نظر الناس . ولا حاجة إلى الإطناب فى هـذا .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أى راحة لأبدانكم بٱنقطاعكم عن الأشغال . وأصل السبات من التمدد . يقال : سبتت المرأة شعرها أى نقضته وأرسلته . ورجل مسبوت أى ممدود الخلقة . وقيل للنوم سـبات لأنه بالتمدد يكون، وفى التمدد معنى الراحة . وقيل :

(١) فى الأصول : « فى الظلام » . والتصويب من « أحكام القرآن لابن العربى » .

Marfat.com

السبت القطع ؛ فالنوم ٱنقطاع عن الآشتغال؛ ومنـه سبت اليهود لآنقطاعهم عن الأعمال فيه . وقيـل : السبت الإقامة فى المكان؛ فكأن السبات سكون ما وثبوت عليـه ؛ فالنوم سبات على معنى أنه سكون عن الآضطراب والحركة . وقال الخليل : السبات نوم ثقيل ؛ أى جعلنا نومكم ثقيلا ليكمل الإجمام والراحة .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ من الآنتشار للعاش ؛ أى النهار سبب الإحياء للآنتشار . شبه اليقظة فيه بتطابق الإحياء مع الإماتة . وكان عليه السلام إذا أصبح قال : " الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور " .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ نُشُرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ تقدم فى «الأعراف»[(١)] مســـتوفى .

قولهُ تعـالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ .

فيـــه خمس عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعـالى : « مَاءً طَهُورًا » يتطهر به ؛ كما يقال : وضوء للمـاء الذى يتوضأ به . وكل طهور طاهر وليس كل طاهر طهورا . فالطَّهور (بفتح الطاء) الاسم . وكذلك الوضوء والوقود . و بالضم المصدر ، وهـذا هو المعروف فى اللغة ؛ قاله ٱبن الأنبارى . فبين أن المـاء المنزل من السماء طاهر فى نفسه مطهر لغيره ؛ فإن الطهور بنـاء مبالغة فى طاهر ، وهـذه المبالغة ٱقتضت أن يكون طاهرا مطهرا . وإلى هـذا ذهب الجمهور . وقيل : إن « طَهُورًا » بمعنى طاهر ؛ وهو قول أبى حنيفة ؛ وتعلق بقوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » يعنى طاهرا .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢٨ و « نشرا » بالنون قراءة نافع .

Marfat.com

وبقول الشاعر :

خليليّ هل فى نظرة بعد توبة * أداوى بها قلبي عليّ فجُورُ
إلى رُجَّحِ الأكفالِ غِيدٍ من الظِّبا (١) * عِذاب الثنايا رِيقُهنَّ طَهُورُ

فوصف الريق بأنه طهور وليس بمطهر . وتقول العرب : رجل نؤوم وليس ذلك بمعنى أنه منيم لغيره، وإنما يرجع ذلك إلى فعل نفسه . ولقد أجاب علماؤنا عن هذا فقالوا : وصف شراب الجنة بأنه طهور يفيد التطهير عن أوضار الذنوب وعن خساس الصفات كالغل والحسد ، فإذا شربوا هذا الشراب يطهرهم الله من رحض الذنوب وأوضار الاعتقادات الذميمة، فجاءوا الله بقلب سليم، ودخلوا الجنة بصفات التسليم، وقيل لهم حينئذ: « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » . ولما كان حكمه فى الدنيا بزوال حكم الحدث بجريان الماء على الأعضاء كانت تلك حكمته ورحمته فى الآخرة . وأما قول الشاعر :

* ... رِيقُهنَّ طَهُورُ *

فإنه قصد بذلك المبالغة فى وصف الريق بالطهورية لعذوبته وتعلقه بالقلوب ، وطيبه فى النفوس ، وسكون غليل المحب برشفه حتى كأنه الماء الطهور . وبالجملة فإن الأحكام الشرعية لا تثبت بالمجازاة الشعرية ؛ فإن الشعراء يتجاوزون فى الاستغراق حدّ الصدق إلى الكذب، ويسترسلون فى القول حتى يخرجهم ذلك إلى البدعة والمعصية ، وربما وقعوا فى الكفر من حيث لا يشعرون . ألا ترى إلى قول بعضهم :

ولو لم تُلامِسْ صفحةُ الأرضِ رجلَها * لما كنتُ أدرى عِلَّةً للتيمم

وهذا كفر صراح ، نعوذ بالله منه . قال القاضى أبو بكر بن العربى : هذا منتهى لباب كلام العلماء ، وهو بالغ فى فنه ؛ إلا أنى تأملت من طريق العربية فوجدت فيه

(١) فى ابن العربى واللسان مادة « رجح » :

* إلى رجح الأكفال هيف خصورها *

وامرأة رجاح ورداح ، ثقيلة العجيزة ، من نسوة رجح .

Marfat.com

مطلعا مشرفا، وهو أن بنـاء فعول للبالغة ، إلا أن المبالغة قد تكون فى الفعـل المتعدّى كما قال الشاعر :

* ضَروبٌ بنصل السيف سُوقَ سِمانها (١) *

وقد تكون فى الفعل القاصر كما قال الشاعر :

* نَؤُوم الضُّحا لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ (٢) *

وإنما تؤخذ طهورية المـاء لغـيره من الحسن نظافة ومن الشرع طهـارة ؛ كقوله عليـه السلام: "لا يقبل الله صلاة بغير طهور" . وأجمعت الأمة لغة وشريعة على أن وصف طهور يختص بالمـاء ولا يتعدى إلى سائر المـائعات وهى طاهرة؛ فكان اقتصارهم بذلك على المـاء أدل دليل على أن الطهور هو المطهر، وقد يأتى فعول لوجه آخر ليس من هذا كله وهو العبارة به عن الآلة للفعل لا عن الفعل كقـولنا : وقود وسحور بفتح الفاء، فإنها عبارة عن الحطب والطعم المتسحر به ؛ فوصف المـاء بأنه طهور (بفتح الطاء) أيضـا يكون خبرا عن الآلة التى يتطهر بها . فإذا ضمت الفاء فى الوقود والسحور والطهور عاد إلى الفعل وكان خبرا عنه . فثبت بهذا أن اسم الفعول (بفتح الفاء) يكون بناء للبالغة ويكون خبرا عن الآلة، وهو الذى خطر ببـال الحنفية، ولكن قصرت أشداقها عن لوكه، وبعد هـذا يقف البيان عن المبالغة وعن الآلة على الدليل بقوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » . وقوله عليه السلام : "جعلت لى الأرض مسجدا وطَهورا" يحتمل المبالغة ويحتمل العبارة به عن الآلة؛ فلا حجة فيه لعلمائنا، لكن يبقى قوله : « لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ » نص فى أن فعله يتعدى إلى غيره .

الثانيـــة — الميـاه المنزلة من السماء والمودعة فى الأرض طاهرة مطهرة على اختلاف ألوانها وطعومها وأرياحها حتى يخالطها غيرها، والمخالط للمـاء على ثلاثة أضرب : ضرب يوافقه

(١) هذا صدر بيت من قصيدة لأبى طالب بن عبد المطلب يمدح بها مسافر بن عمرو القرشى ؛ وتمامه .

* إذا عدموا زادا فإنك عاقر *

(٢) هذا عجز بيت من معلقة امرئ القيس ؛ وصدره :

* ويضحى فتيت المسك فوق فراشها *

والانتطاق : الاتزار للعمل . والتفضل : التوشح ، وهو لبسها أدنى ثيابها .

Marfat.com

فى صفتيه جميعا، فإذا خالطه فغيّره لم يسابه وصفا منهما لموافقته لها وهو التراب . والضرب الثانى يوافقه فى إحدى صفتيه وهى الطهارة، فإذا خالطه فغيّره سلبه ما خالفه فيه وهو التطهير؛ كماء الورد وسائر الطاهرات . والضرب الثالث يخالفه فى الصفتين جميعا، فإذا خالطه فغيّره سلبه الصفتين جميعا لمخالفته له فيهما وهو النجس .

الثالثة — ذهب المصريون من أصحاب مالك إلى أن قليل الماء يفسده قليل النجاسة، وأن الكثير لا يفسده إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه من المحرمات . ولم يحدّوا بين القليل والكثير حدّا يوقف عنده، إلا أن ابن القاسم روى عن مالك فى الجنب يغتسل فى حوض من الحياض التى تسقى فيها الدواب ولم يكن غسل ما به من الأذى أنه قد أفسد الماء؛ وهو مذهب ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم ومن اتبعهم من المصريين . إلا ابن وهب فإنه يقول فى الماء بقول المدنيين من أصحاب مالك . وقولهم ما حكاه أبو مصعب عنهم وعنه : أن الماء لا تفسده النجاسة الحالّة فيه قليلا كان أو كثيرا إلا أن تظهر فيه النجاسة وتغيّر منه طعما أو ريحا أو لونا . وذكر أحمد بن المعذّل أن هذا قول مالك بن أنس فى الماء . وإلى هذا ذهب إسمعيل بن إسحق ومحمد بن بكير وأبو الفرج الأبهرى وسائر المنتحلين لمذهب مالك من البغداديين؛ وهو قول الأوزاعى والليث بن سعد والحسن بن صالح وداود بن علىّ . وهو مذهب أهل البصرة، وهو الصحيح فى النظر وجيد الأثر . وقال أبو حنيفة : إذا وقعت نجاسة فى الماء أفسدته كثيرا كان أو قليلا إذا تحققت عموم النجاسة فيه . ووجه تحققها عنده أن تقع مثلا نقطة بول فى بركة، فإن كانت البركة يتحرك طرفاها بتحرك أحدهما فالكل نجس، وإن كانت حركة أحد الطرفين لا تحرك الآخر لم يتنجس . وفى المجموعة نحو مذهب أبى حنيفة . وقال الشافعى بحديث القلتين، وهو حديث مطعون فيه؛ اختلف فى إسناده ومتنه؛ أخرجه أبو داود والترمذى وخاصة الدارقطنى، فإنه صدّر به كتابه وجمع طرقه . قال ابن العربى : وقد رام الدارقطنى على إمامته أن يصحح حديث القلتين فلم يقدر . وقال أبو عمر بن عبد البر : وأما ما ذهب إليه الشافعى من حديث القلتين فمذهب ضعيف من جهة النظر، غير ثابت

Marfat.com

فى الأثر؛ لأنه قــد تكلم فيه جماعة من أهل العلم بالنقل، ولأن القلتين لا يوقف على حقيقة مبلغهما فى أثر ثابت ولا إجماع ، فلو كان ذلك حدًا لازما لوجب على العلماء البحث عنه ليقفوا على حد ما حدّه النبيّ صلى الله عليــه وسلم ؛ لأنه من أصــل دينهم وفرضهم ، ولو كان ذلك كذلك ما ضيعوه، فلقد بحثوا عما هو أدون من ذلك وألطف .

قلت : وفيما ذكر ابن المنذر فى القلتين من الخلاف يدل على عدم التوقيف فيهما والتحديد .

وفى سنن الدارقطنى عن حماد بن زيد عن عاصم بن المنذر قال : القِلال الخوابى العظام . وعاصم هذا هو أحد رواة حديث القلتين . ويظهر من قول الدارقطنى أنها مثل قِلال هَجَر . لسياقه حديث الإسراء عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وســلم قال : "لمـا رفعت إلى سِدرة المنتهى فى السماء السابعة نبقها مثــل قِلال هَجَر وورقها مثل آذان الفيلة" وذكر الحديث . قال ابن العربى : وتعلق علماؤنا بحـديث أبى سعيد الخـدرى فى بئر بُضاعة[(1)]، رواه النسائىّ والترمذى وأبو داود وغيرهم . وهو أيضـا حديث ضعيف لا قدم له فى الصحة فلا تعويل عليه . وقد فاوضت الطوسى الأكبر فى هــذه المسئلة فقال : إن أخلص المذاهب فى هــذه المسئلة مذهب مالك ، فإن المــاء طهور ما لم يتغير أحد أوصافه ؛ إذ لا حديث فى البـاب يعوّل عليه، وإنما المعوّل على ظاهر القرآن وهو قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » وهو ماء بصفاته، فإذا تغير عن شيء منها خرج عن الاسم لخروجه عن الصفة، ولذلك لمـا لم يجد البخارى إمام الحـديث والفقه فى الباب خبرا يعوّل عليــه قال : (باب إذا تغير وصف المـاء) وأدخل الحـديث الصحيح : "ما من أحد يُكلَم فى سبيل الله والله أعلم بمن يُكلَم فى سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَثْعَب[(2)] دمًا اللون لون الدم والريح ريح المسك" . فأخبر صلى الله عليه وسلم أن الدم بحاله وعليه رائحة المسك ، ولم تخرجه الرائحة عن صفة الدموية . ولذلك قال علماؤنا : إذا تغير المــاء بريح جيفة على طرفه وساحله لم يمنع ذلك الوضوء منه . ولو تغير بها وقد وضعت فيه لكان ذلك تنجيسا له للمخالطة والأولى مجاورة لا تعويل عليها .

(١) بئر بضاعة : بئر بالمدينة . ويقال إن بضاعة اسم امرأة نسبت إليها البئر . (٢) يثعب : يجرى .

Marfat.com

قلت : وقد استدل به أيضا على نقيض ذلك، وهو أن تغير الرائحة يخرجه عن أصله . ووجه هذا الاستدلال أن الدم لما استحالت رائحته إلى رائحة المسك خرج عن كونه مستخبثا نجسا، وأنه صار مسكا؛ وإن المسك بعض دم الغزال .

فكذلك الماء إذا تغيرت رائحته . وإلى هذا التأويل ذهب الجمهور فى الماء . وإلى الأول ذهب عبد الملك . قال أبو عمر : جعلوا الحكم للرائحة دون اللون، فكان الحكم لها فاستدلوا عليها فى زعمهم بهذا الحديث . وهذا لا يفهم منه معنى تسكن إليه النفس، ولا فى الدم معنى الماء فيقاس عليه، ولا يشتغل بمثل هذا الفقهاء، وليس من شأن أهل العلم اللغز به وإشكاله؛ وإنما شأنهم إيضاحه وبيانه ، ولذلك أخذ الميثاق عليهم ليبيننه للناس ولا يكتمونه، والماء لا يخلو تغيره بنجاسة أو بغير نجاسة ، فإن كان بنجاسة وتغير فقد أجمع العلماء على أنه غير طاهر ولا مطهر ، وكذلك أجمعوا أنه إذا تغير بغير نجاسة أنه طاهر على أصله . وقال الجمهور : إنه غير مطهر إلا أن يكون تغيره من تربة وحمأة . وما أجمعوا عليه فهو الحق الذى لا إشكال فيه، ولا التباس معه .

الرابعة — الماء المتغير بقراره كزرنيخ أو جير يجرى عليه ، أو تغير بطحلب أو ورق شجر ينبت عليه لا يمكن الاحتراز عنه فاتفق العلماء أن ذلك لا يمنع من الوضوء به ، لعدم الاحتراز منه والانفكاك عنه؛ وقد روى ابن وهب عن مالك أن غيره أولى منه .

الخامسة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : ويكره سؤر النصرانى وسائر الكفار والمدمن الخمر ، وما أكل الجيف ؛ كالكلاب وغيرها . ومن توضأ بسؤرهم فلا شىء عليه حتى يستيقن النجاسة . قال البخارى : وتوضأ عمر رضى الله عنه من بيت نصرانية . ذكر سفيان ابن عيينة قال : حدثونا عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما كنا بالشام أتيت عمر بن الخطاب بماء فتوضأ منه فقال : من أين جئت بهذا الماء؟ مارأيت ماء عذبا ولا ماء سماء أطيب منه. قال قلت : جئت به من بيت هذه العجوز النصرانية؛ فلما توضأ أتاها فقال : أيتها العجوز أسلمى تسلمى، بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق . قال : فكشفت عن رأسها ؛ فإذا

Marfat.com

مثل الثغامة[1] ، فقالت : عجوز كبيرة ، وإنما أموت الآن ! فقال عمر رضى الله عنــه : اللهم اشهد . خرّجه الدارقطنيّ ، حدّثنا الحسين بن إسمعيل قال حدّثنا أحمد بن إبراهيم البُوشَنْجِي قال حدّثنا سفيان .. فذكره . ورواه أيضا عن الحسين بن إسمعيل قال حدّثنا خلاد بن أسلم حدّثنا سفيان عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنــه توضأ من بيت نصرانية أتاها فقال : أيتها العجوز أسلمى ... ؛ وذكر الحديث بمثل ما تقدّم .

السادســـة — فأما الكلب إذا ولغ فى المـاء فقال مالك : يغسل الإناء سبعا ولا يتوضأ منه وهو طاهر . وقال الثـورىّ : يتوضأ بذلك المـاء ويتيمم معه . وهو قول عبد الملك ابن عبد العزيز ومحمد بن مسلمة . وقال أبو حنيفة : الكلب نجس ، ويغسل الإناء منه لأنه نجس . وبه قال الشافعىّ وأحمـد وإسحق . وقـد كان مالك يفرق بين ما يجـوز اتخاذه من الكلاب وبين ما لا يجـوز اتخاذه منها فى غسل الإناء من ولوغه . وتحصيل مذهبه أنه طاهر عنده ، لا ينجس ولوغه شيئا ولغ فيه طعاما ولا غيره ؛ إلا أنه استحب هراقة ما ولغ فيه من المـاء ليسارة مؤنته . وكلب البادية والحاضرة سـواء . ويغسل الإناء منه على كل حال سبعا تعبدا . هذا ما استقر عليه مذهبه عند المنـاظرين من أصحابه . ذكر ابن وهب قال : حدّثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليـه وسلم عن الحياض التى تكون فيما بين مكة والمدينـة ، فقيل له : إن الكلاب والسباع ترد عليها . فقال : " لها ما أخذت فى بطونها ولنـا ما بقى شراب وطهور " أخرجه الدارقطنىّ . وهذا نص فى طهارة الكلاب وطهارة ما تلغ فيه . وفى البخارىّ عن ابن عمر أن الكلاب كانت تقبل وتدبر فى مسجد رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ولا يرشّون شـيئا من ذلك . وقال عمـر بحضرة الصحابة لصاحب الحوض الذى سأله عمرو بن العاص : هل ترد حوضك السباع . فقال عمر : ياصاحب الحوض ، لاتخبرنا فإنا نرد على السباع وترد علينا . أخرجه مالك والدارقطنىّ . ولم يفـرق بين السـباع ، والكلب من جملتها ، ولا حجة للمخالف

(١) الثغامة : نبات أبيض الثمر والزهر يشبه بياض الشيب به .

Marfat.com

فى الأمر بإراقة ماولغ فيه وأن ذلك للنجاسة، وإنما أمر بإراقته لأن النفس تعافه لا لنجاسته؛ لأن التنزه من الأقذار مندوب إليه، أو تغليظا عليهم لأنهم نهوا عن آقتنائها كما قاله آبن عمر والحسن؛ فلما لم ينتهوا عن ذلك غلظ عليهم فى الماء لقلته عندهم فى البادية، حتى يشتد عليهم فيمتنعوا من آقتنائها . وأما الأمر بغسل الإناء فعبادة لا لنجاسة كما ذكرناه بدليلين : أحدهما — أن الغسل قد دخله العدد . الثانى — أنه قد جعل للتراب فيه مدخل لقوله عليه السلام: "وعفّروه الثامنة بالتراب" . ولو كان للنجاسة لما كان للعدد ولا للتراب فيه مدخل كالبول . وقد جعل صلى الله عليه وسلم الهر وما ولغ فيه طاهرا ، والهر سبع لا خلاف فى ذلك؛ لأنه يفترس ويأكل الميتة؛ فكذلك الكلب وما كان مثله من السباع؛ لأنه إذا جاء نص فى أحدهما كان نصا فى الآخر . وهذا من أقوى أنواع القياس . هذا لو لم يكن هناك دليل ، وقد ذكرنا النص على طهارته فسقط قول المخالف . والحمد لله .

السابعة — ما مات فى الماء مما لا دم له فلا يضرّ الماء إن لم يغيّر ريحه؛ فإن أنتن لم يتوضأ به . وكذلك ما كان له دم سائل من دواب الماء كالحوت والضفدع لم يفسد ذلك الماء موته فيه؛ إلا أن تتغير رائحته، فإن تغيرت رائحته وأنتن لم يجز التطهر به ولا الوضوء منه ، وليس بنجس عند مالك . وأما ماله نفس سائلة فمات فى الماء ونزح مكانه ولم يغير لونه ولا طعمه ولا ريحه فهو طاهر مطهر سواء كان الماء قليلا أو كثيرا عند المدنيين . وآستحب بعضهم أن ينزح من ذلك الماء دلاء لتطيب النفس به، ولا يحدّون فى ذلك حدّا لا يتعدّى . ويكرهون استعمال ذلك الماء قبل نزح الدلاء ، فإن آستعمله أحد فى غسل أو وضوء جاز إذا كانت حاله ما وصفنا . وقد كان بعض أصحاب مالك يرى لمن توضأ بهذا الماء وإن لم يتغير أن يتيمم، فيجمع بين الطهارتين آحتياطا، فإن لم يفعل وصلى بذلك الماء أجزأه . وروى الدارقطنيّ عن محمد بن سيرين أن زنجيا وقع فى زمزم — يعنى فمات — فأمر به آبن عباس رضى الله عنه فأخرج فأمر بها أن تنزح . قال : فغلبتهم عين جاءتهم من

Marfat.com

الركن فأمر بها فدُسمت بالقُباطِيّ[1] والمطارف حتى نزحوها ، فلما نزحوها آنفجرت عليهم . وأخرجه عن أبي الطفيل أن غلاما وقع في بئر زمزم فنزحت . وهذا يحتمل أن يكون الماء تغير ، والله أعلم . وروى شعبة عن مغيرة عن إبراهيم أنه كان يقول : كل نفس سائلة لا يتوضأ منها ، ولكن رخص في الخنفساء والعقرب والجراد والجدجد[2] إذا وقعن في الركاء[3] فلا بأس به . قال شعبة : وأظنه قد ذكر الوزغة . أخرجه الدارقطنيّ ، حدّثنا الحسين بن إسمعيل قال حدّثنا محمد بن الوليد قال حدّثنا محمد بن جعفر قال حدّثنا شعبة ... ؛ فذكره .

الثامنــة ــ ذهب الجمهور من الصحابة وفقهاء الأمصار وسائر التابعين بالحجاز والعراق أن ما ولغ فيه الهر من الماء طاهر ، وأنه لا بأس بالوضوء بسؤره ؛ لحديث أبي قتادة ، أخرجه مالك وغيره . وقد روى عن أبي هريرة فيه خلاف . وروى عن عطاء بن أبي رباح وسعيد آبن المسيب ومحمد بن سيرين أنهم أمروا بإراقة ماء ولغ فيه الهر وغسل الإناء منه . وآختلف في ذلك عن الحسن . ويحتمل أن يكون الحسن رأى في فمه نجاسة ليصح مخرج الروايتين عنه . قال الترمذيّ لما ذكر حديث مالك : «وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة ، هذا حديث حسن صحيح ، وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم والتابعين ومن بعدهم ؛ مثل الشافعيّ وأحمد وإسحق ، لم يروا بسؤر الهِرّة بأسا . وهــذا أحسن شيء في الباب ، وقد جوّد مالك هذا الحديث عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة ، ولم يأت به أحد أتم من مالك» قال الحافظ أبو عمر : الحجة عند التنازع والآختلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد صح من حديث أبي قتادة أنه أصغى لها الإناء حتى شربت . الحديث . وعليه آعتماد الفقهاء في كل مصر إلا أبا حنيفة ومن قال بقوله ؛ فإنه كان يكره سؤره . وقال : إن توضأ به أحد أجزأه ، ولا أعلم حجة لمن كره الوضوء بسؤر الهرة أحسن من أنه لم يبلغه حديث أبي قتادة ، وبلغه حديث أبي هريرة في الكلب فقاس الهر عليه ، وقد فرقت السنة بينهما في باب

(١) دسم الشيء يدسمه دسما : سدّه . والقباطى (بالضم) : ثياب من كتان رقيق يعمل بمصر ؛ نسبة إلى القبط على غير قياس . والمطارف : جمع مطرف ، وهو رداء من خز مربع ذو أعلام . (٢) الجدجد كهدهد طوير شبه الجرادة . (٣) الركاء (جمع ركوة) : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء .

Marfat.com

التعبد فى غسل الإناء ، ومن حجّته السنة خاصمته ، وما خالفها مطرح . وبالله التوفيق .
ومن حجتهم أيضا ما رواه قرة بن خالد عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " طهور الإناء إذا ولغ فيه الهر أن يغسل مرة أو مرتين " شك قرة . وهذا الحديث لم يرفعه إلا قرة بن خالد، وقرة ثقة ثبت .

قلت : هذا الحديث أخرجه الدار قطنيّ، ومتنه : " طهور الإناء إذا ولغ فيه الكلب أن يغسل سبع مرات الأولى بالتراب والهر مرة أو مرتين " . قرة شك . قال أبو بكر : كذا رواه أبو عاصم مرفوعا ، ورواه غيره عن قرة (ولوغ الكلب) مرفوعا و (ولوغ الهر) موقوفا . وروى أبو صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يغسل الإناء من الهر كما يغسل من الكلب " قال الدارقطني : لايثبت هذا مرفوعا والمحفوظ من قول أبى هريرة وآختلف عنه . وذكر معمر وآبن جريج عن آبن طاوس عن أبيه أنه كان يجعل الهر مثل الكلب . وعن مجاهد أنه قال فى الإناء يلغ فيه السنور قال : آغسله سبع مرات . قاله الدارقطنيّ .

التاسعة — الماء المستعمل طاهر إذا كانت أعضاء المتوضئ به طاهرة ؛ إلا أن مالكا وجماعة من الفقهاء الجلة كانوا يكرهون الوضوء به . وقال مالك : لا خير فيه ، ولا أحب لأحد أن يتوضأ به ، فإن فعل وصلى لم أر عليه إعادة الصلاة ويتوضأ لما يستقبل . وقال أبو حنيفة والشافعيّ وأصحابهما : لا يجوز آستعماله فى رفع الحدث ، ومن توضأ به أعاد؛ لأنه ليس بماء مطلق ، ويتيم واجده لأنه ليس بواجد ماء . وقال بقولهم فى ذلك أصبغ بن الفرج، وهو قول الأوزاعيّ . وآحتجوا بحديث الصُّنابِحِيّ خرجه مالك وحديث عمرو بن عنبسة أخرجه مسلم ، وغير ذلك من الآثار . وقالوا : الماء إذا توضئ به خرجت الخطايا معه ؛ فوجب التنزه عنه لأنه ماء الذنوب . قال أبو عمر : وهذا عندى لا وجه له ؛ لأن الذنوب لا تنجس الماء لأنها لا أشخاص لها ولا أجسام تمازج الماء فتفسده ، وإنما معنى قوله «خرجت الخطايا مع الماء» إعلام منه بأن الوضوء للصلاة عمل يكفر الله به السيئات عن عباده

Marfat.com

المؤمنين رحمة منه بهـم وتفضلا عليهم . وقال أبو ثور وداود مثل قول مالك ، وأن الوضوء بالمـاء المستعمل جائز؛ لأنه ماء طاهر لا ينضاف إليـه شيء وهو ماء مطلق . وآحتجوا بإجماع الأمة على طهارته إذا لم يكن فى أعضاء المتوضئ نجاسة . و إلى هذا ذهب أبو عبدالله المَرْوَزِيّ محمد بن نصر . وروى عن عليّ بن أبى طالب وآبن عمر وأبى أمامة وعطاء بن أبى رَبَاح والحسن البصرى والنخعيّ ومكحول والزهرِىّ أنهـم قالوا فيمن نسى مسح رأسـه فوجد فى لحيته بللا : إنه يجزئه أن يمسح بذلك البلل رأسـه ؛ فهؤلاء كلهم أجازوا الوضوء بالمـاء المستعمل . روى عبد السلام بن صالح حدثنا إسحق بن سُوَيد عن العلاء بن زياد عن رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم مرضىّ أن رسول الله صـلى الله عليه وسلم خرج عليهم ذات يوم وقد آغتسل وقد بقيت لمعة من جسده لم يصبها المـاء، فقلنا : يارسول الله ، هذه لمعـة لم يصبها المـاء ؛ فكان له شـعر وارد (١) ، فقال (٢) بشعره هكذا على المكان فبَـلَّه . أخرجه الدارقطنيّ ، وقال : عبد السلام بن صالح هذا بصرىّ وليس بقوىّ ، وغيره من الثقات يرويه عن إسحق عن العلاء مرسلا ، وهو الصواب .

قلت : الراوى الثقة عن إسحق بن سويد العدوى عن العلاء بن زياد العدوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آغتسل ... ؛ الحديث فيما ذكره هشيم . قال آبن العربى : «مسئلة المـاء المستعمل إنمـا تنبنى على أصل آخر، وهو أن الآلة إذا أدّى بها فرض هل يؤدى بها فرض آخر أم لا ؛ فمنع ذلك المخـالف قياسا على الرقبة إذا أدّى بهـا فرض عتق لم يصلح أن يتكرر فى أداء فرض آخر؛ وهـذا باطل من القول، فإن العتق إذا أتى على الرق أتلفه فلا يبقى محل لأداء الفرض بعتق آخر . ونظيره من المـاء ما تلف على الأعضاء فإنه لا يصح أن يؤدّى به فرض آخر لتلف عينه حِسّا كما تلف الرق فى الرقبة بالعتق حكما، وهذا نفيس فتأملوه » .

(١) أى مسترسل طويل . (٢) العـرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال، وتطلقه على غير الكلام واللسان؛ فتقول : قال بيده، أى أخذ . وقال برجله؛ أى مشى . وقال بالمـاء على يده؛ أى قلب . وقال بثوب، أى رفعه . وكل ذلك على المجاز والاتساع .

Marfat.com

العاشرة — لم يفرق مالك وأصحابه بين الماء تقع فيه النجاسة و بين النجاسة يرد عليها الماء، راكدا كان الماء أو غير راكد؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلب عليه فغيّر طعمه أو لونه أو ريحه". وفرقت الشافعية فقالوا: إذا وردت النجاسة على الماء تنجس؛ وآختاره آبن العربي. وقال: من أصول الشريعة في أحكام المياه أن ورود النجاسة على الماء ليس كورود الماء على النجاسة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا آستيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإن أحدكم لا يدرى أين باتت يده". فمنع من ورود اليد على الماء، وأمر بإيراد الماء عليها، وهذا أصل بديع في الباب، ولولا وروده على النجاسة — قليلا كان أو كثيرا — لما طهرت. وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في بول الأعرابي في المسجد: "صبّوا عليه ذَنُوبا[1] من ماء". قال شيخنا أبو العباس: وآستدلوا أيضا بحديث القلتين، فقالوا: إذا كان الماء دون القلتين فخلته نجاسة تنجس وإن لم تغيّره، وإن ورد ذلك القدر فأقبل على النجاسة فأذهب عينها بقي الماء على طهارته وأزال النجاسة وهذه مناقضة، إذ المخالطة قد حصلت في الصورتين، وتفريقهم بورود الماء على النجاسة وورودها عليه فرق صوريّ ليس فيه من الفقه شيء، فليس الباب باب التعبدات بل من باب عقلية المعاني، فإنه من باب إزالة النجاسة وأحكامها. ثم هذا كله منهم يرده قوله عليه الصلاة والسلام: "الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه".

قلت: هذا الحديث أخرجه الدارقطنيّ عن رِشدين بن سعد أبي الحجاج عن معاوية بن صالح عن راشد بن سعد عن أبي أمامة الباهلي وعن ثوبان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وليس فيه ذكر اللون. وقال: لم يرفعه غير رشدين بن سعد عن معاوية بن صالح وليس بالقوى، وأحسن منه في الآستدلال ما رواه أبو أسامة عن الوليد بن كثير عن محمد بن كعب عن عبيد الله بن عبد الله بن رافع بن خديج عن أبي سعيد الخدرى قال قيل: يارسول الله،

---

(١) الذنوب (بالفتح): الدلو.

Marfat.com

أنتوضأ من بئر بُضاعة ، وهى بئر تلق فيها الحِيَض(١) ولحوم الكلاب والنَّتن ؛ فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إن المـاء طهور لا ينجسه شيء " أخرجه أبو داود والترمذى والدارقطني كلهم بهذا الإسناد. وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن ، وقد جوّد أبو أسامة هذا الحديث ولم يرو أحد حديث أبي سعيد فى بئر بُضاعة أحسن مما روى أبو أسامة . فهذا الحديث نص فى ورود النجاسة على المـاء، وقد حكم صلى الله عليه وسلم بطهارته وطهوره . قال أبو داود : سمعت قتيبة بن سعيد قال سألت قيم بئر بضاعة عن عمقها ؛ قلت : أكثر مايكون المـاء فيها؟ قال : إلى العانة . قلت : فإذا نقص؟ قال: دون العورة . قال أبو داود : وقدّرت بئر بضاعة بردائى مددته عليها ثم ذرعته فإذا عرضها سـتة أذرع ، وسألت الذى فتح لى باب البستان فأدخلنى إليه : هل غيِّر بناؤها عما كانت عليه؟ فقال لا . و رأيت فيها ماء متغير اللون . فكان هذا دليلا لنا على ما ذكرناه ، غير أن آبن العربى قال : إنها فى وسـط السَّبَخة ، فماؤها يكون متغيرا من قرارها ؛ والله أعلم .

الحـادية عشرة — المـاء الطاهر المطهـر الذى يجـوز به الوضوء وغسل النجاسات هو المـاء القراح الصافى من ماء السماء والأنهار والبحار والعيون والآبار، وما عرفه الناس ماء مطلقا غير مضاف إلى شيء خالطه كما خلقه الله عز وجل صافيا ولا يضره لون أرضه على ما بيناه . وخالف فى هذه الجملة أبو حنيفة وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر فأما أبو حنيفة فأجاز الوضوء بالنبيذ فى السفر ، وجوز إزالة النجاسة بكل مائع طاهر . فأما بالدهن والمرق فعنه رواية أنه لا يجوز إزالتها به . إلا أن أصحابه يقولون: إذا زالت النجاسة به جاز . وكذلك عنده النار والشمس ؛ حتى أن جلد الميتة إذا جف فى الشمس طهر من غير دباغ . وكذلك النجاسة على الأرض إذا جفت بالشمس فإنه يطهر ذلك الموضع ، بحيث تجوز الصلاة عليه ، ولكن لا يجـوز التيمم بذلك التراب . قال آبن العربى : لمـا وصف الله سبحانه المـاء بأنه طهور وآمتن بإنزاله من السماء ليطهرنا به دل على آختصاصه بذلك ؛ وكذلك قال عليه الصلاة

(١) الحيض : الخرق التى يمسح بها دم الحيض؛ و يقال لها المحايض .

Marfat.com

والسلام لأسماء بنت الصدّيق حين سألته عن دم الحيض يصيب الثوب : " حُتّيه ثم اقرِضيه ثم اغسليه بالماء " . فلذلك لم يلحق غير الماء بالماء لما فى ذلك من إبطال الامتنان ، وليست النجاسة معنى محسوسا حتى يقال كلما أزالها فقد قام به الغرض ، وإنما النجاسة حكم شرعى عين له صاحب الشرع الماء فلا يلحق به غيره إذ ليس فى معناه ، ولأنه لو لحق به لأسقطه ، والفرع إذا عاد إلحاقه بالأصل فى إسقاطه سقط فى نفسه . وقد كان تاج السنة ذو العز ابن المرتضى الدبوسى يسميه فرخ زنى .

قلت : وأما ما استدل به على استعمال النبيذ فأحاديث واهية ، ضعاف لا يقوم شيء منها على ساق ؛ ذكرها الدارقطنى وضعفها ونص عليها . وكذلك ضعف ماروى عن ابن عباس موقوفا " النبيذ وضوء لمن لم يجد الماء " . فى طريقه ابن محرز متروك الحديث . وكذلك ماروى عن على أنه قال : لا بأس بالوضوء بالنبيذ . الحجاج وأبو ليلى ضعيفان . وضعف حديث ابن مسعود وقال : تفرد به ابن لَهيعة وهو ضعيف الحديث . وذكر عن علقمة بن قيس قال قلت لعبد الله بن مسعود : أشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد منكم ليلة أتاه داعى الجن ؟ فقال لا .

قلت : هذا إسناد صحيح لا يختلف فى عدالة رواته . وأخرج الترمذى حديث ابن مسعود قال : سألنى النبي صلى الله عليه وسلم : " ما فى إدواتك[1] " فقلت : نبيذ . فقال : " تمرة طيبة وماء طهور " قال : فتوضأ منه . قال أبو عيسى : وإنما روى هذا الحديث عن أبى زيد عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو زيد رجل مجهول عند أهل الحديث لانعرف له رواية غير هذا الحديث ، وقد رأى بعض أهل العلم الوضوء بالنبيذ ؛ منهم سفيان وغيره ، وقال بعض أهل العلم : لا يتوضأ بالنبيذ ، وهو قول الشافعى وأحمد وإسحق ، وقال إسحق : إن ابتلى رجل بهذا فتوضأ بالنبيذ وتيمم أحب إلى . قال أبو عيسى : وقول من يقول لا يتوضأ بالنبيذ أقرب إلى الكتاب والسنة وأشبه ؛ لأن الله تعالى قال : «فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا

(١) الإدارة (بالكسر) : إناء صغير من جلد يتخذ للماء .

Marfat.com

صَعِيدًا طَيِّبًا » . وهذه المسئلة مطولة فى كتب الخلاف؛ وعمدتهم التمسك بلفظ المـاء حسبما تقدم فى « المـائدة »(١) بيانه والله أعلم .

الثانيـــة عشرة — لمـا قال الله تعالى: « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » وقال « لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ » توقف جمـاعة فى ماء البحـر؛ لأنه ليس بمنزل من السماء؛ حتى رووا عن عبـد الله ٱبن عمر وٱبن عمرو معـا أنه لا يتوضأ به؛ لأنه نار ولأنه طبق جهنم . ولكن النبيّ صلى الله عليه وسلم بين حكمه حين قال لمن سأله : "هو الطهور ماؤه الحل ميتته" أخرجه مالك. وقال فيـه أبو عيسى : هـذا حديث حسن صحيح . وهو قول أكثر الفقهاء من أصحـاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، منهم أبو بكر وعمر وٱبن عباس، لم يروا بأسا بمـاء البحر، وقد كره بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الوضوء بماء البحر؛ منهم ٱبن عمر وعبد الله بن عمرو، وقال عبـد الله بن عمرو : هو نار . قال أبو عمر : وقد سئل أبو عيسى الترمذى عن حديث مالك هذا عن صفوان بن سُلَيم فقال : هو عندى حديث صحيح . قال أبو عيسى فقلت للبخارى : هشيم يقول فيـه ٱبن أبى بَرْزة . فقال : وَهِم فيه، إنمـا هو المغيرة بن أبى بُرْدة . قال أبو عمر : لا أدرى ما هذا من البخاريّ رحمه الله، ولو كان صحيحا لأخرجه فى مصنفه الصحيح عنده، ولم يفعل لأنه لا يعول فى الصحيح إلا على الإسناد . وهذا الحديث لا يحتج أهل الحديث بمثل إسناده، وهو عندى صحيح لأن العلماء تلقوه بالقبول له والعمل به، ولا يخالف فى جملته أحد من الفقهاء، وإنمـا الخلاف بينهم فى بعض معانيه . وقد أجمع جمهور من العلماء وجماعة أئمة الفتوى بالأمصار من الفقهاء : أن البحر طهور ماؤه، وأن الوضوء به جائز؛ إلا ماروى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاصى أنهما كرها الوضوء بمـاء البحر، ولم يتابعهما أحد من فقهاء الأمصار على ذلك ولا عرج عليـه، ولا التفت إليه لحديث هذا الباب . وهذا يدلك على ٱشتهار الحديث عندهم، وعملهم به وقبولهم له، وهو أولى عندهم من الإسناد الظاهر الصحة لمعنى ترده الأصول . وبالله التوفيق .

(١) راجع جـ ٦ ص ١٠٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قال أبو عمر : وصفوان بن سُلَيم مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهريّ ، من عباد أهل المدينة وأتقاهم لله، ناسكا، كثير الصدقة بما وجد من قليل وكثير، كثير العمل، خائفا لله، يكنى أبا عبد الله، سكن المدينة لم ينتقل عنها، ومات بها سنة آثنتين وثلاثين ومائة . ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : سمعت أبي يسأل عن صفوان بن سُلَيم فقال : ثقة من خيار عباد الله وفضلاء المسلمين . وأما سعيد بن سلمة فلم يرو عنه فيما علمت إلا صفوان — والله أعلم — ومن كانت هذه حاله فهو مجهول لا تقوم به حجة عند جميعهم . وأما المغيرة بن أبي بُرْدة فقيل عنه إنه غير معروف في حملة العلم كسعيد بن سلمة . وقيل : ليس بمجهول . قال أبو عمر : المغيرة بن أبي بردة وجدت ذكره في مغازي موسى بن نصير بالمغرب، وكان موسى يستعمله على الخيل ، وفتح الله له في بلاد البربر فتوحات في البر والبحر . وروى الدارقطنيّ من غير طريق مالك عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من لم يطهره ماء البحر فلا طهره الله". قال إسناد حسن .

الثالثة عشرة — قال آبن العربيّ : توهم قوم أن الماء إذا فضلت للجنب منه فضلة لا يتوضأ به ، وهو مذهب باطل، فقد ثبت عن ميمونة أنها قالت : أجنبت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم وآغتسلت من جَفْنة وفضلت فضلة، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليغتسل منه فقلت : إني قد آغتسلت منه . فقال : " إن الماء ليس عليه نجاسة — أو — إن الماء لا يُجْنِب " . قال أبو عمر : وردت آثار في هذا الباب مرفوعة في النهي عن أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة . وزاد بعضهم في بعضها : ولكن ليغترفا جميعا . فقالت طائفة : لا يجوز أن يغترف الرجل مع المرأة في إناء واحد ؛ لأن كل واحد منهما متوضئ بفضل صاحبه . وقال آخرون : إنما كره من ذلك أن تنفرد المرأة بالإناء ثم يتوضأ الرجل بعدها بفضلها . وكل واحد منهم روى بما ذهب إليه أثرا . والذي ذهب إليه الجمهور من العلماء وجماعة فقهاء الأمصار أنه لا بأس أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة وتتوضأ المرأة من فضله، آنفردت المرأة بالإناء أو لم تنفرد . وفي مثل هذا آثار كثيرة صحاح . والذي نذهب إليه أن

Marfat.com

الماء لا ينجسه شيء إلا ما ظهر فيـه من النجاسات أو غلب عليه منها ؛ فلا وجه للاشتغال بما لا يصح من الآثار والأقوال . والله المستعان .

روى الترمذيّ عن ابن عباس قال حدثتني ميمونة قالت : كنت أغتسل أنا ورسـول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد من الجنابة . قال هذا حديث حسن صحيح . وروى البخاريّ عن عائشة قالت : كنت أغتسل أنا والنبيّ صلى الله عليه وسلم من إناء واحد يقال له الفَرَق (١) . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغتسل بفضل ميمونة . وروى الترمذيّ عن ابن عباس قال : اغتسل بعض أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فى جَفْنة فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ منه فقالت : يا رسول الله، إنى كنت جنبا . قال : " إن المـاء لا يُجْنِب " . قال : هـذا حديث حسن صحيح، وهو قول سفيان الثوريّ ومالك والشافعيّ . وروى الدارقطنيّ عن عمرة عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أتوضأ أنا والنبيّ صلى الله عليه وسلم من إناء واحد وقد أصابت الهرة منه قبل ذلك . قال : هـذا حديث حسن صحيح . وروى أيضا عن رجل من بنى غِفار قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فضل طهور المرأة . وفى الباب عن عبـد الله بن سَرْجِس ، وكره بعض الفقهاء فضل طهور المرأة، وهو قول أحمد وإسحق .

الرابعة عشرة — روى الدارقطنيّ عن زيد بن أسـلم مولى عمر بن الخطاب أن عمر بن الخطاب كان يسخن له المـاء فى قمقمة (٢) ويغتسل به . قال : وهذا إسناد صحيح . وروى عن عائشة قالت : دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسـلم وقد سخَّنت ماء فى الشمس . فقال " لا تفعلى يا حمـيراء فإنه يورث البرص " . رواه خالد بن إسمعيل المخـزوميّ عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، وهو متروك . ورواه عمرو بن محمد الأعشم عن فليح عن الزهريّ عن عروة عن عائشة . وهو منكر الحديث، ولم يروه غيره عن فليح، ولا يصح عن الزهرى؛ قاله الدارقطنى .

(١) الفرق (بالتحريك) : مكيال يسع ستة عشر رطلا . وبالسكون مائة وعشرون رطلا .
(٢) القمقمة والقمقم (كهدهد) : ما يسخن فيه المـاء من نحاس وغيره .

Marfat.com

الخامسة عشرة — كل إناء طاهر فجائز الوضوء منه إلا إناء الذهب والفضة ؛ لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ٱتخاذهما . وذلك — والله أعلم — للتشبه بالأعاجم والجبابرة لا لنجاسة فيهما . ومن توضأ فيهما أجزأه وضوءه وكان عاصيا باستعمالها . وقد قيل : لايجزئ الوضوء في أحدهما . والأوّل أكثر؛ قاله أبو عمر . وكل جلد ذكى فجائز ٱستعماله للوضوء وغير ذلك . وكان مالك يكره الوضوء في إناء جلد الميتة بعد الدباغ؛ على ٱختلاف من قوله . وقد تقدّم في « النحل »(١) .

قوله تعالى : لِنُحْيِيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ﴾ أي بالمطر . ﴿بَلْدَةً مَيْتًا﴾ بالجدوبة والمحل وعدم النبات . قال كعب : المطر روح الأرض يحييها الله به . وقال : « مَيْتًا » ولم يقل ميتة لأن معنى البلدة والبلد واحد؛ قاله الزجاج . وقيل : أراد بالبلد المكان . ﴿وَنُسْقِيَهُ﴾ قراءة العامة بضم النون . وقرأ عمر بن الخطاب وعاصم والأعمش فيما روى المفضل عنهما « نَسْقِيَهُ » (بفتح)(٢) النون . ﴿مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ أي بشرا كثيرا وأناسيّ واحده إنسي نحو جمع القُرْقُور(٣) قَرَاقير وقَرَاقِر في قول الأخفش والمبرد وأحد قولي الفراء؛ وله قول آخر وهو أن يكون واحده إنسانا ثم تبدل من النون ياء ؛ فتقول : أناسي، والأصل أناسين ، مثل سِرحان وسراحين، و بستان و بساتين؛ فجعلوا الياء عوضا من النون، وعلى هذا يجوز سراحي و بساتي، لا فرق بينهما . قال الفراء : و يجوز « أَنَاسِي » بتخفيف الياء التي فيما بين لام الفعل وعينه ؛ مثل قراقير وقراقر . وقال « كثيرا » ولم يقل كثيرين ؛ لأن فعيلا قد يراد به الكثرة ؛ نحو « وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا » .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) في الاصول : « بضم النون » . وهو تحريف والتصويب عن أبي حيان وغيره . (٣) القرقور : ضرب من السفن . وقيل : هي السفينة العظيمة أو الطويلة .

Marfat.com

قوله تعـالى : وَلَقَـدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُـمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ٱلنَّـاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

قوله تعـالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعنى القرآن، وقد جرى ذكره فى أوّل السورة : قوله تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ » . وقوله : «لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى» وقوله : « ٱتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا » . ﴿لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أى جحودا له وتكذيبا به . وقيل : « وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ » هو المطر . روى عن آبن عباس وآبن مسعود : وأنه ليس عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرّفه حيث يشاء ، فما زيد لبعض نقص من غيرهم . فهذا معنى التصريف . وقيل « صَرَّفْنَاهُ بينهم » وابلا وطَشّا وطَلّا ورِهاما — الجوهرى : الرهام الأمطـار اللينة — ورَذَاذًا . وقيـل : تصريفه تنويـع الآنتفاع به فى الشرب والسـقى والزراعات به والطهارات وسقى البساتين والغسل وشبهه . «لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا» قال عكرمة : هو قولهم فى الأنواء: مطرنا بنوء كذا . قال النحاس : ولا نعلم بين أهل التفسير آختلافا أن الكفر ها هنا قولهم مطرنا بنوء كذا وكذا؛ وأن نظيره فعل النجم كذا، وأن كل من نسب إليه فعلا فهو كافر . وروى الربيع بن صبيح قال : مُطِر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فلمـا أصبح قال النبى صلى الله عليـه وسلم : "أصبح الناس فيها رجلين شاكر وكافر فأما الشاكر فيحمد الله تعالى على سقياه وغياثه وأما الكافر فيقول مُطِرنا بنوء كذا وكذا" . وروى من حديث آبن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "ما من سنة بأمطر من أخرى ولكن إذا عمل قوم بالمعاصى صرف الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعا صرف الله ذلك إلى الفيافى والبحار" . وقيل : التصريف راجع إلى الريح، وقد مضى فى « البقرة »[1] بيـانه . وقرأ حمزة والكسائى « لِيَذْكُرُوا » مخففة الذال من الذكر . البـاقون مثقلا من التذكر ؛ أى ليـذّكروا نعم الله ويعلموا أن من أنعم بها لا يجـوز الإشراك به ؛ فالتـذكر قريب من الذكر غيرأن التـذكر يطلق فيما بعد عن القلب فيحتاج إلى تكلف فى التذكر .

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٧ طبعة ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾ أى رسولا ينذرهم كما قسمنا المطر ليخف عليك أعباء النبوة ، ولكنا لم نفعل بل جعلناك نذيرا للكل لترتفع درجتك فاشكر نعمة الله عليك . ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ أى فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم .﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ قال ابن عباس بالقرآن . ابن زيد : بالإسلام . وقيل : بالسيف ؛ وهذا فيه بعد ؛ لأن السورة مكية نزلت قبل الأمر بالقتال . ﴿جِهَادًا كَبِيراً﴾ لا يخالطه فتور .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ عاد الكلام إلى ذكر النعم . و « مَرَجَ » خلّى وخلط وأرسل . قال مجاهد : أرسلهما وأفاض أحدهما فى الآخر . قال ابن عرفة : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى خلطهما فهما يلتقيان ؛ يقال : مرجته إذا خلطته . ومَرِج الدينُ والأمرُ اختلط واضطرب ؛ ومنه قوله تعالى : « فِى أَمْرٍ مَرِيجٍ » . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاصى(١) : "إذا رأيت الناس مَرِجت عهودهم وخفّت أماناتهم وكانوا هكذا وهكذا" وشبك بين أصابعه فقلت له : كيف أصنع عند ذلك ؟ جعلنى الله فداك ! قال : "الزم بيتك وأملك عليك لسانك وخذ بما تعرف ودع ما تنكر وعليك بخاصة أمر نفسك ودع عنك أمر العامة" خرجه النسائى وأبو داود وغيرهما . وقال الأزهرى : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » خلى بينهما ؛ يقال مَرَجتُ الدابةَ إذا خليتها ترعى . وقال ثعلب : المرج الإجراء ؛ فقوله : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى أجراهما . وقال الأخفش : يقول قوم أمرج البحرين مثل مرج فعل وأفعل بمعنى . ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أى حلو شديد العذوبة .

(١) الحديث فى الفتنة .

Marfat.com

﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أى فيه ملوحة ومرارة . وروى طلحة أنه قرئ « وَهَٰذَا مَلِحٌ » بفتح الميم وكسر اللام . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ أى حاجزا من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه ؛ كما قال فى سورة الرحمن « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ » . ﴿ وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ أى سترا مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر . فالبرزخ الحاجز ، والحجر المانع . وقال الحسن : يعنى بحر فارس وبحر الروم . وقال ابن عباس وابن جبير : يعنى بحر السماء وبحر الأرض . قال ابن عباس : يلتقيان فى كل عام وبينهما برزخ قضاء من قضائه . « وَحِجْرًا مَحْجُورًا » حراما محرما أن يعذب هذا الملح بالعذب ، أو يملح هذا العذب بالملح .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ﴾ أى خلق من النطفة إنسانا . ﴿ فَجَعَلَهُ ﴾ أى جعل الإنسان «نَسَبًا وَصِهْرًا» . وقيل : «مِنَ الْمَاءِ» إشارة إلى أصل الخلقة فى أن كل حى مخلوق من الماء . وفى هذه الآية تعديد النعمة على الناس فى إيجادهم بعد العدم ، والتنبيه على العبرة فى ذلك .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ النسب والصهر معنيان يعمان كل قربى تكون بين آدميين . قال ابن العربى : النسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى على وجه الشرع ؛ فإن كان بمعصية كان خلقا مطلقا ولم يكن نسبا محققا ، ولذلك لم يدخل تحت قوله « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ » بنته من الزنى ؛ لأنها ليست ببنت له فى أصح القولين لعلمائنا وأصح القولين فى الدين ؛ وإذا لم يكن نسب شرعا فلا صهر شرعا ، فلا يحرم الزنى بنت أم ولا أم بنت ، وما يحرم من الحلال لا يحرم من الحرام ؛ لأن الله امتن بالنسب والصهر على عباده ورفع قدرهما ، وعلق الأحكام فى الحل والحرمة عليهما فلا يلحق الباطل بهما ولا يساويهما .

Marfat.com

قلت : آختلف الفقهاء فى نكاح الرجل آبنته من زنى أو أخته أو بنت آبنه من زنى ؛ لحرّم ذلك قوم منهم آبن القاسم ، وهو قول أبى حنيفة وأصحابه ، وأجاز ذلك آخرون منهم عبد الملك بن الماجشون ، وهو قول الشافعىّ ، وقد مضى هذا فى « النّساء »(١) مجوّدا . قال الفراء : النسب الذى لا يحل نكاحه . وقاله الزجاج، وهو قول على بن أبى طالب رضى الله عنه . وآشتقاق الصهر من صهرت الشيء إذا خلطته ؛ فكل واحد من الصهرين قد خالط صاحبه ، فسميت المناكح صهرا لاختلاط الناس بها . وقيل : الصهر قرابة النكاح ؛ فقرابة الزوجة هم الأختان، وقرابة الزوج هم الأحماء . والأصهار يقع عاما لذلك كله؛ قاله الأصمعىّ. وقال آبن الأعرابى : الأختان أبو المرأة وأخوها وعمها — كما قال الأصمعىّ — والصهر زوج آبنة الرجل وأخوه وأبوه وعمه. وقال محمد بن الحسن فى رواية أبى سليمان الجوزجانى : أختان الرجل أزواج بناته وأخواته وعماته وخالاته ، وكل ذات محرم منه ، وأصهاره كل ذى رحم محرم من زوجته . قال النحاس : الأولى فى هذا أن يكون القول فى الأصهار ما قال الأصمعى، وأن يكون من قبلهما جميعا. يقال صهرت الشيء أى خلطته؛ فكل واحد منهما قد خلط صاحبه . والأولى فى الأختان ما قال محمد بن الحسن لجهتين : إحداهما الحديث المرفوع ، روى محمد آبن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما أنت يا علىّ فختَنى وأبو ولدى وأنت منى وأنا منك" . فهذا على أن زوج البنت ختَن . والجهة الأخرى أن آشتقاق الختَن من ختَنه إذا قطعه ؛ وكأن الزوج قد آنقطع عن أهله ، وقطع زوجته عن أهلها . وقال الضحاك : الصهر قرابة الرضاع . قال آبن عطية : وذلك عندى وهَم أوجبه أن آبن عباس قال : حرم من النسب سبع، ومن الصهر خمس . وفى رواية أخرى من الصهر سبع؛ يريد قوله عز وجل « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ » فهذا هو النسب. ثم يريد بالصهر قوله تعالى : « وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ » إلى قوله « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » . ثم ذكر المحصنات . ومحمل هذا أن آبن عباس أراد حرم من الصهر ما ذكر معه، فقد أشار

(١) راجع جـ ٥ ص ١١٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

بمـا ذكر إلى عظمه وهو الصهر ، لا أن الرضاع صهر ، وإنمـا الرضاع عديل النسب يحرم منـه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيـه . ومن روى : وحرم من الصهر خمس أسقط من الآيتين الجمع بين الأختين والمحصنات ؛ وهنّ ذوات الأزواج .

قلت : فآبن عطية جعل الرضاع مع ما تقدّم نسبا، وهو قول الزجاج . قال أبو إسحق: النسب الذى ليس بصهر من قوله جل ثنـاؤه : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ » إلى قـوله « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » والصهر من له التزويج . قال آبن عطيـة : وحكى الزهراوى قولا أن النسب من جهة البنين والصهر من جهة البنات .

قلت : وذكر هـذا القول النحاس ، وقال : لأن المصاهرة من جهتين تكون . وقال آبن سيرين : نزلت هـذه الآية فى النبيّ صلى الله عليه وسلم وعليّ رضى الله عنه ؛ لأنه جمعه معه نسب وصهر . قال آبن عطية : فآجتماعهما وكادة حرمة إلى يوم القيامة . ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ على خلق ما يريده .

قوله تعـالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُـمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ لمـا عدد النعم وبين كمال قدرته عجب من المشركين فى إشراكهم به من لا يقدر على نفع ولا ضر؛ أى إن الله هو الذى خلق ماذكره، ثم هؤلاء لجهلهم يعبدون من دونه أمواتا جمادات لاتنفع ولا تضر . ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ روى عن آبن عباس « الْكَافِرُ » هنا أبو جهل ؛ وشرحه أنه يستظهر بعبادة الأوثان على أوليائه . وقال عكرمة : « الْكَافِرُ » إبليس ، ظهر على عداوة ربه. وقال مطرف: « الْكَافِرُ » هنا الشيطان. وقال الحسن: « ظَهِيرًا » أى معينا للشيطان على المعاصى . وقيـل : المعنى؛ وكان الكافر على ربه هينا ذليلا لا قدر له ولا وزن عنده ؛ من قول العرب : ظَهَرت به أى جعلته خلف ظهرك ولم تلتفت إليه . ومنـه قوله تعالى : « وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا » أى هينا .

Marfat.com

ومنه قول الفرزدق :

تَمِيمَ بنَ قيسٍ لا تكونَنّ حاجتى * بِظَهْرٍ فلا يعيا علىّ جوابُها

هذا معنى قول أبى عبيدة . وظهير بمعنى مظهور . أى كفر الكافرين هين على الله تعالى ، والله مستهين به لأن كفره لا يضره . وقيل : وكان الكافر على ربه الذى يعبده وهو الصنم قويا غالبا يعمل به ما يشاء ؛ لأن الجماد لا قدرة له على دفع ضر ونفع .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ يريد بالجنة مبشرا ونذيرا من النار؛ وما أرسلناك وكيلا ولا مسيطرا . ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ يريد على ما جئتكم به من القرآن والوحى . و « مِن » للتأكيد . ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ ﴾ لكن من شاء ؛ فهو آستثناء منقطع، والمعنى : لكن من شاء ﴿ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ بإنفاقه من ماله فى سبيل الله فلينفق . ويجوز أن يكون متصلا ويقدر حذف المضاف؛ التقدير: إلا أجر « مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا » باتباع دينى حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ تقدم معنى التوكل فى «آل عمران»(1) وهذه السورة وأنه آعتماد القلب على الله تعالى فى كل الأمور، وأن الأسباب وسائط أمر بها من غير آعتماد عليها . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ أى نزه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار به من الشركاء . والتسبيح التنزيه، وقد تقدم . وقيل : « وَسَبِّحْ » أى صلّ له ؛ وتسمى الصلاة تسبيحا . ﴿ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ أى عليما فيجازيهم بها .

(1) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (٥٩)

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ تقدم في الأعراف (١) . و « ٱلَّذِى » في موضع خفض نعتا للحيّ . وقال « بَيْنَهُمَا » ولم يقل بينهن؛ لأنه أراد الصنفين والنوعين والشيئين؛ كقول القُطَامِيّ :

ألم يحـــزنك أن حبـال قيس * وتغلب قـــد تباينتـا آنقطاعا

أراد وحبال تغلب فثنى، والحبال جمـع؛ لأنه أراد الشيئين والنوعين . ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ قال الزجاج : المعنى فآسأل عنه . وقد حكى هذا جماعة من أهل اللغة أن الباء تكون بمعنى عن؛ كما قال تعالى : « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِـعٍ » وقال الشاعر :

هَلَّا سألت الخيل يآبنـة مالك * إن كنت جاهلة بمـا لم تعـلمى (٢)

وقال [عَلْقَمة بن عَبَدَة] (٣) :

فإن تسألونى بالنسـاء فإننى * خبـيرٌ بأدواء النسـاءِ طبيبُ

أى عن النساء وعما لم تعلمى . وأنكره علىّ بن سليمان وقال : أهل النظر ينكرون أن تكون الباء بمعنى عن؛ لأن في هذا إفسادا لمعانى قول العرب : لو لقيت فلانا للقيك به الأسد؛ أى للقيك بلقائك إياه الأســد . المعنى فآسأل بسؤالك إياه خبـيرا . وكذلك قال آبن جبير : الخبـير هو الله . فـ « خَبِيرًا » نصب على المفعول به بالسؤال .

قلت : قول الزجاج يخرج على وجه حسن، وهو أن يكون الخبير غير الله؛ أى فآسأل عنه خبيرا، أى عالمـا به، أى بصـفاته وأسمائه . وقيـل : المعنى فآسأل له خبيرا، فهو نصب

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .　　(٢) البيت من معلقة عنترة .

(٣) في نسخ الأصل : « وقال آمرؤ القيس » وهو تحريف . والبيت من قصيدة لعلقمة مطلعها :

طحا بك قلب في الحسان طروب * بعيد الشباب عصر حان مشيب

Marfat.com

على الحال من الهاء المضمرة . قال المهدوي : ولا يحسن حالا إذ لا يخلو أن تكون الحال من السائل أو المسئول، ولا يصح كونها حالا من الفاعل؛ لأن الخبير لا يحتاج أن يسأل غيره. ولا يكون من المفعول ؛ لأن المسئول عنه وهو الرحمن خبير أبدا ، والحال في أغلب الأمر يتغير وينتقل ؛ إلا أن يحمل على أنها حال مؤكدة؛ مثل « وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا » فيجوز . وأما « الرَّحْمَٰنُ » ففي رفعه ثلاثة أوجه : يكون بدلا من المضمر الذي في « ٱسْتَوَىٰ » . ويجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هو الرحمن . ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء وخبره « فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا » . ويجوز الخفض بمعنى وتوكل على الحي الذي لا يموت الرحمنِ؛ يكون نعتا . ويجوز النصب على المدح .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي لله تعالى . ﴿ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ ﴾ على جهة الإنكار والتعجب، أي ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة؛ يعنون مسيلمة الكذاب. وزعم القاضي أبو بكر بن العربي أنهم إنما جهلوا الصفة لا الموصوف ، وٱستدل على ذلك بقوله : « وَمَا الرَّحْمَٰنُ » ولم يقولوا ومن الرحمن . قال ٱبن الحصار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ » . ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ هذه قراءة المدنيين والبصريين؛ أي لما تأمرنا أنت يا محمد . وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي « يَأْمُرُنَا » بالياء . يعنون الرحمن ؛ كذا تأوله أبو عبيد ، قال : ولو أقروا بأن الرحمن أمرهم ما كانوا كفارا . فقال النحاس : وليس يجب أن يتأول عن الكوفيين في قراءتهم هذا التأويل البعيد ، ولكن الأولى أن يكون التأويل لهم « أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا » النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فتصح القراءة على هذا ، وإن كانت الأولى أبين وأقرب تناولا . ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ أي زادهم قول القائل لهم ٱسجدوا للرحمن نفورا عن الدين . وكان سفيان الثوري يقول في هذه الآية : إلهي زادني لك خضوعا ما زاد عداك نفورا .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ (٦١)

قوله تعـالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ أى منازل ؛ وقد تقدّم ذكرها(١) . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ قال ابن عباس : يعنى الشمس؛ نظيره « وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » . وقراءة العامة « سِرَاجًا » بالتوحيد . وقرأ حمزة والكسائىّ « سُرُجًا » يريدون النجوم العظام الوقادة. والقراءة الأولى عند أبى عبيد أولى؛ لأنه تأوّل أن السُّرُج النجوم، وأن البروج النجوم، فيجىء المعنى نجوما ونجوما . النحاس: ولكن التأويل لهم أن أبان بن تغلب قال: السرج النجوم الدرارىّ. الثعلبى : كالزهرة والمشترى وزحل والسماكين ونحوها . ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ينير الأرض إذا طلع. وروى عِصمة عن الأعمش «وَقُمْرًا» بضم القاف وإسكان الميم. وهذه قراءة شاذة، ولو لم يكن فيها إلا أن أحمد بن حنبل وهو إمام المسلمين فى وقته قال : لا تكتبوا ما يحكيه عِصمة الذى يروى القراءات، وقد أولع أبو حاتم السجستانى بذكر ما يرويه عِصمة هـذا .

قوله تعـالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (٦٢)

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ خِلْفَةً ﴾ قال أبو عبيدة : الخلفة كل شىء بعـد شىء . وكل واحد من الليل والنهار يخلف صاحبه . ويقال للبطون : أصابته خِلفة؛ أى قيام وقعود يخلف هـذا ذاك . ومنه خلفة النبات، وهو ورق يخرج بعـد الورق الأوّل فى الصيف . ومن هذا المعنى قول زهير بن أبى سُلْمى :

بها العِينُ والآرامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً * وأَطْلاؤُها يَنْهَضنَ من كُلِّ مَجْثَمِ(٢)

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) العين (بالكسر) جمع أعين وعيناء، وهى بقر الوحش؛ سميت بذلك لسعة أعينها . والأطلاء : جمع طلا ، وهو ولد البقرة و ولد الظبيـة الصغير . والمجثم : الموضـع الذى يجثم فيه؛ أى يقام فيه .

Marfat.com

الرئم ولد الظبي وجمعه آرام ؛ يقول : إذا ذهب فوج جاء فوج . ومنه قول الآخر[1] يصف امرأة تنتقل من منزل فى الشتاء إلى منزل فى الصيف دأبا :

ولها بالماطرونِ إذا * أَكَلَ النملُ الذى جَمَعَا
خِلْفَةً حتى إذا آرتبعتْ * سَكَنتْ مِن جلقٍ بِيَعَا
فى بيوت وَسْطَ دَسْكَرةٍ * حولَها الزيتونُ قد يَنَعَا

قال مجاهد : « خِلْفَةً » من الخلاف ؛ هذا أبيض وهذا أسود ؛ والأوّل أقوى . وقيل : يتعاقبان فى الضياء والظلام والزيادة والنقصان . وقيل : هو من باب حذف المضاف ؛ أى جعل الليل والنهار ذوى خِلفة ، أى آختلاف . ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ ﴾ أى يتذكر ، فيعلم أن الله لم يجعله كذلك عبثا فيعتبر فى مصنوعات الله ، ويشكر الله تعالى على نعمه عليه فى العقل والفكر والفهم . وقال عمر بن الخطاب وآبن عباس والحسن : معناه من فاته شيء من الخير بالليل أدركه بالنهار ، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل . وفى الصحيح : "ما من آمرئ تكون له صلاة بالليل فغلبه عليها نوم فيصلى ما بين طلوع الشمس إلى صلاة الظهر إلا كتب الله له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقة" . وروى مسلم عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل" .

الثانيــة — قال آبن العربى : سمعت ذا الشهيد الأكبر يقول : إن الله تعالى خلق العبد حيا عالما ، وبذلك كماله ، وسلط عليه آفة النوم وضرورة الحدث ونقصان الخلقة ؛ إذ الكمال للأوّل الخالق ، فما أمكن الرجل من دفع النوم بقلة الأكل والسهر فى طاعة الله فليفعل . ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليلها فيذهب النصف من عمره لغوا ، وينام سدس النهار راحة فيذهب ثلثاه ويبقى له من العمر عشرون سنة . ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجل ثلثى عمره فى لذة فانية ، ولا يتلف عمره بسهر فى لذة باقية عند الغنىّ الوفىّ الذى ليس بعديم ولا ظلوم .

(١) هو يزيد بن معاوية . والماطرون : موضع بالشام قرب دمشق .

Marfat.com

الثالثــة — الأشياء لا تتفاضل بأنفسها؛ فإن الجواهر والأعراض من حيث الوجود متماثلة ، وإنما يقع التفاضل بالصفات . وقد آختلف أي الوقتين أفضل، الليل أو النهار . وفى الصوم غنية فى الدلالة، والله أعلم؛ قاله آبن العربي .

قلت : والليل عظيم قدره؛ أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بقيامه فقال : «وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ» ، وقال : «قُمِ ٱلَّيْلَ» على ما يأتى بيانه . ومدح المؤمنين على قيامه فقال: «تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ» . وقال عليه الصلاة والسلام : "والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل فى جوف الليل وفيه ساعة يستجاب فيها الدعاء وفيه ينزل الرب تبارك وتعالى" حسبما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الرابعــة — قرأ حمزة وحده « يَذْكُرَ» بسكون الذال وضم الكاف . وهى قراءة آبن وثاب وطلحة والنخعي . وفى مصحف أبي « يَتَذَكَّرَ» بزيادة تاء . وقرأ الباقون « يَذَّكَّرَ» بتشديد الكاف . ويَذْكُرَ ويَذَّكَّرَ بمعنى واحد . وقيل : معنى «يَذْكُرَ» بالتخفيف أى يذكر ما نسيه فى أحد الوقتين فى الوقت الثانى، أو ليذكر تنزيه الله وتسبيحه فيهما . ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ يقال : شكر يشكر شكرا وشكورا، مثل كفر يكفر كفرا وكفورا . وهذا الشكور على أنهما جعلهما قواما لمعاشهم . وكأنهم لما قالوا : « وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ» قالوا : هو الذى يقدر على هذه الأشياء .

قوله تعالى : وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ لما ذكر جهالات المشركين وطعنهم فى القرآن والنبوة ذكر عباده المؤمنين أيضا وذكر صفاتهم، وأضافهم إلى عبوديته تشريفا لهم ، كما قال : « سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ » وقد تقدم (١) . فمن أطاع الله وعبده وشغل سمعه وبصره ولسانه وقلبه بما أمره فهو الذى يستحق

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٥ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

آسم العبودية، ومن كان بعكس هذا شمله قوله تعالى : «أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ» يعني في عدم الاعتبار، كما تقدّم في «الأعراف»[1]. وكأنه قال : وعباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض ، فحذف هم؛ كقولك : زيد الأمير، أي زيد هو الأمير . فـ«الَّذِينَ» خبر مبتدإ محذوف؛ قاله الأخفش. وقيل الخبر قوله في آخر السورة : «أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا» وما بين المبتدإ والخبر أوصاف لهم وما تعلق بها؛ قاله الزجاج . قال : ويجوز أن يكون الخبر «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ» . و«يَمْشُونَ» عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم، فذكر من ذلك العظم، لا سيما وفي ذلك الانتقال في الأرض؛ وهو معاشرة الناس وخلطتهم .

قوله تعالى : «هَوْنًا» الهون مصدر الهيّن ، وهو من السكينة والوقار . وفي التفسير : يمشون على الأرض حلماء متواضعين، يمشون في آقتصاد . والقصد والتؤدة وحسن السَّمْت من أخلاق النبوة . وقال صلى الله عليه وسلم : "أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس في الإيضاع[2]" وروى في صفته صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا زال زال تقلعا ، ويخطو تكفؤا ، ويمشي هونا ، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب . التقلع : رفع الرجل بقوة. والتكفؤ : الميل إلى سنن المشي وقصده . والهون الرفق والوقار . والذريع الواسع الخطا؛ أي أن مشيه كان يرفع فيه رجله بسرعة ويمد خطوه ؛ خلاف مشية المختال، ويقصد سمته ؛ وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة . كما قال : كأنما ينحط من صبب ؛ قاله القاضي عياض . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسرع جبلة لا تكلفا . قال الزهري : سرعة المشي تذهب بهاء الوجه . قال آبن عطية : يريد الإسراع الحثيث لأنه يخل بالوقار؛ والخير في التوسط. وقال زيد بن أسلم : كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى : «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا» فما وجدت من ذلك شفاء ، فرأيت في المنام من جاءني فقال لي : هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض . قال القشيري : وقيل لا يمشون لإفساد ومعصية، بل في طاعة الله والأمور المباحة من غير هوك . وقد قال الله تعالى : «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٢٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) الإيضاع : سير مثل الخبب .

Marfat.com

كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » . وقال ابن عباس : بالطاعة والمعروف والتواضع . الحسن : حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا . وقيل : لا يتكبرون على الناس .

قلت : وهـذه كلها معانٍ متقاربة ، ويجمعها العلم بالله والخوف منه ، والمعرفة بأحكامه والخشية من عذابه وعقابه ؛ جعلنا الله منهم بفضله ومنّه . وذهبت فرقة إلى أن « هونا » مرتبط بقوله : « يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ » أن المشي هو هون . قال ابن عطية : ويشـبه أن يتأول هـذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هونا مناسـبة لمشيه ، فيرجع القول إلى نحو ما بيناه . وأما أن يكون المراد صـفة المشي وحده فبـاطل ؛ لأنه رب ماشٍ هونا رويدا وهو ذئب أطلس[1] . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكفأ فى مشيه كأنما يمشى فى صبب . وهو عليه الصلاة والسلام الصدر فى هذه الأمة . وقوله عليه الصلاة والسلام : "من مشى منكم فى طمع فليمش رويدا" إنما أراد فى عقد نفسه ، ولم يرد المشي وحده . ألا ترى أن المبطلين المتحلين بالدين تمسكوا بصورة المشى فقط ؛ حتى قال فيهم الشاعر ذما لهم:

كلُّهم يمشي رُوَيْد * كلُّهم يَطْلُبُ صَيْدْ

قلت : وفى عكسه أنشد ابن العربى لنفسه :

تواضعتُ فى العلياء والأصل كابر * وحزتُ قصابَ السبق بالهَوْن فى الأمر
سكونٌ فلا خبث السريرة أصله * وجلّ سكون الناس من عظم الكبر

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ قال النحاس : ليس « سَلَامًا » من التسليم إنما هو من التسلُّم ؛ تقول العرب : سلاما ، أى تسلُّما منك ، أى براءة منك . منصوب على أحد أمرين : يجوز أن يكون منصوبا بـ « قَالُوا » ، ويجوز أن يكون مصدرا ؛ وهذا قول سيبويه . قال ابن عطية : والذى أقوله : أن « قَالُوا » هو العامل فى « سَلَامًا » لأن المعنى قالوا هذا اللفظ . وقال مجاهد : معنى «سَلَامًا» سَدَادا . أى يقول للجاهل كلاما

(١) الأطلس من الذئاب : هو الذى تساقط شعره ، وهو أخبث ما يكون . وقيل : هو الذى فى لونه غبرة إلى السواد .

(٢) هذا من كلام أبي جعفر المنصور الخليفة فى مدح عمرو بن عبيد الزاهد المشهور . وتمامه :

* غير عمرو بن عبيد *

يدفعه به برفق ولين . فـ «قَالُوا» على هذا التأويل عامل فى قوله : «سَلَامًا» على طريقة النحويين ؛ وذلك أنه بمعنى قولا . وقالت فرقة : ينبغى للمخاطب أن يقول للجاهل سلاما ؛ بهذا اللفظ . أى سلمنا سلاما أو تسليما ، ونحو هذا ؛ فيكون العامل فيه فعلا من لفظه على طريقة النحويين .

مســألة : هذه الآية كانت قبل آية السيف ، نسخ منها ما يخص الكفرة وبقى أدبها فى المسلمين إلى يوم القيامة . وذكر سيبويه النسخ فى هذه الآية فى كتابه ، وما تكلم فيه على نسخ سواه ؛ رجح به أن المراد السلامة لا التسليم ؛ لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على الكفرة . والآية مكية فنسختها آية السيف . قال النحاس : ولا نعلم لسيبويه كلاما فى معنى الناسخ والمنسوخ إلا فى هذه الآية . قال سيبويه : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين لكنه على معنى قوله : تَسَلُّمًا منكم ، ولا خير ولا شر بيننا وبينكم . المبرد : كان ينبغى أن يقال : لم يؤمر المسلمون يومئـذ بحربهم ثم أمروا بحربهم . محمد بن يزيد : أخطأ سيبويه فى هـذا وأساء العبارة . ابن العربى : لم يؤمر المسلمون يومئـذ أن يسلموا على المشركين ولا نهوا عن ذلك ، بل أمروا بالصفح والهجر الجميل ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أنديتهم ويحييهم ويدانيهم ، ولا يداهنهم . وقد اتفق الناس على أن السفيه من المؤمنين إذا جفاك يجوز أن تقول له سلام عليك .

قلت : هـذا القول أشبه بدلائل السنة . وقد بينا فى سورة « مريم »[1] اختلاف العلماء فى جواز التسليم على الكفار ، فلا حاجة إلى دعوى النسخ ؛ والله أعلم . وقد ذكر النضر بن شميل قال حدثنى الخليل قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابى وكان من أعلم من رأيت ، فإذا هو على سطح ، فلما سلمنا ردّ علينا السلام وقال لنا : استووا . وبقينا متحيرين ولم ندر ما قال . فقال لنا أعرابى إلى جنبه : أمركم أن ترتفعوا . قال الخليل : هو من قول الله عز وجل : « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ » فصعدنا إليه فقال : هل لكم فى خبز فطير ، ولبن هجير ، وماء نمير[2] ؟ فقلنا الساعة فارقناه . فقال سلاما . فلم ندر ما قال . قال فقال الأعرابى : إنه

(١) راجع جـ ١١ ص ١١١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) الفطير : خلاف الخمير ، وهو العجين الذى لم يختمر . والهجير : الفائق الفاضل . والنمير : الناجع فى الرى .

Marfat.com

سألكم متاركة لا خير فيها ولا شر . فقال الخليل : هو من قول الله عز وجل : «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» . قال ابن عطية : ورأيت فى بعض التواريخ أن إبراهيم بن المهدى — وكان من المائلين على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه — قال يوما بحضرة المأمون وعنده جماعة : كنت أرى علىّ بن أبى طالب فى النوم فكنت أقول له من أنت ؟ فكان يقول : علىّ بن أبى طالب . فكنت أجىء معه إلى قنطرة فيذهب فيتقدمنى فى عبورها . فكنت أقول : إنما تدعى هذا الأمر بامرأة ونحن أحق به منك . فما رأيت له فى الجواب بلاغة كما يذكر عنه . قال المأمون : وبماذا جاوبك ؟ قال : فكان يقول لى سلاما . قال الراوى : فكأن إبراهيم بن المهدىّ لا يحفظ الآية أو ذهبت عنه فى ذلك الوقت . فنبه المأمون على الآية من حضره وقال : هو والله يا عم علىّ بن أبى طالب ، وقد جاوبك بأبلغ جواب، فخزى إبراهيم واستحيا . وكانت رؤيا لا محالة صحيحة .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ قال الزجاج : بات الرجل يبيت إذا أدركه الليل، نام أو لم ينم . قال زهير (١) :

فبتنا قياما عند رأس جوادنا * يزاولنا عن نفسه ونزاوله

وأنشدوا فى صفة الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق مناما * وآذرِ الدموع على الخدود سِجاما
واعلم بأنك ميت ومحاسَبٌ * يا من على سخط الجليل أقاما
لله قوم أخلصوا فى حبه * فرضى بهم واختصهم خدّاما
قوم إذا جنّ الظلام عليهم * باتوا هنالك سجدا وقياما
خمص البطون من التعفف ضمّرا * لا يعرفون سوى الحلال طعاما

(١) فى نسخ الأصل : « قال امرؤ القيس » . وهو تحريف . والبيت من قصيدة لزهير مطلعها :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله * وعرى أفراس الصبا ورواحله

Marfat.com

وقال ابن عباس : من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجدا وقائما .
وقال الكلبي : من أقام ركعتين بعد المغرب وأربعا بعد العشاء فقد بات ساجدا وقائما .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أى هم مع طاعتهم مشفقون خائفون وجلون من عذاب الله . ابن عباس : يقولون ذلك فى سجودهم وقيامهم . ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أى لازما دائما غير مفارق . ومنه سمى الغريم لملازمته . ويقال : فلان مغرم بكذا أى لازم له مولع به . وهذا معناه فى كلام العرب فيما ذكر ابن الأعرابى وابن عرفة وغيرهما . وقال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما وإن يعـ ـط جزيلا فإنه لا يبالى

وقال الحسن : قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم . وقال الزجاج : الغرام أشد العذاب . وقال ابن زيد : الغرام الشر . وقال أبو عبيدة : الهلاك . والمعنى واحد . وقال محمد بن كعب : طالبهم الله تعالى بثمن النعيم فى الدنيا فلم يأتوا به ، فأغرمهم ثمنها بإدخالهم النار . ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أى بئس المستقر و بئس المقام . أى إنهم يقولون ذلك عن علم ، و إذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون ، فيكون ذلك أقرب إلى النجح .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ﴾ اختلف المفسرون فى تأويل هذه الآية . فقال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى معناه أن من أنفق فى غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الإقتار ، ومن أنفق فى طاعة الله تعالى فهو القوام .

Marfat.com

وقال آبن عباس : من أنفق مائة ألف فى حق فليس بسرف، ومن أنفق درهما فى غير حقه فهو سرف، ومن منع من حق عليه فقد قتر . وقاله مجاهد وآبن زيد وغيرهما . وقال عون آبن عبد الله : الإسراف أن تنفق مال غيرك . قال آبن عطية : وهذا ونحوه غير مرتبط بالآية، والوجه أن يقال. إن النفقة فى معصية أمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره، وكذلك التعدى على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك، وإنما التأديب فى هذه الآية هو فى نفقة الطاعات فى المباحات، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقا آخر أو عيالا ونحو هذا ، وألا يضيق أيضا ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط فى الشح، والحسن فى ذلك هو القوام، أى العدل ، والقوام فى كل واحد بحسب عياله وحاله ، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب ، أو ضد هذه الخصال ، وخير الأمور أوساطها ؛ ولهذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق يتصدق بجميع ماله ، لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره فى الدين ، ومنع غيره من ذلك . ونعم ما قال إبراهيم النخعى : هو الذى لا يجيع ولا يعرى ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف . وقال يزيد بن أبى حبيب : هم الذين لا يلبسون الثياب لجمال، ولا يأكلون طعاما للذة . وقال يزيد أيضا فى هذه الآية : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثيابا للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويكنهم من الحر والبرد . وقال عبد الملك آبن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوجه آبنته فاطمة : ما نفقتك؟ فقال له عمر : الحسنة بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية . وقال عمر بن الخطاب : كفى بالمرء سرفا ألا يشتهى شيئا إلا آشتراه فأكله . وفى سنن آبن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن من السرف أن تأكل كل ما آشتهيت" وقال أبو عبيدة : لم يزيدوا على المعروف ولم يبخلوا . كقوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ » وقال الشاعر :

ولا تغل فى شىء من الأمر وآقتصد * كلا طرفى قصد الأمور ذميم

Marfat.com

وقال آخر :

إذا المرءُ أعطى نفسه كلّ ما آشتهت * ولم ينْهها تاقت إلى كل باطل

وساقت إليه الإثم والعار بالذى * دعته إليه من حلاوةِ عاجلِ

وقال عمر لآبنه عاصم : يا بنىّ ، كل فى نصف بطنك ؛ ولا تطرح ثوبا حتى تستخلقه ، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله فى بطونهم وعلى ظهورهم . ولحاتم طىّ :

إذا أنت قد أعطيت بطنك سؤله * وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

﴿ ولم يقتُرُوا ﴾ قرأ حمزة والكسائىّ والأعمش وعاصم ويحيى بن وثاب على آختلاف عنهما « يَقْتُرُوا » بفتح الياء وضم التاء، وهى قراءة حسنة؛ من قتر يقتُرُ . وهذا القياس فى اللازم، مثل قعد يقعد . وقرأ أبو عمرو بن العلاء وآبن كثير بفتح الياء وكسر التاء، وهى لغة معروفة حسنة . وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم الياء وكسر التاء . قال الثعلبىّ : كلها لغات صحيحة . النحاس : وتعجب أبو حاتم من قراءة أهل المدينة هذه ؛ لأن أهل المدينة عنده لا يقع فى قراءتهم الشاذ ، إنما يقال : أقتر يقتر إذا آفتقر، كما قال عز وجل : « وَعَلَى المُقْتِرِ قَدَرُهُ » وتأول أبو حاتم لهم أن المسرف يفتقر سريعا . وهذا تأويل بعيد ، ولكن التأويل لهم أن أبا عمر الجَرْمىّ حكى عن الأصمعىّ أنه يقال للإنسان إذا ضيق : قتر يقتر ويقتِر، وأقتر يقتِر . فعلى هذا تصح القراءة ، وإن كان فتح الياء أصح وأقرب تناولا ، وأشهر وأعرف . وقرأ أبو عمرو والناس « قَوَامًا » بفتح القاف ؛ يعنى عدلا . وقرأ حسان آبن عبد الرحمن « قِوَامًا » بكسر القاف؛ أى مبلغا وسدادا وملاك حال . والقِوام بكسر القاف : ما يدوم عليه الأمر ويستقر . وهما لغتان بمعنى . و « قَوَامًا » خبر كان، وآسمها مقدر فيها ؛ أى كان الإنفاق بين الإسراف والقتر قواما ؛ قاله الفراء . وله قول آخر يجعل « بَيْنَ » آسم كان وينصبها ؛ لأن هذه الألفاظ كثير آستعمالها فتركت على حالها فى موضع الرفع . قال النحاس : ما أدرى ما وجه هذا؛ لأن « بينا » إذا كانت فى موضع رفع رفعت؛ كما يقال : بَيْنُ عينيه أحمرُ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ إخراج لعباده المؤمنين من صفات الكفرة فى عبادتهم الأوثان، وقتلهم النفس بوأد البنات ، وغير ذلك من الظلم والاغتيال، والغارات ، ومن الزنى الذى كان عندهم مباحا . وقال من صرف هـذه الآية عن ظاهرها من أهل المعانى : لا يليق بمن أضافهم الرحمن إليه إضافة الاختصاص ، وذكرهم ووصفهم من صفات المعرفة والتشريف وقوع هذه الأمور القبيحة منهم حتى يمدحوا بنفيها عنهم لأنهم أعلى وأشرف ، فقال : معناها لا يدعون الهوى إلهـا، ولا يذلون أنفسهـم بالمعاصى فيكون قتلا لها . ومعنى ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى إلا بسكين الصبر وسيف المجاهدة فلا ينظرون إلى نساء ليست لهم بمحرم بشهوة فيكون سفاحا؛ بل بالضرورة فيكون كالنكاح . قال شيخنا أبو العباس : وهذا كلام رائق غير أنه عند السبر مائق . وهى نبعة باطنية ونزعة باطلية . وإنما صح تشريف عباد الله باختصاص الإضافة بعد أن تحلوا بتلك الصفات الحميدة وتخلوا عن نقائض ذلك من الأوصاف الذميمة، فبدأ فى صدر هذه الآيات بصفات التحلى تشريفا لهم، ثم أعقبها بصفات التخلى تبعيدا لها؛ والله أعلم .

قلت : ومما يدل على بطلان ما ادعاه هذا القائل من أن تلك الأمور ليست على ظاهرها ما روى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال قلت : يارسول الله ، أى الذنب أكبر عند الله ؟ قال : " أن تدعو لله ندا وهو خلقك " قال : ثم أى ؟ قال : " أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك" قال : ثم أى؟ قال :"أن تزانى حليلة جارك" فأنزل الله تعالى تصديقها : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » . والأثام فى كلام العرب العقاب، وبه قرأ ابن زيد وقتادة هذه الآية .

Marfat.com

ومنه قول الشاعر :

جَزى الله ٱبن عُروة حيث أَمسى * عُقوقاً والعُقوقُ له أثامُ

أى جزاء وعقوبة . وقال عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد : إن « أَثَاماً » وادٍ فى جهنم جعله الله عقابا للكفرة . قال الشاعر :

لقيت المهالك فى حربنا * وبعد المهالك تلق أثاما

وقال السدى : جبل فيها . قال :

وكان مُقامُنا ندعو عليهم * بأبطَح ذى المجاز له أثامُ

وفى صحيح مسلم أيضا عن ٱبن عباس : أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا؛ فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، وهو يخبرنا بأن لما عملنا كفارة ، فنزلت « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً » . ونزل « يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ » الآية . وقد قيل : إن هذه الآية « يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا » نزلت فى وحشىّ قاتل حمزة؛ قاله سعيد بن جبير وٱبن عباس ، وسيأتى فى « الزمر » بيانه .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان؛ على ما تقدم بيانه فى « الأنعام »(١) . ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ فيستحلون الفروج بغير نكاح ولا مِلك يمين . ودلت هذه الآية على أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل النفس بغير الحق ثم الزنى ؛ ولهذا ثبت فى حد الزنا القتل لمن كان محصنا أو أقصى الجلد لمن كان غير محصن .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ ﴾ قرأ نافع وٱبن عامر وحمزة والكسائى « يُضَاعَفْ . وَيَخْلُدْ » جزما . وقرأ ٱبن كثير « يُضَعَّفْ » بشد العين وطرح الألف؛ وبالجزم فى « يُضَعَّفْ . وَيَخْلُدْ » . وقرأ طلحة بن سليمان « نُضَعِّفْ » بضم النون وكسر العين المشدّدة . « الْعَذَابَ » نصب « وَيَخْلُدْ » جزم؛ وهى قراءة أبى جعفر وشيبة .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر « يُضَاعَفُ . وَيُخْلَدُ » بالرفع فيهما على العطف والاستئناف . وقرأ طلحة بن سليمان «وتَخْلُدُ» بالتاء على معنى مخاطبة الكافر . وروى عن أبى عمرو «ويُخْلَدْ» بضم الياء من تحت وفتح اللام . قال أبو على : وهى غلط من جهة الرواية . و« يُضَاعَفْ » بالجزم بدل من «يَلْقَ» الذى هو جزاء الشرط . قال سيبويه : مضاعفة العذاب لُقِيُّ الأثام . قال الشاعر :

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بنـا فى دِيارنا * تَجِدْ حَطَبًا جَزْلًا ونارًا تَأَجَّجَـا

وقال آخـــر :

إنّ علىّ اللهَ أَنْ تُبايِعَـا[(1)] * تُؤْخَذَ كَرْهًا أو تَجِيءَ طائعَـا

وأما الرفع ففيه قولان : أحدهما أن تقطعه ممـا قبله . والآخر أن يكون محمـولا على المعنى؛ كأن قائلا قال : ما لُقِيّ الأثام ؟ فقيل له : يضاعف له العـذاب . و﴿ مُهَانًا ﴾ معناه ذليلا خاسئا مبعَدا مطرودا .

قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٧٠)

قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عامل فى الكافر والزانى . واختلفوا فى القاتل من المسلمين على ما تقدم بيانه فى « النساء[(2)] » ومضى فى « المـائدة[(3)] » القول فى جواز التراخى فى الاستثناء فى اليمين، وهو مذهب ابن عباس مستدلا بهذه الآية .

قوله تعـالى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال النحاس : من أحسن ما قيل فيه أنه يكتب موضع كافرٍ مؤمنٌ، وموضع عاصٍ مطيع . وقال مجاهد والضحاك : أن يبدلهم

(١) الشاهد فى حمل تؤخذ على تبايع وإبداله منه . وأراد بقوله « الله » القسم، والمعنى إن على والله فلما حذف الجار نصب . (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٣٢ وما بعـدها طبعة أولى أو ثانيـة .

(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

الله من الشرك الإيمان وروى نحوه عن الحسن . قال الحسن : قوم يقولون التبديل فى الآخرة، وليس كذلك ، إنما التبديل فى الدنيا؛ يبدلهم الله إيمانا من الشرك، وإخلاصا من الشك، وإحصانا من الفجور . وقال الزجاج : ليس بجعل مكان السيئة الحسنة، ولكن بجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة . وروى أبو ذرّ عن النبى صلى الله عليه وسلم : "أن السيئات تبدّل بحسنات" . وروى معناه عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما. وقال أبو هريرة : ذلك فى الآخرة فيمن غلبت حسناته على سيئاته ، فيبدل الله السيئات حسنات . وفى الخبر : "لَيتمنينّ أقوام أنهم أكثروا من السيئات" فقيل : ومن هم ؟ قال : "الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات" . رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ ذكره الثعلبي والقشيري . وقيل : التبديل عبارة عن الغفران؛ أى يغفر الله لهم تلك السيئات لا أن يبدلها حسنات .

قلت : فلا يبعد فى كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ : "أتبِع السيئةَ الحسنةَ تمحها وخالِق الناس بخلق حسن" . وفى صحيح مسلم عن أبى ذرّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنى لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخرَ أهل النار خروجا منها رجلٌ يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرِضوا عليه صِغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عمِلت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفِق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له فإن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب قد عملتُ أشياء لا أراها ها هنا" فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه . وقال أبو طَويل (١) : يا رسول الله، أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئا، وهو فى ذلك لم يترك حاجّة ولا داجّة إلا اقتطعها فهل له من توبة ؟ قال : "هل أسلمت" قال : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك عبد الله ورسوله . قال : "نعم.

(١) أبو طويل : كنية شطب الممدود ، رجل من كندة .

Marfat.com

تفعل الخـيرات وتترك السيئـات يجعلهن الله كلهن خيرات " . قال : وغدراتى و فجـراتى يا نبيّ الله قال : " نعم " . قال : الله أكبر! فمـا زال يكررها حتى توارى . ذكره الثعلبى . قال مبشر ابن عبيد، وكان عالمـا بالنحو والعربية : الحاجّة التى تقطع على الحاج إذا توجهوا . والداجة التى تقطع عليهم إذا قفلوا . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعـالى : وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ لا يقال : من قام فإنه يقـوم ؛ فكيف قال من تاب فإنه يتوب ؟ فقال ابن عباس : المعنى من آمن من أهل مكة وهاجر ولم يكن قتـل وزنى بل عمل صالحا وأدّى الفرائض فإنه يتـوب إلى الله متابا ؛ أى فإنى قدمتهم وفضلتهم على من قاتل النبيّ صلى الله عليه وسلم واستحل المحارم . وقال القفّال : يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين، ولهذا قال : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ » ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملا صالحا فله حكم التائبين أيضا . وقيل : أى من تاب بلسانه ولم يحقق ذلك بفعله ، فليست تلك التوبة نافعـة ؛ بل من تاب وعمل صالحا فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذى تاب إلى الله متابا ؛ أى تاب حق التوبة وهى النصوح، ولذا أكد بالمصدر . ف « متابا » مصدر معناه التأكيد ؛ كقوله : « وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا » أى فإنه يتوب إلى الله حقا فيقبل الله توبته حقا .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾

فيــه مسئلتــان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ أى لا يحضرون الكذب والباطل ولا يشاهدونه . والزور كل باطل زُوّر وزُخرِف، وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد . وبه فسر الضحاك وابن زيد وابن عباس . وفى رواية عن ابن عباس أنه أعياد المشركين . عكرمة : لعبٌ

Marfat.com

كان فى الجاهلية يسمى بالزور. مجاهد: الغناء؛ وقاله محمد بن الحنفية أيضا. ابن جُريج: الكذب؛ وروى عن مجاهد . وقال علىّ بن أبى طلحة ومحمد بن علىّ : المعنى لا يشهدون بالزور؛ من الشهادة لا من المشاهدة . قال ابن العربى : أما القول بأنه الكذب فصحيح ، لأن كل ذلك إلى الكذب يرجع . وأما من قال إنه لعِبٌ كان فى الجاهلية فإنه يحرم ذلك إذا كان فيه قمار أو جهالة ، أو أمر يعود إلى الكفر. وأما القول بأنه الغناء فليس ينتهى إلى هذا الحد .

قلت : من الغناء ما ينتهى سماعه إلى التحريم ، وذلك كالأشعار التى توصف فيها الصور المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع و يخرجها عن الاعتدال ، أو يثير كامنا من حب اللهو؛ مثل قول بعضهم :

ذهبىّ اللون تحسب من * وجنتيه النار تُقتدَحُ
خوّفونى من فضيحته * ليته وافى وأفتضِحُ

لا سيما إذا اقترن بذلك شبّابات (١) وطارات مثل ما يفعل اليوم فى هذه الأزمان ، على ما بيناه فى غير هذا الموضع . وأما من قال إنه شهادة الزور، وهى :

الثانية — فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، و يسخّم وجهه ، و يحلق رأسه ، و يطوف به فى السوق . وقال أكثر أهل العلم : ولا تقبل له شهادة أبدا و إن تاب وحسنت حاله فأمره إلى الله . وقد قيل : إنه إذا كان غير مبرِّز فحسنت حاله قبلت شهادته حسبما تقدّم بيانه فى سورة « الحج » (٢) فتأمله هناك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٣) قد تقدّم الكلام فى اللغو ، وهو كل سقط من قول أو فعل؛ فيدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك مما قاربه ، ويدخل فيه سفه المشركين وأذاهم المؤمنين وذكر النساء وغير ذلك من المنكر . وقال مجاهد : إذا أوذوا صفحوا . وروى عنه إذا ذكر النكاح كفُّوا عنه . وقال الحسن : اللغو المعاصى كلها . وهذا جامع . و « كراما » معناه معرضين منكرين لا يرضَونه ، ولا يمالئون عليه ، ولا يجالسون أهله .

(١) الشبابة (بالتشديد) : نوع من المزمار (مولد) . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٥٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٣ ص ٩٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

أى مروا مر الكرام الذين لا يدخلون فى الباطل . يقـال : تكرم فلان عمـا يشينه ؛ أى تنزه وأكرم نفسه عنه . وروى أن عبد الله بن مسعود سمع غناء فأسرع وذهب ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " لقد أصبح ابن أم عبدٍ كريما " . وقيل : من المرور باللغو كريما أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾

فيـه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى إذا قرئ عليهم القرآن ذكروا آخرتهم ومعادهم ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع . وقال : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا ﴾ وليس ثَمَّ خرور ؛ كما يقال : قعـد يبكى وإن كان غير قاعد ؛ قاله الطبرى واختـاره ؛ قال ابن عطيـة : وهو أن يخروا صمـا وعميانا هى صفة الكفار ، وهى عبارة عن إعراضهم ؛ وقرن ذلك بقولك : قعـد فلان يشتمنى وقام فلان يبـكى وأنت لم تقصد الإخبـار بقعود ولا قيام ، وإنمـا هى توطئات فى الكلام والعبارة . قال ابن عطيـة : فكأن المستمع للذكر قائم القناة قويم الأمر ، فإذا أعرض وضـل كان ذلك خرورا ، وهو السقوط على غير نظام وترتيب ؛ وإن كان قد شبه به الذى يخر ساجدا لكن أصله على غير ترتيب . وقيل : أى إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم فخروا سجدا وبكيا ، ولم يخروا عليها صما وعميانا . وقال الفراء : أى لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا .

الثانيـــة ــ قال بعضهم : إن من سمع رجلا يقرأ سجـدة يسجد معـه ؛ لأنه قد سمع آيات الله تتلى عليه . قال ابن العربى : وهذا لا يلزم إلا القارئ وحده ، وأما غيره فلا يلزمه ذلك إلا فى مسئلة واحدة ؛ وهو أن الرجل إذا تلا القرآن وقرأ السجدة فإن كان الذى جلس معـه جلس يسمعه فليسجد معـه ، وإن لم يلتزم السماع فلا سجود عليـه . وقد مضى هـذا فى « الأعراف »(١) .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قال الضحاك : أى مطيعين لك . وفيه جواز الدعاء بالولد وقد تقدّم(١) . والذرية تكون واحدا وجمعا . فكونها للواحد قوله : « رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا » وكونها للجمع « ذُرِّيَّةً ضِعَافًا » وقد مضى فى « البقرة »(٢) اشتقاقها مستوفى . وقرأ نافع وآبن كثير وآبن عامر والحسن « وَذُرِّيَّاتِنَا » وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وطلحة وعيسى « وذريتنا » بالإفراد . « قُرَّةَ أَعْيُنٍ » نصب على المفعول ، أى قرة أعين لنا . وهذا نحو قوله عليه الصلاة والسلام لأنس : "اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه" وقد تقدّم بيانه فى « آل عمران »(٣) و « مريم » . وذلك أن الإنسان إذا بورك له فى ماله وولده قرت عينه بأهله وعياله ، حتى إذا كانت عنده زوجة آجتمعت له فيها أمانيه من جمال وعفة ونظر وحوطة أو كانت عنده ذرية محافظون على الطاعة ، معاونون له على وظائف الدين والدنيا ، لم يلتفت إلى زوج أحد ولا إلى ولده ، فتسكن عينه عن الملاحظة ، ولا تمتد عينه إلى ما ترى ؛ فذلك حين قرة العين ، وسكون النفس . ووحد « قُرَّة » لأنه مصدر ؛ تقول : قرت عينك قُرَّة . وقُرّة العين يحتمل أن تكون من القرار ، ويحتمل أن تكون من القُرّ وهو الأشهر . والقُرّ البرد ؛ لأن العرب تتأذى بالحر وتستريح إلى البرد . وأيضا فإن دمع السرور بارد ، ودمع الحزن سخن ، فمن هذا يقال : أقرّ الله عينك ، وأسخن الله عين العدو . وقال الشاعر :

فكم سخنتْ بالأمس عينٌ قريرةٌ * وقرّت عيونٌ دمعُها اليومَ ساكبُ

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ١٠٧ طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ٤ ص ٧٣ وجـ ١١ ص ٨٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أى قدوة يقتدى بنا فى الخير، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعى متقيا قدوة ؛ وهذا هو قصد الداعى . وفى الموطأ : " إنكم أيها الرهط أئمــة يقتدى بكم " فكان ابن عمر يقول فى دعائه : اللهم اجعلنا من أئمــة المتقين . وقال : « إماما » ولم يقل أئمة على الجمع؛ لأن الإمام مصدر. يقال: أمّ القومَ فلانٌ إمَامًا؛ مثل الصيام والقيام. وقال بعضهم: أراد أئمة، كما يقول القائل أميرنا هؤلاء، يعنى أمراءنا. وقال الشاعر:

يا عاذلاتى لا تَزِدْنَ مَلامَتى * إنّ العـواذل لَسْنَ لِى بامير

أى أمراء . وكان القشيرى أبو القاسم شـيخ الصوفية يقول : الإمامة بالدعاء لا بالدعوى ، يعنى بتـوفيق الله وتيسيره ومنته لا بما يدّعيـه كل أحد لنفسه . وقال إبراهيم النَّخَعىّ : لم يطلبوا الرياسة بل بأن يكونوا قدوة فى الدين . وقال ابن عباس : اجعلنا أئمة هدى ، كما قال تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّـةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » وقال مكحول : اجعلنا أئمة فى التقوى يقتدى بنا المتقون . وقيل : هـذا من المقلوب؛ مجازه : واجعل المتقين لنا إماما ؛ وقاله مجاهد . والقول الأول أظهر و إليــه يرجع قول ابن عباس ومكحول، ويكون فيه دليل على أن طلب الرياسة فى الدين ندب . و إمام واحد يدل على جمع؛ لأنه مصدر كالقيام . قال الأخفش : الإمام جمع آمّ من أمّ يؤمّ جمع على فِعال، نحو صاحب وصِحاب، وقائم وقِيام .

قوله تعـالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَـا صَبَرُوا ﴾ « أولئك » خبر و « عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ » فى قول الزجاج على ما تقدّم ، وهو أحسن ما قيل فيه . وما تخلل بين المبتدإ وخبره أوصافهم من التحلى والتخلى؛ وهى إحدى عشرة: التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشرك، والزنى والقتل، والتوبة وتجنب الكذب، والعفو عن المسىء، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله. و «الغرفة» الدرجة الرفيعة وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا، حكاه ابن شجرة . وقال الضحاك : الغرفة الجنة . « بِمَـا صَبَرُوا » أى بصبرهم على أمر ربهم ، وطاعة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام . وقال محمد ابن على بن الحسين : « بِمَـا صَبَرُوا » على الفقر والفاقة فى الدنيا . وقال الضحاك : « بِمَـا صَبَرُوا » عن الشهوات . ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ قرأ أبو بكر والمفضل والأعمش ويحيى

Marfat.com

وحمزة والكسائى وخلف « وَيَلْقَوْنَ » مخففة ، وآختاره الفراء ؛ قال لأن العرب تقول : فلان يُتلقّ بالسلام وبالتحية وبالخير (بالتاء)، وقلما يقولون فلان يُلَقّى السلامة . وقرأ الباقون « وَيُلَقَّوْنَ » وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى : « وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا » . قال أبو جعفر النحاس : وما ذهب إليه الفراء وآختاره غلط؛ لأنه يزعم أنها لو كانت « يُلَقَّوْنَ » كانت فى العربية بتحية وسلام ، وقال كما يقال : فلان يُتلقّ بالسلام وبالخير؛ فمن عجيب ما فى هذا الباب أنه قال يتلق والآية « يُلَقَّوْنَ » والفرق بينهما بيّن. لأنه يقال فلان يتلق بالخير ولا يجوز حذف (الباء)، فكيف يشبه هذا ذاك ! وأعجب من هذا أن فى القرآن « وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا » ولا يجوز أن يقرأ بغيره . وهذا يبين أن الأولى على خلاف ما قال. والتحية من الله والسلام من الملائكة . وقيل : التحية البقاء الدائم والملك العظيم ؛ والأظهر أنهما بمعنى واحد، وأنهما من قبل الله تعالى؛ دليله قوله تعالى: « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ » وسيأتى . ﴿ خَالِدِينَ ﴾ نصب على الحال ﴿ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ هذه آية مشكلة تعلقت بها الملحدة. يقال : ما عبأت بفلان أى ما باليت به ؛ أى ما كان له عندى وزن ولا قدر . وأصل يعبأ من العِبء وهو الثقل . وقول الشاعر[(1)] :

كأن بصدره وبجانبيه ❊ عَبِيرًا باتَ يَعْبَؤُهُ عَرُوسُ

أى يجعل بعضه على بعض . فالعبء الحمل الثقيل ، والجمع أعباء . والعبء المصدر . وما آستفهامية ؛ ظهر فى أثناء كلام الزجاج ، وصرح به الفراء . وليس يبعد أن تكون نافية؛ لأنك إذا حكمت بأنها آستفهام فهو نفى خرج مخرج الآستفهام ؛ كما قال تعالى : « هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ » قال ابن الشجرى : وحقيقة القول عندى أن موضع « ما » نصب ؛ والتقدير : أىّ عبء يعبأ بكم ؛ أى أىّ مبالاة يبالى ربى بكم لولا دعاؤكم؛ أى لولا دعاؤه إياكم لتعبدوه، فالمصدر الذى هو الدعاء على هذا القول مضاف إلى مفعوله؛ وهو آختيار

(١) هو أبو زبيد يصف أسدا، كما فى اللسان مادة « عبأ » . ورواه هكذا :

كأن بنحره وبمنكبيه ❊ عبيرا بات يعبؤه عروس

Marfat.com

الفراء . وفاعله محذوف وجواب لولا محذوف كما حذف فى قوله : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » تقديره : لم يعبأ بكم . ودليل هـذا القول قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » فالخطاب لجميـع الناس؛ فكأنه قال لقريش منهم : أى ما يبالى الله بكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت؛ وذلك الذى يعبأ بالبشر من أجله . ويؤيد هـذا قراءة ابن الزبير وغيره « فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ » فالخطاب بمـا يعبأ لجميع الناس، ثم يقول لقريش : فأنتم قد كذبتم ولم تعبدوه فسوف يكون التكذيب هو سبب العـذاب لزاما . وقال النقاش وغيره : المعنى ؛ لولا استغاثتكم إليه فى الشدائد ونحو ذلك . بيانه : «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِـينَ » ونحو هـذا . وقيل : « مَا يَعْبَأُ بِكُمْ » أى بمغفرة ذنوبكم ولا هو عنـده عظيم « لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ » معه الآلهة والشركاء . بيانه : « مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ » ؛ قاله الضحاك . وقال الوليـد بن أبى الوليد : بلغنى فيهـا أى ما خلقتـكم ولى حاجة إليكم إلا تسألونى فأغفر لكم وأعطيكم . وروى وهب بن مُنَبِّه أنه كان فى التـوراة « يا بن آدم وعزتى ما خلقتك لأربحَ عليك إنمـا خلقتك لتربحَ علىّ فاتخذنى بدلا من كل شىء فأنا خير لك من كل شىء » . قال ابن جنى قـرأ ابن الزبير وابن عباس « فَقَـدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ » . قال الزهراوى والنحاس : وهى قراءة ابن مسعود وهى على التفسير؛ للتاء والميم فى « كذبتم » . وذهب القتبى والفارسى إلى أن الدعاء مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف، الأصـل لولا دعاؤكم آلهة من دونه، وجواب « لولا » محذوف تقديره فى هذا الوجه : لم يعذبكم . ونظير قوله : لولا دعاؤكم آلهة قوله : «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ» . ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أى كذبتم بمـا دعيتم إليه ؛ هذا على القول الأول ؛ وكذبتم بتوحيد الله على الثانى . ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أى يكون تكذيبكم ملازما لكم . والمعنى: فسوف يكون جزاء التكذيب كما قال: « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا » أى جزاء ما عملوا وقوله : « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» أى جزاء ما كنتم تكفرون . وحسن إضمار التكذيب لتقدم ذكر فعـله ؛ لأنك إذا ذكرت الفعل دل بلفظه على مصدره، كما قال : « وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » أى لكان الإيمان. وقوله : «وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ» أى يرضى الشكر. ومثله كثير. وجمهور المفسرين

Marfat.com

على أن المراد باللزام هنا ما نزل بهم يوم بدر، وهو قول عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وأبي مالك ومجاهد ومقاتل وغيرهم . وفي صحيح مسلم عن عبد الله : وقد مضت البطشة والدخان واللزام . وسيأتي مبينا في سورة «الدخان» إن شاء الله تعالى . وقالت فرقة : هو توعد بعذاب الآخرة . وعن ابن مسعود أيضا : اللزام التكذيب نفسه؛ أي لا يُعطَون التوبة منه؛ ذكره الزهراوي؛ فدخل في هذا يوم بدر وغيره من العذاب الذي يُلزَمونه . وقال أبو عبيدة: لزاما فيصلا [أي] فسوف يكون فيصلا بينكم وبين المؤمنين . والجمهور من القراء على كسر اللام؛ وأنشد أبو عبيدة لصخر:

فإمّا يَنجُوَا من خَسْف أرضٍ * فقد لَقِيا حُتُوفَهما لِزاما

ولزاما وملازمة واحد . وقال الطبري : «لزاما» يعني عذابا دائما لازما ، وهلاكا مفنيا يلحق بعضكم ببعض؛ كقول أبي ذؤيب :

ففاجأه بعاديةٍ[1] لِزامٍ * كما يَتَفَجَّرُ الحوضُ اللَّقِيفُ

يعني باللزام الذي يتبع بعضه بعضا، وباللقيف المتساقط الحجارة المتهدم . النحاس : وحكى أبو حاتم عن أبي زيد قال سمعت قَعْنَبا أبا السَّمَّال يقرأ «لَزَامًا» بفتح اللام . قال أبو جعفر: يكون مصدر لَزِم والكسر أولى ، يكون مثل قِتال ومقاتلة ، كما أجمعوا على الكسر في قوله عز وجل : «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى» . قال غيره : اللِّزام بالكسر مصدر لازم لِزاما مثل خاصم خصاما ، واللَّزام بالفتح مصدر لَزِم مثل سَلِم سلاما أي سلامة؛ فاللَّزام بالفتح اللّزوم، واللِّزام الملازمة، والمصدر في القراءتين وقع موقع اسم الفاعل، فاللِّزام وقع موقع ملازِم ، واللَّزام وقع موقع لازِم . كما قال تعالى : «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا» أي غائرا . قال النحاس : وللفراء قول في اسم يكون؛ قال : يكون مجهولا وهذا غلط؛ لأن المجهول لا يكون خبره إلا جملة ، كما قال تعالى : «إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ» وكما حكى النحويون كان زيد منطلق ويكون المبتدأ وخبره خبر المجهول، والتقدير : كان الحديث؛ فأما أن يقال كان منطلقا ، ويكون في كان مجهول فلا يجوز عند أحد علمناه . وبالله التوفيق وهو المستعان والحمد لله رب العالمين .

---

(١) العادية : القوم يعدون على أرجلهم؛ أي لحملتهم لزام كأنهم لزموه لا يفارقون ما هم فيه . وشبه حملتهم بتهدم الحوض إذا تهدم . ويروى : * فلم ير غير عادية لزاما *

Marfat.com

سورة الشعراء

هى مكية فى قول الجمهور . وقال مقاتل : منها مدنى ؛ الآية التى يذكر فيها الشعراء، وقوله : « أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » . وقال ابن عباس وقتادة : مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله : « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » إلى آخرها . وهى مائتان وسبع وعشرون آية . وفى رواية : ست وعشرون . وعن ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أعطيت السورة التى تذكر فيها البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه وطسم من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصّل نافلة " . وعن البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أعطانى السبع الطوال مكان التوراة وأعطانى المبين مكان الإنجيل وأعطانى الطواسين مكان الزبور وفضلنى بالحواميم والمفصّل ما قرأهن نبىّ قبلى " .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿طسٓمٓ﴾ قرأ الأعمش ويحيى وأبو بكر والمفضل وحمزة والكسائى وخلف بإمالة الطاء مشبعا فى هذه السورة وفى أختيها . وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهرى بين اللفظين، وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ الباقون بالفتح مشبعا . قال الثعلبي : وهى كلها لغات فصيحة . وقد مضى فى « طـه »[1] قول النحاس فى هذا . قال النحاس : وقرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم والكسائى « طسٓمٓ » بإدغام النون فى الميم، والفراء يقول بإخفاء النون . وقرأ الأعمش وحمزة « طسين ميم » بإظهار النون . قال النحاس : النون الساكنة والتنوين أربعة أقسام عند سيبويه : يبيّنان عند حروف الحلق، ويدغمان عند الراء واللام والميم والواو والياء، ويقلبان ميما عند الباء ويكونان من الخياشيم ؛ أى لا يبينان؛ فعلى هذه الأربعة الأقسام التى نصها سيبويه لا تجوز هذه القراءة ؛ لأنه ليس هاهنا حرف من حروف الحلق فتبيّن النون عنده، ولكن فى ذلك وُجَيْه : وهو أن حروف المعجم حكمها أن يوقف عليها، فإذا وقف عليها تبينت النون . قال الثعلبي : الإدغام آختيار أبى عبيد وأبى حاتم قياسا على كل القرآن، وإنما أظهرها أولئك للتبيين والتمكين، وأدغمها هؤلاء لمجاورتها حروف الفم . قال النحاس : وحكى أبو إسحق فى كتابه « فيما يجرى وفيما لا يجرى » أنه يجوز أن يقال « طسينَ ميمُ » بفتح النون وضم الميم، كما يقال هـذا معدى كربُ . وقال أبو حاتم : قرأ خالد « طسينَ ميمُ » . آبن عباس : «طسم» قَسَم وهو آسم من أسماء الله تعالى، والمقسم عليه « إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عليهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً » . وقال قتادة : آسم من أسماء القرآن أقسم الله به . مجاهد : هو آسم السورة؛ ويحسن افتتاح السورة . الربيع : حساب مدّة قوم . وقيل : قارعة تحل بقوم . « طسٓمٓ » و « طسٓ » واحد . قال[2] :

وَفَاؤُكُمَا كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ * بأن تُسعِدَا والدَّمعُ أشفاهُ ساجِمُهْ

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) هو المتنبي ؛ والبيت مطلع قصيدة له مدح بها أبا الحسن على بن عبد الله العدوى . وأشجاه : أحزنه . والطاسم : الدارس . والساجم : السائل . والمعنى : طلب وفاءهما بالإسعاد وهو الإعانة على البكاء والموافقة ، ولذلك قال : (والدمع أشفاه ساجمه) والمعنى ابكيا معى بدمع فى غاية السجوم فهو أشفى للوجد ، فإن الربع فى غاية الطسوم وهو أشجى للحب . وأراد بالوفاء هنا البكاء لأنهما عاهداه على الإسعاد . « شرح التبيان جـ ٢ للعكبرى » .

Marfat.com

وقال القرظي : أقسم الله بطَوْله وسنائه ومُلكه . وقال عبد الله بن محمد بن عَقيل : الطاء طورسيناء والسين إسكندرية والميم مكة . وقال جعفر بن محمد بن عليّ : الطاء شجرة طُوبى، والسين سِدرة المنتهى ، والميم محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الطاء من الطاهر والسين من القدوس — وقيل من السميع وقيل من السلام — والميم من المجيد . وقيل : من الرحيم . وقيل : من الملك . وقد مضى هذا المعنى في أول سورة « البقرة »(١) . والطَّواسيمُ والطَّواسينُ سور في القرآن جُمعت على غير قياس . وأنشد أبو عبيدة :

و بالطَّواسِيم التى قد ثُلِّثت * و بالحوامِيمِ التى قد سُبِّعتْ

قال الجوهري : والصواب أن تجمع بذوات وتضاف إلى واحد ، فيقال : ذواتُ طسم وذواتُ حم .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ رفع على إضمار مبتدإ أي هذه « تلك آيات الكتاب المبين » التي كنتم وعدتم بها ؛ لأنهم قد وعدوا في التوراة والإنجيل بإنزال القرآن . وقيل : « تلك » بمعنى هذه . ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ﴾ أي قاتل نفسك ومهلكها . وقد مضى في « الكهف »(٢) بيانه . ﴿ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي لتركهم الإيمان . قال الفراء : « أَنْ » في موضع نصب ؛ لأنها جزاء . قال النحاس : و إنما يقال : بإن مكسورة لأنها جزاء؛ كذا المتعارف . والقول في هذا ما قاله أبو إسحق في كتابه في القرآن ؛ قال : « أَنْ » في موضع نصب مفعول من أجله ؛ والمعنى لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان . ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً ﴾ أي معجزة ظاهرة وقدرة باهرة فتصير معارفهم ضرورية ، ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية . وقال أبو حمزة الثماليّ في هذه الآية : صوت يسمع من السماء في النصف من شهر رمضان ؛ تخرج به العواتق من البيوت وتضج له الأرض . وهذا فيه بعد ؛ لأن المراد قريش لا غيرهم . ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ ﴾ أي فتظل أعناقهم ﴿ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ قال مجاهد : أعناقهم كبراؤهم ؛ وقال النحاس : ومعروف في اللغة ؛ يقال : جاءني عُنُق من الناس أي رؤساء منهم . أبو زيد والأخفش : «أَعْنَاقُهُمْ» جماعاتهم ؛

(١) راجع ج ١ ص ١٥٤ طبعة ثانية أو ثالثة .	(٢) راجع ج ١٠ ص ٣٤٨ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

يقال : جاءنى عُنُق من الناس أى جماعة . وقيل : إنما أراد أصحاب الأعناق ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . قتادة : المعنى لو شاء لأنزل آية يذلون بها فلا يلوى أحد منهم عنقه إلى معصية . ابن عباس : نزلت فينا وفى بنى أمية ستكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا أعناقهم بعد معاوية ؛ ذكره الثعلبي والغزنوى . وخاضعين وخاضعة هنا سواء ؛ قاله عيسى بن عمر وآختاره المبرد . والمعنى : إنهم إذا ذلّت رقابهم ذلّوا ؛ فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها . ويسوغ فى كلام العرب أن تترك الخبر عن الأول، وتخبر عن الثانى؛ قال الراجز :

طولُ الليالى أسرعتْ فى نَقْضى * طَوَيْنَ طُولِى وطَوَيْنَ عَرْضى

فأخبر عن الليالى وترك الطول . وقال جرير[1] :

أَرَى مَرَّ السِّنِينِ أَخَذْنَ مِنّى * كما أَخَذَ السِّرارُ من الهِلالِ

وإنما أجاز ذلك لأنه لو أسقط مرّ وطول من الكلام لم يفسد معناه، فكذلك رد الفعل إلى الكناية فى قوله : « فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ » لأنه لو أسقط الأعناق لما فسد الكلام، ولأدّى ما بقى من الكلام عنه حتى يقول : فظلوا لها خاضعين . وعلى هذا آعتمد الفراء وأبو عبيدة . والكسائى يذهب إلى أن المعنى خاضعيها هم، وهذا خطأ عند البصريين والفراء . ومثل هذا الحذف لا يقع فى شىء من الكلام؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ تقدم فى « الأنبياء »[2] . ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ أى أعرضوا ومن أعرض عن شىء ولم يقبله فهو تكذيب له . ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وعيد لهم ؛ أى فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا والذى آستهزءوا به .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ نبه على عظمته وقدرته وأنهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم لعلموا أنه الذى يستحق أن يعبد ؛ إذ هو القادر على كل شىء . والزوج هو اللون ؛ قاله الفراء . و « كريم » حسن شريف ، وأصل

---

(١) تقدم البيت فى ج٧ ص ٢٦٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج١١ ص٢٦٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

الكرم فى اللغة الشرف والفضل ، فنخلة كريمة أى فاضلة كثيرة الثمر[1] ، ورجل كريم شريف فاضل صفوح . ونبتت الأرض وأنبتت بمعنى . وقد تقدّم فى سورة « البقرة » . والله سبحانه المخرج والمنبت له . وروى عن الشعبى أنه قال : الناس من نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم ، ومن صار إلى النار فهو لئيم . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أى فيما ذكر من الإنبات فى الأرض لدلالته على أن الله قادر ، لا يعجزه شىء . ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى مصدقين لما سبق من علمى فيهم . و « كان » هنا صلة فى قول سيبويه ؛ تقديره : وما أكثرهم مؤمنين . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ يريد المنيع المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه .

قوله تعالى : وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ « إذ » فى موضع نصب ؛ المعنى : واتل عليهم « إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ » ويدل على هذا أنّ بعده « واتل عليهم نبأ إبراهيم » ذكره النحاس . وقيل : المعنى ؛ واذكر إذ نادى كما صرح به فى قوله : « وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ » وقوله : « وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ » وقوله : « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ » . وقيل : المعنى ؛ « وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ » كان كذا وكذا . والنداء الدعاء بيافلان ، أى قال ربك يا موسى ﴿ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ثم أخبر من هم فقال : ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ فـ « قوم » بدل ؛ ومعنى « أَلَا يَتَّقُونَ » ألا يخافون عقاب الله ؟ وقيل هذا من الإيماء إلى الشىء لأنه أمره أن يأتى القوم الظالمين ، ودل قوله : « يتقون » على أنهم لا يتقون ، وعلى أنه أمرهم بالتقوى . وقيل : المعنى ؛ قل لهم « أَلَا تَتَّقُونَ » وجاء بالياء لأنهم غيب وقت الخطاب ، ولو جاء بالتاء

(١) فى نسخة : كثيرة التثمير .

Marfat.com

الحاز . ومثله « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ » بالتاء والياء . وقد قرأ عبيد بن عمير وأبو حازم « أَلَا تَتَّقُونَ » بتاءين أى قل لهم « أَلَا تَتَّقُونَ » . ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ أى قال موسى ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ أى فى الرسالة والنبوة . ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ لتكذيبهم إياى . وقراءة العامة « وَيَضِيقُ » « وَلَا يَنْطَلِقُ » بالرفع على الاستئناف . وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوة « وَيَضِيقَ — وَلَا يَنْطَلِقَ » بالنصب فيهما ردًّا على قوله : « أَنْ يُكَذِّبُونِ » قال الكسائى : القراءة بالرفع؛ يعنى فى « يَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » يعنى نسقا على « إِنِّي أَخَافُ » . قال الفراء : و يقرأ بالنصب . حكى ذلك عن الأعرج وطلحة وعيسى ابن عمر وكلاهما له وجه . قال النحاس : الوجه الرفع ؛ لأن النصب عطف على « يُكَذِّبُونِ » وهذا بعيد يدل على ذلك قوله عز وجل : « وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي » فهذا يدل على أن هذه كذا . ومعنى « وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » فى المحاجة على ما أحب؛ وكان فى لسانه عُقْدة على ما تقدّم فى «طه»(١) . ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ أرسل إليه جبريل بالوحى ، واجعله رسولا معى ليؤازرنى و يظاهرنى و يعاوننى . ولم يذكر هنا ليعيننى ؛ لأن المعنى كان معلوما، وقد صرح به فى سورة « طه » : « وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا » وفى القصص : « أَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي » وكأن موسى أذن له فى هذا السؤال، ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة بل طلب من يعينه . ففى هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر ، ويخاف من نفسه تقصيرا ، أن يأخذ من يستعين به عليه ، ولا يلحقه فى ذلك لوم . ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ الذنب هنا قتل القبطى واسمه فاثور على ما يأتى فى «القصص» بيانه ، وقد مضى فى « طه » ذكره . وخاف موسى أن يقتلوه به ، ودل على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله وأن لا فاعل إلا هو ؛ إذ قد يسلط من شاء على من شاء . ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ أى كلا لن يقتلوك . فهو ردع و زجر عن هذا الظن، وأمر بالثقة بالله تعالى؛ أى ثق بالله وانزجر عن خوفك منهم؛ فإنهم لا يقدرون على قتلك،

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٢ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

ولا يقوون عليه . ﴿ فَاذْهَبَا ﴾ أى أنت وأخوك فقد جعلته رسولا معك . ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أى ببراهيننا وبالمعجزات . وقيل : أى مع آياتنا . ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ يريد نفسه سبحانه وتعالى . ﴿ مُسْتَمِعُونَ ﴾ أى سامعون ما يقولون وما يجاوبون . وإنما أراد بذلك تقوية قلبيهما وأنه يعينهما ويحفظهما . والاستماع إنما يكون بالإصغاء، ولا يوصف البارى سبحانه بذلك. وقد وصف سبحانه نفسه بأنه السميع البصير . وقال فى «طه» : « أَسْمَعُ وَأَرَى » وقال : «مَعَكُمْ» فأجراهما مجرى الجمع ؛ لأن الاثنين جماعة . ويجوز أن يكون لهما ولمن أرسلا إليه . ويجوز أن يكون لجميع بنى إسرائيل .

قوله تعالى : فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال أبو عبيدة : رسول بمعنى رسالة والتقدير على هذا؛ إنا ذوو رسالة رب العالمين . قال الهذلى :

أَلِكْنِي إليها وخيرُ الرسو * لِ أعلمُهم بنواحي الخبر

ألكنى إليها معناه أرسلنى . وقال آخر[1] :

لقد كَذَبَ الواشون ما بُحْتُ عندهم * بِسِرٍّ ولا أرسلتُهم برسولِ[1]

(١) هو كثير . ويروى أيضا فى اللسان مادة « رسل » :

* بليلى ولا أرسلتهم برسيل *

Marfat.com

آخـــر:[1] أَلَا أَبْلِغْ بنى عمرو رسولًا * بأنى عن فُتَاحَتِكُمْ غنىّ[1]

وقال العباس بن مرداس :

أَلَا مَن مُبلِغٌ عنّى خُفَافًا * رسولًا بيتُ أهلِك مُنْتَهاها

يعنى رسالة فلذلك أنثها . قال أبو عبيد : ويجوز أن يكون الرسول فى معنى الاثنين والجمع؛ فتقول العرب : هـذا رسولى ووكيلى ، وهـذان رسولى ووكيلى ، وهـؤلاء رسولى ووكيلى . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ . وقيل : معناه إن كل واحد منا رسول رب العالمين . ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى أطلقهم وخلّ سبيلهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين ولا تستعبدهم؛ وكان فرعون آستعبدهم أربعمائة سنة ، وكانوا فى ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفا . فآنطلقا إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة فى الدخول عليه ، فدخل البوّاب على فرعون فقال : هاهنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين . فقال فرعون : آيذن له لعلنا نضحك منه؛ فدخلا عليـه وأديا الرسالة . وروى وهب وغيره : أنهما لمـا دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج سباعا من أسد ونمور وفهود يتفرج عليها ، فخاف سواسها أن تبطش بموسى وهرون، فأسرعوا إليها ، وأسرعت السباع إلى موسى وهرون، فأقبلت تلحس أقدامهما، وتبصبص إليهما بأذنابها، وتلصق خدودها بفخذيهما، فعجب فرعون من ذلك فقال : ما أنتما ؟ قالا : « إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » فعرف موسى لأنه نشأ فى بيته ؛ فـ ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ على جهة المنّ عليـه والاحتقار . أى ربيناك صغيرا ولم نقتلك من جمـلة من قتلنا ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ فمتى كان هذا الذى تدعيه . ثم قرره بقتل القبطى بقوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ والفَعْلة بفتح الفاء المرة من الفعل . وقرأ الشعبى « فِعلتك » بكسر الفاء والفتح أولى؛ لأنها المرة الواحدة، والكسر بمعنى الهيئة والحال، أى فعلتك التى تعرف فكيف تدعى مع علمنا أحوالك بأن الله أرسلك . وقال الشاعر :

كأنّ مِشيَتَها مِن بيت جارتِها * مَرُّ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَـلُ

(١) هو الأسعر الجعفىّ . عن فتاحتكم : أى عن حكمكم .

Marfat.com

ويقال : كان ذلك أيام الرِّدة والرِّدة . ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ قال الضحاك : أى فى قتلك القبطى إذ هـو نفس لا يحل قتـله . وقيل : أى بنعمتى التى كانت لنـا عليك من التربية والإحسان إليك ؛ قاله آبن زيد . الحسن : « مِنَ الكافِرِينَ » فى أنى إلهك . السدى : « مِنَ الكافِرِينَ » بالله لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذى تعيبه . وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطى وبين رجوعه نبيـا أحد عشر عاما غير أشهر . فـ ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا ﴾ أى فعلت تلك الفعلة يريد قتـل القبطى ﴿ وَأَنَا ﴾ إذ ذاك ﴿ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى من الجاهلين ؛ فنفى عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل . وكذا قال مجاهد « مِنَ الضَّالِّينَ » من الجاهلين . ابن زيد : من الجاهلين بأن الوكزة تبلغ القتـل . وفى مصحف عبد الله « مِنَ الجاهِلِين » ويقال لمن جهل شيئا ضل عنـه . وقيل : « وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » من الناسين ؛ قاله أبو عبيدة . وقيل : « وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » عن النبوّة ولم يأتنى عن الله فيه شىء ، فليس علىّ فيما فعلته فى تلك الحالة توبيخ . وبيّن بهـذا أن التربية فيهم لا تنافى النبوّة والحلم على الناس، وأن القتل خطأ أو فى وقت لم يكن فيه شرع لا ينافى النبوّة .

قوله تعـالى : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ أى خرجت من بينكم إلى مَدْين كما فى سورة « القصص » : « فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » وذلك حين القتل . ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا ﴾ يعنى النبوّة؛ عن السدى وغيره . الزجاج : تعليم التوراة التى فيها حكم الله . وقيل علما وفهما . ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ آختلف الناس فى معنى هذا الكلام ؛ فقال السدى والطبرى والفراء : هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة ؛ كأنه يقول : نعم ! وتربيتك نعمة علىّ من حيث عبّدت غيرى وتركتنى ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتى . وقيل : هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار ؛ أى أتمنّ علىّ بأن ربيتنى وليدا وأنت قد آستعبدت بنى إسرائيل وقتلتهم ؟ ! أى ليست بنعمة ؛ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهـم قومى ؛ فكيف تذكر إحسانك إلىّ على

Marfat.com

الخصوص ؟ ! قال معناه قتادة وغيره . وقيل : فيه تقدير آستفهام ؛ أى أو تلك نعمة ؟ قاله الأخفش والفراء أيضا وأنكره النحاس وغيره . قال النحاس : وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى، وحذفها محال إلا أن يكون فى الكلام أم ؛ كما قال الشاعر :

* تَرُوحُ من الحيّ أم تَبْتَكِر *

ولا أعلم بين النحويين آختلافا فى هذا إلا شيئا قاله الفراء . قال : يجوز حذف ألف الاستفهام فى أفعال الشك ؛ وحكى تُرى زيدا منطلقا ؟ بمعنى أتُرى . وكان على بن سليمان يقول فى هذا : إنما أخذه من ألفاظ العامة . قال الثعلبى : قال الفراء ومن قال إنها إنكار قال معناه أو تلك نعمة؟ على طريق الاستفهام؛ كقوله : «هَذَا رَبِّى» «فَهُمُ الخَالِدُونَ» . قال الشاعر (١) :

رَفَوْنِى وقالوا يا خُوَيلِدُ لا تُرَعْ * فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

وأنشد الغزنوى شاهدا على ترك الألف قولهم :

لم أنس يوم الرحيل وقفتَها * وجفنها من دموعها شَرِقُ
وقولَها والركابُ واقفةٌ * تَركتنى هكذا وتنطلقُ

قلت : ففى هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم أم خلاف قول النحاس . وقال الضحاك : إن الكلام خرج مخرج التبكيت والتبكيت يكون بآستفهام وبغير آستفهام ؛ والمعنى : لو لم تقتل بنى إسرائيل لربانى أبواى؛ فأى نعمة لك علىّ! فأنت تمنّ علىّ بما لا يجب أن تمنّ به . وقيل : معناه كيف تمنّ بالتربية وقد أهنت قومى ؟ ومن أهين قومه ذل . و «أَنْ عَبَّدْتَ» فى موضع رفع على البدل من « نعمة » ويجوز أن تكون فى موضع نصب بمعنى : لأن عبدت بنى إسرائيل؛ أى آتخذتهم عبيدا . يقال : عبدته وأعبدته بمعنى؛ قاله الفراء وأنشد :

عَلَامَ يُعْبِدُنِى قومى وقد كَثُرَت * فيهم أباعرُ ما شاءوا وعِبْدانُ

(١) هو أبو خراش الهذلى ؛ وقد تقدم شرح البيت فى جـ ١١ ص ٢٨٧ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا
تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ
ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ
إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ
ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾
وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا
لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾
قَالُوٓا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ
عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ
هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾
فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنتُم
مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾
فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى

Marfat.com

عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ لما غلب موسى فرعون بالحجة ولم يجد اللعين من تقريره على التربية وغير ذلك حجة رجع إلى معارضة موسى فى قوله : رسول رب العالمين ؛ فاستفهمه استفهاما عن مجهول من الأشياء . قال مكىّ وغيره : كما يستفهم عن الأجناس فلذلك استفهم بـ « ما » . قال مكى : وقد ورد له استفهام بـ « من » فى موضع آخر ويشبه أنها مواطن؛ فأتى موسى بالصفات الدالة على الله من مخلوقاته التى لا يشاركه فيها مخلوق، وقد سأل فرعون عن الجنس ولا جنس لله تعالى؛ لأن الأجناس محدَثة، فعلم موسى جهله فأضرب عن سؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التى تبيّن للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها . فقال فرعون : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراعنة قبله كذلك . فزاد موسى فى البيان بقوله : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فجاء بدليل يفهمونه عنه ؛ لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا وأنه لا بد لهم من مغيِّر، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا، وأنهم لا بد لهم من مكوِّن . فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى ليس يجيبنى عما أسأل؛ فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأن قال : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ أى ليس ملكه كملكك؛ لأنك إنما تملك بلدا واحدا لا يجوز أمرك فى غيره، ويموت من لا تحب أن يموت ، والذى أرسلنى يملك المشرق والمغرب ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . وقيل : علم موسى عليه السلام أن قصده فى السؤال معرفة من سأل عنه، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم . ثم لما انقطع فرعون لعنه الله فى باب الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فتوعد موسى بالسجن ، ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك ؛ لأن فيه الاعتراف بأن ثَمَّ إلها غيره . وفى توعده بالسجن ضعف . وكان فيما يروى

Marfat.com

يفزع منه فزعا شديدا حتى كان اللعين لا يمسك بوله . وروى أن سجنه كان أشد من القتل وكان إذا سجن أحدا لم يخرجه من سجنه حتى يموت، فكان مَخُوفا . ثم لما كان عند موسى عليه السلام من أمر الله تعالى مالا يرعه توعدُ فرعون ﴿ قَالَ ﴾ له على جهة اللطف به والطمع فى إيمانه : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾ فيتضح لك به صدق ، فلما سمع فرعون ذلك طمع فى أن يجد أثناءه موضع معارضة ﴿ فَقَالَ ﴾ له ﴿ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . ولم يحتج الشرط إلى جواب عند سيبويه؛ لأن ما تقدّم يكفى منه . ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ ﴾ من يده فكان ما أخبر الله من قصته . وقد تقدّم بيان ذلك وشرحه فى « الأعراف »[1] إلى آخر القصة . وقال السحرة لما توعدهم فرعون بقطع الأيدى والأرجل ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أى لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عذاب الدنيا ؛ أى إنما عذابك ساعة فنصبر لها وقد لقينا الله مؤمنين . وهذا يدل على شدّة آستبصارهم وقوة إيمانهم . قال مالك : دعا موسى عليه السلام فرعون أربعين سنة إلى الإسلام ، وأن السحرة آمنوا به فى يوم واحد . يقال : لا ضَيْرَ ولا ضَوْر ولا ضَرّ ولا ضَرَر ولا ضارُورة بمعنى واحد؛ قاله الهروى . وأنشد أبو عبيدة[2] :

فإنكَ لا يَضُورُكَ بعدَ حَوْلٍ * أظبيٌ كانَ أمَّكَ أم حِمارُ

وقال الجوهرى : ضَارَه يَضُوره ويَضِيره ضَيْرا وضَوْرا أى ضَرَّه . قال الكسائى : سمعت بعضهم يقول لا ينفعنى ذلك ولا يَضُورنى . والتَّضور الصياح والتلوى عند الضرب أو الجوع . والضُّورَة بالضم الرجل الحقير الصغير الشأن . ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ يريد ننقلب إلى رب كريم رحيم ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . « أَنْ » فى موضع نصب أى لأن كنا . وأجاز الفراء كسرها على أن تكون مجازاة . ومعنى « أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ » أى عند ظهور الآية ممن كان فى جانب فرعون . الفراء : أول مؤمنى زماننا . وأنكره الزجاج وقال : قد روى أنه آمن معه ستمائة ألف وسبعون ألفا، وهم الشِّرذمة القليلون الذين قال فيهم فرعون : « إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ » روى ذلك عن ابن مسعود وغيره .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٥٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) البيت لخداش بن زهير، وآستشهد به سيبويه فى كتابه على جعل آسم كان نكرة وخبرها معرفة ضرورة . والمعنى : لا تبالى بعد قيامك بنفسك وآستغنائك عن أبويك من آنتسبت إليه من شريف أو وضيع ، وضرب المثل بالظبي أو الحمار .

Marfat.com

قوله تعالى : وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾
فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾
وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن
جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ
مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ
إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ لما كان من سنته تعالى فى عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه، أمر موسى أن يخرج ببنى إسرائيل ليلا وسماهم عباده؛ لأنهم [illegible]موسى . ومعنى « إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ » أى يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم . وفى ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم؛ فخرج موسى عليه السلام ببنى إسرائيل سَحَرا، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر، فكان الرجل من بنى إسرائيل يقول له فى ترك الطريق فيقول : هكذا أمرت . فلما أصبح فرعون وعلم بسُرَى موسى ببنى إسرائيل، خرج فى أثرهم، وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر، فروى أنه لحقه ومعه مائة ألف أدهم من الخيل سوى سائر الألوان. وروى أن بنى إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا. والله أعلم بصحته . وإنما اللازم من الآية الذى يُقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم من

Marfat.com

بنى إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك . قال آبن عباس : كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل. والشِّرذمة الجمع القليل المحتقر والجمع الشَّراذم. قال الجوهرى : الشِّرذمة الطائفة من النـاس والقطعة من الشيء . وثوب شراذم أى قطع . وأنشد الثعلبى قول الراجـز :

جاء الشـتاءُ وثِيَـابى أَخلاقْ * شَرَاذِمُ يَضحكُ منهـا النـوَّاقْ

النـوَّاق من الرجال الذى يروض الأمـور ويصلحها (١) ؛ قاله فى الصحاح . واللام فى قوله : « لَشِرْذِمَةٌ » لام توكيـد وكثيرا ما تدخل فى خبر إن ، إلا أن الكوفيين لا يجيزون إن زيدا لسوف يقوم . والدليل على أنه جائز قوله تعـالى : « فَلَسَوْفَ تَعلَمُونَ » وهـذه لام التوكيد بعينها وقد دخلت على سوف؛ قاله النحاس . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَـا لَغَائِظُونَ ﴾ أى أعداء لنا لمخالفتهم ديننا وذهابهم بأموالنا التى آستعاروها على ما تقدم . وماتت أبكارهم تلك الليلة . وقد مضى هذا فى « الأعراف » و « طـه » مستوفى . يقال : غاظنى كذا وأغاظنى . والغيظ الغضب ومنه التغيظ والآغتياظ . أى غاظونا بخروجهم من غير إذن . ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ﴾ أى مجتمع أخذنا حِذرنا وأسلحتنا . وقرئ « حَاذِرُونَ » ومعناه معنى « حَذِرُونَ » أى فرقـون خائفون . قال الجوهرى : وقرئ « وإنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ » و « حَذِرُونَ » و « حَذُرُونَ » بضم الذال حكاه الأخفش ؛ ومعنى « حَاذِرُونَ » متأهبون ، ومعنى « حَذِرُونَ » خائفون . قال النحاس : « حَذِرُونَ » قراءة المدنيين وأبى عمرو ، وقراءة أهـل الكوفة « حَاذِرُونَ » وهى معروفة عن عبد الله بن مسعود وآبن عباس؛ و « حَادِرُونَ » بالدال غير المعجمة قراءة أبى عباد وحكاها المهـدوى عن ابن أبى عمار، والمـاوردى والثعلبى عن سُمَيْط بن عجلان . قال النحاس : أبو عبيدة يذهب إلى أن معنى « حَذِرُونَ » « وحَاذِرُونَ » واحد . وهو قول سيبويه وأجاز : هو حذِرٌ زيدا ؛ كما يقال : حاذر زيدا ، وأنشد :

حَذِرٌ أُموراً لا تَضِـيرُ وآمِنٌ * ما ليس مُنْجِيَهُ من الأَقدارِ

---

(١) ويقال هو آسم آبنه . ويروى (التواق) بالتاء .

Marfat.com

وزعم أبو عمر الجَرْمى أنه يجوز هو حذرٌ زيدا على حذف مِن . فأما أكثر النحويين فيفرقون بين حذِر وحاذر ؛ منهم الكسائى والفراء ومحمد بن يزيد ؛ فيذهبون إلى أن معنى حذر فى خلقته الحذر ، أى متيقظ متنبه ، فإذا كان هكذا لم يتعدّ ، ومعنى حاذر مستعدّ وبهذا جاء التفسير عن المتقدّمين . قال عبد الله بن مسعود فى قول الله عز وجل : « وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ » قال : مُؤْدون فى السلاح والكُراع مُقْوون، فهذا ذاك بعينه . وقوله مُؤْدون معهم أداة . وقد قيل : إن المعنى : معنا سلاح وليس معهم سلاح يحرضهم على القتال ؛ فأما « حادِرون » بالدال المهملة فمشتق من قولهم عين حَدْرة أى ممتلئة ؛ أى نحن ممتلئون غيظا عليهم ؛ ومنه قول الشاعر[1] :

وعينٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ * شُقَّتْ مآقيهما مِنْ أُخُرْ

وحكى أهل اللغة أنه يقال : رجل حادِرٌ إذا كان ممتلئ اللحم ؛ فيجوز أن يكون المعنى الامتلاء من السلاح . المهدوى : الحادر القوىّ الشديد .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ يعنى من أرض مصر . وعن عبد الله ابن عمرو قال : كانت الجنات بحافتى النيل فى الشّقتين جميعا من أسوان إلى رشيد ، وبين الجنات زروع . والنيل سبعة خلجان : خليج الإسكندرية ، وخليج سَخَا ، وخليج دمياط ، وخليج سَرْدُوس، وخليج مَنْف ، وخليج الفيوم ، وخليج المَنْهى[2] متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء، والزروع ما بين الخلجان كلها . وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا بما دبّروا وقدّروا من قناطرها وجسورها وخلجانها ؛ ولذلك سمى النيل إذا غلق ستة عشر ذراعا نيل السلطان ، ويُخلَع على ابن أبى الرّدّاد[3] ؛ وهذه الحال مستمرة إلى الآن . وإنما قيل نيل السلطان لأنه حينئذ يجب الخراج على الناس . وكانت أرض مصر جميعها تروى

---

(١) هو آمرؤ القيس . (٢) وهو بحر يوسف عليه السلام . (٣) هو عبد الله بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبى الرّدّاد المؤذن ؛ قدم مصر من البصرة وحدّث بها ، وجعل على قياس النيل فى ولاية يزيد بن عبد الله الترك — وكانت النصارى تتولى قياسه — وأجرى عليه سبعة دنانير فى كل شهر ، وآستقر قياسه فى بنيه زمانا طويلا . وتوفى أبو الرّدّاد سنة ٢٦٦ هـ . عن خطط المقريزى جـ ١ ص ٥٨

Marfat.com

من إصبع واحدة من سبعة عشر ذراعا، وكانت إذا غلق النيل سبعة عشر ذراعا ونودى عليه إصبع واحد من ثمانية عشر ذراعا، آزداد فى خراجها ألف ألف دينار . فإذا خرج عن ذلك ونودى عليه إصبعا واحدا من تسـعة عشر ذراعا نقص خراجها ألف ألف دينـار . وسبب هذا ما كان ينصرف فى المصالح والخلجان والجسور والاهتمام بعمارتها . فأما الآن فإن أكثرها لا يروى حتى ينادى إصبع من تسعة عشر ذراعا بمقياس مصر . وأما أعمال الصعيد الأعلى، فإن بها ما لا يتكامل ريه إلا بعد دخول المـاء فى الذراع الثانى والعشرين بالصعيد الأعلى .

قلت : أما أرض مصر فلا تروى جميعهـا الآن إلا من عشرين ذراعا وأصابع ؛ لعلو الأرض وعدم الاهتمام بعمارة جسورها . وهو من عجائب الدنيا؛ وذلك أنه يزيد إذا آنصبت الميـاه فى جميع الأرض حتى يسيح على جميع أرض مصر، وتبقى البلاد كالأعلام لا يوصـل إليها إلا بالمراكب والقياسات . وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : نيل مصر سيد الأنهـار ، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب ، وذلل الله له الأنهار؛ فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده، فأمدته الأنهار بمائها، وفجّر الله له عيونا، فإذا آنتهى إلى ما أراد الله عز وجل ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره . وقال قيس بن الحجاج : لمـا افتتحت مصر أتى أهلها إلى عمـرو بن العاص حين دخل بئونة من أشهر القبط فقالوا له : أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها، فقال لهم : وما ذاك ؟ فقالوا : إذا كان لأثنتى عشرة ليلة تخلو من هـذا الشهر عمدنا إلى جارية بِكر بين أبو يهـا ؛ أرضينا أبويها ، وحملنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى هـذا النيل؛ فقال لهم عمرو : هـذا لا يكون فى الإسلام ؛ و إن الإسلام ليهدم ما قبـله . فأقاموا أبيب ومسرى لا يجرى قليل ولا كثير، وهموا بالجلاء . فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، فأعلمه بالقصة ، فكتب إليه عمر بن الخطاب : إنك قد أصبت بالذى فعلت ، و إن الإسلام يهـدم ما قبله ولا يكون هـذا . و بعث إليـه ببطاقة فى داخل كتابه . وكتب إلى عمرو : إنى قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابى، فألقها فى النيل

Marfat.com

إذا أتاك كتابى . فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى نيل مصر — أما بعد — فإن كنت إنما تجرى من قِبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يُجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يُجريك . قال : فألقى البطاقة فى النيل قبل الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها ؛ لأنه لا تقوم مصلحتهم فيها إلا بالنيل . فلما ألقى البطاقة فى النيل، أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله فى ليلة واحدة ستة عشر ذراعا ، وقطع الله تلك السيرة عن أهل مصر من تلك السنة . قال كعب الأحبار : أربعة أنهار من الجنة وضعها الله فى الدنيا سَيْحان وجَيْحان والنيل والفرات، فسيحان نهر الماء فى الجنة، وجيحان نهر اللبن فى الجنة، والنيل نهر العسل فى الجنة، والفرات نهر الخمر فى الجنة . وقال ابن لهيعة : الدجلة نهر اللبن فى الجنة .

قلت : الذى فى الصحيح من هذا حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ وَالنِّيلُ وَالفُرَاتُ كُلٌّ من أنهار الجنة" لفظ مسلم : وفى حديث الإسراء من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صَعْصَعة رجلٍ من قومه قال: "وحدّث نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت يا جبريل ماهذه الأنهار قال أما النهران الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات" لفظ مسلم . وقال البخارىّ من طريق شَريك عن أنس " فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطّرِدان(١) فقال ما هذان النهران يا جبريل قال هذا النيل والفرات عنصرهما ثم مضى فى السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من اللؤلؤ والزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال ما هذا يا جبريل فقال هذا هو الكوثر الذى خبأ لك ربُّك . " وذكر الحديث . والجمهور على أن المراد بالعيون عيون الماء . وقال سعيد بن جبير : المراد عيون الذهب . وفى الدخان «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ » . قيل : إنهم كانوا يزرعون ما بين الجبلين من أوّل مصر إلى آخرها . وليس فى الدخان « وكنوز » . « وكنوز » جمع كنز، وقد مضى هذا

---

(١) يطردان : أى يجريان ، وهما يفتعلان من الطرد .

Marfat.com

فى سورة « براءة »(١) . والمراد بها هاهنا الخزائن . وقيل : الدفائن . وقال الضحاك : الأنهار؛ وفيه نظر؛ لأن العيون تشملها . ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ قال ابن عمر وابن عباس ومجاهد : المقام الكريم المنابر؛ وكانت ألف منبر لألف جبّار يُعظّمون عليها فرعون ومُلكه . وقيل : مجالس الرؤساء والأمراء؛ حكاه ابن عيسى وهو قريب من الأول . وقال سعيد بن جبير : المساكن الحسان . وقال ابن لهيعة : سمعت أن المقام الكريم الفيوم . وقيل : كان يوسف عليه السلام قد كتب على مجلس من مجالسه (لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله) فسماها الله كريمة بهـذا . وقيل : مرابط الخيل لتفرد الزعماء بارتباطها عُدّة وزينة ؛ فصار مقامها أكرم منزل بهـذا؛ ذكره المـاوردى . والأظهر أنهـا المساكن الحسان كانت تكرم عليهم . والمقام فى اللغـة يكون الموضع ويكون مصدرا . قال النحاس : المقام فى اللغة الموضع؛ من قولك قام يقوم؛ وكذا المقامات واحدها مقامة؛ كما قال(٢) :

وفيهم مَقَاماتٌ حِسانٌ وجوهُهم * وأنديةٌ ينتـابُها القـولُ والفعلُ

والمقام أيضا المصدر من قام يقوم . والمقام (بالضم) الموضع من أقام . والمصدر أيضا من أقام يقـيم .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنـات والعيون والكنوز والمقـام الكريم أورثه الله بنى إسرائيـل . قال الحسن وغيره : رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه . وقيل : أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حلىّ آل فرعون بأمر الله تعـالى .

قلت : وكلا الأمرين حصل لهم . والحمد لله . ﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ أى فتبع فرعون وقومه بنى إسرائيـل . قال السدى : حين أشرقت الشمس بالشعاع . وقال قتادة : حين أشرقت الأرض بالضياء . قال الزجاج : يقـال شَرَقت الشمسُ إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت . وآختلف فى تأخر فرعون وقومه عن موسى وبنى إسرائيل على قولين : أحدهما —

(١) راجع جـ ٨ ص ١٢٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) هو زهير بن أبى سلمى؛ وينتابها : أى يقال فيها الجميل ويفعل به .

Marfat.com

لاشتغالهم بدفن أبكارهم فى تلك الليلة ؛ لأن الوباء فى تلك الليلة وقع فيهم ؛ فقوله : « مشرقين » حال لقوم فرعون . الثانى — إن سحابة أظلتهم وظلمة فقالوا : نحن بعد فى الليل فما تقشعت عنهم حتى أصبحوا . وقال أبو عبيدة : معنى « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » ناحية المشرق . وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون «فَاتَّبَعُوهُمْ مُشَرِّقِينَ» بالتشديد وألف الوصل؛ أى نحو المشرق ؛ مأخوذ من قولهم : شرق وغرب إذا سار نحو المشرق والمغرب . ومعنى الكلام قدرنا أن يرثها بنو إسرائيل فأتبع قوم فرعون بنى إسرائيل مشرّقين فهلكوا، وورث بنو إسرائيل بلادهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أى تقابلا(١) الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه، وهو تفاعل من الرؤية . ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ أى قرب منا العدوّ ولا طاقة لنا به . وقراءة الجماعة «لَمُدْرَكُونَ» بالتخفيف من أدرك . ومنه «حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ» . وقرأ عبيد بن عمير والأعرج والزهرى « لَمُدَّرَكُونَ » بتشديد الدال(٢) من ادّرك . قال الفراء : حفر واحتفر بمعنى واحد، وكذلك « لَمُدْرَكُونَ » و « لَمُدَّرَكُونَ » بمعنى واحد . النحاس : وليس كذلك يقول النحويون الحذّاق ؛ إنما يقولون : مُدْرَكون ملحقون، ومدّرَكون مجتهد فى لحاقهم ، كما يقال : كسبت بمعنى أصبت وظفرت ، واكتسبت بمعنى اجتهدت وطلبت وهذا معنى قول سيبويه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ لما لحق فرعون بجمعه جمعَ موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدوّ القوىّ والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء : « إِنَّا لَمُدْرَكُونَ » فرد عليهم قولهم وزجرهم وذكّرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر «كَلَّا» أى لم يدركوكم « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي » أى بالنصر على العدوّ . « سَيَهْدِينِ » أى سيدلنى على طريق النجاة ؛ فلما عظم البلاء على بنى إسرائيل ، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها ، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه ؛ وذلك أنه

---

(١) كذا فى نسخ الأصل . (٢) وكسر الراء — كما فى البحر وروح المعانى والكشاف — على وزن مفتعلون وهو لازم بمعنى الفناء والاضمحلال ، من ادّرك الشيء إذا تتابع ففنى .

Marfat.com

عز وجل أراد أن تكون الآية متصـلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعـله ؛ وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه . وقد مضى فى « البقرة »(١) قصة هذا البحر . ولما آنفلق صار فيـه آثنا عشر طريقا على عدد أسباط بنى إسرائيـل ، ووقف المـاء بينها كالطود العظيم ؛ أى الجبـل العظيم . والطود الجبل ؛ ومنه قول آمرئ القيس :

فبينا المـرءُ فى الأحياءِ طَوْدٌ * رَماهُ الناسُ عن كَثَبٍ فَمَالَا

وقال الأسود بن يَعْفُر :

حَلُّوا بأنقـرةٍ يَسـيلُ عليهمُ * ماءُ الفُراتِ يجىءُ من أَطْوَادِ

جمع طود أى جبل . فصار لموسى وأصحابه طريقا فى البحر يَبَسا ؛ فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون على ما تقدّم فى «يونس»(٢) انصب عليهم وغرق فرعونُ؛ فقـال بعض أصحاب موسى : ما غرق فرعونُ؛ فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليـه . وروى ابن القاسم عن مالك قال : خرج مع موسى عليـه السلام رجلان من التجار إلى البحر فلمـا أتوا إليه قالا له بم أمرك الله؟ قال: أمرت أن أضرب البحر بعصاى هذه فينفلق؛ فقالا له: افعل ما أمرك الله فلن يخلفك؛ ثم ألقيا أنفسهما فى البحر تصديقا له ؛ فمـا زال كذلك البحر حتى دخل فرعون ومن معه ، ثم ارتد كما كان . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة » .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴾ أى قربناهم إلى البحر؛ يعنى فرعون وقومه . قاله ابن عباس وغيره؛ قال الشاعر :

وكلُّ يوم مَضَى أو ليلةٍ سلفَتْ * فيها النفوسُ إلى الآجال تَزْدَلِفُ

أبو عبيدة : « أَزْلَفْنَا » جمعنا ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جَمْع . وقرأ أبو عبد الله بن الحرث وأبىّ بن كعب وابن عبـاس « وَأَزْلَقْنَا » بالقـاف على معنى أهلكناهم؛ من قوله : أزلقت الناقةُ وأزلقت الفرسُ فهى مُزْلِق إذا أزلقت ولدها . ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَـهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ يعنى فرعون وقومه . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أى علامة على قدرة الله تعالى.

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٧٨ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ لأنه لن يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل، وابنته آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت ذا موسى العجوز التي دلت على قبر يوسف الصديق عليه السلام . وذلك أن موسى عليه السلام لما خرج ببني إسرائيل من مصر أظلم عليهم القمر فقال لقومه : ما هذا ؟ فقال علماؤهم : إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقا من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا . قال موسى : فأيكم يدرى قبره ؟ قال : ما يعلمه إلا عجوز لبنى إسرائيل ؛ فأرسل إليها ؛ فقال: دليني على قبر يوسف، قالت: لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي، قال: وما حكمك؟ قالت : حكمي أن أكون معك فى الجنة ؛ فثقل عليه، فقيل له : أعطها حكمها ؛ فدلتهم عليه، فاحتفروه واستخرجوا عظامه، فلما أقلوها، فإذا الطريق مثل ضوء النهار، فى رواية: فأوحى الله إليه أن أعطها ففعل ، فأتت بهم إلى بحيرة ، فقالت لهم : أنضبوا هذا الماء فأنضبوه واستخرجوا عظام يوسف عليه السلام ؛ فتبينت لهم الطريق مثل ضوء النهار . وقد مضى فى « يوسف »(1) . وروى أبو بردة عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بأعرابى فأكرمه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حاجتك " قال : ناقة أرحلها وأعنزا أحلبها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فلم عجزت أن تكون مثل عجوز بنى إسرائيل " فقال أصحابه : وما عجوز بنى إسرائيل ؟ فذكر لهم حال هذه العجوز التى احتكمت على موسى أن تكون معه فى الجنة .

قوله تعالى : وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾

(1) راجع جـ ٩ ص ٢٧٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ نبه المشركين على فرط جهلهم إذ رغبوا عن آعتقاد إبراهيم ودينـه وهو أبوهم . والنبأ الخبر؛ أى آقصص عليهم يا محمـد خبره وحديثـه وعيبه على قومه ما يعبدون . و إنمـا قال ذلك ملزما لهم الحجة . والجمهور من القراء على تخفيف الهمزة الثانية وهو أحسن الوجوه ؛ لأنهم قد أجمعوا على تخفيف الثانية من كلمة واحدة نحو آدم . وإن شئت حققتهما فقلت : « نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ » . وإن شئت خفّفتهما فقلت : « نبا ابراهيم » . وإن شئت خفّفت الأولى . وثَمَّ وجهٌ خامس إلا أنه بعيـد فى العربيـة وهـو أن يدغم الهمزة فى الهمزة كما يقال رآّاس للذى يبيع الرءوس . وإنما بعد لأنك تجمع بين همزتين كأنهما فى كلمة واحدة، وحَسُن فى فَعَّال لأنه لا يأتى إلا مدغما . ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أى أىّ شىء تعبدون ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا ﴾ وكانت أصنامهم من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب . ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ أى فنقيم على عبادتهـا . وليس المراد وقتا معينا بل هو إخبار عما هم فيه . وقيل : كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، وكانوا فى الليل يعبـدون الكواكب . فيقال : ظل يفعـل كذا إذا فعـله نهارا و بات يفعل كذا إذا فعله ليلا . ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ قال الأخفش : فيه حذف؛ والمعنى : هل يسمعون منكم ؟ أو هل يسمعون دعاءكم؛ قال الشاعر(١) :

القـائد الخيـلَ مَنْكُوباً دَوابِرُها * قد أُحْكِمَتْ حَكَماتِ القِدِّ والأَبَقَا

قال : والأَبَق الكَتَّان فحذف . والمعنى ؛ وأحكمت حكماتِ الأَبَق . وفى الصحاح : والأَبَق بالتحريك القِنَّب . وروى عن قتادة أنه قرأ « هَـلْ يُسْمِعُونَكُمْ » بضم اليـاء ؛ أى هـل يسمعونكم أصواتهم ﴿ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ أى هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم، أو تملك لكم خيرا أو ضرا إن عصيتم ؟! وهذا آستفهام لتقرير الحجة؛ فإذا لم ينفعوكم ولم يضروا فـما معنى عبادتكم لها . ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فنزعوا إلى التقليد

(١) هو زهير بن أبى سلمى . والبيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان . وأحكمت : جعلت لها حكمات من القد . والحكمات جمع حكمة وهى ما تكون على أنف الدابة . ودوابرها : مؤخر حوافرها . ومنكوب : أى أصابت الحجارة دوابرها وأدمتها .

Marfat.com

من غير حجة ولا دليل . وقد مضى القول فيه . ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ من هذه الأصنام ﴿ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴾ الأولون ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾ واحد يؤدّى عن جماعة، وكذلك يقال للمرأة هى عدوّ الله وعدوّة الله ؛ حكاهما الفراء . قال على بن سليمان : من قال عدوّة الله وأثبت الهاء قال هى بمعنى معادية، ومن قال عدوّ للؤنث والجمع جعله بمعنى النسب . ووصف الجماد بالعداوة بمعنى أنهم عدوّ لى إن عبدتهم يوم القيامة ؛ كما قال : « كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » . وقال الفراء : هو من المقلوب؛ مجازه: فإنى عدوّ لهم لأن من عاديته عاداك . ثم قال : ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الكلبي: أى إلا من عبد رب العالمين ؛ إلا عابد ربّ العالمين؛ فحذف المضاف . قال أبو إسحق الزجاج : قال النحويون هو استثناء ليس من الأوّل ؛ وأجاز أبو إسحق أن يكون من الأوّل على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله . وتأوّله الفراء على الأصنام وحدها والمعنى عنده : فإنهم لو عبدتُهم عدوّ لى يوم القيامة؛ على ما ذكرنا . وقال الجرجانى : تقديره : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم عدوّ لى. وإلا بمعنى دون وسوى؛ كقوله : «لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ» أى دون الموتة الأولى .

قوله تعالى : ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أى يرشدنى إلى الدين . ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أى يرزقنى . ودخول « هو » تنبيه على أن غيره لا يطعم ولا يسقى ؛ كما تقول: زيد هو الذى فعل كذا؛ أى لم يفعله غيره . ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ قال : « مرضت » رعاية للأدب وإلا فالمرض والشفاء من الله عز وجل جميعا . ونظيره قول

Marfat.com

فتى موسى : « وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ » . ﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ يريد البعث وكانوا ينسبون الموت إلى الأسباب ؛ فبين أن الله هو الذى يميت ويحيى. وكله بغير ياء: « يهدين » « يشفين » لأن الحذف فى رءوس الآى حسن لتتفق كلها . وقرأ آبن أبى إسحق على جلالته ومحله من العربية هذه كلها بالياء؛ لأن الياء آسم و إنما دخلت النون لعلة . فإن قيل : فهذه صفة تجمع الخلق فكيف جعلها إبراهيم دليلا على هدايته ولم يهتد بها غيره ؟ قيل : إنما ذكرها آحتجاجا على وجوب الطاعة؛ لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها؛ وهذا إلزام صحيح .

قلت : وتجوز بعض أهل الإشارات فى غوامض المعانى فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بدائه العقول من أنه ليس المراد من إبراهيم . فقال : « وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ » أى يطعمنى لذة الإيمان و يسقين حلاوة القبول . ولهم فى قوله : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » وجهان : أحدهما — إذا مرضت بمخالفته شفانى برحمته . الثانى — إذا مرضت بمقاساة الخلق، شفانى بمشاهدة الحق . وقال جعفر بن محمد الصادق : إذا مرضت بالذنوب شفانى بالتوبة . وتأولوا قوله : «وَالَّذِى يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ» على ثلاثة أوجه : فالذى يميتنى بالمعاصى يحيينى بالطاعات. الثانى : يميتنى بالخوف يحيينى بالرجاء . الثالث : يميتنى بالطمع ويحيينى بالقناعة . وقول رابع : يميتنى بالعدل ويحيينى بالفضل . وقول خامس : يميتنى بالفراق ويحيينى بالتلاق. وقول سادس : يميتنى بالجهل و يحيينى بالعقل ؛ إلى غير ذلك مما ليس بشيء منه مراد من الآية؛ فإن هذه التأويلات الغامضة، والأمور الباطنة، إنما تكون لمن حذق وعرف الحق، وأما من كان فى عمى عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز له الأمور الباطنة، وتترك الأمور الظاهرة ؟ هذا محال . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ « أَطْمَعُ » أى أرجو . وقيـل : هو بمعنى اليقين فى حقه ، و بمعنى الرجاء فى حق المؤمنين سواه . وقرأ الحسن وابن أبى إسحق « خَطَايَاىَ » وقال : ليست خطيئة واحدة . قال النحاس : خطيئة بمعنى

Marfat.com

خطايا معروف فى كلام العرب ، وقد أجمعوا على التوحيد فى قوله عز وجل « فَٱعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ » ومعناه بذنوبهم . وكذا « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » معناه الصلوات ، وكذا « خَطِيئَتِي » إن كانت خطايا . والله أعلم . قال مجاهد : يعنى بخطيئته قوله : « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا » وقوله : « إِنِّى سَقِيمٌ » وقوله : إن سارة أخته . زاد الحسن وقوله للكوكب: « هَٰذَا رَبِّى » وقد مضى بيان هذا مستوفى . وقال الزجاج : الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطيئة ؛ نعم لا تجوز عليهم الكبائر لأنهم معصومون عنها . ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم . وهذا من إبراهيم إظهار للعبودية وإن كان يعلم أنه مغفور له . وفى صحيح مسلم عن عائشة ؛ قلت يا رسول الله : ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه؟ قال : "لا ينفعه إنه لم يقل يوما « رب ٱغفر لى خطيئتى يوم الدين »" .

قوله تعالى : رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ « حُكْمًا » معرفة بك وبحدودك وأحكامك ؛ قاله ٱبن عباس . وقال مقاتل : فهما وعلما ؛ وهو راجع إلى الأول . وقال الكلبي : نبوة ورسالة إلى الخلق . « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » أى بالنبيين من قبلى فى الدرجة . وقال ٱبن عباس : بأهل الجنة ؛ وهو تأكيد قوله : « هَبْ لِي حُكْمًا » .

قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ قال ٱبن عباس : هو ٱجتماع الأمم عليه . وقال مجاهد : هو الثناء الحسن . قال ٱبن عطية : هو الثناء وخلد المكانة بإجماع المفسرين ؛ وكذلك أجاب الله دعوته ، وكل أمة تتمسك به وتعظمه ، وهو على الحنيفية التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم . وقال مكى : وقيل معناه سؤاله أن يكون من ذريته فى آخر الزمان

Marfat.com

من يقوم بالحق ؛ فأجيبت الدعوة فى محمد صلى الله عليه وسـلم . قال آبن عطية : وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكم على اللفظ . وقال القشيرى : أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة؛ فإن زيادة الثواب مطلوبة فى حق كل أحد .

قلت : وقد فعـل الله ذلك إذ ليس أحد يصلى على النبيّ صلى الله عليه وسـلم إلا وهو يصلى على إبراهيم وخاصة فى الصلوات، وعلى المنابر التى هى أفضل الحالات وأفضل الدرجات. والصلاة دعاء بالرحمة . والمراد باللسان القول، وأصله جارحة الكلام . قال القتبي : وموضع اللسان موضع القول على الآستعارة ، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة . قال الأعشى :

إِنِّى أَتَتْنِى لسانٌ لا أُسَرُّ بِها * مِن عَلْوُ لا عَجَبٌ منها ولا سَخَرُ

قال الجوهرى : يروى مِن عَلو بضم الواو وفتحها وكسرها . أى أتانى خبر من أعلى ، والتأنيث للكلمة . وكان قـد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر . روى أشهب عن مالك قال قال الله عز وجل : « وَٱجْعَل لِى لِسَانَ صِـدْقٍ فِى الآخِرِينَ » لا بأس أن يحب الرجل أن يثـنى عليه صالحا ويرى فى عمـل الصالحين ، إذا قصد به وجه الله تعالى ؛ وقـد قال الله تعالى : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى » وقال: « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا» أى حبا فى قلوب عباده وثناء حسنا، فنبه تعالى بقوله : « وَٱجْعَل لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الآخِرِين» على آستحباب آكتساب ما يورث الذكر الجميـل . الليث بن سليمان : إذ هى الحيـاة الثانيـــة . قيل :

* قد مات قوم وهم فى النـاس أحياء *

قال آبن العربى : قال المحققون من شيوخ الزهد فى هذا دليل على الترغيب فى العمل الصالح الذى يكسب الثناء الحسن ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا مات آبن آدم آنقطع عمله إلا من ثلاث " [الحديث] وفى رواية إنه كذلك فى الغرس والزرع وكذلك فيمن مات مرابطا يكتب له عمله إلى يوم القيامة . وقد بيناه فى آخر « آل عمران »(١) والحمد لله .

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٢٣ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ دعاء بالجنة وبمن يرثها ، وهو يرد قول بعضهم : لا أسأل جنة ولا نارا .

قوله تعالى : ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ كان أبوه وعده في الظاهر أن يؤمن به فاستغفر له لهذا ، فلما بان أنه لا يفي بما قال تبرأ منه . وقد تقدّم هذا المعنى . « إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ » أي المشركين . « وكان » زائدة . ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لا تفضحني على رءوس الأشهاد، أو لا تعذبني يوم القيامة . وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة " والغبرة هي القترة . وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يلقى إبراهيم أباه فيقول يارب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين " انفرد بهما البخاري رحمه الله .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ « يوم » بدل من « يوم » الأوّل . أي يوم لا ينفع مال ولا بنون أحدا . والمراد بقوله : « ولا بنون » الأعوان؛ لأن الابن إذا لم ينفع فغيره متى ينفع؟ وقيل : ذكر البنين لأنه جرى ذكر والد إبراهيم، أي لم ينفعه إبراهيم . « إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » هو استثناء من الكافرين؛ أي لا ينفعه ماله ولا بنوه . وقيل: هو استثناء من غير الجنس، أي لكن « من أتى الله بقلب سليم » ينفعه لسلامة قلبه . وخص القلب بالذكر؛ لأنه الذي إذا سلم سلمت الجوارح، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح . وقد تقدّم في أوّل « البقرة »[1] . واختلف في القلب السليم فقيل : من الشك والشرك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد ؛ قاله قتادة وابن زيد وأكثر المفسرين . وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض؛ قال الله تعالى : « فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » وقال أبو عثمان السيّاري : هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السنة. وقال الحسن : سليم من آفة المال والبنين . وقال الجنيد : السليم في اللغة اللديغ؛ فمعناه أنه قلب كاللديغ من خوف الله . وقال الضحاك : السليم الخالص .

(١) راجع جـ ١ ص ١٨٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن ، أى الخالص من الأوصاف الذميمة ، والمتصف بالأوصاف الجميلة ؛ والله أعلم . وقـد روى عن عروة أنه قال : يابنيّ لا تكونوا لعّانين فإن إبراهيم لم يلعن شيئا قط ، قال الله تعالى : « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » . وقال محمد بن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة قائمة ، وأن الله يبعث من فى القبور . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : " يدخل الجنةَ أقـوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير " يريد — والله أعلم — أنهـا مثلها فى أنها خالية من كل ذنب ، سليمة من كل عيب ، لا خبرة لهم بأمور الدنيا ؛ كما روى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " أكثر أهل الجنة البُلْه " وهـو حديث صحيح . أى البُلْه عن معاصى الله . قال الأزهرى : الأبله هنا هو الذى طبع على الخير وهو غافل عن الشر لا يعرفه . وقال القتبي : البله هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس .

قوله تعـالى : وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيـلَ لَهُـمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَـلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَـا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَـا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَـا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَـدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَـا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُـوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى قربت وأدنيت ليدخلوها . وقال الزجاج : قرب دخولهم إياها . ﴿ وَبُرِّزَتِ ﴾ أى أظهرت ﴿ الْجَحِـيمُ ﴾ يعنى جهنم . ﴿ لِلْغَـاوِينَ ﴾

Marfat.com

أى الكافرين الذين ضلوا عن الهدى . أى تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروع والحزن، كما يستشعر أهل الجنة الفرح لعلمهم أنهم يدخلون الجنة . ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ﴾ من عذاب الله ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم . وهذا كله توبيخ . ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أى قلبوا على رءوسهم . وقيل : دهوروا وألقى بعضهم على بعض . وقيل : جمعوا . مأخوذ من الكَبْكَبة وهى الجماعة؛ قاله الهروى . وقال النحاس : هو مشتق من كَوْكَبِ الشىء أى مُعظَمه . والجماعة من الخيل كَوْكَب وكَبْكَبَة . وقال ٱبن عباس : جمعوا فطرحوا فى النار . وقال مجاهد : دهوروا . وقال مقاتل : قذفوا . والمعنى واحد . تقول : دهورت الشىء إذا جمعته ثم قذفته فى مَهْواة . يقال : هو يدهور اللقم إذا كبرها . ويقال : فى الدعاء كب الله عدو المسلمين ولا يقال أكبه . وكبكبه ، أى كبه وقلبه . ومنه قوله تعالى : « فَكُبْكِبُوا فِيهَا » والأصل كُبِّبوا فأبدل من الباء الوسطى كاف ٱستثقالا لاجتماع الباءات . قال السدى : الضمير فى « كُبْكِبُوا » لمشركى العرب ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ الآلهة . ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ من كان من ذريته . وقيل : كل من دعاه إلى عبادة الأصنام فٱتبعه . وقال قتادة والكلبى ومقاتل : « الْغَاوُونَ » هم الشياطين . وقيل : إنما تلقى الأصنام فى النار وهى حديد ونحاس ليعذب بها غيرهم . ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يعنى الإنس والشياطين والغاوين والمعبودين ٱختصموا حينئذ . ﴿تَاللَّهِ﴾ حلفوا بالله ﴿إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أى فى خسار وتبار وحيرة عن الحق بينة إذا ٱتخذنا مع الله آلهة فعبدناها كما يعبد ؛ وهذا معنى قوله : ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى فى العبادة وأنتم لا تستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسكم . ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ يعنى الشياطين الذين زينوا لنا عبادة الأصنام . وقيل : أسلافنا الذين قلدناهم . قال أبو العالية وعكرمة : «المجرمون» إبليس وٱبن آدم القاتل هما أول من سنّ الكفر والقتل وأنواع المعاصى . ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ أى شفعاء يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين . ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أى صديق مشفق ؛ وكان علىّ رضى الله عنه يقول : عليكم بالإخوان فإنهم عدّة الدنيا وعدّة الآخرة ؛

Marfat.com

ألا تسمع إلى قول أهل النار « فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » . الزمخشرى : وجمع الشافع لكثرة الشافعين ووحد الصديق لقلته ؛ ألا ترى أن الرجل إذا آمتحن بإرهاق ظالم مضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته، رحمة له وحسبة وإن لم تسبق له بأكثرهم معرفة؛ وأما الصديق فهو الصادق فى ودادك الذى يهمه ما يهمك فأعز من بيض الأنوق ؛ وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال : آسم لا معنى له . ويجوز أن يريد بالصديق الجمع . والحميم القريب والخاص ؛ ومنه حامّة الرجل أى أقرباؤه . وأصل هذا من الحميم وهو الماء الحار؛ ومنه الحَمَّام والحُمَّى؛ فحامّة الرجل الذين يحرقهم ما أحرقه؛ يقال: هم حُزَانته أى يحزنهم ما يحزنه . ويقال : حَمّ الشيءُ وأَحَمّ إذا قرب، ومنه الحُمَّى؛ لأنها تقرّب من الأجل . وقال على بن عيسى : إنما سمى القريب حميما؛ لأنه يَحْمَى لغضب صاحبه، فجعله مأخوذا من الحَمِيّة. وقال قتادة: يذهب الله عز وجل يوم القيامة مودّة الصديق ورقة الحميم. ويجوز « وَلَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ » بالرفع على موضع « مِنْ شَافِعِينَ »؛ لأن « مِن شَافِعِينَ » فى موضع رفع. وجمع صديق أصدِقاء وصُدقاء وصِداق . ولا يقال صُدُق للفرق بين النعت وغيره . وحكى الكوفيون : أنه يقال فى جمعه صُدْقان . النحاس : وهذا بعيد؛ لأن هذا جمع ما ليس بنعت نحو رغيف ورُغفان . وحكوا أيضا صديق وأصادِق . وأفاعل إنما هو جمع أَفْعَل إذا لم يكن نعتا نحو أشجع وأشاجع . ويقال : صديق للواحد والجماعة وللمرأة؛ قال الشاعر[(١)] :

نَصبْنَ الهـوَى ثم آرتمين قلوبَنا * بأعينِ أعداءٍ وهُنّ صَـدِيقُ

ويقال : فلان صُدَيِّق أى أخص أصدقائى ، وإنما يصغر على جهة المدح ؛ كقول حُباب آبن المنذر : (أنا جُذَيْلُها[(٢)] المحكَّك، وعُذَيْقُها المرجَّب) ذكره الجوهرى . النحاس : وجمع حميم أَحِمَّاء وأَحِمّة وكرهوا أفعلاء للتضعيف. ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ « أنّ » فى موضع رفع، المعنى ولو وقع لنا رجوع إلى الدنيا لآمنا حتى يكون لنا شفعاء . تمنوا حين لا ينفعهم التمنى .

---

(١) هو جرير .　　(٢) عنى بجذيلها المحكك الأصل من الشجرة — أو عود ينصب — تحتك به الإبل فتشتفى به ؛ أى قد جربتنى الأمور ولى علم ورأى يشتفى بهما كما تشتفى هذه الإبل الجربى بهذا الجذيل . والترجيب هنا إرفاد النخلة من جانب ليمنعها من السقوط ؛ أى إن لى عشيرة تعضدنى وتمنعنى . والعذيق تصغير عذق (بالفتح) وهى النخلة بحملها .

Marfat.com

وإنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون . قال جابر بن عبد الله قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الرجل ليقول فى الجنة ما فعل فلان وصديقه فى الجحيم فلا يزال يشفع له حتى يُشفِّعه الله فيه فإذا نجا قال المشركون « مَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » ". وقال الحسن : ما آجتمع ملأ على ذكر الله، فيهم عبدٌ من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم فى بعض وهم عند الله شافعون مشفَّعون . وقال كعب : إن الرجلين كانا صديقين فى الدنيا ، فيمر أحدهما بصاحبه وهو يجر إلى النار ، فيقول له أخوه : والله ما بقى لى إلا حسنة واحدة أنجو بها ، خذها أنت يا أخى فتنجو بها مما أرى ، وأبقى أنا وإياك من أصحاب الأعراف . قال : فيأمر الله بهما جميعا فيدخلان الجنة . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدّم والحمد لله .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ
نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾
قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى
لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾
قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ
قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا
بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال « كَذَّبَتْ » والقوم مذكر؛ لأن المعنى كذبت جماعة قوم نوح، وقال « الْمُرْسَلِينَ » لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل . وقيل : كذبوا نوحا فى النبوّة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده . وقيل : ذكر الجنس والمراد نوح عليه السلام. وقد مضى هذا فى « الفرقان »(١) . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ أى ابن أبيهم وهى أخوة نسب لا أخوة دين . وقيل : هى أخوة المجانسة . قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » وقد مضى هذا فى « الأعراف »(٢) . وقيل : هو من قول العرب يا أخا بنى تميم . يريدون يا واحدا منهم . الزمخشرى : ومنه بيت الحماسة :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم * فى النائبات على ما قال برهانا

﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى ألا تتقون الله فى عبادة الأصنام . ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أى صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى . وقيل : « أمين » فيما بينكم ؛ فإنهم كانوا عرفوا أمانته وصدقه من قبل؛ كمحمد صلى الله عليه وسلم فى قريش . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى فاستتروا بطاعة الله تعالى من عقابه . ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من الإيمان . ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى لا طمع لى فى مالكم . ﴿ إِنْ أَجْرِيَ ﴾ أى ما جزائى ﴿ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾. ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ كرر تأكيدا .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ » أى نصدق قولك . « وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ » الواو للحال وفيه إضمار قد ، أى وقد اتبعك . « الْأَرْذَلُونَ » جمع الأرذل، المكسر الأراذل والأنثى الرُّذْلى والجمع الرُّذَل . قال النحاس : ولا يجوز حذف الألف واللام فى شيء من هذا عند أحد من النحويين علمناه . وقرأ ابن مسعود والضحاك و يعقوب الحضرمى وغيرهم،

(١) راجع ص ٣١ من هذا الجزء .

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٣٥ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

« وَأَتْبَاعُكَ الأَرْذَلُونَ » . النحاس : وهي قراءة حسنة؛ وهذه الواو أكثرها تتبعها الأسماء والأفعال بقد . وأتباع جمع تبع وتبيع يكون للواحد والجمع . قال الشاعر :

له تَبَعٌ قد يعلمُ الناسُ أنه * على من يُدانِي صَيِّفٌ ورَبِيعُ

ٱرتفاع « أَتبَاعُكَ » يجوز أن يكون بالابتداء و « الأَرْذَلُونَ » الخبر ؛ التقدير أنؤمن لك وإنما أتباعك الأرذلون . ويجوز أن يكون معطوفا على الضمير في قوله : « أَنُؤْمِنُ لَكَ » والتقدير : أنؤمن لك نحن وأتباعك الأرذلون فنعدّ منهم؛ وحسن ذلك الفصل بقوله : «لك» وقد مضى القول في الأراذل في سورة « هود »(١) مستوفى . ونزيده هنا بيانا وهي المسئلة :

الثانيــة — فقيل : إن الذين آمنوا به بنوه ونساؤه وكَنَّاته وبنو بنيه . وٱختلف هل كان معهم غيرهم أم لا . وعلى أي الوجهين كان فالكل صالحون؛ وقد قال نوح : « وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» والذين معه هم الذين ٱتبعوه، ولا يلحقهم من قول الكفرة شين ولا ذمّ، بل الأرذلون هم المكذبون لهم . قال السهيلي : وقد أغرى كثير من العوام بمقالة رويت في تفسير هذه الآية : هم الحاكة والحجّامون . ولو كانوا حاكة كما زعموا لكان إيمانهم بنبيّ الله وٱتباعهم له مشرِّفا كما تَشرَّف بلال وسلمان بسبقهما للإسلام ؛ فهما من وجوه أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن أكابرهم ، فلا ذرية نوح كانوا حاكة ولا حجّامين ، ولا قول الكفرة في الحاكة والحجامين إن كانوا آمنوا بهم أرذلون ما يلحق اليوم بحاكتنا ذمّا ولا نقصا ؛ لأن هذه حكاية عن قول الكفرة إلا أن يجعل الكفرة حجة ومقالتهم أصلا ؛ وهذا جهل عظيم وقد أعلم الله تعالى أن الصناعات ليست بضائرة في الدين .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ « كان » زائدة؛ والمعنى : وما علمي بما يعملون؛ أي لم أكلف العلم بأعمالهم إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار بالإيمان لا بالحرف والصنائع؛ وكأنهم قالوا : إنما ٱتبعك هؤلاء الضعفاء طمعا في العزة والمال . فقال : إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إليّ ظاهرهم . وقيل : المعنى إني

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

لم أعلم أن الله يهديهم و يضلكم و يرشـدهم و يغويكم و يوفقهم ويخذلكم . ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ ﴾ أى فى أعمالهم و إيمانهم ﴿ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ وجواب « لَوْ » محذوف؛ أى لو شعرتم أن حسابهم على ربهم لما عبتموهم بصنائعهم . وقراءة العامة « تَشْعُرُونَ » بالتاء على المخاطبة للكفار وهو الظاهر . وقرأ ابن أبى عَبْلة ومحمد بن السَّمَيْقَع « لَوْ يَشْعُرُونَ » بالياء كأنه خبر عن الكفار وترك الخطاب لهم؛ نحو قوله : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم » . وروى أن رجلا سأل سفيان عن امرأة زنت وقتلت ولدها وهى مسلمة هل يقطع لها بالنار؟ فقال : « إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ » . ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى لخساسة أحوالهم وأشغالهم . وكأنهم طلبوا منه طرد الضعفاء كما طلبته قريش . ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ يعنى : إن الله ما أرسلنى أخص ذوى الغنى دون الفقراء، إنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به، فمن أطاعنى فذلك السعيد عند الله و إن كان فقيرا .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ ﴾ أى عن سبّ آلهتنا وعيب ديننا ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ أى بالحجارة؛ قاله قتـادة . وقال ابن عباس ومقاتل : من المقتولين . قال الثُّمَالِيّ : كل مرجومين فى القـرآن فهو القتل إلا فى مريم : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَـهِ لَأَرْجُمَنَّكَ » أى لأسبنك . وقيل « مِنَ الْمَرْجُومِينَ » من المشتومين؛ قاله السدى . ومنه قول أبى دؤاد. (١)

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ذلك لمـا يئس من إيمـانهم، والفتح الحكم وقد تقدم . ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ يريد السفينة وقد مضى ذكرها . والمشحون المملوء ، والشحن ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم . ولم يؤنث الفلك هاهنا؛ لأن الفلك هاهنا واحد لا جمع . ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ أى بعـد إنجائنا نوحا ومن آمن . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

---

(١) كذا فى جميع نسخ الأصل ، وهنا سقط لعله بيت من الشعر أورده المؤلف شاهدا على أن الرجم معناه الشتم ؛ كما أورد بيت الجعدى شاهدا على ذلك عند تفسير قوله تعالى : « ولولا رهطك لرجمناك » . راجع جـ ٩ ص ٩١

Marfat.com

قوله تعالى : كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾
وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا
ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَآءٌ
عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾ التأنيث بمعنى القبيلة والجماعة. وتكذيبهم المرسلين كما تقدم . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بيّن المعنى وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ الرّيع ما ارتفع من الأرض فى قول ابن عباس وغيره، جمع رِيعة . وكم ريع أرضك أى كم ارتفاعها . وقال قتادة : الرّيع الطريق . وهو قول الضحاك والكلبي ومقاتل والسدى . وقاله ابن عباس أيضا . ومنه قول المسيّب ابن عَلَس :

فى الآلِ يَخفِضُها ويَرفعُها * رِيعٌ يَلوحُ كأنه سَحْـل

Marfat.com

شبّه الطريق بثوب أبيض . النحاس : ومعروف فى اللغة أن يقال لما آرتفع من الأرض ربع وللطريق ربع . قال الشاعر(١) :

طِراقُ الخَوافِي مشرق فوقَ رِيعةٍ * نَدَى ليلِهِ فى ريشه يَترقرقُ

وقال عمارة : الريع الجبل الواحد رِيعة والجمع رِياع . وقال مجاهد : هو الفج بين الجبلين . وعنه : الثنيّة الصغيرة . وعنه : المنظرة . وقال عكرمة ومقاتل : كانوا يهتدون بالنجوم إذا سافروا، فبنوا على الطريق أمثالا طوالا ليهتدوا بها ؛ يدل عليه قوله « آيَةً » أى علامة . وعن مجاهد : الريع بنيان الحَمَام دليله « تَعْبَثُونَ » أى تلعبون ؛ أى تبنون بكل مكان مرتفع آية علما تلعبون بها على معنى أبنية الحمام و بروجها . وقيل : تعبثون بمن يمر فى الطريق . أى تبنون بكل موضع مرتفع لتشرفوا على السابلة فتسخروا منهم . وقال الكلبي : إنه عبث العشّارين بأموال من يمر بهم ؛ ذكره الماوردى . وقال آبن الأعرابى : الريع الصومعة ، والرّيع البرج من الحمام يكون فى الصحراء . والرّيع التل العالى . وفى الرّيع لغتان : كسر الراء وفتحها و جمعها أرياع ؛ ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ أى منازل ؛ قاله الكلبي . وقيل : حصونا مشيدة ؛ قاله آبن عباس ومجاهد . ومنه قول الشاعر :

تَركْنَا ديارَهمْ مِنهمْ قِفَاراً * وهَدَّمنا المصانعَ والبُرُوجَا

وقيل : قصورا مشيدة ؛ وقاله مجاهد أيضا . وعنه : بروج الحمام ؛ وقاله السدى .

قلت : وفيه بعد عن مجاهد ؛ لأنه تقدّم عنه فى الريع أنه بنيان الحمام فيكون تكرارا فى الكلام . وقال قتادة : مآجِل للماء تحت الأرض . وكذا قال الزجاج : إنها مصانع الماء، واحدتها مَصْنَعة ومَصْنَع . ومنه قول لَبِيد :

بَلِينا وما تَبلَى النجومُ الطوالعُ * وتَبقَى الجبالُ بَعدَنا والمصانِعُ

---

(١) هو ذو الرمة يصف بازيا . وفى ديوانه — طبع أوربا — « واقع » بدل « مشرق » .

Marfat.com

الجوهري : المصنَعة كالحوض يجتمع فيها ماء المطر ، وكذلك المصنُعة بضم النون . والمصانع الحصون . وقال أبو عبيدة : يقال لكل بناء مصنعة . حكاه المهدوي . وقال عبد الرزاق : المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العادية . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي كي تخلدوا . وقيل : لعل آستفهام بمعنى التوبيخ أي فهل « تَخْلُدُونَ » كقولك : لعلك تشتمني أي هـل تشتمني . روى معناه عن آبن زيد . وقال الفراء : كيما تخلدون لا تتفكرون في الموت . وقال ابن عباس وقتادة : كأنكم خالدون باقون فيهـا . وفي بعض القراءات « كَأَنَّكُمْ تُخَلَّدُونَ »(١) ذكره النحاس . وحكى قتادة : أنهـا كانت في بعض القراءات « كأنكم خالدون » .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ البطش السـطوة والأخذ بالعنف . وقـد بَطَش به يبطُش ويبطِش بطشا . وباطشـه مباطشة . وقال آبن عبـاس ومجاهد : البطش العسف قتلا بالسيف وضربا بالسوط . ومعنى ذلك فعلتم ذلك ظلمـا . وقال مجاهد أيضا : هو ضرب بالسياط ؛ ورواه مالك بن أنس عن نافع عن آبن عمر فيما ذكر آبن العربي . وقيـل : هو القتل بالسيف في غير حق . حكاه يحيى بن سـلّام . وقال الكلبي والحسن : هو القتل على الغضب من غير تثبت . وكله يرجع إلى قول آبن عباس . وقيل : إنه المؤاخذة على العمد والخطأ من غير عفو ولا إبقاء . قال آبن العربي : ويؤيد ما قال مالك قول الله تعالى عن موسى : « فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ » وذلك أن موسى عليه السلام لم يسلّ عليه سيفا ولا طعنه برمح ، وإنما وكزه وكانت منيّته في وكزته . والبطش يكون باليد وأقله الوكز والدفع ، ويليه السوط والعصا ، ويليه الحديد ، والكل مذموم إلا بحق . والآية نزلت خبرا عمن تقدّم من الأمم ، ووعظا من الله عز وجل لنا في مجانبة ذلك الفعـل الذي ذمهم به وأنكره عليهم .

قلت : وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هـذه الأمة ، لاسيما بالديار المصرية منـذ وليتها البحرية(٢) ، فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق . وقد أخبر صلى

(١) مبنى للمفعول مخففا ومشددا. (٢) البحرية : هم من المماليك الأتراك الذين آستخدمهم الملك الصالح الأيوبي ، وأسكنهم جزيرة الروضة . وأول ملوكهم عز الدين أيبك . وكانت مدة حكمهم من سنة ٦٤٨ — ٧٨٤ هـ

Marfat.com

الله عليه وسلم أن ذلك يكون. كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" . وخرج أبو داود من حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا تبايعتم بالعينة (١) وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم" . « جَبَّارِينَ » قتالين . والجبار القتال فى غير حق . وكذلك قوله تعالى : « إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ » قاله الهروى . وقيل : الجبار المتسلّط العاتى؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » أى بمسلّط . وقال الشاعر :

سَلَبْنا من الجبّار بالسيف مُلْكَهُ * عَشِيًّا وأطرافُ الرِّماح شَوَارِعُ

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ تقدّم . ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى من الخيرات؛ ثم فسرها بقوله : ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أى سخر ذلك لكم وتفضل بها عليكم، فهو الذى يجب أن يعبد ويشكر ولا يكفر . ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إن كفرتم به وأصررتم على ذلك . ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ كل ذلك عندنا سواء لا نسمع منك ولا نلوى على ما تقوله . وروى العباس عن أبى عمرو وبشر عن الكسائى : « أَوَعَظتَّ » مدغمة الظاء فى التاء وهو بعيد؛ لأن الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيما قرب منه جدا وكان مثله ومخرجه . ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى دينهم؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الفرّاء : عادة الأوّلين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى « خَلْقُ الْأَوَّلِينَ » . الباقون « خُلُقُ » . قال الهروى : وقوله عز وجل « إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ » أى اختلاقهم وكذبهم، ومن قرأ «خُلُقُ الْأَوَّلِينَ» فمعناه عادتهم، والعرب تقول : حدّثنا فلان بأحاديث الخَلْق أى بالخرافات والأحاديث المفتعلة . وقال ابن الأعرابى :

---

(١) العينة أن تبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل معلوم ثم تشتريها منه بأقل من الثمن الذى بعتها به .

Marfat.com

الخُلق الدين والخَلق الطبع والخُلق المروءة .. قال النحاس : « خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » عند الفراء يعنى عادة الأولين . وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال : « خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » مذهبهم وما جرى عليه أمرهم؛ قال أبو جعفر : والقولان متقاربان، ومنه الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم " أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خُلقا " أى أحسنهم مذهبا وعادة ومايجرى عليه الأمر فى طاعة الله عز وجل، ولا يجوز أن يكون من كان حسن الخلق فاجرا فاضلا، ولا أن يكون أكمل إيمانا من السيء الخلق الذى ليس بفاجر . قال أبو جعفر : حكى لنا عن محمد بن يزيد أن معنى « خَلْقُ الْأَوَّلِينَ » تكذيبهم وتخرصهم غير أنه كان يميل إلى القراءة الأولى ؛ لأن فيها مدح آبائهم ، وأكثر ما جاء القرآن فى صفتهم مدحهم لآبائهم ، وقولهم : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ » . وعن أبى قلابة : أنه قرأ « خُلْقُ » بضم الخاء وإسكان اللام تخفيف « خُلُقُ » . ورواها ابن جبير عن أصحاب نافع عن نافع . وقد قيل : إن معنى « خَلْقُ الْأَوَّلِينَ » دين الأولين . ومنه قوله تعالى : « فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ » أى دين الله . و « خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » عادة الأولين : حياة ثم موت ولا بعث . وقيل : ما هذا الذى أنكرت علينا من البنيان والبطش إلا عادة من قبلنا فنحن نقتدى بهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ على ما نفعل . وقيل : المعنى خلق أجسام الأولين؛ أى ما خلقنا إلا كخلق الأولين الذين خلقوا قبلنا وماتوا، ولم ينزل بهم شيء مما تحذرنا به من العذاب . ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أى بريح صرصر عاتية على ما يأتى فى « الحاقة » . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قال بعضهم : أسلم معه ثلثمائة ألف ومئون وهلك باقيهم . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ

Marfat.com

طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا
شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ذكر قصة صالح وقومه وهم ثمود ؛ وكانوا يسكنون الحجر كما تقدم فى « الحجر »(١) وهى ذوات نخل وزروع ومياه . ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴾ يعنى فى الدنيا آمنين من الموت والعذاب . قال ابن عباس : كانوا معمَّرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم . ودل على هذا قوله : « وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » فقرعهم صالح و وبخهم وقال : أتظنون أنكم باقون فى الدنيا بلا موت ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ . الزمخشرى : فإن قلت لم قال «وَنَخْلٍ» بعد قوله «وَجَنَّٰتٍ» والجنات تتناول النخل أول شيء كما يتناول النَّعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى إنهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخل ؛ كما يذكرون النَّعم ولا يريدون إلا الإبل قال زهير :

كأنَّ عينىَّ فى غَرْبَى مُقَتَّلَةٍ * من النواضح تَسقِى جنَّةً سُحُقَا

يعنى النخل؛ والنخلة السُّحُوق البعيدة الطول .

قلت : فيه وجهان؛ أحدهما ـــ أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله فى جملة سائر الشجر تنبيها على انفراده عنها بفضله عنها . والثانى ـــ أن يريد بالجنات غيرها من الشجر؛ لأن اللفظ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل . والطلعة هى التى تطلع من النخلة كنصل السيف ؛ فى جوفه شماريخ القنـو ، والقنو اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه . و « هَضِيمٌ » قال ابن عباس : لطيف مادام فى كُفُرّاه . والهضيم اللطيف الدقيق ؛ ومنه قول امرئ القيس :

* عَلَىَّ هَضِيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ[(1)] *

الجوهرى : و يقال للطلع هضيم ما لم يخرج من كُفُرّاه ؛ لدخول بعضه فى بعض . والهضيم من النساء اللطيفة الكشحين . ونحوه حكى الهروى ؛ قال : هو المنضم فى وعائه قبل أن يظهر ؛ ومنه رجل هضيم الجنبين أى منضمهما ؛ هذا قول أهل اللغة . وحكى الماوردى وغيره فى ذلك اثنى عشر قولا : أحدها — أنه الرطب اللين ؛ قاله عكرمة . الثانى — هو المذنِّب من الرطب ؛ قاله سعيد بن جبير. قال النحاس : و روى أبو إسحق عن يزيد — هو ابن أبى زياد كوفى و يزيد بن أبى مريم شامى — « وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ » قال : منه ما قد أرطب ومنه مذنِّب . الثالث — أنه الذى ليس فيه نوى ؛ قاله الحسن . الرابع — أنه المتهشم المتفتت إذا مس تفتت ؛ قاله مجاهد . وقال أبو العالية : يتهشم فى الفم . الخامس — هو الذى قد ضمر بركوب بعضه بعضا ؛ قاله الضحاك ومقاتل . السادس — أنه المتلاصق بعضه ببعض ؛ قاله أبو صخر . السابع — أنه الطلع حين يتفرق و يخضر ؛ قاله الضحاك أيضا . الثامن — أنه اليانع النضيج ؛ قاله ابن عباس . التاسع — أنه المكتنز قبل أن ينشق عنه القشر ؛ حكاه ابن شجرة ؛ قال :

كأنّ حَمولةً تُجْلَى عليـه * هَضيمٌ ما يُحَسُّ له شُقوقُ

العاشر — أنه الرخو ؛ قاله الحسن . الحادى عشر — أنه الرخص اللطيف أوّل ما يخرج وهو الطلع النضيد ؛ قاله الهروى . الثانى عشر — أنه البَرْنِى[(2)] ؛ قاله ابن الأعرابى ؛ فعيل بمعنى فاعل أى هنيء مرىء من انهضام الطعام . والطلع اسم مشتق من الطلوع وهو الظهور ؛ ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات .

(1) صدر البيت . * هصرت بفودى رأسها فتمايلت *

(2) البرنى : ضرب من التمر وهو أجوده ؛ واحدته برنية .

Marfat.com

قوله تعـالى : « وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ » النَّحت النَّجر والبَرْى ؛ نحتـه ينحِته (بالكسر) نحتا إذا براه والنُّحاتة البُرَاية . والمِنْحَت ما ينحت به . وفى « وَالصَّافَّاتِ » قال : «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ» . وكانوا ينحتونها من الجبال لمـا طالت أعمارهم وتهدّم بناؤهم من المدر . وقرأ آبن كثير وأبو عمرو ونافع « فَرِهِينَ » بغير ألف . الباقون : « فَارِهِينَ » بألف وهما بمعنى واحد فى قول أبى عبيدة وغيره؛ مثل « عِظاما نَخِرة » و « ناخِرة » . وحكاه قطرب . وحكى فَرُه يَفرُه فهو فاره وفَرِه يَفرَه فهو فرِهٌ وفاره إذا كان نشيطا . وهو نصب على الحال . وفرق بينهما قوم فقالوا : «فارهين» حاذقين بنحتها؛ قاله أبو عبيدة؛ وروى عن آبن عباس وأبى صالح وغيرهما . وقال عبـد الله بن شداد : « فارِهين » متجبرين . وروى عن آبن عبـاس أيضا أن معنى « فرِهين » بغير ألف أشرين بطرين ؛ وقاله مجاهد . وروى عنه شرهين . الضحاك : كيِّسين . قتادة : معجَبين ؛ قاله الكلبي؛ وعنه : ناعمين . وعنه أيضا آمنين؛ وهو قول الحسن . وقيل : متخيرين؛ قاله الكلبي والسدى . ومنه قول الشاعر :

إلى فَرِهٍ يمـاجد كلَّ أمرٍ * قصدتُ له لأختبر الطِّباعَا

وقيل : متعجبين؛ قاله خُصيف . وقال آبن زيد : أقوياء . وقيـل : فرهين فرحين؛ قاله الأخفش . والعرب تعاقب بين الهاء والحاء؛ تقول . مدهته ومدحته ؛ فالفرِه الأشِر الفرِح ثم الفرَح بمعنى المَرح مذموم؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحاً » وقال : « إِنَّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » . ﴿فَاتَّقُوا اللّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ قيل : المراد الذين عقروا الناقة . وقيل : التسعة الرهط الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قال السدى وغيره : أوحى الله تعالى إلى صالح : إن قومك سيعقرون ناقتك؛ فقال لهم ذلك ، فقالوا : ما كنا لنفعل . فقال لهم صالح : إنه سيولد فى شهركم هذا غلام يعقرها و يكون هلاككم على يديه ؛ فقالوا : لا يولد فى هذا الشهر ذكر إلا قتلناه . فولد لتسعة منهم فى ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم، ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح آبنه وكان لم يولد له قبل ذلك . وكان آبن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتا سريعا، وكان إذا مر بالتسعة فرأوه قالوا : لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا . وغضب

Marfat.com

التسعة على صالح؛ لأنه كان سبب قتلهم أبناءهم فتعصبوا وتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله . قالوا: نخرج إلى سفر فترى الناس سفرنا فنكون فى غار، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم قلنا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون؛ فيصدقوننا ويعلمون أنا قد خرجنا إلى سفر. وكان صالح لا ينام معهم فى [القرية وكان يأوى إلى](١) مسجده، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم، فلما دخلوا الغار أرادوا أن يخرجوا فسقط عليهم الغار فقتلهم، فرأى ذلك ناس ممن كان قد اطلع على ذلك، فصاحوا فى القرية : ياعباد الله ! أما رضى صالح أن أمر بقتل أولادهم حتى قتلهم؛ فأجمع أهل القرية على قتل الناقة . وقال ابن إسحق : إنما اجتمع التسعة على سبّ صالح بعد عقرهم الناقة وإنذارهم بالعذاب على ما يأتى بيانه فى سورة «النمل»(٢) إن شاء الله تعالى . ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ هو من السحر فى قول مجاهد وقتادة على ما قال المهدوى . أى أصبت بالسحر فبطل عقلك؛ لأنك بشر مثلنا فلم تدّع الرسالة دوننا . وقيل : من المعلَّلين بالطعام والشراب؛ قاله ابن عباس والكلبي وقتادة ومجاهد أيضا فيما ذكر الثعلبي . وهو على هذا القول من السَّحر وهو الرئة أى بشر لك سَحْر أى رئة تأكل وتشرب مثلنا كما قال [لبيد](٣) :

فإن تسألينا فيمَ نحن فإننا * عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

وقال [امرؤ القيس] :

* ونُسْحَرُ بالطَّعام وبالشَّراب(٤) *

﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى قولك . ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ قال ابن عباس : قالوا إن كنت صادقا فادع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشراء(٥) فتضع ونحن ننظر، وترد هذا الماء فتشرب وتغدو علينا بمثله لبنا . فدعا الله

---

(١) الزيادة من «قصص الأنبياء» للثعلبي . (٢) فى تفسير قوله تعالى : «وكان فى المدينة تسعة رهط» .
(٣) فى نسخ الأصل : امرؤ القيس؛ والتصويب من ديوان لبيد . (٤) صدر البيت :

* أرانا موضعين لأمر غيب *

موضعين : مسرعين . وأمر غيب يريد الموت وأنه قد غيب منا وقته ونحن نلهى عنه بالطعام والشراب .
(٥) ناقة عشراء : مضى لحملها عشرة أشهر .

Marfat.com

وفعل الله ذلك فـ « قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ » أى حظ [من المـاء][1] ؛ أى لكم شرب يوم ولها شرب يوم؛ فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أول النهار وتسقيهم اللبن آخر النهـار ، وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم ، ليس لهم فى يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئا ، ولا لهـا أن تشرب فى يومهم من مائهم شيئا . قال الفـراء : الشِّرب الحظ من المـاء . قال النحاس : فأما المصدر فيقال فيـه شرب شَرْبًا وشُربا وشِربا وأكثرها المضمومة ؛ لأن المكسورة والمفتوحة يشتركان مع شيء آخر فيكون الشِّرْب الحظ من المـاء، ويكون الشَّرْب جمع شارب كما قال[2] :

* فقلتُ للشَّرْب فى دُرْنَا وقد ثَمِلُوا *

إلا أن أبا عمرو بن العلاء والكسائى يختاران الشَّرب بالفتح فى المصدر، ويحتجان برواية بعض العلماء أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنها أيام أكل وشَرْب" . ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ لا يجـوز إظهار التضعيف هاهنا ؛ لأنهما حرفان متحركان من جنس واحد . ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ جواب النهى، ولا يجوز حذف الفاء منه، والجزم كما جاء فى الأمر إلا شيئا روى عن الكسائى أنه يجـيزه . ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ أى على عقرها لمـا أيقنوا بالعذاب . وذلك أنه أنظرهم ثلاثا فظهرت عليهم العلامة فى كل يوم، وندموا ولم ينفعهم الندم عند معاينة العذاب . وقيل : لم ينفعهم النـدم لأنهم لم يتوبوا ، بل طلبوا صالحا عليـه السلام ليقتلوه لمـا أيقنوا بالعذاب . وقيل : كانت ندامتهم على ترك الولد إذ لم يقتلوه معها . وهو بعيد . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ إلى آخره تقدّم . ويقال : إنه ما آمن به من تلك الأمم إلا ألفان وثمـانمـائة رجل وامرأة . وقيل : كانوا أربعة آلاف . وقال كعب : كان قوم صالح اثنى عشر ألف قبيل كل قبيل نحو اثنى عشر ألفا من سوى النساء والذرية ، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات .

---

(١) زيادة يقتضيها المعنى .　　(٢) هو الأعشى وتمـامه :

* شيموا فكيف يشيم الشارب الثمـل *

ودرنا (بضم الدال والفتح) موضع زعموا أنه بناحية اليمـامة . اللسان .

Marfat.com

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ
لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾
وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ
أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ
مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى
مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾
ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ مضى معناه وقصته فى «الأعراف»[1] و «هود» مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ كانوا ينكحونهم فى أدبارهم وكانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدّم « فى الأعراف » . ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ يعنى فروج النساء فإن الله خلقها للنكاح . قال إبراهيم بن مهاجر : قال لى مجاهد كيف يقرأ عبد الله « وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ » قلت : « وتذرون ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم » قال : الفرج؛ كما قال : « فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ » . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ أى متجاوزون لحدود الله . ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ ﴾ عن قولك هذا . ﴿ لَتَكُونَنَّ

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٣ وما بعدها وجـ ٩ ص ٧٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

﴿ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أي من بلدنا وقريتنا . ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ ﴾ يعني اللواط ﴿ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ أي المبغضين والقلى البغض ؛ قليته أقليه قِلًى وقَلاء . قال[1] :

* فلستُ بمقليِّ الخلالِ ولا قالِي *

وقال آخر[2] :

عليك السلامُ لا مُلِلتِ قريبةً * وما لَكِ عندي إن نأيتِ قَلاءُ

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من عذاب عملهم . دعا الله لما أيس من إيمانهم ألا يصيبه من عذابهم .

قال تعالى : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ ولم يكن إلا ابنتاه على ما تقدّم في « هود » . ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ روى سعيد عن قتادة قال : غبرت في عذاب الله عز وجل أي بقيت . وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من الباقين في الهَرَم أي بقيت حتى هَرِمت . قال النحاس : يقال للذاهب غابر والباقي غابر كما قال[3] :

لا تكسَع الشَّوْلَ بأغبارِها * إنك لا تدري مَنِ النَّاتِجُ

وكما قال[2] :

فما وَنَى محمدٌ مذ انْ غَفَرْ * له الإلهُ ما مَضَى وما غَبَرْ

أي ما بقي . والأغبار بقيات الألبان . ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أي أهلكناهم بالخسف والحصب ؛ قال مقاتل : خسف الله بقوم لوط وأرسل الحجارة على من كان خارجا من القرية . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ يعني الحجارة ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ . وقيل : إن جبريل خسف بقريتهم وجعل عاليها سافلها ، ثم أتبعها الله بالحجارة . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ لم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط وابنتاه .

(١) هو امرؤ القيس ؛ وصدر البيت :

* صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

(٢) هو الحرث بن حلزة ؛ وكسع الناقة بغبرها ترك في ضرعها بقية من اللبن .
وبعده :
وآحلب لأضيافك ألبانها * فإن شر اللبن الوالج
يقول : لا تغزر إبلك تطلب بذلك قوة نسلها ، واحلبها لأضيافك ، فلعل عدوّا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك .

(٣) هو العجاج .

Marfat.com

قوله تعالى : كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ
شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾
أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ
ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا إِنَّمَآ
أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ
يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

قوله تعالى : ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأيك الشجر الملتف الكثير الواحدة أيكة . ومن قرأ « أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ » فهى الغيضة . ومن قرأ « لَيْكَةَ » فهو ٱسم القرية . ويقال : هما مثل بكة ومكة ؛ قاله الجوهرى . وقال النحاس : وقرأ أبو جعفر ونافع « كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ » وكذا قرأ فى « صٓ » . وأجمع القراء على الخفض فى التى فى سورة « الحِجر » والتى فى سورة « قٓ » فيجب أن يرد ما ٱختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه إذ كان المعنى واحدا . وأما ما حكاه أبو عبيد من أن « ليكة » هى ٱسم القرية التى كانوا فيها وأن « الأيكة » ٱسم البلد فشىء لا يثبت ولا يعرف من قاله فيثبت علمه ، ولو عرف من قاله لكان فيه نظر؛ لأن أهل العلم جميعا من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافه .

Marfat.com

وروى عبـدالله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال : أرسـل شعيبٌ عليه السـلام إلى أمتين : إلى قومه من أهـل مدين، وإلى أصحاب الأيكة؛ قال : والأيكة غيضـة من شجر ملتف . وروى سعيد عن قتادة قال : كان أصحاب الأيكة أهل غيضة وشجر وكانت عامة شجرهم الدوم وهو شجر المُقل . وروى آبن جبير عن الضحاك قال : خرج أصحاب الأيكة — يعني حين أصابهم الحر — فآنضموا إلى الغيضة والشجر، فأرسـل الله عليهم سحابة فآستظلوا تحتها ، فلما تكاملوا تحتها أُحرقوا . ولو لم يكن في هـذا إلا ما روى عن آبن عباس قال : و « الأيكة » الشجر . ولا نعلم بين أهل اللغة آختلافا أن الأيكة الشجر الملتف ، فأما آحتجاج بعض من آحتج بقراءة من قرأ في هذين الموضعين بالفتح أنه في السـواد « ليكة » فلا حجة له؛ والقول فيه : إن أصله الأيكة ثم خففت الهمزة فألقيت حركتها على اللام فسقطت وآستغنت عن ألف الوصل ؛ لأن اللام قد تحركت فلا يجوز على هذا إلا الخفض ؛ كما تقول بالأحمر تحقق الهمزة ثم تخففها فتقول بِلَحْمرِ ؛ فإن شئت كتبته في الخط على ما كتبته أوّلا ، وإن شئت كتبته بالحـذف ؛ ولم يجز إلا الخفض ؛ قال سيبويه : وآعلم أن ما لا ينصرف إذا دخلت عليه الألف واللام أو أضيف آنصرف ؛ ولا نعلم أحدا خالف سيبويه في هذا . وقال الخليل : « الأيكة » غيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب ؛ لأنه لم يكن أخا لأصحاب الأيكة في النسب ، فلمـا ذكر مدين قال : « أَخَاهُمْ شُـعَيْبًا » ؛ لأنه كان منهم . وقد مضى في « الأعراف »(١) القول في نسبه . قال آبن زيد : أرسل الله شعيبا رسولا إلى قومه أهل مدين ، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة؛ وقاله قتادة . وقد ذكرناه . ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ تخافون الله ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَٱتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ الآية . وإنمـا كان جواب هؤلاء الرسـل واحدا على صيغة واحدة ؛ لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى ، والطاعة والإخلاص في العبادة ، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة . ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ الناقصـين للكيل

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

والوزن. ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أى أعطوا الحق. وقد مضى فى «سُبْحَانَ» وغيرها.
﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ تقدم فى « هود » وغيرها .
﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ قال مجاهد : الجبلة هى الخليقة . وجُبِل فلان على كذا أى خُلِق؛ فالخُلق جِبِلّة وجُبُلّة وجِبْلة وجُبْلة وجَبْلة ذكره النحاس فى «معانى القرآن».
« والجِبِلّة » عطف على الكاف والميم . قال الهروى: الجِبِلّة والجُبُلّة والجِبِلّ والجُبُلّ والجَبْل لغات ؛ وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس ؛ ومنه قوله تعالى : « جِبِلًّا كَثِيرًا » .
قال النحاس فى كتاب « إعراب القرآن » له : ويقال جُبُلّة والجمع فيهما جِبَالّ، وتحذف الضمة والكسرة من الباء، وكذلك التشديد من اللام ؛ فيقال : جُبْلة وجُبَل، ويقال : جِبْلة وجِبَال ؛ وتحذف الهاء من هذا كله . وقرأ الحسن باختلاف عنه « والجُبُلَّةَ الأَوَّلِينَ » بضم الجيم والباء ؛ وروى عن شيبة والأعرج . الباقون بالكسر . قال :

والموتُ أعظمُ حادثٍ * فيما يَمُرّ على الجِبِلّة

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ الذين يأكلون الطعام والشراب على ما تقدم . ﴿ وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى ما نظنك إلا من الكاذبين فى أنك رسول الله تعالى . ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا(١) مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى جانبا من السماء وقطعة منه، فننظر إليه ؛ كما قال : « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ » . وقيل : أرادوا أنزل علينا العذاب . وهو مبالغة فى التكذيب . قال أبو عبيدة : الكِسْف جمع كِسْفة مثل سِدْر وسِدْرة . وقرأ السُّلَمى وحفص « كِسَفًا » جمع كِسْفَة أيضا وهى القطعة والجانب تقديره كِسْرة وكِسَر . قال الجوهرى : الكِسْفة القطعة من الشىء؛ يقال أعطنى كِسْفة من ثوبك والجمع كِسَف وكِسْف . ويقال: الكِسْف والكِسْفَة واحد . وقال الأخفش : من قرأ « كِسْفًا » جعله واحدا ومن قرأ « كِسَفًا » جعله جمعا . وقد مضى هذا فى سورة « سبحان »(٢) . وقال الهروى : ومن قرأ « كِسْفًا » على التوحيد فجمعه أكساف وكسوف ؛ كأنه قال أو تسقطه علينا طبقا واحدا ،

(١) « كسفا » بإسكان السين قراءة نافع . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

وهو من كسفت الشيء كسفا إذا غطيته . ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ؛ أي إنما علىّ التبليغ وليس العذاب الذى سألتم إلىّ وهو يجازيكم . ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ قال ابن عباس : أصابهم حرشديد، فأرسل الله سبحانه سحابة فهربوا إليها ليستظلوا بها، فلما صاروا تحتها صيح بهم فهلكوا . وقيل : أقامها الله فوق رءوسهم ، وألهبها حرا حتى ماتوا من الرَّمْد . وكان من أعظم يوم فى الدنيا عذابا . وقيل : بعث الله عليهم سَمُوما فخرجوا إلى الأيكة يستظلون بها فأضرمها الله عليهم نارا فاحترقوا . وعن ابن عباس أيضا وغيره : إن الله تعالى فتح عليهم بابا من أبواب جهنم ، وأرسل عليهم هَدَّة وحرا شديدا فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا بيوتهم فلم ينفعهم ظِل ولا ماء فأنضجهم الحر، فخرجوا هربا إلى البرية، فبعث الله عز وجل سحابة فأظلتهم فوجدوا لها بردا وروحا وريحا طيبة ، فنادى بعضهم بعضا ، فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله تعالى عليهم نارا ، ورجفت بهم الأرض ، فاحترقوا كما يحترق الجراد فى المقلى ، فصاروا رمادا ؛ فذلك قوله : « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا » وقوله : ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ . وقيل : إن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ، وسلط عليهم الحر حتى أخذ بأنفاسهم، ولم ينفعهم ظل ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب؛ ليتبردوا فيها فيجدوها أشد حرّا من الظاهر ، فهربوا إلى البرية ، فأظلتهم سحابة وهى الظلّة، فوجدوا لها بردا ونسيما ، فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا . وقال يزيد الجُرَيْرِىّ : سلط الله عليهم الحر سبعة أيام ولياليهن ثم رفع لهم جبل من بعيد ، فأتاه رجل فإذا تحته أنهار وعيون وشجر وماء بارد ، فاجتمعوا كلهم تحته، فوقع عليهم الجبل وهو الظُّلَّة. وقال قتادة : بعث الله شعيبا إلى أمتين : أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظلّة، وأما أصحاب مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قيل : آمن بشعيب من الفئتين تسعمائة نفر .

Marfat.com

قوله تعالى : وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ عاد إلى ما تقدم بيانه فى أول السورة من إعراض المشركين عن القرآن . ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ « نَزَلَ » مخففا قرأ نافع وآبن كثير وأبو عمرو. الباقون « نَزَّلَ » مشددا « بِهِ الرُّوحَ الأَمِينَ » نصبا وهو آختيار أبي حاتم وأبي عبيد لقوله ؛ « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ » وهو مصدر نزّل. والحجة لمن قرأ بالتخفيف أن يقول ليس هذا بمقدّر ؛ لأن المعنى و إن القرآن لتنزيل رب العالمين نزل به جبريل إليك؛ كما قال تعالى: « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ » أي يتلوه عليك فيعيه قلبك . وقيل: ليثبت قلبك . ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ أى لئلا يقولوا لسنا نفهم ما تقول . ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾ أى و إن ذكر نزوله لفى كتب الأولين يعنى الأنبياء . وقيل : أى إن ذكر محمد عليه السلام فى كتب الأولين ؛ كما قال تعالى : « يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ » والزُّبُر الكتب الواحد زَبور كرسول ورسل؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ قال مجاهد : يعنى عبد الله آبن سَلَام وسلمان وغيرهما ممن أسلم . وقال آبن عباس : بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة

Marfat.com

يسألونهم عن محمد عليه السلام؛ فقالوا : إن هذا لزمانه، و إنا لنجد في التوراة نعته وصفته . فيرجع لفظ العلماء إلى كل من كان له علم بكتبهم أسلم أو لم يسلم على هذا القول. و إنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين؛ لأنهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب؛ لأنهم مظنون بهم علمٌ . وقرأ ابن عامر «أَوَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ» . الباقون «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً» بالنصب على الخبر واسم يكن «أَنْ يَعْلَمَهُ» والتقدير أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل الذين أسلموا آية واضحة. وعلى القراءة الأولى اسم كان «آيَةٌ» والخبر «أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ» . وقرأ عاصم الجحدري « أَنْ تَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » . ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ أي على رجل ليس بعربي اللسان ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ﴾ بغير لغة العرب لما آمنوا ولقالوا لا نفقه . نظيره « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا » الآية . وقيل : معناه ولو نزلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفة وكبرا . يقال : رجل أعجم وأعجمي إذا كان غير فصيح و إن كان عربيا ، ورجل عجمي و إن كان فصيحا ينسب إلى أصله ؛ إلا أن الفراء أجاز أن يقال رجل عجمي بمعنى أعجمي . وقرأ الحسن « عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِيِّينَ » مشددة بياءين جعله نسبة . ومن قرا « الْأَعْجَمِينَ » فقيل : إنه جمع أعجم . وفيه بعد؛ لأن ما كان من الصفات الذي مؤنثه فعلاء لا يجمع بالواو والنون، ولا بالألف والتاء؛ لا يقال أحمرون ولا حمراوات . وقيل : إن أصله الأعجمين كقراءة الجحدري ثم حذفت ياء النسب، وجعل جمعه بالياء والنون دليلا عليها . قاله أبو الفتح عثمان بن جني . وهو مذهب سيبويه .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ يعني القرآن أي الكفر به ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ . وقيل : سلكنا التكذيب في قلوبهم ؛ فذلك الذي منعهم من الإيمان ؛ قاله يحيى بن سلام . وقال عكرمة : القسوة . والمعنى متقارب وقد مضى في « الحجر »(١) . وأجاز الفراء الجزم في « لَا يُؤْمِنُونَ » ؛ لأن فيه معنى الشرط والمجازاة . وزعم أن من شأن العرب إذا وضعت لا موضع كي لا في مثل هذا ربما جزمت ما بعدها وربما رفعت؛ فتقول : ربطت

(١) راجع جـ ١٠ ص ٧ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

الفرس لا ينفلت بالرفع والجزم ؛ لأن معناه إن لم أربطه ينفلت ، والرفع بمعنى كيلا ينفلت ، وأنشد لبعض بنى عُقيل :

وحتى رأينا أحسنَ الفعلِ بيننا * مُساكَنةً لا يَقرِفُ الشرَّ قارِفُ

بالرفع لما حذف كى . ومن الجزم قول الآخر :

لطالما حلأتُماها لا تَرِدْ * فخلِّياها والسِّجالَ تَبْتَرِدْ (١)

قال النحاس : وهذا كله فى «يؤمنون» خطأ عند البصريين ؛ ولا يجوز الجزم بلا جازم ، ولا يكون شىء يعمل عملا فإذا حذف عمل عملا أقوى من عمله وهو موجود ؛ فهذا احتجاج بيِّن . ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ . فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أى العذاب . وقرأ الحسن « فَتَأْتِيَهُم » بالتاء ؛ والمعنى : فتأتيهم الساعة بغتة فأضمرت لدلالة العذاب الواقع فيها ، ولكثرة ما فى القرآن من ذكرها . وقال رجل للحسن وقد قرأ « فَتَأْتِيَهُم » : يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب بغتة . فانتهره وقال : إنما هى الساعة تأتيهم بغتة أى فجأة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانها . ﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ أى مؤخرون وممهلون . يطلبون الرجعة هنالك فلا يجابون إليها . قال القشيرى : وقوله « فَيَأْتِيَهُم » ليس عطفا على قوله : «حَتَّىٰ يَرَوُا» بل هو جواب قوله : « لَا يُؤْمِنُونَ » فلما كان جوابا للنفى انتصب ، وكذلك قوله : « فَيَقُولُوا » .

قوله تعالى : أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ قال مقاتل : قال المشركون للنبىّ صلى الله عليه وسلم يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتى به ! فنزلت « أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » . ﴿ أَفَرَأَيْتَ

(١) حلأها : منعها من ورود الماء . والسجال : (جمع سجل) وهى الدلو الضخمة المملوءة ماء . وتبترد : تشرب الماء لتبرد به كبدها . والبيت قاله بعض النسوة لبعض لما زرن امرأة قد تزوجت من رجل كان عاشقا لها .

Marfat.com

إن متعناهم سنين ﴾ يعني في الدنيا والمراد أهل مكة في قول الضحاك وغيره . ﴿ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ﴾ من العذاب والهلاك ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ . « ما » الأولى استفهام معناه التقرير، وهو في موضع نصب بـ « أغنى » و « ما » الثانية في موضع رفع، ويجوز أن تكون الثانية نفيا لا موضع لها . وقيل : « ما » الأولى حرف نفي، و « ما » الثانية في موضع رفع بـ « أغنى » والهاء العائدة محذوفة . والتقدير : ما أغنى عنهم الزمان الذي كانوا يمتعونه . وعن الزهري : إن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ « أفرأيت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون » ثم يبكي ويقول :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة * وليلك نوم والردى لك لازم
فلا أنت في الأيقاظ يقظان حازم * ولا أنت في النوام ناج فسالم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى * كما سر باللذات في النوم حالم
وتسعى إلى ما سوف تكره غبه * كذلك في الدنيا تعيش البهائم

قوله تعالى : ﴿ وما أهلكنا من قرية ﴾ « من » صلة ؛ المعنى : وما أهلكنا قرية . ﴿ إلا لها منذرون ﴾ أي رسل . ﴿ ذكرى ﴾ . قال الكسائي : « ذكرى » في موضع نصب على الحال . النحاس : وهذا لا يحصل، والقول فيه قول الفراء وأبي إسحق أنها في موضع نصب على المصدر ؛ قال الفراء : أي يذكرون ذكرى ؛ وهذا قول صحيح ؛ لأن معنى « إلا لها منذرون » إلا لها مذكرون . و « ذكرى » لا يتبين فيه الإعراب ؛ لأن فيها ألفا مقصورة . ويجوز « ذكرى » بالتنوين، ويجوز أن يكون « ذكرى » في موضع رفع على إضمار مبتدإ . قال أبو إسحق : أي إنذارنا ذكرى . وقال الفراء : أي ذلك ذكرى، وتلك ذكرى . وقال ابن الأنباري قال بعض المفسرين : ليس في «الشعراء» وقف تام إلا قوله « إلا لها منذرون » وهذا عندنا وقف حسن ؛ ثم يبتدئ « ذكرى » على معنى هي ذكرى أي يذكرهم ذكرى، والوقف على « ذكرى » أجود . ﴿ وما كنا ظالمين ﴾ في تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم :

Marfat.com

قوله تعالى : وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ يعنى القرآن بل ينزل به الروح الأمين . ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ أى برمى الشهب كما مضى فى سورة « الحِجرِ » بيانه (١) . وقرأ الحسن ومحمد بن السَّمَيْقَع « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُونُ » قال المهدوى : وهو غير جائز فى العربية ومخالف للخط . وقال النحاس : وهذا غلط عند جميع النحويين؛ وسمعت على بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : هذا غلط عند العلماء ، إنما يكون بدخول شبهة ؛ لما رأى الحسن فى آخره ياء ونونا وهو فى موضع رفع آشتبه عليه بالجمع المسلّم فغلط، وفى الحديث : "آحذروا زلّة العالم" وقد قرأ هو مع الناس « وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ » ولو كان هذا بالواو فى موضع رفع لوجب حذف النون للإضافة . وقال الثعلبى قال الفراء : غلط الشيخ — يعنى الحسن — فقيل ذلك للنضر بن شُمَيل فقال : إن جاز أن يحتج بقول رؤبة والعجاج وذويهما جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه مع أنا نعلم أنهما لم يقرأا بذلك إلا وقد سمعا فى ذلك شيئا ؛ وقال المؤرّج : إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه . وقال يونس بن حبيب : سمعت أعرابيا يقول دخلنا بساتين من ورائها بساتون؛ فقلت : ما أشبه هذا بقراءة الحسن .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ قيل : المعنى قل لمن كفر هذا . وقيل : هو مخاطبة له عليه السلام وإن كان لا يفعل هذا ؛ لأنه معصوم مختار ولكنه خوطب بهذا والمقصود غيره . ودل على هذا قوله : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » أى لا يتكلون على نسبهم وقرابتهم فيدعون ما يجب عليهم .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى – قوله تعالى : « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ » خصّ عشيرته الأقربين بالإنذار؛ لتنحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب فى مفارقته إياهم على الشِّرك . وعشيرته الأقربون قريش . وقيل : بنو عبد مناف . ووقع فى صحيح مسلم : "وأنذر عشيرتك الأقربِين ورهطك منهم المخلَصين" . وظاهر هذا أنه كان قرآنا يتلى وأنه نسخ؛ إذ لم يثبت نقله فى المصحف ولا تواتر . ويلزم على ثبوته إشكال؛ وهو أنه كان يلزم عليه ألا ينذر إلا من آمن من عشيرته؛ فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص فى دين الإسلام وفى حب النبي صلى الله عليه وسلم لا المشركون ؛ لأنهم ليسوا على شىء من ذلك ، والنبي صلى الله عليه وسلم دعا عشيرته كلهم مؤمنهم وكافرهم ، وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتى بعدهم صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يثبت ذلك نقلا ولا معنى . وروى مسلم من حديث أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فاجتمعوا فعمّ وخصّ فقال : "يابنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار يابنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار يابنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار يابنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يابنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رَحِما سأَبُلُّها ببلالها[1]" .

(١) "سأبلها ببلالها" : أى أصلكم فى الدنيا ولا أغنى عنكم من الله شيئا .

الثانيـة — فى هذا الحديث والآية دليل على أن القرب فى الأنساب لا ينفع مع البعد فى الأسباب ، ودليل على جواز صلة المؤمن الكافر وإرشاده ونصيحته ؛ لقوله : "إن لكم رحما سأبلها ببلالها" وقوله عز وجل : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ » الآية، على ما يأتى بيانه هناك .

قوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدم فى سورة « الحجر » و « سبحان » يقال : خفض جناحه إذا لان . ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ أى خالفوا أمرك . ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى برىء من معصيتكم إياى ؛ لأن عصيانهم إياه عصيان لله عز وجل ؛ لأنه عليه السلام لا يأمر إلا بما يرضاه ، ومن تبرأ منه فقد تبرأ الله منه .

قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أى فوض أمرك إليه فإنه العزيز الذى لا يغالب ، الرحيم الذى لا يخذل أولياءه . وقرأ العامة « وَتَوَكَّلْ » بالواو وكذلك هو فى مصاحفهم .

وقرأ نافع وابن عامر « فَتَوَكَّلْ » بالفاء وكذلك هو فى مصاحف المدينة والشام . ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أى حين تقوم إلى الصلاة فى قول أكثر المفسرين : ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : يعنى حين تقوم حيثما كنت . ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : فى المصلين . وقال ابن عباس : أى فى أصلاب الآباء آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبيا . وقال عكرمة : يراك قائما وراكعا وساجدا ؛ وقاله ابن عباس أيضا . وقيل : المعنى ؛ إنك ترى بقلبك فى صلاتك مَن خلفك كما ترى بعينيك مَن قدامك . وروى عن مجاهد؛ ذكره الماوردى والثعلبى . وكان عليه السلام يرى مَن خلفه كما يرى من بين يديه ، وذلك ثابت فى الصحيح وفى تأويل الآية بعيد . ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ إنما قال « تَنَزَّلُ » لأنها أكثر ما تكون فى الهواء ، وأنها تمر من الريح . ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ تقدم فى « الحجر » . فـ « يُلْقُونَ السَّمْعَ » صفة الشياطين « وَأَكْثَرُهُمْ » يرجع إلى الكهنة . وقيل : إلى الشياطين .

قوله تعالى : وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَالشُّعَرَاءُ » جمع شاعر مثل جاهل وجهلاء ؛ قال ابن عباس : هم الكفار « يَتَّبِعُهُمْ » ضلال الجن والإنس . وقيل : « الْغَاوُونَ » الزائلون عن الحق ، ودل بهذا أن الشعراء أيضا غاوون ؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك . وقد قدمنا فى سورة « النور »[1] أن من الشعر ما يجوز إنشاده ، ويكره ، ويحرم . روى مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال : ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم [يوما][2] فقال : " هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت شيء " قلت : نعم . قال " هيه " فأنشدته بيتا . فقال " هيه " ثم أنشدته بيتا . فقال " هيه " حتى أنشدته مائة بيت . هكذا صواب هذا السند وصحيح روايته . وقد وقع لبعض رواة كتاب مسلم : عن عمرو بن الشريد عن الشريد أبيه ؛ وهو وهم ؛ لأن الشريد هو الذى أردفه رسول الله صلى الله عليه وسلم . واسم أبى الشريد سويد . وفى هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحكم والمعانى المستحسنة شرعا وطبعا ، وإنما استكثر النبى صلى الله عليه وسلم من شعر أمية ؛ لأنه

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٧١ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) الزيادة من صحيح مسلم .

Marfat.com

كان حكيما ؛ ألا ترى قوله عليه السلام : "وكاد أمية بن أبى الصّلت أن يسلم" فأما ماتضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه فذلك مندوب إليه ؛ كقول القائل :

الحمد لله العلىّ المنّان (١) * صار الثريد فى رءوس العيدان

أو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مدحه كقول العباس :

مِن قبلها طِبْتَ فى الظِّلال وفى مُسْ * تودعٍ حيث يُخصَفُ الورقُ

ثم هبطت البلاد لا بشرٌ أنـ * ـتَ ولا مُضْغةٌ ولا عَلَقُ

بل نطفة تركب السَّفِينَ وقد ألْـ * ـجَمَ نَسْرًا وأهلَه الغَرَقُ

تنقلُ مِن صَالبٍ إلى رَحِمٍ * إذا مَضَى عالَمٌ بَدَا طَبَقُ (٢)

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : " لا يَفْضُضِ الله فاكَ " . أو الذبّ عنه كقول حسان :

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه * وعندَ اللهِ فى ذاك الجزاءُ

وهى أبيات ذكرها مسلم فى صحيحه وهى فى السير أتم . أو الصلاة عليه ؛ كما روى زيد بن أسلم ؛ خرج عمر ليلة يحرس فرأى مصباحا فى بيت ، وإذا عجوز تنفش صوفا وتقول :

على محمدٍ صلاةُ الأبرارْ * صلى عليه الطيِّبون الأخيارْ

قد كنتَ قوّامًا بُكًا بالأسحارْ * ياليتَ شِعْرى والمنايا أطوارْ

* هل يجمعُنِّى وحبيبى الدارْ *

يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فجلس عمر يبكى . وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم رضى الله عنهم ؛ ولقد أحسن محمد بن سابق حيث قال :

إنّى رضيتُ عليًّا للهُدَى عَلَمًا * كما رضيتُ عَتيقًا صاحبَ الغارِ

وقد رضيتُ أبا حفصٍ وشيعتَهُ * وما رضيتُ بقتل الشيخ فى الدارِ

كلُّ الصحابة عندى قُدوةٌ عَلَمٌ * فهل علىّ بهذا القول من عارِ

إن كنتَ تعلم أنّى لا أحبُّهمُ * إلا من اجلك فاعتقنى من النارِ

(١) كذا فى الأصول . (٢) طبق : قرن . أراد إذا مضى قرن ظهر قرن آخر .

Marfat.com

وقال آخر فأحسن :

حُبُّ النبيِّ رسول الله مُفترَضٌ * وحُبُّ أصحابه نورٌ ببرهانِ
من كان يعلم أن الله خالقه * لا يَرمِينَّ أبا بكرٍ ببهتانِ
ولا أبا حفصٍ الفاروقَ صاحبَه * ولا الخليفةَ عثمان بن عفانِ
أمّا عليٌّ فمشهورٌ فضائلُه * والبيت لا يَستوِى إلا بأركانِ

قال آبن العربي : أما الاستعارات في التشبيهات فمأذون فيها وإن آستغرقت الحد وتجاوزت المعتاد؛ فبذلك يضرب المَلَك الموكَّل بالرؤيا المثَلَ، وقد أنشد كعب بن زهير النبي صلى الله عليه وسلم :

بانت سعادُ فقلبي اليومَ متبُولُ * متيَّمٌ إثرَها لم يُفْدَ مكبُولُ
وما سُعادُ غداةَ البَيْن إذ رحَلوا * إلا أغنُّ غضيضُ الطَّرْفِ مكحولُ
تجلو عوارضَ ذِى ظَلْمٍ إذا آبتسمتْ * كأنّه مُنْهَلٌ بالرّاح معلولُ

فجاء في هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع، والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع ولا ينكر في تشبيهه ريقها بالراح . وأنشد أبو بكر رضي الله عنه (١) :

فَقَدْنا الوحىَ إذ ولّيتَ عنّا * وودَّعَنا من الله الكلامُ
سوى ما قد تركتَ لنا رهينًا * تَوارثُه القَراطيسُ الكرامُ
فقد أورثتنا ميراثَ صدقٍ * عليك به التحيّةُ والسلامُ

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمعه وأبو بكر ينشده ، فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا . قال أبو عمر : ولا ينكر الحسنَ من الشعر أحدٌ من أهل العلم ولا من أولى النُّهى، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر، أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحا، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله ؛ وروى أبو هريرة قال

(١) قال ذلك في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم .

Marfat.com

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول : " أصدق كلمة — أو أشعر كلمة — قالتها العرب قول لبيد : * أَلَا كُلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ * "

أخرجه مسلم وزاد " وكاد أمية بن أبى الصَّلْت أن يُسلِم " وروى عن ابن سيرين أنه أنشد شعرا فقال له بعض جلسائه : مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر . فقال : ويلك يالُكَع ! وهل الشعر إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا فى القوافى ، فحسنه حسن وقبيحه قبيح ! قال : وقد كانوا يتذاكرون الشعر . قال : وسمعت ابن عمر ينشد :

يُحِبُّ الخمرَ من مال النَّدامَى * ويَكرهُ أن يفارقَهُ الفَلُوسُ

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة العشرة ثم المشيخة السبعة شاعرا مجيدا مقدَّما فيه . وللزبير بن بكار القاضى فى أشعاره كتاب ، وكانت له زوجة حسنة تسمى عَثْمة فعتب عليها فى بعض الأمر فطلقها ، وله فيها أشعار كثيرة ؛ منها قوله :

تَغلغلَ حُبُّ عَثْمةَ فى فؤادى * فباديه مع الخافى يسيرُ
تَغلغلَ حيث لم يبلغ شَرابٌ * ولا حزنٌ ولم يبلغ سرورُ
أكاد إذا ذكرتُ العهدَ منها * أطير لو ان إنسانا يَطيرُ

وقال ابن شهاب : قلت له تقول الشعر فى نسكك وفضلك ! فقال : إن المصدور إذا نفث برأ .

الثانية — وأما الشعر المذموم الذى لا يحل سماعه وصاحبه ملوم، فهو المتكلم بالباطل حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة ، وأشحّهم على حاتم ، وأن يبهتوا البرىء ويفسقوا التقىّ ، وأن يفرطوا فى القول بما لم يفعله المرء ؛ رغبة فى تسلية النفس وتحسين القول ؛ كما روى عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فبِتْنَ بجانبَىَّ مُصَرَّعاتٍ (١) * وبِتُّ أَفُضُّ أغلاقَ الختامِ

---

(١) مصرعات : سكارى .

Marfat.com

فقال : قد وجب عليك الحد . فقال : يا أمير المؤمنين قد درأ الله عنى الحد بقوله : « وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » . وروى أن النعمان بن عدىّ بن نَضْلة كان عاملا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال :

مَنْ مُبْلِغُ الحسناءِ أنّ حليلَها * بمَيْسانَ يُسقَى فى زُجاجٍ وحَنْتَمِ
إذا شئتُ غنتنى دَهاقينُ قريةٍ * ورقّاصةٌ تَجْذُو(١) على كلّ مَنْسِمِ
فإن كنتَ نَدْمانِى فبالأكبرِ اسقِنِى * ولا تَسقِنِى بالأصغرِ المتثلِّمِ
لعلّ أميرَ المؤمنين يَسوءُه * تَنادُمُنا بالجَوْسَقِ(٢) المتهدِّمِ

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقُدوم عليه . وقال : إى والله إنى ليسوءنى ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئا مما قلت؛ وإنما كانت فضلة من القول، وقد قال الله تعالى : « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » فقال له عمر : أما عذرك فقد درأ عنك الحد ؛ ولكن لا تعمل لى عملا أبدا وقد قلتَ ما قلتَ . وذكر الزبير بن بكار قال : حدثنى مصعب بن عثمان أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة لم يكن له همٌّ إلا عمر بن أبى ربيعة والأحوص فكتب إلى عامله على المدينة : إنى قد عرفت عمر والأحوص بالشر والخبث فإذا أتاك كتابى هذا فاشدد عليهما واحملهما إلىّ . فلما أتاه الكتاب حملهما إليه ، فأقبل على عمر ؛ فقال : هيه !

فلم أرَ كالتَّجميرِ منظَرَ ناظرٍ * ولا كليالى الحج أَفْلَتْنَ ذا هوَى
وكم مالئٍ عينيه من شيءِ غيرِه * إذا راح نحو الجمرةِ البيضُ كالدُّمَى

أما والله لو اهتممت بحجك لم تنظر إلى شىء غيرك ؛ فإذا لم يفلت الناس منك فى هذه الأيام فمتى يفلتون! ثم أمر بنفيه . فقال : يا أمير المؤمنين! أو خير من ذلك؟ فقال : ما هو ؟ قال : أعاهد الله أنى لا أعود إلى مثل هذا الشعر، ولا أذكر النساء فى شعر أبدا ، وأجدّد توبة؛ فقال : أو تفعل؟ قال : نعم؛ فعاهد الله على توبته وخلاه؛ ثم دعا بالأحوص، فقال هيه!

الله بينى وبين قيِّمها * يفِرُّ منّى بها وأتَّبِعُ

---

(١) تجذو : تقوم على أطراف الأصابع . (٢) الجوسق : القصر ؛ فارسى معرب .

Marfat.com

بل الله بين قيمها و بينك! ثم أمر بنفيه؛ فكلمه فيه رجال من الأنصار فأبى، وقال : والله لا أردّه ما كان لى سلطان ، فإنه فاسق مجاهر . فهذا حكم الشعر المذموم وحكم صاحبه ، فلا يحل سماعه ولا إنشاده فى مسجد و فى غيره ، كمنثور الكلام القبيح ونحوه . وروى إسمعيل بن عَيَّاش عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حَسَنُ الشعر كحَسَن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام" رواه إسمعيل عن عبد الله الشامى وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره . وروى عبد الله آبن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام"

الثالثة — روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَأَنْ يمتلئَ جوفُ أحدكم قيحا حتى يَرِيَه خيرٌ من أن يمتلئَ شعرا" وفى الصحيح أيضا عن أبى سعيد الخدرى قال : بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عرض شاعر يُنشد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خذوا الشيطان — أو أمسكوا الشيطان — لَأَنْ يمتلئَ جوفُ رجلٍ قيحا خيرٌ له من أن يمتلئَ شعرا" قال علماؤنا : و إنما فعل النبى صلى الله عليه وسلم هذا مع هذا الشاعر لما علم من حاله ؛ فلعل هذا الشاعر كان ممن قد عرف من حاله أنه قد آتخذ الشعر طريقا للتكسب ، فيفرط فى المدح إذا أُعطى ، وفى الهجو والذم إذا مُنع ، فيؤذى الناس فى أموالهم وأعراضهم . ولا خلاف فى أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالشعر حرام . وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه ، ولا يحل الإصغاء إليه ؛ بل يجب الإنكار عليه ؛ فإن لم يمكن ذلك لمن خاف من لسانه قطعا تعين عليه أن يداريه بما آستطاع ، و يدافعه بما أمكن ، ولا يحل له أن يعطى شيئا آبتداء ، لأن ذلك عون على المعصية؛ فإن لم يجد من ذلك بدًّا أعطاه بنية وقاية العرض ؛ فما وَقَى به المرءُ عرضه كُتب له به صدقة . قوله : "لَأَنْ يمتلئَ جوفُ أحدكم قيحا حتى يَرِيَه" القيح المِدّة يخالطها دم . يقال منه : قاح الجُرح يَقِيح وتقيّح وقيّح . و "يَرِيه" قال الأصمعى : هو من الوَرْى على

Marfat.com

مثال الرمى وهو أن يَدْوَى جوفُه، يقال منه : رجل مَوْرِىّ مشدّد غير مهموز . وفى الصحاح : وَرَى القيحُ جوفَه يَرِيه وريًا إذا أكله . وأنشد اليزيدى :

* قالت له وَرْيًا إذا تَنحنحا *

وهذا الحديث أحسن ما قيل فى تأويله : إنه الذى قد غلب عليه الشعر، وآمتلأ صدره منه دون علم سواه ولا شىء من الذكر ممن يخوض به فى الباطل، ويسلك به مسالك لا تحمد له، كالمكثر من اللغط والهَذَر والغيبة وقبيح القول . ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنية، لحكم العادة الأدبية . وهذا المعنى هو الذى أشار إليه البخارى فى صحيحه لما بوب على هذا الحديث « باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر » . وقد قيل فى تأويله : إن المراد بذلك الشعر الذى هُجِىَ به النبىّ صلى الله عليه وسلم أو غيره . وهذا ليس بشىء؛ لأن القليل من هجو النبىّ صلى الله عليه وسلم وكثيره سواء فى أنه كفر ومذموم، وكذلك هجو غير النبىّ صلى الله عليه وسلم من المسلمين محرم قليله وكثيره، وحينئذ لا يكون لتخصيص الذم بالكثير معنى .

الرابعة — قال الشافعى : الشعر نوع من الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام، يعنى أن الشعر ليس يكره لذاته وإنما يكره لمضمّناته، وقد كان عند العرب عظيم الموقع . قال الأوّل منهم :

* وجُرح اللسانِ كجُرْح اليدِ *

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الشعر الذى يرد به حسان على المشركين : " إنه لأسرع فيهم من رَشْق النَّبْل " أخرجه مسلم . وروى الترمذى وصححه عن آبن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم دخل مكة فى عُمْرة القضاء وعبد الله بن رَوَاحة يمشى بين يديه ويقول :

خَلُّوا بنى الكفّار عن سبيله * اليومَ نَضربْكُمْ على تنزيله
ضربًا يزيلُ الهامَ عن مَقِيلِه * ويُذهِلُ الخليلَ عن خليله

فقال عمر : يابن رَوَاحة ! فى حرم الله وبين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خل عنه يا عمر فلهو أسرعُ فيهم من نَضح النَّبْل " .

Marfat.com

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ لم يختلف القراء في رفع « وَالشُّعَرَاءُ » فيما علمت . ويجوز النصب على إضمار فعل يفسره « يَتَّبِعُهُمْ » وبه قرأ عيسى ابن عمر؛ قال أبو عبيد : كان الغالب عليه حب النصب؛ قرأ «وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ» و«حَمَّالَةَ الْحَطَبِ » و « سُورَةً أَنْزَلْنَاهَا » . وقرأ نافع وشيبة والحسن والسلمي « يَتْبَعُهُمْ» مخففا. الباقون « يَتَّبِعُهُمْ » . وقال الضحاك : تهاجى رجلان أحدهما أنصاري والآخر مهاجري على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كل واحد غواة قومه وهم السفهاء فنزلت؛ وقاله ابن عباس . وعنه هم الرواة للشعر . وروى عنه علي بن أبي طلحة أنهم هم الكفار يتبعهم ضُلَّال الجن والإنس؛ وقد ذكرناه . وروى غُضَيْف (١) عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من أحدث هجاء في الإسلام فاقطعوا لسانه " وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما افتتح مكة رنّ (٢) إبليس رنة وجمع إليه ذريته؛ فقال ايئسوا أن تريدوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا؛ ولكن أفشوا فيهما — يعني مكة والمدينة — الشِّعرَ .

السادسة — قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ يقول: في كل لغو يخوضون، ولا يتبعون سَنَن الحق ؛ لأن من اتبع الحق وعلم أنه يكتب عليه ما يقوله تثبت ، ولم يكن هاهنا يذهب على وجهه لايبالي ما قال. نزلت في عبد الله ابن الزِّبَعْرَى ومُسافِع بن عبد مناف وأمية بن أبي الصلت . ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ يقول : أكثرهم يكذبون؛ أي يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه . وقيل : إنها نزلتْ في أبي عزة الجُمَحي حيث قال :

أَلَا أبلغا عنّي النبيَّ محمداً * بأنّكَ حقٌّ والمليكُ حميدُ
ولَكِنْ إذا ذُكِّرتُ بَدْرًا وأهلَهُ * تأوَّهَ منّي أعظمٌ وجلودُ

ثم استثنى شعر المؤمنين : حسان بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقهم من القول الحق؛ فقال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ في كلامهم ﴿ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ وإنما يكون الانتصار بالحق ،

(١) في نسخة : خصيف . (٢) رن : صاح صيحة حزينة .

Marfat.com

ومما حدّه الله عز وجل ، فإن تجاوز ذلك فقد آنتصر بالباطل . وقال أبو الحسن المبرّد : لما نزلت « وَالشُّعَرَاءُ » جاء حسان وكعب بن مالك وابن رَوَاحة يبكون إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقالوا : يا نبي الله ! أنزل الله تعالى هذه الآية، وهو تعالى يعلم أنا شعراء؟ فقال: "آقرءوا ما بعدها « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » — الآية — أنتم « وَٱنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا » أنتم " أي بالرد على المشركين . قال النبي صلى الله عليه وسلم : "آنتصروا ولا تقولوا إلا حقا ولا تذكروا الآباء والأمهات " فقال حسان لأبي سفيان :

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه * وعندَ الله في ذاك الجزاءُ
وإنّ أبي ووالدتي وعِرْضي * لعِرض محمد منكم وِقاءُ
أتشتمه ولستَ له بكفءٍ * فشرّكما لخيركما الفداءُ
لساني صارمٌ لا عيبَ فيه * وبحرى لا تُكدّره الدِّلاءُ

وقال كعب يا رسول الله! إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه والذى نفسي بيده لكأن ماترمونهم به نضح النبل" . وقال كعب :

جاءت سَخِينَةُ(١) كي تُغالبَ ربَّها * ولَيُغْلَبَنّ مُغالِبُ الغَلَّابِ

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا" . وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى : « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » منسوخ بقوله : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » . قال المهدوى : وفي الصحيح عن آبن عباس أنه آستثناء . ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ في هذا تهديد لمن آنتصر بظلم [أي](٢) سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدى الله عز وجل ؛ فالظالم ينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر النصرة . وقرأ آبن عباس « أَيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُونَ » بالفاء والتاء ومعناهما واحد . الثعلبي : ومعنى « أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » أي مصير يصيرون وأي مرجع يرجعون ؛ لأن مصيرهم إلى

(١) السخينة : طعام حار يتخذ من دقيق وسمن — وقيل من دقيق وتمر — أغلظ من الحساء وأرق من العصيدة ، وكانت قريش تكثر من أكلها فعيرت بها حتى سموا سخينة .   (٢) زيادة يقتضيها السياق .

Marfat.com

النار، وهو أقبح مصير، ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع . والفرق بين المنقلب والمرجع أن المنقلب الانتقال إلى ضدّ ما هو فيه، والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها فصار كل مرجع منقلبا، وليس كل منقلب مرجعا؛ والله أعلم؛ ذكره الماوردي . و« أيّ » منصوب بـ « يَنقَلِبُونَ » وهو بمعنى المصدر، ولا يجوز أن يكون منصوبا بـ « سَيَعْلَمُ » لأن أيا وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها فيما ذكر النحويون؛ قال النحاس: وحقيقة القول في ذلك أن الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر فلو عمل فيه ما قبله لدخل بعض المعاني في بعض .

سورة النمل

مكية كلها في قول الجميع، وهي ثلاث وتسعون آية . وقيل : أربع وتسعون آية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ مضى الكلام في الحروف المقطعة في « البقرة » وغيرها . و « تِلْكَ » بمعنى هذه ؛ أي هذه السورة آيات القرآن وآيات كتاب مبين . وذكر القرآن بلفظ المعرفة، وقال : « وَكِتَابٍ مُبِينٍ » بلفظ النكرة وهما في معنى المعرفة؛ كما تقول : فلان رجل عاقل وفلان الرجل العاقل . والكتاب هو القرآن ، فجمع له بين الصفتين : بأنه قرآن وأنه كتاب ؛ لأنه ما يظهر بالكتابة ، ويظهر بالقراءة . وقد مضى

Marfat.com

آشتقاقهما فى « البقــرة » . وقال فى سورة الحجــر : « الرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ » فأخرج الكتاب بلفظ المعرفة والقرآن بلفظ النكرة ؛ وذلك لأن القرآن والكتاب آسمان يصلح لكل واحد منهما أن يجعل معرفة، وأن يجعل صفة . ووصفه بالمبين لأنه بين فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه ووعده ووعيده؛ وقد تقدّم .

قوله تعــالى : ﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ « هُــدًى » فى موضع نصب على الحال من الكتاب؛ أى تلك آيات الكتاب هادية ومبشرة . ويجوز فيه الرفع على الابتداء ؛ أى هو هــدى . وإن شئت على حذف حرف الصفة ؛ أى فيــه هدى . ويجــوز أن يكون الخبر « لِلْمُؤْمِنِينَ » ثم وصفهم فقــال : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ وقد مضى فى أوّل « البقرة » بيان هذا .

قوله تعــالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى لا يصدّقون بالبعث . ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قيــل : أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة . وقيل : زينــا لهم أعمالهم الحسنة فلم يعملوها . وقال الزجاج : جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ماهم فيه . ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى يترددون فى أعمالهم الخبيثة ، وفى ضلالتهم . عن ابن عباس . أبو العالية : يتمــادون . قتادة : يلعبون . الحسن : يتحيرون؛ قال الراجز :

ومَهْمَهٍ أطــرافُه فى مَهْمَهِ * أَعْمَى الهُدَى بالحائرين العُمَّهِ (١)

قوله تعــالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُــوءُ الْعَذَابِ ﴾ وهو جهنم ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ . « فِي الْآخِرَةِ » تبيين وليس بمتعلق بالأخسرين فإن من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم فهم أخسر كل خاسر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ ﴾ أى يلقى عليك فتلقاه وتعلمه وتأخذه . ﴿ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ « لَدُنْ » بمعنى عنــد إلا أنها مبنية غير معربة ؛ لأنها لا تتمكن ، وفيهــا لغات ذكرت فى « الكهف » (٢) . وهــذه الآية بساط وتمهيد لمــا يريد أن يسوق من الأقاصيص، وما فى ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه .

---

(١) البيت لرؤبة، ويروى : بالجاهلين العمه .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٥٢ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ ﴾ « إذ » منصوب بمضمر وهو آذكر ؛ كأنه قال على أثر قوله « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » : خذ يا محمد من آثار حكمته وعلمه قصة موسى إذ قال لأهله . ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ أى أبصرتها من بعد . قال الحرث بن حلزة :

آنستْ نَبْأَةً[(1)] وأفزعها القنّـ ـاصُ عصرًا وقد دنا الإمساءُ

﴿ سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائى « بِشِهَابٍ قَبَسٍ » بتنوين «شهاب» . والباقون بغير تنوين على الإضافة ؛ أى بشعلة نار ؛ وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وزعم الفراء فى ترك التنوين أنه بمنزلة قولهم : ولدار الآخرة ، ومسجد الجامع ، وصلاة الأولى ؛ يضاف الشيء إلى نفسه إذا آختلفت أسماؤه . قال النحاس : إضافة الشيء إلى نفسه محال عند البصريين ، لأن معنى الإضافة فى اللغة ضم شيء إلى شيء

(١) آنست : أحست . والنبأة : الصوت الخفى .

Marfat.com

فمحال أن يضم الشيء إلى نفسه، وإنما يضاف الشيء إلى الشيء ليتبين به معنى الملك أو النوع، فمحال أن يتبين أنه مالك نفسه أو من نوعها . و « بِشِهَابٍ قَبَسٍ » إضافة النوع والجنس، كما تقول: هذا ثوبُ خزٍّ، وخاتمُ حديدٍ وشبهه . والشهاب كل ذي نُور؛ نحو الكوكب والعود الموقد . والقبس آسم لما يقتبس من جمر وما أشبهه؛ فالمعنى بشهاب من قبس . يقال : أقبست قبسا؛ والآسم قبس . كما تقول: قبضت قبضا . والآسم القبض . ومن قرأ « بِشِهَابٍ قَبَسٍ » جعله بدلا منه . المهدوى : أو صفة له؛ لأن القبس يجوز أن يكون آسما غير صفة . ويجوز أن يكون صفة؛ فأما كونه غير صفة فلأنهم قالوا قبسته أقبسه قبسا والقبس المقبوس . وإذا كان صفة فالأحسن أن يكون نعتا . والإضافة فيه إذا كان غير صفة أحسن . وهي إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة وشبهه . ولو قرئ بنصب قبس على البيان أو الحال كان أحسن . ويجوز في غير القرآن بشهاب قبسًا على أنه مصدر أو بيان أو حال . « لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » أصل الطاء تاء فأبدل منها هنا طاء؛ لأن الطاء مطبقة والصاد مطبقة فكان الجمع بينهما حسنا؛ ومعناه يستدفئون من البرد . يقال : آصطلى يصطلى إذا آستدفأ . قال الشاعر :

النـارُ فاكهةُ الشـتاءِ فمن يُرِدْ * أكلَ الفـواكهِ شاتيًا فليصطلِ

الزّجاج : كل أبيض ذى نُور فهو شهاب . أبو عبيدة : الشهاب النار . قال أبو النّجم :

كأنمـا كان شهاباً واقدَا * أضاء ضوءاً ثم صار خامدَا

أحمد بن يحيى : أصل الشهاب عود فى أحد طرفيه جمرة والآخر لا نار فيـه؛ وقول النحاس فيه حسن : والشهاب الشعاع المضيء ومنه الكوكب الذى يمد ضوءه فى السماء . وقال الشاعر :

فى كفّـه صَعْدَةٌ (١) مثقّفـةٌ * فيها سِنانٌ كشُعلةِ القَبَسِ

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّـا جَاءَهَا ﴾ أى فلمـا جاء موسى الذى ظن أنه نار وهى نور؛ قاله وهب بن منبـه . فلمـا رأى موسى النـار وقف قريبا منهـا، فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها العُلّيق، لا تزداد النار إلا عظما وتضرّما، ولا تزداد الشجرة

(١) الصعدة : القناة التى تنبت مستقيمة .

Marfat.com

إلا خضرة وحسنا ؛ فعجب منها وأهوى إليها بضغث فى يده ليقتبس منها ؛ فمالت إليه ؛ نخافها فتأخر عنها ؛ ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها إلى أن وضح أمرها على أنها مأمورة لا يدرى من أمرها، إلى أن « نُودِىَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا » . وقد مضى هذا المعنى فى « طه » . ﴿ نُودِىَ ﴾ أى ناداه الله ؛ كما قال : « وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ » . ﴿ أَنْ بُورِكَ ﴾ قال الزجاج : « أَنْ » فى موضع نصب ؛ أى بأنه . قال : ويجوز أن تكون فى موضع رفع جعلها آسم ما لم يسم فاعله . وحكى أبو حاتم أن فى قراءة أُبىّ وآبن عباس ومجاهد « أن بوركت النار ومن حولها » . قال النحاس: ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح، ولو صح لكان على التفسير ، فتكون البركة راجعة إلى النار ومن حولها الملائكة وموسى . وحكى الكسائى عن العرب : باركك الله، وبارك فيك . الثعلبى : العرب تقول باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، أربع لغات . قال الشاعر :

فبوركتَ مولودًا وبوركتَ ناشئًا * وبوركتَ عند الشَّيبِ إذ أنتَ أشيبُ

الطبرىّ : قال « بُورِكَ مَنْ فِى النَّارِ » ولم يقل بورك [فى من فى](١) النار على لغة من يقول باركك الله . ويقال باركه الله، وبارك له، وبارك عليه، وبارك فيه بمعنًى ؛ أى بورك على من فى النار وهو موسى، أو على من فى قرب النار؛ لا أنه كان فى وسطها . وقال السدى : كان فى النار ملائكة فالتبريك عائد إلى موسى والملائكة؛ أى بورك فيك ياموسى وفى الملائكة الذين هم حولها . وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له ، كما حيا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه؛ قال: « رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » . وقول ثالث قاله آبن عباس والحسن وسعيد بن جبير : قُدِّسَ مَن فى النار وهو الله سبحانه وتعالى، عنى به نفسه تقدس وتعالى . قال آبن عباس ومحمد بن كعب : النار نور الله عز وجل ؛ نادى الله موسى وهو فى النور؛ وتأويل هذا أن موسى عليه السلام رأى نورا عظيما فظنه نارا ؛ وهذا لأن الله تعالى ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار لا أنه يتحيز فى جهة « وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَٰهٌ »

(١) الزيادة من تفسير الطبرى .

Marfat.com

لا أنه يتحيز فيهما، ولكن يظهر فى كل فعل فيعلَم به وجود الفاعل. وقيل على هذا: أى بورك من فى النار سلطانه وقدرته. وقيل: أى بورك ما فى النار من أمر الله تعالى الذى جعله علامة.

قلت: ومما يدل على صحة قول ٱبن عباس ما خرجه مسلم فى صحيحه، وٱبن ماجه فى سننه واللفظ له عن أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القِسط ويرفعه حجابه النور لو كشفها[(1)] لأحرقت سُبُحات وجهه كل شىء أدركه بصره" ثم قرأ أبو عبيدة "أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ" أخرجه البيهقى أيضا. ولفظ مسلم عن أبى موسى قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات؛ فقال: "إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يُرفَع إليه عمَلُ الليل قبل عمل النهار وعمَلُ النهار قبل عمل الليل حجابه النور — وفى رواية أبى بكر النار — لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما ٱنتهى إليه بصرُه من خلقه" قال أبو عبيد: يقال السُّبُحات إنها جلال وجهه، ومنها قيل: سبحان الله إنما هو تعظيم له وتنزيه. وقوله: "لو كشفها" يعنى لو رفع الحجاب عن أعينهم ولم يثبِّتهم لرؤيته لاحترقوا وما ٱستطاعوا لها. قال ٱبن جُريج: النار حجاب من الحجب وهى سبعة حجب؛ حجاب العزّة، وحجاب الملك، وحجاب السلطان، وحجاب النار، وحجاب النّور، وحجاب الغمام، وحجاب الماء. وبالحقيقة فالمخلوق المحجوب والله لا يحجبه شىء؛ فكانت النار نورا وإنما ذكره بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه نارا، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر. وقال سعيد بن جبير: كانت النار بعينها فأسمعه تعالى كلامه من ناحيتها، وأظهر له ربوبيته من جهتها. وهو كما روى أنه مكتوب فى التوراة: «جاء الله من سيناء وأشرف من ساعير وٱستعلى من جبال فاران». فمجيئه من سيناء بعثه موسى منها، وإشرافه من ساعير بعثه المسيح منها، وٱستعلاؤه من فاران بعثه محمدا صلى الله عليه وسلم، وفاران مكة. وسيأتى فى «القصص» بإسماعه سبحانه كلامه من الشجرة زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

---

(1) لعل تأنيث الضمير بتأويل النور بالأنوار. (هامش ٱبن ماجه).

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تنزيها وتقديسا لله رب العالمين . وقد تقدم في غير موضع ، والمعنى : أي ويقول من حولها «وَسُبْحان اللهِ» لخذف . وقيل : إن موسى عليه السلام قاله حين فرغ من سماع النداء ؛ آستعانة بالله تعالى وتنزيها له ؛ قاله السدى . وقيل : هو من قول الله تعالى . ومعناه : وبورك فيمن سبح الله تعالى رب العالمين ؛ حكاه آبن شجرة .

قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الهاء عماد وليست بكناية في قول الكوفيين . والصحيح أنها كناية عن الأمر والشأن . «أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ» الغالب الذي ليس كمثله شيء «الْحَكِيمُ» في أمره وفعله . وقيل : قال موسى يا رب من الذي نادى ؟ فقال له : «إِنَّهُ» أي إني أنا المنادى لك «أَنَا اللهُ» .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ قال وهب بن منبه : ظن موسى أن الله أمره أن يرفضها فرفضها . وقيل : إنما قال له ذلك ليعلم موسى أن المكلِّم له هو الله ، وأن موسى رسوله ؛ وكل نبيّ لا بدّ له من آية في نفسه يعلم بها نبوّته . وفي الآية حذف : أي وألق عصاك فألقاها من يده فصارت حية تهتز كأنها جانّ ، وهي الحية الخفيفة الصغيرة الجسم . وقال الكلبي : لا صغيرة ولا كبيرة . وقيل : إنها قلبت له أوّلا حية صغيرة فلما أنس منها قلبت حية كبيرة . وقيل : آنقلبت مرة حية صغيرة ، ومرة حية تسعى وهي الأنثى ، ومرة ثعبانا وهو الذكر الكبير من الحيات . وقيل : المعنى آنقلبت ثعبانا تهتز كأنها جانّ لها عظم الثعبان وخفة الجانّ وآهتزازه وهي حية تسعى . وجمع الجانّ جِنّان ؛ ومنه الحديث "نهى عن قتل الجنّان التي في البيوت" . ﴿ وَلَّى مُدْبِراً ﴾ خائفا على عادة البشر ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي لم يرجع ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : لم يلتفت . ﴿ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ ﴾ أي من الحية وضررها . ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وتم الكلام ثم آستثنى آستثناء منقطعا فقال : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ . وقيل : إنه آستثناء من محذوف ؛ والمعنى : إني لا يخاف لديّ المرسلون وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ ﴾ فإنه لا يخاف ؛ قاله الفراء .

Marfat.com

قال النحاس : ٱستثناء من محذوف محال ؛ لأنه ٱستثناء من شيء لم يذكر ولو جاز هذا لجاز إنى لأضرب القوم إلا زيدا بمعنى إنى لا أضرب القوم و إنما أضرب غيرهم إلا زيدا ؛ وهذا ضدّ البيان ، والمجيء بما لا يعرف معناه . وزعم الفرّاء أيضا : أن بعض النحويين يجعل إلا بمعنى الواو أي ولا من ظلم ؛ قال :

وكلُّ أخٍ مفـارقُه أخوهُ * لَعَمْرُ أبيكَ إلا الفَرْقَدانِ

قال النحاس : وكون « إلّا » بمعنى الواو لا وجه له وَلا يجـوز فى شيء من الكلام ، ومعنى « إلّا » خلاف الواو ؛ لأنك إذا قلت : جاءنى إخوتك إلا زيدا أخرجتَ زيدا ممـا دخل فيـه الإخوة فلا نسـبة بينهما ولا تقارب . وفى الآية قول آخر : وهو أن يكون الاستثناء متصلا؛ والمعنى إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التى لا يسلم منها أحد، سوى ما روى عن يحيى بن زكريا عليه السلام ، وما ذكره الله تعالى فى نبينا عليه السلام فى قوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » ذكره المهـدوى وٱختاره النحاس ؛ قال : علم الله من عصى منهم [يُسِرّ الخيفة](١) فٱستثناه فقال : « إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ » فإنه يخاف و إن كنت قد غفرت له . الضحاك : يعنى آدم وداود عليهما السلام . الزمخشرى : كالذى فرط من آدم و يونس وداود وسليمان و إخوة يوسف، ومن موسى عليه السلام بوكزه القبطى . فإن قال قائل : فما معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة ؟ قيل له : هذه سبيل العلماء بالله عز وجل أن يكونوا خائفين من معاصيهم وجلين ، وهم أيضـا لا يأمنون أن يكون قـد بقى من أشراط التوبة شيء لم يأتوا به ، فهـم يخافون من المطالبة به . وقال الحسن وٱبن جريج : قال الله لموسى إنى أخفتك لقتلك النفس . قال الحسن : وكانت الأنبيـاء تذنب فتعاقَب . قال الثعلبي والقشيرى والماوردى وغيرهم : فالاستثناء على هذا صحيح؛ أى إلا من ظلم نفسه من النبيين والمرسلين فيما فعل من صغيرة قبل النبوة. وكان موسى خاف من قتل القبطى وتاب منه . وقد قيل : إنهم بعد النبوة معصومون من الصغائر والكبائر . وقد مضى هذا فى « البقرة »(٢) .

(١) الزيادة من «إعراب القرآن» للنحاس . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية وثالثة .

Marfat.com

قلت : والأول أصح لتنصلهم من ذلك فى القيامة كما فى حديث الشفاعة، وإذا أحدث المقرَّب حدثا فهو وإن غفر له ذلك الحدث فأثر ذلك الحدث باق ، وما دام الأثر والتهمة قائمة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة، والمتهم عند السلطان يجد للتهمة حزازة تؤديه إلى أن يكدّر عليه صفاء الثقة . وموسى عليه السلام قد كان منه الحدث فى ذلك الفرعونى ، ثم آستغفر وأقر بالظلم على نفسه ، ثم غفر له ، ثم قال بعد المغفرة « رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ » ثم آبتلى من الغد بالفرعونى الآخر وأراد أن يبطش به ، فصار حدثا آخر بهذه الإرادة . وإنما آبتلى من الغد لقوله : « فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ » وتلك كلمة آقتدار من قوله لن أفعل، فعوقب بالإرادة حين أراد أن يبطش ولم يفعل، فسلط عليه الإسرائيلى حتى أفشى سره؛ لأن الإسرائيلى لما رآه تشمر للبطش ظن أنه يريده، فأفشى عليه ف « قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ » فهرب الفرعونى وأخبر فرعون بما أفشى الإسرائيلى على موسى ، وكان القتيل بالأمس مكتوما أمره ، لا يدرى من قتله ؛ فلما علم فرعون بذلك ، وجه فى طلب موسى ليقتله ، وآشتد الطلب وأخذوا مجامع الطرق ؛ جاء رجل يسعى ف « قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ » الآية . فخرج كما أخبر الله . فخوف موسى إنما كان من أجل هذا الحدث ؛ فهو وإن قربه ربه وأكرمه وآصطفاه بالكلام فالتهمة الباقية ولّت به ولم يعقب .

قوله تعالى : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ تقدم فى « طه »[1] القول فيه . ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ قال النحاس أحسن ما قيل فيه أن المعنى : هذه الآية داخلة فى تسع آيات . المهدوى : المعنى « أَلْقِ عَصَاكَ » « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » فهما آيتان من تسع آيات . وقال القشيرى معناه : كما تقول خرجت فى عشرة نفر وأنت أحدهم . أى خرجت عاشر عشرة . ف « فى » بمعنى « من » لقربها منها كما تقول خذ لى عشرا من الإبل فيها فحلان أى منها . وقال الأصمعى فى قول آمرئ القيس :

وهل يَنْعَمَنْ[2] من كان آخرُ عهده * ثلاثين شهرًا فى ثلاثة أحوالِ

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) وفى رواية : «وهل يعمن» .

Marfat.com

فى بمعنى من . وقيل : فى بمعنى مع ؛ فالآيات عشرة منها اليد ، والتسع : الفلق والعصا والجراد والقمّل والطوفان والدم والضفادع والسنين والطّمس (١) . وقد تقدّم بيان جميعه . ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ قال الفراء : فى الكلام إضمار لدلالة الكلام عليه ، أى إنك مبعوث أو مرسل الى فرعون وقومه . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أى خارجين عن طاعة الله ؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أى واضحة بينة . قال الأخفش : ويجوز مَبْصَرة وهو مصدر كما يقال الولد مَجْبَنة . ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ جروا على عادتهم فى التكذيب فلهذا قال : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ أى تيقنوا أنها من عند الله وأنها ليست سحرا ، ولكنهم كفروا بها وتكبروا أن يؤمنوا بموسى . وهذا يدل على أنهم كانوا معاندين . و «ظُلْمًا» و «عُلُوًّا» منصوبان على نعت مصدر محذوف ، أى وجحدوا بها جحودا ظلما وعلوا . والباء زائدة أى وجحدوها ؛ قاله أبو عبيدة . ﴿ فَانْظُرْ ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى آخر أمر الكافرين الطاغين ، انظر ذلك بعين قلبك وتدبر فيه . الخطاب له والمراد غيره .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُودَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ أى فهما ؛ قاله قتادة . وقيل : علما بالدين والحكم وغيرهما كما قال : « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ » . وقيل : صنعة الكيمياء . وهو شاذ . وإنما الذى آتاهما الله النبوّة والخلافة فى الأرض والزبور . « وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ

(١) الطمس : طمس الشىء إذهابه عن صورته . وقد صير الله أموالهم ودراهمهم حجارة . راجع جـ ٨ ص ٣٧٤ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

الذى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ » وفى الآية دليل على شرف العلم و إنافة محله وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم وأجزل القسم، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباد الله المؤمنين ، « يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » ، وقد تقدم هذا فى غير موضع .

قوله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

قال الكلبى : كان لداود صلى الله عليه وسلم تسعة عشر ولدا فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه، ولو كان وراثة مال لكان جميع أولاده فيه سواء؛ وقاله ابن العربى؛ قال: فلو كانت وراثة مال لانقسمت على العدد؛ فخص الله سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبوة، وزاده من فضله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده . قال ابن عطية : داود من بنى إسرائيل وكان ملكا وورث سليمان ملكه ومنزلته من النبوة، بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمى ميراثا تجوزا؛ وهذا نحو قوله : "العلماء ورثة الأنبياء" ويحتمل قوله عليه السلام : "إنا معشر الأنبياء لانورث" أن يريد أن ذلك من فعل الأنبياء وسيرتهم، وإن كان فيهم من ورث ماله كزكرياء على أشهر الأقوال فيه؛ وهذا كما تقول: إنا معشر المسلمين إنما شغلتنا العبادة، والمراد أن ذلك فعل الأكثر . ومنه ما حكى سيبويه : إنا معشر العرب أقرى الناس للضيف .

قلت : قد تقدم هذا المعنى فى « مريم »(١) وأن الصحيح القول الأول لقوله عليه السلام: "إنا معشر الأنبياء لانورث" فهو عام ولا يخرج منه شيء إلا بدليل. قال مقاتل: كان سليمان أعظم ملكا من داود وأقضى منه ، وكان داود أشد تعبدا من سليمان . قال غيره : ولم يبلغ أحد من الأنبياء مابلغ ملكه؛ فإن الله سبحانه وتعالى سخر له الإنس والجن والطير والوحش، وآتاه ما لم يؤت أحدا من العالمين، وورث أباه فى الملك والنبوة، وقام بعده بشريعته، وكل نبى جاء بعد موسى ممن بعث أو لم يبعث فإنما كان بشريعة موسى، إلى أن بعث المسيح عليه السلام فنسخها . و بينه و بين الهجرة نحو من ألف وثمانمائة سنة . واليهود تقول ألف

(١) راجع جـ ١١ ص ٨١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

وثلاثمائة وآثنتان وستون سنة . وقيل : إن بين موته و بين مولد النبى صلى الله عليه وسلم نحوا من ألف وسبعمائة، واليهود تنقص منها ثلثمائة سنة، وعاش نيفا وخمسين سنة .

قوله تعالى : « وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ » أى قال سليمان لبنى إسرائيل على جهة الشكر لنعم الله « عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ » أى تفضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة فى الأرض فى أن فهمنا من أصوات الطير المعانى التى فى نفوسها . قال مقـاتل فى الآية : كان سليمان جالسا ذات يوم إذ مر به طائر يطوف ، فقال لجلسائه : أتدرون ما يقول هذا الطائر ؟ إنها قالت لى : السلام عليك أيها الملك المسلَّط والنبى لبنى إسرائيـل ! أعطاك الله الكرامة ، وأظهرك على عدوّك ، إنى منطلق إلى أفراخى ثم أمرّ بك الثـانية ؛ وإنه سيرجع إلينا الثانية ثم رجع؛ فقال إنه يقول : السلام عليك أيها الملك المسلَّط، إن شئت أن تأذن لى كيما أكتسب على أفراخى حتى يشبوا ثم آتيك فافعل بى ما شئت . فأخبرهم سليمان بمـا قال؛ وأذن له فانطلق . وقال فَرْقَد السَّبَخىّ : مرّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرّك رأسه و يميـل ذنبـه، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا البلبل ؟ قالوا لا يا نبى الله . قال إنه يقول : أكلتُ نصف ثمرة فعلى الدنيا العفَاء . ومر بهدهد فوق شجرة وقد نصب له صبىّ فخا فقال له سليمان : آحذر ياهدهد ! فقال : يا نبى الله ! هـذا صبى لا عقل له فأنا أسخر به . ثم رجع سليمان فوجده قد وقع فى حِبالة الصبىّ وهو فى يده، فقال : هدهد ما هذا ؟ قال : ما رأيتها حتى وقعت فيها يا نبى الله . قال: ويحك ! فأنت ترى المـاء تحت الأرض أما ترى الفخ ! قال : يا نبى الله إذا نزل القضـاء عمىَ البصر . وقال كعب . صـاح وَرَشان عنـد سليمان ابن داود، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا . قال إنه يقول: لِدُوا للموت وآبنوا للخراب . وصاحت فاختة، فقال : أتدرون ما تقول؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : ليت هذا الخلق لم يُخلَقوا وليتهم إذ خُلقوا علموا لمـاذا خُلقوا . وصاح عنده طاوس، فقال : أتدرون مايقول؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : كما تدين تدان . وصاح عنده هدهد، فقال: أتدرون مايقول؟ قالوا لا . قال فإنه يقول : من لا يَرحم لا يُرحم . وصاح صُرَد عنده، فقال: أتدرون مايقول؟

Marfat.com

قالوا: لا . قال إنه يقول : استغفروا الله يا مذنبين؛ فمن ثمّ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله . وقيل : إن الصُّرَد هو الذى دل آدم على مكان البيت. وهو أوّل من صام؛ ولذلك يقال للصُّرَد الصوّام؛ روى عن أبي هريرة. وصاحت عنده طِيطَوى فقال : أتدرون ماتقول؟ قالوا: لا . قال إنها تقول : كل حى ميت وكل جديد بال . وصاحت خُطّافة عنده ، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : قدّموا خيرا تجدوه ؛ فمن ثمّ نهى رسول الله صلى الله عليــه وسلم عن قتلها . وقيل : إن آدم خرج من الجنــة فاشتكى إلى الله الوحشة ، فآنسه الله تعــالى بالخُطّاف وألزمها البيوت، فهى لا تفارق بنى آدم أنسًا لهم . قال : ومعها أربع آيات من كتاب الله عز وجل : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَــهُ » إلى آخرها وتمدّ صوتها بقوله « الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . وهدرت حمامة عند سليمان فقال : أتدرون ما تقول؟ قالوا : لا . قال إنهـا تقول : سبحان ربى الأعلى عدد ما فى سمواته وأرضه . وصاح قُمْرى عند سليمان، فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال إنه يقول : سبحان ربى العظيم المهيمن. وقال كعب : وحدثهم سليمان ، فقال الغراب يقول : اللهم ٱلعن العَشّار ؛ والحِدَأة تقول : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » . والقطاة تقول : من سكت سلِم . والببغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه . والضفدع يقول : سبحان ربى القدّوس . والبازى يقول: سبحان ربى و بحمده . والسَّرطان يقول : سبحان المذكور بكل لسان فى كل مكان .

وقال مكحول : صاح دُرّاج عند سليمان ، فقال : أتدرون مايقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » . وقال الحسن قال النبي صلى الله عليــه وسلم : " الديك إذا صاح قال اذكروا الله يا غافلين " . وقال الحسن بن على بن أبى طالب قال النبى صلى الله عليه وسلم : " النّسر إذا صاح قال يابن آدم عِش ماشئت فآخرك الموت وإذا صاح العُقاب قال فى البعد من الناس الراحة وإذا صاح القُنْبر قال إلهى العن مبغضى آل محمد وإذا صاح الخطّاف قرأ « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » إلى آخرها فيقول « وَلَا الضَّالِّينَ » ويمد بها صوته كما يمد القارئ " . قال قتادة والشّعبى : إنمـا هذا الأمر فى الطير خاصة، لقوله : « عُلِّمْنَا

Marfat.com

منطِقَ الطَّيْرِ» والنملة طائر إذ قد يوجد له أجنحة . قال الشعبي : وكذلك كانت هـذه النملة ذات جناحين . وقالت فرقة : بل كان في جميع الحيوان، وإنمـا ذكر الطير لأنه كان جندا من جند سليمان يحتاجه في التظليل عن الشمس وفي البعث في الأمور فخص بالذكر لكثرة مداخلته ؛ ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير متردد ترداد أمر الطير . وقال أبو جعفر النحاس : والمنطق قـد يقع لمـا يفهم بغـير كلام، والله جل وعز أعلم بمـا أراد . قال ابن العربي : من قال إنه لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان عظيم ، وقد آتفق الناس على أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم ويخلق له فيه القول من النبات، فكان كل نبت يقول له : أنا شجر كذا ؛ أنفع من كذا وأضر من كذا؛ فمـا ظنك بالحيوان .

قوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُـودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

فيـــه مسئلتـــان :

الأولى ــ قوله تعـالى : « وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ » « حُشِر » جُمِـع والحشر الجمع ومنه قوله عز وجل : « وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا » واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السـلام ؛ فيقال : كان معسكره مائة فرسخ في مائة : خمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش . وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سَرِيّة . آبن عطية : وآختلف في معسكره ومقدار جنده آختلافا شديدا غير أن الصحيح أن ملكه كان عظيما ملأ الأرض، وآنقادت له المعمورة كلها . ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ معناه يُرَدّ أولهم إلى آخرهم ويُكفّون . قال قتادة : كان لكل صنف وَزَعة في رتبتهم ومواضعهم من الكرسيّ ومن الأرض إذا مشوا فيها . يقال : وزعتـه أوزعه وَزْعا أي كففته . والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم . روى محمد بن إسحق عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لمـا وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي طوى ــ تعني

Marfat.com

يوم الفتح — قال أبو قحافة وقد كُفَّ بصرُه يومئذ لابنتـه : اظهرى بى على أبى قُبَيْس . قالت : فأشرفت به عليه فقال : ماترين؟ قالت : أرى سوادا مجتمعا . قال تلك الخيل . قالت وأرى رجلا من السـواد مقبلا ومدبرا . قال : ذلك الوازع يمنعها أن تنتشر . وذكر تمـام الخبر . ومن هذا قوله عليه السلام : " ما رؤى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة وما ذاك إلا لمـا رأى من تنزُّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر" قيل : وما رأى يا رسول الله ؟ قال : " أما أنه رأى جبريل يزع الملائكة" خرّجه الموطأ . ومن هذا المعنى قول النابغة :

على حينَ عاتبتُ المَشيبَ على الصِّبَا * وقلتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيبُ وازِعُ

آخـــر :

ولـمـا تَلاقَينا جَرَتْ من جُفوننـا * دمـوعٌ وَزَعْنا غَرْبَهـا بالأصابـع

آخـــر :

ولا يَزَعُ النفسَ اللَّجوجَ عن الهوى * من النـاس إلا وافرُ العقـل كامله

وقيل : هو من التوزيع بمعنى التفـريق . والقوم أوزاع أى طوائف . وفى القصـة : إن الشياطين نسجت له بساطا فرسخا فى فرسخ ذهبا فى إبريسم، وكان يوضع له كرسيّ من ذهب وحوله ثلاثة آلاف كرسى من ذهب وفضـة فيقعد الأنبياء على كراسى الذهب، والعلماء على كراسى الفضة .

الثانيـــة — فى الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وَزَعة يكفّون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض؛ إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم . وقال ابن عون : سمعت الحسن يقول وهو فى مجلس قضائه لمـا رأى ما يصنع الناس قال: والله ما يُصلح هؤلاء الناسَ إلا وَزَعةٌ . وقال الحسن أيضا : لا بدّ للناس من وازع؛ أى من سلطان يكفهم. وذكر ابن القاسم قال حدّثنا مالك أن عثمان بن عفان كان يقول : ما يَزَعُ الإمام أكثر مما يَزَعُ القرآن ؛ أى من الناس . قال ابن القاسم : قلت لمـالك ما يزع؟ قال: يكف . قال القاضى أبو بكر ابن العربى : وقد جهل قوم المراد بهذا الكلام، فظنوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع

Marfat.com

الناس أكثر ممـا تردعهم حدود القرآن وهذا جهـل بالله وحكمته . قال : فإن الله ما وضع الحدود إلا مصلحة عامة كافة قائمة لقوام الخلق، لا زيادة عليها، ولا نقصان معها، ولا يصلح سواها، ولكن الظلمة خاسوا بهـا، وقصروا عنها، وأتوا ما أتوا بغير نية، ولم يقصدوا وجه الله فى القضاء بها، فلم يرتدع الخلق بها، ولو حكموا بالعدل ، وأخلصوا النيـة، لاستقامت الأمور، وصلح الجمهور .

قوله تعـالى : حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

فيـه ست مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْـلِ ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أنه واد بأرض الشام . وقال كعب : هو بالطائف . ﴿ قَالَتْ نَمْـلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا النَّمْلُ ﴾ قال الشعبى : كان للنملة جناحان فصارت من الطير، فلذلك علم منطقها ولولا ذلك لمـا علمه . وقد مضى هذا ويأتى . وقرأ سليمان التيمى بمكة «نَمُلَةٌ» و «النَّمُلُ» بفتح النون وضم الميم . وعنه أيضا ضمهما جميعا . وسميت النملة نملة لتنملها وهو كثرة حركتها وقلة قرارها . قال كعب : مر سليمان عليه السلام بوادى السَّدير من أودية الطائف ، فأتى على وادى النمل، فقامت نملة تمشى وهى عرجاء تتكاوس مثـل الذئب فى العظم ؛ فنادت « يأيها النمـل » الآية . الزمخشرى : سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال ، وكانت تمشى وهى عرجاء تتكاوس؛ وقيل : كان آسمها طاخية . وقال السهيلى : ذكروا آسم النملة المكلِّمة لسليمان عليه السلام، وقالوا آسمها حرميا، ولا أدرى كيف يتصـوّر للنملة آسم عَلَم والنمـل لا يسمى بعضهم بعضا، ولا الآدميون يمكنهم تسمية

Marfat.com

واحدة منهم باسم عَلَم، لأنه لا يتميز للادميين بعضهم من بعض، ولا هم أيضا واقعون تحت ملكة بنى آدم كالخيل والكلاب ونحوها، فإن العلمية فيما كان كذلك موجودة عند العرب. فإن قلت: إن العلمية موجودة فى الأجناس كثُعالة وأُسامة وجَعارِ وقَثامِ فى الضبع ونحو هذا كثير؛ فليس اسم النملة من هذا؛ لأنهم زعموا أنه اسم عَلَم لنملة واحدة معينة من بين سائر النمل، وثعالة ونحوه لا يختص بواحد من الجنس، بل كل واحد رأيته من ذلك الجنس فهو ثُعالة، وكذلك أُسامة وآبن آوى وآبن عرس وما أشبه ذلك. فإن صح ما قالوه فله وجه، وهو أن تكون هذه النملة الناطقة قد سميت بهذا الاسم فى التوراة أو فى الزبور أو فى بعض الصحف سماها الله تعالى بهذا الاسم، وعرفها به الأنبياء قبل سليمان أو بعضهم. وخصت بالتسمية لنطقها وإيمانها فهذا وجه. ومعنى قولنا بإيمانها أنها قالت للنمل: ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فقولها «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» التفاتة مؤمن. أى من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بألا يشعروا. وقد قيل: إن تبسم سليمان سرور بهذه الكلمة منها؛ ولذلك أكد التبسم بقوله: «ضَاحِكًا» إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضا، ألا تراهم يقولون تبسم تبسم الغضبان وتبسم تبسم المستهزئين. وتبسم الضحك إنما هو عن سرور، ولا يُسَرّ نبى بأمر دنيا؛ وإنما سُرّ بما كان من أمر الآخرة والدّين. وقولها: «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» إشارة إلى الدّين والعدل والرأفة. ونظير قول النملة فى جند سليمان «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» قول الله تعالى فى جند محمد صلى الله عليه وسلم «فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ». التفاتا إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن. إلا أن المثنى على جند سليمان هى النملة بإذن الله تعالى، والمثنى على جند محمد صلى الله عليه وسلم هو الله عز وجل بنفسه؛ لما لجنود محمد صلى الله عليه وسلم من الفضل على جند غيره من الأنبياء؛ كما لمحمد صلى الله عليه وسلم فضل على جميع النبيين صلى الله عليهم وسلم أجمعين. وقرأ شهر بن حوشب «مَسْكَنَكُمْ» بسكون السين على الإفراد. وفى مصحف أبىّ «مَسَاكِنَكُنَّ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ». وقرأ سليمان التّيمى «مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنْكُنَّ» ذكره النحاس؛ أى لا يكسرنكم بوطئهم عليكم وهم لا يعلمون بكم.

Marfat.com

قال المهدوى : وأفهم الله تعالى النملة هـذا لتكون معجزة لسليمان . وقال وهب : أمر الله تعالى الريح ألا يتكلم أحد بشيء إلا طرحتـه فى سمع سليمان ؛ بسبب أن الشياطين أرادت كيده . وقد قيل : إن هذا الوادى كان ببلاد اليمن وأنها كانت نملة صغيرة مثل النمل المعتاد؛ قاله الكلبي . وقال نَوْف الشامى وشَـقيق بن سَلَمة : كان نمـل ذلك الوادى كهيئة الذئاب فى العظم . وقال بُرَيْدة الأسلمى : كهيئة النعاج . قال محمـد بن على الترمذى : فإن كان على هذه الخلقة فلها صوت، وإنما افتقد صوت النمل لصغر خلقها ، وإلا فالأصوات فى الطيور والبهائم كائنة، وذلك منطقهم، وفى تلك المناطق معانى التسبيح وغير ذلك، وهو قوله تعالى: « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْـدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

قلت : وقوله « لَا يَحْطِمَنَّكُمْ » يدل على صحة قول الكلبي ؛ إذ لو كانت كهيئة الذئاب والنعاج لمـا حطمت بالوطء ؛ والله أعلم . وقال : « ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ » فجاء على خطاب الآدميين لأن النمل هاهنا أجرى مجرى الآدميين حين نطق كما ينطق الآدميون . قال أبو إسحق الثعلبي : ورأيت فى بعض الكتب أن سليمان قال لهـا لِمَ حذّرتِ النمـل ؟ أخفت ظلمى ؟ أما علمتِ أنى نبيّ عدل؟ فلم قلت « يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُـودُهُ » فقالت النملة : أما سمعت قولى « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » مع أنى لم أرد حطم النفوس، وإنمـا أردت حطم القلوب خشـية أن يتمنين مثل ما أعطيت ، أو يفتتن بالدنيا ، ويشـتغلن بالنظر إلى ملكك عن التسـبيح والذكر . فقال لها سليمان :عظينى . فقالت النملة :أما علمت لم سُمّى أبوك داود؟ قال : لا. قالت : لأنه داوى جراحة فؤاده ؛ هل علمت لم سميت سليمان ؟ قال : لا . قالت : لأنك سليم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك ، وإن لك أن تلحق بأبيك(١) . ثم قالت : أتدرى لم سخر الله لك الريح ؟ قال : لا . قالت : أخبرك أن الدنيا كلها ريح . ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ﴾ متعجبا ثم مضت مسرعة إلى قومها ، فقالت : هل عنـدكم من شيء نهـديه إلى

(١) العبارة فى «قصص الأنبياء» للثعلبي : « قالت لأنك سليم ركنت إلى ما أوتيت بسلامة صدرك ، وحق لك أن تلحق بأبيك داود » .

Marfat.com

نبيّ الله ؟ قالوا : وما قدر ما نهدى له ! والله ما عندنا إلا نبقة واحدة . قالت : حسنة؛ آيتونى بها . فأتوها بها فحملتها بفيها فانطلقت تجرها، فأمر الله الريح فحملتها ، وأقبلت تشق الأنس والجن والعلماء والأنبياء على البساط ، حتى وقعت بين يديه ، ثم وضعت تلك النبقة من فيها فى كفّه ، وأنشأت تقول :

ألم ترنا نُهدى إلى الله مَالَهُ * وإن كان عنه ذا غنىً فهو قابلُهْ
ولو كان يُهدَى للجليل بقدره * لقصّر عنه البحرُ يوما وساحلُهْ
ولكننا نُهدى إلى من نُحبُّه * فيرضى به عنا ويشكر فاعلُهْ
وما ذاك إلا من كريمٍ فعالُه * وإلا فما فى ملكنا ما يشاكلُهْ

فقال لها : بارك الله فيكم ؛ فهم بتلك الدعوة أشكر خلق الله وأكثر خلق الله . وقال ابن عباس : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب : الهدهد والصُّرَد والنملة والنحلة ؛ خرجه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق وروى من حديث أبى هريرة . وقد مضى فى « الأعراف »[1] . فالنملة أثنت على سليمان وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه بأنهم لا يشعرون إن حطموكم ، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم ، فنفت عنهم الجور ؛ ولذلك نهى عن قتلها ، وعن قتل الهدهد ؛ لأنه كان دليل سليمان على الماء ورسوله إلى بلقيس . وقال عكرمة : إنما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان بارا بوالديه . والصُّرَد يقال له الصوّام . وروى عن أبى هريرة قال: أوّل من صام الصُّرَد ولما خرج إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحرم فى بناء البيت كانت السكينة[2] معه والصُّرَد، فكان الصّرد دليله على الموضع والسكينة مقداره ، فلما صار إلى البقعة وقعت السكينة على موضع البيت ونادت وقالت : ابن يا إبراهيم على مقدار ظلّى . وقد تقدّم فى « الأعراف » سبب النهى عن قتل الضّفدع وفى « النحل »[3] النهى عن قتل النّحل . والحمد لله .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٧٠ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) السكينة : سحابة كما فى القصة . وفى حديث على رضى الله عنه إن السكينة ريح سريعة المر . ولوس بواخ .

(٣) راجع ج ١٠ ص ١٣٤ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

الثانيــة ــ قرأ الحسن « لا يَحِطِّمَنَّكُمْ » وعنه أيضا « لَا يَحِطِّمَنْكُمْ » وعنه أيضا وعن أبي رجاء « لَا يُحَطِّمَنَّكُمْ » والحَطْم الكسر . حطمتــه حَطْما أى كسرته وتَحطَّم ؛ والتّحطيم التكسير . « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » يجوز أن يكون حالا من سليمان وجنوده ، والعامل فى الحال « يَحْطِمَنَّكُمْ » . أو حالا من النملة والعامل « قالت » . أى قالت ذلك فى حال غفلة الجنود ؛ كقولك : قمت والناس غافلون ، أو حالا من النمل أيضا والعامل « قَالَتْ » على أن المعنى : والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها . وفيه بعد وسيأتى .

الثالثــة ــ روى مسلم من حديث أبى هريرة عن رســول الله صلى الله عليــه وسلم " أن نمــلة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفى أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبّح " وفى طريق آخر : " فهلا نملة واحدة " . قال علماؤنا : يقال إن هــذا النبيّ هو موسى عليه السلام، وإنه قال : يارب تعذب أهل قرية بمعاصيهم وفيهم الطائع . فكأنه أحب أن يريه ذلك من عنده ، فسلط عليه الحرّ حتى ٱلتجأ إلى شجرة مستروحا إلى ظلّها ، وعندها قرية النمل، فغلبه النوم، فلما وجد لذة النوم لدغته النملة فأضجرته ، فدلكهنّ بقدمه فأهلكهنّ ، وأحرق تلك الشجرة التى عندها مساكنهم ، فأراه الله العبرة فى ذلك آية : لمــا لدغتك نملة فكيف أصبت الباقين بعقوبتها ! يريد أن ينبهه أن العقوبة من الله تعالى تعم فتصير رحمة على المطيع وطهارة وبركة ، وشرا ونقمة على العاصى . وعلى هذا فليس فى الحديث ما يدل على كراهةٍ ولا حظرٍ فى قتل النمل؛ فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك ، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن ، وقد أبيح لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار ، فكيف بالهوام والدواب التى قد سخرت لك وسلطت عليها ، فإذا آذاك أبيح لك قتله . وروى عن إبراهيم : ما آذاك من النمل فاقتله . وقوله : " ألا نملة واحدة " دليل على أن الذى يؤذِى يؤذَى ويقتل ، وكلما كان القتــل لنفع أو دفع ضرر فلا بأس به عند العلماء . وأطلق له نملة ولم يخص تلك النملة التى لدغت من غيرها ؛ لأنه ليس المراد القصاص ؛ لأنه لو أراده لقــال ألا نملتك التى لدغتك ، ولكن قال : ألا نملة مكان نمــلة ؛ فعم البرىء

Marfat.com

والجانى بذلك، ليعلم أنه أراد أن ينبهه لمسئلته ربّه فى عذاب أهل قرية وفيهم المطيع والعاصى . وقد قيل : إن هذا النبيّ كانت العقوبة للحيوان بالتحريق جائزة فى شرعه؛ فلذلك إنمـا عاتبه الله تعـالى فى إحراق الكثير من النمـل لا فى أصل الإحراق . ألا ترى قوله : " فهلا نملة واحدة " أى هلا حرقت نملة واحدة . وهـذا بخلاف شرعنا ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن التعذيب بالنار . وقال " لا يعذّب بالنار إلا الله " وكذلك أيضا كان قتل النمل مباحا فى شريعة ذلك النبيّ ؛ فإن الله لم يعتبه على أصل قتل النمل . وأما شرعنا فقد جاء من حديث آبن عبـاس وأبى هريرة النهى عن ذلك . وقد كره مالك قتل النمـل إلا أن يضر ولا يقدر على دفعه إلا بالقتل . وقد قيل : إن هذا النبيّ إنمـا عاتبه الله حيث آنتقم لنفسه بإهلاك جمع آذاه واحد ، وكان الأولى الصبر والصفح ؛ لكن وقع للنبيّ أن هذا النوع مؤذٍ لبنى آدم، وحرمة بنى آدم أعظم من حرمة غيره من الحيوان غير الناطق . فلو آنفرد له هذا النظر ولم ينضم إليه التشفى الطبعى لم يعاتب . والله أعلم . لكن لمـا آنضاف إليه التشفى الذى دل عليه سياق الحديث عوتب عليه .

الرابعـــة ـــ قوله : " أفى أن قرصتك نمـلة أهلكت أمة من الأمم تسبّح " مقتضى هذا أنه تسبيح بمقال ونطق، كما أخبر الله عن النمل أن لهـا منطقا وفَهِمه سليمان عليه السلام ـــ وهذا معجزة له ـــ وتبسم من قولها . وهـذا يدل دلالة واضحة أن للنمل نطقا وقولا، لكن لا يسمعه كل أحد، بل من شاء الله تعالى ممن خرق له العادة من نبيّ أو ولىّ . ولا ننكر هـذا من حيث أنا لا نسمع ذلك ؛ فإنه لا يلزم من عدم الإدراك عدم المدرك فى نفسه . ثم إن الإنسان يجد فى نفسه قولا وكلاما ولا يسمع منه إلا إذا نطق بلسانه . وقد خرق الله العادة لنبينا محمد صلى الله عليه وسـلم فأسمعه كلام النفس من قوم تحدّثوا مع أنفسهم وأخبرهم بمـا فى نفوسهم، كما قد نقل منه الكثير من أئمتنا فى كتب معجزات النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ وكذلك وقع لكثير ممن أكرمه الله تعالى من الأولياء مثل ذلك فى غير ما قضية . وإياه عنى النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله : " إنّ فى أمتى محدّثين و إن عمر منهم " . وقد مضى هذا المعنى

Marfat.com

فى [تسبيح](١) الجمـاد فى « سبحان »(٢) وأنه تسبيح لسان ومقـال لا تسبيح دلالة حال .
والحمـــد لله .

الخامســـة — قوله تعالى : « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا » وقرأ ٱبن السَّمَيْقع «ضحكا» بغير ألف، وهو منصوب على المصدر بفعل محذوف يدل عليه تبسّم، كأنه قال ضحك ضحكا، هذا مذهب سيبويه . وهو عند غير سيبويه منصوب بنفس « تَبَسَّمَ » لأنه فى معنى ضحك . ومن قـرأ « ضَاحِكًا » فهـو منصوب على الحـال من الضمير فى « تَبَسَّمَ » . والمعنى تبسم مقـدار الضحك ؛ لأن الضحك يستغرق التبسم ، والتبسم دون الضحك وهو أوّله . يقال : بَسَمَ (بالفتح) يَبْسِم بَسْمًا فهو باسم وٱبتسم وتبسم، والمَبْسِم الثغر مثل المجلس من جلس يجلس ورجل مِبسام وبسّـام كثير التبسم ، فالتبسم ٱبتداء الضحك ، والضحك عبارة عن الٱبتـداء والٱنتهاء ، إلا أن الضحك يقتضى مزيدا على ٱلتبسم ، فإذا زاد ولم يضبط الإنسان نفسه قيل قهقه . والتبسم ضحك الأنبياء عليهم السلام فى غالب أمرهم . وفى الصحيح عن جابر بن سَمُرة وقيل له : أكنت تجالس النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم كثيرا؛ كان لا يقوم من مصلّاه الذى يصلى فيه الصبح — أو الغَدَاة — حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدّثون ويأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم . وفيه عن سعد قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين(٣)، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "ٱرم فِداكَ أبى وأمى" قال فنزعت له بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه فسقط فانكشفت عورته، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نظرت إلى نواجذه . فكان عليه السلام فى أكثر أحواله يتبسم . وكان أيضا يضحك فى أحوال أُخرَ ضحكا أعلى من التبسم وأقل من الاستغراق الذى تبدو فيه اللَّهَوات . وكان فى النادر عند إفراط تعجبه ربما ضحك حتى بدت نواجذه . وقد كره العلماء منه الكثرة؛ كما قال لقمان لٱبنه : يا بنيّ إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب . وقد روى مرفوعا من

(١) زيادة يقتضيها السياق .　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٣) "أحرق المسلمين" أى أثخن فيهم، وعمل فيهم نحو عمل النار . « هامش مسلم » .

Marfat.com

حديث أبي ذرّ وغيره . وضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه حين رمى سعدا الرجل فأصابه، إنما كان سرورا بإصابته لا بانكشاف عورته ؛ فإنه المنزّه عن ذلك صلى الله عليه وسلم .

السادسة — لا آختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول . وقد قال الشافعي : الحمام أعقل الطير . قال آبن عطية : والنمل حيوان فطن قوى شمام جدا يدخر و يتخذ القرى و يشق الحب بقطعتين لئلا ينبت، و يشق الكزبرة بأربع قطع؛ لأنها تنبت إذا قسمت شقين، و يأكل في عامه نصف ما جمع و يستبقي سائره عدّة . قال آبن العربي: وهذه خواص العلوم عندنا ، وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لها؛ قال الأستاذ أبو المظفر شاهنور الإسفرايني : ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم وحدوث المخلوقات؛ ووحدانية الإله، ولكننا لا نفهم عنها ولا تفهم عنا، أما أنا نطلبها وهي تفر منا فبحكم الجنسية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ فـ«أن» مصدرية . و « أَوْزِعْنِي » أي ألهمني ذلك . وأصله من وزع فكأنه قال : كفني عما يسخط . وقال محمد بن إسحق : يزعم أهل الكتاب أن أم سليمان هي آمرأة أوريا التي آمتحن الله بها داود، أو أنه بعد موت زوجها تزوجها داود فولدت له سليمان عليه السلام . وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «ص» (1) إن شاء الله تعالى .

﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي مع عبادك، عن آبن زيد . وقيل : المعنى في جملة عبادك الصالحين .

قوله تعالى : وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ

(1) في تفسير قوله تعالى : « وظن داود أنما فتناه » آية ٢٤ من السورة المذكورة .

Marfat.com

مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ
شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ
لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾
ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

فيــه ثمــان عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعــالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ ذكر شيئا آخر ممــا جرى له فى مسيره الذى كان فيه من النمل ما تقدّم . والتفقد تطلّب ما غاب عنك من شىء . والطير اسم جامع والواحد طائر ، والمراد بالطير هنا جنس الطير و جماعتها ، وكانت تصحبه فى سفره وتظله بأجنحتها . وآختلف الناس فى معنى تفقده للطير ؛ فقالت فــرقة : ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك ، والتهمّم بكل جزء منها ؛ وهذا ظاهر الآية . وقالت فرقة : بل تفقد الطير لأن الشمس دخلت من موضع الهدهد حين غاب ؛ فكان ذلك سبب تفقد الطير ؛ ليتبين من أين دخلت الشمس . وقال عبــد الله بن سَلَام : إنمــا طلب الهدهد لأنه آحتاج إلى معرفة المــاء على كم هو من وجه الأرض ؛ لأنه كان نزل فى مفازة عُدِم فيها المــاء ، وأن الهدهد كان يرى باطن الأرض وظاهرها ؛ فكان يخبر سـليمان بموضع المــاء ، ثم كانت الجنّ تخرجه فى ساعة يسيرة ؛ تسلخ عنــه وجه الأرض كما تسلخ الشاة ؛ قاله آبن عباس فيما روى عن آبن سَلَام . قال أبو مِجْلَز قال آبن عباس لعبد الله بن سَلَام : أريد أن أسالك عن ثلاث مسائل . قال : أتسالنى وأنت تقرأ القرآن ؟ قال : نعم ثلاث مرات . قال : لم تفقد سـليمان الهدهد دون

Marfat.com

سائر الطير؟ قال : آحتاج إلى المـاء ولم يعرف عمقه — أو قال مسافته — وكان الهدهد يعرف ذلك دون سائر الطير فتفقده . وقال فى كتاب النقاش : كان الهدهد مهندسا . وروى أن نافع بن الأزرق سمع آبن عباس يذكر شأن الهدهد فقال له : قف يا وقّاف كيف يرى الهدهد باطن الأرض وهو لا يرى الفخّ حين يقع فيـه ؟ ! فقـال له آبن عباس : إذا جاء القدر عَمِيَ البصر . وقال مجاهد : قيل لآبن عباس كيف تفقد الهدهد من الطير؟ فقـال : نزل منزلا ولم يدر ما بعد المـاء ، وكان الهدهد مهتديا إليه ، فأراد أن يسأله . قال مجاهد : فقلت كيف يهتدى والصبي يضع له الحِبَالة فيصيده ؟ ! فقال : إذا جاء القدر عَمِيَ البصر . قال آبن العربى : ولا يقدر على هذا الجواب إلا عالم القرآن .

قلت : هذا الجواب قد قاله الهدهد لسليمان كما تقدّم . وأنشدوا :

إذا أراد الله أمرًا بآمرئٍ * وكان ذا عقلٍ ورأيٍ ونَظَرْ
وحيـلةٍ يعملها فى دفع ما * يأتى به مكروهُ أسبابِ القَدَرْ
غطّى عليــه سمعَه وعقلَه * وسلّه من ذهنه سلَّ الشّعرْ
حتى إذا أنفذ فيــه حكمه * ردّ عليه عقـلَه ليعتـبرْ

قال الكلبي : لم يكن له فى مسيره إلا هدهد واحد . والله أعلم .

الثانيــة — فى هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم . فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله ، فكيف بعظام المُلْك . ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته ؛ قال : لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب ليسأل عنها عمر . فما ظنك بوالٍ تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان . وفى الصحيح عن عبدالله ابن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسَرْغ (١) لقيـه أمراء الأجناد : أبو عبيـدة وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام . الحديث ؛ قال علماؤنا : كان هـذا الخروج من عمر بعـد ما فتح بيت المقدس سـنة سبع عشرة على ما ذكره خليفة بن خياط .

(١) سرغ (بسكون الراء وفتحها) : قرية بوادى تبوك من طريق الشام .

Marfat.com

وكان يتفقد أحوال رعيتـه وأحوال أمرائه بنفسه، فقد دل القرآن والسنة وبيّنـا ما يجب على الإمام من تفقد أحوال رعيته، ومباشرة ذلك بنفسه، والسفر إلى ذلك وإن طال .
ورحم الله ٱبن المبارك حيث يقول :

وهل أفسدَ الدينَ إلّا الملوكُ * وأحبـارُ سـوءٍ ورهبانُهـا (١)

الثالثـة — قوله تعالى : « مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ » أى ما للهدهد لا أراه ؛ فهو من القلب الذى لا يعرف معناه . وهو كقولك : مالى أراك كئيبا . أى مالك . والهدهد طير معروف وهدهدته صوته . قال ٱبن عطية : إنمـا مقصد الكلام الهدهد غاب لكنه أخذ اللازم عن مغيبه وهو أن لا يراه ، فاستفهم على جهـة التوقيف على اللازم وهذا ضرب من الإيجاز . والاستفهام الذى فى قوله : « مَالِيَ » ناب مناب الألف التى تحتاجها أم . وقيل : إنمـا قال : « مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ » ؛ لأنه ٱعتبر حال نفسه، إذ علم أنه أوتى الملك العظيم، وسخر له الخلق ، فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العدل ، فلمـا فقد نعمة الهدهد توقع أن يكون قصّر فى حق الشكر، فلأجله سلبها فجعل يتفقد نفسه ؛ فقال : « مَالِيَ » . قال ٱبن العربى : وهذا يفعله شيوخ الصوفية إذا فقدوا مالهم (٢)، تفقدوا أعمالهم؛ هذا فى الآداب ، فكيف بنا اليـوم ونحن نقصّر فى الفرائض ! . وقرأ ٱبن كثير وٱبن محيصن وعاصم والكسائى وهشام وأيوب « مَالِيَ » بفتح اليـاء وكذلك فى « يسۤ » « وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى » . وأسكنها حمزة ويعقوب . وقرأ الباقون المدنيون وأبو عمرو بفتح التى فى « يسۤ » وإسكان هذه . قال أبو عمرو : لأن هـذه التى فى « النمـل » ٱستفهام، والأخرى ٱنتفـاء . وٱختار أبو حاتم وأبو عبيد الإسكان « فَقَالَ مَالِيَ » . وقال أبو جعفر النحاس : زعم قوم أنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان مبتدأ ، وبين ما كان معطوفا على ما قبله ، وهذا ليس بشىء ؛ وإنمـا هى ياء النفس من العرب من يفتحها ومنهـم من يسكنها ، فقرءوا باللغتين ؛ واللغة الفصيحة فى ياء النفس أن تكون مفتوحة؛ لأنهـا ٱسم وهى على حرف واحد، وكان الٱختيار ألا تسكن فيجحف بالاسم . « أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ » بمعنى بل .

(١) فى بعض النسخ : « ورهبانا » .	(٢) فى أحكام القرآن لابن العربى : « إذا فقدوا آمالهم ... الخ » .

Marfat.com

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ دليل على أن الحد على قدر الذنب لا على قدر الجسد ، أما أنه يرفق بالمحدود فى الزمان والصفة . روى عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج أن تعذيبه للطير كان بأن ينتف ريشه . قال ابن جريج : ريشه أجمع . وقال يزيد بن رومان : جناحاه . فعل سليمان هذا بالهدهد إغلاظا على العاصين ، وعقابا على إخلاله بنَوْبه ورتبته ؛ وكأن الله أباح له ذلك ، كما أباح ذبح البهائم والطير للأكل وغيره من المنافع . والله أعلم . وفى « نوادر الأصول » قال : حدثنا سليمان بن حميد أبو الربيع الإيادى ، قال حدثنا عون بن عمارة ، عن الحسين الجَعْفى ، عن الزبير بن الخرِّيت ، عن عكرمة ، قال : إنما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان بارا بوالديه . وسيأتى . وقيل : تعذيبه أن يجعل مع أضداده . وعن بعضهم : أضيق السجون معاشرة الأضداد . وقيل : لألزمنه خدمة أقرانه . وقيل : إيداعه القفص . وقيل : بأن يجعله للشمس بعد نتفه . وقيل : بتبعيده عن خدمتى ، والملوك يؤدّبون بالهجران الجسدَ بتفريق إلفه . وهو مؤكد بالنون الثقيلة ، وهى لازمة هى أو الخفيفة . قال أبو حاتم : ولو قرئت « لَأُعَذِّبَنْهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنْهُ » جاز . ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة بينة . وليست اللام فى « لَيَأْتِيَنِّى » لام القسم لأنه لا يقسم سليمان على فعل الهدهد ، ولكن لما جاء فى أثر قوله : « لَأُعَذِّبَنَّهُ » وهو مما جاز به القسم أجراه مجراه . وقرأ ابن كثير وحده « لَيَأْتِيَنَّنِى » بنونين .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أى الهدهد . والجمهور من القراء على ضم الكاف ، وقرأ عاصم وحده بفتحها . ومعناه فى القراءتين أقام . قال سيبويه : مَكَث يمكُث مُكوثا كما قالوا قعد يقعد قعودا . قال : ومَكُث مثل ظَرُف . قال غيره : والفتح أحسن لقوله تعالى : « مَاكِثِينَ » إذ هو من مَكَث ؛ يقال : مَكَث يمكُث فهو ماكث ؛ ومَكُث يمكُث مثل عَظُم يعظُم فهو مَكِيث ؛ مثل عظيم . ومَكُث يمكُث فهو ماكث ؛ مثل حَمُض يحمُض فهو حامض . والضمير فى « مَكَث » يحتمل أن يكون لسليمان ؛ والمعنى : بقى سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل أى غير وقت طويل . ويحتمل أن يكون للهدهد وهو الأكثر . فجاء « فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ » وهى :

Marfat.com

السادســـة — أى علمت ما لم تعلمه من الأمر فكان فى هـذا ردّ على من قال : إن الأنبياء تعلم الغيب . وحكى الفراء « أَحَطُّ » يدغم التـاء فى الطاء . وحكى « أَحَتُّ » بقلب الطاء تاء وتدغم .

السابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أعلم سليمان ما لم يكن يعلمه، ودفع عن نفســه ما توعده من العذاب والذبح . وقرأ الجمهور « سَبَإٍ » بالصرف . وابن كثير وأبو عمرو « سَبَأَ » بفتح الهمزة وترك الصرف؛ فالأوّل على أنه آسم رجل نسب إليه قوم، وعليه قول الشاعر :

الواردون وتيم فى ذُرَى سبإٍ ❊ قد عَضَّ أعناقَهمْ جلدُ الجواميسِ

وأنكر الزجاج أن يكون آسم رجل، وقال : « سبأ » آسم مدينة تعرف بمأرب باليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام؛ وأنشد للنابغة الجَعْدى :

من سَبَأَ الحـاضِرِين مَأْرِبَ إذْ ❊ يَبْنُون من دون سَيْلِهِ العَرِمَا

قال : فمن لم يصرف قال إنه آسم مدينـة ، ومن صرف وهو الأكثر فلأنه آسم البلد فيكون مذكرا سمى به مذكر . وقيـل : آسم آمرأة سميت بها المدينـة . والصحيح أنه آسم رجل، كذلك فى كتاب الترمذى من حديث فروة بن مُسَيْك المرادى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وسيأتى إن شاء الله تعالى . قال آبن عطية : وخفى هذا الحديث على الزجاج فخبط عشواء . وزعم الفـرّاء أن الرُّؤاسيّ سأل أبا عمرو بن العـلاء عن سبإ فقال : ما أدرى ما هو . قال النحاس : وتأوّل الفرّاء على أبى عمرو أنه منعه من الصرف لأنه مجهول ، وأنه إذا لم يعرف الشيء لم ينصرف . وقال النحاس : وأبو عمرو أجلّ من أن يقول مثل هذا، وليس فى حكاية الرُّؤاسى عنه دليل أنه إنمـا منعه من الصرف لأنه لم يعرفه ، و إنما قال لا أعرفه، ولو سئل نحويّ عن آسم فقال لا أعرفه لم يكن فى هذا دليل على أنه يمنعه من الصرف، بل الحق على غير هذا؛ والواجب إذا لم يعرفه أن يصرفه ؛ لأن أصل الأسماء الصرف؛ و إنمـا يمنع الشىء من الصرف لعلة داخلة عليه؛ فالأصل ثابت بيقين فلا يزول بما لا يعرف . وذكر كلاما كثيرا

Marfat.com

عن النحاة وقال فى آخره : والقول فى « سبإ » ما جاء التوقيف فيه أنه فى الأصل آسم رجل، فإن صرفته فلأنه قد صار آسما للحى ، وإن لم تصرفه جعلته آسما للقبيلة مثل ثمود إلا أن الاختيار عند سيبويه الصرف وحجته فى ذلك قاطعة؛ لأن هذا الأسم لما كان يقع له التذكير والتأنيث كان التذكير أولى؛ لأنه الأصل والأخف .

الثامنة — وفى الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم عندى ما ليس عندك إذا تحقّق ذلك وتيقنه . هذا عمر بن الخطاب مع جلالته رضى الله عنه وعلمه لم يكن عنده علم بالاستئذان . وكان علم التيمّم عند عمّار وغيره، وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالا : لا يتيمم الجنب . وكان حكم الإذن فى أن تنفر الحائض عند آبن عباس ولم يعلمه عمر ولا زيد بن ثابت . وكان غسل رأس المحرم معلوما عند آبن عباس وخفى عن المِسْوَر بن مَخْرَمة . ومثله كثير فلا يطوّل به .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ لما قال الهدهد : « وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ » قال سليمان : وما ذلك الخبر؟ قال : « إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ » يعنى بلقيس بنت شراحيل تملك أهل سبإ . ويقال : كيف خفى على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطِّه وبين بلدها قريبة، وهى من مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب؟ والجواب أن الله تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة، كما أخفى على يعقوب مكان يوسف . ويروى أن أحد أبويها كان من الجن . قال آبن العربى : وهذا أمر تنكره الملحدة ، ويقولون : الجن لا يأكلون ولا يلدون ؛ كذبوا لعنهم الله أجمعين ؛ ذلك صحيح ونكاحهم جائز عقلا فإن صح نقلا فبها ونعمت .

قلت : خرج أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود أنه قال : قدم وفد من الجن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا : يا محمد آنْهَ أمتك أن يستنجوا بعَظْم أو رَوْثة أو جمجمة فإن الله جاعل لنا فيها رزقا . وفى صحيح مسلم فقال : " لكم كل عَظْم ذكر آسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بعرة علف لدوابكم " فقال رسول الله صلى الله

Marfat.com

عليه وسـلم : " فلا تستنجوا بهما فإنهما طعـام إخوانكم الجن " وفى البخارى من حديث أبى هريرة قال فقلت : ما بال العَظْم والرَّوثة ؟ فقال : " هما من طعـام الجن وإنه أتانى وفدُ جِنِّ نَصيبِين ونِعم الجِنُّ فسألونى الزاد فدعوت الله تعالى ألا يمروا بعظم ولا رَوْثة إلا وجدوا عليها طعاما " وهذا كله نص فى أنهـم يطعمون . وأما نكاحهم فقـد تقدّمت الإشارة إليه فى « سـبحان » عند قوله : « وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ » (١) . وروى وهيب بن جرير آبن حازم عن الخليل بن أحمد عن عثمان بن حاضر قال : كانت أم بلقيس من الجن يقال لها بلعمة بنت شيصان . وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

العاشـــرة — روى البخارىّ من حديث آبن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم لمـا بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال : " لن يُفلح قوم ولَّوا أمرَهم آمرأة " قال القاضى أبو بكر بن العربى : هذا نص فى أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيـه ؛ ونقل عن محمـد بن جرير الطبرى أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية، ولم يصح ذلك عنه، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبى حنيفة أنها إنما تقضى فيما تشهد فيه وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق، ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدّمة على الحكم ، وإنمـا سبيل ذلك التحكم والآستنابة فى القضية الواحدة ، وهـذا هو الظن بأبى حنيفة وآبن جرير . وقد روى عن عمر أنه قدّم آمرأة على حِسـبة السوق . ولم يصـح فلا تلتفتوا إليه ، فإنمـا هو من دسائس المبتـدعة فى الأحاديث . وقد تناظر فى هذه المسئلة القاضى أبو بكر بن الطيب المـالكى الأشـعرى مع أبى الفرج بن طَرَار شيخ الشافعية ، فقال أبو الفرج : الدليل على أن المرأة يجوز أن تحكم أن الغرض من الأحكام تنفيذ القاضى لها ، وسماع البينة عليها ، والفصل بين الخصوم فيهـا ، وذلك ممكن من المرأة كإمكانه من الرجل . فآعترض عليه القاضى أبو بكر ونقض كلامه بالإمامة الكبرى ؛ فإن الغرض منه حفظ الثغور ، وتدبير الأمور وحمـاية البَيْضة ، وقبض الخـراج ورده على مستحقه، وذلك لا يتأتى من المرأة كتأتيه من الرجل . قال آبن العربى : وليس

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

كلام الشيخين فى هذه المسئلة بشىء، فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجلس، ولا تخالط الرجال، ولا تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير؛ لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها، وإن كانت بَرْزَة(١) لم يجمعها والرجال مجلس واحد تزدحم فيه معهم، وتكون مناظرة لهم؛ ولن يفلح قط من تصور هذا ولا من ٱعتقده .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مبالغة؛ أى مما تحتاجه المملكة . وقيل : المعنى أوتيت من كل شىء فى زمانها شيئا فحذف المفعول؛ لأن الكلام دل عليه . ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ أى سرير؛ ووصفه بالعظم فى الهيئة ورتبة السلطان . قيل : كان من ذهب تجلس عليه . وقيل : العرش هنا الملك؛ والأول أصح؛ لقوله تعالى : « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا » . الزمخشرى : فإن قلت كيف سوّى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله فى الوصف بالعظيم؟ قلت : بين الوصفين بون عظيم؛ لأن وصف عرشها بالعظيم تعظيم له بالإضافة إلى عرش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله بالعظيم تعظيم له بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض . قال ٱبن عباس : كان طول عرشها ثمانين ذراعا، وعرضه أربعين ذراعا، وٱرتفاعه فى السماء ثلاثين ذراعا، مكلل بالدر والياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر . قتادة : وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مُستّرا بالديباج والحرير، عليه سبعة مغاليق . مقاتل : كان ثمانين ذراعا، وٱرتفاعه من الأرض ثمانون ذراعا، وهو مكلل بالجواهر . ٱبن إسحق : وكان يخدمها النساء، وكان لخدمتها ستمائة ٱمرأة . قال ابن عطية : واللازم من الآية أنها ٱمرأة ملكت على مدائن اليمن، ذات ملك عظيم، وسرير عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قيل : كانت هذه الأمة ممن يعبد الشمس؛ لأنهم كانوا زنادقة فيما يروى . وقيل : كانوا مجوسا يعبدون الأنوار . وروى عن نافع أن الوقف على « عرش » . قال المهدوى :

(١) البرزة هنا : الكهلة التى لا تحتجب ٱحتجاب الشواب؛ وهى مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم .

Marfat.com

فعظيم على هــذا متعلق بمـا بعده، وكان ينبغى على هذا أن يكون عظيم أن وجدتها؛ أى وجودى إياها كافرة . وقال ابن الأنبارى : « وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » وقف حسن، ولا يجوز أن يقف على «عرش» ويبتدئ « عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا » إلا على من فتح؛ لأن عظيما نعت لعرش فلو كان متعلقا بوجدتها لقلت عظيمة وجدتها؛ وهذا محال من كل وجه . وقد حدّثنى أبو بكر محمد بن الحسين بن شهريار، قال : حدّثنا أبو عبد الله الحسين بن الأسود العِجْلى، عن بعض أهل العلم أنه قال: الوقف على «عرش» والابتداء «عظيم» على معنى عظيم عبادتهم الشمس والقمر. قال : وقد سمعت من يؤيد هذا المذهب ، ويحتج بأن عرشها أحقر وأدق شأنا من أن يصفه الله بالعظيم . قال ابن الأنبارى : والاختيار عندى ما ذكرته أوّلا؛ لأنه ليس على إضمار عبادة الشمس والقمر دليـل . وغير منكر أن يصف الهـدهد عرشها بالعظيم إذا رآه متناهى الطول والعرض؛ وجريه على إعراب « عرش » دليل على أنه نعته . ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى ماهم فيه من الكفر . ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى عن طريق التوحيد . وبيّن بهـذا أن ما ليس بسبيل التوحيد فليس بسبيل ينتفع به على التحقيق . ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى الله وتوحيده .

الثـــالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وحمزة « أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ » بتشديد « أَلَّا » قال ابن الأنبارى : « فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ » غير تام لمن شدّد « أَلَّا » لأن المعنى : وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا. قال النحاس : هى «أن» دخلت عليها « لا » و «أن» فى موضع نصب؛ قال الأخفش: بـ«زين » أى وزين لهم لئلا يسجدوا لله. وقال الكسائى : بـ « فصدّهم » أى فصدهم ألا يسجدوا . وهو فى الوجهين مفعول له .

وقال اليزيدى وعلى بن سليمان : « أن » بدل من « أعمالهم » فى موضع نصب . وقال أبو عمرو : و«أن» فى موضع خفض على البدل من السبيل . وقيل العامل فيها «لا يهتدون» أى فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله؛ أى لا يعلمون أن ذلك واجب عليهم . وعلى هذا القول « لا » زائدة؛ كقوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » أى ما منعك أن تسجد . وعلى هذه القراءة

Marfat.com

فليس بموضع سجدة؛ لأن ذلك خبر عنهم بترك السجود ، إما بالتزيين ، أو بالصّـدّ، أو بمنع الاهتداء . وقرأ الزهرى والكسائى وغيرهما « أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ »(١) بمعنى ألا ياهؤلاء اسجدوا؛ لأن « يا » ينادى بها الأسماء دون الأفعال . وأنشد سيبويه :

يالعنـــةُ اللهِ والأقـــوامِ كلِّهِمُ * والصّالحين على سِمْعَانَ من جارِ

قال سيبويه : (يا) لغير اللعنة؛ لأنه لو كان للعنة لنصبها؛ لأنه كان يصير منادى مضافا، ولكن تقديره يا هؤلاء لعنة الله والأقوام على سِمعان . وحكى بعضهم سماعا عن العرب : ألا يا ارحموا ألا يا اصدُقوا . يريدون ألا ياقوم ارحموا اصدُقوا ؛ فعلى هذه القراءة « اسْجُدُوا » فى موضع جزم بالأمر والوقف على « أَلَا يَا » ثم تبتدئ فتقول « اسْجُدُوا » . قال الكسائى : ما كنت أسمع الأشياخ يقرءونها إلا بالتخفيف على نية الأمر. وفى قراءة عبد الله « أَلَا هَلْ تَسْجُدُونَ لِلَّهِ» بالتاء والنون. وفى قراءة أبى « أَلَا تَسْجُدُونَ لِلَّهِ » فهاتان القراءتان حجة لمن خفف . الزجاج: وقراءة التخفيف تقتضى وجـوب السجود دون التشديد . واختـار أبو حاتم وأبو عبيـدة قراءة التشديد . وقال : التخفيف وجه حسن إلا أن فيه انقطاع الخبر عن أمر سبأ، ثم رجع بعـد إلى ذكرهم، والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضا لا انقطاع فى وسطه . ونحوه قال النحاس . قال : قراءة التخفيف بعيـدة؛ لأن الكلام يكون معترضا، وقراءة التشديد يكون الكلام بها متسقا، وأيضا فإن السواد على غير هــذه القراءة ؛ لأنه قـد حذف منهـا ألفان، وإنما يختصر مثل هذا بحذف ألف واحدة نحو ياعيسى بن مريم . ابن الأنبارى : وسقطت ألف « اسجدوا » كما تسقط مع هؤلاء إذا ظهر، ولمـا سقطت ألف «يا» واتصلت بها ألف «اسجدوا » سقطت ، فعد سقوطها دلالة على الاختصار و إيثارا لمـا يخفّ وتقل ألفاظه. وقال الجوهرى فى آخر كتابه : قال بعضهم إن « يا » فى هذا الموضع إنمـا هو للتنبيه كأنه قال : ألا اسجدوا لله ، فلمـا أدخل عليه « يا » للتنبيه سقطت الألف التى فى « اسجدوا » لأنهـا

---

(١) الألوسى : «ألا» بالتخفيف على أنها للاستفتاح و «يا» حرف نداء، والمنادى محذوف ؛ أى ألا ياقوم اسجدوا وسقطت ألف يا وألف الوصل فى «اسجدوا» وكتبت الياء متصلة بالسين على خلاف القياس .

Marfat.com

ألف وصـل ، وذهبت الألف التي فى « يا » لاجتماع الساكنين؛ لأنها والسين ساكنتان . قال ذو الرُّمَّة :

أَلَا يا ٱسْلَمِي يادارَ مَيَّ على البِلَى * وَلَا زَالَ مُنْهَلًّا بِجَرْعَائِكِ القَطْرُ

وقال الجرجانى : هو كلام معـترض من الهدهد أو سـليمان أو من الله . أى ألا ليسجدوا ؛ كقوله تعالى: « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ » قيل: إنه أمر أى ليغفروا. وتنتظم على هذا كتابة المصحف؛ أى ليس ها هنا نداء . قال ابن عطية : قيل هو من كلام الهدهد إلى قوله «العظيم» وهو قول ابن زيد وابن إسحق؛ ويعترض بأنه غير مخاطب فكيف يتكلم فى معنى شرع . ويحتمل أن يكون من قول سـليمان لما أخبره الهـدهد عن القوم . ويحتمل أن يكون من [قول] الله تعالى فهو اعتراض بين الكلامين وهو الثابت مع التأمل، وقراءة التشـديد فى « ألّا » تعطى أن الكلام للهدهد ، وقراءة التخفيف تمنعه ، والتخفيف يقتضى الأمر بالسجود لله عز وجل للأمر على ما بيناه . وقال الزمخشرى : فإن قلت أسجدة التلاوة واجبة فى القراءتين جميعا أم فى إحداهما؟ قلت : هى واجبة فيهما جميعا؛لأن مواضع السجدة إمّا أمرٌ بها، أو مدحٌ لمن أتى بها ، أو ذمٌّ [لمن](١) تركها ، و إحدى القـراءتين أمر بالسجود والأخرى ذم للتارك .

قلت : وقد أخبر الله عن الكفار بأنهم لا يسجدون كما فى « الانشقاق » وسجد النبي صلى الله عليه وسلم فيها، كما ثبت فى البخارى وغيره، فكذلك « النمل » . والله أعلم . الزمخشرى : وما ذكره الزجاج من وجوب السـجدة مع التخفيف دون التشديد فغـير مرجوع إليـه .

﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ خَبْء السماء قَطْرها، وخَبْء الأرض كنوزها ونباتها . وقال قتادة: الخبء السر . النحاس : وهـذا أولى . أى ما غاب فى السموات والأرض ، و يدل عليـه « مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ »(٢) . وقرأ عكرمة ومالك بن دينار « الْخَبَ » بفتح الباء من غيرهمز . قال المهدوى : وهو التخفيف القياسى؛ وذكر من يترك الهمز فى الوقف . وقال النحاس :

---

(١) الزيادة من « الكشاف » .   (٢) فى نسخ الأصل بالياء؛ وهى قراءة العامة كما سيأتى .

Marfat.com

وحكى أبو حاتم أن عكرمة قرأ « الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبَا » بألف غير مهموزة، وزعم أن هذا لا يجوز في العربيـة ، واعتل بأنه إن خفّف الهمزة ألقى حركتها على الباء فقال « الْخَبَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » وأنه إن حوّل الهمزة قال الْخَبْيَ بإسكان البـاء و بعـدها ياء . قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : كان أبو حاتم دون أصحابه في النحو ولم يلحق بهم إلا أنه إذا خرج من بلده لم يلق أعلم منه . وحكى سيبويه عن العرب أنها تبدل من الهمزة ألفا إذا كان قبلها ساكن وكانت مفتوحة، وتبـدل منها واوا إذا كان قبلها ساكن وكانت مضمومة، وتبدل منها ياء إذا كان قبلها ساكن وكانت مكسورة ؛ فتقول : هذا الْوَثْوُ وعجبت من الوَثْيِ ورأيت الْوَثَا ؛ وهذا من وَثِئَت يده؛ وكذلك هذا الخَبْوُ وعجبت من الخَبْيِ ، ورأيت الخَبَا ؛ و إنمـا فعل هذا لأن الهمزة خفيفة فأبدل منها هذه الحروف . وحكى سيبويه عن قوم من بنى تميم و بنى أسد أنهم يقولون : هـذا الخَبُؤُ ؛ يضمون الساكن إذا كانت الهمزة مضمومة ، ويثبتون الهمزة و يكسرون الساكن إذا كانت الهمزة مكسـورة ، و يفتحون الساكن إذا كانت الهمزة مفتوحة . وحكى سيبويه أيضا أنهم يكسرون وإن كانت الهمزة مضمومة، إلا أن هـذا عن بنى تميم؛ فيقولون : الرِّدِئُ[1] ؛ وزعم أنهم لم يضموا الدال لأنهم كرهوا ضمة قبلها كسرة ؛ لأنه ليس فى الكلام فِعُلٌ . وهذه كلها لغات داخلة على اللغة التى قرأ بهـا الجماعة ؛ وفى قراءة عبـد الله « الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ مِنَ السَّمَوَاتِ » و« من » و « فى » يتعاقبان ؛ تقول العرب : لأستخرجنّ العلم فيكم يريد منكم ؛ قاله الفراء . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُـونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ قراءة العـامة فيهما بياء ، وهـذه القراءة تعطى أن الآية من كلام الهدهد ، وأن الله تعـالى خصه من المعرفة بتوحيده ووجوب السجود له ، و إنكار سجودهم للشمس ، و إضافتـه للشيطان ، وتزيينه لهم ، ما خص به غيره من الطيور وسائر الحيوان؛ من المعارف اللطيفة التى لا تكاد العقول الراجحة تهتدى لها . وقرأ الجَحْدَرىّ وعيسى بن عمر وحفص والكسائى « تُخْفُونَ » و« تُعْلِنُونَ » بالتاء على الخطاب ؛ وهذه القراءة تعطى أن الآية

(١) الرده بمعنى الصاحب .

Marfat.com

من خطاب الله عز وجل لأمة محمد صلى الله عليه وسلم. ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ قرأ آبن محيصن « العظيمُ » رفعا نعتا لله . الباقون بالخفض نعتا للعرش . وخص بالذكر لأنه أعظم المخلوقات وما عداه فى ضمنه وقبضته .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ سَنَنْظُرُ ﴾ من النظر الذى هو التأمل والتصفح . ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فى مقالتك . و « كنت » بمعنى أنت . وقال : « سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ » ولم يقل سننظر فى أمرك؛ لأن الهدهد لما صرح بفخر العلم فى قوله : « أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ » صرح له سليمان بقوله : سننظر أصدقت أم كذبت، فكان ذلك [كفاء][1] لما قاله .

الخامسة عشرة — فى قوله : « أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته ، ويدرأ العقوبة عنهم فى ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم ؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين آعتذر إليه . وإنما صار صدق الهدهد عذرا لأنه أخبر بما يقتضى الجهاد ، وكان سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد . وفى الصحيح : "ليس أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله من أجل ذلك أنزل الكتابَ وأرسل الرسل" . وقد قبل عمر عذر النعمان بن عدىّ ولم يعاقبه . ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة . كما فعل سليمان ؛ فإنه لما قال الهدهد : « إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » لم يستفزه الطمع ، ولا آستجزه حبّ الزيادة فى الملك إلى أن يعرض له حتى قال : « وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ » فغاظه حينئذ ما سمع ، وطلب الآنتهاء إلى ما أخبر ، وتحصيل علم ما غاب عنه من ذلك ، فقال : « سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » ونحو منه ما رواه الصحيح عن المِسْور بن مَخْرَمة ، حين آستشار عمر الناس فى إملاص المرأة وهى التى يضرب بطنها فتلقى جنينها ؛ فقال المغيرة بن شعبة : شهدت النبىّ صلى الله عليه وسلم قضى فيه بغُرّة عبد أو أمة . قال فقال عمر : آيتنى بمن يشهد معك؛ قال : فشهد له محمد بن مسلمة وفى رواية فقال : لا تبرح حتى تأتى بالمخرج

(١) فى الأصول «جفاء» والتصويب من «أحكام القرآن» لابن العربى .

Marfat.com

من ذلك ؛ فخرجت فوجدت محمد بن مسلمة فجئت به فشهد . ونحوه حديث أبي موسى في الاستئذان وغيره .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ قال الزجاج : فيها خمسة أوجه « فَأَلْقِهِي إِلَيْهِمْ » بإثبات الياء في اللفظ . وبحذف الياء وإثبات الكسرة دالة عليها « فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ » . وبضم الهاء وإثبات الواو على الأصل « فَأَلْقِهُو إِلَيْهِمْ » . وبحذف الواو وإثبات الضمة « فَأَلْقِهُ إِلَيْهِمْ » . واللغة الخامسة قرأ بها حمزة بإسكان الهاء « فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ » . قال النحاس : وهذا عند النحويين لا يجوز إلا على حيلة بعيدة تكون : يقدّر الوقف ؛ وسمعت علي بن سليمان يقول : لا تلتفت إلى هذه العلة ، ولو جاز أن يصل وهو ينوي الوقف لجاز أن يحذف الإعراب من الأسماء . وقال : « إِلَيْهِمْ » على لفظ الجمع ولم يقل إليها ؛ لأنه قال : « وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ » فكأنه قال : فألقه إلى الذين هذا دينهم ؛ اهتماما منه بأمر الدين ، واشتغالا به عن غيره ، وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك . وروى في قصص هذه الآية أن الهدهد وصل فألفى دون هذه الملكة حُجُبَ جدران ؛ فعمد إلى كُوّة كانت بلقيس صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لمعنى عبادتها إياها ، فدخل منها ورمى الكتاب على بلقيس وهي — فيما يروى — نائمة ؛ فلما انتبهت وجدته فراعها ، وظنت أنه قد دخل عليها أحد ، ثم قامت فوجدت حالها كما عهدت ، فنظرت إلى الكُوّة تَهمُّما بأمر الشمس ، فرأت الهدهد فعلمت . وقال وهب وابن زيد : كانت لها كُوّة مستقبلة مطلع الشمس ، فإذا طلعت سجدت ، فسدها الهدهد بجناحه ، فارتفعت الشمس ولم تعلم ، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى الصحيفة إليها ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت ، لأن ملك سليمان عليه السلام كان في خاتمه ؛ فقرأته فجمعت الملأ من قومها فخاطبتهم بما يأتي بعد . وقال مقاتل : حمل الهدهد الكتاب بمنقاره ، وطار حتى وقف على رأس المرأة وحولها الجنود والعساكر ، فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه ، فرفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها .

Marfat.com

السابعة عشرة — فى هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام. وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبّار؛ كما تقدّم فى «آل عمران»(١):

الثامنة عشرة — قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أمره بالتولى حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به مع الملوك. بمعنى: وكن قريبا حتى ترى مراجعتهم؛ قاله وهب بن منبّه. وقال ابن زيد: أمره بالتولى بمعنى الرجوع إليه؛ أى ألقه وارجع. قال وقوله: «فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ» فى معنى التقديم على قوله: «ثُمَّ تَوَلَّ» واتساق رتبة الكلام أظهر؛ أى ألقه ثم تول، وفى خلال ذلك فانظر أى انتظر. وقيل: فاعلم؛ كقوله: «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ» أى اعلم ماذا يرجعون أى يجيبون وماذا يردّون من القول. وقيل: «فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ» بينهم من الكلام.

قوله تعالى: قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

فيـــه ست مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ فى الكلام حذف؛ والمعنى: فذهب فألقاه إليهم فسمعها وهى تقول: «يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ» ثم وصفت الكتاب بالكريم إما لأنه من عند عظيم فى نفسها ونفوسهم فعظمته إجلالا لسليمان عليه السلام؛ وهـذا قول ابن زيد. وإما أنها أشارت إلى أنه مطبوع عليه بالخاتم، فكرامة الكتاب ختمه؛ وروى ذلك عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: لأنه بدأ فيه بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» وقد قال صلى الله عليه وسلم: "كل كلام لا يبـدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم". وقيل: لأنه بدأ

(١) راجع جـ ٤ ص ١٠٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

Marfat.com

فيه بنفسه ، ولا يفعل ذلك إلا الجلّة . وفى حديث آبن عمر أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه : من عبد الله لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين؛ إنى أقرّ لك بالسمع والطاعة ما آستطعت ، وإن بَنِيّ قد أقرّوا لك بذلك . وقيل : توهمت أنه كتاب جاء من السماء إذ كان الموصِّل طيرا . وقيل : « كريم » حسن؛ كقوله : « ومقامٍ كريمٍ » أى مجلس حسن . وقيل : وصفته بذلك؛ لما تضمن من لين القول والموعظة فى الدعاء إلى عبادة الله عز وجل ، وحسن الآستعطاف والآستلطاف من غير أن يتضمن سبًّا ولا لعنا ، ولا ما يغيِّر النفس ، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق ؛ على عادة الرسل فى الدعاء إلى الله عز وجل ؛ ألا ترى إلى قول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : « آدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » وقوله لموسى وهرون : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » . وكلها وجوه حسان وهذا أحسنها . وقد روى أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم أحد قبل سليمان . وفى قراءة [عبد الله] (١) « وَإِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ » بزيادة واو .

الثانيـــة — الوصـف بالكريم فى الكتاب غاية الوصـف ؛ ألا ترى قوله تعـالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير وبالأثير وبالمبرور ؛ فإن كان لملك قالوا : العزيز وأسقطوا الكريم غفلة ، وهو أفضلها خصلة. فأما الوصف بالعزيز فقد وصف به القرآن فى قوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » فهذه عزته وليست لأحد إلا له ؛ فاجتنبوها فى كتبكم ، وآجعلوا بدلها العالى؛ توفية لحق الولاية ، وحياطة للديانة ؛ قاله القاضى أبو بكر بن العربى .

الثالثـــة — كان رسم المتقدّمين إذا كتبوا أن يبـدءوا بأنفسهم من فلان إلى فلان ، وبذلك جاءت الآثار . وروى الربيـع عن أنس قال : ماكان أحد أعظم حرمـة من النبى صلى الله عليه وسـلم ، وكان أصحابه إذا كتبوا بدءوا بأنفسهم . وقال آبن سـيرين قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن أهل فارس إذا كتبوا بدءوا بعظمائهم فلا يبدأ الرجل إلا بنفسه "

(١) فى الأصل : « وفى قراءة أبىّ » وهو مخالف لما عليه كتب التفسير ، فالمروى عن أبىّ أنه قرأ « أن من سليمان وأن بسم الله الرحمن الرحيم » بفتح الهمزة وتخفيف النون وحذف الهاء .

Marfat.com

قال أبو الليث فى كتاب «البستان» له: ولو بدأ بالمكتوب إليه جاز؛ لأن الأمة قد ٱجتمعت عليه وفعلوه لمصلحة رأوا فى ذلك، أو نسخ ما كان من قبل؛ فالأحسن فى زماننا هذا أن يبدأ بالمكتوب إليه، ثم بنفسه؛ لأن البداية بنفسه تُعَدّ منه ٱستخفافا بالمكتوب [إليه][1] وتكبّرا عليه؛ إلا أن يكتب إلى عبد من عبيده، أو غلام من غلمانه.

الرابعـة — وإذا ورد على إنسان كتاب بالتحية أو نحوها ينبغى أن يرد الجواب؛ لأن الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر. وروى عن ٱبن عباس أنه كان يرى رد الكتاب واجبا كما يرى رد السلام. والله أعلم.

الخامسـة — ٱتفقوا على كتب «بسم الله الرحمن الرحيم» فى أوّل الكتب والرسائل، وعلى ختمها؛ لأنه أبعد من الريبة، وعلى هـذا جرى الرسم، وبه جاء الأثر عن عمر بن الخطاب أنه قال: أيما كتاب لم يكن مختوما فهو أغلف. وفى الحديث: "كَرَمُ الكتاب خَتْمه". وقال بعض الأدباء، هو ٱبن المقفع: من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد ٱستخف به؛ لأن الختم ختم. وقال أنس: لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى العجم قيل له: إنهم لا يقبلون إلا كتابا عليه ختم؛ فٱصطنع خاتما ونقش على فصه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وكأنى أنظر إلى وَبِيصه[2] وبياضه فى كفّه.

السادسـة — قوله تعالى: «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ» «وإنّه» بالكسر فيهما أى وإن الكلام، أو إن مبتدأ الكلام «بسم الله الرحمن الرحيم». وأجاز الفراء «أَنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَأَنَّهُ» بفتحهما جميعا على أن يكونا فى موضع رفع بدل من الكتاب؛ بمعنى ألقى إلىّ أنه من سليمان. وأجاز أن يكونا فى موضع نصب على حذف الخافض؛ أى لأنه من سليمان ولأنه؛ كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره بسم الله. وقرأ الأشهب العُقَيلىّ ومحمد بن السَّمَيْقَع «أَلَّا تَغْلُوا» بالغين المعجمة؛ وروى عن وهب بن منبّه؛ من غلا يغلو إذا تجاوز وتكبّر. وهى راجعة إلى معنى قراءة الجماعة. «وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ» أى منقادين طائعين مؤمنين.

(١) زيادة يقتضيها المقام.   (٢) الوبيص: البريق واللمعان.

Marfat.com

قوله تعالى : قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى ﴾ الملأ أشراف القوم وقد مضى فى سورة « البقرة »[1] القول فيه . قال ابن عباس : كان معها ألف قَيْل . وقيل : اثنا عشر ألف قَيْل مع كل قَيْل مائة ألف . والقَيْل الملك دون الملك الأعظم . فأخذت فى حسن الأدب مع قومها ، ومشاورتهم فى أمرها ، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها فى كل أمر يعرض ، بقولها : ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ فكيف فى هذه النازلة الكبرى . فراجعها الملأ بما يقر عينها ، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس ، ثم سلّموا الأمر إلى نظرها ؛ وهذه محاورة حسنة من الجميع . قال قتادة : ذكر لنا أنه كان لها ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا هم أهل مشورتها ، كل رجل منهم على عشرة آلاف .

الثانيــة — فى هذه الآية دليل على صحة المشاورة . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ » فى « آل عمران » إما استعانة بالآراء ، وإما مداراة للأولياء . وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله : « وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ » . والمشاورة من الأمر القديم وخاصة فى الحرب ؛ فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس : « قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ » لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم ، وإمضاءهم على الطاعة لها ، بعلمها بأنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها ، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجِدّهم كان ذلك عونا لعدوهم عليهم ، وإن لم تختبر ما عندهم ، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

من أمرهم ، وربما كان فى ٱستبدادها برأيها وهن فى طاعتها ، ودخيلة فى تقدير أمرهم ، وكان فى مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم ، وشدة مدافعتهم؛ ألا ترى إلى قولهم فى جوابهم : ﴿ نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ . قال ٱبن عباس : كان من قوة أحدهم أنه يركض فرسه حتى إذا ٱحتدّ ضمّ فخذيه فحبسه بقوته .

الثالثــة ــ قوله تعــالى : ﴿ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْـكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ سـلّموا الأمر إلى نظرها مع ما أظهروا لهـا من القوة والبأس والشدّة ، فلمـا فعلوا ذلك أخبرت عند ذلك بفعل الملوك بالقُرى التى يتغلبون عليها . وفى هذا الكلام خوف على قومها ، وحيطة وٱستعظام لأمر سليمان عليه السلام . ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ قيل : هو من قول بلقيس تأكيدا للمعنى الذى أرادته . وقال ٱبن عباس : هو من قول الله عز وجل معرِّفا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته بذلك ومخبرا به . وقال وهب : لمـا قرأت عليهـم الكتاب لم تعـرف اسم الله ، فقالت : ما هذا ؟ ! فقال بعض القوم : ما نظن هذا إلا عفريتا عظيما من الجن يقتدر به هذا الملك على ما يريده ؛ فسكّتوه . وقال الآخر : أُراهم ثلاثة من العفاريت ؛ فسكّتوه ؛ فقال شاب قد علم : ياسيدة الملوك ! إن سليمان ملِك قد أعطاه ملِكُ السماء مُلْكا عظيما فهو لا يتكلم بكلمة إلا بدأ فيهـا بتسمية إلهه ، والله اسم مليك السماء ، والرحمن الرحيم نعوته ؛ فعندها قالت : « أَفْتُونِى فِى أَمْرِى » فقالوا : « نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ » فى القتال « وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ » فى الحرب واللقاء « وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ » ردّوا أمرهم إليها لمـا جربوا على رأيهـا من البركة « فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ » فـ « قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » أهانوا شرفاءها لتستقيم لهم الأمور ، فصدق الله قولهـا . « وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ » قال ابن الأنبارى : « وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » هذا وقف تام ؛ فقال الله عز وجل تحقيقا لقولها : « وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ » وشبيه به فى سورة « الأعراف » « قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ » تم الكلام ، فقال فرعون : « فَمَاذَا تَأْمُرُونَ » . وقال ٱبن شجرة : هو قول بلقيس ، فالوقف « وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ » أى وكذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا .

Marfat.com

قوله تعالى : وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ﴾ هذا من حسن نظرها وتدبيرها ؛ أى إنى أجرب هذا الرجل بهدية ، وأعطيه فيها نفائس من الأموال ، وأغرب عليه بأمور المملكة ، فإن كان ملكا دنياويا أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك ، وإن كان نبيا لم يرضه المال ولازمنا فى أمر الدين ، فينبغى لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه ، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر الناس فى تفصيلها ، فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : أرسلت إليه بلبنة من ذهب ، فرأت الرسل الحيطان من ذهب فصغر عندهم ما جاءوا به . وقال مجاهد : أرسلت إليه بمائتى غلام ومائتى جارية . وروى عن ابن عباس : باثنى عشرة وصيفة مذكرين قد ألبستهم زى الغلمان ، واثنى عشر غلاما مؤنثين قد ألبستهم زى النساء ، وعلى يد الوصائف أطباق مسك وعنبر ، وباثنى عشرة نجيبة تحمل لبن الذهب ، وبخرزتين إحداهما غير مثقوبة ، والأخرى مثقوبة ثقبا معوجا ، وبقدح لا شىء فيه ، وبعصا كان يتوارثها ملوك حمير ، وأنفذت الهدية مع جماعة من قومها . وقيل : كان الرسول واحدا ولكن كان فى صحبته أتباع وخدم . وقيل : أرسلت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو ، وضمت إليه رجالا ذوى رأى وعقل . والهدية مائة وصيف ومائة وصيفة ، قد خولف بينهم فى اللباس ، وقالت [illegible]ان : إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث يشبه كلام النساء ، وقالت للجوارى : كلمنه بـ[illegible]م فيه غلظ يشبه كلام الرجال ؛ فيقال : إن الهدهد جاء وأخبر سليمان بذلك كله . و[illegible] إن الله أخبر سليمان بذلك ، فأمر سليمان عليه السلام أن يبسط من موضعه إلى تسع فراسخ بلبنات الذهب والفضة ، ثم قال : أى الدواب رأيتم أحسن فى البر والبحر؟ قالوا : يا نبى الله رأينا فى بحر كذا دواب منقطة مختلفة ألوانها ، لها أجنحة وأعراف ونواصى ؛ فأمر بها فجاءت فشدت على يمين الميدان وعلى يساره ، وعلى لبنات الذهب والفضة ، وألقوا لها علوفاتها ؛ ثم قال : للجن على بأولادكم ؛ فأقامهم — أحسن ما يكون من الشباب — عن يمين

Marfat.com

الميدان ويساره . ثم قعد سليمان عليه السلام على كرسيه فى مجلسه، ووضع له أربعة آلاف كرسيّ من ذهب عن يمينه ومثلها عن يساره، وأجلس عليها الأنبياء والعلماء، وأمر الشياطين والجن والإنس أن يصطفوا صفوفا فراسخ، وأمر السباع والوحوش والهوام والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله، فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى مُلك سليمان، ورأوا الدواب التى لم ترأعينهم أحسن منها تَروث على لبِنات الذهب والفضة، تقاصرت إليهم أنفسهم، ورموا ما معهم من الهدايا . وفى بعض الروايات : إن سليمان لما أمرهم بفرش الميدان بلبِنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعا على قدر موضع بساط من الأرض غير مفروش، فلما مروا به خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم فى ذلك المكان، فلما رأوا الشياطين رأوا منظرا هائلا فظيعا ففزعوا وخافوا، فقالت لهم الشياطين : جُوزُوا لا بأس عليكم؛ فكانوا يمرون على كُرْدُوس كُرْدُوس من الجنّ والإنس والبهائم والطير والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدى سليمان، فنظر إليهم سليمان نظرا حسنا بوجه طَلْق، وكانت قالت لرسولها : إن نظر إليك نظر مغضَب فاعلم أنه ملِك فلا يهولنك منظره فأنا أعز منه، وإن رأيت الرجل بشًّا لطيفا فآعلم أنه نبيّ مرسل فتفهم قوله وردّ الجواب، فأخبر الهدهد سليمان بذلك على ماتقدّم . وكانت عمدت إلى حُقَّة من ذهب فجعلت فيها درّة يتيمة غير مثقوبة، وخرزة معوجة الثُّقب، وكتبت كتابا مع رسولها تقول فيه : إن كنت نبيًّا فميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما فى الحُقَّة، وعرفنى رأس العصا من أسفلها، وآثقب الدرّة ثَقْبا مستويا، وأدخل خيط الخرزة، وآملأ القدح ماء من ندى ليس من الأرض ولا من السماء؛ فلما وصل الرسول ووقف بين يدى سليمان أعطاه كتاب الملكة فنظر فيه، وقال : أين الحُقَّة؟ فأتى بها فحركها، فأخبره جبريل بما فيها، ثم أخبرهم سليمان . فقال له الرسول : صدقت؛ فآثقب الدرّة، وأدخل الخيط فى الخرَزة؛ فسأل سليمان الجن والإنس عن ثَقْبها فعجزوا؛ فقال للشياطين : ما الرأى فيها ؟ فقالوا : ترسل إلى الأَرَضة، فجاءت الأَرَضة فأخذت شعرة فى فيها حتى خرجت من الجانب الآخر؛ فقال لها سليمان : ما حاجتك؟ قالت : تصيِّر رزقى فى الشجر؛

Marfat.com

فقال لها: لكِ ذلك . ثم قال سليمان : من لهذه الخرَزة يسلكها الخيط؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا نبيّ الله؛ فأخذت الدودة الخيط فى فيها ودخلت الثُّقْب حتى خرجت من الجانب الآخر؛ فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ قالت تجعل رزقى فى الفواكه؛ قال : ذلك لكِ. ثم ميّز بين الغلمان [والجوارى][(١)]. قال السدىّ: أمرهم بالوضوء، فجعل الرجل يحدر الماء على اليد والرجل حَدْرا ، وجعل الجوارى يصببن من اليد اليسرى على اليد اليمنى، ومن اليمنى على اليسرى ، فميز بينهم بهذا . وقيل : كانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ، ثم تحمله على الأخرى، ثم تضرب به على الوجه؛ والغلام كان يأخذ الماء من الآنية يضرب به فى الوجه ، والجارية تصب على بطن ساعدها ، والغلام على ظهر الساعد ، والجارية تصب الماء صبا ، والغلام يحدر على يديه؛ فميز بينهم بهذا . وروى يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير قال: أرسلت بلقيس بمائة وصيفة ووصيف، وقالت: إن كان نبيا فسيعلم الذكور من الإناث؛ فأمرهم فتوضئوا ؛ فمن توضأ منهم فبدأ بمرفقه قبل كفّه قال هو من الإناث، ومن بدأ بكفه قبل مرفقه قال هو من الذكور؛ ثم أرسل العصا إلى الهواء فقال: أى الرأسين سبق إلى الأرض فهو أصلها، وأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها، ثم رد سليمان الهدية؛ فروى أنه لما صرف الهدية إليها وأخبرها رسولها بما شاهد؛ قالت لقومها: هذا أمر من السماء.

الثانيــة ــ كان النبى صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية و يثيب عليها ولا يقبل الصدقة، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . و إنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردّها علامة على مافى نفسها؛ على ماذكرناه من كون سليمان ملكا أو نبيا؛ لأنه قال لها فى كتابه : « أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ » وهذا لا تقبل فيه فدية، ولا يؤخذ عنه هدية، وليس هذا من الباب الذى تقرر فى الشريعة عن قبول الهدية بسبيل ، و إنما هى رشوة و بيع الحق بالباطل، وهى الرشوة التى لاتحل . وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال، وهذا ما لم يكن من مشرك .

(١) الزيادة من « قصص الأنبياء » للثعلبى .

الثالثة — فإن كانت من مشرك ففى الحديث "نُهيت عن زَبْد المشركين" يعنى رِفدهم وعطاياهم. وروى عنه عليه السلام أنه قبلها كما فى حديث مالك عن ثور بن زيد الدِّيلى وغيره، فقال جماعة من العلماء بالنسخ فيهما، وقال آخرون: ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، والمعنى فيها: أنه كان لا يقبل هدية من يطمع بالظهور عليه وأخذ بلده ودخوله فى الإسلام، وبهذه الصفة كانت حالة سليمان عليه السلام، فعن مثل هذا نهى أن تقبل هديته حملا على الكفّ عنه؛ وهذا أحسن تأويل للعلماء فى هذا؛ فإنه جمع بين الأحاديث. وقيل غير هذا.

الرابعة — الهدية مندوب إليها، وهى مما تورث المودة وتذهب العداوة؛ روى مالك عن عطاء بن عبد الله الخراسانى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تَصافحوا يَذهب الغِلّ وتَهادوا تحابُّوا وتَذهب الشَّحناء". وروى معاوية بن الحكم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "تهادوا فإنه يضعِّف الودّ ويذهب بغوائل الصَّدر". وقال الدارقطنى: تفرد به آبن بُجَير عن أبيه عن مالك، ولم يكن بالرضىّ؛ ولا يصح عن مالك ولا عن الزهرى. وعن آبن شهاب قال: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تهادوا بينكم فإن الهدية تُذهب السَّخيمة" قال آبن وهب: سألت يونس عن السَّخيمة ما هى فقال: الغلّ. وهذا الحديث وصله الوقّاصى عثمان عن الزهرى وهو ضعيف. وعلى الجملة: فقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية، وفيه الأسوة الحسنة. ومن فضل الهدية مع آتباع السنة أنها تزيل حزازات النفوس، وتكسب المهدى والمهدَى إليه رنّة فى اللقاء والجلوس. ولقد أحسن من قال:

هدايا الناس بعضهم لبعض * تُولِّد فى قلوبهمُ الوِصالَا
وتَزرعُ فى الضمير هَوًى ووُدًّا * وتُكسبهمْ إذا حضروا جَمالَا

آخر:

إنّ الهدايا لها حظٌّ إذا وَرَدتْ * أحظى من الابن عند الوالد الحدب

الخامسة — روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "جلساؤكم شركاؤكم فى الهدية" واختلف فى معناه؛ فقيل: هو محمول على ظاهره. وقيل يشاركهم على وجه

Marfat.com

الكرم والمروءة ، فإن لم يفعل فلا يجبر عليه . وقال أبو يوسف : ذلك فى الفواكه ونحوها . وقال بعضهم : هم شركاؤه فى السرور لا فى الهدية . والخبر محمول فى أمثال أصحاب الصُّفّة والخوانق والرباطات؛ أما إذا كان فقيها من الفقهاء آختص بها فلا شركة فيها لأصحابه؛ فإن أشركهم فذلك كرم وجود منه .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَنَاظِرَةٌ ﴾ أى منتظرة ﴿ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ قال قتادة : يرحمها الله أن كانت لعاقلة فى إسلامها وشركها؛ قد علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس . وسقطت الألف فى « بم » للفرق بين « ما » الخبرية . وقد يجوز إثباتها؛ قال(١) :

على ما قام يشتمنى لئيمٌ * كخنزير تمرّغ فى رمادِ

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ ﴾ أى جاء الرسول سليمان بالهدية قال : « أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ » . قرأ حمزة ويعقوب والأعمش بنون واحدة مشدّدة وياء ثابتة بعدها .

(١) هو حسان بن المنذر يهجو بنى عائذ بن عمرو بن مخزوم وقبله :

وإن تصلح فإنك عائذىّ * وصلح العائذىّ إلى فساد

Marfat.com

الباقون بنونين وهو آختيار أبي عبيد ؛ لأنهـا فى كل المصاحف بنونين . وقـد روى إسحق عن نافع أنه كان يقـرأ : « أَتُمِدُّونِ » بنون واحدة مخففة بعـدها ياء فى اللفظ . قال ابن الأنبارى : فهـذه القراءة يجب فيها إثبات الياء عنـد الوقف ، ليصح لهـا موافقة هجاء المصحف . والأصـل فى النون التشديد، نخفف التشديد من ذا الموضـع كما خفف من : أشهد أنك عالم؛ وأصله : أنّك عالم . وعلى هـذا المعنى بنى الذى قـرأ « يُشَاقُّونِ فِيهِم » ، « أَتُحَاجُّونِ فِي اللهِ » . وقد قالت العرب : الرجال يضربونِ ويقصدونِ، وأصله يضربوننى ويقصدوننى؛ لأنه إدغام يضربوننى ويقصدوننى قال الشاعر :

تَرْهبينِ والجِيدُ منكِ لِلَيْلَى * والحَشَـا والبُغَامُ(١) والعينانِ

والأصل ترهبيني نخفف . ومعنى « أَتُمِدُّونَنِي » أتزيدوننى مالا إلى ما تشاهدونه من أموالى .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ﴾ أى فما أعطانى من الإسلام والملك والنبوة خير ممـا أعطاكم ، فلا أفرح بالمـال . و « آتانِ » وقعت فى كل المصاحف بغير ياء . وقرأ أبو عمـرو ونافع وحفص « آتَانِيَ اللهُ » بيـاء مفتوحة ؛ فإذا وقفوا حذفوا . وأما يعقوب فإنه يثبتها فى الوقف ويحذف فى الوصـل لالتقاء السـاكنين . الباقون بغير ياء فى الحالين . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة فى الدنيا .

قوله تعـالى : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أى قال سليمان للمنذر بن عمرو أمير الوفد : آرجع إليهم بهديتهم . ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ لام قسم والنون لهـا لازمة . قال النحاس : وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول : هى لام توكيد وكذا كان عنده أن اللامات كلها ثلاث لا غير؛ لام توكيد، ولام أمر، ولام خفض؛ وهذا قول الحذاق من النحويين؛ لأنهم يردّون الشيء إلى أصله ؛ وهـذا لا يتهيأ إلا لمن درب فى العربية . ومعنى « لَا قِبَـلَ لَهُمْ بِهَـا » أى لا طاقة لهم عليهـا . ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَـا ﴾ أى من أرضهم ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ . وقيل : « منها » أى من قرية سبأ . وقد سبق ذكر القرية فى قوله : « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا

---

(١) بغام الظبية : صوتها .

Marfat.com

قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا » . « أَذِلَّةً » قد سُلبوا ملكهم وعزهم . « وَهُمْ صَاغِرُونَ » أى مهانون أذلاء من الصّغر وهو الذل إن لم يسلموا ؛ فرجع إليها رسولها فأخبرها؛ فقالت : قد عرفت أنه ليس بملك ولا طاقة لنا بقتال نبيّ من أنبياء الله . ثم أمرت بعرشها فجعل فى سبعة أبيات بعضها فى جوف بعض ؛ فى آخر قصر من سبعة قصور ؛ وغلقت الأبواب، وجعلت الحرس عليه ، وتوجهت إليه فى آثنى عشر ألف قَيْل من ملوك اليمن ، تحت كل قَيْل مائة ألف . قال آبن عباس : وكان سليمان مهيبا لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذى يسأل عنه؛ فنظر ذات يوم رهجا(١) قريبا منه، فقال : ما هذا؟ فقالوا : بلقيس يا نبيّ الله . فقال سليمان لجنوده — وقال وهب وغيره للجن — ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وقال عبد الله بن شداد . كانت بلقيس على فرسخ من سليمان لما قال : «أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا» وكانت خلفت عرشها بسبأ، و وكلت به حفظة . وقيل : إنها لما بعثت بالهدية بعثت رسلها فى جندها لتغافص(٢) سليمان عليه السلام بالقتل قبل أن يتأهب سليمان لها إن كان طالب ملك، فلما علم ذلك قال : « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا » . قال آبن عباس : كان أمره بالإتيان بالعرش قبل أن يكتب الكتاب إليها، ولم يكتب إليها حتى جاءه العرش . وقال آبن عطية : وظاهر الآيات أن هذه المقالة من سليمان عليه السلام بعد مجيء هديتها وردّه إياها ، و بعثه الهدهد بالكتاب؛ وعلى هذا جمهور المتأولين . وآختلفوا فى فائدة آستدعاء عرشها ؛ فقال قتادة : ذكر له بعظم وجَوْدة؛ فأراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويحمى أموالهم؛ والإسلام على هذا الدِّين؛ وهو قول آبن جريج . وقال آبن زيد : آستدعاه ليريها القدرة التى هى من عند الله، ويجعله دليلا على نبوته ؛ لأخذه من بيوتها دون جيش ولا حرب؛ و « مُسْلِمِينَ » على هذا التأويل بمعنى مستسلمين؛ وهو قول آبن عباس . وقال آبن زيد أيضا : أراد أن يختبر عقلها ولهذا قال : « نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِى » . وقيل : خافت الجن أن يتزوج بها سليمان عليه السلام فيولد له منها، فلا يزالون فى السخرة والخدمة لنسل سليمان فقالت لسليمان

(١) الرهج : الغبار . (٢) المغافصة : الأخذ على غرة .

Marfat.com

فى عقلها خلل؛ فأراد أن يمتحنها بعرشها ، وقيل : [أراد] أن يختبر صدق الهدهد فى قوله : « وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » قاله الطبرى . وعن قتادة : أحب أن يراه لما وصفه الهدهد . والقول الأوّل عليه أكثر العلماء؛ لقوله تعالى: « قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ » .ولأنها لو أسلمت لحظر عليه مالها فلا يؤتى به إلا بإذنها . روى أنه كان من فضة وذهب مرصعا بالياقوت الأحمر والجوهر، وأنه كان فى جوف سبعة أبيات عليه سبعة أغلاق .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ كذا قرأ الجمهور وقرأ أبو رجاء وعيسى الثقفى « عِفْرِيَةٌ » ورويت عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وفى الحديث : "إن الله يُبغض العِفرِيَةَ النِّفرِيَةَ" . إتباع لعفرية . قال قتادة : هى الداهية . قال النحاس : يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء عِفر وعِفرية وعِفريت وعُفَارِية . وقيل « عفريت » أى رئيس . وقرأت فرقة « قَالَ عِفْرٌ » بكسر العين؛ حكاه ابن عطية؛ قال النحاس : من قال عفرية جمعه على عفارٍ، ومن قال عفريت كان له فى الجمع ثلاثة أوجه ؛ إن شاء قال عفاريت ، وإن شاء قال عَفارٍ؛ لأن التاء زائدة؛ كما يقال طواغٍ فى جمع طاغوت ، وإن شاء عوض من التاء ياء فقال عَفارِى . والعفريت من الشياطين القوى المارد . والتاء زائدة . وقد قالوا تَعَفْرَتَ الرجل إذا تخلق بخلق الأذاية . وقال وهب بن منبه : اسم هذا العفريت كودن ؛ ذكره النحاس . وقيل : ذكوان؛ ذكره السهيلى . وقال شعيب الجُبَّائى : اسمه دعوان . وروى عن ابن عباس أنه صخر الجنى . ومن هذا الاسم قول ذى الرُّمَّة :

كأنّه كوكبٌ فى إِثْرِ عِفْرِيَةٍ * مُصَوَّبٌ (١) فى سوادِ الليل مُنْقَضِبُ

وأنشد الكسائى (٢) :

إذ قال شيطانُهُم العِفْرِيتُ * ليس لكُمْ مُلْكٌ ولا تَثْبِيتُ

---

(١) وفى ديوانه طبع أوربا « مسوّم » بدل « مصوب » وهو بمعنى معلم منقضب والبيت فى وصف ثور وحشى ؛ كأن الثور كوكب مصوب منقضب فى إثر عفرية فى سواد الليل . (٢) البيت لرؤبة من قصيدة يمدح بها مسلمة بن عبد الملك .

Marfat.com

وفى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن عفريتا من الجن جعل يَفتِك[1] عليّ البارحة ليقطع على الصلاةَ وإن الله أمكننى منه فَدَعَتُّه[2] " وذكر الحديث . وفى البخارى " تفلّت[3] على البارحة " مكان " جعل يفتك " . وفى " الموطأ " عن يحيى ابن سعيد أنه قال : أُسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار ، كلما التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه ؛ فقال جبريل : أفلا أعلّمك كلماتٍ تقولهنّ إذا قلتهنّ طُفِئت شعلته وخَرّ لفيه ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بلى " فقال : " أعوذ بالله الكريم وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر من شرّ ما ينزل من السماء وشرّ ما يَعرُج فيها [وشرّ ما ذرأ فى الأرض، وشرّ ما يخرج منها][4] ومن فِتن الليل والنهار ومن طوارقِ الليل والنهار إلا طارقا يَطرُق بخيرٍ يارحمن " .

قوله تعالى: ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ يعنى فى مجلسه الذى يحكم فيه. ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ أى قوىٌّ على حمله . « أَمِينٌ » على ما فيه . ابن عباس : أمين على فرج المرأة؛ ذكره المهدوى . فقال : سليمان أريد أسرع من ذلك؛ فـ﴿ قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أكثر المفسرين على أن الذى عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا وهو من بنى إسرائيل ، وكان صدّيقا يحفظ اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أَعطى ، وإذا دعى به أجاب . وقالت عائشة رضى الله عنها قال النبى صلى الله عليه وسلم "إن آسم الله الأعظم الذى دعا به آصف بن برخيا يا حىّ يا قيّوم" قيل : وهو بلسانهم، أهيا شراهيا؛ وقال الزهرى : دعاء الذى عنده آسم الله الأعظم؛ يا إلهنا وإله كل شىء إلها واحدا لا إله إلا أنت آيتنى بعرشها ؛ فمثل بين يديه . وقال مجاهد : دعا فقال : يا إلهنا وإله كل شىء ياذا الجلال والإكرام . قال السُّهَيْلىّ : الذى عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا ابن خالة سليمان؛ وكان عنده آسم الله الأعظم من أسماء الله تعالى.

---

(١) الفتك : الأخذ فى غفلة وخديعة . (٢) فدعته : أى دفعته دفعا شديدا . وفى رواية " فذعته " بالذال المعجمة ومعناه خنقته . (٣) "تفلت" : أي تعرض لى فلتة أى بغتة . (٤) الزيادة من (الموطأ) .

وقيل : هو سليمان نفسه ؛ ولا يصح فى سياق الكلام مثل هـذا التأويل . قال آبن عطية : وقالت فرقة هو سليمان عليـه السلام ، والمخاطبة فى هـذا التأويل للعفريت لمـا قال : « أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ » كأن سليمان آستبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره : « أَنَا آتِيـكَ بِهِ قَبْـلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَـرْفُكَ » وآستدل قائلو هـذه المقالة بقول سليمان : « هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى » .

قلت : ما ذكره آبن عطيـة قاله النحاس فى معانى القرآن له ، وهو قول حسن إن شاء الله تعـالى . قال بحر : هو مَلَك بيـده كتاب المقادير، أرسـله الله عند قول العفريت . قال السُّهيلىّ : وذكر محمـد بن الحسن المقرئ أنه ضَـبَّة بن أُدّ ؛ وهذا لا يصح البتة لأن ضَبَّة هو ابن أُدّ بن طابخـة ، وآسمه عمرو بن الياس بن مُضر بن نِزار بن مَعدّ ، ومَعدّ كان فى مدة بختنصر ، وذلك بعد عهد سليمان بدهر طويل ؛ فإذا لم يكن معدّ فى عهـد سليمان ، فكيف ضَبّة بن أُدّ وهو بعـده بخمسة آباء ؟ ! وهـذا بيّن لمن تأمله . ابن لَهِيعة : هو الخضر عليـه السـلام . وقال ابن زيد : الذى عنده علم من الكتاب رجل صالح كان فى جزيرة من جزائر البحر، خرج ذلك اليوم ينظر من ساكن الأرض ؟ وهل يعبـد الله أم لا ؟ فوجد سليمان ، فدعا بآسم من أسماء الله تعالى بجىء بالعـرش . وقول سابع : إنه رجل من بنى إسرائيل آسمه يمليخا كان يعـلم آسم الله الأعظم؛ ذكره القشـيرىّ . وقال ابن أبى بزة : الرجل الذى كان عنـده علم من الكتاب اسمـه أسطوم وكان عابدا فى بنى إسرائيـل ؛ ذكره الغزنوى . وقال محمد بن المنكدر : إنمـا هو سليمان عليه السلام ؛ أما إن الناس يرون أنه كان معه اسم وليس ذلك كذلك ؛ إنمـا كان رجل من بنى إسرائيـل عالم آتاه الله علما وفقها قال : « أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْـلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْـكَ طَرْفُكَ » قال : هات . قال : أنت نبىّ الله آبن نبى الله فإن دعوت الله جاءك به ، فدعا الله سـليمان فجاءه الله بالعرش . وقول ثامن : إنه جبريل عليـه السلام؛ قاله النخعى؛ و روى عن آبن عباس . وعلم الكتاب على هذا علمه بكتب الله المنزلة ، أو بمـا فى اللوح المحفوظ . وقيل : علم كتاب سليمان إلى بلقيس . قال آبن عطية : والذى

Marfat.com

عليـه الجمهور من الناس أنه رجل صالح من بنى إسرائيـل ٱسمه آصف بن برخيا ؛ روى أنه صـلى ركعتين، ثم قال لسليمان : يا نبىّ الله آمدد بصرك فمدّ بصره نحو اليمن فإذا بالعرش ، فما ردّ سـليمان بصره إلا وهو عنـده . قال مجاهـد : هو إدامة النظر حتى يرتد طرفه خاسئا حسيرا . وقيـل : أراد مقـدار ما يفتح عينه ثم يطرف، وهو كما تقول : آفعل كذا فى لحظة عين ؛ وهذا أشبه؛ لأنه إن كان الفعل من سليمان فهو معجزة ، و إن كان من آصف أو من غيره من أوليـاء الله فهى كرامة ، وكرامة الولىّ معجزة النبيّ . قال القشـيرىّ : وقد أنكر كرامات الأوليـاء من قال إن الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان، قال للعفريت : « أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » . وعند هؤلاء ما فعل العفريت فليس من المعجزات ولا من الكرامات ، فإن الجن يقـدرون على مثل هـذا . ولا يقطع جوهر فى حال واحدة مكانين، بل يتصوّر ذلك بأن يعدم الله الجوهر فى أقصى الشرق ثم يعيـده فى الحالة الثانية، وهى الحالة التى بعد العـدم فى أقصى الغرب . أو يعدم الأماكن المتوسطة ثم يعيدها . قال القشيرىّ : ورواه وهب عن مالك . وقد قيل : بل جىء به فى الهواء؛ قاله مجاهد . وكان بين سليمان والعرش كما بين الكوفة والحيرة . وقال مالك : كانت باليمن وسليمان عليـه السلام بالشام . وفى التفاسير آنخرق بعرش بلقيس مكانه الذى هو فيه ثم نبع بين يدى سليمان ؛ قال عبد الله بن شدّاد : وظهر العرش من نفق تحت الأرض؛ فالله أعلم أىّ ذلك كان .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾ أى ثابتا عنده . ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى ﴾ أى هذا النصر والتمكين من فضل ربى . ﴿ لِيَبْلُوَنِى ﴾ قال الأخفش : المعنى لينظر ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ . وقال غيره : معنى « لِيَبْلُوَنِى » ليتعبدنى ؛ وهو مجاز . والأصـل فى الابتلاء الاختبار أى ليختبرنى أأشكر نعمته أم أكفرها ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى لا يرجع نفع ذلك إلا إلى نفسه، حيث آستوجب بشكره تمام النعمة ودوامها ، والمزيد منها . والشكر قيـد النعمة الموجودة ، و به تنـال النعمة المفقودة . ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ ﴾ أى عن الشكر ﴿ كَرِيمٌ ﴾ فى التفضل .

Marfat.com

قوله تعالى : قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ أى غيّروه . قيل : جعل أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه . وقيل : غيّر بزيادة أو نقصان . قال الفرّاء وغيره : إنما أمر بتنكيره لأن الشياطين قالوا له : إن فى عقلها شيئا فأراد أن يمتحنها . وقيل : خافت الجن أن يتزوّج بها سليمان فيولد له منها ولد فيبقون مسخّرين لآل سليمان أبدا ، فقالوا لسليمان : إنها ضعيفة العقل، ورجلها كرجل الحمار؛ فقال : « نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا » لنعرف عقلها . وكان لسليمان ناصح من الجن، فقال كيف لى أن أرى قدميها من غير أن أسألها كشفها ؟ فقال : أنا أجعل فى هذا القصر ماء ، وأجعل فوق الماء زجاجا ، تظن أنه ماء فترفع ثوبها فترى قدميها ؛ فهذا هو الصرح الذى أخبر الله تعالى عنه .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ ﴾ يريد بلقيس، ﴿ قِيلَ ﴾ لها ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ شبهته به لأنها خلفته تحت الأغلاق ، فلم تقر بذلك ولم تنكر ، فعلم سليمان كمال عقلها . قال عكرمة : كانت حكيمة فقالت « كَأَنَّهُ هُوَ » . وقال مقاتل : عرفته ولكن شبّهت عليهم كما شبّهوا عليها ؛ ولو قيل لها : أهذا عرشك لقالت نعم هو ؛ وقاله الحسن بن الفضل أيضا . وقيل : أراد سليمان أن يظهر لها أنّ الجن مسخّرون له ، وكذلك الشياطين لتعرف أنها نبوّة وتؤمن به . وقد قيل هذا فى مقابلة تعميتها الأمر فى باب الغلمان والجوارى . ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا ﴾ قيل : هو من قول بلقيس؛ أى أوتينا العلم بصحة نبوّة سليمان من قبل هذه الآية فى العرش ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين لأمره . وقيل : هو من قول سليمان أى أوتينا العلم

Marfat.com

بقدرة الله على ما يشاء من قبل هذه المرة . وقيل : « وَأُوتِينَا الْعِلْمَ » بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها . وقيل : هو من كلام قوم سليمان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ الوقف على « من دون الله » حسن؛ والمعنى : منعها من أن تعبد الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر. « ما » في موضع رفع . النحاس : المعنى ؛ أى صدها عبادتها من دون الله وعبادتها إياها عن أن تعلم ما علمناه [عن أن تسلم][1] . ويجوز أن يكون « ما » في موضع نصب ، ويكون التقدير : وصدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله؛ أى حال بينها وبينه . ويجوز أن يكون المعنى: وصدها الله؛ أى منعها الله عن عبادتها غيره فحذفت «عن» وتعدى الفعل . نظيره : «وآختار موسى قومه » أى من قومه . وأنشد سيبويه[2] :

ونُبِّئْتُ عبدَ الله بالجوِّ أصبحتْ * كِراماً مواليها لئيما صميمُها

وزعم أن المعنى عنده نبئت عن عبد الله . ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ قرأ سعيد بن جبير « أنها » بفتح الهمزة ، وهى فى موضع نصب بمعنى لأنها . ويجوز أن يكون بدلا من « ما » فيكون فى موضع رفع إن كانت « ما » فاعلة الصد . والكسر على الآستئناف .

قوله تعالى : قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى الصَّرْحَ ﴾ التقدير عند سيبويه : آدخلى إلى الصرح فحذف إلى وعدّى الفعل . وأبو العباس يغلّطه فى هذا ؛ قال : لأن دخل يدل على مدخول . وكان الصرح صحنا من زجاج تحته ماء وفيه الحيتان، عمله ليريها ملكا أعظم من ملكها؛ قاله مجاهد.

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .

(٢) البيت للفرزدق، وأراد بعبد الله القبيلة، وهى عبد الله بن دارم .

Marfat.com

وقال قتادة : كان من قوارير خلفه ماء « حَسِبَتْهُ لُجَّةً » أى ماء . وقيل : الصرح القصر ؛ عن أبي عبيـــدة . كما قال[1] :

* تَحسِبُ أعلامَهنّ الصُّروحَا *

وقيـــل : الصَّرح الصَّحْن ؛ كما يقال : هذه صَرْحة الدار وقاعتها ؛ بمعنى . وحكى أبو عبيدة في الغريب المصنف أن الصَّرح كل بناء عال مرتفع من الأرض، وأن الممرد الطويل. النحاس: أصل هذا أنه يقال لكل بناء عمل عملا واحدا صرح؛ من قولهم : لبن صريح إذا لم يَشُبه ماء؛ ومن قولهم : صَرّح بالأمر ، ومنه : عربي صريح . وقيل : عمله ليختبر قول الجن فيها إن أمها من الجن ، ورِجلها رِجل حمار ؛ قاله وهب بن منبه . فلمـــا رأت اللجة فزعت وظنت أنه قصد بهـــا الغرق ، وتعجبت من كون كرسيه على المـــاء، ورأت ما هالها، ولم يكن بد من آمتثال الأمر ﴿ وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ﴾ فإذا هي أحسن الناس ساقا؛ سليمة مما قالت الجن، غير أنها كانت كثيرة الشعر، فلما بلغت هذا الحد، قال لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها : « إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ» والممرد المحكوك المملس ، ومنه الأمرد . وتمرد الرجل إذا أبطأ خروج لحيته بعد إدراكه؛ قاله الفراء . ومنه الشجرة المرداء التي لا ورق عليها . ورملة مرداء إذا كانت لا تنبت . والممرد أيضا المطوّل ، ومنه قيل للحصن مارد . أبو صالح : طويل على هيئة النخلة . آبن شجرة : واسع في طوله وعرضه . قال :

غدوت صباحا باكرا فوجدتهم * قبيـــل الضحا في السَّابريّ الممرَّد

أي الدروع الواسعة . وعنـــد ذلك آستسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت وأقرت على نفسها بالظـــلم ؛ على ما يأتي . ولمـــا رأى سليمان عليـــه السلام قدميها قال لناصحه من الشـــياطين : كيف لي أن أقلع هـــذا الشعر من غير مضرة بالجسد ؟ فدله على عمل النُّورَة، فكانت النُّورَة والحمامات من يومئذ . فيروى أن سليمان تزوّجها عند ذلك وأسكنها الشام ؛ قاله الضحاك .

---

(١) البيت لأبي ذؤيب وهو بتمـامه :

على طرق كنحور الظبا * ء تحسب أعلامهنّ الصروحا

يقول : هذه الطرق كنحور الظباء في بيانها .

Marfat.com

وقال سعيد بن عبد العزيز فى كتاب النقاش : تزوّجها وردّها إلى ملكها باليمن، وكان يأتيها على الريح كل شهر مرة ؛ فولدت له غلاما سماه داود مات فى زمانه . وفى بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كانت بلقيس من أحسن نساء العالمين ساقين وهى من أزواج سليمان عليه السلام فى الجنة" فقالت عائشة : هى أحسن ساقين منى ؟ فقال عليه السلام : "أنت أحسن ساقين منها فى الجنة" ذكره القشيرى . وذكر الثعلبي عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أول من آتخذ الحمامات سليمان بن داود فلما ألصق ظهره إلى الجدار فمسه حرّها قال أوّاه من عذاب الله" . ثم أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها باليمن ، وأمر الجن فبنوا لها ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها آرتفاعا : سَلْحون وبَيْنون وغُمْدان؛ ثم كان سليمان يزورها فى كل شهر مرة ، ويقيم عندها ثلاثة أيام . وحكى الشعبي أن ناسا من حِمْير حفروا مقبرة الملوك، فوجدوا فيها قبرا معقودا فيه آمرأة عليها حُلَل منسوجة بالذهب، وعند رأسها لوح رخام فيه مكتوب :

يا أيّها الأقوامُ عُوجُوا معا * وأربعوا فى مَقْبرِى العيسَا
لتعلموا أنّى تلك التى * قد كنتُ أُدعَى الدهر بَلْقيسَا
شيّدْتُ قصرَ المُلْكِ فى حِمْيرٍ * قَوْمِى وقِدْمًا كان مأنوسا
وكنتُ فى مُلْكى وتدبيره * أُرغِمُ فى الله المَعَاطِيسَا
بَعْلِي سليمانُ النبيُّ الذى * قد كان للتوراة دِرِّيسَا
وسُخِّر الريحُ له مركبا * تَهُبُّ أحيانًا رَوَامِيسَا
مع آبن داودَ النبيِّ الذى * قَدّسه الرحمنُ تَقْدِيسَا

وقال محمد بن إسحق ووهب بن منبه : لم يتزوجها سليمان، وإنما قال لها : آختارى زوجا ؛ فقالت : مثلى لا ينكح وقد كان لى من الملك ما كان . فقال : لابد فى الإسلام من ذلك . فآختارت ذا تُبَّع ملك هَمْدان ، فزوجه إياها وردها إلى اليمن، وأمر زوبعة أمير جنّ اليمن أن يطيعه ، فبنى له المصانع ، ولم يزل أميرا حتى مات سليمان . وقال قوم : لم يرد فيه خبر صحيح

Marfat.com

لا فى أنه تزوجها ولا فى أنه زوّجها . وهى بلقيس بنت السرح بن الهداهد بن شراحيل بن أدد آبن حدر بن السرح بن الحرس بن قيس بن صيفى بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرخفشذ بن سام بن نوح . وكان جدها الهداهد ملكا عظيم الشأن قد ولد له أربعون ولدا كلهم ملوك ، وكان ملك أرض اليمن كلها ، وكان أبوها السرح يقول لملوك الأطراف : ليس أحد منكم كفؤا لى ، وأبى أن يتزوج منهـم ، فزوجوه آمرأة من الجن يقال لهـا ريحانة بنت السكن ، فولدت له بلقمة وهى بلقيس ، ولم يكن له ولد غيرها . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليـه وسلم : " كان أحد أبوى بلقيس جنيا " فمـات أبوها ، وآختلف عليهـا قومها فرقتين ، وملكوا أمرهم رجلا فساءت سيرته ، حتى فجر بنساء رعيته ، فأدركت بلقيس الغيرة ، فعرضت عليه نفسها فتزوجها ، فسقته الخمر حتى حزت رأسه ، ونصبته على باب دارها فملكوها . وقال أبو بكرة : ذكرت بلقيس عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "لا يفلح قوم ولّوا أمرهم آمرأة" (١) . ويقال : إن سبب تزوج أبيها من الجن أنه كان وزيرا لملك عاتٍ يغتصب نساء الرعية ، وكان الوزير غيورا فلم يتزوج ، فصحب مرة فى الطريق رجلا لا يعرفه ، فقال هل لك من زوجة؟ فقال : لا أتزوج أبدا ، فإن ملك بلدنا يغتصب النساء من أزواجهن ، فقال لئن تزوجت آبنتى لا يغتصبها أبدا . قال : بل يغتصبها . قال : إنا قوم من الجن لا يقدر علينا ؛ فتزوّج آبنته فولدت له بلقيس ؛ ثم ماتت الأم وآبتنت بلقيس قصرا فى الصحراء ، فتحدث أبوها بحديثها غلطا ، فنمى للملك خبرها فقال له : يافلان تكون عندك هذه البنت الجميلة وأنت لا تأتيني بها ، وأنت تعلم حبي للنساء ! ثم أمر بحبسه ، فأرسلت بلقيس إليه إنى بين يديك ؛ فتجهز للسير إلى قصرها ، فلما همّ بالدخول بمن معه أخرجت إليـه الجوارى من بنات الجن مثل صـورة الشمس ، وقلن له ألا تستحى ؟ ! تقول لك سيدتنا أتدخل بهؤلاء الرجال معك على أهلك ! فأذن لهم بالآنصراف ودخل وحده ، وأغلقت عليـه الباب وقتلته بالنعال ، وقطعت رأسه ورمت به إلى عسكره ، فأمّروها عليهم ؛ فلم تزل كذلك إلى أن

(١) الحديث مروى فى البخارى والنسائى والترمذى من طريق أبى بكرة فى آبنة كسرى ؛ وذلك أنه لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن فارسا ملكوا آبنة كسرى لما هلك قال صلى الله عليه وسلم : «لن يفلح قوم ولوا أمرهم آمرأة» .

Marfat.com

بلّغ الهدهد خبرها سليمان عليه السلام. وذلك أن سليمان لما نزل فى بعض منازله قال الهدهد : إن سليمان قد آشتغل بالنزول، فآرتفع نحو السماء فأبصر طول الدنيا وعرضها، فأبصر الدنيا يمينا وشمالا ، فرأى بستانا لبلقيس فيه هدهد ، وكان اسم ذلك الهدهد عفير ، فقال عفير اليمن ليعفور سليمان : من أين أقبلت؟ وأين تريد؟ قال : أقبلت من الشام مع صاحبى سليمان بن داود . قال : ومن سليمان ؟ قال : ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحش والريح وكل ما بين السماء والأرض . فمن أين أنت ؟ قال : من هذه البلاد؛ مليكها آمرأة يقال لها بلقيس، تحت يدها آثنا عشر ألف قَيْل، تحت يد كل قَيْل مائة ألف مقاتل من سوى النساء والذرارى ؛ فآنطلق معه ونظر إلى بلقيس ومُلكها ، ورجع إلى سليمان وقت العصر ، وكان سليمان قد فقده وقت الصلاة فلم يجده ، وكانوا على غير ماء . قال آبن عباس فى رواية : وقعت عليه نفحة من الشمس . فقال لوزير الطير : هذا موضع من ؟ قال : يا نبىّ الله هذا موضع الهدهد . قال : وأين ذهب؟ قال : لا أدرى أصلح الله الملك . فغضب سليمان وقال : « لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا » الآية . ثم دعا بالعُقَاب سيد الطير وأصرمها وأشدها بأسا فقال : ما تريد يا نبىّ الله ؟ فقال : علىّ بالهدهد الساعة . فرفع العُقَاب نفسه دون السماء حتى لزق بالهواء، فنظر إلى الدنيا كالقَصْعة بين يدى أحدكم ، فإذا هو بالهدهد مقبلا من نحو اليمن، فآنقض نحوه وأنشب فيه مخلبه . فقال له الهدهد : أسألك بالله الذى أقدرك وقوّاك علىّ إلا ما رحمتنى . فقال له : الويل لك ، وثكلتك أمّك ! إن نبىّ الله سليمان حلف أن يعذبك أو يذبحك . ثم أتى به فآستقبلته النّسور وسائر عساكر الطير . وقالوا الويل لك؛ لقد توعدك نبىّ الله . فقال : وما قدرى وما أنا ! أما آستثنى؟ قالوا : بلى! إنه قال : « أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ » ثم دخل على سليمان فرفع رأسه ، وأرخى ذنبه وجناحيه تواضعا لسليمان عليه السلام . فقال له سليمان : أين كنت عن خدمتك ومكانك؟ لأعذبنك عذابا شديدا أو لأذبحنك . فقال له الهدهد : يا نبىّ الله ! آذكر وقوفك بين يدى الله بمنزلة وقوفى بين يديك . فآقشعر جلد سليمان وآرتعد وعفا عنه . وقال عكرمة : إنما صرف الله سليمان عن ذبح الهدهد أنه

Marfat.com

كان بارا بوالديه، ينقل الطعام إليهما فيزقّهما . ثم قال له سليمان : ما الذى أبطأ بك ؟ فقال الهدهد ما أخبر الله عن بلقيس وعرشها وقومها حسبما تقدم بيانه . قال الماوردى : والقول بأن أمّ بلقيس جنية مستنكر من العقول لتباين الجنسين، واختلاف الطبعين، وتفارق الحسّين[1]؛ لأن الآدمى جسمانى والجن روحانى، وخلق الله الآدمى من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار، ويمنع الامتزاج مع هذا التباين، ويستحيل التناسل مع هذا الاختلاف .

قلت : قد مضى القول فى هذا ، والعقل لا يحيله مع ما جاء من الخبر فى ذلك ، وإذا نظر فى أصل الخلق فأصله الماء على ما تقدم بيانه ، ولا بعد فى ذلك ؛ والله أعلم . وفى التنزيل « وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ » وقد تقدم . وقال تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ » على ما يأتى فى « الرحمن » .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أى بالشرك الذى كانت عليه ؛ قاله ابن شجرة . وقال سفيان : أى بالظن الذى توهمته فى سليمان ؛ لأنها لما أمرت بدخول الصرح حسبته لجة ، وأن سليمان يريد تغريقها فيه . فلما بان لها أنه صرح ممرد من قوارير علمت أنها ظلمت نفسها بذلك الظن . وكسرت « إن » لأنها مبتدأة بعد القول . ومن العرب من يفتحها فيعمل فيها القول . ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . إذا سكنت «مع» فهى حرف جاء لمعنى بلا اختلاف بين النحويين . وإذا فتحتها ففيها قولان : أحدهما — أنه بمعنى الظرف اسم . والآخر — أنه حرف خافض مبنى على الفتح ؛ قاله النحاس :

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)

(١) فى نسخة « الجسمين » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ تقدم معناه . ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قال مجاهد : أى مؤمن وكافر ؛ قال : والخصومة ما قصه الله تعالى فى قوله : « أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ » إلى قوله : « كَافِرُونَ » . وقيل : تخاصمهم أن كل فرقة قالت : نحن على الحق دونكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة ؛ المعنى : لم تؤخرون الإيمان الذى يجلب إليكم الثواب ، وتقدمون الكفر الذى يوجب العقاب ؛ فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار : ٱيتنا بالعذاب . وقيل : أى لم تفعلون ما تستحقون به العقاب ؛ لا أنهم ٱلتمسوا تعجيل العذاب . ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ ﴾ أى هلا تتوبون إلى الله من الشرك . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لكى ترحموا ؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ أي تشاءمنا . والشؤم النحس . ولا شيء أضر بالرأى ولا أفسد للتدبير من ٱعتقاد الطِّيرة . ومن ظن أن خُوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء ، أو يدفع مقدورا فقد جهل . وقال الشاعر :

طِيرةُ الدهرِ لا تَردُّ قضاءً * فٱعذرِ الدهرَ لا تشبه بلومِ
أىُّ يومٍ يَخُصُّه بسعودٍ * والمنايا ينزلن فى كل يومِ
ليس يومٌ إلا وفيه سعودٌ * ونحوسٌ تجرى لقومٍ فقومِ

وقد كانت العرب أكثر الناس طِيرة ، وكانت إذا أرادت سفرا نفّرت طائرا ، فإذا طار يمنة سارت وتيمنت ، وإن طار شمالا رجعت وتشاءمت ، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : "أَقِرُّوا الطير علَى وكُناتها (١)" على ما تقدّم بيانه فى « المائدة » (٢) . ﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى مصائبكم . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ أى تمتحنون . وقيل : تعذبون بذنوبكم .

---

(١) الوكنات (بضم الكاف وفتحها وسكونها) جمع وكنة (بالسكون) وهى عش الطائر ووكره . ويروى : «على مكناتها» .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٦٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ أى فى مدينة صالح وهى الحجر ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أى تسعة رجال من أبناء أشرافهم . قال الضحاك : كان هؤلاء التسعة عظاء أهل المدينة ، وكانوا يفسدون فى الأرض و يأمرون بالفساد، فجلسوا عند صخرة عظيمة فقلبها الله عليهم . وقال عطاء بن أبى رَبَاح : بلغنى أنهم كانوا يقرِضون الدنانير والدراهم ، وذلك من الفساد فى الأرض ؛ وقاله سعيد بن المسيّب . وقيل : فسادهم أنهم يتبعون عورات الناس ولا يسترون عليهم . وقيل : غير هذا . واللازم من الآية ما قاله الضحاك وغيره أنهم كانوا من أوجه القوم وأقناهم وأغناهم ، وكانوا أهل كفر ومعاص جمة ؛ وجملة أمرهم أنهم يفسدون ولا يصلحون . والرهط آسم للجماعة، فكأنهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم رهط . والجمع أرهط وأراهط . قال :

يا بؤس للحرب التى * وضعت أراهط فآستراحوا

وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قُدَار عاقر الناقة؛ ذكره آبن عطية .

قلت : وآختلف فى أسمائهم؛ فقال الغزنوى : وأسماؤهم قُدَار بن سالف ومصدع وأسلم ودسما وذهيم وذعما وذعيم وقتال وصداق . آبن إسحق : رأسهم قُدَار بن سالف ومصدع ابن مهرع، فآتبعهم سبعة ؛ هم بلع بن ميلع ودعير بن غنم وذؤاب بن مهرج وأربعة لم تعرف أسماؤهم . وذكر الزمخشرى أسماءهم عن وهب بن منبه : الهذيل بن عبد رب ، غنم بن غنم، رياب بن مهرج ، مصدع بن مهرج ، عمير بن كردبة، عاصم بن مخرمة ، سبيط بن صدقة ، سمعان بن صفى، قدار بن سالف؛ وهم الذين سعوا فى عقر الناقة، وكانوا عتاة قوم صالح، وكانوا من أبناء أشرافهم . السهيلى : ذكر النقاش التسعة الذين كانوا يفسدون فى الأرض ولا يصلحون، وسماهم بأسمائهم، وذلك لا ينضبط برواية؛ غير أنى أذكره على وجه الآجتهاد

Marfat.com

والتخمين، ولكن نذكره على ما وجدناه في كتاب محمد بن حبيب، وهم: مصدع بن دهر. ويقال دهم، وقدار بن سالف، وهريم وصواب ورياب وداب ودعما وهرما ودعين بن عمير.

قلت: وقد ذكر الماوردي أسماءهم عن ابن عباس فقال: هم دعما ودعيم وهرما وهريم وداب وصواب ورياب ومسطع وقدار، وكانوا بأرض الحجر وهي الشام.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ يجوز أن يكون «تقاسموا» فعلا مستقبلا وهو أمر؛ أي قال بعضهم لبعض احلفوا. ويجوز أن يكون ماضيا في معنى الحال كأنه قال: قالوا متقاسمين بالله؛ ودليل هذا التأويل قراءة عبد الله: «يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ» وليس فيها «قَالُوا». «لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ» قراءة العامة بالنون فيهما واختاره أبو حاتم. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء فيهما، وضم التاء واللام على الخطاب أي أنهم تخاطبوا بذلك؛ واختاره أبو عبيد. وقرأ مجاهد وحميد بالياء فيهما، وضم الياء واللام على الخبر. والبيات مباغتة العدو ليلا. ومعنى «لِوَلِيِّهِ» أي لرهط صالح الذي له ولاية الدم. ﴿ مَا شَهِدْنَا مُهْلَكَ(1) أَهْلِهِ ﴾ أي ما حضرنا، ولا ندري من قتله وقتل أهله. ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ في إنكارنا لقتله. والمُهْلَك بمعنى الإهلاك؛ ويجوز أن يكون الموضع. وقرأ [عاصم](2) والسلمي (بفتح الميم واللام) أي الهلاك؛ يقال: ضرب يضرب مَضْرَبا أي ضربا. وقرأ المفضل وأبو بكر (بفتح الميم وجر اللام) فيكون اسم المكان كالمجلس لموضع الجلوس؛ ويجوز أن يكون مصدرا؛ كقوله تعالى: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ» أي رجوعكم.

قوله تعالى: وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

(1) «مهلك» بضم الميم وفتح اللام قراءة الجمهور. وحفص يقرأ بفتح الميم وكسر اللام.

(2) في الأصل: «وقرأ حفص» ... الخ».

Marfat.com

﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ مكرهم ماروى أن هؤلاء التسعة لما كان فى صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة ، وقد أخبرهم صالح بمجيء العذاب ، آتفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلا و يقتلوه وأهله المختصين به ؛ قالوا : فإذا كان كاذبا فى وعيده أوقعنا به مايستحق ، و إن كان صادقا كنا عجلناه قبلنا ، وشفينا نفوسنا ؛ قاله مجاهد وغيره . قال ابن عباس : أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة ، فآمتلأت بهم دار صالح ، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم ، فقتلتهم الملائكة رضخا بالحجارة فيرون الحجارة ولا يرون من يرميها . وقال قتادة : خرجوا مسرعين إلى صالح ، فسلط عليهم ملك بيده صخرة فقتلهم . وقال السدى : نزلوا على جرف من الأرض ، فآنهار بهم فأهلكهم الله تحته . وقيل : آختفوا فى غار قريب من دار صالح ، فآنحدرت عليهم صخرة شدختهم جميعا ؛ فهذا ما كان من مكرهم . ومكر الله مجازاتهم على ذلك . ﴿ فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى بالصيحة التى أهلكتهم . وقد قيل : إن هلاك الكل كان بصيحة جبريل . والأظهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد ، ثم هلك الباقون بالصيحة والدمدمة . وكان الأعمش والحسن وابن أبى إسحق وعاصم وحمزة والكسائى يقرءون « أَنَّا » بالفتح ؛ وقال آبن الأنبارى : فعلى هذا المذهب لايحسن الوقف على « عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ » لأن « أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ » خبر كان . ويجوز أن تجعلها فى موضع رفع على الإتباع للعاقبة . ويجوز أن تجعلها فى موضع نصب من قول الفراء ، وخفض من قول الكسائى على معنى : بأنا دمرناهم ولأنا دمرناهم . ويجوز أن تجعلها فى موضع نصب على الإتباع لموضع « كَيْفَ » فمن هذه المذاهب لا يحسن الوقف على « مَكْرِهِمْ » . وقرأ آبن كثير ونافع وأبو عمرو « إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ » بكسر الألف على الآستئناف ؛ فعلى هـذا المذهب يحسن الوقف على « مَكْرِهِمْ » . قال النحاس : ويجوز أن تنصب « عَاقِبَةُ » على خبر « كان » ويكون « إِنَّا » فى موضع رفع على أنها اسم « كان » . ويجوز أن تكون فى موضـع رفع على إضمار مبتدإ تبيينا للعاقبة ؛ والتقدير : هى إنا دمرناهم ؛ قال أبو حاتم : وفى حرف أبىّ « أَنْ دَمَّرْنَاهُمْ » تصديقا لفتحها .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ قراءة العامة بالنصب على الحال عند الفراء والنحاس ؛ أى خالية عن أهلها خرابا ليس بها ساكن . وقال الكسائى وأبو عبيدة : « خَاوِيَةً » نصب على القطع ؛ مجازه : فتلك بيوتهم الخاوية ، فلما قطع منها الألف واللام نصب على الحال ؛ كقوله : « وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا » . وقرأ عيسى بن عمر ونصر بن عاصم والجحدرى بالرفع على أنها خبر عن « تِلْكَ » و « بُيُوتُهُمْ » بدل من « تِلْكَ » . ويجوز أن تكون « بُيُوتُهُمْ » عطف بيان و « خَاوِيَةٌ » خبر عن « تِلْكَ » . ويجوز أن يكون رفع « خَاوِيَةٌ » على أنها خبر ابتداء محذوف ؛ أى هى خاوية ، أو بدل من « بُيُوتُهُمْ » لأن النكرة تبدل من المعرفة. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بصالح ﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الله ويخافون عذابه . قيل : آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل . والباقون خرج بأبدانهم — فى قول مقاتل وغيره — خُرَاجٌ مثل الحِمّص ؛ وكان فى اليوم الأول أحمر ، ثم صار من الغد أصفر ، ثم صار فى الثالث أسود . وكان عقر الناقة يوم الأربعاء ، وهلاكهم يوم الأحد . قال مقاتل : فقعت تلك الخراجات ، وصاح جبريل بهم خلال ذلك صيحة فخمدوا ، وكان ذلك ضحوة . وخرج صالح بمن آمن معه إلى حضرموت ، فلما دخلها مات صالح ؛ فسميت حضرموت . قال الضحاك : ثم بنى الأربعة الآلاف مدينة يقال لها حاضورا ؛ على ما تقدم بيانه فى قصة أصحاب الرس .

قوله تعالى : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾
أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾
۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ
إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ أى وأرسلنا لوطا، أو آذكر لوطا . « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » وهم أهل سـدوم . وقال لقومه : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَـةَ ﴾ الفعلة القبيحة الشنيعة . ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنها فاحشة، وذلك أعظم لذنوبكم . وقيل : يأتى بعضكم بعضا وأنتم تنظرون إليه . وكانوا لا يستترون عتوا منهم وتمردا . ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴾ أعاد ذكرها لفرط قبحها وشنعتها . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ إما أمر التحريم أو العقوبة . وآختيار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة الثانية من « أَئِنَّكُمْ » فأما الخط فالسبيل فيه أن يكتب بألفين على الوجوه كلها؛ لأنها همزة مبتدأة دخلت عليها ألف الآستفهام .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أى عن أدبار الرجال . يقولون ذلك آستهزاء منهم؛ قاله مجاهـد . وقال قتادة : عابوهم والله بغـير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السـوء . ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا آمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ وقرأ عاصم « قَدَرْنَا » مخففا والمعنى واحد . يقال قد قَدَرتُ الشيء قَدْرا وقَدَرا وقدّرته . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى من أُنذر فلم يقبل الإنذار . وقد مضى بيان هذا فى « الأعراف »(١) و « هود »(٢) .

قوله تعـالى : قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية.   (٢) راجع جـ ٩ ص ٨١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ قال الفراء قال أهل المعانى : قيل للوط « قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » على هلاكهم. وخالف جماعة من العلماء الفراء فى هذا وقالوا : هو مخاطبة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى قل الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية. قال النحاس : وهذا أولى، لأن القرآن منزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وكل ما فيه فهو مخاطب به عليه السلام إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره . وقيل : المعنى؛ أى «قُلْ» يا محمد «الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى» يعنى أمته عليه السلام. قال الكلبي : اصطفاهم الله بمعرفته وطاعته . وقال ابن عباس وسفيان : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده . وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين ، وإصغائهم إليه ، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التى يبغيها المستمع . ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد ، وقبل كل عظة وفى مفتتح كل خطبة ، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم فى الفتوح والتهانى، وغير ذلك من الحوادث التى لها شأن .

قوله تعالى : « الَّذِينَ اصْطَفَى » اختار؛ أى لرسالته وهم الأنبياء عليهم السلام؛ دليله قوله تعالى : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » . ﴿آللَّهُ خَيْرٌ﴾ وأجاز أبو حاتم « أَأَللَّهُ خَيْرٌ » بهمزتين. النحاس : ولا نعلم أحدا تابعه على ذلك ؛ لأن هذه المدّة إنما جيء بها فرقا بين الاستفهام والخبر، وهذه ألف التوقيف، و « خَيْرٌ » ههنا ليس بمعنى أفضل منك، وإنما هو مثل قول الشاعر:(١)

أتهجوه ولست له بكفء * فشركما لخيركما الفداء

فالمعنى فالذى فيه الشر منكما للذى فيه الخير الفداء . ولا يجوز أن يكون بمعنى من لأنك إذا قلت : فلان شر من فلان ففى كل واحد منهما شر . وقيل : المعنى ؛ الخير فى هذا

(١) هو حسان بن ثابت رضى الله عنه .

Marfat.com

أم فى هــذا الذى تشركونه فى العبادة ! وحكى سيبويه : السعادة أحب إليك أم الشقاء ، وهو يعلم أن السعادة أحب إليه . وقيل : هو على بابه من التفضيل ، والمعنى : آلله خير أم ماتشركون؛أى أثوابه خير أم عقاب ماتشركون.وقيل: قال لهم ذلك؛لأنهم كانوا يعتقدون أن فى عبادة الأصنام خيرا فخاطبهم الله عز وجل على آعتقادهم . وقيل: اللفظ لفظ الآستفهام ومعناه الخبر . وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب « يُشْرِكُونَ » بياء على الخبر . الباقون بالتاء على الخطاب، وهو آختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرأ هذه [الآية] يقول : " بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم " .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ قال أبو حاتم : تقديره؛ آلهتكم خير أم من خلق السموات والأرض ؛ وقد تقدّم . ومعناه : قدر على خلقهن . وقيل : المعنى؛ أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير أم عبادة من خلق السموات والأرض؟ . فهو مردود على ما قبله من المعنى؛ وفيه معنى التوبيخ لهم، والتنبيه على قدرة الله عز وجل وعجز آلهتهم . ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ الحديقة البستان الذى عليه حائط . والبهجة المنظر الحسن . قال الفراء: الحديقة البستان المحظر عليه حائط ، وإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة. وقال قتادة وعكرمة : الحدائق النخل ذات بهجة، والبهجة الزينة والحسن؛ يبهج به من رآه . ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ « مَا » للنفى ومعناه الحظر والمنع من فعل هذا؛ أى ما كان للبشر، ولا يتهيأ لهم، ولا يقع تحت قدرتهم، أن ينبتوا شجرها ؛ إذهم عجزة عن مثلها؛ لأن ذلك إخراج الشيء من العدم إلى الوجود .

قلت : وقد يستدل من هذا على منع تصوير شيء سواء كان له روح أم لم يكن؛ وهو قول مجاهد . ويعضده قوله صلى الله عليه وسلم : " قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلقى فليخلقوا ذرّة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة " رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة؛ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " قال الله عز وجل " فذكره ؛ فعم بالذم والتهديد والتقبيح كل من تعاطى تصوير شيء مما خلقه الله وضاهاه فى التشبيه فى خلقه

Marfat.com

فيما انفرد به سبحانه من الخلق والاختراع وهذا واضح . وذهب الجمهور إلى أن تصوير ما ليس فيه روح يجوز هو والاكتساب به . وقد قال ابن عباس للذى سأله أن يصنع الصور : إن كنت لابد فاعلا فاصنع الشجر وما لا نفس له ؛ خرجه مسلم أيضا . والمنع أولى والله أعلم لما ذكرنا . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى «سبأ» إن شاء الله تعالى . ثم قال على جهة التوبيخ: ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى هل معبود مع الله يعينه على ذلك . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ بالله غيره . وقيل : « يَعْدِلُونَ » عن الحق والقصد؛ أى يكفرون . وقيل : « إِلَٰهٌ » مرفوع بـ«مع» تقديره : أمع الله ويلكم إله . والوقف على « مَعَ اللَّهِ » حسن .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أى مستقرا . ﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾ أى وسطها مثل « وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا » . ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ يعنى جبالا ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ مانعا من قدرته لئلا يختلط الأجاج بالعذب . وقال ابن عباس : سلطانا من قدرته فلا هذا يغير ذاك ولا ذاك يغير هذا . والحجز المنع . ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى إذا ثبت أنه لا يقدر على هذا غيره فلم يعبدون مالا يضر ولا ينفع . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعنى كأنهم يجهلون الله فلا يعلمون ما يجب له من الوحدانية .

قوله تعالى : أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

Marfat.com

فيــه ثلاث مسـائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ قال ابن عباس : هو ذو الضرورة المجهود . وقال السدى : الذى لا حول له ولا قوة . وقال ذو النون : هو الذى قطع العلائق عما دون الله . وقال أبو جعفر وأبو عثمان النيسابورى : هو المفلس . وقال سهل ابن عبد الله : هو الذى إذا رفع يديه إلى الله داعيا لم يكن له وسيلة من طاعة قدمها . وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال : أنا أسألك بالله أن تدعو لى فأنا مضطر؛ قال : إذًا فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه . قال الشاعر :

وإنّى لأدعو اللهَ والأمرُ ضيّقٌ　＊　علىّ فما ينفكُّ أن يتفرّجا
وربَّ أخٍ سُدَّتْ عليه وُجوهُهُ　＊　أصاب لها لمّا دعا اللهَ مَخْرَجا

الثانيــة — وفى مسند أبى داود الطيالسى عن أبى بكرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعاء المضطر : "اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى طَرْفة عين وأصلح لى شأنى كلّه لا إله إلا أنت" .

الثالثــة — ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه؛ والسبب فى ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عمـا سواه؛ وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة، وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر؛ كما قال تعالى: « حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » وقوله : « فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم. وقال تعالى : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه . وفى الحديث : "ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده" ذكره صاحب الشهاب؛ وهو حديث صحيح . وفى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لمعاذ لمـا وجّهه إلى أرض اليمن "واتّق دعوةَ المظلوم فليس بينها و بين الله حجاب" .

Marfat.com

وفى كتاب الشهاب : "اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام فيقول الله تبارك وتعالى وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين" وهو صحيح أيضا . وخرج الآجرّى من حديث أبى ذرّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : "فإنّى لا أردها ولو كانت من فم كافر" فيجيب المظلوم لموضع إخلاصه بضرورته بمقتضى كرمه ، وإجابة لإخلاصه وإن كان كافرا ، وكذلك إن كان فاجرا فى دينه ؛ ففجور الفاجر وكفر الكافر لا يعود منه نقص ولا وهن على مملكة سيده ، فلا يمنعه ما قضى للمضطر من إجابته . وفسر إجابة دعوة المظلوم بالنصرة على ظالمه بما شاء سبحانه من قهر له ، أو اقتصاص منه ، أو تسليط ظالم آخر عليه يقهره كما قال عز وجل : « وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا » وأكد سرعة إجابتها بقوله : "تحمل على الغمام" ومعناه والله أعلم أن الله عز وجل يوكّل ملائكته بتلقى دعوة المظلوم وبحملها على الغمام ، فيعرجوا بها إلى السماء ، والسماء قبلة الدعاء ليراها الملائكة كلهم ، فيظهر منه معاونة المظلوم ، وشفاعة منهم له فى إجابة دعوته ، رحمة له . وفى هذا تحذير من الظلم جملة ، لما فيه من سخط الله ومعصيته ومخالفة أمره ؛ حيث قال على لسان نبيه فى صحيح مسلم وغيره : « يا عبادى إنى حرّمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تَظَالموا » الحديث . فالمظلوم مضطر ، ويقرب منه المسافر ؛ لأنه منقطع عن الأهل والوطن ، منفرد عن الصديق والحميم ، لا يسكن قلبه إلى مسعد ولا معين لغربته ، فتصدق ضرورته إلى المولى ، فيخلص إليه فى اللجاء ، وهو المجيب للمضطر إذا دعاه ، وكذلك دعوة الوالد على ولده ، لا تصدر منه مع ما يعلم من حنّته عليه وشفقته ، إلا عند تكامل عجزه عنه ، وصدق ضرورته ، وإياسه عن برّ ولده ، مع وجود أذيته ، فيسرع الحق إلى إجابته .

قوله تعالى : ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ أى الضر . وقال الكلبى : الجور . ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أى سكانها يهلك قوما وينشئ آخرين . وفى كتاب النقاش : أى ويجعل أولادكم خلفا منكم . وقال الكلبى : خلفا من الكفار ينزلون أرضهم ، وطاعة الله بعد كفرهم . ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ على جهة التوبيخ ؛ كأنه قال أمع الله ويلكم إله ؛ فـ « إله » مرفوع بـ « مع » .

Marfat.com

ويجوز أن يكون مرفوعا بإضمار أإله مع الله يفعل ذلك فتعبدوه . والوقف على « مع الله » حسن . ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ قرأ أبو عمرو وهشام ويعقوب « يَذَّكَّرُونَ » بالياء على الخبر ، كقوله : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » و « تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » فأخبر فيما قبلها وبعدها ؛ واختاره أبو حاتم . الباقون بالتاء خطابا لقوله : « وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ » .

قوله تعـالى : ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ ﴾ أى يرشدكم الطريق ﴿ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ إذا سافرتم إلى البلاد التى تتوجهون إليها بالليل والنهار . وقيـل : وجعل مفاوز البر التى لا أعلام لها ، ولجج البحار كأنها ظلمات ؛ لأنه ليس لها علم يهتدى به . ﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشْرًا[1] بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى قدام المطر باتفاق أهل التأويل . ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ يفعل ذلك ويعينه عليـه . ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ من دونه .

قوله تعـالى : ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ كانوا يقرون أنه الخالق الرازق فألزمهم الإعادة ؛ أى إذا قدر على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة ، وهو أهون عليه . ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ يخلق ويرزق ويبـدئ ويعيد : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أى حجتكم أن لى شريكا ، أو حجتكم فى أنه صنع أحد شيئا من هذه الأشياء غير الله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ۖ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . وعن بعضهم : أخفى غيبه على الخلق ، ولم يُطلع عليه أحدا لئلا يأمن أحد من عبيده مكره . وقيل : نزلت فى المشركين حين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن قيام الساعة . و « مَنْ » فى موضع رفع ؛ والمعنى : قل لا يعلم أحد الغيب إلا الله ؛ فإنه بدل من « مَن » قاله الزجاج .

(١) « نشرا » بالنون على قراءة نافع . وفيه سبع قراءات ؛ راجع جـ ٧ ص ٢٢٩ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

الفراء : وإنما رفع ما بعد « إلا » لأن ما قبلها جحد، كقوله : ما ذهب أحد إلا أبوك ؛ والمعنى واحد . قال الزجاج : ومن نصب نصب على الاستثناء ؛ يعني في الكلام . قال النحاس : وسمعته يحتج بهذه الآية على من صدّق منجّما ؛ وقال : أخاف أن يكفر بهذه الآية .

قلت : وقد مضى هذا في « الأنعام »(1) مستوفى . وقالت عائشة : من زعم أن محمدا يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية ؛ والله تعالى يقول : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » خرجه مسلم . وروى أنه دخل على الحجاج منجّم فاعتقله الحجاج ، ثم أخذ حصيات فعدّهن ، ثم قال : كم في يدي من حصاة ؟ فحسب المنجّم ثم قال : كذا ؛ فأصاب . ثم اعتقله فأخذ حصيات لم يعدّهن فقال : كم في يدي ؟ فحسب فأخطأ ثم حسب فأخطأ ؛ ثم قال : أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها ؛ قال : لا . قال : فإني لا أصيب . قال : فما الفرق ؟ قال : إن ذلك أحصيته فخرج عن حدّ الغيب، وهذا لم تحصه فهو غيب و « لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ »(2) وقد مضى هذا في « آل عمران » والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ هذه قراءة أكثر الناس منهم عاصم وشيبة ونافع ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي . وقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحميد « بَلْ أَدْرَكَ »(3) من الإدراك . وقرأ عطاء بن يسار وأخوه سليمان بن يسار والأعمش « بَلِ ادَّرَكَ » غير مهموز مشدّدا . وقرأ ابن محيصن « بَلْ أَأَدْرَكَ » على الاستفهام . وقرأ ابن عباس « بَلَى » بإثبات الياء « أَدَّارَكَ » بهمزة قطع والدال مشدّدة وألف بعدها ؛ قال النحاس : وإسناده إسناد صحيح، هو من حديث شعبة يرفعه إلى ابن عباس . وزعم هرون القارئ أن قراءة أبيّ « بَلْ تَدَارَكَ عِلْمُهُمْ » . القراءة الأولى والأخيرة معناهما واحد ؛ لأن أصل « ادَّارَكَ » تدارك ؛ أدغمت الدال في التاء وجيء بألف الوصل ؛ وفي معناه قولان : أحدهما أن المعنى تكامل علمهم في الآخرة ؛ لأنهم رأوا كل ما وعدوا به معاينة فتكامل علمهم

(1) راجع جـ ٧ ص ١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع جـ ٤ ص ١٧ طبعة أولى أو ثانية .
(3) لم تذكر كتب التفسير الأخرى الأعمش في هذه القراءة . ولعل هذه رواية أخرى عنه غير الرواية المتقدمة .

Marfat.com

به . والقول الآخر أن المعنى : بل تتابع علمهم اليوم فى الآخرة؛ فقالوا تكون وقالوا لا تكون. القراءة الثانية فيها قولان : أحدهما أن معناه كمل فى الآخرة؛ وهو مثل الأول؛ قال مجاهد : معناه يدرك علمهم فى الآخرة و يعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم ؛ لأنهم كانوا فى الدنيا مكذِّبين . والقول الآخر أنه على معنى الإنكار ؛ وهو مذهب أبى إسحق؛ وٱستدل على صحة هذا القول بأن بعده « بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ » أى لم يدرك علمهم علم الآخرة . وقيل : بل ضل وغاب علمهم فى الآخرة فليس لهم فيها علم . القراءة الثالثة « بَلِ ٱدَّرَكَ » فهى بمعنى « بَلِ ٱدَّارَكَ » وقد يجيء ٱفتعل وتفاعل بمعنى ؛ ولذلك صُحِّح ٱزدوجوا حين كان بمعنى تزاوجوا . القراءة الرابعة ليس فيها إلا قول واحد يكون فيه معنى الإنكار؛ كما تقول : أأنا قاتلتك ؟! فيكون المعنى لم يدرك ؛ وعليه ترجع قراءة ٱبن عباس ؛ قال ٱبن عباس : « بَلَى أَدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْآخِرَةِ » أى لم يدرك . قال الفرّاء : وهو قول حسن كأنه وجهه إلى الٱستهزاء بالمكذِّبين بالبعث ، كقولك لرجل تكذّبه : بلى لعمرى قد أدركتَ السَّلَف فأنت تَروى ما لا أروى ! وأنت تكذِّبه . وقراءة سابعة : « بَلَ ادَّرَكَ » بفتح اللام؛ عدل إلى الفتحة لخفتها . وقد حكى نحو ذلك عن قطرب فى « قُمَ اللَّيْلَ » فإنه عدل إلى الفتح . وكذلك و (بعَ الثوبَ) ونحوه . وذكر الزمخشرى فى الكتاب : وقرئ « بَلْ أَأَدْرَكَ » بهمزتين « بَلْ آأَدَّرَكَ » بألف بينهما « بَلَى أَأَدَّرَكَ » « أَمْ تَدَارَكَ » « أَمْ أَدَّرَكَ » فهذه ثنتا عشرة قراءة، ثم أخذ يعلّل وجوه القراءات وقال: فإن قلت فما وجه قراءة «بَلْ أَأَدَّرَكَ» على الٱستفهام؟ قلت : هو ٱستفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم ، وكذلك من قرأ « أَمْ أَدَّرَكَ » و « أَمْ تَدَارَكَ » لأنها أم التى بمعنى بل والهمزة ، وأما من قرأ « بَلَى أَأَدَّرَكَ » على الٱستفهام فمعناه بلى يشعرون متى يبعثون ، ثم أنكر علمهم بكونها، و إذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور وقت كونها ؛ لأن العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن . « فِى الْآخِرَةِ » فى شأن الآخرة ومعناها. ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْهَا﴾ أى فى الدنيا. ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أى بقلوبهم واحدهم عمو. وقيل: عمٍ؛ وأصله عميون حذفت الياء لالتقاء الساكنين ولم يجز تحريكها لثقل الحركة فيها .

Marfat.com

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى مشركى مكة . ﴿ إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا آئِنَّا[1] لَمُخْرَجُونَ ﴾ هكذا يقرأ نافع هنا وفى سورة « العنكبوت » . وقرأ أبو عمرو بآستفهامين إلا أنه خفّف الهمزة. وقرأ عاصم وحمزة أيضا بآستفهامين إلا أنهما حققا الهمزتين، وكل ما ذكرناه فى السورتين جميعا واحد . وقرأ الكسائى وآبن عامر ورويس ويعقوب « أئذا » بهمزتين « إِنَّنَا » بنونين على الخبر فى هذه السورة ؛ وفى سورة « العنكبوت » بآستفهامين ؛ قال أبو جعفر النحاس : القراءة « إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا آئِنَّا لَمُخْرَجُونَ » موافقة للخط حسنة، وقد عارض فيها أبو حاتم فقال وهذا معنى كلامه : « إذا » ليس بآستفهام و «آئنا» آستفهام وفيه « إنّ » فكيف يجوز أن يعمل ما فى حيز الآستفهام فيما قبله ؟! وكيف يجوز أن يعمل ما بعد « إنّ » فيما قبلها ؟ ! وكيف يجوز غدًا إن زيدا خارج ؟! فإذا كان فيه آستفهام كان أبعد ، وهذا إذا سئل عنه كان مشكلا لما ذكره . وقال أبو جعفر : وسمعت محمد بن الوليد يقول : سألنا أبا العباس عن آية من القرآن صعبة مشكلة ، وهى قول الله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ » فقال : إن عمل فى « إذا » « ينبئكم » كان محالا ؛ لأنه لا ينبئهم ذلك الوقت ، و إن عمل فيه ما بعد « إنّ » كان المعنى صحيحا وكان خطأ فى العربية أن يعمل ما قبل « إنّ » فيما بعدها ؛ وهذا سؤال بيّن رأيت أن يذكر فى السورة التى هو فيها ؛ فأما أبو عبيد فمال إلى قراءة نافع وردّ على من جمع بين آستفهامين ، وآستدل بقوله تعالى : « أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ » وبقوله تعالى : « أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ » وهذا الردّ على أبى عمرو وعاصم وحمزة

(١) قال آبن عطية : (ممدود الألف) ومثله فى « البحر » و « روح المعانى » .

Marfat.com

وطلحة والأعرج لايلزم منه شيء، ولايشبه ما جاء به من الآية شيئا؛ والفرق بينهما أن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد؛ ومعنى « أَفَإِنْ مِتَّ فَهُـمُ الخَـالِدُونَ » أفإن مت خلدوا . ونظير هـذا أزيد منطلق، ولا يقال : أزيد أمنطلق؛ لأنها بمنزلة شيء واحد وليس كذلك الآية؛ لأن الثانى جملة قائمة بنفسها فيصلح فيهـا الاستفهام ، والأول كلام يصلح فيـه الاستفهام؛ فأما من حذف الاستفهام من الثانى وأثبته فى الأول فقرأ « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا إِنَّنَا » فحذفه من الثانى؛ لأن فى الكلام دليلا عليه بمعنى الإنكار .

قوله تعـالى : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَـذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَـذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ تقدّم فى سورة « المؤمنين »(1) . وكانت الأنبياء يقرّبون أمر البعث مبالغـة فى التحذير؛ وكل ما هو آت فقريب .

قوله تعـالى : قُـلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَـكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّـا يَمْـكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٧١﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ أى « قُـلْ » لهؤلاء الكفار « سِـيرُوا » فى بلاد الشام والحجاز واليمن . ﴿ فَانْظُرُوا ﴾ أى بقلوبكم و بصائركم ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ المكذبين لرسلهم . ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى على كفار مكة أن لم يؤمنوا ﴿ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ ﴾ فى حرج ﴿ مِمَّـا يَمْكُرُونَ ﴾ نزلت فى المستهزئين الذين اقتسموا عِقاب مكة وقد تقدّم ذكرهم(2) . وقرئ « فِي ضِيقٍ » بالكسر وقد مضى فى آخر « النحل »(3) . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَـذَا الْوَعْدُ ﴾ أى وقت يجيئنا العذاب بتكذيبنا ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾ .

---

(1) راجع جـ ١٢ ص ١٤٥ طبعة أولى أو ثانية .
(2) راجع جـ ١٠ ص ٥٨ طبعة أولى أو ثانية .
(3) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٣ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ أى آقترب لكم ودنا منكم ﴿ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أى من العذاب؛ قاله آبن عباس. وهو من ردفه إذا تبعه وجاء فى أثره؛ وتكون اللام أدخلت لأن المعنى آقترب لكم ودنا لكم . أو تكون متعلقة بالمصدر . وقيل : معناه معكم . وقال آبن شجرة : تبعكم ؛ ومنه رِدْف المرأة؛ لأنه تبع لها من خلفها؛ ومنه قول أبى ذُؤَيب :

عاد السوادُ بياضًا فى مَفَارقه * لا مَرحبًا ببياض الشَّيْب إذ رَدِفَا

قال الجوهرى : وأَرْدَفه أمرٌ لغةٌ فى رَدِفه ، مثل تَبِعه وأتبعه بمعنى؛ قال خُزَيمة بن مالك بن نَهد:

إذا الجوزاءُ أردفتِ الثُّرَيَّا * ظَنَنتُ بآل فاطمةَ الظُّنونا

يعنى فاطمة بنت يَذْكُر بن عَنَزة أحدِ القارِظَيْن . وقال الفراء : « رَدِفَ لَكُمْ » دنا لكم ولهذا قال « لكم » . وقيل : رَدِفه ورَدِف له بمعنى فتزاد اللام للتوكيد؛ عن الفراء أيضا . كما تقول نَقَدته ونقدت له ، وكِلْته ووزنته ، وكِلْتُ له ووزنت له ؛ ونحو ذلك . « بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ » من العذابِ فكان ذلك يوم بدر . وقيل : عذاب القبر . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ فى تأخير العقوبة و إدرار الرزق ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فضله ونعمه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أى تخفى صدورهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يظهرون من الأمور . وقرأ آبن محيصن وحميد «مَا تَكُنُّ» من كَننتُ الشىء إذا سترتَه هنا . وفى « القصص » تقديره : ما تَكُنّ صدورهم عليه؛ وكأن الضمير الذى فى الصدور كالجسم الساتر . ومن قرأ « تُكِنُّ » فهو المعروف ؛ يقال : أكننت الشىء إذا أخفيته فى نفسك .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ قال الحسن : الغائبة هنا القيامة . وقيل : ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض؛ حكاه النقاش . وقال ابن شجرة : الغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم ، وهـذا عام . وإنمـا دخلت الهاء في «غَائِبَةٍ» إشارة إلى الجمع؛ أي ما من خصلة غائبة عن الخلق إلا والله عالم بها قد أثبتها في أم الكتاب عنده، فكيف يخفى عليه ما يسر هؤلاء وما يعلنونه . وقيل : أي كل شيء هو مثبت في أم الكتاب يخرجه للأجل المؤجل له ؛ فالذي يستعجلونه من العـذاب له أجل مضروب لا يتأخر عنه ولا يتقدم عليه . والكتاب اللوح المحفوظ أثبت الله فيه ما أراد ليعلم بذلك من يشاء من ملائكته .

قوله تعـالى : إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وذلك أنهم آختلفوا في كثير من الأشـياء حتى لعن بعضهم بعضا فنزلت . والمعنى : إن هذا القرآن يبين لهم ما آختلفوا فيه لو أخذوا به ، وذلك ما حرّفوه من التوراة والإنجيل، وما سقط من كتبهم من الأحكام . ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ لَهُـدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خص المؤمنـين لأنهم المنتفعون به . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ﴾ أي يقضي بين بني إسرائيل فيما آختلفوا فيه في الآخرة، فيجازي المحقّ والمبطل . وقيـل : يقضي بينهـم في الدنيا فيظهر ما حرّفوه . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ المنيع الغالب الذي لا يردّ أمره ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى فوض إليه أمرك وآعتمد عليه؛ فإنه ناصرك . ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أى الظاهر . وقيل : المظهر لمن تدبر وجه الصواب . ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ يعنى الكفار لتركهم التدبر؛ فهم كالموتى لا حسّ لهم ولا عقل. وقيل : هذا فيمن علم أنه لا يؤمن . ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ يعنى الكفار الذين هم بمنزلة الصم عن قبول المواعظ؛ فإذا دعوا إلى الخير أعرضوا وولّوا كأنهم لا يسمعون؛ نظيره «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ» كما تقدم. وقرأ آبن محيصن وحميد وآبن كثير وآبن أبى إسحق وعباس عن أبى عمرو«ولَا يَسْمَعُ» بفتح الياء والميم «الصُّمُّ» رفعا على الفاعل . الباقون «تُسْمِعُ» مضارع أسمعت «الصُّمَّ» نصبا .

مسألة — وقد آحتجت عائشة رضى الله عنها فى إنكارها أن النبى صلى الله عليه وسلم أسمع موتى بدر بهذه الآية ؛ فنظرت فى الأمر بقياس عقلى ووقفتْ مع هذه الآية . وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَا أَنتم بِأَسْمَعَ مِنهُمْ" قال ابن عطية : فيشبه أن قصة بدر خرق عادة لمحمد صلى الله عليه وسلم فى أن رد الله إليهم إدراكا سمعوا به مقاله ولولا إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقى من الكفرة، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين .

قلت : روى البخارى رضى الله عنه ؛ حدّثنى عبد الله بن محمد سمع رَوْح بن عُبادة قال حدّثنا سعيد بن أبى عَرُوبة عن قتادة قال : ذكر لنا أنس بن مالك عن أبى طلحة أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقُذِفوا فى طَوِىّ من أطواء بدر خَبيثٍ مُخْبِث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليومَ الثالث أمر براحلته فشدّ عليها رحلُها ثم مشى وتبعه أصحابُه، قالوا : ما نُرَى ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفير الرَّكِىّ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلانُ بنَ فلان و يا فلانُ بنَ فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؛ فإنا قد وجدنا ما وَعَدنا ربُّنا حقًّا فهل وجدتم ما وَعَد ربُّكم حقًّا ؛ قال فقال عمر : يا رسول الله ! ما تُكلِّم من أجساد لا أرواح لها؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم " والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم " قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخا وتصغيرا ونقمةً وحسرةً وندمًا . خرجه مسلم

Marfat.com

أيضا . قال البخارى : حدّثنى عثمان قال حدّثنا عَبْدة عن هشام عن أبيه عن آبن عمر قال : وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قليب بدر فقال: "هل وجدتم ما وَعَد ربُّكم حقًّا" ثم قال: "إنهم الآن ليعلمون أن الذى كنت أقول لهم هو الحق" ثم قرأتْ[1] « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى » حتى قرأت الآية . وقد عورضت هذه الآية بقصة بدر و بالسلام على القبور، و بما روى فى ذلك من أن الأرواح تكون على شفير القبور فى أوقات، و بأن الميت يسمع قرع النعال إذا آنصرفوا عنه، إلى غير ذلك؛ فلو لم يسمع الميت لم يُسلَّم عليه . وهذا واضح وقد بيناه فى كتاب «التذكرة» .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِى الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ أى كفرهم؛ أى ليس فى وسعك خلق الإيمان فى قلوبهم . وقرأ حمزة « وَمَا أَنْتَ تَهْدِى الْعُمْىَ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ » كقوله : « أَفَأَنْتَ تَهْدِى الْعُمْىَ » . الباقون : « بِهَادِى الْعُمْيِ » وهى آختيار أبى عبيد وأبى حاتم وفى « الروم » مثله . وكلهم وقف على « بِهَادِى » بالياء فى هذه السورة و بغير ياء فى «الروم» آتباعا للصحف إلا يعقوب فإنه وقف فيهما جميعا بالياء . وأجاز الفراء وأبو حاتم « وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمْىَ » وهى الأصل . وفى حرف عبد الله « وَمَا أَنْ تَهْدِى الْعُمْىَ » . ﴿ إِنْ تُسْمِعُ ﴾ أى ما تسمع . ﴿ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ قال آبن عباس : أى إلا من خلقته للسعادة فهم مخلصون فى التوحيد .

قوله تعالى : وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

(١) أى عائشة رضى الله عنها .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ آختلف فى معنى وقع القول وفى الدابة ؛ فقيل : معنى « وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ » وجب الغضب عليهم؛ قاله قتادة . وقال مجاهد : أى حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون . وقال آبن عمر وأبو سعيد الخدرى رضى الله عنهما : إذا لم يأمروا بالمعروف و ينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم . وقال عبد الله بن مسعود : وقع القول يكون بموت العلماء ، وذهاب العلم ، و رفع القرآن . قال عبدالله : أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يُرفع ، قالوا هذه المصاحف تُرفع فكيف بما فى صدور الرجال؟ قال : يُسرَى عليه ليلا فيصبحون منه قَفْرا ، و ينسَوْن لا إله إلا الله ، و يقعون فى قول الجاهلية وأشعارهم ؛ وذلك حين يقع القول عليهم .

قلت : أسنده أبو بكر البزار قال حدّثنا عبد الله بن يوسف الثَّقفىّ قال حدّثنا عبد المجيد آبن عبد العزيز عن موسى بن عبيدة عن صفوان بن سليم عن آبن لعبدالله بن مسعود رضى الله عنه عن أبيه أنه قال : أكثروا من زيارة هذا البيت من قبل أن يُرفَع و ينسى الناس مكانه؛ وأكثروا تلاوة القرآن من قبل أن يُرفَع ؛ قالوا : يا أبا عبد الرحمن هذه المصاحف تُرفَع فكيف بما فى صدور الرجال؟ قال : فيصبحون فيقولون كنا نتكلم بكلام ونقول قولا فيرجعون إلى شعر الجاهلية وأحاديث الجاهلية ، وذلك حين يقع القول عليهم . وقيل : القول هو قوله تعالى : « وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ » فوقوع القول وجوب العقاب على هؤلاء ، فإذا صاروا إلى حد لاتقبل تو بتهم ولا يولد لهم ولد مؤمن فحينئذ تقوم القيامة؛ ذكره القشيرى. وقول سادس : قالت حفصة بنت سيرين سألت أبا العالية عن قول الله تعالى : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ » فقال : أوحى الله إلى نوح « إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ » وكأنما كان على وجهى غطاء فكشف . قال النحاس : وهذا من حسن الجواب ؛ لأن الناس ممتحَنون ومؤخَّرون لأن فيهم مؤمنين وصالحين ، ومن قد علم الله عز وجل أنه سيؤمن و يتوب ؛ فلهذا أمهلوا وأمرنا بأخذ الجزية ، فإذا زال هذا وجب القول عليهم ، فصاروا كقوم نوح حين قال الله تعالى : « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ » .

Marfat.com

قلت : وجمع الأقوال عند التأمل ترجع إلى معنى واحد . والدليل عليه آخر الآية « إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » وقرئ « أَنَّ » بفتح الهمزة وسيأتى . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانُها [لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا](1) طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابّةُ الأرض" وقد مضى . واختلف فى تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج آختلافا كثيرا؛ قد ذكرناه فى كتاب « التذكرة» ونذكره هنا إن شاء الله تعالى مستوفى. فأول الأقوال أنه فصيل ناقة صالح وهو أصحها — والله أعلم — لما ذكره أبو داود الطيالسى فى مسنده عن حذيفة قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال : " لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج فى أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية — يعنى مكة — ثم تكمن زمانا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشو ذكرها فى البادية ويدخل ذكرها القرية" يعنى مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثم بينما الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهى ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفضّ الناس منها شتّى ومعًا وثبتت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرى وولّت فى الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى إن الرجل ليتعوّذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يافلان الآن تصلى فتقبل عليه فتسمه فى وجهه ثم تنطلق ويشترك الناس فى الأموال ويصطلحون فى الأمصار يعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن يقول يا كافر آقض حقى" وموضع الدليل من هذا الحديث أنه الفصيل قوله : "وهى ترغو" والرغاء إنما هو للإبل؛ وذلك أن الفصيل لما قتلت الناقة هرب فآنفتح له حجر فدخل فى جوفه ثم آنطبق عليه ، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عز وجل . وروى أنها دابة مزغبة شعراء، ذات قوائم طولها ستون ذراعا، ويقال إنها الجساسة؛ وهو قول عبد الله بن عمر . وروى عن آبن عمر أنها على خلقة الآدميين؛ وهى فى السحاب وقوائمها فى الأرض . وروى أنها جمعت من خلق

(1) الزيادة من صحيح مسلم .

Marfat.com

كل حيوان . وذكر المــاوردى والثعلبي رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيـل، وقرنها قرن أيل، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسـد، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هرّ ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعـير بين كل مفصل ومفصل آثنا عشر ذراعا — الزمخشرى : بذراع آدم عليـه السلام — ويخرج معها عصا موسى وخاتم سـليمان ، فتنكت فى وجه المســلم بعصا موسى نكتة بيضاء فيبيض وجهه، وتنكت فى وجه الكافر بخاتم سليمان عليه الســـلام فيسود وجهه؛ قاله ابن الزبير رضى الله عنهـما . وفى كتاب النقاش عن ابن عباس رضى الله عنهـما : إن الدابة الثعبان المشرف على جدار الكعبة التى آقتلعتها العُقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة . وحكى المــاوردى عن محمد بن كعب عن على بن أبى طالب رضى الله عنــه أنه سئل عن الدابة فقال : أما والله ما لهـا ذَنَب وإن لها للحية . قال المـاوردى : وفى هذا القول منه إشارة إلى أنها من الإنس وإن لم يصرح به .

قلت : ولهذا — والله أعلم — قال بعض المتأخرين منَ المفسرين : إن الأقرب أن تكونَ هذه الدابة إنسانا متكلما يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حىّ عن بينة. قال شيخنا الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي فى كتاب المفهم له : وإنمــا كان عند هذا القائل الأقرب لقوله تعـالى : « تُكَلِّمُهُمْ » وعلى هذا فلا يكون فى هذه الدابة آية خاصة خارقة للعادة، ولا تكون من جملة العشر الآيات المذكورة فى الحديث؛ لأن وجود المناظرين والمحتجين على أهل البدع كثير ، فلا آية خاصة بها فلا ينبغى أن تذكر مع العشر، وترتفع خصوصية وجودها إذا وقع القول، ثم فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظر الفاضــل العالم الذى على أهـل الأرض أن يسمّوه بآسم الإنسان أو بالعالم أو بالإمام إلى أن يسمّى بدابة ؛ وهـذا خروج عن عادة الفصحاء، وعن تعظيم العلمـاء ، وليس ذلك دأب العقلاء ؛ فالأولى ما قاله أهل التفسير ، والله أعلم بحقائق الأمور .

قلت — قد رفع الإشكال فى هــذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليعتمد عليه . وآختلف من أى موضع تخرج، فقال عبدالله بن عمر : تخرج من جبل الصّفا بمكة؛ يتصدع فتخرج منه . قال عبد الله بن عمرو نحوه وقال : لو شئت أن أضع قدمى على موضع خروجها

Marfat.com

لفعلت . وروى فى خبر عن النبي صـلى الله عليه وسـلم : " إن الأرض تنشق عن الدابة وعيسى عليـه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسعى وأنها تخرج من الصفا فتسم بين عينى المؤمن هو مؤمن سِمَةً كأنها كوكب درى وتسم بين عينى الكافر نكتة سـوداء كافر " وذكر فى الخبر أنها ذات وبر وريش؛ ذكره المهدوى . وعن ابن عباس أنهـا تخرج من شِعْب فتمَسّ رأسها السحاب ورجلاها فى الأرض لم تخرجا، وتخـرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام . وعن حُذَيفة : تخرج ثلاث خرجات؛ خرجة فى بعض البوادى ثم تكمُن، وخرجة فى القرى يتقاتل فيها الأمراء حتى تكثر الدماء، وخرجة من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها وأفضلها . الزمخشرى : تخرج من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسـجد؛ فقوم يَهرُبون، وقوم يقفون نظّارة . وروى عن قتادة أنهـا تخـرج فى تهامة . وروى أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فار تنّور نوح عليه السلام . وقيل : من أرض الطائف؛ قال أبو قبيل : ضرب عبد الله بن عمرو أرض الطائف برجله وقال : من هنا تخـرج الدابة التى تكلّم النـاس . وقيل : من بعض أودية تهامة؛ قاله ابن عباس . وقيل : من صخرة من شِعْب أجياد؛ قاله عبد الله بن عمرو . وقيل : من بحر سَدُوم؛ قاله وهب بن منبه . ذكر هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة المـاوردى فى كتابه . وذكر البغوى أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبـد العزيز قال : حدّثنا علىّ بن الجعـد عن فُضيل بن مرزوق الرقاشى الأغر — وسـئل عنه يحيى بن مَعين فقال ثقة — عن عطية العوفى عن ابن عمر قال تخرج الدابة من صدع فى الكعبة كجرى الفرس ثلاثة أيام لا يخرج ثلثها .

قلت : فهذه أقوال الصحابة والتابعين فى خروج الدابة وصفتها ، وهى ترد قول من قال من المفسرين : إن الدابة إنمـا هى إنسان متكلّم يناظر أهل البـدع والكفر . وقـد روى أبو أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تخـرج الدابة فتسم النـاس على خراطيمهم " ذكره المـاوردى . « تُكَلِّمُهُمْ » بضم التـاء وشدّ اللام المكسورة — من الكلام — قراءة العامة؛ يدل عليـه قراءة أبىّ « تُنَبِّئُهُمْ » . وقال السدى : تكلمهم ببطلان الأديان سوى

Marfat.com

دين الإسلام . وقيل : تكلمهم بما يسوءهم . وقيل : تكلمهم بلسان ذلق فتقول بصوت يسمعه من قرب وبعد «إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ» أى بخروجى ؛ لأن خروجها من الآيات . وتقول : ألا لعنة الله على الظالمين . وقرأ أبو زُرْعة وابن عباس والحسن وأبو رجاء «تَكْلِمُهُمْ» بفتح التاء من الكَلْم وهو الجرح ؛ قال عكرمة : أى تَسِمُهم . وقال أبو الجوزاء : سألت آبن عباس عن هذه الآية : «تُكَلِّمُهُمْ» أو «تَكْلِمُهُمْ» ؟ فقال : هى والله تُكَلِّمهم وتَكْلِمهم ؛ تُكَلِّم المؤمن وتَكْلِم الكافر والفاجر أى تجرحه . وقال أبو حاتم : «تُكَلِّمُهُمْ» كما تقول تُجَرِّحهم ؛ يذهب إلى أنه تكثير من «تَكْلِمُهُمْ» . «إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ» وقرأ الكوفيون وآبن أبى إسحق ويحيى «أَنَّ» بالفتح . وقرأ أهل الحرمين وأهل الشام وأهل البصرة «إِنَّ» بكسر الهمزة . قال النحاس : فى المفتوحة قولان وكذا المكسورة ؛ قال الأخفش : المعنى بأنّ وكذا قرأ ابن مسعود «بأَنَّ» وقال أبو عبيدة : موضعها نصب بوقوع الفعل عليها ؛ أى تخبرهم أن الناس . وقرأ الكسائى والفراء «إِنَّ النَّاسَ» بالكسر على الاستئناف . وقال الأخفش : هى بمعنى تقول إن الناس ؛ يعنى الكفار . «بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ» يعنى بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك حين لا يقبل الله من كافر إيمانا ، ولم يبق إلا مؤمنون وكافرون فى علم الله قبل خروجها ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : «وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا» أى زمرة وجماعة . «مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا» يعنى بالقرآن وبأعلامنا الدالة على الحق . «فَهُمْ يُوزَعُونَ» أى يُدفعون ويساقون إلى موضع الحساب . قال الشَّمَّاخ :

وكَمْ وَزَعْنا من خَمِيس جَحْفَلٍ * وكَمْ حَبَوْنا من رئيس مِسْحَلِ

وقال قتادة : «يُوزَعُونَ» أى يُرَدّ أولهم على آخرهم . «حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ» أى قال الله «أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي» التى أنزلتها على رسلى ، وبالآيات التى أقمتها دلالة على توحيدى . «وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا» أى ببطلانها حتى تعرضوا عنها ، بل كذبتم جاهلين غير مستدلين . «أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» تقريع وتوبيخ أى ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكروا

Marfat.com

ما فيها . ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا ﴾ أى وجب العذاب عليهم بظلمهم أى بشركهم . ﴿ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أى ليس لهم عذر ولا حجة . وقيل : يختم على أفواههم فلا ينطقون؛ قاله أكثر المفسرين .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أى يستقرون فينامون . ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى يبصر فيــه لسعى الرزق . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله . ذكر الدلالة على إلهيته وقدرته أى ألم يعلموا كمال قدرتنا فيؤمنوا .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ أى واذكر يوم أو ذكّرهم يوم ينفخ فى الصور. ومذهب الفرّاء أن المعنى : وذلكم يوم ينفخ فى الصــور ؛ وأجاز فيه الحــذف . والصحيح فى الصور أنه قرن من نور ينفخ فيه إسرافيــل . قال مجاهد : كهيئة البوق . وقيــل : هو البوق بلغة أهــل اليمن . وقد مضى فى « الأنعام »(١) بيــانه وما للعلماء فى ذلك . ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ قال أبو هريرة قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله لمــا فرغ من خلق السموات خلق الصُّــور فأعطاه إسرافيــل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخة" قلت : يا رسول الله ما الصُّور؟ قال :

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

"قرن والله عظيم والذى بعثنى بالحق إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات النفخة الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصّعق والثالثة نفخة البعث والقيام لرب العالمين" وذكر الحديث . ذكره على بن معبد والطبرى والثعلبى وغيرهم ، وصححه ابن العربى . وقد ذكرته فى كتاب « التذكرة » وتكلمنا عليه هنالك ، وأن الصحيح فى النفخ فى الصور أنهما نفختان لا ثلاث ، وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق لأن الأمرين لازمان لهما؛ أى فزعوا فزعا ماتوا منه ؛ أو إلى نفخة البعث وهو ٱختيار القشيرى وغيره؛ فإنه قال فى كلامه على هذه الآية : والمراد النفخة الثانية؛ أى يحيون فزعين يقولون : « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » ؛ ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم ؛ وهذا النفخ كصوت البوق لتجتمع الخلق فى أرض الجزاء . وقال الماوردى : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » هو يوم النشور من القبور ، قال وفى هذا الفزع قولان : أحدهما أنه الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم : فزعت إليك فى كذا إذا أسرعت إلى ندائك فى معونتك . والقول الثانى : إن الفزع هنا هو الفزع المعهود من الخوف والحزن ؛ لأنهم أزعجوا من قبورهم وخافوا . وهذا أشبه القولين .

قلت : والسنة الثابتة من حديث أبى هريرة وحديث عبد الله بن عمرو يدل على أنهما نفختان لا ثلاث ؛ خرجهما مسلم وقد ذكرناهما فى كتاب « التذكرة » وهو الصحيح إن شاء الله تعالى أنهما نفختان ؛ قال الله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » فٱستثنى هنا كما ٱستثنى فى نفخة الفزع فدل على أنهما واحدة . وقد روى ٱبن المبارك عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بين النفختين أربعون سنة الأولى يميت الله بها كل حىّ والأخرى يحيى الله بها كل ميت" فإن قيل فإن قوله تعالى : « يومَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ » إلى أن قال : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ » وهذا يقتضى بظاهره أنها ثلاث . قيل له : ليس كذلك، وإنما المراد بالزجرة النفخة الثانية التى يكون عنها خروج الخلق من قبورهم ؛ كذلك قال ٱبن عباس ومجاهد

Marfat.com

وعطاء وآبن زيد وغيرهم . قال مجاهـد : هما صيحتان أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله، وأما الأخرى فتحيي كل شيء بإذن الله . وقال عطاء : « الراجفة » القيامة و « الرادفة » البعث . وقال آبن زيد : « الراجفة » الموت و « الرادفة » الساعة . والله أعلم . « إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » ثم آختلف في هـذا المستثنى من هم . ففي حديث أبي هريرة أنهم الشهداء عنـد ربهم يرزقون إنما يصل الفزع إلى الأحياء ؛ وهو قول سعيد بن جبير أنهم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش . وقال القشـيري : الأنبياء داخلون في جملتهم ؛ لأن لهم الشهادة مع النبوّة . وقيل : الملائكة . قال الحسن : آستثنى طوائف من الملائكة يموتون بين النفختين . قال مقاتل : يعني جبريل وميكائيل وإسرافيـل وملك الموت . وقيـل : الحور العين . وقيل : هم المؤمنون ؛ لأن الله تعالى قال عقيب هذا : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِـذٍ آمِنُونَ » . وقال بعض علمائنا : والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح والكل محتمـل .

قلت : خفي عليه حديث أبي هريرة وقد صححه القاضي أبو بكر بن العربي فليعول عليه ؛ لأنه نص في التعيين وغيره آجتهاد . والله أعلم . وقيل : غير هذا على ما يأتي في « الزُّمَر » . وقوله « فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ » ماض و « يُنْفَخُ » مستقبل فيقال : كيف عطف ماض على مستقبل ؟ فزعم الفراء أن هذا محمول على المعنى ؛ لأن المعنى : إذا نفخ في الصور ففزع . « إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » نصب على الآسـتثناء . ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ قـرأ أبو عمرو وعاصم والكسائي ونافع وآبن عامر وآبن كثير « آتُوهُ » جعلوه فعلا مستقبلا . وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة وحفص عن عاصم « وَكُلٌّ أَتَوْهُ » مقصورا على الفعل المـاضي ، وكذلك قـرأه آبن مسعود . وعن قتادة « وَكُلٌّ أَتَاهُ دَاخِرِينَ » . قال النحاس : وفي كتابي عن أبي إسحق في القراءات [من قرأ][١] « وَكُلٌّ أَتَوْهُ » وحّده على لفظ « كُلّ » ومن قرأ « آتُوهُ » جمع على معناها ، وهـذا القول غلط قبيح ؛ لأنه إذا قال : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ » فلم يوحّد وإنما جمع ،

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

Marfat.com

ولو وحّد لقال : « أَتَاهُ » ولكن من قال : « أَتَوْهُ » جمع على المعنى وجاء به ماضيا لأنه رده إلى « فَفَزِعَ » ومن قرأ « وَكُلٌّ آتُوهُ » حمله على المعنى أيضا وقال « آتُوهُ » لأنها جملة منقطعة من الأول . قال ابن نصر : قد حكى عن أبي إسحق رحمه الله مالم يقله ، ونص أبي إسحق : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » ويقرأ « آتُوهُ » فمن وحّد فللفظ « كلّ » ومن جمع فلمعناها . يريد ما أتى في القرآن أو غيره من توحيد خبر « كلّ » فعلى اللفظ أو جمع فعلى المعنى ؛ فلم يأخذ أبو جعفر هذا المعنى . قال المهدوى : ومن قرأ « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » فهو فعل من الإتيان وحمل على معنى « كلّ » دون لفظها ، ومن قرأ « وَكُلٌّ آتُوهُ دَاخِرِينَ » فهو اسم الفاعل من أتى . يدلك على ذلك قوله تعالى : « وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا » . ومن قرأ « وَكُلٌّ أَتَاهُ » حمله على لفظ « كلّ » دون معناها وحمل « دَاخِرِين » على المعنى ؛ ومعناه صاغرين ؛ عن ابن عباس وقتادة . وقد مضى في «النحل»(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ قال ابن عباس : أي قائمة وهي تسير سيرا حثيثا . قال القتبي : وذلك أن الجبال تُجمَع وتُسيَّر ، فهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير ؛ وكذلك كل شيء عظيم و جمع كثير يقصر عنه النظر ، لكثرته و بعد ما بين أطرافه ، وهو في حسبان الناظر كالواقف وهو يسير . قال النابغة في وصف جيش :

بأَرْعَنَ مثل الطَّودِ تَحسبُ أنهمْ * وُقوفٌ لِحَاجٍ والرِّكَابُ تُهمْلِجُ

قال القشيرى . وهذا يوم القيامة ؛ أي هي لكثرتها كأنها جامدة ؛ أي واقفة في مرأى العين و إن كانت في أنفسها تسير سير السحاب ، والسحاب المتراكم يظن أنها واقفة وهي تسير ؛ أي تمر مر السحاب حتى لا يبقى منها شيء ، فقال الله تعالى : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » ويقال : إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها ، و إبراز ما كانت تواريه ؛ فأول الصفات الاندكاك وذلك قبل الزلزلة ، ثم تصير كالعهن المنفوش ؛ وذلك إذا صارت السماء كالمُهْل ، وقد جمع الله بينهما فقال : « يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١١١ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ» . والحالة الثالثة أن تصير كالهباء وذلك أن تنقطع بعد أن كانت كالعهن . والحالة الرابعة أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة فى مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتنسف عنها لتبرز ، فإذا نسفت فبإرسال الرياح عليها . والحالة الخامسة أن الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعا فى الهواء كأنها غبار ، فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجسادا جامدة ، وهى بالحقيقة مارة إلا أن مرورها من وراء الرياح كأنها مندكة متفتتة . والحالة السادسة أن تكون سرابا فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئا منها كالسراب . قال مقاتل : تقع على الأرض فتسوّى بها . ثم قيل هذا مَثَلٌ . قال الماوردى : وفيما ضُرب له ثلاثة أقوال : أحدها أنه مَثَلٌ ضربه الله تعالى للدنيا يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال ، وهى آخذة بحظها من الزوال كالسحاب ؛ قاله سهل بن عبد الله . الثانى : أنه مثلٌ ضربه الله للإيمان تحسبه ثابتا فى القلب وعمله صاعد إلى السماء . الثالث : أنه مثل ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش . ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أى هذا من فعل الله ، و[ما] هو فعل منه فهو متقَن . و «تَرَى» من رؤية العين ولو كانت من رؤية القلب لتعدت إلى مفعولين . والأصل تَرْأَى فألقيت حركة الهمزة على الراء فتحركت الراء وحذفت الهمزة ، وهذا سبيل تخفيف الهمزة إذا كان قبلها ساكن ، إلا أن التخفيف لازم لتَرَى . وأهل الكوفة يقرءون « تَحْسَبُهَا » بفتح السين وهو القياس ؛ لأنه من حَسِب يحسَب إلا أنه قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم خلافها أنه قرأ بالكسر فى المستقبل ، فتكون على فَعِل يفعِل مثل نَعِم ينعِم وبَئِس يبئِس وحكى يَئِس ييئِس من السالم ، لا يعرف فى كلام العرب غير هذه الأحرف. « وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » تقديره مرًّا مثل مرّ السحاب ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف والمضاف مقام المضاف إليه ؛ فالجبال تُزال من أماكنها من على وجه الأرض ، وتُجمع وتُسيَّر كما تُسيَّر السحاب ، ثم تُكسَّر فتعود إلى الأرض كما قال : «وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا» . «صُنْعَ اللَّهِ» عند الخليل وسيبويه منصوب على أنه مصدر ؛ لأنه لما قال عز وجل : «وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ» دل على أنه قد صنع ذلك صنعا . ويجوز النصب على الإغراء ؛ أى انظروا صنع الله . فيوقف

Marfat.com

على هـذا على « السَّحَابِ » ولا يوقف عليه على التقدير الأول . ويجوز رفعه على تقدير ذلك صنع الله . « الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ » أى أحكمه، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "رحم الله من عمل عملا فأتقنه" . وقال قتادة : معناه أحسن كل شىء . والإتقان الإحكام؛ يقال رجل تِقْن أى حاذق بالأشياء. وقال الزهرى: أصله من آبن تِقْن، وهو رجل من عاد لم يكن يسقط له سهم فضرب به المثل ؛ يقال : أَرْمَى من آبن تِقْن ثم يقـال لكل حاذق بالأشياء تقن . ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب قراءة الجمهور. وقرأ آبن كثير وأبو عمرو وهشام بالياء.

قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ قال آبن مسعود وآبن عباس رضى الله عنهما : الحسنة لا إله إلا الله . وقال أبو معشر : كان إبراهيم يحلف بالله الذى لا إله إلا هو ولا يستثنى أن الحسنة لا إله إلا الله محمد رسول الله . وقال على بن الحسين بن على رضى الله عنهم: غزا رجل فكان إذا خلا بمكان قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ فبينما هو فى أرض الروم فى أرض جلفاء و بردى رفع صوته فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له فخرج عليه رجل على فرس عليه ثياب بيض فقال له : والذى نفسى بيده إنها الكلمة التى قال الله تعالى « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » . وروى أبو ذر قال : قلت يا رسول الله أوصنى . قال : "آتق الله و إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها" قال قلت : يا رسـول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال : "من أفضل الحسنات" وفى رواية قال: "نعم هى أحسن الحسنات" ذكره البيهقى. وقال قتادة: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ» بالإخلاص والتوحيد. وقيل: أداء الفرائض كلها.

قلت: إذا أتى بلا إله إلا الله على حقيقتها وما يجب لهـا — على ما تقدم بيانه فى سورة إبراهيم — فقد أتى بالتوحيد والإخلاص والفرائض . « فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » قال آبن عبـاس : أى وصل إليه الخير منها؛ وقاله مجاهد . وقيل : فله الجزاء الجميل وهو الجنة . وليس « خير » للتفضيل . قال عكرمة وآبن جريج : أما أن يكون له خير منها يعنى من الإيمان فلا؛ فإنه ليس شىء خيرا ممن قال لا إله إلا الله ولكن له منها خير . وقيـل : « فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » للتفضيل أى ثواب الله خير من عمل العبد وقوله وذكره، وكذلك رضوان الله خير للعبد من فعل العبد؛

Marfat.com

قاله ابن عباس . وقيل : يرجع هـذا إلى الإضعاف فإن الله تعـالى يعطيه بالواحدة عشرا ؛ وبالإيمان فى مدّة يسيرة الثواب الأبدىّ ؛ قاله محمد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد. ﴿ وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائى « فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ » بالإضافة . قال أبو عبيد : وهذا أعجب إلىّ لأنه أعم التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم ، وإذا قال : « مِنْ فَزَعِ يَوْمَئِذٍ » صار كأنه فزع دون فزع دون فزع . قال القشيرى : وقرئ « مِنْ فَزَعٍ » بالتنوين ثم قيل يعنى به فزعا واحدا كما قال : « لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » . وقيل عنى الكثرة لأنه مصدر والمصدر صالح للكثرة .

قلت : فعلى هذا تكون القراءتان بمعنى . قال المهدوى : ومن قرأ « مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ » بالتنوين آنتصب « يومئذ » بالمصدر الذى هـو « فزع » . ويجوز أن يكون صـفة لفزع ويكون متعلقا بمحذوف؛ لأن المصادر يخبر عنها بأسماء الزمان وتوصف بها ، ويجوز أن يتعلق باسم الفاعل الذى هو «آمنون» . والإضافة على الآتساع فى الظروف . ومن حذف التنوين وفتح الميم بناه لأنه ظرف زمان ، وليس الإعراب فى ظرف الزمان متمكنا ، فلما أضيف إلى غير متمكن ولا معرب بنى . وأنشد سيبويه :

عَلَى حِينَ أَلْهَى النَّـاسَ جُلُّ أُمُورِهِمْ ＊ فَنَدْلًا زُرَيْقُ المَـالَ نَدْلَ الثَّعَالِبِ (١)

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ أى بالشرك ؛ قاله آبن عباس والنَّخَعىّ وأبو هريرة ومجاهد وقيس بن سعد والحسن، وهو إجماع من أهل التأويل فى أن الحسنة لا إله إلا الله، وأن السيئة الشرك فى هذه الآية . ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ قال آبن عباس : ألقيت . وقال الضحاك: طرحت؛ يقال كببت الإناء أى قلبته على وجهه، واللازم منه أكب؛ وقلما يأتى هذا فى كلام العرب . ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ ﴾ أى يقال لهم هل تجـزون . ثم يجوز أن يكون من قول الله، ويجوز أن يكون من قول الملائكة. ﴿ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى إلا جزاء أعمالكم.

---

(١) زريق : اسم قبيلة وهو منادى . والندل هنا الأخذ باليدين . والندل أيضا السرعة فى السير . « ندل الثعالب » : يقال فى المثل : (هو أكسب من ثعلب) لأنه يدخر لنفسه ، و يأتى على ما يعدو عليه من الحيوان إذا أمكنه . والبيت فى وصف تجار وقيل لصوص ، وقبله :

يمرون بالدهنا خفافا عيابهم ＊ ويرجعن من دارين بجر الحقائب

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا ﴾ يعنى مكة التى عظّم الله حرمتها، أى جعلها حرما آمنا؛ لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد فيها صيد، ولا يعضد فيها شجر؛ على ما تقدم بيانه فى غير موضع . وقرأ ابن عباس : «الَّتِى حَرَّمَهَا» نعتا للبلدة . وقراءة الجماعة « الذى » وهو فى موضع نصب نعت لـ « رب » ولو كان بالألف واللام لقلت المحرِّمَها ؛ فإن كانت نعتا للبلدة قلت المحرِّمِها هو ؛ لا بد من إظهار المضمر مع الألف واللام؛ لأن الفعل جرى على غير من هو له ؛ فإن قلت الذى حرمها لم تحتج أن تقول هو . ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ خلقا وملكا . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى من المنقادين لأمره، الموحِّدين له . ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ أى وأمرت أن أتلو القرآن، أى أقرأه . ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى ﴾ فله ثواب هدايته . ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ فليس علىّ إلا البلاغ ؛ نسختها آية القتال . قال النحاس . « وَأَنْ أَتْلُوَ » نصب بأن . قال الفراء : وفى إحدى القراءتين « وَأَنِ اتْلُ » وزعم أنه فى موضع جزم بالأمر فلذلك حذف منه الواو، قال النحاس : ولا نعرف أحدا قرأ هذه القراءة، وهى مخالفة لجميع المصاحف .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى على نعمه وعلى ما هدانا . ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أى فى أنفسكم وفى غيركم كما قال : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ » . ﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أى دلائل قدرته ووحدانيته فى أنفسكم وفى السموات وفى الأرض ؛ نظيره قوله تعالى : « وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » . ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

Marfat.com

قرأ أهل المدينة وأهل الشام وحفص عن عاصم بالتاء على الخطاب؛ لقوله : « سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا » فيكون الكلام على نسق واحد . الباقون بالياء على أن يرد إلى ما قبله « فَمَنِ اهْتَدَى » فأخبر عن تلك الآية . كملت السورة والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة القصص

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة إلا آية نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجحفة في وقت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وهي قوله عز وجل : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » . وقال مقاتل : فيها من المدني « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ » إلى قوله : « لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » . وهي ثمان وثمانون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ طسٓمٓ ﴾ تقدم الكلام فيه . ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ « تِلْكَ » في موضع رفع بمعنى هذه تلك و « آيَاتُ » بدل منها . ويجوز أن يكون في موضع نصب بـ«نَتْلُو» و «آيَاتُ» بدل منها أيضا؛ وتنصبها كما تقول : زيدا ضربت . و «الْمُبِينُ»

Marfat.com

أى المبين بركته وخيره، والمبين الحقّ من الباطل ، والحلال من الحرام ، وقصص الأنبياء ، ونبوّة محمد صلى الله عليه وسلم . ويقال : بان الشيء وأبان [اتضح](١) . ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ذكر قصة موسى عليه السلام وفرعون وقارون ، واحتج على مشركى قريش ، وبين أن قرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره ، وكذلك قرابة قريش لمحمد، وبين أن فرعون علا فى الأرض وتجبّر، فكان ذلك من كفره، فليجتنب العلو فى الأرض، وكذلك التعزز بكثرة المال، وهما من سيرة فرعون وقارون . «نَتْلُو عَلَيْكَ» أى يقرأ عليك جبريل بأمرنا « مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ » أى من خبرهما و «من» للتبعيض و « مِنْ نَبَإِ » مفعول «نتلو» أى نتلو عليك بعض خبرهما؛ كقوله تعالى : «تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ» . ومعنى « بِالْحَقِّ» أى بالصدق الذى لا ريب فيه ولا كذب . «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أى يصدّقون بالقرآن ويعلمون أنه من عند الله؛ فأما من لم يؤمن فلا يعتقد أنه حق .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى استكبر وتجبّر؛ قاله ابن عباس والسدى . وقال قتادة : علا فى نفسه عن عبادة ربه بكفره وادعى الربوبية . وقيل : بملكه وسلطانه فصار عاليا على من تحت يده . « فِي الْأَرْضِ » أى أرض مصر . ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أى فرقا وأصنافا فى الخدمة . قال الأعشى :

وبلدة يَرْهَبُ الجوّابُ دجلتَها * حتى تراه عليها يَبتغى الشِّيعَا

﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾ أى من بنى إسرائيل . ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ تقدّم القول فى هذا فى « البقرة »(٢) عند قوله : « يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ » الآية ؛ وذلك لأن الكهنة قالوا له : إن مولودا يولد فى بنى إسرائيل يذهب ملكك على يديه ، أو قال المنجّمون له ذلك ، أو رأى رؤيا فعبّرت كذلك . قال

(١) فى الأصل : « أفصح » وهو تحريف . والتصويب من كتب اللغة .

(٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

الزجاج: العجب من حمقه لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع، وإن كذب فلا معنى للقتل . وقيل : جعلهم شيعا فاستسخر كل قوم من بنى إسرائيل فى شغل مفرد . «إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» أى فى الأرض بالعمل والمعاصى والتجبر .

قوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى نتفضل عليهم وننعم . وهذه حكاية مضت . ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ قال ابن عباس : قادة فى الخير . مجاهد : دعاة إلى الخير . قتادة : ولاة وملوكا؛ دليله قوله تعالى : « وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا » .

قلت : وهذا أعم فإن الملك إمام يؤتم به ويقتدى به . ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ لملك فرعون؛ يرثون ملكه، ويسكنون مساكن القبط . وهذا معنى قوله تعالى : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا » .

قوله تعالى : ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى نجعلهم مقتدرين على الأرض وأهلها حتى يستولى عليها؛ يعنى أرض الشام ومصر . ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ أى ونريد أن نرى فرعون . وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وخلف « وَيَرَى » بالياء على أنه فعل ثلاثى من رأى « فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا » رفعا لأنه الفاعل . الباقون « نُرِيَ » بضم النون وكسر الراء على أنه فعل رباعى من أرى يُرِى ، وهى على نسق الكلام ؛ لأن قبله « ونريد » وبعده « ونمكن » . « فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا » نصبا بوقوع الفعل . وأجاز الفراء « وَيُرِيَ فِرْعَوْنَ » بضم الياء وكسر الراء وفتح الياء بمعنى ويرى الله فرعون ﴿ مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يدى رجل من بنى إسرائيل فكانوا على وجل « مِنْهُمْ » فأراهم الله « مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » . قال قتادة : كان حازيا لفرعون – والحازى المنجم – قال إنه سيولد فى هذه السنة مولود يذهب بملكك ؛ فأمر فرعون بقتل الولدان فى تلك السنة . وقد تقدم .

Marfat.com

قوله تعالى : وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ قد تقدم معنى الوحى ومحامله . وآختلف فى هذا الوحى إلى أم موسى ؛ فقالت فرقة : كان قولا فى منامها . وقال قتادة : كان إلهاما . وقالت فرقة : كان بملك يمثّل لها . قال مقاتل : أتاها جبريل بذلك ، فعلى هذا هو وحى إعلام لا إلهام . وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية ، وإنما إرسال المَلَك إليها على نحو تكليم المَلَك للأقرع والأبرص والأعمى فى الحديث المشهور ؛ خرجه البخارى ومسلم ، وقد ذكرناه فى سورة « براءة »[1] . وغير ذلك مما روى من تكليم الملائكة للناس من غير نبوّة ، وقد سلمت على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نبيا . وآسمها أيارخا وقيل أيارخت فيما ذكر السهيلى . وقال الثعلبى : وآسم أم موسى لوحا[2] بنت هاند بن لاوى بن يعقوب . « أَنْ أَرْضِعِيهِ » وقرأ عمر ابن عبد العزيز « أَنِ ٱرْضِعِيهِ » بكسر النون وألف وصل ؛ حذف همزة أرضع تخفيفا ثم كسر النون لالتقاء الساكنين . قال مجاهد : وكان الوحى بالرضاع قبل الولادة . وقال غيره بعدها . قال السدى : لما ولدت أم موسى موسى أمرت أن ترضعه عقيب الولادة وتصنع به ما فى الآية ؛ لأن الخوف كان عقيب الولادة . وقال آبن جريج : أمرت بإرضاعه أربعة أشهر فى بستان ، فإذا خافت أن يصيح — لأن لبنها لا يكفيه — صنعت به هذا . والأول أظهر إلا أن الآخر يعضده قوله : « فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ » و « إِذَا » لما يستقبل من الزمان ؛ فيروى أنها

---

(١) رجع جـ ٨ ص ١٨٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) وقيل فى آسمها أيضا : يوخابذ . وقيل : يوخاييل ؛ وقيل غير ذلك .

Marfat.com

اتخذت له تابوتا من بَرْدِى وقيَّرته بالقار من داخله ، ووضعت فيه موسى وألقته فى نيل مصر . وقد مضى خبره فى « طـه »(١) . قال ابن عباس : إن بنى إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصى، فسلط الله عليهم القبط، وساموهم سوء العذاب، إلى أن نجاهم الله على يد موسى . قال وهب: بلغنى أن فرعون ذبح فى طلب موسى سبعين ألف وليد. ويقال: تسعون ألفا. ويروى أنها حين اقتربت وضربها الطلق، وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها، فقالت : لينفعنى حُبُّك اليوم، فعالجتها فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه، وارتعش كل مَفْصِل منها، ودخل حبّه قلبها، ثم قالت : ما جئتكِ إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون ، ولكنى وجدت لابنك حبًّا ما وجدت مثله قط ، فاحفظيه ؛ فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته فى خرقة ووضعته فى تنّور مسجور نارا لم تعلم ما تصنع لما طاش عقلها ، فطلبوا فلم يلقوا شيئا، فخرجوا وهى لا تدرى مكانه ، فسمعت بكاءه من التنّور ، وقد جعل الله عليه النار بردا وسلاما .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ فيه وجهان : أحدهما — لا تخافى عليه الغرق ؛ قاله ابن زيد . الثانى — لا تخافى عليه الضيعة؛ قاله يحيى بن سلّام . ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ فيه أيضا وجهان : أحدهما — لا تحزنى لفراقه؛ قاله ابن زيد . الثانى — لا تحزنى أن يقتل؛ قاله يحيى بن سلّام . فقيل : إنها جعلته فى تابوت طوله خمسة أشبار وعرضه خمسة أشبار ، وجعلت المفتاح مع التابوت وطرحته فى اليم بعد أن أرضعته أربعة أشهر . وقال آخرون : ثلاثة أشهر . وقال آخرون : ثمانية أشهر ؛ فى حكاية الكلبى . وحكى أنه لما فرغ النجار من صنعة التابوت نمّ إلى فرعون بخبره، فبعث معه من يأخذه ، فطمس الله عينيه وقلبه فلم يعرف الطريق، فأيقن أنه المولود الذى يخاف منه فرعون، فآمن من ذلك الوقت؛ وهو مؤمن آل فرعون؛ ذكره الماوردى . وقال ابن عباس : فلما توارى عنها ندّمها الشيطان وقالت فى نفسها : لو ذبح عندى فكفنته وواريته لكان أحب إلىّ من إلقائه فى البحر ؛

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى إلى أهل مصر . حكى الأصمعى قال : سمعت جارية أعرابية تنشد وتقول :

أستغفر الله لذنبي كلّه * قبّلتُ إنساناً بغير حِلّه
مثل الغزال ناعماً في دَلّه * فانتصف الليلُ ولم أُصلّه

فقلت : قاتلك الله ما أفصحك ! فقالت : أو يعدّ هذا فصاحة مع قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ » الآية ؛ فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ لما كان التقاطهم إياه يؤدّى إلى كونه لهم عدوا وحزنا ؛ فاللام فى « ليكون » لام العاقبة ولام الصيرورة ؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين ، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدوا وحزنا ، فذكر الحال بالمآل ؛ كما قال الشاعر :

وللمنايا تُربِّى كلُّ مُرضِعةٍ * ودُورُنا لخراب الدهر نَبْنِيها

وقال آخر :

فللموت تَغْذُو الوالداتُ سِخالَها * كما لخراب الدهر تُبنَى المساكنُ

أى فعاقبة البناء الخراب و إن كان فى الحال مفروحا به . والالتقاط وجود الشيء من غير طلب ولا إرادة ، والعرب تقول لما وجدته من غير طلب ولا إرادة : التقطه التقاطا . ولقيت فلانا التقاطا . قال الراجز[1] :

* ومَنْهَلٍ وردتُه التقاطا *

ومنه اللقطة . وقد مضى بيان ذلك من الأحكام فى سورة « يوسف[2] » بما فيه كفاية . وقرأ الأعمش ويحيى والمفضل وحمزة والكسائى وخلف « وَحُزْنًا » بضم الحاء وسكون الزاى . الباقون بفتحهما واختاره أبو عبيد . وأبو حاتم قال التفخيم[3] فيه . وهما لغتان مثل العَدَم

(١) هو نقادة الأسدى ، كما فى اللسان مادة « لقط » . (٢) راجع جـ ٩ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) التفخيم فى اصطلاح القراء : الفتح .

Marfat.com

والعُدْم، والسُّقَم والسُّقْم، والرَّشَد والرُّشْد . ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ وكان وزيره من القبط . ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أى عاصين مشركين آثمين .

قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ يروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم فى البحر، فأمرت بسوقه إليها وفتحه، فرأت فيه صبيا صغيرا فرحمته وأحبته؛ فقالت لفرعون : « قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » أى هو قرة عين لى ولك فـ « قُرَّتُ » خبر ابتداء مضمر؛ قاله الكسائى . وقال النحاس : وفيه وجه آخر بعيد ذكره أبو إسحق ؛ [قال][1] : يكون رفعا بالابتداء والخبر «لَا تَقْتُلُوهُ» وإنما بَعُد لأنه يصير المعنى أنه معروف بأنه قرة عين . وجوازه أن يكون المعنى : إذا كان قرة عين لى ولك فلا تقتلوه . وقيل : تم الكلام عند قوله : « ولك » . النحاس : والدليل على هذا أن فى قراءة عبد الله بن مسعود « وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ لَا تَقْتُلُوهُ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » . ويجوز النصب بمعنى لا تقتلوا قرة عين لى ولك . وقالت : « لَا تَقْتُلُوهُ » ولم تقل لا تقتله فهى تخاطب فرعون كما يخاطَب الجبّارون ؛ وكما يخبرون عن أنفسهم . وقيل : قالت « لَا تَقْتُلُوهُ » فإن الله أتى به من أرض أخرى وليس من بنى إسرائيل . ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ فنصيب منه خيرا ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وكانت لا تلد ، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها ، وكان فرعون لما رأى الرؤيا وقصها على كهنته وعلمائه — على ما تقدّم — قالوا له : إن غلاما من بنى إسرائيل يفسد ملكك ؛ فأخذ بنى إسرائيل بذبح الأطفال ، فرأى أنه يقطع نسلهم ، فعاد يذبح عاما ويستحيي عاما ، فولد هرون فى عام الاستحياء، وولد موسى فى عام الذبح .

قوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذا ابتدأ كلام من الله تعالى ؛ أى وهم لا يشعرون أن هلاكهم بسببه . وقيل : هو من كلام المرأة؛ أى وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه ، ولا يشعرون إلا أنه ولدنا . واختلف المتأولون فى الوقت الذى قالت فيه امرأة فرعون « قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » فقالت فرقة : كان ذلك عند التقاطه التابوت لما أشعرت فرعون به ،

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

Marfat.com

ولما أعلمته سبق إلى فهمه أنه من بنى إسرائيل، وأن ذلك قصد به ليتخلص من الذبح فقال: علىّ بالذباحين؛ فقالت آمرأته ما ذُكر ؛ فقال فرعون : أمّا لى فلا . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لو قال فرعون نعم لآمن بموسى ولكان قرة عين له " وقال السدى : بل ربّته حتى دَرَج ، فرأى فرعون فيه شهامة وظنه من بنى إسرائيل وأخذه فى يده ، فمد موسى يده ونتف لحية فرعون، فهمّ حينئذ بذبحه، وحينئذ خاطبته بهذا، وجربته له فى الياقوتة والجمرة، فاحترق لسانه وعلق العقدةَ على ما تقدّم فى « طـه »[(١)] . قال الفراء : سمعت محمد بن مروان الذى يقال له السدى يذكر عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال : إنما قالت « قُرَّةُ عَيْنٍ لِى وَلَكَ لَا » ثم قالت : « تَقْتُلُوهُ » قال الفراء : وهو لحن؛ قال آبن الأنبارى : وإنما حكم عليه باللحن؛ لأنه لو كان كذلك لكان تقتلونه بالنون؛ لأن الفعل المستقبل مرفوع حتى يدخل عليه الناصب أو الجازم، فالنون فيه علامة الرفع . قال الفراء : ويقويك على رده قراءة عبد الله بن مسعود « وَقَالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لَا تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِى وَلَكَ » بتقديم « لَا تَقْتُلُوهُ » .

قوله تعالى : وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عمران الجونى وأبو عبيدة : « فَارِغًا » أى خاليا من ذكر كل شيء فى الدنيا إلا من ذكر موسى . وقال الحسن أيضا وابن إسحق وابن زيد : «فارغا» من الوحى إذ أوحى إليها حين أمرت أن تلقيه فى البحر « وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي » والعهد الذى عهده إليها أن يرده ويجعله من المرسلين؛ فقال لها الشيطان : يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى فغرقتيه أنت ! ثم بلغها أن ولدها وقع فى يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها . وقال أبو عبيدة : « فَارِغًا » من الغم والحزن لعلمها أنه لم يغرق ؛ وقاله الأخفش أيضا . وقال العلاء بن زياد : « فارغا » نافرا . الكسائى : ناسيا ذاهلا . وقيل : والها ؛ رواه سعيد بن جبير . ابن القاسم عن مالك : هو ذهاب العقل ؛ والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش ، ونحوه قوله تعالى : « وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ » أى جوف لا عقول لها كما تقدم فى سورة « إبراهيم »[(١)] . وذلك أن القلوب مراكز العقول ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : « فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا » ويدل عليه قراءة من قرأ « فَزِعًا » . النحاس : أصح هذه الأقوال الأول ، والذين قالوه أعلم بكتاب الله عز وجل ؛ فإذا كان فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحى . وقول أبى عبيدة فارغا من الغم غلط قبيح ؛ لأن بعده « إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا » . روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كادت تقول وا ابناه ! وقرأ فضالة ابن عبيد الأنصارى رضى الله عنه ومحمد بن السَّمَيْقع وأبو العالية وابن محيصن « فَزِعًا » بالفاء والعين المهملة من الفزع ؛ أى خائفة عليه أن يقتل . ابن عباس : « قَرِعًا » بالقاف والراء والعين المهملتين ، وهى راجعة إلى قراءة الجماعة « فَارِغًا » ولذلك قيل للرأس الذى لا شعر عليه : أقرع ؛ لفراغه من الشعر . وحكى قطرب أن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قرأ « فِرْغًا » بالفاء والراء والغين المعجمة من غير ألف ، وهو كقولك : هدرا وباطلا ؛ يقال :

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٧٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

دماؤهم بينهم فِرْغ أى هدر ؛ والمعنى بطل قلبها وذهب وبقيت لا قلب لها من شدة ماورد عليها . وفى قوله تعالى « وَأَصْبَحَ » وجهان : أحدهما — أنها ألقته ليلا فأصبح فؤادها فى النهار فارغا . الثانى — أنها ألقته نهارا ومعنى « أصبح » أى صار ؛ كما قال الشاعر :

مضى الخلفاء بالأمر الرشيد * وأصبحت المدينة للوليد

﴿ إِنْ كَادَتْ ﴾ أى إنها كادت ؛ فلما حذفت الكناية سكنت النون ، فهى « إن » المخففة ولذلك دخلت اللام فى ﴿ لَتُبْدِى بِهِ ﴾ أى لتظهر أمره ؛ من بدا يبدو إذا ظهر . قال ابن عباس : أى تصيح عند إلقائه : وا ابناه . السدى : كادت تقول لما حملت لإرضاعه وحضانته هو ابنى . وقيل : إنه لما شبّ سمعت الناس يقولون موسى بن فرعون ، فشق عليها وضاق صدرها ، وكادت تقول هو ابنى . وقيل : الهاء فى « به » عائدة إلى الوحى تقديره : إن كادت لتبدى بالوحى الذى أوحيناه إليها أن نرده عليها . والأول أظهر . قال ابن مسعود : كادت تقول أنا أمه . وقال الفراء : إن كادت لتبدى باسمه لضيق صدرها . ﴿ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ قال قتادة : بالإيمان . السدى : بالعصمة . وقيل : بالصبر. والربط على القلب : إلهام الصبر . ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى من المصدقين بوعد الله حين قال لها : « إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ » . وقال « لَتُبْدِى بِهِ » ولم يقل : لتبديه ؛ لأن حروف الصفات قد تزاد فى الكلام ؛ تقول : أخذت الحبل وبالحبل . وقيل : أى لتبدى القول به .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أى قالت أم موسى لأخت موسى : اتبعى أثره حتى تعلمى خبره . واسمها مريم بنت عمران ؛ وافق اسمها اسم مريم أم عيسى عليه السلام ؛ ذكره السهيلى والثعلبى . وذكر الماوردى عن الضحاك : أن اسمها كلثمة . وقال السهيلى : كلثوم ؛ جاء ذلك فى حديث رواه الزبير بن بكار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : "أشعرت أن الله زوجنى معك فى الجنة مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وآسية امرأة فرعون" فقالت : آلله أخبرك بهذا ؟ فقال : "نعم" فقالت بالرفاء والبنين . ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ أى بعد ؛ قاله مجاهد . ومنه الأجنبى .

Marfat.com

قال الشاعر[1] :

فَلَا تَحْرِمَنِّي نائِلًا عن جَنَابةٍ * فإنّي آمرؤٌ وسْطَ القِبابِ غَريبُ

وأصله عن مكان جنب . وقال آبن عباس : « عَنْ جُنُبٍ » أى من جانب . وقرأ النعمان آبن سالم « عن جانِبٍ » أى عن ناحية . وقيل : عن شوق؛ وحكى أبو عمرو بن العلاء أنها لغة لجذام ؛ يقولون : جنبت إليك أى آشتقت . وقيل : « عن جنبٍ » أى عن مجانبة لها منه فلم يعرفوا أنها منه بسبيل. وقال قتادة : جعلت تنظر إليه بناحية [كأنها[2]] لا تريده، وكان يقرأ « عَنْ جَنْبٍ » بفتح الجيم و إسكان النون . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنها أخته لأنها كانت تمشى على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه .

قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى منعناه من الآرتضاع من قبل ؛ أى من قبل مجىء أمه وأخته . و « المراضع » جمع مُرْضِع ، ومن قال مراضيع . فهو جمع مِرضاع ، ومفعال يكون للتكثير ، ولا تدخل الهاء فيه فرقا بين المؤنث والمذكر لأنه ليس بجارٍ على الفعل ، ولكن من قال مِرضاعة جاء بالهاء للمبالغة ؛ كما يقال مِطرابة . قال آبن عباس : لا يؤتى بمرضع فيقبلها . وهذا تحريم منع لا تحريم شرع ؛ قال آمرؤ القيس :

جَالَتْ لِتصرعَني فقلتُ لها آقْصِرِى * إنّى آمرؤٌ صَرْعِى عليكِ حَرَامُ[3]

أى ممتنع . فلما رأت أخته ذلك قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ الآية . فقالوا لها عند قولها : ﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ وما يدريك ؟ لعلكِ تعرفين أهله ؟ فقالت : لا ؛ ولكنهم يحرصون على مَسرّة الملك ، ويرغبون فى ظِئْره . وقال السدى وآبن جُرَيج : قيل لها لما قالت « وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ » قد عرفتِ أهل هذا الصبى فدلينا عليهم ؛ فقالت : أردت وهم للملك ناصحون . فدلتهم على أم موسى ، فآنطلقت إليها بأمرهم فجاءت بها ، والصبىّ على يد فرعون يعلله شفقة عليه ، وهو يبكى يطلب الرضاع ، فدفعه إليها ؛ فلما وجد الصبىّ

(١) هو علقمة بن عبدة ، قاله يخاطب به الحرث بن جبلة يمدحه ، وكان قد أسر أخاه شأسا — وأراد بالنائل إطلاق أخيه شأس من سجنه — فأطلق له أخاه شأسا ومن أسر معه من بنى تميم . (٢) الزيادة من كتب التفسير.
(٣) جالت : قلقت . يقول : ذهبت الناقة بقلقها ونشاطها لتصرعنى فلم تقدر على ذلك لحذقى بالركوب ومعرفتى به .

Marfat.com

ريح أمه قبل ثديها . وقال ٱبن زيد : ٱسترابوها حين قالت ذلك فقالت وهم للملك ناصحون . وقيل : إنها لما قالت « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ » وكانوا يبالغون في طلب مرضعة يقبل ثديها فقالوا : من هي ؟ فقالت : أمّى ؛ فقيل : لها لبن ؟ قالت : نعم ! لبن هرون — وكان ولد في سنة لا يقتل فيها الصبيان — فقالوا صدقت والله . « وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ » أي فيهم شفقة ونصح ؛ فروى أنه قيل لأم موسى حين ٱرتضع منها : كيف ٱرتضع منك ولم يرتضع من غيرك ؟ فقالت : إني ٱمرأة طيبة الريح طيبة اللبن ، لا أكاد أوتى بصبيّ إلا ٱرتضع مني . قال أبو عمران الجوني : وكان فرعون يعطى أمّ موسى كل يوم دينارا . قال الزمخشري : فإن قلت كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها ؟ قلت : ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ، ولكنه مال حربيّ تأخذه على وجه الاستباحة .

قوله تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ ﴾ أي رددناه وقد عطّف الله قلب العدوّ عليه ، ووفينا لها بالوعد . ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ أي بولدها . ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أي بفراق ولدها . ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي لتعلم وقوعه فإنها كانت عالمة بأن رده إليها سيكون . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني أكثر آل فرعون لا يعلمون ؛ أي كانوا في غفلة عن التقدير وسر القضاء . وقيل : أي أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله في كل ما وعد حق .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ قد مضى الكلام في الأشد في « الأنعام »(1) . وقول ربيعة ومالك أنه الحُلُم أولى ما قيل فيه ؛ لقوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ » وذلك أول الأشد ، وأقصاه أربع وثلاثون سنة ؛ وهو قول سفيان الثوري . و « ٱستوى » قال ٱبن عباس : بلغ أربعين سنة . والحكم : الحكمة قبل النبوّة . وقيل : الفقه في الدين . وقد مضى بيانها في « البقرة »(2) وغيرها . والعلم الفهم قول السدي . وقيل : النبوّة . وقال مجاهد : الفقه . محمد بن إسحق : أي العلم بما في دينه ودين آبائه ؛ وكان له تسعة من بني إسرائيل يسمعون منه ، ويقتدون به ، ويجتمعون إليه ، وكان هذا قبل النبوّة .

---

(1) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع جـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

Marfat.com

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أى كما جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصدّقت بوعد الله؛ فرددنا ولدها إليها بالتحف والطرف وهى آمنة، ثم وهبنا له العقل والحكمة والنبوّة؛ وكذلك نجزى كل محسن.

قوله تعالى: وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: لما عرف موسى عليه السلام ما هو عليه من الحق فى دينه، عاب ما عليه قوم فرعون؛ وفشا ذلك منه فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفا مستخفيا. وقال السدى: كان موسى فى وقت هذه القصة على رسم التعلق بفرعون، وكان يركب مراكبه، حتى كان يدعى موسى ابن فرعون؛ فركب فرعون يوما وسار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لها منف — قال مقاتل على رأس فرسخين من مصر — ثم علم موسى بركوب فرعون، فركب بعده ولحق بتلك القرية فى وقت

Marfat.com

القائلة، وهو وقت الغفلة ؛ قاله آبن عباس . وقال أيضا : هو بين العشاء والعتمة . وقال آبن إسحق : بل المدينة مصر نفسها، وكان موسى فى هذا الوقت قد أظهر خلاف فرعون، وعاب عليهم عبادة فرعون والأصنام، فدخل مدينة فرعون يوما على حين غفلة من أهلها . قال سعيد بن جبير وقتادة: وقت الظهيرة والناس نيام . وقال آبن زيد : كان فرعون قد نابذ موسى وأخرجه من المدينة، وغاب عنها سنين، وجاء والناس على غفلة بنسيانهم لأمره، وبعد عهدهم به، وكان ذلك يوم عيد. وقال الضحاك: طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها ، فدخلها حين علم ذلك منهم، فكان منه من قتل الرجل من قبل أن يؤمر بقتله ، فآستغفر ربه فغفر له . ويقال فى الكلام: دخلت المدينة حين غفل أهلها، ولا يقال: على حين غفل أهلها؛ فدخلت «على» فى هذه الآية لأن الغفلة هى المقصودة؛ فصار هذا كما تقول: جئت على غفلة ، وإن شئت قلت : جئت على حين غفلة ، وكذا الآية . ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِ ﴾ والمعنى : إذا نظر إليهما الناظر قال هـذا من شيعته ؛ أى من بنى إسرائيل . ﴿وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أى من قوم فرعون. ﴿فَٱسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِ﴾ أى طلب نصره وغوثه، وكذا قال فى الآية بعدها : «فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ» أى يستغيث به على قبطى آخر. وإنما أغاثه لأن نصر المظلوم دين فى الملل كلها على الأمم ، وفرض فى جميع الشرائع . قال قتادة : أراد القبطى أن يسخر الإسرائيلى ليحمل حطبا لمطبخ فرعون فأبى عليه ، فآستغاث بموسى . قال سعيد بن جبير : وكان خبازا لفرعون. ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ ﴾ قال قتادة : بعصاه . وقال مجاهد : بكفه؛ أى دفعه . والوكز واللكز واللهز واللهد بمعنى واحد ، وهو الضرب بجمع الكف مجموعا كعقد ثلاثة وسبعين . وقرأ آبن مسعود « فَلَكَزَهُ » . وقيل : اللكز فى اللحى والوكز على القلب. وحكى الثعلبى أن فى مصحف عبد الله بن مسعود « فَنَكَزَهُ » بالنون والمعنى واحد . وقال الجوهرى عن أبى عبيدة : اللكز الضرب بالجمع على الصدر . وقال أبو زيد : فى جميع الجسد ، واللهز : الضرب بجمع اليد فى الصدر مثل اللكز ؛ عن أبى عبيدة أيضا . وقال أبو زيد : هو بالجمع فى اللهازم والرقبة ؛ والرجل ملهز بكسر الميم .

Marfat.com

وقال الأصمعي : نَكَزه، أي ضربه ودفعه . الكسائي : نَهَزَه مثل نَكَزه ووَكَزه، أي ضربه ودفعه . ولَهَده لَهْدا أي دفعه لذلّه فهو ملهود، وكذلك لَهَّده، قال طَرَفة يذمّ رجلا :

بطيء عن الدّاعي سريع إلى الخنا * ذَلُول بأجْماع الرجالِ مُلَهَّـدِ (١)

أي مُدفَّع وإنما شدّد للكثرة . وقالت عائشة رضى الله عنها : فلَهَدني — تعني النبي صلى الله عليه وسلم — لَهْدة أوجعني ؛ خرجه مسلم . ففعل موسى عليه السلام ذلك وهو لا يريد قتله، إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه ، وهو معنى « فَقَضَى عَلَيْهِ » . وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه قضيت عليه . قال (٢) :

* قَدْ عَضَّهُ فَقَضَى عليه الأَشْجَعُ *

﴿ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي من إغوائه . قال الحسن : لم يكن يحل قتل الكافر يومئذ في تلك الحال ؛ لأنها كانت حال كفّ عن القتال . ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ خبر بعد خبر . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ ندم موسى عليه السلام على ذلك الوكز الذي كان فيه ذهاب النفس، فحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه . قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر؛ ثم لم يزل صلى الله عليه وسلم يعدد ذلك على نفسه، مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى أنه في القيامة يقول : إني قتلت نفسا لم أومر بقتلها . وإنما عدده على نفسه ذنبا . وقال : « ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي » من أجل أنه لا ينبغي لنبيّ أن يقتل حتى يؤمر ، وأيضا فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم . قال النقاش : لم يقتله عن عمد مريدا للقتل ، وإنما وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه . قال وقد قيل : إن هذا كان قبل النبوّة . وقال كعب : كان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة، وكان قتله مع ذلك خطأ؛ فإن الوكزة واللكزة في الغالب لا تقتل . وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : ياأهل العراق! ما أسألكم عن الصغيرة، وأركبكم للكبيرة! سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول سمعت

(١) ويروى : « عن الجلى » . والذلول ضد الصعب . ويروى : « ذليل » . وأجماع جمع (جمع) وهو ظهر الكف إذا جمعت أصابعك وضممتها. (٢) هو جرير. والأشجع يريد به الشجاع من الحيات . وصدر البيت :

* أيفايشون وقد رأوا حفاثهم *

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الفتنة تجيء من هاهنا — وأومأ بيده نحو المشرق — من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا » " .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى: « قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » أى من المعرفة والحكمة والتوحيد « فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ » أى عونا للكافرين . قال القشيرى : ولم يقل بما أنعمت علىّ من المغفرة ؛ لأن هذا قبل الوحى، وما كان عالما بأن الله غفر له ذلك القتل . وقال الماوردى : « بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » فيه وجهان : أحدهما — من المغفرة؛ وكذلك ذكر المهدوى والثعلبى . قال المهدوى : « بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » من المغفرة فلم تعاقبنى . الوجه الثانى — من الهداية .

قلت : « فَغَفَرَ لَهُ » يدل على المغفرة؛ والله أعلم . قال الزمخشرى قوله تعالى : « بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » يجوز أن يكون قسما جوابه محذوف تقديره ؛ أقسم بإنعامك علىّ بالمغفرة لأتوبنّ « فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ » . وأن يكون آستعطافا كأنه قال : رب آعصمنى بحق ما أنعمت علىّ من المغفرة فلن أكون إن عصمتنى ظهيرا للجرمين . وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وآنتظامه فى جملته، وتكثير سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى آبن فرعون ؛ وإما بمظاهرة من أدّت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلىّ المؤدّية إلى القتل الذى لم يحل له قتله . وقيل : أراد إنى وإن أسأت فى هذا القتل الذى لم أومر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين؛ فعلى هذا كان الإسرائيلىّ مؤمنا ونصرة المؤمن واجبة فى جميع الشرائع . وقيل فى بعض الروايات : إن ذلك الإسرائيلى كان كافرا ، وإنما قيل له إنه من شيعته لأنه كان إسرائيليا ولم يرد الموافقة فى الدين ؛ فعلى هذا ندم لأنه أعان كافرا على كافر، فقال : لا أكون بعدها ظهيرا للكافرين . وقيل : ليس هذا خبرا بل هو دعاء ؛ أى فلا أكون بعد هذا ظهيرا ؛ أى فلا تجعلنى يا رب ظهيرا للجرمين . وقال الفراء :

Marfat.com

المعنى؛ اللهم فلن أكون ظهيرا للجرمين؛ وزعم أن قوله هذا هو قول ابن عباس. قال النحاس: وأن يكون بمعنى الخبر أولى وأشبه بنسق الكلام؛ كما يقال: لا أعصيك لأنك أنعمت علىّ؛ وهذا قول ابن عباس على الحقيقة لا ما حكاه الفراء؛ لأن آبن عباس قال: لم يستثن فآبتلى من ثانى يوم؛ والآستثناء لا يكون فى الدعاء، لا يقال: اللهم آغفر لى إن شئت؛ وأعجب الأشياء أن الفراء روى عن آبن عباس هذا ثم حكى عنه قوله.

قلت: قد مضى هذا المعنى ملخصا مبينا فى سورة «النمل» وأنه خبر لا دعاء. وعن ابن عباس: لم يستثن فآبتلى به مرة أخرى؛ يعنى لم يقل فلن أكون إن شاء الله. وهذا نحو قوله: «وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا».

الثانيــة — قال سلمة بن نُبَيط: بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك بعطاء أهل بخارى وقال: أعطهم؛ فقال: أعفنى؛ فلم يزل يستعفيه حتى أعفاه. فقيل له ما عليك أن تعطيهم وأنت لا ترزؤهم شيئا؟ وقال: لا أحب أن أعين الظلمة على شيء من أمرهم. وقال عبد الله بن الوليد الوَصّافى قلت لعطاء بن أبى رَبَاح: إن لى أخا يأخذ بقلمه، وإنما يحسب ما يدخل ويخرج، وله عيال ولو ترك ذلك لاحتاج وآدّانَ؟ فقال: مَن الرأس؟ قلت: خالد بن عبد الله القَسْرىّ؛ قال: أما تقرأ ما قال العبد الصالح «رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ» قال آبن عباس: فلم يستثن فآبتلى به ثانية فأعانه الله، فلا يعينهم أخوك فإن الله يعينه — قال عطاء: فلا يحل لأحد أن يعين ظالما ولا يكتب له ولا يصحبه، وأنه إن فعل شيئا من ذلك فقد صار معينا للظالمين. وفى الحديث: "ينادى منادٍ يوم القيامة أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة حتى من لاَقَ لهم دَوَاة أو بَرَى لهم قلما فيُجمعون فى تابوت من حديد فيُرمى به فى جهنم". ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبّت الله قدميه على الصراط يوم القيامة يوم تزل فيه الأقدام ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه أزلّ الله قدميه على الصراط يوم تَدْحَض فيه الأقدام". وفى الحديث: "من مشى مع ظالم فقد أجرم" فالمشى مع الظالم لا يكون جرما

Marfat.com

إلا إذا مشى معه ليعينه ، لأنه آرتكب نهى الله تعالى فى قوله سبحانه وتعالى : « وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » .

قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا ﴾ قد تقدم فى « طه »[(1)] وغيرها أن الأنبياء صلوات الله عليهم يخافون ؛ ردّا على من قال غير ذلك ، وأن الخوف لا ينافى المعرفة بالله ولا التوكل عليه ؛ فقيل : أصبح خائفا من قتل النفس أن يؤخذ بها . وقيل : خائفا من قومه أن يسلموه . وقيل : خائفا من الله تعالى . ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ قال سعيد بن جبير : يتلفت من الخوف . وقيل : ينتظر الطلب، و ينتظر ما يتحدّث به الناس . وقال قتادة : «يترقب» أى يترقب الطلب . وقيل : خرج يستخبر الخبر ولم يكن أحد علم بقتل القبطى غير الإسرائيلى . و « أصبح » يحتمل أن يكون بمعنى صار ؛ أى لما قتل صار خائفا . ويحتمل أن يكون دخل فى الصباح ؛ أى فى صباح اليوم الذى يلى يومه . و « خَائِفًا » منصوب على أنه خبر أصبح، وإن شئت على الحال ، ويكون الظرف فى موضع الخبر . ﴿ فَإِذَا الَّذِي آسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ أى فإذا صاحبه الإسرائيلى الذى خلّصه بالأمس يقاتل قبطيا آخر أراد أن يسخره . والآستصراخ الآستغاثة . وهو من الصراخ ؛ وذلك لأن المستغيث يصرخ و يصوّت فى طلب الغَوْث . قال[(2)] :

كُنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فَـزِعٌ * كَانَ الصُّراخُ له قرعَ الظَّنَابِيب

قيل : كان هذا الإسرائيلىّ المستنصر السامرىّ آستسخره طباخ فرعون فى حمل الحطب إلى المطبخ؛ ذكره القشيرى . و « الذى » رفع بالابتداء و « يستصرخه » فى موضع الخبر . ويجوز أن يكون فى موضع نصب على الحال . وأمس لليوم الذى قبل يومك ، وهو مبنى على الكسر لآلتقاء الساكنين، فإذا دخله الألف واللام أو الإضافة تمكن فأعرب بالرفع والفتح عند أكثر النحويين . ومنهم من يبنيه وفيه الألف واللام . وحكى سيبويه وغيره أن

(1) راجع جـ ١١ ص ٢٠٢ طبعة أولى أو ثانية .

(2) هو سلامة بن جندل . والظنابيب (جمع ظنبوب) : وهو حرف العظم اليابس من الساق . والمراد سرعة الإجابة .

Marfat.com

من العرب من يجرى أمس مجرى ما لا ينصرف فى موضع الرفع خاصة، وربما آضطر الشاعر ففعل هذا فى الخفض والنصب؛ قال الشاعر:

* لقد رأيتُ عجبًا مُذْ أَمْسَا *

نخفض بمذ ما مضى واللغة الجيدة الرفع؛ فأجرى أمس فى الخفض مجراه فى الرفع على اللغة الثانية. ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ والغوى الخائب؛ أى لأنك تشادّ من لا تطيقه. وقيل: مضلّ بيّن الضلالة؛ قتلت بسببك أمس رجلا، وتدعونى اليوم لآخر. والغوى فعيل من أغوى يُغوى، وهو بمعنى مُغوٍ؛ وهو كالوجيع والأليم بمعنى الموجِع والمؤلم. وقيل: الغوى بمعنى الغاوى. أى إنك لغوى فى قتال من لا تطيق دفع شره عنك. وقال الحسن: إنما قال للقبطى «إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ» فى آستسخار هذا الإسرائيلى وهمّ أن يبطش به. يقال بَطَش يَبطُش ويبطِش والضم أقيس لأنه فعل لا يتعدى. ﴿ قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي ﴾ قال آبن جبير. أراد موسى أن يبطش بالقبطى فتوهم الإسرائيلى أنه يريده؛ لأنه أغلظ له فى القول؛ فقال: «أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ» فسمع القبطى الكلام فأفشاه. وقيل: أراد أن يبطش الإسرائيلى بالقبطى فنهاه موسى فخاف منه؛ فقال: «أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ». ﴿ إِنْ تُرِيدُ ﴾ أى ما تريد. ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى قتّالا؛ قال عكرمة والشعبي: لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين بغير حق. ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ أى من الذين يصلحون بين الناس.

قوله تعالى: وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾
وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ ﴾ قال أكثر أهل التفسير: هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون؛ ذكره الثعلبي . وقيل : طالوت؛ ذكره السهيلي . وقال المهدوي عن قتادة : اسمه شمعون مؤمن آل فرعون . وقيل: شمعان؛ قال الدارقطني: لا يعرف شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون . وروى أن فرعون أمر بقتل موسى فسبق ذلك الرجل بالخبر؛ فـ ﴿ قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أى يتشاورون فى قتلك بالقبطى الذى قتلته بالأمس . وقيل : يأمر بعضهم بعضا . قال الأزهرى : ائتمر القوم وتآمروا أى أمر بعضهم بعضا؛ نظيره قوله : « وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ» . وقال النمر بن تولب:

أَرَى الناسَ قد أحدثوا شِيمةً * وفى كل حادثةٍ يُؤْتَمَرْ

﴿ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أى ينتظر الطلب . ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . وقيل: الجبار الذى يفعل ما يريده من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر فى العواقب، ولا يدفع بالتى هى أحسن . وقيل : المتعظم الذى لا يتواضع لأمر الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ لما خرج موسى عليه السلام فارّا بنفسه منفردا خائفا ، لا شىء معه من زاد ولا راحلة ولا حذاء نحو مدين، للنسب الذى بينه و بينهم؛ لأن مدين من ولد إبراهيم، وموسى من ولد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ؛ ورأى حاله وعدم معرفته بالطريق ، وخلوه من زاد وغيره، أسند أمره إلى الله تعالى بقوله : «عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ» وهذه حالة المضطر.

قلت : روى أنه كان يتقوّت ورق الشجر ، وما وصل حتى سقط خُفّ قدميه . قال أبو مالك : وكان فرعون وجّه فى طلبه وقال لهم : اطلبوه فى ثنيات الطريق ، فإن موسى لا يعرف الطريق . فجاءه ملك راكبا فرسا ومعه عَنَزة، فقال لموسى : اتبعنى؛ فاتبعه فهداه إلى الطريق. فيقال: إنه أعطاه العَنَزة فكانت عصاه . ويروى أن عصاه إنما أخذها لرعية الغنم من مدين. وهو أكثر وأصح . وقال مقاتل والسدى : إن الله بعث إليه جبريل ؛ فالله أعلم . وبين مدين ومصر ثمانية أيام؛ قاله ابن جبير والناس . وكان مُلْك مدين لغير فرعون.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ
وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ
يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ
فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا
فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ
ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ
عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ
أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ
بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ
وَكِيلٌ (٢٨) ﴾

فيــه أربع وعشرون مسئلة :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ مشى موسى عليه السلام حتى ورد ماء مدين أى بلغها . وورده المـاء معناه بلغه لا أنه دخل فيــه . ولفظة الورود قد تكون بمعنى الدخول فى المورود، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل . فورود موسى هذا المـاء كان بالوصول إليه؛ ومنه قول زهير :

فلمَّا وَرَدْنَ المـاءَ زُرْقًا جِمامُهُ * وَضَعْنَ عِصِىَّ الحاضِرِ المُتَخيِّمِ (١)

(١) تقدم شرح هذا البيت فى هامش جـ ١١ ص ١٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

وقد تقدمت هذه المعانى فى قوله : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » . ومدين لا تنصرف إذ هى بلدة معروفة .

قال الشاعر(١) :

رُهبانُ مدينَ لو رأوكِ تنزّلوا * والعُصْمُ من شَعَفِ الجبالِ الفَادِرِ

وقيل : قبيلة من ولد مدين بن إبراهيم ؛ وقد مضى القول فيه فى « الأعراف »(٢) . والأمة : الجمع الكثير . و﴿ يَسْقُونَ ﴾ معناه ماشيتهم . و﴿ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ معناه ناحية إلى الجهة التى جاء منها ، فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأمة ، ووجدهما تذودان ومعناه تمنعان وتحبسان ؛ ومنه قوله عليه السلام : " فَلَيُذَادَنَّ(٣) رجالٌ عن حوضى " وفى بعض المصاحف : «امرأتين حابستين تذودان » يقال : ذاد يذود إذا [حبس](٤) . وذُدت الشىء حبسته ؛ قال الشاعر(٥) :

أَبِيتُ على باب القَوَافِي كأنّما * أَذُودُ بها سِرْباً من الوحشِ نُزّعَا

أى أحبس وأمنع . وقيل : « تَذُودَانِ » تطردان ؛ قال(٦) :

لقد سَلبتْ عَصَاكَ بنو تميمٍ * فما تَدْرِى بأىِّ عصًا تَذُودُ

أى تطرد وتكفّ وتمنع . ابن سلام : تمنعان غنمهما لئلا تختلط بغنم الناس ؛ فحذف المفعول ؛ إما إيهاما على المخاطب ، وإما استغناء بعلمه . قال ابن عباس : تذودان غنمهما عن الماء خوفا من السقاة الأقوياء . قتادة : تذودان الناس عن غنمهما ؛ قال النحاس : والأول أولى ؛ لأن بعده « قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ » ولو كانتا تذودان عن غنمهما الناس لم تخبرا عن سبب تأخير سقيهما حتى يصدر الرعاء . فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما « قَالَ مَا خَطْبُكُمَا » أى شأنكما ؛ قال رؤبة :

* يا عَجَباً ما خَطْبُه وخَطْبِي *

---

(١) هو جرير . والعصم (جمع الأعصم) : وهو من الظباء الذى فى ذراعه بياض ، وقيل : فى ذراعيه ، والفادر : المسن منها . وقيل : العظيم . ويروى : « من شعف العقول » . وقبله :

يا أمّ طلحة ما لقينا مثلكم * فى المنجدين ولا بغور الغائر

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية . (٣) فليذادن ، أى ليطردن . ويروى : "فلا تذادن" أى لا تفعلوا فعلا يوجب طردكم عنه ، قال ابن الأثير : والأول أشبه . (٤) فى الأصل : « إذا ذهب » وهو تحريف . (٥) هو سويد بن كراع يذكر تنقيحه شعره . (٦) هو جرير يهجو الفرزدق .

ٱبن عطية : وكان ٱستعمال السؤال بالخَطْب إنما هو فى مصاب ، أو مضطهد ، أو من يشفق عليه، أو يأتى بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة فى شر؛ فأخبرتاه بخبرهما، وأن أباهما شيخ كبير؛ فالمعنى : لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه، وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء، وأن عادتهما التأنى حتى يُصدِر الناسُ عن المـاء ويخلى؛ وحينئذ تَرِدان . وقرأ ٱبن عامر وأبو عمرو : « يَصْدُرَ » من صَدَرَ، وهو ضد وَرَد أى يرجع الرِّعاء . والباقون « يُصْدِرَ » بضم الياء من أصدر؛ أى حتى يصدروا مواشيهم من وِرْدهم . والرِّعاء جمع راع؛ مثل تاجر وتِجار، وصاحب وصِحاب . قالت فرقة : كانت الآبار مكشوفة، وكان زَحْم الناس يمنعهما، فلما أراد موسى أن يسقى لهما زَحَمَ الناس وغلبهم على المـاء حتى سقى، فعن هذا الغَلَب الذى كان منه وصفته إحداهما بالقوة. وقالت فرقة: إنهما كانتا تتبعان فُضَالتهم فى الصَّهاريج، فإن وجدتا فى الحوض بقية كان ذلك سقيهما، وإن لم يكن فيه بقية عطشت غنمهما ، فرَقَّ لهما موسى، فعمد إلى بئر كانت مغطّاة والناس يسقون من غيرها، وكان حَجَرها لا يرفعه إلا سبعة؛ قاله ٱبن زيد . ابن جريج : عشرة . ابن عباس : ثلاثون . الزجاج : أربعون ؛ فرفعه . وسقى للمرأتين؛ فعن رفع الصخرة وصفته بالقوة . وقيل : إن بئرهم كانت واحدة ، وأنه رفع عنها الحجر بعد ٱنفصال السقاة، إذ كانت عادة المرأتين شرب الفضلات . روى عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه قال : لمـا ٱستقى الرعاة غطوا على البئر صخرة لا يقلعها إلا عشرة رجال، فجاء موسى فاقتلعها وٱستقى ذَنُوبا واحدا لم تحتج إلى غيره فسقى لهما .

الثانيـــة — إن قيل كيف ساغ لنبى الله الذى هو شعيب صلى الله عليه وسلم أن يرضى لٱبنتيه بسقى الماشية ؟ قيل له : ليس ذلك بمحظور والدين لا يأباه؛ وأما المروءة فالناس مختلفون فى ذلك، والعادة متباينة فيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو غير مذهب الحضر، خصوصا إذا كانت الحالة حالة ضرورة .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ إلى ظل سَمُرة[(1)] ؛ قاله ٱبن مسعود . وتعرض لسؤال ما يطعمه بقوله : ﴿ إِنِّى لِمَـا أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ وكان لم يذق طعاما

(١) السمرة : شجرة صغيرة الورق، قصيرة الشوك، لهـا برمة صفراء يأكلها الناس .

Marfat.com

سبعة أيام، وقد لصق بطنه بظهره؛ فعرض بالدعاء ولم يصرح بسؤال؛ هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب فى هذا الكلام ما يأكله؛ فالخير يكون بمعنى الطعام كما فى هذه الآية، ويكون بمعنى المال كما قال: «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا» وقوله: «وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ» ويكون بمعنى القوة كما قال: «أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ» ويكون بمعنى العبادة كقوله: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ» قال ابن عباس: وكان قد بلغ به الجوع، واخضر لونه من أكل البقل فى بطنه، وإنه لأكرم الخلق على الله. ويروى أنه لم يصل الى مدين حتى سقط باطن قدميه. وفى هذا معتبر وإشعار بهوان الدنيا على الله. وقال أبو بكر بن طاهر فى قوله: «إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» أى إنى لما أنزلت من فضلك وغناك فقير إلى أن تغنينى بك عمن سواك.

قلت: ما ذكره أهل التفسير أولى؛ فإن الله تعالى إنما أغناه بواسطة شعيب.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ فى هذا الكلام اختصار يدل عليه هذا الظاهر؛ قدّره [ابن] إسحق (١): فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء فى السقى، فحدثتاه بما كان من الرجل الذى سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه — وقيل الصغرى — أن تدعوه له «فجاءت» على ما فى هذه الآية. قال عمرو بن ميمون: ولم تكن سَلْفَعًا (٢) من النساء، خَرّاجة وَلّاجة. وقيل: جاءته ساترة وجهها بكم دِرعها؛ قاله عمر بن الخطاب. وروى أن اسم إحداهما ليا والأخرى صفورا ابنتا يثرون، ويثرون هو شعيب عليه السلام. وقيل: ابن أخى شعيب، وأن شعيبا كان قد مات. وأكثر الناس على أنهما ابنتا شعيب عليه السلام، وهو ظاهر القرآن؛ قال الله تعالى: «وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا» كذا فى سورة «الأعراف». وفى سورة الشعراء «كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ» قال قتادة: بعث الله تعالى شعيبا إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين. وقد مضى فى «الأعراف» (٣) الخلاف فى اسم أبيه. فروى أن موسى عليه السلام لما جاءته بالرسالة قام يتبعها، وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال، فهبت ريح ضمت قميصها فوصفت عجيزتها، فتحرج موسى من النظر

(١) فى الأصل: أبو إسحق والتصويب عن تفسير ابن عطية والطبرى. (٢) السلفع من النساء: الجريئة على الرجال. (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية.

Marfat.com

إليها فقال : آرجعى وأرشدينى إلى الطريق بصوتك . وقيل : إن موسى قال ابتداء : كونى ورائى فإنى رجل عبرانى لا أنظر فى أدبار النساء، ودلينى على الطريق يمينا أو يسارا، فذلك سبب وصفها [له] بالأمانة؛ قاله آبن عباس . فوصل موسى إلى داعيه فقص عليه أمره من أوله إلى آخره فآنسه بقوله : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وكانت مدين خارجة عن مملكة فرعون . وقرب إليه طعاما فقال موسى : لا آكل ؛ إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهبا ؛ فقال شعيب : ليس هذا عوض السقى ، ولكن عادتى وعادة آبائى قِرى الضيف، و إطعام الطعام؛ فحينئذ أكل موسى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة ، وكذلك كانت فى كل ملة ،وهى من ضرورة الخليقة ، ومصلحة الخلطة بين الناس؛ خلافا للأصم حيث كان عن سماعها أصم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ ﴾ الآية . فيه عرض الولى آبنته على الرجل؛ وهذه سنة قائمة؛ عرض صالح مدين آبنته على صالح بنى إسرائيل، وعرض عمر ابن الخطاب آبنته حفصة على أبى بكر وعثمان، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم؛ فمن الحسن عرض الرجل وليته، والمرأة نفسها على الرجل الصالح، آقتداء بالسلف الصالح . قال آبن عمر : لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان : إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر؛ الحديث آنفرد بإخراجه البخارى .

السابعة — وفى هذه الآية دليل على أن النكاح إلى الولى لا حظّ للمرأة فيه؛ لأن صالح مدين تولاه، و به قال فقهاء الأمصار . وخالف فى ذلك أبو حنيفة . وقد مضى .

الثامنة — هذه الآية تدل على أن للأب أن يزوج آبنته البكر البالغ من غير آستئمار ، و به قال مالك وآحتج بهذه الآية، وهو ظاهر قوى فى الباب، واحتجاجه بها يدل على أنه كان يعوّل على الإسرائيليات ؛ كما تقدم . و بقول مالك فى هذه المسئلة قال الشافعى وكثير من العلماء . وقال أبو حنيفة : إذا بلغت الصغيرة فلا يزوجها أحد إلا برضاها؛ لأنها بلغت

Marfat.com

حد التكليف ؛ فأما إذا كانت صغيرة فإنه يزوجها بغير رضاها ؛ لأنه لا إذن لها ولا رضا ؛ بغير خلاف .

التاسعة — آستدل أصحاب الشافعي بقوله : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ » على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح . وبه قال ربيعة وأبو ثور وأبو عبيد وداود ومالك على آختلاف عنه . وقال علماؤنا في المشهور : ينعقد النكاح بكل لفظ . وقال أبو حنيفة : ينعقد بكل لفظ يقتضي التمليك على التأبيد ؛ أما الشافعية فلا حجة لهم في الآية لأنه شرع من قبلنا وهم لا يرونه حجة في شيء في المشهور عندهم . وأما أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن ابن حيّ فقالوا : ينعقد النكاح بلفظ الهبة وغيره إذا كان قد أشهد عليه ؛ لأن الطلاق يقع بالصريح والكناية ، قالوا : فكذلك النكاح . قالوا : والذي خص به النبي صلى الله عليه وسلم تعرى البُضع من العوض لا النكاح بلفظ الهبة ، وتابعهم ابن القاسم فقال : إن وهب آبنته وهو يريد إنكاحها فلا أحفظ عن مالك فيه شيئا ، وهو عندي جائز كالبيع . قال أبو عمر : الصحيح أنه لا ينعقد نكاح بلفظ الهبة ، كما لا ينعقد بلفظ النكاح هبة شيء من الأموال . وأيضا فإن النكاح مفتقر إلى التصريح لتقع الشهادة عليه ، وهو ضد الطلاق فكيف يقاس عليه ! وقد أجمعوا أن النكاح لا ينعقد بقوله : أبحت لك وأحللت فكذلك الهبة . وقال صلى الله عليه وسلم : "آستحللتم فروجهن بكلمة الله" يعني القرآن ، وليس في القرآن عقد النكاح بلفظ الهبة ، وإنما فيه التزويج والنكاح ، وفي إجازة النكاح بلفظ الهبة إبطال بعض خصوصية النبي صلى الله عليه وسلم .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ يدل على أنه عرض لا عقد ؛ لأنه لو كان عقدا لعين المعقود عليها له ؛ لأن العلماء وإن كانوا قد آختلفوا في جواز البيع إذا قال : بعتك أحد عبديّ هذين بثمن كذا ؛ فإنهم آتفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح ؛ لأنه خيار وشيء من الخيار لا يلصق بالنكاح .

الحادية عشرة — قال مكيّ : في هذه الآية خصائص في النكاح ؛ منها أنه لم يعين الزوجة ولا حدّ أول الأمد ، وجعل المهر إجارة ، ودخل ولم ينقد شيئا .

Marfat.com

قلت : فهذه أربع مسائل تضمنتها المسئلة الحادية عشرة .

الأولى من الأربع مسائل، قال علماؤنا : أما التعيين فيشبه أنه كان فى ثانى حال المراوضة، وإنما عرض الأمر مجملا، وعيّن بعد ذلك . وقد قيل : إنه زوّجه صفوريا وهى الصغرى . يروى عن أبى ذر قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سئلت أى الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأوفاهما وإن سئلت أى المرأتين تزوج فقل الصغرى وهى التى جاءت خلفه وهى التى قالت « يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ » . قيل : إن الحكمة فى تزويجه الصغرى منه قبل الكبرى وإن كانت الكبرى أحوج إلى الرجال أنه توقع أن يميل إليها؛ لأنه رآها فى رسالته، وماشاها فى إقباله إلى أبيها معها، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر له الاختيار وهو يضمر غيره . وقيل غير هذا ؛ والله أعلم . وفى بعض الأخبار أنه تزوج بالكبرى ؛ حكاه القشيرى .

الثانيــة — وأما ذكر أوّل المدّة فليس فى الآية ما يقتضى إسقاطه بل هو مسكوت عنه؛ فإمّا رسماه، وإلا فهو من أوّل وقت العقد .

الثالثــة — وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية، وهو أمر قد قرّره شرعنا، وجرى فى حديث الذى لم يكن عنده إلا شيء من القرآن ؛ رواه الأئمة ؛ وفى بعض طرقه : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ماتحفظ من القرآن " فقال : سورة البقرة والتى تليها ؛ قال : " فعلمها عشرين آية وهى امرأتك " . واختلف العلماء فى هـذه المسئلة على ثلاثة أقوال : فكرهه مالك، ومنعه ابن القاسم ، وأجازه ابن حبيب ؛ وهو قول الشافعى وأصحابه ؛ قالوا : يجوز أن تكون منفعة الحر صداقا كالخياطة والبناء وتعليم القرآن . وقال أبو حنيفة : لا يصح؛ وجوز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة ، أو يسكنها داره سنة ؛ لأن العبد والدار مال، وليس خدمتها بنفسه مالا . وقال أبو الحسن الكرخى : إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز؛ لقوله تعالى : « فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » . وقال أبو بكر الرازى : لا يصح لأن الإجارة عقد مؤقت، وعقد النكاح مؤبد، فهما متنافيان . وقال ابن القاسم : ينفسخ قبل البناء ويثبت بعده .

Marfat.com

وقال أصبغ : إن نقد معه شيئا ففيه آختلاف، وإن لم ينقد فهو أشد ، فإن ترك مضى على كل حال بدليل قصة شعيب ؛ قاله مالك وآبن المواز وأشهب . وعول على هذه الآية جماعة من المتأخرين والمتقدمين فى هذه النازلة ؛ قال آبن خُوَيْزِ منداد . تضمنت هذه الآية النكاح على الإجارة والعقد صحيح، ويكره أن تجعل الإجارة مهرا، وينبغى أن يكون المهر مالا كما قال عز وجل : « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ » . هذا قول أصحابنا جميعا .

الرابعة — وأما قوله : ودخل ولم ينقد فقد آختلف الناس فى هذا ؛ هل دخل حين عقد أم حين سافر ؟ فإن كان حين عقد فماذا نقد ؟ وقد منع علماؤنا من الدخول حتى ينقد ولو ربع دينار ؛ قاله ابن القاسم . فإن دخل قبل أن ينقد مضى، لأن المتأخرين من أصحابنا قالوا : تعجيل الصداق أو شيء منه مستحب . على أنه إن كان الصداق رعية الغنم فقد نقد الشروع فى الخدمة، وإن كان دخل حين سافر فطول الآنتظار فى النكاح جائز وإن كان مدى العمر بغير شرط . [وأما إن كان[1] بشرط] فلا يجوز إلا أن يكون الغرض صحيحا مثل التأهب للبناء وآنتظار صلاحية الزوجة للدخول إن كانت صغيرة؛ نص عليه علماؤنا .

الثانية عشرة — فى هذه الآية آجتماع إجارة ونكاح ، وقد آختلف علماؤنا فى ذلك على ثلاثة أقوال : الأول — قال فى ثمانية أبى زيد : يكره آبتداء فإن وقع مضى. الثانى — قال مالك وآبن القاسم فى المشهور : لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده ؛ لاختلاف مقاصدهما كسائر العقود المتباينة . الثالث — أجازه أشهب وأصبغ . قال آبن العربى : وهذا هو الصحيح وعليه تدل الآية ؛ وقد قال مالك النكاح أشبه شيء بالبيوع، فأى فرق بين إجارة وبيع أو بين بيع ونكاح .

فرع — وإن أصدقها تعليم شعر مباح صح؛ قال المزنى : وذلك مثل قول الشاعر :

يقول العبد فائدتى ومالى * وتقوى الله أفضلُ ما آستفادا

وإن أصدقها تعليم شعر فيه هجو أو فحش كان كما لو أصدقها خمرا أو خنزيرا .

---

(١) الزيادة من « أحكام القرآن لابن العربى » .

Marfat.com

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ ﴾ جرى ذكر الخدمة مطلقا وقال مالك : إنه جائز ويحمل على العرف، فلا يحتاج فى التسمية إلى الخدمة، وهو ظاهر قصة موسى، فإنه ذكر إجارة مطلقة . وقال أبو حنيفة والشافعى: لا يجوز حتى يسمى لأنه مجهول .
وقد ترجم البخارى : «باب من آستأجر أجيرا فبين له الأجل ولم يبين له العمل لقوله تعالى « عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ » . قال المهلب : ليس كما ترجم؛لأن العمل عندهم كان معلوما من سق وحرث ورعى وما شاكل أعمال البادية فى مهنة أهلها ، فهذا متعارف و إن لم يبين له أشخاص الأعمال ولا مقاديرها؛ مثل أن يقول له : إنك تحرث كذا من السنة، وترعى كذا من السنة، فهذا إنما هو على المعهود من خدمة البادية، و إنما الذى لا يجوز عند الجميع أن تكون المدّة مجهولة،والعمل مجهول غير معهود لا يجوز حتى يعلم . قال آبن العربى : وقد ذكر أهل التفسير أنه عين له رعية الغنم ، ولم يرو من طريق صحيحة، ولكن قالوا : إن صالح مدين لم يكن له عمل إلا رعية الغنم ، فكان ما علم من حاله قائما مقام التعيين للخدمة فيه .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أنه جائز أن يستاجر الراعى شهورا معلومة ، بأجرة معلومة، لرعاية غنم معدودة؛ فإن كانت معدودة معينة ، ففيها تفصيل لعلمائنا ؛ قال آبن القاسم : لا يجوز حتى يشترط الخلف إن ماتت ، وهى رواية ضعيفة جدا ؛ وقد آستأجر صالح مدين موسى على غنمه ، وقد رآها ولم يشترط خلفا ؛ و إن كانت مطلقة غير مسماة ولا معينة جازت عند علمائنا . وقال أبو حنيفة والشافعى : لا تجوز لجهالتها؛وعوّل علماؤنا على العرف حسبما ذكرناه آنفا ؛ وأنه يعطى بقدر ما تحتمل قوته . وزاد بعض علمائنا أنه لا يجوز حتى يعلم المستأجر قدر قوته ، وهو صحيح فإن صالح مدين علم قدر قوة موسى برفع الحجر .

الخامسة عشرة — قال مالك : وليس على الراعى ضمان وهو مصدّق فيما هلك أو سرق ؛ لأنه أمين كالوكيل . وقد ترجم البخارى : « باب إذا أبصر الراعى أو الوكيل شاة تموت أو شيئا يفسد فأصلح ما يخاف الفساد » وساق حديث كعب بن مالك عن أبيه أنه كانت

Marfat.com

لم غنم ترعى بسَلْع[1] فأبصرت جارية لنا بشاة من غنمنا موتًا فكسرت حجرا فذبحتها به ، فقال لم : لا تأكلوا حتى أسأل النبي — أو أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من يسأله — وأنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم — أو أرســل إليه — فأمره بأكلها ؛ قال عبد الله : فيعجبنى أنها أمة وأنها ذبحت . قال المهلب : فيه من الفقه تصـديق الراعى والوكيل فيما ٱئتمنا عليـه حتى يظهر عليهما دليل الخيانة والكذب ؛ وهـذا قول مالك وجماعة . وقال ٱبن القاسم : إذا خاف الموت على شاة فذبحها لم يضمن ويصـدق إذا جاء بهـا مذبوحة . وقال غيره : يضمن حتى يبين ما قال .

السادسة عشرة — وٱختلف ٱبن القـاسم وأشهب إذا أنزى الراعى على إناث المـاشية بغير إذن أربابها فهلكت ؛ فقال ٱبن القاسم : لا ضمان عليه ؛ لأن الإنزاء من إصلاح المـال ونمـائه . وقال أشهب : عليه الضمان؛ وقول ٱبن القاسم أشـبه بدليل حديث كعب؛ وأنه لا ضمان عليه فيما تلف عليه بٱجتهاده ، إن كان من أهل الصَّـلاح ، وممن يعلم إشـفاقه على المـال ؛ وأما إن كان من أهل الفسوق والفساد وأراد صاحب المـال أن يضمنه فعـل ؛ لأنه لا يصدق أنه رأى بالشاة موتًا لمـا عرف من فسقه .

السابعة عشرة — لم ينقل ما كانت أجرة موسى عليه السلام؛ ولكن روى يحيى بن سلّام أن صالح مدين جعـل لموسى كل سخلة توضـع خلاف لون أمها ، فأوحى الله إلى موسى أن ألق عصاك بينهن يلدن خلاف شبههن كلّهن . وقال غير يحيى : بل جعل له كل بلقاء تولد له ، فولدن كلهن بُلْقا . وذكر القشيرى أن شعيبا لمـا ٱستأجر موسى قال له : ٱدخل بيت كذا وخذ عصا من العصىّ التى فى البيت ، فأخرج موسى عصا ، وكان أخرجها آدم من الجنة ، وتوارثها الأنبيـاء حتى صارت إلى شعيب ، فأمره شعيب أن يلقيها فى البيت ويأخذ عصا أخرى ، فدخل وأخرج تلك العصا ؛ وكذلك سبع مرات كل ذلك لا تقع بيـده غير تلك ، فعلم شعيب أن له شأنا ، فلما أصبح قال له : سق الأغنام إلى مفرق الطريق ، فخذ عن يمينك

(١) سلع : جبل بالمدينة .

Marfat.com

وليس بها عشب كثير، ولا تأخذ عن يسارك فإن بها عشبا كثيرا وتنّينا كبيرا لا يقبل المواشي، فساق المواشي إلى مفرق الطريق، فأخذت نحو اليسار ولم يقدر على ضبطها، فنام موسى وخرج التنّين، فقامت العصا وصارت شعبتاها حديدا وحاربت التنين حتى قتلته، وعادت إلى موسى عليه السلام، فلما آنتبه موسى رأى العصا مخضوبة بالدم، والتنّين مقتولا؛ فعاد إلى شعيب عشاء، وكان شعيب ضريرا فمس الأغنام، فإذا أثر الخصب بادٍ عليها، فسأله عن القصة فأخبره بها، ففرح شعيب وقال: كل ما تلد هذه المواشي هذه السنة قالِب لونٍ — أي ذات لونين — فهو لك؛ فجاءت جميع السخال تلك السنة ذات لونين، فعلم شعيب أن لموسى عند الله مكانة. وروى عُيَيْنة بن حِصْن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أجر موسى نفسه بشبع بطنه وعفّة فرجه" فقال له شعيب لك منها — يعني من نتاج غنمه — ما جاءت به قالِب لون ليس فيها عَزُوزٌ ولا فَشُوشٌ ولا كَمُوشٌ ولا ضَبُوبٌ ولا ثَعُولٌ. قال الهروي: العزوز البكيئة، مأخوذ من العَزاز وهي الأرض الصلبة، وقد تعزّزت الشاة. والفَشُوشُ التي يَنْفَشّ لبنُها من غير حلب وذلك لسعة الإحليل، ومثله الفَتُوح والثَّرُورُ. ومن أمثالهم: (لَأُفُشَّنَّكَ فَشَّ الْوَطْبِ) أي لأخرجن غضبك وكبرك من رأسك. ويقال: فَشّ السِّقاءَ إذا أخرج منه الريح. ومنه الحديث: "إن الشيطان يَفُشُّ بين أَلْيَتَيْ أحدكم حتى يُخَيَّلَ إليه أنه أحدث" أي ينفخ نفخا ضعيفا. والكَمُوشُ: الصغيرة الضرع، وهي الكميشة أيضا؛ سميت بذلك لانكماش ضرعها وهو تقلصه؛ ومنه يقال: رجل كميش الإزار. والكَشُودُ مثل الكَموش. والضَّبُوبُ الضيقة ثقب الإحليل. والضَّبُّ الحَلْب لشدّة العصر. والثَّعُولُ الشاة التي لها زيادة حلمة وهي الثعل. والثَّعل زيادة السنّ، وتلك الزيادة هي [الراءُول][1]. ورجل أثعل. والثعل [ضيق][2] مخرج اللبن. قال الهروي: وتفسير قالب لون في الحديث أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها.

---

(١) الزيادة من اللسان، وفي الأصل: «هي الثعل» ولعله تحريف؛ إذ أن عبارة اللسان «وتلك السن الزائدة يقال لها الراءول». (٢) زيادة يقتضيها المعنى.

Marfat.com

الثامنة عشرة — الإجارة بالعوض المجهول لا تجوز ؛ فإن ولادة الغنم غير معلومة ، وإن من البلاد الخصبة ما يعلم ولاد الغنم فيها قطعا وعدّتها وسلامة سخالها كديار مصر وغيرها ، بيد أن ذلك لا يجوز فى شرعنا ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الغَرَر ، ونهى عن المضامين والملاقيح . والمضامين ما فى بطون الإناث ، والملاقيح ما فى أصلاب الفحول وعلى خلاف ذلك قال الشاعر :

* مَلْقُوحَةٌ فى بطنِ نابٍ حاملِ *

وقد مضى فى سورة « الحِجْر »[١] بيانه . على أن راشد بن معمر أجاز الإجارة على الغنم بالثلث والربع . وقال ابن سيرين وعطاء : ينسج الثوب بنصيب منه؛ وبه قال أحمد .

التاسعة عشرة — الكفاءة فى النكاح معتبرة ؛ وآختلف العلماء هل فى الدين والمال والحسب ، أو فى بعض ذلك . والصحيح جواز نكاح الموالى للعربيات والقرشيات ؛ لقوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » . وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريبا طريدا خائفا وحيدا جائعا عريانا فأنكحه آبنته لما تحقق [من دينه][٢] ورأى من حاله ، وأعرض عما سوى ذلك . وقد تقدّمت هذه المسئلة مستوعبةً والحمد لله .

الموفية عشرين — قال بعضهم : هذا الذى جرى من شعيب لم يكن ذكرا لصداق المرأة ، وإنما كان آشتراطا لنفسه على ما يفعله الأعراب ؛ فإنها تشترط صداق بناتها ، وتقول : لى كذا فى خاصة نفسى ، وترك المهر مفوّضا ؛ ونكاح التفويض جائز . قال آبن العربى : هذا الذى تفعله الأعراب هو حلوان وزيادة على المهر ، وهو حرام لا يليق بالأنبياء ؛ فأمّا إذا آشترط الولىّ شيئا لنفسه ، فقد آختلف العلماء فيما يخرجه الزوج من يده ولا يدخل فى يد المرأة على قولين : أحدهما — أنه جائز . والآخر — لا يجوز . والذى يصح عندى التقسيم ؛ فإن المرأة لا تخلو أن تكون بكرا أو ثيبا ؛ فإن كانت ثيبا جاز ؛ لأن نكاحها

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) الزيادة من « أحكام القرآن لابن العربى » .

Marfat.com

بيدها ، وإنمـا يكون للولىّ مباشرة العقد ، ولا يمتنع أخذ العوض عليه كما يأخذه الوكيل على عقد البيع . وإن كانت بكرا كان العقد بيـده ، وكأنه عوض فى النكاح لغـير الزوج وذلك باطل؛ فإن وقع فُسِخ قبل البناء، وثبت بعده على مشهور الرواية . والحمد لله .

الحادية والعشرون — لمـا ذكر الشرط وأعقبه بالطوع فى العشر خرج كل واحد منهما على حكمه، ولم يلحق الآخر بالأول ، ولا آشترك الفرض والطوع ؛ ولذلك يكتب فى العقود الشروط المتفق عليها، ثم يقال وتطوع بكذا، فيجرى الشرط على سبيله ، والطوع على حكمه، وآنفصل الواجب من التطوع . وقيـل : ومن لفظ شعيب حسن فى لفظ العقود فى النكاح أنكحه إياها أولى من أنكحها إياه على ما يأتى بيانه فى « الأحزاب » . وجعل شعيب الثمانية الأعوام شرطا، ووكل العاشرة إلى المروءة .

الثانيـة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ لمـا فرغ كلام شـعيب قرره موسى عليـه السلام وكرر معناه على جهـة التوثق فى أن الشرط إنمـا وقع فى ثمان حِجج . و « أيمـا » آستفهام منصوب بـ « قَضَيْتُ » و « الْأَجَلَيْنِ » مخفوض بإضافة « أى » إليهما و « ما » صلة للتأكيد وفيـه معنى الشرط وجوابه « فلا عُدْوَانَ » وأن « عدوان » منصوب بـ « لا » . وقال آبن كيسان : « ما » فى موضع خفض بإضافة « أى » إليها وهى نكرة و « الأجلين » بدل منها . وكذلك قوله : « فَبِمَا رَحْمَـةٍ مِنَ اللهِ » أى رحمة بدل من ما ؛ قال مكى : وكان يتلطف فى ألا يجعل شيئا زائدا فى القرآن، ويخرج له وجها يخرجه من الزيادة . وقرأ الحسن « أَيْمَـا » بسكون الياء . وقرأ آبن مسعود « أَيَّ الْأَجَلَيْنِ ما قَضَيْتُ » . وقرأ الجمهور « عُدْوَانَ » بضم العين . وأبو حَيْوة بكسرها ؛ والمعنى : لا تبعة علىّ ولا طلب فى الزيادة عليـه . والعدوان التجاوز فى غير الواجب، والحجج السنون . قال الشاعر[1] :

لمن الديار بِقنـة الحجر * أقوين من حِجج ومن دهر

(١) هو زهير بن أبى سلمى . و يروى : ومن شهر .

الواحدة حِجة بكسر الحاء . ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ قيل : هو من قول موسى . وقيل : هو من قول والد المرأة . فاكتفى الصالحان صلوات الله عليهما في الإشهاد عليهما بالله ولم يشهدا أحدا من الخلق ، وقد آختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح ؛ وهي :

الثالثة والعشرون — على قولين : أحدهما أنه لا ينعقد إلا بشاهدين. وبه قال أبو حنيفة والشافعي . وقال مالك : إنه ينعقد دون شهود؛ لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح، وفرق ما بين النكاح والسفاح الدُّفّ . وقد مضت هذه المسئلة في « البقرة »(1) مستوفاة . وفي البخاري عن أبي هريرة : أن رجلا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسلفه ألف دينار فقال آيتني بالشهداء أشهدهم، فقال كفى بالله شهيدا ؛ فقال آيتني بكفيل ؛ فقال كفى بالله كفيلا . قال صدقت فدفعها إليه ؛ وذكر الحديث

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ قال سعيد بن جبير : سألني رجل من النصارى أي الأجلين قضى موسى . فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله — يعني آبن عباس — فقدمت عليه فسألته ؛ فقال : قضى أكملهما وأوفاهما. فأعلمت النصراني فقال : صدق والله هذا العالم. وروى عن آبن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل في ذلك جبريل فأخبره أنه قضى عشر سنين . وحكى الطبري عن مجاهد أنه قضى عشرا وعشرا بعدها؛ قال آبن عطية : وهذا ضعيف .

(1) راجع جـ ٣ ص ٧٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ قيل فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهـله حيث شاء ؛ لمـاله عليها من فضل القوّامية وزيادة الدرجة إلا أن يلتزم لهـا أمرا فالمؤمنون عند شروطهم ، وأحق الشروط أن يوفى به ما آستحللتم به الفروج .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارا ﴾ الآية . تقدّم القول فى ذلك فى « طه » . والجذوة بكسر الجيم قراءة العامة ، وضمها حمزة ويحيي ، وفتحها عاصم والسُّلَمى وزِرّ بن حُبيش . قال الجوهرى : الجِذْوة والجُذْوة والجَذْوة الجمرة الملتهبة والجمع جِذًا وجُذًا وجَذًا . قال مجاهد فى قوله تعـالى : ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ أى قطعة من الجمر؛ قال : وهى بلغة جميع العرب . وقال أبو عبيدة : والجذوة مثل الجِذمة وهى القطعة الغليظة من الخشب كان فى طرفها نار أولم يكن . قال آبن مقبل :

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَـا * جَزْلَ الجِذَا غَيْرَ خَوَّارٍ وَلَا دَعِرِ (١)

وقـــال :

وَأَلْقَى على قَيْسٍ مِنَ النّار جِذْوَةً * شـديدًا عليهـا حَمْيُهـا ولهيبُهـا (٢)

قوله تعـالى : فَلَمَّـآ أَتَنٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ يعنى الشجرة قدم ضميرها عليها . ﴿ نُودِىَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ ﴾ « مِن » الأولى والثانية لآبتداء الغاية ، أى أتاه النداء من شاطئ الوادى من قبل الشجرة . و « مِنَ الشَّجَرَةِ » بدل من قوله « مِنْ شَـاطِئِ الْوَادِ » بدل الاشتمال ؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ ، وشاطئ الوادى وشطه جانبه ، والجمع شُطَّان وشواطئ ، ذكره القشيرى . وقال الجوهرى : ويقال شاطئ الأودية ولا يجمع . وشاطأت الرجل إذا مشيت على شاطئ

(١) الخوار هنا العود الذى يتقصف والدعر الذى إذا وضع على النار لم يستوقد ودخن .

(٢) ويروى : * شديدا عليها حرها والتهابها *

Marfat.com

ومشى هو على شاطئ آخر . ﴿ الْأَيْمَنِ ﴾ أى عن يمين موسى . وقيل عن يمين الجبل . ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴾ وقرأ الأشهب العقيلى « فِي الْبَقْعَةِ » بفتح الباء . وقولهم بِقاع يدل على بَقعة؛ كما يقال جَفْنة وجِفَان . ومن قال بُقْعة قال بُقَع مثل غُرْفة وغُرَف . ﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ أى من ناحية الشجرة . قيل كانت شجرة العلَّيق . وقيل سَمُرة وقيل عَوْسج . ومنها كانت عصاه؛ ذكره الزمخشرى . وقيل : عُنَّاب، والعَوْسج إذا عظم يقال له الغَرْقَد . وفى الحديث: إنه من شجر اليهود فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدّجال فلا يختفى أحد منهم خلف شجرة إلا نطقت وقالت يا مسلم هذا يهودى ورائى تعال فاقتله إلا الغَرْقَد فإنه من شجر اليهود فلا ينطق . خرجه مسلم . قال المهدوى : وكلم الله تعالى موسى عليه السلام من فوق عرشه وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء . ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالانتقال والزوال وشبه ذلك من صفات المخلوقين . قال أبو المعالى : وأهل المعانى وأهل الحق يقولون من كلمه الله تعالى وخصه بالرتبة العليا والغاية القصوى، فيدرك كلامه القديم المتقدس عن مشابهة الحروف والأصوات والعبارات والنغمات وضروب اللغات ، كما أن من خصه الله بمنازل الكرامات وأكمل عليه نعمته ، ورزقه رؤيته يرى الله سبحانه منزها عن مماثلة الأجسام وأحكام الحوادث، ولا مثل له سبحانه فى ذاته وصفاته ، وأجمعت الأمة على أن الرب تعالى خصص موسى عليه السلام وغيره من المصطفين من الملائكة بكلامه . قال الأستاذ أبو إسحق : اتفق أهل الحق على أن الله تعالى خلق فى موسى عليه السلام معنى من المعانى أدرك به كلامه كان اختصاصه فى سماعه ، وأنه قادر على مثله فى جميع خلقه . واختلفوا فى نبينا عليه السلام هل سمع ليلة الإسراء كلام الله ، وهل سمع جبريل كلامه على قولين ؛ وطريق أحدهما النقل المقطوع به وذلك مفقود، واتفقوا على أن سماع الخلق له عند قراءة القرآن على معنى أنهم سمعوا العبارة التى عرفوا بها معناه دون سماعه له فى عينه . وقال عبد الله ابن سعد بن كلاب : إن موسى عليه السلام فهم كلام الله القديم من أصوات مخلوقة أثبتها الله تعالى فى بعض الأجسام . قال أبو المعالى : وهذا مردود ؛ بل يجب اختصاص موسى

Marfat.com

عليه السلام بإدراك كلام الله تعالى خرقا للعادة ، ولو لم يُقَل ذلك لم يكن لموسى عليه السلام آختصاص بتكليم الله إياه . والرب تعالى أسمعه كلامه العزيز، وخلق له علما ضروريا، حتى علم أن ماسمعه كلام الله، وأن الذى كلمه وناداه هو الله رب العالمين . وقد ورد فى الأقاصيص أن موسى عليه السلام قال : سمعت كلام ربى بجميع جوارحى ، ولم أسمعه من جهة واحدة من جهاتى . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »(١) مستوفى . ﴿ أَنْ يَا مُوسَى ﴾ «أَنْ» فى موضع نصب بحذف حرف الجر أى بـ « بأن يا موسى » . ﴿ إِنِّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ نفى لربوبية غيره سبحانه . وصار بهذا الكلام من أصفياء الله عز وجل لا من رسله ؛ لأنه لا يصير رسولا إلا بعد أمره بالرسالة، والأمر بها إنما كان بعد هذا الكلام .

قوله تعالى : وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ عطف على « أن يا موسى » وتقدم الكلام فى هذا فى « النمل » و « طه » . و ﴿ مُدْبِرًا ﴾ نصب على الحال وكذلك موضع قوله : ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ نصب على الحال أيضا . ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾ قال وهب : قيل له آرجع إلى حيث كنت . فرجع فلف دُرّاعته(٢) على يده ، فقال له الملك : أرأيت إن أراد الله أن يصيبك بما تحاذر أينفعك لفُّك يدك ؟ قال : لا ولكنى ضعيف خلقت من ضعف . وكشف يده فأدخلها فى فم الحية فعادت عصا . ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ أى مما تحاذر .

قوله تعالى : ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا

(١) راجع جـ ١ ص ٣٠٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) الدراعة : ضرب من الثياب التى تلبس . وقيل جبة مشقوقة المقدم .

Marfat.com

فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ الآية ؛ تقدّم القول فيه . ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ « من » متعلقة بـ « ـوَلَّى » أى ولى مدبرا من الرهب . وقرأ حفص والسُّلَمى وعيسى بن عمر وٱبن أبى إسحق « مِنَ الرَّهْبِ » بفتح الراء و إسكان الهاء . وقرأ ٱبن عامر والكوفيون إلا حفص بضم الراء وجزم الهاء . الباقون بفتح الراء والهاء. وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله تعالى : « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا » وكلها لغات وهو بمعنى الخوف . والمعنى إذا هَالكَ أمرُ يدك وشعاعها فأدخلها فى جيبك وٱرددها إليه تعد كما كانت . وقيل : أمره الله أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه خوف الحية . عن مجاهد وغيره ورواه الضحاك عن ٱبن عباس ؛ قال فقال ٱبن عباس : ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام ، ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب . ويحكى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن كاتبا كان يكتب بين يديه ، فٱنفلتت منه فلتة ريح فخجل وانكسر ، فقام وضرب بقلمه الأرض. فقال له عمر : خذ قلمك وٱضمم إليك جناحك، وليفرخ روعك فإنى ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسى . وقيل : المعنى ٱضمم يدك إلى صدرك ليذهب الله ما فى صدرك من الخوف . وكان موسى يرتعد خوفا إما من آل فرعون وإما من الثعبان . وضم الجناح هو السكون ؛ كقوله تعالى : « وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ » يريد الرفق . وكذلك قوله : « وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى ٱرفق بهم . وقال الفراء : أراد بالجناح عصاه . وقال بعض أهل المعانى : الرهب الكُمّ بلغة حمير وبنى حنيفة . قال مقاتل : سألتنى أعرابية شيئا وأنا آكل فملأت الكف وأومأت إليها

Marfat.com

فقالت: ها هنا فى رهبى . تريد فى كُمّى . وقال الأصمعى : سمعت أعرابيا يقول لآخر أعطنى رهبك . فسألته عن الرهب فقال : الكم ؛ فعلى هـذا يكون معناه آضمم إليك يدك وأخرجها من الكم ؛ لأنه تناول العصا و يده فى كمه وقوله : « آسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ » يدل على أنها اليد اليمنى ؛ لأن الجيب على اليسار . ذكره القشيرى .

قلت : وما فسروه من ضمّ اليـد إلى الصدر يدل على أن الجيب موضعه الصدر . وقد مضى فى سورة « النور »[1] بيانه . الزمخشرى : ومن بدع التفاسير أن الرهب الكم بلغة حمير وأنهم يقولون أعطنى ممـا فى رهبك ، وليت شـعرى كيف صحته فى اللغـة ! وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضى عربيتهم ، ثم ليت شعرى كيف موقعه فى الآية ، وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمـات التنزيل ؛ على أن موسى صلوات الله عليـه ما كان عليـه ليلة المناجاة إلا زُرْمانِقَة[2] من صوف لا كمين لهـا . قال القشيرى : وقوله « وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » يريد اليدين إن قلنا أراد الأمن من فزع الثعبان . وقيل : « وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » أى شمر وآستعد لتحمل أعباء الرسالة .

قلت : فعلى هـذا قيل « إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ » أى من المرسلين ؛ لقوله تعـالى : « إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ » . قال آبن بحر : فصار على هذا التأويل رسولا بهذا القول . وقيـل إنمـا صار رسـولا بقوله : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ والبرهان اليد والعصا . وقرأ آبن كثير بتشديد النون وخففها الباقون . و روى أبو عمارة عن أبى الفضل عن أبى بكر عن آبن كثير ، « فَذَانِّيكَ » بالتشـديد والياء . وعن أبى عمرو أيضا قال لغـة هذيل « فَذَانِيكَ » بالتخفيف والياء . ولغة قريش « فَذَانِكَ » كما قرأ أبو عمرو وآبن كثير . وفى تعليله خمسة أقوال : قيل شدّد النون عوضا من الألف الساقطة فى ذانك الذى هو تثنية ذا المرفوع ، وهو رفع بالابتدا ، وألف ذا محذوفة لدخول ألف التثنية عليها ، ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين ؛ لأن أصله فذاانك فحذف الألف الأولى عوضا من النون الشديدة . وقيل :

(١) راجع ج ١٢ ص ٢٣١ طبعـة أولى أو ثانيـة .
(٢) الزرمانقة : جبة من صوف ؛ وهى عجمية معربة .

Marfat.com

التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام فى ذلك . مكى : وقيل إن من شدّد إنما بناه على لغة من قال فى الواحد ذلك ، فلما بنى أثبت اللام بعد نون التثنية، ثم أدغم اللام فى النون على حكم إدغام الثانى فى الأول، والأصل أن يدغم الأول أبدا فى الثانى، إلا أن يمنع من ذلك علة فيدغم الثانى فى الأول ، والعلة التى منعت فى هذا أن يدغم الأول فى الثانى أنه لو فعل ذلك لصار فى موضع النون التى تدل على التثنية لام مشدّدة فيتغير لفظ التثنية فأدغم الثانى فى الأول لذلك؛ فصار نونا مشددة . وقد قيل : إنه لما تنافى ذلك أثبت اللام قبل النون ثم أدغم الأول فى الثانى على أصول الإدغام فصار نونا مشدّدة . وقيل : شدّدت فرقا بينها وبين الظاهر التى تسقط الإضافة نونه؛ لأن ذان لا يضاف . وقيل : للفرق بين الاسم المتمكن وبينها . وكذلك العلة فى تشديد النون فى « اللذان » و « هذان » . قال أبو عمرو : إنما اختص أبو عمرو هذا الحرف بالتشديد دون كل تثنية من جنسه لقلة حروفه فقرأه بالتثقيل. ومن قرأ « فَذَانيكَ » بياء مع تخفيف النون فالأصل عنده « فَذَانِّك » بالتشديد فأبدل من النون الثانية ياء كراهية التضعيف ، كما قالوا : لا أملاه فى لا أَمَلُّه فأبدلوا اللام الثانية ألفا . ومن قرأ بياء بعد النون الشديدة فوجهه أنه أشبع كسرة النون فتولدت عنها الياء .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا ﴾ يعنى معينا مشتق من أردأته أى أعنته . والردء العون . قال الشاعر :

ألم ترأن أصرم كان ردئى * وخيرَ الناسِ فى قُلٍّ ومال

النحاس : وقد أردأه ورداه أى أعانه، وترك همزه تخفيفا . وبه قرأ نافع وهو بمعنى المهموز. قال المهدوى : ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم أردى على المائة أى زاد عليها ، وكأن المعنى أرسله معى زيادة فى تصديق . قاله مسلم بن جندب . وأنشد قول الشاعر :

وأسمر خَطِّيًا كأنّ كعوبَه * نوى القَسْبِ قد أردَى ذراعا على العَشْر

كذا أنشد الماوردى هذا البيت : قد أردى . وأنشده الغزنوى والجوهرى فى الصحاح قد أرمى[1] ؛ قال : والقسب الصلب ، والقسب تمر يابس يتفتت فى الفم صلب النواة . قال

(١) أرمى وأربى لغتان .

Marfat.com

يصف رمحا : وأسمر . البيت . قال الجوهري : ردؤ الشيء يردؤ رداءة فهو رديء أي فاسد، وأردأته أفسدته ، وأردأته أيضا بمعنى أعنته ؛ تقول : أردأته بنفسي أي كنت له ردءا وهو العون . قال الله تعالى : « فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي » . قال النحاس : وقد حكى ردأته : ردءا وجمع ردء أَرْدَاءٌ . وقرأ عاصم وحمزة « يُصَدِّقُنِي » بالرفع . وجزم الباقون؛ وهو آختيار أبي حاتم على جواب الدعاء . وآختار الرفع أبو عبيد على الحال من الهاء في « أرسله » أي أرسله ردءا مصدقا حالة التصديق ؛ كقوله : « أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ » أي كائنة ؛ حال صرف إلى الآستقبال . ويجوز أن يكون صفة لقوله : « رِدْءًا » . ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ إذا لم يكن لي وزير ولا معين؛ لأنهم لا يكادون يفقهون عني ، ف﴿ قَالَ ﴾ الله جل وعز له : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أي نقويك به ؛ وهذا تمثيل ؛ لأن قوة اليد بالعضد . قال طَرَفة :

بَنِي لُبَيْنَى لستُمُ بيدٍ * إلّا يدًا ليست لها عَضد

ويقال في دعاء الخير : شدّ الله عضدك . وفي ضدّه : فتّ الله في عضدك . ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أي حجة وبرهانا . ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ بالأذى ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أي تمتنعان منهم « بِآيَاتِنَا » فيجوز أن يوقف على « إِلَيْكُمَا » ويكون في الكلام تقديم وتأخير . وقيل : التقدير « أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ » بآياتنا . قاله الأخفش والطبري . قال المهدوي : وفي هذا تقديم الصلة على الموصول ، إلا أن يقدّر أنتما غالبان بآياتنا أنتما ومن آتبعكما الغالبون . وعني بالآيات سائر معجزاته .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم

Marfat.com

مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ
أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ
هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾
فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾
وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أى ظاهرات واضحات ﴿ قَالُوا مَا هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ﴾ مكذوب مختلق ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ . وقيل : إن هـذه الآيات ما آحتج به موسى فى إثبات التوحيد من الحجج العقلية . وقيل : هى معجزاته .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ قراءة العامة بالواو . وقرأ مجاهد وآبن كثير وآبن محيصن « قال » بلا واو ؛ وكذلك هو فى مصحف أهل مكة . ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى ﴾ أى بالرشاد . ﴿ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ ﴾ قرأ الكوفيون إلا عاصما « يكون » بالياء والباقون بالتاء . وقد تقدّم هذا . ﴿ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أى دار الجزاء. ﴿ إِنَّهُ ﴾ الهاء ضمير الأمر والشأن ﴿ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ قال آبن عباس : كان بينها وبين قوله « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » أربعون سنة ، وكذب عدوّ الله بل علم أن له ثَمّ ربّا هو خالقه وخالق قومه « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » . قال : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ﴾ أى آطبخ لى الآجرّ ؛ عن آبن عباس رضى الله عنه . وقال قتادة : هو أوّل من صنع الآجرّ وبنى به . ولما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمال — قيل خمسين ألف بناء سوى الأتباع والأجراء — وأمر بطبخ الآجرّ والجصّ ، ونشر الخشب ،

Marfat.com

وضرب المسامير ، فبنوا ورفعوا البناء وشيدوه بحيث لم يبلغه بنيان منـذ خلق الله السموات والأرض، فكان البانى لا يقدر أن يقوم على رأسه ، حتى أراد الله أن يفتنهم فيـه . فحكى السدّى أن فرعون صعد السطح ورمى بُنشّابة نحو السماء، فرجعت متلطخة بدماء ، فقال قد قتلت إله موسى . فروى أن جبريل عليه السلام بعثه الله تعالى عند مقالته ، فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع؛ قطعة على عسكر فرعون قتلت منهم ألف ألف، وقطعة فى البحر، وقطعة فى الغرب، وهلك كل من عمل فيـه شيئا . والله أعلم بصحة ذلك . ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ﴾ الظن هنا شك ، فكفر على الشك؛ لأنه قد رأى من البراهين ما لا يُخيِـل(١) على ذى فطرة .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ أى تعظم ﴿ هُوَ وَجُنُـودُهُ ﴾ أى عن الإيمـان بموسى . ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَـقِّ ﴾ أى بالعـدوان ، أى لم تكن له حجـة تدفع ما جاء به موسى ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُـمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ أى توهموا أنه لا معاد ولا بعث . وقرأ نافع وابن محيصن وشيبة وحميد ويعقوب وحمزة والكسائى « لَا يَرْجِعُونَ » بفتح الياء وكسر الجيم على أنه مسمى الفاعل . الباقون « يُرْجَعُونَ » على الفعل المجهول . وهو اختيار أبى عبيـد ، والأول اختيار أبى حاتم . ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ وكانوا ألفى ألف وستمائة ألف . ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ أى طرحناهم فى البحر المـالح . قال قتادة : بحر من وراء مصر يقال له إِسَاف أغرقهم الله فيه . وقال وهب والسدّى : المكان الذى أغرقهم الله فيه بناحية القُلْزُم يقال له بطن مُرَيْرة، وهو إلى اليوم غضبان . وقال مقاتل : يعنى نهر النيل . وهذا ضعيف والمشهور الأول . ﴿ فَٱنْظُرْ ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ أى آخر أمرهم . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّـةً ﴾ أى جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر، فيكون عليهم وزرهم ووزر من اتبعهم حتى يكون عقابهم أكثر. وقيل : جعـل الله الملأ من قومه رؤساء السفلة منهم، فهم يدعون إلى جهنم . وقيـل : أئمة يأتم بهم ذوو العبر ويتعظ بهم أهـل البصائر . ﴿ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أى إلى عمل أهل

---

(١) لا يخيل : أى لا يشكل .

Marfat.com

النار ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ . ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أى أمرنا العباد بلعنهم فمن ذكرهم لعنهم . وقيل : أى ألزمناهم اللعن أى البعد عن الخير . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ أى من المهلكين الممقوتين . قاله ابن كيسان وأبو عبيدة . وقال ابن عباس : المشوّهين الخلقة بسواد الوجوه وزرقة العيون . وقيل من المبعَدين . يقال قَبَحه الله أى نحاه من كل خير، وقَبَحه وقبّحه إذا جعله قبيحا . وقال أبو عمرو قَبَحت وجهه بالتخفيف معناه قبّحت . قال الشاعر :

أَلَا قَبَحَ اللهُ البراجِمَ كلَّها * وقَبَّح يَرْبوعا وقبَّح دارِمَا

وانتصب يوما على الحمل على موضع « فِي هذِهِ الدُّنْيَا » واستغنى عن حرف العطف فى قوله : « مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » كما استغنى عنه فى قوله : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ » . ويجوز أن يكون العامل فى « يوم » مضمرا يدل عليه قوله : « هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » فيكون كقوله : « يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ » . ويجوز أن يكون العامل فى « يوم » قوله : « هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » وإن كان الظرف متقدما . ويجوز أن يكون مفعولا على السعة، كأنه قال : وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ولعنة يوم القيامة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة؛ قاله قتادة . قال يحيى بن سلّام : هو أوّل كتاب — يعنى التوراة — نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام . وقيل : الكتاب هنا ستّ من المثانى السبع التى أنزلها الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم؛ قاله ابن عباس، ورواه مرفوعا . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ قال أبو سعيد الخدرى قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة على موسى غير القرية التى مسخت قردة ألم تر إلى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى » "

Marfat.com

أي من بعد قوم نوح وعاد وثمود . وقيل : أي من بعد ما أغرقنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون . ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أي آتيناه الكتاب بصائر . أي ليتبصروا ﴿ وَهُدًى ﴾ أي من الضلالة لمن عمل بها ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن بها . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي ليذكروا هذه النعمة فيقيموا على إيمانهم في الدنيا ، ويثقوا بثوابهم في الآخرة .

قوله تعالى : وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ﴾ أي ما كنت يا محمد ﴿ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾ أي بجانب الجبل الغربي . قال الشاعر :

أعطاكَ من أعطى الهُدَى النبيَّا * نورًا يزينُ المنبرَ الغربيَّا

﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ إذ كلفناه أمرنا ونهينا ، وألزمناه عهدنا . وقيل : أي إذ قضينا إلى موسى أمرك وذكرناك بخير ذكر . وقال ابن عباس : « إِذْ قَضَيْنَا » أي أخبرنا أن أمة محمد خير الأمم . ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي من الحاضرين .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا ﴾ أي من بعد موسى ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ حتى نسوا ذكر الله أي عهده وأمره . نظيره : « فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » . وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لنبينا عليه السلام ذكر في ذلك الوقت ، وأن الله سيبعثه ، ولكن طالت المدة ، وغلبت القسوة ، فنسي القوم ذلك . وقيل : آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود ، ثم تطاول العهد فكفروا ، فأرسلنا محمدا مجددا للدين وداعيا الخلق إليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ أي مقيما كمقام موسى وشعيب بينهم . قال العجّاج : * فباتَ حيث يدخلُ الثَّوِيُّ *

أي الضيف المقيم . وقوله : ﴿ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أي تذكرهم بالوعد والوعيد . ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أي أرسلناك في أهل مكة ، وآتيناك كتابا فيه هذه الأخبار ، ولولا ذلك لما علمتها .

Marfat.com

قوله تعالى : وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أى كما لم تحضر جانب المكان الغربى إذ أرسل الله موسى إلى فرعون ، فكذلك لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لما أتى الميقات مع السبعين . وروى عمرو بن دينار يرفعه قال : " نودى يا أمة محمد أجبتكم قبل أن تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى " فذلك قوله : « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا » . وقال أبو هريرة — وفى رواية عن ابن عباس — إن الله قال : « يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى ورحمتكم قبل أن تسترحمونى » قال وهب : وذلك أن موسى لما ذكر الله له فضل محمد وأمته قال : يا رب أرنيهم . فقال الله : « إنك لن تدركهم و إن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم » قال : بلى يارب . فقال الله تعالى : « يا أمة محمد » فأجابوا من أصلاب آبائهم . فقال : « قد أجبتكم قبل أن تدعونى » ومعنى الآية على هذا ما كنت بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك وأخبرناه بما كتبناه لك ولأمتك من الرحمة إلى آخر الدنيا . ﴿ وَلَكِنْ ﴾ فعلنا ذلك ﴿ رَحْمَةً ﴾ منا بكم . قال الأخفش : « رَحْمَةً » نصب على المصدر أى ولكن رحمناك رحمة . وقال الزجاج : هو مصدر من أجله أى فعل ذلك بك لأجل الرحمة . النحاس : أى لم تشهد قصص الأنبياء، ولا تليت عليك ، ولكنا بعثناك وأوحيناها إليك للرحمة . وقال الكسائى : على خبر كان ؛ التقدير : ولكن كان رحمة . قال : ويجوز الرفع بمعنى هى رحمة . الزجاج : الرفع بمعنى ولكن فعل ذلك رحمة . ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعنى العرب ؛ أى لم تشاهد تلك الأخبار ، ولكن أوحيناها إليك رحمة بمن أرسلت إليهم لتنذرهم بها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم ﴾ يريد قريشا . وقيل : اليهود . ﴿ مُصِيبَةٌ ﴾ أى عقوبة ونقمة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الكفر والمعاصى . وخص الأيدى بالذكر ؛ لأن الغالب من الكسب إنما يقع بها . وجواب « لَوْلَا » محذوف أى لولا أن يصيبهم عذاب بسبب معاصيهم المتقدمة ﴿ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا ﴾ أى هلا ﴿ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ لما بعثنا الرسل . وقيل : لعاجلناهم بالعقوبة . وبعث الرسل إزاحة لعذر الكفار كما تقدم فى « سبحان » وآخر « طه » . ﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ نصب على جواب التحضيض . ﴿ وَنَكُونَ ﴾ عطف عليه . ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من المصدقين . وقد احتج بهذه الآية من قال : إن العقل يوجب الإيمان والشكر ؛ لأنه قال : « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » وذلك موجب للعقاب إذ تقرر الوجوب قبل بعثة الرسل ، وإنما يكون ذلك بالعقل . قال القشيرى : والصحيح أن المحذوف لولا كذا لما احتيج إلى تجديد الرسل . أى هؤلاء الكفار غير معذورين إذ بلغتهم الشرائع السابقة والدعاء إلى التوحيد ، ولكن تطاول العهد، فلو عذبناهم فقد يقول قائل منهم طال العهد بالرسل ، و يظن أن ذلك عذر ولا عذر لهم بعد أن بلغهم خبر الرسل ، ولكن أكملنا إزاحة العذر ، وأكملنا البيان فبعثناك يا محمد إليهم . وقد حكم الله بأنه لا يعاقب عبدا إلا بعد إكمال البيان والحجة و بعثه الرسل .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى كفار مكة ﴿ لَوْلَا ﴾ أى هلا ﴿ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾ من العصا واليد البيضاء ،

Marfat.com

وأنزل عليه القرآن جملة واحدة كالتوراة ، وكان بلغهم ذلك من أمر موسى قبـل محمد ؛ فقال الله تعـالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَـا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْـلُ قَالُوا سَاحِرَانِ(١) تَظَاهَرَا ﴾ أى موسى ومحمد تعاونا على السحر . قال الكلبي : بعثت قريش إلى اليهود وسألوهم عن بعث محمد وشأنه فقالوا : إنا نجده فى التوراة بنعته وصفته. فلما رجع الجواب إليهم « قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا ». وقال قوم : إن اليهود علّموا المشركين، وقالوا قولوا لمحمد لولا أوتيت مثل ما أوتى موسى، فإنه أوتى التوراة دفعة واحدة . فهذا الآحتجاج وارد على اليهود، أى أولم يكفر هؤلاء اليهود بمـا أوتى موسى حين قالوا فى موسى وهرون همـا ساحران و ﴿ إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ أى و إنا كافرون بكل واحد منهما . وقرأ الكوفيون « سِحْرَانِ » بغير ألف ؛ أى الإنجيل والقرآن . وقيل : التوراة والفرقان ؛ قاله الفرّاء . وقيل : التوراة والإنجيل . قاله أبو رزين . الباقون « سَاحِرَانِ » بألف . وفيه ثلاثة أقاويل : أحدها — موسى ومحمد عليهما السلام . وهذا قول مشركى العرب . و به قال آبن عباس والحسن . الثانى — موسى وهرون . وهـذا قول اليهود لهما فى آبتـداء الرسالة . و به قال سعيد بن جبير ومجاهـد وآبن زيد . فيكون الكلام آحتجاجا عليهم . وهذا يدل على أن المحذوف فى قوله : «وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ» لمـا جدّدنا بعثة الرسل؛ لأن اليهود آعترفوا بالنبوّات ولكنهم حرفوا وغيروا وآستحقوا العقاب، فقال : قد أكملنا إزاحة عذرهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم . الثالث — عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم . وهذا قول اليهود اليوم . و به قال قتادة . وقيل : أو لم يكفر جميع اليهود بما أوتى موسى فى التوراة من ذكر المسيح ، وذكر الإنجيل والقرآن ، فرأوا موسى ومحمدا ساحرين والكتابين سحرين .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُـمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

(١) قراءة نافع : « ساحران تظاهرا » وعليها المصنف .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْـدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾ أى قل يا محمد إذ كفرتم معاشر المشركين بهذين الكتابين « فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ » ليكون ذلك عذرا لكم فى الكفر ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى أنهما سحران . أو فأتوا بكتاب هو أهدى من كتابى موسى ومحمد عليهما السلام . وهذا يقوى قراءة الكوفيين « سِحْرَانِ » . « أَتَّبِعُهُ » قال الفرّاء : بالرفع ؛ لأنه صفة للكتاب وكتاب نكرة . قال : و إذا جزمت — وهو الوجه — فعلى الشرط .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ يامحمد أن يأتوا بكتاب من عند الله ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَـا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى آراء قلوبهـم وما يستحسنونه ويحببه لهم الشيطان ، وأنه لاحجة لهم . ﴿ وَمَنْ أَضَـلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ أى لا أحد أضل منه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ أى أتبعنا بعضـه بعضا ، و بعثنا رسولا بعـد رسول . وقرأ الحسن « وَصَلْنَا » مخففا . وقال أبو عبيـدة والأخفش : معنى « وَصَّلْنَا » أتممنا كصلتك الشيء . وقال ٱبن عيينة والسدّى : بيّنا . وقاله ٱبن عباس . وقال مجاهـد : فصلنا . وكذلك كان يقرؤها . وقال ٱبن زيد : وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهـم فى الآخرة فى الدنيا . وقال أهـل المعانى : والينا وتابعنا وأنزلنا القرآن تبـع بعضه بعضا : وعدا و وعيـدا وقصصا وعبرا ونصائح ومواعظ إرادة أن يتـذكروا فيفلحوا . وأصلها من وصل الحبال بعضها ببعض . قال الشاعر :

فقل لبنى مروان ما بال ذمّةٍ * وحبلٍ ضعيفٍ مايزال يُوَصَّلُ (١)

وقال ٱمرؤ القيس :

دَرِيرٍ كَخُذروفِ الوليدِ أَمَرَّهُ * تَقَلُّبُ كفَّيه بخيطٍ مُوَصَّـلِ (٢)

(١) رواية البحر وروح المعانى: ما بال ذمـتى * بحبل ... ...الخ

(٢) درير : مستدر فى العـدو ؛ يصف سرعة جرى فرسه . والخذروف شيء يدوّره الصبي فى يده و يسمع له صوت ويسمى الخرارة . وأمره أحكم فتله .

Marfat.com

والضمير فى « لهم » لقريش ؛ عن مجاهد . وقيـل : هو لليهود . وقيـل : هو لهم جميعا . والآية رد على من قال هلا أوتى محمد القرآن جملة واحدة . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يتذكرون محمدا فيؤمنوا به . وقيل : يتذكرون فيخافوا أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم ؛ قاله على بن عيسى . وقيل لعلهم يتعظون بالقرآن عن عبادة الأصنام . حكاه النقاش .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ أخبر أن قوما ممن أوتوا الكتاب من بنى إسرائيل من قبـل القرآن يؤمنون بالقرآن ؛ كعبد الله بن سـلام وسلمان . و يدخل فيه من أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلا ، قدموا مع جعفر بن أبى طالب المدينة ، اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة ، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى : منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن و إدريس ونافع . كذا سماهم المـاوردى . وأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتى بعدها « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَـا صَبَرُوا » قاله قتادة . وعنه أيضا : أنها نزلت فى عبد الله بن سلام وتميم الدارى والجارود العبدى وسلمان الفارسى ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية . وعن رفاعة القرظى : نزلت فى عشرة أنا أحدهم . وقال عروة بن الزبير : نزلت فى النجاشى وأصحابه ووجه باثنى عشر رجلا فجلسـوا مع النبى صـلى الله عليه وسـلم ، وكان أبو جهل وأصحابه قريبا منهـم ، فآمنوا بالنبى صـلى الله عليه وسلم ، فلما قاموا من عنـده تبعهم أبو جهـل ومن معه ، فقال لهم : خيبكم الله من ركب ، وقبحكم من وفد ، لم تلبثوا أن صدقتموه ، وما رأينا ركبا أحمق منكم ولا أجهـل ؛ فقالوا : « سلام عليكم » لم نأل أنفسنا رشدا « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » وقد تقدم هذا فى « المـائدة »(1)

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٥٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

عند قوله : « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ » مستوفى . وقال أبو العالية : هؤلاء قوم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وقد أدركه بعضهم . ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل القرآن . وقيل : من قبل محمد عليه السلام ﴿ هُمْ بِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بمحمد عليه السلام ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ . ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ﴾ أى إذا قرئ عليهم القرآن قالوا صدقنا بما فيه ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل نزوله ، أو من قبل بعثة محمد عليه السلام ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ أى موحدين، أو مؤمنين بأنه سيبعث محمد وينزل عليه القرآن .

قوله تعالى : أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ ثبت فى صحيح مسلم عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبيّ — صلى الله عليه وسلم — فآمن به واتبعه وصدّقه فله أجران وعبد مملوك أدى حق الله عز وجل وحق سيده فله أجران ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدّبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران " قال الشعبي للخراسانى : خذ هذا الحديث بغير شىء، فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة . وخرجه البخارى أيضا . قال علماؤنا : لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطبا بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين ؛ فالكتابى كان مخاطبا من جهة نبيه، ثم أنه خوطب من جهة نبينا فأجابه واتبعه فله أجر الملتين ، وكذلك العبد هو مأمور من جهة الله تعالى ومن جهة سيده ، ورب الأمة لما قام بما خوطب به من تربيته أمته وأدبها فقد أحياها إحياء التربية، ثم إنه لما أعتقها وتزوجها أحياها إحياء الحرية التى ألحقها فيه بمنصبه ، فقد قام

Marfat.com

بما أمر فيها ، فآجر كل واحد منهما أجرين . ثم إن كل واحد من الأجرين مضاعف في نفسه ، الحسنة بعشر أمثالها فتتضاعف الأجور . ولذلك قيل : إن العبد الذي يقوم بحق سيده وحق الله تعالى أفضل من الحر ، وهو الذي آرتضاه أبو عمر بن عبد البر وغيره . وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "للعبد المملوك المصلح أجران" والذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله والحج وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك . قال سعيد بن المسيّب : وبلغنا أن أبا هريرة لم يكن يحج حتى ماتت أمه لصحبتها . وفي الصحيح أيضا عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نعمّا للمملوك أن يُتوفَّى يحسن عبادة الله وصحابة سيده نعمّا له" .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ عام في صبرهم على ملتهم، ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار وغير ذلك .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي يدفعون . درأت إذا دفعت، والدرء الدفع . وفي الحديث "آدرءوا الحدود بالشبهات" . قيل : يدفعون بالآحتمال والكلام الحسن الأذى . وقيل : يدفعون بالتوبة والآستغفار الذنوب؛ وعلى الأول فهو وصف لمكارم الأخلاق ؛ أي من قال لهم سوءا لاينوه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه . فهذه آية مهادنة ، وهي من صدر الإسلام ، وهي مما نسختها آية السيف وبقي حكمها فيما دون الكفر يتعاطاه أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة . ومنه قوله عليه السلام لمعاذ "وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها وخالِقِ الناس بخلق حسن" ومن الخلق الحسن دفع المكروه والأذى، والصبر على الجفا بالإعراض عنه ولين الحديث .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أثنى عليهم بأنهم ينفقون من أموالهم في الطاعات وفي رسم الشرع ، وفي ذلك حض على الصدقات . وقد يكون الإنفاق من الأبدان بالصوم والصلاة ؛ ثم مدحهم أيضا على إعراضهم عن اللغو ؛ كما قال تعالى: « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا » أي إذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم أعرضوا

Marfat.com

عنه ؛ أي لم يشتغلوا به ﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى متاركة؛ مثل قوله : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » أى لنا ديننا ولكم دينكم . « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » أى أمنا لكم منا فإنا لا نحاربكم، ولا نسابكم ، وليس من التحية فى شىء . قال الزجاج : وهذا قبل الأمر بالقتال . ﴿ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة .

قوله تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ قال الزجاج : أجمع المسلمون على أنها نزلت فى أبى طالب .

قلت : والصواب أن يقال أجمع جل المفسرين على أنها نزلت فى شأن أبى طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو نص البخارى ومسلم، وقد تقدم ذلك فى « براءة »[1] . وقال أبو روق قوله : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ إشارة إلى العباس. وقاله قتادة . ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ قال مجاهد : لمن قدر له أن يهتدى . وقيل : معنى « مَنْ أَحْبَبْتَ » أى من أحببت أن يهتدى. وقال جبير بن مطعم: لم يسمع أحد الوحى يلقى على النبي صلى الله عليه وسلم إلا أبا بكر الصديق فإنه سمع جبريل وهو يقول : يا محمد اقرأ « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

قوله تعالى : وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ هذا قول مشركى مكة . قال ابن عباس : قائل ذلك من قريش الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشى، قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لنعلم أن قولك حقّ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ، ونؤمن بك، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا — يعنى مكة — لاجتماعهم على خلافنا، ولا طاقة لنا بهم . وكان هذا من تعللاتهم؛ فأجاب الله تعالى عما اعتلّ به فقال : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ أى ذا أمن . وذلك أن العرب كانت فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض ، و يقتل بعضهم بعضا، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم، فأخبر أنه قد أمنهم بحرمة البيت ، ومنع عنهم عدوهم، فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة فى قتالهم . والتخطف الانتزاع بسرعة ؛ وقد تقدّم . قال يحيى بن سلّام يقول : كنتم آمنين فى حرمى ، تأكلون رزقى، وتعبدون غيرى، أفتخافون إذا عبدتمونى وآمنتم بى . ﴿ يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى يُجمع إليه ثمراتُ كل أرض و بلد؛ عن ابن عباس وغيره . يقال جبى الماء فى الحوض أى جمعه . والجابية الحوض العظيم . وقرأ نافع « تُجْبَى » بالتاء ؛ لأجل الثمرات . الباقون بالياء ؛ لقوله : « كُلِّ شَيْءٍ » واختاره أبو عبيد . قال : لأنه حال بين الاسم المؤنث و بين فعله حائل ، وأيضا فإن الثمرات جمع ، وليس بتأنيث حقيق . ﴿ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ أى من عندنا . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يعقلون ؛ أى هم غافلون عن الاستدلال ، وأن من رزقهم وأمنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا، و يمنع الكفار عنهم فى إسلامهم . و « رِزْقًا » نصب على المفعول من أجله . ويجوز نصبه على المصدر بالمعنى؛ لأن معنى « تُجْبَى » ترزق . وقرئ « يُجْنَى » بالنون من الجنا ، وتعديته بإلى كقولك يجنى إلى فيه ويجنى إلى الخافة[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ بيّن لمن توهم أنه لو آمن لقاتلته العرب أن الخوف فى ترك الإيمان أكثر ؛ فكم من قوم كفروا ثم حلّ بهم البوار ، والبطر

(١) الخافة العيبة ومنه الحديث "المؤمن كمثل خافة الزرع" .

Marfat.com

الطغيان بالنعمــة ؛ قاله الزجاج « مَعِيشَتَهَــا » أى فى معيشتها فلمــا حذف (فى) تعــدّى الفعل ؛ قاله المــازنى . الزجاج كقوله : « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَــبْعِينَ رَجُلًا » . الفراء . هو منصوب على التفسير . قال كما تقول : أبطرت مالك و بطرته . ونظيره عنده « إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » وكذا عنده « فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا » ونصب المعارف على التفسير محال عنــد البصريين ؛ لأن معنى التفســير والتميز أن يكون واحدا نكرة يدل على الجنس . وقيل : ٱنتصب بـ « بَطِرَتْ » ومعنى « بَطِرَتْ » جهلت؛ فالمعنى : جهلت شكر معيشتها . ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْــدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى لم تُسكَن بعد إهلاك أهلها إلا قليلا من المساكن وأكثرها خراب . والاستثناء يرجع إلى المساكن أى بعضها يسكن ؛ قاله الزجاج. وٱعترض عليه ؛ فقيل : لو كان الاستثناء يرجع إلى المساكن لقال إلا قليل ؛ لأنك تقول : القــوم لم تضرب إلا قليل ؛ ترفع إذا كان المضروب قليلا ، وإذا نصبت كان القليل صــفة للضرب؛ أى لم تضرب إلا ضربا قليلا ، فالمعنى إذًا : فتلك مساكنهم لم يسكنها إلا المسافرون ومن مرّ بالطريق يوما أو بعض يوم ، أى لم تُسكن من بعــدهم إلا سكونا قليلا . وكذا قال ابن عباس : لم يسكنها إلا المسافر أو مارّ الطريق يوما أو ساعة . ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ أى لمــا خلّفوا بعد هلاكهم .

قوله تعــالى : وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

قوله تعــالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُــرَى ﴾ أى القرى الكافرة . ﴿ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا ﴾ قرئ بضم الهمزة وكسرها لإتباع الجر يعنى مكة و﴿ رَسُــولًا ﴾ يعنى محمدا صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم . وقيل : « فِي أُمِّهَا » يعنى فى أعظمها « رَسُولًا » ينذرهم . وقال الحسن : فى أوائلها .

قلت : ومكة أعظم القرى لحرمتها وأولها، لقوله تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ » وخصت بالأعظم لبعثة الرسول فيها ؛ لأن الرسل تبعث إلى الأشراف وهم يسكنون المدائن وهى أم ما حولها . وقد مضى هذا المعنى فى آخر سورة « يوسف »(١) . ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ « يَتْلُو » فى موضع الصفة أى تاليا أى يخبرهم أن العذاب ينزل بهم إن لم يؤمنوا . ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى ﴾ وسقطت النون للإضافة مثل « ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ » . ﴿ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ . أى لم أهلكهم إلا وقد آستحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم . وفى هذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم . أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا آستحقوا الإهلاك بظلمهم ، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم . ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين ، كما قال عز من قائل : «وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ» فنص فى قوله «بِظُلْمٍ» على أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلما لهم منه،وأن حاله فى غناه وحكمته منافية للظلم ، دل على ذلك بحرف النفى مع لامه كما قال تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ياأهل مكة ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾ أى تتمتعون بها مدة حياتكم، أو مدة فى حياتكم ،فإما أن تزولوا عنها أو تزول عنكم . ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أى أفضل وأدوم، يريد الدار الآخرة وهى الجنة . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن الباقى أفضل من الفانى . قرأ أبو عمرو « يعقلون » بالياء . الباقون بالتاء على الخطاب وهو الاختيار لقوله تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ » . قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ ﴾ يعنى الجنة وما فيها من الثواب ﴿ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فأعطى منها بعض ما أراد . ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أى فى النار . ونظيره قوله : «وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ

(١) انظر ج ٩ ص ٢٧٤ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

مِنَ الْمُحْضَرِينَ » قال ابن عباس : نزلت فى حمزة بن عبد المطلب، وفى أبى جهل بن هشام. وقال مجاهد : نزلت فى النبى صلى الله عليه وسلم وأبى جهل . وقال محمد بن كعب . نزلت فى حمزة وعلىّ، وفى أبى جهل وعمارة بن الوليد . وقيل : فى عمار والوليد بن المغيرة ؛ قاله السدى . قال القشيرى : والصحيح أنها نزلت فى المؤمن والكافر على التعميم . الثعلبى : و بالجملة فإنها نزلت فى كل كافر متع فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار، وفى كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أى ينادى الله يوم القيامة هؤلاء المشركين ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ﴾ بزعمكم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم . ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أى حقت عليهم كلمة العذاب وهم الرؤساء؛ قاله الكلبى. وقال قتادة : هم الشياطين. ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا ﴾ أى دعوناهم إلى الغىّ . فقيل لهم : أغويتموهم ؟ قالوا : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ . يعنون أضللناهم كما كنا ضالين . ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى تبرأ بعضنا من بعض، والشياطين يتبرءون ممن أطاعهم ، والرؤساء يتبرءون ممن قبل منهم؛ كما قال تعالى : « الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ ﴾ أى للكفار ﴿ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أى ٱستغيثوا بآلهتكم التى عبدتموها فى الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم . ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أى ٱستغاثوا بهم . ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ أى فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم . ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ قال الزجاج : جواب « لَوْ » محذوف؛ والمعنى : لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم الهدى ، ولما صاروا إلى العذاب . وقيل : أى لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم . وقيل المعنى : ودوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا إذا رأوا العذاب يوم القيامة . ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى يقول الله لهم ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتى . ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى خفيت عليهم الحجج؛ قاله مجاهد؛ لأن الله قد أعذر إليهم فى الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة. و« ٱلْأَنْبَاء » الأخبار؛ سمى حججهم أنباء لأنها أخبار يخبرونها . ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى لا يسأل بعضهم بعضا عن الحجج؛ لأن الله تعالى أدحض حججهم؛ قاله الضحاك . وقال ٱبن عباس : « لَا يَتَسَاءَلُونَ » أى لا ينطقون بحجة . وقيل : « لَا يَتَسَاءَلُونَ » فى تلك الساعة ، ولا يدرون ما يجيبون به من هول تلك الساعة ، ثم يجيبون بعد ذلك كما أخبر عن قولهم : « وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » . وقال مجاهد : لا يتساءلون بالأنساب . وقيل : لا يسأل بعضهم بعضا أن يحمل من ذنوبه شيئا؛ حكاه بن عيسى.

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ ﴾ أى من الشرك ﴿ وَآمَنَ ﴾ أى صدق ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أدى الفرائض وأكثر من النوافل ﴿ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ أى من الفائزين بالسعادة . وعسى من الله واجبة .

قوله تعالى : وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ هذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم للشفاعة؛ أى الاختيار إلى الله تعالى فى الشفعاء لا إلى المشركين . وقيل هو جواب الوليد بن المغيرة حين قال : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » يعنى نفسه زعم، وعروة بن مسعود الثقفى من الطائف . وقيل : هو جواب اليهود إذ قالوا لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به . قال ابن عباس : والمعنى؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار منهم من يشاء لطاعته . وقال يحيى بن سلّام : والمعنى؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار من يشاء لنبوّته . وحكى النقاش : أن المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم، ويختار الأنصار لدينه .

قلت : وفى كتاب البزّار مرفوعا صحيحا عن جابر " إن الله تعالى اختار أصحابى على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لى من أصحابى أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعليا — فجعلهم أصحابى وفى أصحابى كلهم خير واختار أمتى على سائر الأمم واختار لى من أمتى أربعة قرون" . وذكر سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن وهب بن منبه عن أبيه فى قوله عز وجل : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » قال من النعم الضأن ، ومن الطير الحمام . والوقف التام « وَيَخْتَارُ » . وقال علىّ بن سليمان : هذا وقف التمام ولا يجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ « يَخْتَارُ » لأنها لو كانت فى موضع نصب لم يعد عليها شىء . قال وفى هذا رد على القدرية . قال النحاس : التمام « وَيَخْتَارُ » أى ويختار الرسل . ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ أى ليس يرسل من اختاروه هم . قال أبو إسحق : « وَيَخْتَارُ » هذا الوقف التام المختار ، ويجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ« يَخْتَارُ » ويكون المعنى ويختار الذى كان لهم فيه الخيرة . قال القشيرى : الصحيح الأوّل لإطباقهم [على] الوقف على قوله « وَيَخْتَارُ » . قال المهدوى : وهو أشبه بمذهب أهل السنة و « ما » من قوله : « مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ » نفى عام لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شىء سوى اكتسابه بقدرة الله عز وجل . الزمخشرى : « مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ » بيان لقوله « ويختار »؛ لأن معناه يختار ما يشاء ؛ ولهذا لم يدخل العاطف ، والمعنى؛ إن الخيرة لله تعالى فى أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها أى ليس لأحد

Marfat.com

من خلقه أن يختار عليه . وأجاز الزجاج وغيره أن تكون « ما » منصوبة بـ«يَخْتَارُ» . وأنكر الطبري أن تكون « ما » نافية؛ لئلا يكون المعنى إنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لهم فيما يستقبل، ولأنه لم يتقدم كلام بنفي . قال المهدوي : ولا يلزم ذلك؛ لأن « ما » تنفي الحال والاستقبال كليس ولذلك عملت عملها ؛ ولأن الآي كانت تنزل على النبي صلى الله عليه وسلم على ما يسأل عنه ، وعلى ما هم مصرون عليه من الأعمال وإن لم يكن ذلك في النص . وتقدير الآية عند الطبري : ويختار لولايته الخيرة من خلقه؛ لأن المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم فيجعلونها لآلهتهم ، فقال الله تبارك وتعالى : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » للهداية من خلقه من سبقت له السعادة في علمه ، كما اختار المشركون خيار أموالهم لآلهتهم ، فـ « مَا » على هذا لمن يعقل وهي بمعنى الذي و « الْخِيَرَةُ » رفع بالابتداء و « لَهُمْ » الخبر والجملة خبر « كان » . وشبهه بقولك : كان زيد أبوه منطلق وفيه ضعف ؛ إذ ليس في الكلام عائد يعود على اسم كان إلا أن يقدر فيه حذف فيجوز على بعد . وقد روى معنى ما قاله الطبري عن ابن عباس . قال الثعلبي : و « مَا » نفي أي ليس لهم الاختيار على الله . وهذا أصوب كقوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » . قال محمود الوراق :

توكّل على الرحمن في كل حاجةٍ * أردتَ فإن الله يقضي ويقدر
إذا ما يرِدْ ذو العرش أمرا بعبده * يصبْه وما للعبد ما يتخير (١)
وقد يهلك الإنسانُ من وجهِ حِذْره * وينجو بحمد الله من حيث يحذر (٢)

وقال آخر :

العبدُ ذو ضَجَرٍ والربُّ ذو قَدَرٍ * والدّهرُ ذو دُوَلٍ والرزقُ مقسومُ
والخيرُ أجمعُ فيما اختار خالقُنا * وفي اختيار سواه اللّومُ والشُّومُ

قال بعض العلماء : لا ينبغي لأحد أن يقدم على أمر من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخيرة في ذلك ، بأن يصلي ركعتين صلاة الاستخارة ، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة « قُلْ يَأَيُّهَا

(١) في بعض نسخ الأصل : وما للعبد لا يخير . والتصحيح من النسخة الخيرية .
(٢) لعل صواب البيت : وينجو بحمد الله من ليس يحذر . وهذا ما يفيده معنى التوكل .

Marfat.com

الْكَافِرُونَ » وفى الركعة الثانية « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » . وٱختار بعض المشايخ أن يقرأ فى الركعة الأولى « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ » الآية، وفى الركعة الثانية « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » وكلٌّ حسن.

ثم يدعو بهذا الدعاء بعد السلام، وهو ما رواه البخارى فى صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن؛ يقول : "إذا هَمَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة ثم ليقل اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فٱقْدُره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فٱصرفه عنى وٱصرفنى عنه وٱقْدُر لى الخير حيث كان ثم رَضِّنى به" قال : ويسمى حاجته . وروت عائشة عن أبى بكر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أمرا قال : "اللهم خِرْ لى وٱختر لى". وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له "يا أنس إذا هممت بأمر فٱستخر ربك فيه سبع مرات ثم ٱنظر إلى ما يسبق قلبك فإن الخير فيه".

قال العلماء : وينبغى له أن يفرّغ قلبه من جميع الخواطر حتى لا يكون مائلا إلى أمر من الأمور، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه، فإن الخير فيه إن شاء الله . وإن عزم على سفر فيتوخى بسفره يوم الخميس أو يوم الاثنين ٱقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم نزه نفسه سبحانه بقوله الحق؛ فقال : ﴿ سُبْحَانَ اللهِ ﴾ أى تنزيها . ﴿ وَتَعَالَى ﴾ أى تقدّس وتمجد ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ . وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يظهرون . وقرأ ٱبن محيصن وحميد « تَكُنُّ » بفتح التاء وضم الكاف . وقد تقدم هذا فى « النمل » . تمدح سبحانه بأنه عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شىء ﴿ وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تقدم معناه، وأنه المنفرد بالوحدانية، وأن جميع المحامد إنما تجب له، وأن لا حكم إلا له وإليه المصير .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ أى دائما ؛ ومنه قول طَرَفة .

لعمرُك ما أمرى علىّ بغُمَّـةٍ * نهارى ولا ليلى علىّ بسَرْمَدِ (١)

بين سبحانه أنه مهد أسباب المعيشة ليقوموا بشكر نعمة . ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾ أى بنور تطلبون فيه المعيشة . وقيل : بنهار تبصرون فيه معايشكم وتصلح فيه الثمار والنبات. ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ سماع فهم وقبول . ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ أى تستقرون فيه من النصب . ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ما أنتم فيه من الخطإ فى عبادة غيره؛ فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على إيتاء الليل والنهار غيره فلمَ تشركون به . ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أى فيهما . وقيل الضمير للزمان وهو الليل والنهار . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى لتطلبوا من رزقه فيه أى فى النهار فحذف . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

(١) الغمة : الأمر الذى لا يهتدى له ؛ والمعنى ؛ لا أتحير فى أمرى نهارا وأؤخره ليلا فيطول على الليل .

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أعاد هذا الضمير لاختلاف الحالين ، ينادون مرة فيقال لهم : « أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » فيدعون الأصنام فلا يستجيبون ، فتظهر حيرتهم[(١)]، ثم ينادون مرة أخرى فيسكتون . وهو توبيخ وزيادة خزى . والمناداة هنا ليست من الله ؛ لأن الله تعالى لا يكلم الكفار لقوله تعالى : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » لكنه تعالى يأمر من يوبخهم ويبكتهم ، ويقيم الحجة عليهم فى مقام الحساب . وقيل : يحتمل أن يكون من الله ، وقوله : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ » حين يقال لهم « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » وقال: « شُرَكَائِيَ » لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ أى نبيا ؛ عن مجاهد . وقيل : هم عدول الآخرة يشهدون على العباد بأعمالهم فى الدنيا . والأول أظهر ؛ لقوله تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » وشهيد كل أمة رسولها الذى يشهد عليها . والشهيد الحاضر . أى أحضرنا رسولهم المبعوث إليهم . ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أى حجتكم . ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ أى علموا صدق ما جاءت به الأنبياء . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى ذهب عنهم وبطل . ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى يختلقونه من الكذب على الله تعالى من أن معه آلهة تعبد .

قوله تعالى : إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

(١) فى نسخة ، فيظهر حزنهم .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾ لما قال تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا » بيّن أن قارون أوتيها واغتر بها ولم تعصمه من عذاب الله كما لم تعصم فرعون ، ولستم أيها المشركون بأكثر عددا ومالاً من قارون وفرعون ، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله ، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه . قال النخعي وقتادة وغيرهما : كان ابن عم موسى لحاً ؛ وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ، وموسى بن عمران بن قاهث . وقال ابن إسحق : كان عم موسى لأب وأم . وقيل : كان ابن خالته . ولم ينصرف للعجمة والتعريف . وما كان على وزن فاعول أعجميا لا يحسن فيه الألف واللام لم ينصرف فى المعرفة وانصرف فى النكرة ، فإن حسنت فيه الألف واللام انصرف إن كان اسما لمذكر نحو طاوس وراقود . قال الزجاج : ولو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف . ﴿ فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾ بغيه أنه زاد فى طول ثوبه شبرا ؛ قاله شهر بن حوشب . وفى الحديث " لا ينظر الله إلى من جرّ إزاره بطرا " وقيل : بغيه كفره بالله عز وجل ؛ قاله الضحاك . وقيل : بغيه استخفافه بهم بكثرة ماله وولده ؛ قاله قتادة . وقيل : بغيه نسبته ما أتاه الله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته ؛ قاله ابن بحر . وقيل : بغيه قوله إذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان فى هرون فمالى ! فروى أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة لموسى والحبورة لهرون ؛ يقرب القربان ويكون رأسا فيهم ، وكان القربان لموسى فجعله موسى إلى أخيه ، وجد قارون فى نفسه وحسدهما . فقال لموسى : الأمر لكما وليس لى شيء إلى متى أصبر . قال موسى : هذا صنع الله . قال : والله لا أصدقنك حتى تأتى بآية ؛ فأمر رؤساء بنى إسرائيل أن يجيء كل واحد منهم بعصاه ، فحزمها وألقاها فى القبة التى كان الوحى ينزل عليه فيها ، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل ، فأصبحوا وإذا بعصا هرون تهتز ولها ورق أخضر — وكانت من شجر اللوز — فقال قارون : ما هو بأعجب مما تصنع من السحر . « فَبَغَى عَلَيْهِمْ » من البغى وهو الظلم . وقال يحيى بن سلّام وابن المسيّب : كان قارون غنيا عاملا لفرعون على بنى إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم وكان منهم . وقول سابع : روى عن ابن عباس قال : لما أمر الله

Marfat.com

تعالى برجم الزانى عمد قارون إلى آمرأة بغى وأعطاها مالا ، وحملها على أن آدعت على موسى أنه زنى بها وأنه أحبلها؛ فعظم على موسى ذلك وأحلفها بالله الذى فلق البحر لبنى إسرائيل ، وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت . فتداركها الله فقالت : أشهد أنك برىء ، وأن قارون أعطانى مالا ، وحملنى على أن قلت ما قلت ، وأنت الصادق وقارون الكاذب . فجعل الله أمر قارون إلى موسى وأمر الأرض أن تطيعه . فجاءه وهو يقول للأرض : يا أرض خذيه؛ وهى تأخذه شيئا فشيئا وهو يستغيث ياموسى ! إلى أن ساخ فى الأرض هو وداره وجلساؤه الذين كانوا على مذهبه. وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى: آستغاث بك عبادى فلم ترحمهم، أما أنهم لو دعونى لوجدونى قريبا مجيبا . آبن جريج : بلغنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة ، فلا يبلغون إلى أسفل الأرض إلى يوم القيامة . وذكر آبن أبى الدنيا فى كتاب الفرج : حدثنى إبراهيم بن راشد قال حدثنى داود بن مهران، عن الوليد بن مسلم، عن مروان آبن جناح، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس قال : لقى قارون يونس فى ظلمات البحر ، فنادى قارون يونس ، فقال يا يونس : تب إلى الله فإنك تجده عند أول قدم ترجع بها إليه . فقال يونس : ما منعك من التوبة . فقال: إن توبتى جعلت إلى آبن عمى فأبى أن يقبل منى. وفى الخبر : إذا وصل قارون إلى قرار الأرض السابعة نفخ إسرافيل فى الصور . والله أعلم . قال السدى : وكان آسم البغى سبرتا ، و بذل لها قارون ألفى درهم . قتادة : وكان قطع البحر مع موسى وكان يسمى المنوّر من حسن صورته فى التوراة ، ولكن عدوّ الله نافق كما نافق السامرى .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ قال عطاء : أصاب كثيرا من كنوز يوسف عليه السلام . وقال الوليد بن مروان : إنه كان يعمل الكيمياء . ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ «إن» وآسمها وخبرها فى صلة « ما » و « ما » مفعولة « آتينا » . قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول ما أقبح ما يقول الكوفيون فى الصلات ؛ إنه لا يجوز أن تكون صلة الذى وأخواته « إن » وما عملت فيه، وفى القرآن « مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ » . وهو جمع مِفتح بالكسر وهو مايفتح

Marfat.com

به . ومن قال مفتاح قال مفاتيح . ومن قال هى الخزائن فواحدها مَفْتَح بالفتح . ﴿ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ أحسن ما قيل فيه أن المعنى لتنيء العصبة أى تميلهم بثقلها، فلما ٱنفتحت التاء دخلت الباء . كما قالوا هو يذهب بالبؤس ويُذهِب البؤس . فصار « لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ » فجعل العصبة تنوء أى تنهض متثاقلة ؛ كقولك قم بنا أى ٱجعلنا نقوم . يقال : ناء ينوء نوءا إذا نهض بثقل . قال الشاعر(١) :

تَنـوءُ بأخراها فَلَأْيًا قِيامُها * وتَمشِى الهُوَيْنَى عن قريبٍ فتَبْهَرُ

وقال آخر :

أخذتُ فلم أملك ونُؤْتُ فلم أقُمْ * كأنِّى من طول الزمان مقيَّدُ

وأناءنى إذا أثقلنى؛ عن أبى زيد . وقال أبو عبيدة : قوله « لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ » مقلوب والمعنى لتنوء بها العصبة أى تنهض بها . أبو زيد : نؤت بالحمل إذا نهضت . قال الشاعر :

إنا وجدنا خَلَفا بئس الخلَف * عبدًا إذا ما ناء بالحمل وقف

والأول معنى قول ٱبن عباس وأبى صالح والسدى . وهو قول الفراء وٱختاره النحاس . كما يقال ذهبت به وأذهبته وجئت به وأجاته ونؤت به وأَنَأْتُهُ ؛ فأما قولهم : له عندى ما ساءه وناءه فهو إتباع كان يجب أن يقال وأناءه . ومثله هنأنى الطعام ومرأنى، وأخذه ما قدُم وما حدُث . وقيل : هو مأخوذ من النأى وهو البعد . ومنه قول الشاعر :

ينأَوْنَ عنا وما تَنْأَى مودّتُهم * فالقلبُ فيهم رهينٌ حيثما كانوا

وقرأ بديل بن ميسرة « لَيَنُوءُ » بالياء ؛ أى لينوء الواحد منها أو المذكور فحمل على المعنى . وقال أبو عبيدة : قلت لرؤبة بن العجاج فى قوله :

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَق * كأنّه فى الجِلْدِ تَوْلِيعُ البَهَق

إن كنت أردت الخطوط فقل كأنها، وإن كنت أردت السواد والبلق فقل كأنهما . فقال : أردت كل ذلك . وٱختلف فى العصبة وهى الجماعة التى يتعصب بعضهم لبعض على أحد عشر قولا : الأول ــ ثلاثة رجال ؛ قاله ٱبن عباس . وعنه أيضا من الثلاثة إلى العشرة .

(١) هو ذو الرمة . يريد تنيئها عجيزتها إلى الأرض لضخامتها وكثرة لحمها فى أردافها .

Marfat.com

وقال مجاهد : العصبة هنا ما بين العشرين إلى خمسة عشر . وعنه أيضا : ما بين العشرة إلى الخمسة عشر . وعنه أيضا : من عشرة إلى خمسة . ذكر الأوّل الثعلبي، والثاني القشيري والماوردي، والثالث المهدوي. وقال أبو صالح والحكم بن عُتَيبة وقتادة والضحاك: أربعون رجلا . السدّي ما بين العشرة إلى الأربعين . وقاله قتادة أيضا . وقال عكرمة : منهم من يقول أربعون، ومنهم من يقول سبعون . وهو قول أبي صالح إن العصبة سبعون رجلا ؛ ذكره الماوردي . والأوّل ذكره عنه الثعلبي. وقيل : ستون رجلا. وقال سعيد بن جبير : ست أو سبع . وقال عبد الرحمن بن زيد : ما بين الثلاثة والتسعة وهو النفر . وقال الكلبي: عشرة لقول إخوة يوسف « وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » وقاله مقاتل. وقال خيثمة : وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلا غراء محجلة، وأنها لتنوء بها من ثقلها، ما يزيد مفتح منها على إصبع، لكل مفتح منها كنز مال ، لو قسم ذلك الكنز على أهل البصرة لكفاهم . قال مجاهد : كانت المفاتيح من جلود الإبل . وقيل : من جلود البقر لتخف عليه ، وكانت تحمل معه إذا ركب على سبعين بغلا فيما ذكره القشيري . وقيل : على أربعين بغلا . وهو قول الضحاك . وعنه أيضا : إن مفاتحه أوعيته . وكذا قال أبو صالح : إن المراد بالمفاتح الخزائن ؛ فالله أعلم . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ أي المؤمنون من بني إسرائيل ؛ قاله السدّي . وقال يحيى بن سلّام : القوم هنا موسى . وقاله الفراء . وهو جمع أريد به واحد كقوله : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ » وإنما هو نعيم بن مسعود على ما تقدّم . ﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ أي لا تأشر ولا تبطر . ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ أي البطرين؛ قاله مجاهد والسدّي . قال الشاعر:

ولستُ بمِفراحٍ إذا الدهرُ سَرَّنِي * ولا ضارعٍ في صرفه المتقلب (١)

وقال الزجاج : المعنى لا تفرح بالمال فإنّ الفرِح بالمال لا يؤدّي حقّه (٢) . وقال مبشر بن عبد الله : لا تفرح لا تفسد . قال الشاعر (٣) :

إذا أنتَ لم تبرح تؤدّى أمانةً * وتحملُ أخرى أفرحتك الودائعُ

(١) ويروى : ولا جازع من صرفه المتحوّل .	(٢) التصحيح من النسخة الخيرية .
(٣) أنشده أبو عبيدة لبيهس العذرى .

Marfat.com

أى أفسدتك . وقال أبو عمرو : أفرحه الدين أثقله . وأنشده : إذا أنت ... البيت . وأفرحه سره فهو مشترك . قال الزجاج : والفرحين والفارحين سواء . وفرق بينهما الفراء فقال : معنى الفرحين الذين هم فى حال فرح، والفارحين الذين يفرحون فى المستقبل . وزعم أن مثله طمع وطامع وميت ومائت . ويدل على خلاف ما قال قول الله عز وجل : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ » ولم يقل مائت . وقال مجاهد أيضا : معنى « لَا تَفْرَحْ » لا تبغ « إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » أى الباغين . وقال ابن بحر : لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين .

قوله تعالى : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أى اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهى الجنة؛ فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه فى الآخرة لا فى التجبر والبغى.

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ اختلف فيه؛ فقال ابن عباس والجمهور: لا تضيع عمرك فى ألا تعمل عملا صالحا فى دنياك؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها . فالكلام على هذا التأويل شدّة فى الموعظة . وقال الحسن وقتادة : معناه لا تضيع حظك من دنياك فى تمتعك بالحلال وطلبك إياه، ونظرك لعاقبة دنياك . فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به و إصلاح الأمر الذى يشتهيه . وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدّة؛ قاله ابن عطية .

قلت : وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر فى قوله : احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . وعن الحسن : قدّم الفضل، وأمسك ما يبلغ . وقال مالك : هو الأكل والشرب بلا سرف . وقيل : أراد بنصيبه الكفن . فهذا وعظ متصل؛ كأنهم قالوا: لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذى هو الكفن . ونحو هذا قول الشاعر :

نَصيبُك مما تجمعُ الدهرَ كلَّه * رداءان تُلْوَى فيهما وحَنُوط

وقال آخر: وهى القناعة لا تبغى بها بدلا * فيها النعيم وفيها راحة البدن

انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها * هل راح منها بغير القطن والكفن

قال ابن العربى : وأبدع مافيه عندى قول قتادة : ولا تنس نصيبك الحلال، فهو نصيبك من الدنيا و ياما أحسن هذا . ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ أى أطع الله واعبده كما أنعم عليك .

Marfat.com

ومنه الحديث: ما الإحسان؟ قال: "أن تعبد الله كأنك تراه" وقيل: هو أمر بصلة المساكين.
قال ابن العربي: فيه أقوال كثيرة جماعها استعمال نعم الله في طاعة الله. وقال مالك: هو الأكل والشرب من غير سرف. قال ابن العربي: أرى مالكا أراد الرد على الغالين في العبادة والتقشف؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلواء، ويشرب العسل، ويستعمل الشواء، ويشرب الماء البارد. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع. ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لا تعمل بالمعاصي ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

قوله تعالى: قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ يعني علم التوراة. وكان فيما روى من أقرأ الناس لها، ومن أعلمهم بها. وكان أحد العلماء السبعين الذين اختارهم موسى للميقات. وقال ابن زيد: أي إنما أوتيته لعلمه بفضلي ورضاه عني. فقوله «عِنْدِي» معناه إن عندي أن الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل فيّ. وقيل: أوتيته على علم من عندي بوجوه التجارة والمكاسب؛ قاله علي بن عيسى. ولم يعلم أن الله لو لم يسهل له اكتسابها لما اجتمعت عنده. وقال ابن عباس: على علم عندي بصنعة الذهب. وأشار إلى علم الكيمياء. وحكى النقاش: أن موسى عليه السلام علمه الثلث من صنعة الكيمياء، ويوشع الثلث، وهرون الثلث، فخدعهما قارون — وكان على إيمانه — حتى علم ما عندهما وعمل الكيمياء، فكثرت أمواله. وقيل: إن موسى علم الكيمياء ثلاثة؛ يوشع بن نون، [وكالب[(١)] بن يوفنا]، وقارون، واختار الزجاج القول الأول، وأنكر قول من قال إنه يعمل الكيمياء. قال: لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له. وقيل: إن موسى علّم أخته علم الكيمياء، وكانت زوجة قارون، وعلّمت أخت موسى قارون؛ والله أعلم.

(١) في الأصول «طالوت» وهو تحريف. والتصويب من كتب التفسير.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى بالعذاب . ﴿ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ أى الأمم الخالية الكافرة . ﴿ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أى للمال، ولو كان المال يدل على فضل لما أهلكهم . وقيل : القوة الآلات، والجمع الأعوان والأنصار، والكلام خرج مخرج التقريع من الله تعالى لقارون؛ أى « أَوَلَمْ يَعْلَمْ » قارون « أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ » . ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى لا يسالون سؤال استعتاب كما قال : « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » « وَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ » وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ لقوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » قاله الحسن . وقال مجاهد : لا تسأل الملائكة غدا عن المجرمين؛ فإنهم يعرفون بسيماهم ، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون . وقال قتادة : لا يسال المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار بلا حساب . وقيل : لا يسال مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين عذبوا فى الدنيا . وقيل : أهلك من أهلك من القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يحتج إلى مسئلتهم عن ذنوبهم .

قوله تعالى : فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ ﴾ أى على بنى إسرائيل فيما رآه زينة من متاع الحياة الدنيا؛ من الثياب والدواب والتجمل فى يوم عيد . قال الغزنوى : فى يوم السبت . « فِى زِينَتِهِ » أى مع زينته . قال الشاعر :

إذا ما قلوبُ القــومِ طارت مخافةً ❊ من الموت أرسوا بالنفوس المواجد(١)

أى مع النفوس . كان خرج فى سبعين ألفا من تَبَعه ، عليهم المعصفرات ، وكان أول من صُبِغ له الثياب المعصفَرة . قال السدّى : مع ألف جوار بيض على بغال بيض بسروج من

(١) فى نسخة : أرموا بالنفوس . وفى نسخة أخرى أرسوا بالنفوس النواجد . ولم نعثر عليه .

Marfat.com

ذهب على قُطُف الأرْجُوان . قال ابن عباس : خرج على البغال الشهب . مجاهد : على براذين بيض عليها سروج الأُرْجُوان ، وعليهم المعصفَرات ، وكان ذلك أول يوم رؤى فيه المعصفَر . قال قتادة : خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر ، منها ألف بغل أبيض عليها قُطُف حمر . قال ابن جريج : خرج على بغلة شهباء عليها الأرْجُوان ، ومعه ثلثمائة جارية على البغال الشهب عليهن الثياب الحمر. وقال ابن زيد: خرج فى سبعين ألفا عليهم المعصفَرات . الكلبي : خرج فى ثوب أخضر كان الله أنزله على موسى من الجنة فسرقه منه قارون . وقال جابر بن عبد الله رضى الله عنه : كانت زينته القِرمز .

قلت : القِرمِز صبغ أحمر مثل الأُرْجُوان ، والأُرجوان فى اللغة صبغ أحمر ؛ ذكره القشيرى . ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَاأُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى نصيب وافر من الدنيا . ثم قيل : هذا من قول مؤمنى ذلك الوقت ، تمنوا مثل ماله رغبة فى الدنيا . وقيل : هو من قول أقوام لم يؤمنوا بالآخرة ولا رغبوا فيها ، وهم الكفار .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ وهم أحبار بنى إسرائيل للذين تمنوا مكانه ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ يعنى الجنة . ﴿ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ أى لا يؤتى الأعمال الصالحة ، أو لا يؤتى الجنة فى الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله . وجاز ضميرها لأنها المعنية بقوله : « ثَوَابُ اللَّهِ » .

قوله تعالى : فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ قال مقاتل : لما أمر موسى الأرض فابتلعته قالت بنو إسرائيل : إنما أهلكه ليرث ماله ؛ لأنه كان ابن عمه ، أخى أبيه ، فخسف

Marfat.com

الله تعالى به وبداره الأرض وبجميع أمواله بعد ثلاثة أيام، فأوحى الله إلى موسى إنى لا أعيد طاعة الأرض إلى أحد بعدك أبدا . يقال : خَسَفَ المكانُ يخسِف خُسوفا ذهب فى الأرض وخَسَفَ اللهُ به الأرض خَسْفا أى غاب به فيها . ومنه قوله تعالى : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وخَسَفَ هو فى الأرض وخُسِفَ به . وخسوف القمر كسوفه . قال ثعلب : كَسَفَتِ الشمسُ وخَسَفَ القمرُ؛ هذا أجود الكلام . والخسف النقصان؛ يقال : رضى فلان بالخسف أى بالنقيصة . ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ ﴾ أى جماعة وعصابة . ﴿ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾ لنفسه أى الممتنعين فيما نزل به من الخسف . فيروى أن قارون يَسفُل كلّ يوم بقدر قامة، حتى إذا بلغ قعر الأرض السفلى نفخ إسرافيل فى الصور؛ وقد تقدّم؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ ﴾ أى صاروا يتندّمون على ذلك التمنى و﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ ﴾ [وى] حرف تندّم . قال النحاس : أحسن ما قيل فى هذا قول الخليل وسيبويه ويونس والكسائى إن القوم تنبّهوا أو نُبّهوا؛ فقالوا وَىْ؛ والمتندم من العرب يقول فى خلال تندّمه وَىْ . قال الجوهرى : وَىْ . كلمة تعجب، ويقال : وَيْكَ ووَىْ لعبد الله . وقد تدخل وَىْ على كأن المخففة والمشدّدة تقول : ويكأن الله . قال الخليل : هى مفصوله؛ تقول « وَىْ » ثم تبتدئ فتقول « كَأَنّ » . قال الثعلبى : وقال الفرّاء هى كلمة تقرير؛ كقولك : أما ترى إلى صنع الله وإحسانه؛ وذكر أن أعرابية قالت لزوجها : أين آبنكَ وَيْلك؟ فقال : وَىْ كأنّه وراءَ البيت؛ أى أما ترينه . وقال آبن عباس والحسن : ويك كلمة آبتداء وتحقيق تقديره : إن الله يبسط الرزق . وقيل : هو تنبيه بمنزلة ألا فى قولك ألا تفعل وأمّا فى قولك أما بعد . قال الشاعر (١) :

سَألتَانِى الطَّلاقَ إذ رَأَتَانِى * قَلَّ مالِى قد جِئْتُمانِى بِنُكْرِ
وَىْ كَأَنْ مَنْ يَكنْ له نَشَبٌ يُحْبَ * بْ وَمَنْ يَفتقرْ يَعشْ عيشَ ضُرِّ

(١) هو زيد بن عمرو بن نفيل .

Marfat.com

وقال قُطْرُب : إنما هو ويلك وأسقطت لامه وضمت الكاف التي هي للخطاب إلى وَىْ .
قال عنترة :

ولقد شَفَى نفسي وأبرأ سُقْمَها * قولُ الفوارس وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِمِ

وأنكره النحاس وغيره، وقالوا : إن المعنى لايصح عليه؛ لأن القوم لم يخاطبوا أحدا فيقولوا له ويلك، ولو كان كذلك لكان إنه بالكسر . وأيضا فإن حذف اللام من ويلك لا يجوز . وقال بعضهم : التقدير ويلك آعلم أنه؛ فأضمر آعلم . آبن الأعرابي : «وَيْكَأَنَّ اللّهَ» أي آعلم . وقيل : معناه ألم تر أن الله . وقال القتبي : معناه رحمة لك بلغة حِمْير . وقال الكسائي : وَىْ فيه معنى التعجب . ويروى عنه أيضا الوقف على وَىْ وقال كلمة تفجّع . ومن قال : ويك فوقف على الكاف فمعناه أعجب لأن الله يبسط الرزق وأعجب لأنه لا يفلح الكافرون . وينبغي أن تكون الكاف حرف خطاب لا آسما؛ لأنّ وى ليست مما يضاف . وإنما كتبت متصلة؛ لأنها لما كثر آستعمالها جعلت مع ما بعدها كشيء واحد . ﴿ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا ﴾ بالإيمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البغي والبطر ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ . وقرأ الأعمش « لَوْلَا مَنُّ اللهِ عَلَيْنَا » . وقرأ حفص « لَخَسَفَ بِنَا » مسمّى الفاعل . الباقون : على ما لم يسم فاعله وهو آختيار أبي عبيد . وفي حرف عبد الله « لَانْخُسِفَ بِنَا » كما تقول آنطُلِق بنا . وكذلك قرأ الأعمش وطلحة بن مُصَرِّف . وآختار قراءة الجماعة أبو حاتم لوجهين: أحدهما قوله : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » . والثاني قوله : « لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا » فهو بأن يضاف إلى الله تعالى لقرب آسمه منه أولى . ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ عند الله .

قوله تعالى : تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾ يعنى الجنة . وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها . يعنى تلك التى سمعت بذكرها ، وبلغك وصفها ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى رفعة وتكبرا على الإيمان والمؤمنين ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ عملا بالمعاصى . قاله ابن جُرَيج ومقاتل . وقال عِكْرمة ومسلم البَطين : الفساد أخذ المال بغير حق . وقال الكلبي الدعاء إلى غير عبادة الله . وقال يحيى بن سلّام : هو قتل الأنبياء والمؤمنين . ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ قال الضحاك : الجنّة . وقال أبو معاوية : الذى لا يريد علوّا هو من لم يجزع من ذلّها ، ولم ينافس فى عزّها ، وأرفعهم عند الله أشدّهم تواضعا ، وأعزّهم غدا ألزمهم لذلّ اليوم . وروى سفيان بن عيينة عن إسمعيل بن أبى خالد قال : مرّ علىّ بن الحسين وهو راكب على مساكين يأكلون كِسَرا لهم ، فسلّم عليهم فدعوه إلى طعامهم، فتلا هذه الآية «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا » ثم نزل وأكل معهم . ثم قال : قد أجبتكم فأجيبونى . فحملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم . خرّجه أبو القاسم الطبرانى سليمان بن أحمد قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال حدّثنى أبى ، قال حدّثنا سفيان بن عيينة . فذكره . وقيل : لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب . والمراد إنما ينتفع بتلك الدار من اتقى ، ومن لم يتق فتلك الدار عليه لا له ؛ لأنها تضره ولا تنفعه .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ تقدّم فى « النمل » . وقال عكرمة : ليس شىء خيرا من لا إله إلا الله . وإنما المعنى من جاء بلا إله إلا الله فله منها خير . ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ أى بالشرك ﴿ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى يعاقب بما يليق بعمله .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا

Marfat.com

لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ ختم السورة ببشارة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بردّه إلى مكة قاهرا لأعدائه . وقيل : هو بشارة له بالجنّة . والأول أكثر . وهو قول جابر بن عبد الله وابن عباس ومجاهد وغيرهم . قال القتبي : معَاد الرجل بلده؛ لأنه ينصرف ثم يعود . وقال مقاتل : خرج النبي صلى الله عليه وسلم من الغار ليلا مهاجرا إلى المدينة في غير الطريق مخافة الطلب ، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجُحْفة عرف الطريق إلى مكة فاشتاق إليها ، فقال له جبريل إن الله يقول : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ » أى إلى مكة ظاهرا عليها . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية بالجُحْفة ليست مكية ولا مدنية . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس « إِلَىٰ مَعَادٍ » قال : إلى الموت . وعن مجاهد أيضا وعكرمة والزهرى والحسن : إن المعنى لرادّك إلى يوم القيامة ؛ وهو اختيار الزجاج . يقال بيني و بينك المعاد ؛ أى يوم القيامة ؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء . و « فَرَضَ » معناه أنزل . وعن مجاهد أيضا وأبى مالك وأبى صالح « إِلَىٰ مَعَادٍ » إلى الجنة . وهو قول أبى سعيد الخدرى وابن عباس أيضا؛ لأنه دخلها ليلة الإسراء . وقيل : لأن أباه آدم خرج منها . ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ﴾ أى قل لكفار مكة إذا قالوا إنك لفى ضلال مبين ﴿رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أنا أم أنتم .

قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أى ما علمت أننا نرسلك إلى الخلق وننزل عليك القرآن . ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ قال الكسائى : هو استثناء منقطع بمعنى لكن . ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ أى عونا لهم ومساعدا . وقد تقدّم فى هذه السورة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ يعنى أقوالهم وكذبهم وأذاهم، ولا تلتفت نحوهم وآمض لأمرك وشأنك . وقرأ يعقوب « يَصُدُّنْكَ » مجزوم النون . وقرئ « يُصِدُّنَّكَ » من أصده بمعنى صده وهى لغة فى كلب . قال الشاعر[1] :

أُنَاسٌ أصدّوا الناسَ بالسيف عنهم * صُدُودَ السَّوَاقِي عن أنوفِ الحَوَائِمِ[2]

﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أى إلى التوحيد . وهذا يتضمن المهادنة والموادعة . وهذا كله منسوخ بآية السيف . وسبب هذه الآية ما كانت قريش تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تعظيم أوثانهم، وعند ذلك ألقى الشيطان فى أمنيته أمر الغرانيق على ما تقدم[3] . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أى لا تعبد معه غيره فإنه لا إله إلا هو . نفى لكل معبود و إثبات لعبادته . ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قال مجاهد : معناه إلا هو . وقال الصادق : دينه . وقال أبو العالية وسفيان : أى إلا ما أريد به وجهه؛ أى ما يقصد إليه بالقربة . قال :

أَستغفرُ اللهَ ذنبًا لستُ مُحْصِيَه * ربَّ العبادِ إليه الوَجْهُ والعملُ

وقال محمد بن يزيد : حدثنى الثورى قال سألت أبا عبيدة عن قوله تعالى « كل شيءٍ هالكٌ إلا وَجْهَه » فقال : إلا جاهه، كما تقول لفلان وجه فى الناس أى جاه . ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ فى الأولى والآخرة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . قال الزجاج : « وجهه » منصوب على الاستثناء، ولو كان فى غير القرآن كان إلا وجهه بالرفع، بمعنى كل شيء غير وجهه هالك كما قال[4] :

وكلُّ أخٍ مُفارِقُهُ أخــوه * لَعَمْرُ أبيكَ إلّا الفَرْقَدَانِ

والمعنى كل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه . « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » بمعنى ترجعون إليه .

تمت سورة القصص والحمد لله

(١) هو ذو الرمة . (٢) ويروى : بالضرب ... من أنوف المخارم . (٣) راجع جـ ١٢ ص ٧٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) هو عمرو بن معدى كرب، ويروى لسوار بن المضرب (شواهد سيبويه) .

Marfat.com

سورة العنكبوت

مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدنية كلها فى أحد قولى ٱبن عباس وقتادة . وفى القول الآخر لهما وهو قول يحيى بن سلّام أنها مكية إلا عشر آيات من أولها، فإنها نزلت بالمدينة فى شأن من كان من المسلمين بمكة . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : نزلت بين مكة والمدينة . وهى تسع وستون آية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ تقدم القول فى أوائل السور . وقال ٱبن عباس : المعنى أنا الله أعلم . وقيل : هو ٱسم للسورة . وقيل ٱسم للقرآن . « أَحَسِبَ » ٱستفهام أريد به التقرير والتوبيخ ومعناه الظن . « أَنْ يُتْرَكُوا » فى موضع نصب بـ « حَسِب » وهى وصلتها مقام المفعولين على قول سيبويه . و « أن » الثانية من « أَنْ يَقُولُوا » فى موضع نصب على إحدى جهتين ، بمعنى لأن يقولوا أو بأن يقولوا أو على أن يقولوا . والجهة الأخرى أن يكون على التكرير ؛ التقدير « الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا » أحسبوا « أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» قال ٱبن عباس وغيره : يريد بالناس قوما من المؤمنين كانوا بمكة ، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ؛ كسلمة بن هشام وعيّاش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وياسر أبوه وسمية أمه وعدة من بنى مخزوم وغيرهم . فكانت صدورهم تضيق لذلك ، وربما ٱستنكر أن يمكن الله الكفار من المؤمنين ؛ قال مجاهد وغيره : فنزلت هذه الآية مسلّية ومعلمة أن هذه هى سيرة الله فى عباده ٱختبارا للمؤمنين وفتنة . قال ٱبن عطية : وهذه الآية وإن كانت

Marfat.com

نزلت بهذا السبب أو ما فى معناه من الأقوال فهى باقية فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، موجود حكمها بقية الدهر . وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية فى ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك . و إذا آعتبر أيضا كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن ، ولكن التى تشبه نازلة المسلمين مع قريش هى ما ذكرناه من أمر العدو فى كل ثغر .

قلت : ما أحسن ما قاله ، ولقد صدق فيما قال رضى الله عنه . وقال مقاتل : نزلت فى مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر؛ رماه عامر بن الحضرمى بسهم فقتله . فقال النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ : "سيد الشهداء مِهْجَع وهو أول من يُدْعى إلى باب الجنة من هذه الأمة" . فجزع عليه أبواه وآمرأته فنزلت « الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا» . وقال الشعبى : نزل مفتتح هذه السورة فى أناس كانوا بمكة من المسلمين ، فكتب إليهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من الحديبية أنه لا يقبل منكم إقرار الإسلام حتى تُهاجروا ، فخرجوا فأتبعهم المشركون فآذوهم . فنزلت فيهم هذه الآية : « الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا » فكتبوا إليهم : نزلت فيكم آية كذا ؛ فقالوا : نخرج وإن آتبعنا أحد قاتلناه ؛ فآتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا فنزل فيهم : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا » . « وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ » يمتحنون ؛ أى أظنّ الذين جزعوا من أذى المشركين أن يُقنَع منهم أن يقولوا إنا مؤمنون ولا يمتحنون فى إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبين به حقيقة إيمانهم .

[تعـ]ـالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى آبتلينا الماضين كالخليل ألقى فى النار ، وكقوم نشروا بالمناشير فى دين الله فلم يرجعوا عنه . وروى البخارى عن خَبَّاب بن الأَرَتّ : قالوا شكو[نا إلـ]ـى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسّد بُرْدَة له فى ظل الكعبة ، فقلنا له : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا . فقال : " قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها فيجا[ء بـ]ـالمِنْشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين و يُمَشط بأمشاط الحديد لحمُه وعظمُه فما يصرفه ذلك عن دينه واللهِ ليتمّن هذا الأمرُ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللهَ والذئبَ على غنمه ولكنكم تستعجلون " . وخرّج ابن ماجه عن

Marfat.com

أبى سعيد الخدرى قال : دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يُوعَك ، فوضعت يدى عليه ، فوجدت حرّه بين يدى فوق اللحاف . فقلت : يا رسول الله ما أشدها عليك . قال : " إنا كذلك يُضعَّف لنا البلاء ويُضعَّف لنا الأجر " قلت : يا رسول الله أىّ الناس أشد بلاء ؟ قال " الأنبياء " وقلت : ثم من . قال " ثم الصالحون أَنْ كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يَحُوبها(١) وأَنْ كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرحُ أحدكم بالرخاء " . وروى سعد بن أبى وقاص قال : قلت يا رسول الله أىّ الناس أشد بلاء ؟ قال : " الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان فى دينه صُلْبا اشتد بلاؤه وإن كان فى دينه رقّة ابتلى على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه من خطيئة " . وروى عبد الرحمن بن زيد أن عيسى عليه السلام كان له وزير، فركب يوما فأخذه السبع فأكله، فقال عيسى : يا رب وزيرى فى دينك، وعونى على بنى إسرائيل، وخليفتى فيهم، سلطت عليه كلبا فأكله . قال : « نعم كانت له عندى منزلة رفيعة لم أجد عمله يبلغها فابتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة » . وقال وهب : قرأت فى كتاب رجل من الحواريين : إذا سلك بك سبيل البلاء فقرّ عينا ، فإنه سلك بك سبيل الأنبياء والصالحين ، وإذا سلك بك سبيل الرخاء فابك على نفسك، فقد خولف بك عن سبيلهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أى فليرينّ الله الذين صدقوا فى إيمانهم . وقد مضى هذا المعنى فى «البقرة» وغيرها . قال الزجاج : ليعلم صدق الصادق بوقوع صدقه منه ، وقد علم الصادق من الكاذب قبل أن يخلقهما، ولكن القصد قصد وقوع العلم بما يجازى عليه . وإنما يعلم صدق الصادق واقعا كائنا وقوعه، وقد علم أنه سيقع . وقال النحاس : فيه قولان أحدهما أن يكون «صَدَقُوا» مشتقّا من الصِّدْق و«الْكَاذِبِينَ» مشتقّا من الكَذِب الذى هو ضد الصِّدق، ويكون المعنى؛ فليبينن الله الذين صدقوا فقالوا نحن مؤمنون واعتقدوا

(١) وردت هذه الكلمة فى سنن ابن ماجه بالحاء المهملة ، وقال هامشه : « يحوبها » من حبى بحاء مهملة وباء موحدة أى يجعل لها جيبا . ووردت فى الجامع الصغير للسيوطى بالجيم وقال شارحه : هى بجيم وواو وموحدة أى يخرقها ويقطعها ، وكل شىء قطع وسطه فهو مجوب . ورواية الجامع الصغير هى المتبادرة .

Marfat.com

مثل ذلك ، والذين كذبوا حين آعتقدوا غير ذلك . والقول الآخر أن يكون صدقوا مشتقا من الصِّدْق وهو الصُّلْب ، والكاذبين مشتقا من كَذَّب إذا آنهزم ؛ فيكون المعنى؛ فليعلمن الله الذين ثبتوا فى الحرب ، والذين آنهزموا؛ كما قال الشاعر[(١)]:

لَيثٌ بِعَثَّرَ يَصطادُ الرجالَ إذا * ما اللَّيثُ كَذَّبَ عن أقرانه صَدَقَا

فجعل « لَيَعْلَمَنَّ » فى موضع فليبينن مجازا . وقراءة الجماعة « فَلَيَعْلَمَنَّ » بفتح الياء واللام . وقرأ على بن أبى طالب بضم الياء وكسر اللام وهى تبين معنى ما قاله النحاس . و يحتمل ثلاثة معان : الأوّل أن يعلم فى الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه و بأعمالهم فى الدنيا؛ بمعنى يوقفهم على ما كان منهم . الثانى أن يكون المفعول الأوّل محذوفا تقديره؛ فليعلمنّ الناس والعالم هؤلاء الصادقين والكاذبين ، أى يفضحهم ويشهرهم؛ هؤلاء فى الخير وهؤلاء فى الشر ، وذلك فى الدنيا والآخرة . الثالث أن يكون ذلك من العلامة ؛ أى يضع لكل طائفة علامة يشتهر بها . فالآية على هذا تنظر إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم : "من أسر سريرة ألبسه الله رداءها" .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى الشرك ﴿ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ أى يفوتونا و يعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون . قال آبن عباس : يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبى معيط وحنظلة بن

(١) هو زهير بن أبى سلمى . وعثر بشد المثلثة آسم موضع .

Marfat.com

أبي سفيان والعاص بن وائل . ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي بئس الحكم ما حكموا في صفات ربهم أنه مسبوق والله القادر على كل شيء . و « ما » في موضع نصب بمعنى ساء شيئا أو حكما يحكمون . ويجوز أن تكون « ما » في موضع رفع بمعنى ساء الشيء أو الحكم حكمهم . وهذا قول الزجاج . وقدرها ابن كيسان تقديرين آخرين خلاف ذينك : أحدهما أن يكون موضع « مَا يَحْكُمُونَ » بمنزلة شيء واحد ، كما تقول : أعجبني ما صنعت ؛ أي صنيعك ؛ فـ « ما » والفعل مصدر في موضع رفع ، التقدير ؛ ساء حكمهم . والتقدير الآخر أن تكون « ما » لا موضع لها من الإعراب ، وقد قامت مقام الاسم لساء ، وكذلك نعم و بئس . قال أبو الحسن ابن كيسان : وأنا أختار أن أجعل لـ« ما » موضعا في كل ما أقدر عليه ؛ نحو قوله عز وجل : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ » وكذا « فَبِمَا نَقْضِهِمْ » وكذا « أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ » « ما » في موضع خفض في هذا كله وما بعده تابع لها ، وكذا « إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً » « ما » في موضع نصب و « بَعُوضَةً » تابع لها .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ ﴾ « يَرْجُو » بمعنى يخاف من قول الهذلي في وصف عسال :

* إذا لسعته النحل لم يرج لسعها[(1)] *

وأجمع أهل التفسير على أن المعنى : من كان يخاف الموت فليعمل عملا صالحا فإنه لا بد أن يأتيه ؛ ذكره النحاس . قال الزجاج : معنى « يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ » ثواب الله و « مَنْ » في موضع رفع بالابتداء و « كَانَ » في موضع الخبر ، وهي في موضع جزم بالشرط ، و « يرجو » في موضع خبر كان ، والمجازاة ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي ومن جاهد في الدين ، وصبر على قتال الكفار وأعمال الطاعات ، فإنما يسعى لنفسه ؛ أي ثواب ذلك كله له ، ولا يرجع إلى الله نفع من ذلك . ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أي عن أعمالهم . وقيل : المعنى ؛ من جاهد عدوه لنفسه لا يريد وجه الله فليس لله حاجة بجهاده .

(١) تمام البيت .. * وحالفها في بيت نوب عوامل * وروى : عواسل .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى لنغطينها عنهم بالمغفرة لهم . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى بأحسن أعمالهم وهو الطاعات . ثم قيل : يحتمل أن تكفر عنهم كل معصية عملوها فى الشرك، ويثابوا على ما عملوا من حسنة فى الإسلام . ويحتمل أن تكفر عنهم سيئاتهم فى الكفر والإسلام، ويثابوا على حسناتهم فى الكفر والإسلام .

قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ نزلت فى سعد بن أبى وقاص فيما روى الترمذى قال : أنزلت فىّ أربع آيات فذكر قصة ؛ فقالت أم سعد : أليس قد أمر الله بالبر! والله لا أطعم طعاما، ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر؛ قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها[١] فنزلت هذه الآية : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وروى عن سعد أنه قال : كنت بارا بأمى فأسلمتُ ، فقالت : لتدعنّ دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بى ، ويقال يا قاتل أمه ، وبقيت يوما ويوما فقلت : يا أماه ! لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى هذا ، فإن شئت فكلى ، وإن شئت فلا تأكلى، فلما رأت ذلك أكلت ونزلت : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ﴾ الآية . وقال ابن عباس : نزلت فى عيّاش ابن أبى ربيعة أخى أبى جهل لأمه وقد فعلت أمه مثل ذلك . وعنه أيضا : نزلت فى جميع الأمة إذ لا يصبر على بلاء الله إلا صدّيق . و « حُسْنًا » نصب عند البصريين على التكرير أى ووصيناه حسنا . وقيل : هو على القطع تقديره ووصيناه بالحسن كما تقول وصيته خيرا أى

(١) شجروا فاها : أى أدخلوا فى شجره عودا حتى يفتحوه به .

Marfat.com

بالخير . وقال أهل الكوفة : تقديره ووصينا الإنسان أن يفعل حسنا فيقدر له فعل .
وقال الشاعر :

عَجِبتُ من دَهْمَاءَ إذ تَشكونَا * ومن أبي دَهْمَاءَ إذ يُوصِينَا

* خيرًا بها كأنَّما خافونا *

أى يوصينا أن نفعل بها خيرا؛ كقوله : « فَطَفِقَ مَسْحًا » أى يمسح مسحا . وقيل : تقديره ووصيناه أمرا ذا حسنٍ ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف ، وحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقيل : معناه ألزمناه حسنا . وقراءة العامة « حُسْنًا » بضم الحاء وإسكان السين . وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحاك بفتح الحاء والسين . وقرأ الجحدرى « إحسانا » على المصدر ؛ وكذلك فى مصحف أبىّ ، التقدير : ووصينا الإنسان أن يحسن إليهما إحسانا ، ولا ينتصب بوصينا ؛ لأنه قد آستوفى مفعوليه . ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ وعيد فى طاعة الوالدين فى معنى الكفر . ﴿ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ كرر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحرك النفوس إلى نيل مراتبهم . وقوله : « لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ » مبالغة على معنى ؛ فالذين هم فى نهاية الصلاح وأبعد غاياته . وإذا تحصل للؤمن هذا الحكم تحصل ثمرته وجزاؤه وهو الجنة .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ ﴾ الآية نزلت فى المنافقين كانوا يقولون آمنا بالله ﴿ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ ﴾ أى أذاهم ﴿ كَعَذَابِ اللهِ ﴾ فى الآخرة فآرتد عن إيمانه . وقيل : جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله ولا يصبر على الأذية فى الله .

Marfat.com

﴿ ولَئِنْ جاءَ ﴾ المؤمنين ﴿ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ ﴾ هؤلاء المرتدون ﴿ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ وهم كاذبون ؛ فقال الله لهم ﴿ أَوَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ يعنى الله أعلم بما فى صدورهم منهم بأنفسهم . وقال مجاهد : نزلت فى ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم ، فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة فى أنفسهم آفتتنوا . وقال الضحاك : نزلت فى ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون ، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك . وقال عكرمة : كان قوم قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر فقتل بعضهم ، فأنزل الله « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ » فكتب بها المسلمون من المدينة إلى المسلمين بمكة ، فخرجوا فلحقهم المشركون ، فآفتتن بعضهم ، فنزلت هذه الآية فيهم . وقيل : نزلت فى عيّاش بن أبى ربيعة ؛ أسلم وهاجر، ثم أوذى وضرب فآرتد . و إنما عذبه أبو جهل والحرث وكانا أخويه لأمه . قال ابن عباس : ثم عاش بعد ذلك بدهر وحسن إسلامه . ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ قال قتادة : نزلت فى القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا آتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ﴾ أى ديننا . ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ جزم على الأمر . قال الفراء والزجاج : هو أمر فى تأويل الشرط والجزاء ؛ أى إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم ، كما قال (١) :

فقلتُ آدعِى وأَدعُ فإنّ أندى * لِصوتٍ أنْ يُنادِىَ داعيانِ

(١) البيت لمدثار بن شيبان النمرى وقبله :

تقول خليلتى لما اشتكينا * سيدركنا بنو القرم الهجان

Marfat.com

أى إن دعوتِ دعوتُ . قال المهدوى : وجاء وقوع ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ بعده على الحمل على المعنى ؛ لأن المعنى إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم . فلما كان الأمر يرجع فى المعنى إلى الخبر وقع عليه التكذيب كما يوقع عليه الخبر . قال مجاهد : قال المشركون من قريش نحن وأنتم لا نبعث ، فإن كان عليكم وزر فعلينا ؛ أى نحن نحمل عنكم ما يلزمكم . والحمل ههنا بمعنى الحمالة لا الحمل على الظهر. وروى أن قائل ذلك الوليد بن المغيرة . ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ يعنى ما يحمل عليهم من سيئات من ظلموه بعد فراغ حسناتهم . روى معناه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقد تقدّم فى «آل عمران»(١) . قال أبو أمامة الباهلى : " يؤتى بالرجل يوم القيامة وهو كثير الحسنات فلا يزال يقتص منه حتى تفنى حسناته ثم يطالب فيقول الله عز وجل اقتصوا من عبدى فتقول الملائكة ما بقيت له حسنات فيقول خذوا من سيئات المظلوم فاجعلوا عليه " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » . وقال قتادة : من دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء . ونظيره قوله تعالى : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » . ونظير هذا قوله عليه السلام : " من سنّ فى الإسلام سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء " روى من حديث أبى هريرة وغيره . وقال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من دعا إلى هدًى فاتُّبِع عليه وعمل به فله مثل أجور من اتّبعه ولا يَنقص ذلك من أجورهم شيئا وأيما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتُّبِع عليها وعمل بها بعده فعليه مثل أوزار من عمل بها ممن اتّبعه لا يَنقص ذلك من أوزارهم شيئا " ثم قرأ الحسن « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » .

قلت : هذا مرسل وهو معنى حديث أبى هريرة خرجه مسلم . ونص حديث أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أيما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتُّبِع فإن له مثلَ أوزار من اتّبعه ولا يَنقص من أوزارهم شيئا وأيما داعٍ دعا إلى هدًى فاتُّبِع فإن له مثل أجور من اتّبعه

(١) راجع ج ٤ ص ٢٥٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

ولا ينقص من أجورهم شيئا" خرجه ابن ماجه فى السنن. وفى الباب عن أبى جحيفة وجرير. وقد قيل : إن المراد أعوان الظلمة . وقيل : أصحاب البدع إذا اتبعوا عليها . وقيل : محدثو السنن الحادثة إذا عمل بها من بعدهم . والمعنى متقارب والحديث يجمع ذلك كله .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ذكر قصة نوح تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أى ابتلى النبيون قبلك بالكفار فصبروا . وخص نوحا بالذكر؛ لأنه أول رسول أرسل إلى الأرض وقد امتلأت كفرا على ما تقدم بيانه فى « هود »[(١)] . وأنه لم يلق نبي من قومه مالقى نوح على ماتقدم فى « هود » عن الحسن. وروى عن قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أول نبى أرسل نوح" قال قتادة : وبعث من الجزيرة . واختلف فى مبلغ عمره . فقيل : مبلغ عمره ما ذكره الله تعالى فى كتابه . قال قتادة : لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلثمائة سنة ، ودعاهم ثلثمائة سنة ، ولبث بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة . وقال ابن عباس : بعث نوح لأربعين سنة، ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وعاش بعد الغرق ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا . وعنه أيضا : أنه بعث وهو ابن مئتين وخمسين سنة ، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين ، وعاش بعد الطوفان مائتى سنة . وقال وهب : عمر نوح ألفا وأربعمائة سنة . وقال كعب الأحبار : لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وعاش بعد الطوفان سبعين عاما فكان مبلغ عمره ألف سنة وعشرين عاما . وقال عون بن أبى شداد : بعث نوح وهو ابن خمسين وثلاثمائه سنة، ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وعاش بعد الطوفان ثلثمائة سنة

(١) راجع ج ٩ ص ٤٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

وخمسين سنة ؛ فكان مبلغ عمره ألف سنة وستمائة سنة وخمسين سنة ونحوه عن الحسن . قال الحسن : لما أتى ملك الموت نوحا ليقبض روحه قال : يا نوح كم عشت فى الدنيا؟ قال : ثلثمائة قبل أن أبعث، وألف سنة إلا خمسين عاما فى قومى، وثلثمائة سنة وخمسين سنة بعد الطوفان . قال ملك الموت : فكيف وجدت الدنيا ؟ قال نوح : مثل دار لها بابان دخلت من هذا وخرجت من هذا . وروى من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما بعث الله نوحا إلى قومه بعثه وهو آبن خمسين ومائتى سنه فلبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وبقى بعد الطوفان خمسين ومائتى سنة فلما أتاه ملك الموت قال يا نوح يا أكبر الأنبياء ويا طويل العمر ويا مجاب الدعوة كيف رأيت الدنيا قال مثل رجل بُنى له بيت له بابان فدخل من واحد وخرج من الآخر" وقد قيل : دخل من أحدهما وجلس هنيهة ثم خرج من الباب الآخر . وقال آبن الوردى : بَنَى نوح بيتا من قصب . فقيل له : لو بنيت غير هذا ، فقال : هذا كثير لمن يموت . وقال أبو المهاجر : لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما فى بيت من شعر ، فقيل له : يا نبىّ الله آبن بيتا ، فقال : أموت اليوم [أو] أموت غدا . وقال وهب بن منبّه : مرت بنوح خمسمائة سنة لم يقرب النساء وجلا من الموت . وقال مقاتل وجويبر : إن آدم عليه السلام حين كبر ورقّ عظمه قال يارب إلى متى أكدّ وأسعى؟ قال : يا آدم حتى يولد لك ولد مختون . فولد له نوح بعد عشرة أبطن ، وهو يومئذ آبن ألف سنة إلا ستين عاما . وقال بعضهم : إلا أربعين عاما . والله أعلم . فكان نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس وهو أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم . وكان آسم نوح السكن . وإنما سمى السكن ؛ لأن الناس بعد آدم سكنوا إليه ، فهو أبوهم . وولد له سام وحام ويافث ، فولد سام العرب وفارس والروم ، وفى كل هؤلاء خير . وولد حام القبط والسودان والبربر . وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج . وليس فى شىء من هؤلاء خير . وقال آبن عباس : فى ولد سام بياض وأدمة ، وفى ولد حام سواد وبياض قليل . وفى ولد يافث — وهم الترك والصقالبة — الصفرة والحمرة . وكان له ولد رابع وهو كنعان الذى غرق ، والعرب تسميه يام . وسمى نوح نوحا لأنه ناح على قومه ألف سنة

Marfat.com

إلا خمسين عاما، يدعوهم إلى الله تعالى، فإذا كفروا بكى وناح عليهم. وذكر القشيرى أبو القاسم عبد الكريم فى كتاب التخبير له: يروى أن نوحا عليه السلام كان آسمه يشكر ولكن لكثرة بكائه على خطيئته أوحى الله إليه يانوح كم تنوح. فسمى نوحا؛ فقيل: يا رسول الله فأى شيء كانت خطيئته؟ فقال: "إنه مر بكلب فقال فى نفسه ما أقبحه فأوحى الله إليه آخلق أنت أحسن من هذا". وقال يزيد الرقاشى: إنما سمى نوحا لطول ما ناح على نفسه. فإن قيل: فلم قال «أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا» ولم يقل تسعمائة وخمسين عاما. ففيه جوابان: أحدهما — أن المقصود به تكثير العدد، فكان ذكره الألف أكثر فى اللفظ وأكثر فى العدد. الثانى — ماروى أنه أعطى من العمر ألف سنة، فوهب من عمره خمسين سنة لبعض ولده، فلما حضرته الوفاة رجع فى آستكمال الألف، فذكر الله تعالى ذلك تنبيها على أن النقيصة كانت من جهته. ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ قال آبن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: المطر. الضحاك: الغرق. وقيل: الموت. روته عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم. ومنه قول الشاعر:

* أفناهم طوفانُ موتٍ جارف *

قال النحاس: يقال لكل كثير مطيف بالجميع من مطر أو قتل أو موت طوفان. ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة فى موضع الحال و «أَلْفَ سَنَةٍ» منصوب على الظرف «إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا» منصوب على الآستثناء من الموجب. وهو عند سيبويه بمنزلة المفعول؛ لأنه مستغنى عنه كالمفعول. فأما المبرد أبو العباس محمد بن يزيد فهو عنده مفعول محض. كأنك قلت آستثنيت زيدا.

تنبيه — روى حسان بن غالب بن نجيح أبو القاسم المصرى، حدثنا مالك بن أنس عن الزهرى عن آبن المسيّب عن أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كان جبريل يذاكرنى فضل عمر فقلت يا جبريل ما بلغ فضل عمر قال لى يا محمد لو لبثتُ معك ما لبث نوح فى قومه ما بلغت لك فضل عمر" ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن ثابت البغدادى. وقال: تفرد بروايته حسان بن غالب عن مالك وليس بثابت من حديثه.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ معطوف على الهاء. ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الهاء والألف فى «جَعَلْنَاهَا» للسفينة، أو للعقوبة، أو للنجاة؛ ثلاثة أقوال.

Marfat.com

قوله تعالى : وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ قال الكسائى : « وَإِبْرَاهِيمَ » منصوب بـ « فَأَنْجَيْنَاهُ » يعنى أنه معطوف على الهاء . وأجاز الكسائى أن يكون معطوفا على نوح، والمعنى وأرسلنا إبراهيم . وقول ثالث : أن يكون منصوبا بمعنى واذكر إبراهيم . ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أى أفردوه بالعبادة . ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى اتقوا عقابه وعذابه . ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى من عبادة الأوثان ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا ﴾ أى أصناما . قال أبو عبيدة : الصنم ما يتخذ من ذهب أو من فضة أو نحاس ، والوثن ما يتخذ من جص أو حجارة . الجوهرى : الوثن الصنم والجمع وُثْن وأوثان مثل أُسد وآساد . ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ قال الحسن : معنى « تَخْلُقُونَ » تنحتون؛ فالمعنى إنما تعبدون أوثانا وأنتم تصنعونها . وقال مجاهد : الإفك الكذب ، والمعنى تعبدون الأوثان وتخلقون الكذب . وقرأ أبو عبد الرحمن « وَتَخَلَّقُونَ » . وقرئ « تُخَلِّقُونَ » بمعنى التكثير من خَلّق و « تَخَلَّقُون » من تَخَلَّق بمعنى تَكَذّب وتخرص . وقرئ « أَفِكًا » وفيه وجهان : أن يكون مصدرا نحو كَذِب ولعب والإفك مخففا منه كالكذب واللعب . وأن يكون صفة على فَعِل أى خلقا أَفِكا أى ذا إفك وباطل . و « أَوْثَانًا » نصب بـ « تَعْبُدُونَ » و « ما » كافة . ويجوز فى غير القرآن رفع أوثان على أن تجعل « ما » اسما لأن ؛ و « تَعْبُدُونَ » صلته ، وحذفت الهاء لطول الاسم وجعل أوثان خبر إن . فأما « وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا » فهو منصوب بالفعل لا غير . وكذا ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ

Marfat.com

الله الرِّزْقَ ﴾ أى أصرفوا رغبتكم فى أرزاقكم إلى الله فإياه فاسألوه وحده دون غيره .
﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ فقيل : هو من قول إبراهيم أى التكذيب عادة الكفار وليس على الرسل إلا التبليغ .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر والتوبيخ لهم، وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . قال أبو عبيد : لذكر الأمم كأنه قال أولم ير الأمم كيف . وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائى « تَرَوْا » بالتاء خطابا؛ لقوله : « وإن تُكَذِّبوا » . وقد قيل : « وإن تُكَذِّبوا » خطاب لقريش ليس من قول إبراهيم .
﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يعنى الخلق والبعث . وقيل : المعنى أولم يروا كيف يبدئ الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبدا . وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدا ، وخلق من الولد ولدا . وكذلك سائر الحيوان . أى فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لأنه إذا أراد أمرا قال له كن فيكون .

قوله تعالى : قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى قل لهم يا محمد سيروا فى الأرض ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم ، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم ؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله . ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير «النَّشَاءَةَ» بفتح الشين وهما لغتان مثل الرأفة والرآفة وشبهه . الجوهرى : أنشأه الله خلقه ، والاسم النشأة والنشاءة بالمد عن أبى عمرو بن العلاء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى بعدله . ﴿ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى بفضله . ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ ترجعون وتردون . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ قال الفراء : معناه ولا من فى السماء بمعجزين الله . وهو غامض فى العربية ؛ للضمير الذى لم يظهر فى الثانى . وهو كقول حسان :

فمن يهجو رسولَ اللهِ منكم * ويمدحُهُ وينصرُه سَواءُ

أراد ومَن يمدحه وينصره سواء؛ فأضمر مَن ؛ وقاله عبد الرحمن بن زيد . ونظيره قوله سبحانه : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » أى مَن له . والمعنى إن الله لا يعجزه أهل الأرض فى الأرض ولا أهل السماء إن عصوه . وقال قُطْرُب : ولا فى السماء لو كنتم فيها، كما تقول : لا يفوتنى فلان بالبصرة ولا هاهنا، بمعنى لا يفوتنى بالبصرة لو صار إليها . وقيل : لا يستطيعون هربا فى الأرض ولا فى السماء . وقال المبرّد : والمعنى ولا مَن فى السماء على أن مَن ليست موصولة ولكن تكون نكرة و « فِي السماءِ » صفة لها، فأقيمت الصفة مقام الموصوف . ورد ذلك على ابن سليمان . وقال : لا يجوز . وقال : إن مَن إذا كانت نكرة فلا بد من وصفها فصفتها كالصلة ، ولا يجوز حذف الموصول وترك الصلة ؛ قال : والمعنى إن الناس خوطبوا بما يعقلون ؛ والمعنى لو كنتم فى السماء ما أعجزتم الله ؛ كما قال : « وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ » . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ويجوز «نَصِيرٌ» بالرفع على الموضع، وتكون « مِن » زائدة . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بما نصب من الأدلة والأعلام . ﴿ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ﴾ أى من الجنة ونسب اليأس إليهم والمعنى أو يسوا . وهذه

Marfat.com

الآيات آعتراض من الله تعالى تذكيرا وتحذيرا لأهل مكة . ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم فقال : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ حين دعاهم إلى الله تعالى ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ ثم آتفقوا على تحريقه ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ أى من إذايتها ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أى فى إنجائه من النار العظيمة حتى لم تحرقه بعد ما ألقى فيها ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ . وقراءة العامة «جَوَابَ» بنصب الباء على أنه خبر كان و « أَنْ قَالُوا » فى محل الرفع آسم كان . وقرأ سالم الأفطس وعمرو آبن دينار « جَوَابُ » بالرفع على أنه آسم « كان » و « أَنْ » فى موضع الخبر نصبا . ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقرأ حفص وحمزة «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ » . وآبن كثير وأبو عمرو والكسائى « مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ » . والأعشى عن أبى بكر عن عاصم وآبن وثاب والأعمش«مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ» . الباقون « مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ » . فأما قراءة آبن كثير ففيها ثلاثة أوجه؛ ذكر الزجاج منها وجهين : أحدهما — أن المودة آرتفعت على خبر إنّ وتكون « ما » بمعنى الذى . والتقدير إن الذى آتخذتموه من دون الله أوثانا مودّةُ بينِكم . والوجه الآخر أن يكون على إضمار مبتدإ أى هى مودّةُ أو تلك مودّةُ بينِكم . والمعنى آلهتكم أو جماعتكم مودّةُ بينِكم . قال آبن الأنبارى : « أَوْثَانًا » وقف حسن لمن رفع المودّة بإضمار ذلك مودّة بينكم ، ومن رفع المودّة على أنها خبر إنّ لم يقف . والوجه الثالث الذى لم يذكره أن يكون «مَوَدَّةُ» رفعا بالآبتداء و « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » خبره ؛ فأما إضافة « مَوَدَّةُ » إلى « بَيْنِكُمْ » فإنه جعل « بَيْنِكُمْ » آسما غير ظرف ، والنحويون يقولون جعله مفعولا على السعة . وحكى سيبويه : يا سارق الليلةِ أهل الدار . ولا يجوز أن يضاف إليه وهو ظرف ؛ لعلةٍ ليس هذا موضع ذكرها . ومن رفع « مَوَدَّةٌ » ونونها فعلى معنى ما ذكر ، و « بَيْنَكُمْ » بالنصب ظرفا . ومن نصب « مَوَدَّةَ » ولم ينونها جعلها مفعولة بوقوع الآتخاذ عليها وجعل « إنما » حرفا واحدا ولم يجعلها بمعنى الذى . ويجوز نصب المودة على أنه مفعول من أجله كما تقول : جئتك آبتغاء الخير، وقصدت فلانا مودّة له « بينِكم » بالخفض . ومن نوّن « مَوَدَّةً » ونصبها فعلى ما ذكر « بَيْنَكُمْ » بالنصب من غير إضافة ، قال آبن الأنبارى : ومن قرأ « مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ »

Marfat.com

و « مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ » لم يقف على الأوثان، ووقف على الحياة الدنيا . ومعنى الآية جعلتم الأوثان تحابون عليها وعلى عبادتها فى الحياة الدنيا ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ تتبرأ الأوثان من عبادها والرؤساء من السفلة كما قال الله عز وجل : « الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ » . ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ هوخطاب لعبدة الأوثان الرؤساء منهم والأتباع . وقيل : تدخل فيه الأوثان كقوله تعالى « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ » .

قوله تعالى : فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ لُوطٌ أول من صدق إبراهيم حين رأى النار عليه بردا وسلاما . قال ابن إسحق آمن لوط بإبراهيم وكان ابن أخته ، وآمنت به سارة وكانت بنت عمه . ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ قال النخعي وقتادة : الذى قال « إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي » هو إبراهيم عليه السلام . قال قتادة : هاجر من كوثا وهى قرية من سواد الكوفة إلى حرّان ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ، وامرأته سارة . قال الكلبي : هاجر من أرض حرّان إلى فلسطين . وهو أول من هاجر من أرض الكفر . قال مقاتل : هاجر إبراهيم وهو ابن خمس وسبعين سنة . وقيل : الذى قال « إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي » لوط عليه السلام . ذكر البيهقى عن قتادة قال : أول من هاجر إلى الله عز وجل بأهله عثمان بن عفان رضى الله عنه . قال قتادة : سمعت النضر بن أنس يقول سمعت أبا حمزة يعنى أنس بن مالك يقول : خرج عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم، فقدمت امرأة من قريش فقالت : يا محمد رأيت ختنك ومعه امرأته . قال : "على أى حال رأيتهما" قالت : رأيته وقد حمل

Marfat.com

امرأته على حمار من هذه الدَّبَّابة(١) وهو يسوقها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صحبهما الله إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط" قال البيهقي : هذا في الهجرة الأولى ، وأما الهجرة الثانية إلى الحبشة فهي فيما زعم الواقدي سنة خمس من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ إِلَى رَبِّي ﴾ أي إلى رضا ربي وإلى حيث أمرني . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم . وتقدم الكلام في الهجرة في « النساء »(٢) وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ ﴾ أي منّ الله عليه بالأولاد فوهب له إسحق ولدا ويعقوب ولد ولد . وإنما وهب له إسحق من بعد إسمعيل ويعقوب من إسحق . ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ فلم يبعث الله نبيا بعد إبراهيم إلا من صلبه . ووحد الكتاب ؛ لأنه أراد المصدر كالنبوة ، والمراد التوراة والإنجيل [والفرقان] . فهو عبارة عن الجمع . فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم ، والإنجيل على عيسى من ولده ، والفرقان على محمد من ولده صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين . ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ يعني اجتماع أهل الملل عليه ؛ قاله عكرمة . وروى سفيان عن حميد ابن قيس قال : أمر سعيد بن جبير إنسانا أن يسأل عكرمة عن قوله جل ثناؤه « وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا » فقال عكرمة : أهل الملل كلها تدعيه وتقول هو منا ؛ فقال سعيد بن جبير : صدق . وقال قتادة : هو مثل قوله « وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً » أي عاقبة وعملا صالحا وثناء حسنا . وذلك أن أهل كل دين يتولونه . وقيل : « آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا » أن أكثر الأنبياء من ولده . ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ليس « فِي الْآخِرَةِ » داخلا في الصلة وإنما هو تبيين . وقد مضى في « البقرة »(٣) بيانه . وكل هذا حثٌّ على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدين الحق .

قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا

(١) أي الضعاف التي تدب في المشي ولا تسرع. (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٤٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٣) راجع جـ ٢ ص ١٣٣ طبعة ثانية .

Marfat.com

ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ قال الكسائى : المعنى وأنجينا لوطا أو أرسلنا لوطا . قال : وهذا الوجه أحب إلىّ . ويجوز أن يكون المعنى وآذكر لوطا إذ قال لقومه موبخا أو محذرا ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ « أَئِنَّكُمْ » تقدم القراءة فى هذا وبيانها فى سورة « الأعراف »(١) . وتقدم قصة لوط وقومه فى «الأعراف» و « هود »(٢) أيضا . ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ قيل : كانوا قطاع الطريق؛ قاله آبن زيد . وقيل : كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة؛ حكاه آبن شجرة . وقيل : إنه قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال . قاله وهب بن منبه . أى آستغنوا بالرجال عن النساء .

قلت : ولعل الجميع كان فيهم فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة، ويستغنون عن النساء بذلك . « وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ » النادى المجلس وآختلف فى المنكر الذى كانوا يأتونه فيه؛ فقالت فرقة : كانوا يخذفون النساء بالحصى ، ويستخفون بالغريب والخاطر عليهم . ورونه أم هانئ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . قالت أم هانئ : سألت رسول الله صلى

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .　(٢) راجع جـ ٩ ص ٧٩ طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل : « وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ » قال "كانوا يخذفون من يمر بهم ويسخرون منه فذلك المنكر الذى كانوا يأتونه" أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، وذكره النحاس والثعلبي والمهدوى والماوردى . وذكر الثعلبي قال معاوية قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن قوم لوط كانوا يجلسون فى مجالسهم وعند كل رجل قصعة فيها الحصى للخذف فإذا مر بهم عابر قذفوه فأيهم أصابه كان أولى به" يعنى يذهب به للفاحشة فذلك قوله : « وتأتون فى ناديكم المنكر » . وقالت عائشة وآبن عباس والقاسم بن أبى بَزَّة[1] والقاسم ابن محمد : إنهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم . وقال [منصور عن][2] مجاهد كانوا يأتون الرجال فى مجالسهم وبعضهم يرى بعضا . وعن مجاهد : كان من أمرهم لعب الحمام وتطريف الأصابع بالحناء والصفير والحذف ونبذ الحياء فى جميع أمورهم . قال آبن عطية : وقد توجد هذه الأمور فى بعض عصاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فالتناهى واجب . قال مكحول : فى هذه الأمة عشرة من أخلاق قوم لوط : مضغ العلك، وتطريف الأصابع بالحنّاء، وحل الإزار ، وتنقيض الأصابع[3]، والعمامة التى تلف حول الرأس ، والتشابك ، ورمى الجُلاَهق[4] ، والصفير، والحذف ، واللوطية . وعن آبن عباس قال : إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة ، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم ، ويشتم بعضهم بعضا ، ويتضارطون فى مجالسهم ، ويخذفون ويلعبون بالنَّرْد والشِّطْرَنج، ويلبسون المصبغات، ويتناقرون بالديكة، ويتناطحون بالكباش ، ويُطرِّفون أصابعهم بالحنّاء ، وتتشبه الرجال بلباس النساء والنساء بلباس الرجال ، ويضربون المكوس على كل عابر، ومع هذا كله كانوا يشركون بالله، وهم أول من ظهر على أيديهم اللوطية والسِّحاق . فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللجاج ؛ فقالوا : ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ ﴾ أى إن ذلك لا يكون ولا يقدر عليه . وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مصمّمون على آعتقاد كذبه . وليس يصح فى الفطرة أن يكون معاند يقول هذا . ثم آستنصر

---

(١) بفتح الموحدة وتشديد الزاى كما فى التقريب . (٢) فى كل النسخ : مجاهد ومنصور . والتصويب عن تفسير الطبرى وغيره . (٣) تنقيض الأصابع فرقعتها . (٤) الجلاهق كملابط البندق الذى يرمى به . والخذف بالخاء المعجمة الحذف به .

Marfat.com

لوط عليه السلام ربه فبعث عليهم ملائكة لعذابهم، فجاءوا إبراهيم أولا مبشرين بنصرة لوط على قومه حسبما تقدّم بيانه فى « هود » وغيرها . وقرأ الأعمش ويعقوب وحمزة والكسائى ﴿ لَنُنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ بالتخفيف . وشدّد الباقون . وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائى : ﴿ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ بالتخفيف . وشدّد الباقون . وهما لغتان : أَنْجَى ونَجَّى بمعنى . وقد تقدّم . وقرأ ابن عامر ﴿ إِنَّا مُنَزِّلُونَ ﴾ بالتشديد وهى قراءة ابن عباس . الباقون بالتخفيف . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ قال قتادة : هى الحجارة التى أبقيت . وقاله أبو العالية . وقيل : إنه يرجم بها قوم من هذه الأمة . وقال ابن عباس : هى آثار منازلهم الخربة . وقال مجاهد : هو الماء الأسود على وجه الأرض . وكل ذلك باق فلا تعارض .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (٣٧)

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أى وأرسلنا إلى مدين . وقد تقدّم ذكرهم (١) وفسادهم فى « الأعراف » و « هود » . ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ وقال يونس النحوى : أى اخشوا الآخرة التى فيها الجزاء على الأعمال . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أى لا تكفروا فإنه أصل كل فساد . والعُثُوّ والعِثِيّ أشد الفساد . عَثِيَ يَعْثَى وعَثَا يَعْثُو بمعنى واحد . وقد تقدّم . وقيل : « وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ » أى صدّقوا به فإن القوم كانوا ينكرونه .

قوله تعالى : وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)

قوله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ ﴾ قال الكسائى : قال بعضهم هو راجع إلى أول السورة ؛ أى ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عادا وثمود . قال : وأحبّ إلىّ أن يكون معطوفا على

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ وما بعدها وجـ ٩ ص ٨٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

« فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ » وأخذت عادا وثمودا . وزعم الزجاج : أن التقدير وأهلكنا عادا وثمودا . وقيل : المعنى واذكر عادا إذ أرسلنا إليهم هودا فكذبوه فأهلكناهم ، وثمودا أيضا أرسلنا إليهم صالحا فكذّبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكنا عادا بالريح العقيم . ﴿ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾ يا معشر الكفار ﴿ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ﴾ بالحِجْر والأحقاف آياتٌ فى إهلاكهم فحذف فاعل التبيّن . ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعة . ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى عن طريق الحق . ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ فيه قولان : أحدهما وكانوا مستبصرين فى الضلالة ؛ قاله مجاهد . والثانى — كانوا مستبصرين قد عرفوا الحق من الباطل بظهور البراهين . وهذا القول أشبه ؛ لأنه إنما يقال فلان مستبصر إذا عرف الشيء على الحقيقة . قال الفراء : كانوا عقلاء ذوى بصائر فلم تنفعهم بصائرهم . وقيل : أتوا ما أتوا وقد تبيّن لهم أن عاقبتهم العذاب .

قوله تعالى : وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ قال الكسائى : إن شئت كان محمولا على عاد ، وكان فيه ما فيه ، و إن شئت كان على « فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ » وصدّ قارون وفرعون وهامان . وقيل : أى وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ عن الحق وعن عبادة الله . ﴿ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ أى فائتين . وقيل : سابقين فى الكفر بل قد سبقهم للكفر قرون كثيرة فأهلكناهم . ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾ قال الكسائى : « فَكُلًّا » منصوب بـ « أَخَذْنَا » أى أخذنا كلا بذنبه . ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ يعنى قوم لوط . والحاصب ريح يأتى بالحصباء وهى الحصى الصغار . وتستعمل فى كل عذاب

Marfat.com

﴿ وَمِنْهُم مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ يعنى ثمودا وأهل مدين . ﴿ وَمِنْهُم مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ﴾ يعنى قارون ﴿ وَمِنْهُم مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ قوم نوح وقوم فرعون . ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ لأنه أنذرهم وأمهلهم و بعث إليهم الرسل وأزاح العذر .

قوله تعالى : مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ ﴾ قال الأخفش : « كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ » وقف تام ، ثم قصّ قصّتها فقال : ﴿ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ قال ابن الأنبارى : وهذا غلط ؛ لأن « اتَّخَذَتْ بَيْتًا » صلة للعنكبوت ، كأنه قال : كمثل التى اتخذت بيتا ، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول ، وهو بمنزلة قوله : « كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا » فيحمل صلة للحمار ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل . قال الفراء : هو مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره؛ كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرا ولا بردا . ولا يحسن الوقف على العنكبوت ؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذى لا يقيها من شيء ، فشبهت الآلهة التى لا تنفع ولا تضر به . ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ ﴾ أى أضعف البيوت ﴿ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾ . قال الضحاك : ضرب مثلا لضعف آلهتهم ووهنها فشبهها ببيت العنكبوت . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ « لَوْ » متعلقة ببيت العنكبوت . أى لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التى لا تغنى عنهم شيئا ، وأن هذا مثلهم لما عبدوها ؛ لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف . وقال النحاة : إن تاء العنكبوت فى آخرها مزيدة؛ لأنها تسقط فى التصغير والجمع وهى مؤنثة . وحكى الفراء تذكيرها وأنشد :

على هَطَّالِهِمْ منهم بُيوتٌ * كأنّ العنكبوتَ قد ابْتناها

Marfat.com

ويروى : * على أهطالهم منهم بيوتُ *

قال الجوهرى والهطال : اسم جبل . والعنكبوت الدويبة المعروفة التى تنسج نسجا رقيقا مهلهلا بين الهواء . ويجمع عناكيب وعناكب وعِكاب وعُكب وأعْكُب . وقد حكى أنه يقال عنكب وعكنباة[1] ؛ قال الشاعر :

كأنما يَسقطُ من لُغَامِها * بيتُ عَكَنْبَاةٍ على زِمامِها

وتُصغّر فيقال عُنَيْكب . وقد حكى عن يزيد بن مَيْسرة أن العنكبوت شيطان مسخها الله تعالى . وقال عطاء الخراسانى : نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود حين كان جالوت يطلبه ، ومرة على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولذلك نهى عن قتلها . ويروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : طهّروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه فى البيوت يورث الفقر ، ومنع الخمير يورث الفقر .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ « ما » بمعنى الذى ، و« مِنْ » للتبعيض ، ولو كانت زائدة للتوكيد لانقلب المعنى ؛ والمعنى : إن الله يعلم ضعف ما يعبدون من دونه . وقرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب : « يدعون » بالياء وهو اختيار أبى عبيد ؛ لذكر الأمم قبلها . الباقون بالتاء على الخطاب .

قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا﴾ أى هذا المثل وغيره مما ذكر فى « البقرة » و« الحج » وغيرهما ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نبينها ﴿لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ أى يفهمها ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ أى العالمون بالله ؛ كما روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه " .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أى بالعدل والقسط . وقيل : بكلامه وقدرته وذلك هو الحق . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أى علامة ودلالة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين .

(١) ويقال أيضا : عنكباة بتقديم النون على الكاف .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٤٥)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱتْلُ ﴾ أمر من التلاوة والدءوب عليها . وقد مضى فى «طه»[(١)] الوعيد فيمن أعرض عنها، وفى مقدمة الكتاب[(٢)] الأمر بالحض عليها . والكتاب يراد به القرآن .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته . وإقامة الصلاة أداؤها فى وقتها بقراءتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهدها وجميع شروطها . وقد تقدم بيان ذلك فى « البقرة[(٣)] » فلا معنى للإعادة .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ يريد إن الصلاة الخمس هى التى تكفّر ما بينها من الذنوب؛ كما قال عليه السلام : " أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء" قالوا : لا يبقى من درنه شيء؛ قال : " فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا " خرجه الترمذى من حديث أبى هريرة، وقال فيه حديث حسن صحيح . وقال ابن عمر : الصلاة هنا القرآن . والمعنى : الذى يتلى فى الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر، وعن الزنى والمعاصى .

قلت : ومنه الحديث الصحيح : "قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين" يريد قراءة الفاتحة . وقال حماد بن أبى سليمان وابن جُرَيج والكلبي : العبد مادام فى صلاته لا يأتى فحشاء ولا منكرا؛ أى إن الصلاة تنهى مادمت فيها . قال ابن عطية : وهذه عجمة وأين هذا مما رواه أنس بن مالك قال : كان فتى من الأنصار يصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ولا يدع شيئا من الفواحش والسرقة إلا ركبه، فذُكر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إن الصلاة ستنهاه "

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ١ بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) راجع جـ ١ ص ١٦٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألم أقل لكم " .
وفى الآية تأويل ثالث، وهو الذى ارتضاه المحققون وقال به المشيخة الصوفية وذكره المفسرون؛ فقيل المراد بـ « أَقِمِ الصَّلَاةَ » إدامتها والقيام بحدودها، ثم أخبر حكما منه بأن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر؛ وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة . والصلاة تشغل كل بدن المصلى ، فإذا دخل المصلى فى محرابه وخشع وأخبت لربه وادكر أنه واقف بين يديه، وأنه مطلع عليه ويراه، صلحت لذلك نفسه وتذللت ، وخامرها ارتقاب الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتها، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة . فهذا معنى هذه الأخبار ؛ لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغى أن تكون .

قلت : لا سيما وإن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله ، وهذا أبلغ فى المقصود وأتم فى المراد ؛ فإن الموت ليس له سن محدود ، ولا زمن مخصوص ، ولا مرض معلوم ، وهذا مما لا خلاف فيه . وروى عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفر لونه، فكُلِّم فى ذلك فقال : إنى واقف بين يدى الله تعالى، وحقّ لى هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الملوك . فهذه صلاة تنهى ولا بد عن الفحشاء والمنكر، ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء، لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل، كصلاتنا — وليتها تجزى — فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان ، فإن كان على طريقة معاص تبعده من الله تعالى تركته الصلاة يتمادى على بعده . وعلى هذا يخرج الحديث المروى عن ابن مسعود وابن عباس والحسن والأعمش قولهم : " من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدا " وقد روى أن الحسن أرسله عن النبى صلى الله عليه وسلم وذلك غير صحيح السند . قال ابن عطية سمعت أبى رضى الله عنه يقول : فإذا قررناه ونُظر معناه فغير جائز أن يقول إن نفس صلاة العاصى تبعده من الله حتى كأنها معصية ، وإنما يتخرج ذلك على أنها لا تؤثر فى تقريبه من الله، بل تتركه على حاله ومعاصيه ، من الفحشاء والمنكر والبعد، فلم تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البعد الذى كان سبيله، فكأنها بعّدته حين لم تكف بُعدَه عن الله . وقيل لابن مسعود: إن فلانا كثير الصلاة . فقال : إنها لا تنفع إلا من أطاعها .

Marfat.com

قلت : وعلى الجملة فالمعنى المقصود بالحديث : "لم تزده من الله إلا بعدا ولم يزدد بها من الله إلا مقتا" إشارة إلى أن مرتكب الفحشاء والمنكر لا قدر لصلاته ؛ لغلبة المعاصى على صاحبها . وقيل : هو خبر بمعنى الأمر . أى لينته المصلى عن الفحشاء والمنكر . والصلاة بنفسها لا تنهى، ولكنها سبب الانتهاء . وهو كقوله تعالى : « هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ » وقوله : « أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ » .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أى ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذكركم له فى عبادتكم وصلواتكم . قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قُرّة وسلمان والحسن؛ وهو اختيار الطبرى . وروى مرفوعا من حديث موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى قول الله عز وجل « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » قال : "ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه" . وقيل : ذكركم اللهَ فى صلاتكم وفى قراءة القرآن أفضل من كل شىء . وقيل : المعنى؛ إن ذكر الله أكبر مع المداومة من الصلاة فى النهى عن الفحشاء والمنكر . وقال الضحاك : ولذكر الله عند ما يحرم فيترك أجلّ الذكر . وقيل : المعنى ولذكر الله للنهى عن الفحشاء والمنكر أكبر أى كبير، وأكبر يكون بمعنى كبير . وقال ابن زيد وقتادة : ولذكر الله أكبر من كل شىء أى أفضل من العبادات كلها بغير ذكر . وقيل : ذكر الله يمنع من المعصية فإن من كان ذاكرا له لا يخالفه . قال ابن عطية : وعندى أن المعنى ولذكر الله أكبر على الإطلاق، أى هو الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذى منه فى الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل فى غير الصلاة ؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكرٍ اللهَ مراقبٍ له . وثواب ذلك أن يذكره الله تعالى ؛ كما فى الحديث "من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منهم" والحركات التى فى الصلاة لا تأثير لها فى نهي، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرغه إلا من الله . وأما ما لا يتجاوز اللسان ففى رتبة أخرى . وذكر الله تعالى للعبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرة لذكر العبد ربّه . قال الله عز وجل : « فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » . وباقى الآية ضرب من الوعيد والحثّ على المراقبة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ (٤٧) ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — آختلف العلماء فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ فقال مجاهد : هى محكمة فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل، والتنبيه على حججه وآياته ، رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة . وقوله على هذا « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » معناه ظلموكم، و إلا فكلهم ظلمة على الإطلاق . وقيل : المعنى لا تجادلوا من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله آبن سلام ومن آمن معه . ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أى بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك . وقوله على هذا التأويل ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ يريد به من بقى على كفره منهم، كمن كفر وغدر من قريظة والنضير وغيرهم . والآية على هذا أيضا محكمة . وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال قوله تعالى : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » . قال قتادة : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى جعلوا لله ولدا، وقالوا : « يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ » و « إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ » فهؤلاء المشركون [الذين نصبوا الحرب ولم يؤدوا] (1) الجزية فآنتصروا [منهم] . قال النحاس وغيره : من قال هى منسوخة آحتج بأن الآية مكية ، ولم يكن فى ذلك الوقت قتال مفروض ، ولا طلب جزية ، ولا غير ذلك . وقول مجاهد حسن ؛ لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر، أو حجة من معقول . وآختار هذا القول آبن العربى .

(1) عبارة الأصل هنا : «فهؤلاء المشركون فى سقوط الجزية ... الخ» والتصويب مستفاد من كتب التفسير .

Marfat.com

قال مجاهد وسعيد بن جبير : وقوله « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » معناه إلا الذين نصبوا للؤمنين الحرب بجدالهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يعطوا الجزية .

الثانيــة – قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ روى البخاريّ عن أبي هريرة : قال كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية، لأهل الإسلام؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم " « وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ » . وروى عبدالله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا إما أن تكذّبوا بحق وإما أن تصدّقوا بباطل " . وفي البخاريّ : عن حُمَيد بن عبد الرحمن سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة، وذَكَر كعبَ الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدّثين الذين يحدّثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لَنَبْلُو عليه الكذب.

قوله تعالى : وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾

فيــه ثلاث مسائل :

الأولى – قوله تعــالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ﴾ الضمير في « قبلِهِ » عائد إلى الكتاب وهو القرآن المنزّل على محمد صلى الله عليه وسلم؛ أي وما كنت يا محمد تقرأ قبله، ولا تختلف إلى أهل الكتاب، بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك، فلو كنت ممن يقرأ كتابا، ويخط حروفا ﴿ لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي من أهل الكتاب، وكان لهم في ارتيابهم متعلّق، وقالوا الذي نجده في كتبنا أنه أميّ لا يكتب ولا يقرأ وليس به. قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية؛ قال النحاس : دليلا على نبوته لقريش؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالت الريبة والشك.

Marfat.com

الثانيــة — ذكر النقاش فى تفسير هذه الآية عن الشعبى أنه قال : ما مات النبي صلى الله عليه وسلم حتى كتب . وأسند أيضا حديث أبى كَبْشة السَّلُولى ؛ مضمنه : أنه صلى الله عليه وسلم قرأ صحيفة لعيينة بن حِصن، وأخبر بمعناها . قال ابن عطية : وهذا كله ضعيف، وقول الباجى رحمه الله منه .

قلت : وقع فى صحيح مسلم من حديث البَرَاء فى صلح الحُدَيبية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلىّ " اكتب الشرط بيننا بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله " فقال له المشركون : لو نعلم أنك رسول الله تابعناك — وفى رواية بايعناك — ولكن اكتب محمد بن عبد الله فأمر عليا أن يمحوها ، فقال على : والله لا أمحاه(١) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أرنى مكانها " فأراه فمحاها وكتب ابن عبد الله . قال علماؤنا رضى الله عنهم : وظاهر هذا أنه عليه السلام محا تلك الكلمة التى هى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيده ، وكتب مكانها ابن عبد الله . وقد رواه البخارى بأظهر من هـذا . فقال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب فكتب . وزاد فى طريق أخرى : ولا يحسن أن يكتب . فقال جماعة : بجواز هذا الظاهر عليه وأنه كتب بيده ، منهم السمنانى وأبو ذرّ والباجى(٢)، ورأوا أن ذلك غير قادح فى كونه أميا ، ولا معارَض بقوله : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ » ولا بقوله : " إنا أمة أمّية لا نكتب ولا نحسب " بل رأوه زيادة فى معجزاته ، واستظهارا على صدقه وصحة رسالته ، وذلك أنه كتب من غير تعلم لكتابة ، ولا تعاط لأسبابها ، و إنما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركات كانت عنها خطوط مفهومها ابن عبد الله لمن قرأها ، فكان ذلك خارقا للعادة ، كما أنه عليه السلام علِم عِلم الأوّلين والآخرين من غير تعلم ولا اكتساب ، فكان ذلك أبلغ فى معجزاته ، وأعظم فى فضائله . ولا يزول عنه اسم الأمىّ بذلك ، ولذلك قال الراوى عنه فى هذه الحالة : ولا يُحسِن أن يكتب . فبقى عليه اسم الأمىّ مع كونه قال كتب . قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر : وقد أنكر هذا كثير من

(١) محا الشىء يمحوه ويمحاه محوا ومحيا أذهب أثره . (٢) السمنانى هو أبو عمرو الفلسطيقى . وأبو ذر هو عبد الله بن أحمد الهروى ، والباجى هو أبو الوليد .

Marfat.com

متفقهة الأندلس وغيرهم، وشددوا النكير فيه، ونسبوا قائله إلى الكفر، وذلك دليل على عدم العلوم النظرية، وعدم التوقف فى تكفير المسلمين، ولم يتفطنوا؛ لأن تكفير المسلم كقتله على ما جاء عنه عليه السلام فى الصحيح، لا سيما رمىُ من شهد له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة؛ على أن المسئلة ليست قطعية، بل مستندها ظواهر أخبار أحادٍ صحيحة، غير أن العقل لا يحيلها . وليس فى الشريعة قاطع يحيل وقوعها .

قلت : وقال بعض المتأخرين من قال هى آية خارقة، فيقال له : كانت تكون آية لا تنكر لولا أنها مناقضة لآية أخرى وهى كونه أميّا لا يكتب؛ وبكونه أميّا فى أمة أميّة قامت الحجة، وأُفحِم الجاحدون، وانحسمت الشبهة، فكيف يطلق الله تعالى يده فيكتب وتكون آية . وإنما الآية ألا يكتب، والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضا . وإنما معنى كتب وأخذ القلم؛ أى أمر من يكتب به من كُتّابه، وكان من كتبة الوحى بين يديه صلى الله عليه وسلم ستة وعشرون كاتبا .

الثالثة — ذكر القاضى عِياض عن معاوية أنه كان يكتب بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : "أَلِقِ الدواةَ وحرِّف القلمَ وأقم البـاء وفرّق السين ولا تُعور الميم وحسّن الله ومدّ الرحمن وجوّد الرحيم" قال القاضى : وهذا وإن لم تصح الرواية أنه صلى الله عليه وسلم كتب فلا يبعد أن يُرزَق علم هذا، ويُمنَع القراءة والكتابة .

قلت : هذا هو الصحيح فى الباب أنه ما كتب ولا حرفا واحدا، وإنما أمر من يكتب، وكذلك ما قرأ ولا تهجى . فإن قيل : فقد تهجى النبي صلى الله عليه وسلم حين ذكر الدجال فقال : "مكتوب بين عينيه ك ا ف ر" وقلتم إن المعجزة قائمة فى كونه أميّا؛ قال الله تعالى : «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ» الآية وقال : "إنا أمة أميّة لا نكتب ولا نحسب" فكيف هذا؟ فالجواب ما نصّ عليه صلى الله عليه وسلم فى حديث حذيفة، والحديث كالقرآن يفسر بعضه بعضا . ففى حديث حذيفة "يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب" فقد نص فى ذلك على غير الكاتب ممن يكون أميا . وهذا من أوضح ما يكون جليا .

Marfat.com

قوله تعالى : بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ يعنى القرآن . قال الحسن : وزعم الفراء فى قراءة عبد الله « بَلْ هِيَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » المعنى بل آيات القرآن آيات بينات . قال الحسن : ومثله «هَذَا بَصَائِرُ» ولو كانت هذه لجاز، نظيره «هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي» قال الحسن : أعطيت هذه الأمة الحفظ ، وكان من قبلها لا يقرءون كتابهم إلا نظرا، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلا النبيون . فقال كعب فى صفة هذه الأمة : إنهم حكماء علماء وهم فى الفقه أنبياء. ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أى ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحر أو شعر، ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه . وهى كذلك فى صدور الذين أوتوا العلم، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنون به، يحفظونه ويقرءونه . ووصفهم بالعلم؛ لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين . وقال قتادة وابن عباس : « بَلْ هُوَ » يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم «آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » من أهل الكتاب يجدونه مكتوبا عندهم فى كتبهم بهذه الصفة أميا لا يقرأ، ولا يكتب، ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتموا . وهذا اختيار الطبرى . ودليل هذا القول قراءة ابن مسعود وابن السميقع « بَلْ هَذَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » وكان عليه السلام آيات لا آية واحدة؛ لأنه دل على أشياء كثيرة من أمر الدين؛ فلهذا قال : « بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ» . وقيل : بل هو ذو آيات بينات، فحذف المضاف . ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أى الكفار، لأنهم جحدوا نبوته وما جاء به .

قوله تعالى : وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ هذا قول المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعناه هلا أنزل عليه آية كآيات الأنبياء . قيل : كما جاء صالح بالناقة، وموسى بالعصا، وعيسى بإحياء الموتى؛ أى ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فهو يأتى بها كما يريد، إذا شاء أرسلها وليست عندى ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾. وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائى « آيَةٌ » بالتوحيد . وجمع الباقون . وهو اختيار أبى عبيد؛ لقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ » .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ هذا جواب لقولهم « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ » أى أو لم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذى قد تحدّيتهم بأن يأتوا بمثله، أو بسورة منه فعجزوا، ولو أتيتهم بآيات موسى وعيسى لقالوا : سحر ونحن لا نعرف السحر، والكلام مقدور لهم، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة . وقيل : إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة. قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم بكتف فيه كتاب فقال "كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به نبى غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم" فأنزل الله تعالى: « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ» أخرجه أبو محمد الدارمىّ فى مسنده . وذكره أهل التفسير فى كتبهم. وفى مثل هذا قال صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه : "لو كان موسى بن عمران حيا لما وسعه إلا اتباعى" وفى مثله قال صلى الله عليه وسلم "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن". أى يستغنى به عن غيره. وهذا تأويل البخارى رحمه الله فى الآية. وإذا كان لقاء ربه بكل حرف عشر حسنات فأكثر على ما ذكرناه فى مقدمة الكتاب فالرغبة عنه إلى غيره ضلال وخسران وغبن ونقصان . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أى فى القرآن ﴿لَرَحْمَةً﴾ فى الدنيا والآخرة . وقيل : رحمة فى الدنيا باستنقاذهم من الضلالة . ﴿وَذِكْرَى ﴾ فى الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ أى قل للمكذبين لك كفى بالله شهيدا يشهد لى بالصدق فيما أدعيه من أنى رسوله، وأن هذا القرآن كتابه . ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى لا يخفى عليه شىء . وهذا احتجاج عليهم فى صحة شهادته عليهم ؛ لأنهم قد

Marfat.com

أقروا بعلمه فلزمهم أن يقروا بشهادته . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ قال يحيى بن سلام : بإبليس . وقيل : بعبادة الأوثان والأصنام؛ قاله ٱبن شجرة . ﴿ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ ﴾ أى لتكذيبهم برسله، وجحدهم لكتابه . وقيل : بما أشركوا به من الأوثان، وأضافوا إليه من الأولاد والأضداد . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أنفسهم وأعمالهم فى الآخرة .

قوله تعالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ لمّا أنذرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار : عجل لنا هذا العذاب . وقيل : إن قائل ذلك النّضر بن الحرث وأبو جهل حين قالا « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ » وقولهم: « رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » وقوله : ﴿ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ فى نزول العذاب . قال ٱبن عباس : يعنى هو ما وعدتك ألا أعذب قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة . بيانه « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » . وقال الضحاك : هو مدة أعمارهم فى الدنيا . وقيل : المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى ؛ قاله يحيى بن سلّام . وقيل : الوقت الذى قدره الله لهلاكهم وعذابهم ؛ قاله ٱبن شجرة . وقيل : هو القتل يوم بدر . وعلى الجملة فلكل عذاب أجل لا يتقدم ولا يتأخر، دليله قوله : « لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ » . ﴿ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ يعنى الذى ٱستعجلوه . ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى لا يعلمون بنزوله عليهم . ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ أى يستعجلونك وقد أعد لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة، فما معنى الاستعجال . وقيل : نزلت فى عبد الله بن أبى أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ قيل : هو متصل بما هو قبله ؛ أى يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم. وإنما قال ﴿ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ للمقاربة و إلا فالغشيان من فوق أعم ؛ كما قال الشاعر :

* عَلَفْتُهَا تِبْنًا وماءً بـارِدا (١) *

وقال آخـــر :

لقــد كان قوادَ الجيادِ إلى العِدَا * عليهنّ غابٌ من قَــنًى ودروع

﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا ﴾ قرأ أهل المدينــة والكوفة « نَقُــولُ » بالنون . الباقون بالياء . واختاره أبو عبيد ؛ لقوله : « قُلْ كَفَى بِاللهِ » ويحتمل أن يكون المَلَك الموكَّل بهم يقول « ذُوقُوا » والقراءتان ترجع الى معنى . أى يقول المَلَك بإمرنا ذوقوا .

قوله تعالى : يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ هذه الآية نزلت فى تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة — فى قول مقاتل والكلبى — فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه ، وأن البقاء فى بقعة على أذى الكفار ليس بصواب . بل الصواب أن يتلمس عبادة الله فى أرضــه مع صالحى عباده ؛ أى إن كنتم فى ضيق من إظهار الإيمــان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها . وقال ابن جبير وعطاء : إن الأرض التى فيها الظلم

(١) تمام البيت : * حتى شتت همالة عيناها *

Marfat.com

والمنكر تترتب فيها هذه الآية ، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق . وقاله مالك . وقال مجاهد : « إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ » فهاجروا وجاهدوا . وقال مُطرِّف بن الشِّخِّير : المعنى إن رحمتي واسعة. وعنه أيضا : إن رزقي لكم واسع فآبتغوه في الأرض . قال سفيان الثوري : إذا كنت بأرض غالية فآنتقل إلى غيرها تملأ فيها جرابك خبزا بدرهم . وقيل : المعنى : إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة . ﴿ فَٱعْبُدُونِ ﴾ حتى أورثكموها . «فَإِيَّايَ فَٱعْبُدُونِ» «إِيَّايَ» منصوب بفعل مضمر ، أي فاعبدوا إياي فآعبدون ، فآستغنى بأحد الفعلين عن الثاني ، والفاء في قوله : « فَإِيَّايَ » بمعنى الشرط ؛ أي إن ضاق بكم موضع فإياي فآعبدوني [في غيره](1) ؛ لأن أرضي واسعة .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ تقدّم في « آل عمران »(2) . وإنما ذكره هاهنا تحقيرا لأمر الدنيا ومخاوفها . كأنّ بعض المؤمنين نظر في عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أنه يموت أو يجوع أو نحو هذا ؛ فحقر الله شأن الدنيا . أي أنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلينا ؛ فالبدار إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمتثل . ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضا منه تعالى ، وذكر الجزاء الذي ينالونه ، ثم نعتهم بقوله : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وقرأ أبو عمرو ويعقوب والجحدري وآبن أبي إسحق وآبن محيصن والأعمش وحمزة والكسائي وخلف « يَاعِبَادِي » بإسكان الياء . وفتحها الباقون . « إِنَّ أَرْضِي » فتحها آبن عامر . وسكنها الباقون . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من فرّ بدينه من أرض إلى أرض ولو قيد شبر آستوجب الجنة وكان رفيق محمد وإبراهيم " عليهما السلام . « ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » . وقرأ السُّلمي وأبو بكر عن عاصم « يُرْجَعُونَ » بالياء ؛ لقوله « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » وقرأ الباقون بالتاء ؛ لقوله « يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا » وأنشد بعضهم :

الموتُ في كلِّ حينٍ يَنشدُ الكَفنَا * ونحن في غفلةٍ عمّا يُرادُ بنا
لا تَركنَنّ إلى الدّنيا وزَهْرتِها * وإن توشّحتَ من أثوابها الحسَنَا

---

(1) زيادة يقتضيها السياق . (2) راجع جـ ٤ ص ٢٩٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

Marfat.com

أينَ الأحبةُ والجيرانُ ما فَعَلُوا * أينَ الذين هُمُو كانوا لها سَكَنَا
سقاهُمُ الموتُ كأساً غيرَ صافيةٍ * صيرهم تحت أطباقِ الثَّرَى رُهُنَا

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى «لَنُثْوِيَنَّهُمْ» بالثاء مكان الباء من الثوى وهو الإقامة ؛ أى لنعطينهم غرفا يثوون فيها . وقرأ رويس عن يعقوب والجحدرى والسلمى « لَيُبَوِّئَنَّهُمْ » بالياء مكان النون . الباقون ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ أى لننزلنهم . « غُرَفًا » جمع غرفة وهى العِلِّيَّة المشرفة . وفى صحيح مسلم عن سهل بن سعد[(1)] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أهل الجنة ليتراءون أهلَ الغرف من فوقهم كما تتراءونَ الكوكبَ الدرىَّ الغابرَ من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم " قالوا : يارسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال " بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين " وخرج الترمذى عن على رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن فى الجنة لغرفا يُرَى ظهورُها من بطونها وبطونها من ظهورها" فقام إليه أعرابى فقال : لمن هى يارسول الله؟ قال : " هى لمن أطاب الكلامَ وأطعم الطعامَ وأدام الصيامَ وصلى لله بالليل والناس نيام " وقد زدنا هذا المعنى بيانا فى كتاب « التذكرة » والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أسند الواحدى عن يزيد بن هرون، قال : حدّثنا حجاج بن المنهال عن الزهرى — وهو عبد الرحمن بن عطاء — عن عطاء عن ابن عمر قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من الثمر [ويأكل][(2)] فقال " يا بن عمر مالك لا تأكل " فقلت لا أشتهيه يارسول الله فقال " لكنى أشتهيه وهذه صبيحة رابعة لم أذق طعاما ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يابن عمر إذا بقيت فى قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين " قال : والله ما برحنا حتى نزلت « وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

---

(1) هذه رواية أبى سعيد الخدرى ؛ كما فى صحيح مسلم. (2) الزيادة من كتاب «أسباب النزول» للواحدى.

Marfat.com

قلت : وهذا ضعيف يُضعِفه أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سَنتهم ، ٱتفق البخارى عليه ومسلم . وكانت الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة ، وأهل اليقين والأئمة لمن بعدهم من المتقين المتوكلين . وقد روى ٱبن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للؤمنين بمكة حين أذاهم المشركون "ٱخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة" قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا . فنزلت « وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ » أى ليس معها رزقها مدّخرا ، وكذلك أنتم يرزقكم الله فى دار الهجرة . وهذا أشبه من القول الأوّل . وتقدّم الكلام فى « كَأَيِّنْ » وأن هذه « أَيّ » دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيها معنى كم . والتقدير عند الخليل وسيبويه كالعدد . أى كشىء كثير من العدد من دابة . قال مجاهد : يعنى الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئا . الحسن : تأكل لوقتها ولا تدخر لغد . وقيل : « لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا » أى لا تقدر على رزقها « اللهُ يَرْزُقُهَا » أينما توجهت « وَإِيَّاكُمْ » . وقيل : الحمل بمعنى الحمالة . وحكى النقاش : أن المراد النبي صلى الله عليه وسلم يأكل ولا يدخر .

قلت : وليس بشىء؛ لإطلاق لفظ الدابة ، وليس مستعملا فى العرف إطلاقها على الآدمى فكيف على النبي صلى الله عليه وسلم . وقد مضى هذا فى « النمل » عند قوله « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ » قال ٱبن عباس : الدوابّ هو كل ما دبّ من الحيوان ، فكله لا يحمل رزقه ولا يدخر إلا ٱبن آدم والنمل والفار . وعن بعضهم رأيت البلبل يحتكر فى مِحْضَنه . ويقال للعقعق مخابئ إلا أنه ينساها . ﴿ اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ يسوّى بين الحريص والمتوكل فى رزقه ، وبين الراغب والقانع ، وبين الحَيُول والعاجز حتى لا يغتر الجلد أنه مرزوق بجلده ، ولا يتصوّر العاجز أنه ممنوع بعجزه . وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « لو أنكم توكّلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصا وتروح بِطانا » . ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لدعائكم وقولكم لا نجد ما ننفق بالمدينة ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما فى قلوبكم .

Marfat.com

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ الآية . لما عير المشركون المسلمين بالفقر وقالوا لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء، وكان هذا تمويها ، وكان فى الكفار فقراء أيضا أزال الله هذه الشبهة . وكذا قول من قال إن هاجرنا لم نجد ما ننفق . أى فإذا اعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء ، فكيف تشكون فى الرزق ، فمن بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العبد ؛ ولهذا وصله بقوله تعالى : « اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ » . ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أى كيف يكفرون بتوحيدى وينقلبون عن عبادتى . ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أى لا يختلف أمر الرزق بالإيمان والكفر ، فالتوسيع والتقتير منه فلا تعيير بالفقر، فكل شىء بقضاء وقدر . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من أحوالكم وأموركم . وقيل : عليم بما يصلحكم من إقتار أو توسيع .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى من السحاب مطرا. ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا ﴾ أى جدبها وقحط أهلها . ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أى فإذا أقررتم بذلك فلم تشركون به وتنكرون الإعادة. وإذا قدر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين ؛ فكرر تأكيدا. ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته. ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

Marfat.com

أى لا يتدبرون هذه الحجج . وقيل : « الحمد لله » على إقرارهم بذلك . وقيل : على إنزال الماء وإحياء الأرض . ﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ أى شيء يُلهى به ويُلعب . أى ليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول؛ كاللعب الذى لا حقيقة له ولا ثبات، قال بعضهم : الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها ، وأنشد :

تَروحُ لنا الدنيا بغير الذى غَدَتْ ＊ وتَحدثُ من بعد الأمورِ أمورُ
وتَجرى الليالى باجتماعٍ وفُرقةٍ ＊ وتَطلُعُ فيها أنجمٌ وتَغورُ
فمن ظنّ أنّ الدهرَ باقٍ سرورُهُ ＊ فذاكَ محالٌ لا يَدُومُ سرورُ
عَفا اللهُ عمّنْ صَيَّرَ الهمَّ واحدًا ＊ وأيقن أن الدائراتِ تَدورُ

قلت : وهذا كله فى أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضرورى الذى به قوام العيش، والقوة على الطاعات . وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة، وهو الذى يبقى كما قال : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » أى ما ابتغى به ثوابه ورضاه . ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أى دار الحياة الباقية التى لا تزول ولا موت فيها . وزعم أبو عبيدة : أن الحيوان والحياة والحِىّ بكسر الحاء واحد . كما قال (١) :

＊ وقد ترى إذ الحياةُ حِىٌّ ＊

وغيره يقول : إن الحِىّ جمع على فِعول مثل عِصىّ . والحيوان يقع على كل شىء حىّ . وحيوان عينٌ فى الجنة . وقيل : أصل حَيَوان حَيَيَان فأبدلت إحداهما واوا ؛ لاجتماع المثلين . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أنها كذلك .

قوله تعالى : فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

(١) البيت للعجاج وتمامه :

＊ وإذ زمان الناس دغفلى ＊

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ﴾ يعني السفن وخافوا الغرق ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي صادقين في نياتهم ، وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها . ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي يدعون معه غيره ، وما لم ينزل به سلطانا . وقيل : إشراكهم أن يقول قائلهم لولا الله والرئيس أو الملاح لغرقنا ، فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمة بين الله و بين خلقه .

قوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ قيل : هما لام كي أي لكي يكفروا ولكي يتمتعوا . وقيل : « إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » ليكون ثمرة شركهم أن يجحدوا نعم الله و يتمتعوا بالدنيا . وقيل : هما لام أمر معناه التهديد والوعيد . أي اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتعوا . ودليل هذا قراءة أبيّ « وَتَمَتَّعُوا » . ابن الأنباري : ويقوى هذا قراءة الأعمش ونافع وحمزة « وَلْيَتَمَتَّعُوا » بجزم اللام . النحاس : « وَلِيَتَمَتَّعُوا » لام كي ، ويجوز أن تكون لام أمر؛ لأن أصل لام الأمر الكسر ، إلا أنه أمر فيه معنى التهديد . ومن قرأ « وَلْيَتَمَتَّعُوا » بإسكان اللام لم يجعلها لام كي؛ لأن لام كي لا يجوز إسكانها . وهي قراءة ابن كثير والمسيّبي وقالون عن نافع ، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم . الباقون بكسر اللام . وقرأ أبو العالية « لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » تهديد ووعيد .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : هي مكة وهم قريش أمّنهم الله تعالى فيها . ﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ قال الضحاك : يقتل بعضهم بعضا و يسبي بعضهم بعضا . والخطف الأخذ بسرعة . وقد مضى في « القصص »

Marfat.com

وغيرها . فأذكرهم الله عز وجل هـذه النعمة ليذعنوا له بالطاعة . أى جعلتُ لهم حرما آمنا أمنوا فيه من السّبي والغارة والقتل، وخلّصتهم فى البركما خلّصتهم فى البحر، فصاروا يشركون فى البر ولا يشركون فى البحر . فهـذا تعجب من تناقض أحوالهم . ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ قال قتادة : أفبالشرك . وقال يحيى بن سـلّام : أفبإبليس . ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ ﴾ قال آبن عباس : أفبعافية الله . وقال آبن شجرة : أفبعطاء الله و إحسانه . وقال آبن سـلّام : أفبما جاء به النبي صلى الله عليه وسـلم من الهدى . وحكى النقاش : أفبإطعامهم من جوع ، وأمنهم من خوف يكفرون . وهذا تعجب و إنكار خرج مخرج الآستفهام .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ أى لا أحد أظلم ممن جعل مع الله شريكا وولدا، و إذا فعل فاحشة قال: « وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا » . ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ قال يحيى بن سـلّام : بالقرآن . وقال السديّ بالتوحيد . وقال آبن شجـرة : بمحمد صلى الله عليه وسلم . وكل قول يتناول القولين . ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى مستقر . وهو آستفهام تقرير .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ جَـٰهَـدُوا فِينَـا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٦٩)

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ أى جاهدوا الكفار فينا . أى فى طلب مرضاتنا . وقال السديّ وغيره : إن هـذه الآية نزلت قبل فرض القتال . قال آبن عطية : فهى قبل الجهاد العرفى، و إنما هو جهاد عام فى دين الله وطلب مرضاته . قال الحسن بن أبى الحسن : الآية فى العبّاد . وقال آبن عباس و إبراهيم بن أدهم : هى فى الذين يعملون بمـا يعلمون . وقد قال صلى الله عليه وسـلم : " من عمِل بمـا علِم علّمه الله ما لم يعلم " ونزع بعض العلماء إلى قـوله « وَٱتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ » . وقال عمر بن عبد العزيز : إنمـا قصّر بنا عن علم ماجهلنا تقصيرنا فى العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ماعلمنا لأورثنا علما لا تقوم به أبداننا ؛ قال الله تعالى : « وَٱتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ » . وقال أبو سليمان الدارانيّ : ليس الجهاد فى الآية

Marfat.com

قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين؛ وعُظْمه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس فى طاعة الله وهو الجهاد الأكبر. وقال سفيان بن عيينة لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول: «لَنَهْدِيَنَّهُمْ». وقال الضحاك: معنى الآية؛ والذين جاهدوا فى الهجرة لنهدينهم سبل الثبات على الإيمان. ثم قال: مثل السُّنة فى الدنيا كمثل الجنة فى العقبى، من دخل الجنة فى العقبى سلم، كذلك من لزم السُّنة فى الدنيا سلم. وقال عبد الله بن عباس: والذين جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا. وهذا يتناول بعموم الطاعة جميع الأقوال. ونحوه قول عبد الله بن الزبير قال: تقول الحكمة من طلبنى فلم يجدنى فليطلبنى فى موضعين: أن يعمل بأحسن ما يعلمه، ويجتنب أسوأ ما يعلمه. وقال الحسن بن الفضل: فيه تقديم وتأخير أى الذين هديناهم هم الذين جاهدوا فينا. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أى طريق الجنة؛ قاله السدى. النقاش: يوفقهم لدين الحق. وقال يوسف بن أسباط: المعنى لنخلصنّ نياتهم وصدقاتهم وصلواتهم وصيامهم. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لام تأكيد ودخلت فى «مع» على أحد وجهين: أن يكون اسما ولام التوكيد إنما تدخل على الأسماء، أو حرفا فتدخل عليها؛ لأن فيها معنى الاستقرار؛ كما تقول إن زيدا لفى الدار. و«مع» إذا سكنت فهى حرف لا غير. وإذا فتحت جاز أن تكون اسما، وأن تكون حرفا. والأكثر أن تكون حرفا جاء لمعنى. وتقدّم معنى الإحسان والمحسنين فى «البقرة» وغيرها. وهو سبحانه معهم بالنصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة. فبين المعيتين بونٌ.

تمت سورة العنكبوت، والحمد لله وحده

تم بعون الله تعالى الجزء الثالث عشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الرابع عشر

وأوله سورة «الروم»

Marfat.com

فهـرس الجـزء الثالث عشر

تفسير سـورة الفرقان

صفحة

تفسير قوله تعالى : « تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ... » الآيات ١

تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ... » الاية . هـذه الآية أصل فى تناول الأسباب . أكل الطعام ضرورة الخلق . الكلام على الأسواق . بعض الناس فتنة لبعض ١٢

تفسير قوله تعالى : « وعادا وثمود وأصحاب الرسّ ... » الآية . معنى الرسّ فى كلام العرب . الأقوال فى أصحاب الرسّ ٣٢

تفسير قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » . مطلب فى المياه وأحكامها ... ٣٩

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى خلق من المـاء بشرا فجعله نسبا وصهرا ... » الآية . بيان المراد من المـاء . معنى النسب والصهر ٥٩

تفسير قوله تعالى : « والذين لا يشهدون الزور ... » الآية . الكلام على شهادة الزور ٧٩

تفسير سـورة الشعراء

تفسير قوله تعالى : « طسم . تلك آيات الكتاب المبين ... » الآيات ٨٧

تفسير قوله تعالى : « فأخرجناهم من جنات وعيون » . الكلام على النيـل وخلجانه ١٠٢

تفسير قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » . بيان الحكمة فى اختصاص العشيرة بالإنذار . فى الآية دليـل على أن القرب فى الأنساب، لا ينفع مع البعـد فى الأسبـاب ١٤٣

تفسير قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون » . بيان ما يجوز إنشاده من الشعر وما لا يجوز ١٤٥

تفسير سـورة النمـل

تفسير قوله تعالى : « طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين ... » الآيات ١٥٤

تفسير قوله تعالى : « وورث سليمان داود ... » الآية . بيان المراد من الوراثة . قصص عن منطق الطير ١٦٤

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وحشر لسليمان جنوده ... » الآية . بيان معنى الحشر . مقدار جند سليمان عليه السلام . فى الاية دليل على اتخاذ الإمام والحكام ١٦٧

تفسير قوله تعالى : « حتى إذا أتوا على وادى النمل ... » الآيات . قصة سيدنا سليمان عليه السلام والنملة . حكم قتل النمل . التبسم ضحك الأنبياء ١٦٩

تفسير قوله تعالى : « وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد ... » الآيات . سبب تفقد الطير . الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته . العقوبة على قدر الذنب . الأنبياء لا تعلم الغيب . المرأة لا تكون خليفة . على الإمام أن يقبل عذر رعيته إرسال الكتب إلى المشركين جائز ١٧٦

تفسير قوله تعالى : « قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم ... » الآيات . وصف الكتاب بالكريم غاية الوصف . ردّ الكتاب كرد السلام . بدء الكتب والرسائل بالبسملة ١٩١

تفسير قوله تعالى : « قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ... » الآيات . فى الآية دليل على صحة المشاورة ١٩٤

تفسير قوله تعالى : « وإنى مرسلة إليهم بهدية ... » الآية . هدية بلقيس إلى سيدنا سليمان عليه السلام . قبول الهدية والإثابة عليها . الهدية مندوب إليها ... ١٩٦

تفسير قوله تعالى : « أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ... » الآية . الأقوال فى المضطر وإجابة الله لدعائه ٢٢٣

تفسير قوله تعالى : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ... » الآية . اختلاف العلماء فى معنى وقع القول، وفى الدابة ٢٣٤

تفسير قوله تعالى : « ويوم ينفخ فى الصور ... » الآيات . الكلام على الصور . عدد النفخ ٢٣٩

تفسير سورة القصص

تفسير قوله تعالى : « طسم . تلك آيات الكتاب المبين ... » الآيات ٢٤٧

تفسير قوله تعالى : « ولما ورد ماء مدين ... » الآيات . قصة سيدنا موسى عليه السلام فى مدين . مطلب فى النكاح والتزويج ٢٦٧

Marfat.com

صفحة

تفسير سورة العنكبوت

تفسير قوله تعالى : « الۤـمۤ . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ... » الآيات ٣٢٣

تفسير قوله تعالى : « آتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ... » الآية . بيان معنى « أقم الصلاة » . الأقوال فى نهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر . بيان المراد من ذكر الله فى الآية ... ٣٤٧

تفسير قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ... » الآيات . الكلام على أن الآية محكمة أو منسوخة... ٣٥٠

تفسير قوله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ... » الآية . الكلام على أمّية النبيّ صلى الله عليه وسلم ... ٣٥١

تفسير قوله تعالى : «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ... » الآية . الأقوال فى معنى الجهاد فى الآية ... ٣٦٤

Marfat.com

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الرابع عشر

أعادت طبعه دار احياء التراث العربي
بيروت — لبنان عام ١٩٦٦

Marfat.com

بيـان

تم تحقيق هـذا الجزء (الرابع عشر) من تفسير القرطبي، على الأصول الآتية :

(١)	نسخة	رقم	٩٥	تفسير،	المرموز	إليها	بحرف	ا
(٢)	»	»	٢٦٨	»	»	»	»	ب
(٣)	»	»	٢٨٣	»	»	»	»	ج
(٤)	»	»	١	»	حليم »	»	»	ح
(٥)	»	»	٢٥٨	بالمكتبة الأزهرية،	المرموز	إليها	بحرف	ز
(٦)	»	»	٥١٣	تفسير،	المرموز	إليها	بحرف	ش
(٧)	»	»	٣١٨	»	»	»	»	ط
(٨)	»	»	٩٣	»	»	»	»	ك

وقد وصفت هذه النسخ جميعها فى مقدّمة الجزء الثالث

الاثنين { ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ هـ
١٤ سبتمبر سنة ١٩٦٤ م }

حققـه

أحمـد عبد العليم البردونى

Marfat.com

فهــرس الجــزء الرابــع عشر

ســـــورة الــــروم

صـفحة

تفسير قوله تعالى : « الم . غلبت الروم ... » الآيات . بيـان ما وقع بين فارس والروم ومراهنة أبي بكر رضى الله عنه . سبب غلبة الروم فارس ٩

تفسير قوله تعـالى : « أو لم يتفكروا فى أنفسهم ... » الآيات . توبيخ المشركين لأنهم لم يتفكروا ولم يتعظوا . بيان عاقبتهم وعاقبة المؤمنين ٨

تفسير قوله تعالى : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » . بيان أن الآية خطاب للمؤمنين بالأمر بالعبادة ، والحض على الصلاة فى أوقاتهـا ١٤

تفسير قوله تعـالى : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ... » الآيات . بيـان آيات الله تعـالى فى خلق الإنسان . المعنى المـراد من المودة والرحمة التى بين الرجل والمرأة . الكلام على اختلاف الألسنة والألوان ١٦

تفسير قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا ... » الآيات . الأمر باتباع الدين الحنيف . اختلاف العلماء فى معنى «الفِطرة» ٢٤

تفسير قوله تعـالى : « فآت ذا القربى حقه والمسكين ... » الآية . الأمر بإيتـاء ذى القربى حقــه من الصدقة ، وأن خير الصدقة ما كان على القريب ٣٥

تفسير قوله تعالى : « وما آتيتم من ربا ... » الآية . الكلام على المكافأة فى الهبة ... ٣٦

تفسير قوله تعالى : « ظهر الفساد فى البر والبحر ... » الآيات . الاختلاف فى معنى الفساد فى البر والبحر ٤٠

تفسير قوله تعالى : « فانظر إلى آثار رحمة الله ... » الآيات . الاستدلال بإحياء الأرض على إحياء الموتى ٤٥

Marfat.com

صحيفة

تفسير قوله تعالى : « الله الذى خلقكم من ضعف ... » الآية . الاستدلال على قدرة الله تعالى بتطور حال الإنسان من الضعف إلى القوة، ثم من القوة إلى الضعف... ٤٦

تفسير قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة » ... الآيات ٤٧

سورة لقمان

تفسير قوله تعالى : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ... » المعنى المراد من « لهو الحديث » . استدل العلماء بهذه الآية على كراهة الغناء والمنع منه . بيان ما ورد من الآثار فى ذمه . ما أبيح من الغناء . الاشتغال به سفه تردّ به الشهادة. جواز سماع الرجل غناء جاريته ٥١

تفسير قوله تعالى : « خلق السموات بغير عمد ... » الآيات ٥٨

تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة ... » الآيات . الكلام على نسب « لقمان »، وهل كان حكيما أم نبيا . الاختلاف فى صنعته . شىء من حكمه . نهى لقمان ابنه عن الشرك . الكلام على طاعة الأبوين . الاختلاف فى مدة الرضاع . صلة الأبوين الكافرين . وصية لقمان لابنه ٥٩

تفسير قوله تعالى : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات » ... الآيات . ذكر ما أنعم الله به على بنى آدم، وبيان النعم الظاهرة والباطنة . توبيخ المشركين على مجادلتهم فى الله تعالى ٧٣

تفسير قوله تعالى : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ... » الآيات ٧٤

تفسير قوله تعالى : « ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ... » الآيات . بيان أن معانى كلام الله تعالى لا تنفد . بيان المراد بكلمات الله ٧٦

تفسير قوله تعالى : « ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ... » الآيات ٧٨

تفسير قوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة ... » الآية . بيان مفاتح الغيب الخمس التى لا يعلمها إلا الله تعالى ٨٢

Marfat.com

سورة السجدة

صفحة

تفسير قوله تعالى : «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ... » الآيات . القول فى معنى « يدبرالأمر » ومعنى عروجه . الكلام على اليوم الذى مقداره ألف سنة ... ٨٦

تفسير قوله تعالى : « وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض ... » الآيات . إنكار الكفار للبعث . بيان ما فى «ضل» من اللغات . الرد على الكفار فى استبعادهم البعث . الكلام على توفى الأنفس ٩١

تفسير قوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ... » القول فى هداية الخلق . ٩٦

تفسير قوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع ...» الآية . المراد بتجافى الجنوب . القيام لصلاة النوافل بالليل . بيان ما ورد فى فضل ذلك من الأحاديث ٩٩

تفسير قوله تعالى : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ... » نفى المساواة بين المؤمن والكافر . احتج العلماء بهذه الآية على أبى حنيفة فى قتله المسلم بالذمى ١٠٥

تفسير قوله تعالى : « أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » الآيات . بيان ما أعد للمؤمنين والكافرين فى الآخرة . الكلام على العذاب الأدنى والعذاب الأكبر ... ١٠٦

تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب ... » الآيات ١٠٨

سورة الأحزاب

بيان أنها نزلت فى المنافقين و إيذائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطعنهم فيه وفى مناكحته .

تفسير قوله تعالى : « يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين ... » الآيات . الزجر عن اتباع مراسم الجاهلية والأمر بجهادهم ١١٣

تفسير قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ... » الآيات . الكلام على سبب نزول هذه الآية . حقيقة القلب . ذكر خبر زيد بن حارثة . الكلام على التبنى ومن آدعى إلى غير أبيه ١١٦

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ... » الآية . بيان أن هذه الآية أزالت أحكاما كانت فى صدر الإسلام . بيان أن الله تعالى جعل أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم أمهات للمؤمنين تشريفا لهن . اختلف فى كونهن كالأمهات فى المحرم وإباحة النظر . بيان أن المسلمين كانوا يتوارثون بالهجرة ثم نسخ ذلك بالتوارث بالأرحام ١٢١

تفسير قوله تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ...» الآية . بيان ما أخذ من المواثيق على الأنبياء عليهم السلام ١٢٦

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا آذكروا نعمة الله عليكم ... » الآيات . الكلام على غزوة الخندق وفى أى سنة كانت . سببها وما كان فيها من آيات النبوة . ما تضمنته من أحكام . ابتلا المؤمنين بالقتال والجوع والخوف . أمر المنافقين لهم بالفرار والرجوع إلى منازلهم ١٢٨

تفسير قوله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ... » الآية . بيان أن هذا عتاب للتخلفين عن القتال . الاختلاف فى هذه الأسوة بالرسول، هل هى على الإيجاب أو على الاستحباب ١٥٥

تفسير قوله تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ... » الآية . الكلام على من وفى بعهده حتى قتل . معنى « النحب » ١٥٨

تفسير قوله تعالى : « يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا ... » الآيات . بيان السبب الذى أوجب تخيير الرسول صلوات الله عليه زوجاته . الكلام على أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم، من دخل بها ، ومن عقد عليها ولم يدخل بها ، ومن خطبها فلم يتم نكاحه معها . سراريه صلى الله عليه وسلم . بيان أن التخيير والطلاق المعلقين على شرط صحيحان . اختلاف العلماء فى كيفية تخيير النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه . أقوال العلماء فى المخيرة إذا اختارت زوجها وهل يكون ذلك طلاقا ، ومتى يكون لها الخيار ١٦٢

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « يا نساء النبيّ من يأت منكن بفاحشة ... » الآيات . لما كان أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فى مهبط الوحى لزمهن بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن . معنى « الضعفين » 173

تفسير قوله تعالى : « يا نساء النبيّ لستن كأحد من النساء إن آتقيتن ... » الآيات . نهى الله أمهات المؤمنين عن مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه . أمرهن بملازمة البيوت، ونهيهن عن التبرج . اختلاف الناس فى الجاهلية الأولى . الردّ على من طعن فى أم المؤمنين عائشة فى أنها خالفت أمر الرسول صلوات الله عليه حين خرجت فى وقعة الجمل . اختلاف العلماء فى أهل البيت من هم . أمر أمهات المؤمنين بذكر الكتاب والحكمة والمراد بالذكر 177

تفسير قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ... » الآية . الكلام على سبب نزول هذه الآية . بيان أن لفظة « ما كان، وما ينبغى » معناها الحظر والمنع . فى الآية دليل على أن الكفاءة لا تعتبر فى الأحساب بل فى الأديان . لا يجوز لأحد أن يختار غير ما اختاره الله ورسوله 186

تفسير قوله تعالى : « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه ... » الآيات . لو كان النبي صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية . اختلاف العلماء فى تأويلها . قصة زواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش . زواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بدون عقد ولا صداق . نسب زيد وبيان فضله . فى الآية دليل على ثبوت الولىّ فى النكاح 188

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ... » الآية . بيان أن المطلقة قبل الدخول لا عدّة عليها . بيان أن لا طلاق إلا بعد نكاح . أقوال العلماء فيمن طلق آمرأته طلقة رجعية أو بائنة 202

تفسير قوله تعالى : « يأيها النبيّ إنا أحللنا لك أزواجك ... » الآية . بيان ما أحل الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من النساء . من وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله

Marfat.com

صفحة

عليه وسلم . الاختلاف فى تحريم الحرة الكافرة عليه . الاختلاف فى النكاح بلفظ الهبة . بيان ما خص به صلى الله عليه وسلم مزية على الأمة... ... ... ٢٠٥

تفسير قوله تعالى : « ترجى من تشاء منهن ... » الآية . اختلاف العلماء فى تأويل هذه الآية . الكلام على القسم بين الزوجات والعدل بينهن ٢١٤

تفسير قوله تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد ... » الآية . أقوال العلماء فى تأويل هذه الآية . الدليل على جواز النظر إلى المخطوبة . آختلف فيما يجوز أن ينظر منها . آختلاف العلماء فى إحلال الأمة الكافرة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ٢١٩

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم ... » الآية . بيان أن الآية تضمنت الأدب فى أمر الطعام والجلوس وأمر الحجاب . نهى الله المؤمنين عن دخول بيت النبي صلى الله عليه وسلم بغير إذن وانتظار نضج الطعام . اختلف فى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته هل هى ملك لأمهات المؤمنين . حرص عمر رضى الله عنه على نزول الحجاب . إذن الله فى مسألة أمهات المؤمنين من وراء حجاب فيما يعرض من المسائل ؛ ويدخل فى هذا جميع النساء . آستدل بعض العلماء بهذه الآية على جواز شهادة الأعمى . من خصائصه صلى الله عليه وسلم تحريم نكاح أزواجه من بعده . اختلف فى أزواجه صلى الله عليه وسلم بعد موته هل بقين أزواجا ، أم زال النكاح بالموت، وهل عليهن عدّة ٢٢٣

تفسير قوله تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على النبي ... » الآية . بيان تعظيم قدر النبي صلى الله عليه وسلم . بيان أن الأمر بالصلاة عليه فرض فى العمر مرة . اختلاف الآثار فى صفة الصلاة عليه ، فضل الصلاة عليه . اختلف العلماء فى الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ٢٣٢

تفسير قوله تعالى : « إن الذين يؤذون الله ورسوله ... » الآيات . اختلف فى أذية الله تعالى بماذا تكون . بيان أن الطعن فى تأمير أسامة بن زيد أذية

Marfat.com

صفحة

لرسول الله صلى الله عليه وسلم . الكلام على جواز إمامة المولى والمفضول على غيرهما ما عدا الإمامة الكبرى . مكانة أسامة رضى الله عنه من الرسول صلى الله عليه وسلم . بيان أذية المؤمنين والمؤمنات هى بالأفعال والأقوال القبيحة ... ٢٣٧

تفسير قوله تعالى : « يأيها النبيّ قل لأزواجك وبناتك ... » الآية . بيان زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده . أمر الحرائر بالتستر وإرخاء الجلاليب عليهن حتى لا يختلطن بالإماء . صورة إرخاء الجلباب عليهن ٢٤١

تفسير قوله تعالى : « لئن لم ينتهِ المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ... » الآيات . تهديد المنافقين والمرجفين على نشر أخبار السوء . بيان أن سنة الله فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل ٢٤٥

تفسير قوله تعالى : « إن الله لعن الكافرين ... » الآيات ٢٤٨

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ... » الآيات . تحذير المؤمنين من التعرض للإيذاء، ونهيهم عن التشبه ببنى إسرائيل من أذيتهم نبيهم . بيان المجازاة عن القول السداد ٢٥٠

تفسير قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض ... » الآية . أقوال العلماء فى معنى الأمانة ٢٥٣

سورة سبأ

تفسير قوله تعالى : « الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ... »...الآيات ٢٥٩

تفسير قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ... » الآيات . الرد على منكرى الساعة . وعيد الذين سعوا فى إبطال النبوة . إنكار المشركين للبعث ... ٢٦٠

تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا داود منا فضلا ... » الآية . اختلاف العلماء فى الفضل الذى أعطاه الله لداود . فى الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع... ٢٦٤

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « ولسليمان الريح غدوها شهر ... » الآيات . بيان ما أوتيه سليمان من تسخير الريح والجن وإذابة النحاس له . أقوال العلماء فى التصوير . الكلام على موت سليمان وما صنعه من إخفاء موته عن الجن ٢٦٨

تفسير قوله تعالى : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ... » الآيات . بيان نسب سبأ والآية التى كانت فى مساكنهم . الكلام على سدهم والسيل الذى أرسل عليهم ... ٢٨٢

تفسير قوله تعالى : «ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له» الآية . بيان ما يحدث فى الملأ الأعلى إذا أراد الله أن يوحى بالأمر ٢٩٥

تفسير قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السموات والأرض ... » الآيات ... ٢٩٨

تفسير قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ... » الآيات . القول فى كفر المشركين بالقرآن وبالكتب والأنبياء ٣٠١

تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا فى قرية من نذير ... » الآيات . بيان أن سعة الرزق فى الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة . فضل النفقة فى طاعة الله تعالى ٣٠٤

تفسير قوله تعالى : « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت ... » الآيات . ذكر أحوال الكفار وخروج السفيانى بجيشه آخر الزمان وخسف الأرض بهم ٣١٤

سورة فاطر

تفسير قوله تعالى : « الحمد لله فاطر السموات والأرض ... » الآيات . الكلام على قوله « يزيد فى الخلق » ٣١٨

تفسير قوله تعالى : « يأيها الناس إن وعد الله حق ... » الآيات . بيان معنى الغرور . القول فى عداوة الشيطان لبنى آدم ٣٢٢

تفسير قوله تعالى : « من كان يريد العزة ... » الآية . بيان أن العزة لا تكون إلا فى طاعة الله تعالى . القول فى الكلم الطيب والعمل الصالح ٣٢٨

تفسير قوله تعالى : « والله خلقكم من تراب ... » الآية . بيان معنى الزيادة فى العمر والنقصان منه وكيفية كتابته فى اللوح المحفوظ ٣٣٢

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وما يستوى البحران ... » الآيات . بيان معنى « القطمير » ٣٣٤

تفسير قوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ... » الآيات . بيان أن هـذا ضرب مثل للمؤمن والكافر، والعالم والجاهل . معنى قوله «ومن الجبال جدد» . بيان أن مخافة الله لا تكون إلا من العلماء العاملين ٣٣٩

تفسير قوله تعالى : إن الذين يتلون كتاب الله...» الآيات . القول فى أن هذا خاص بالقراء العاملين العالمين... ... ... ٣٤٤

تفسير قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا ... » الآيات . الكلام على الظالم والمقتصد والسابق بالخيرات . بيان أن التقديم فى الذكر لا يقتضى تشريفا ٣٤٥

تفسير قوله تعالى : « والذين كفروا لهم نار جهنم ... » الآيات . بيان أحوال أهل النار ومقالتهم والرد عليهم ٣٥١

تفسير قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم ... » الآيات . بيان ما كانت قريش تقوله قبل بعث الرسول عليه السلام ٣٥٧

تفسير قوله تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ... » الآية ٣٦١

Marfat.com

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الرابع عشر

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الروم

سورة الروم مكية كلها من غير خلاف، وهى ستون آية

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِى أَدْنَى الْأَرْضِ ﴾ روى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت : « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِى أَدْنَى الْأَرْضِ — إلى قوله — يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ » . قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس . قال : هذا حديث غريب (١) من هذا الوجه . هكذا قرأ نصر بن على الجهضمى « غَلَبَتِ الرُّومُ » . ورواه أيضا من حديث ابن عباس بأتم منه . قال ابن عباس فى قول الله عز وجل : «الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِى أَدْنَى الْأَرْضِ» قال : غَلَبَتِ وغُلِبَتِ ، قال : كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ؛ فذكروه لأبى بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أما إنهم سيغلبون " فذكره أبو بكر لهم فقالوا : اجعل بيننا و بينك أجلا ، فإن ظهرنا كان لنا كذا ، و إن ظهرتم كان لكم كذا وكذا بجعل أجل خمس سنين ، فلم يظهروا ؛ فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : " ألا جعلته

(١) فى نسخة الترمذى : « هذا حديث حسن غريب ... » .

Marfat.com

إلى دون؟ - أراه قال العشر - قال قال أبو سعيد: والبضع ما دون العشرة . قال: ثم ظهرت الروم بعد، قال : فذلك قوله « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ - إلى قوله - وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللهِ » . قال سفيان : سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . ورواه أيضا عن نِيَار بن مُكْرَم الأَسْلَمِيّ قال: لما نزلت « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ » وكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفى ذلك نزل قول الله تعالى: « وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضى الله عنه يصيح فى نواحى مكة : « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ » . قال ناس من قريش لأبى بكر : فذلك بيننا وبينكم ، زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين ! أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى . وذلك قبل تحريم الرِّهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرّهان. وقالوا لأبى بكر: كم تجعل البِضع ؟ ثلاث سنين أو تسع سنين ؟ (١) فَسَمِّ بيننا وبينك وسطا تنتهى إليه ؛ قال فسمّوا بينهم ستّ سنين ؛ قال : فمضت الست سنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبى بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس ، فعاب المسلمون على أبى بكر تسمية ست سنين، قال : لأن الله تعالى قال « فِي بِضْعِ سِنِينَ » قال : وأسلم عند ذلك ناس كثير . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . وروى القُشَيْرِيّ وابن عطية وغيرهما : أنه لما نزلت الآيات خرج أبو بكر بها إلى المشركين فقال : أسرّكم أن غَلبت الروم ؟ فإن نبيّنا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون فى بضع سنين . فقال له أُبَيّ بن خلف وأُمَيّة أخوه - وقيل أبو سفيان ابن حرب - : يا أبا فَصيل! (٢) - يعرّضون بكنيته « يا أبا بكر » - فلْنَتَنَاحَبْ - أى نتراهن

(١) فى جـ وك : « أو سبع » . (٢) الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه .

Marfat.com

فى ذلك فراهنهم أبو بكر . قال قتادة : وذلك قبل أن يحرم القمار[١]، وجعلوا الرهان خمس قلائص[٢] والأجل ثلاث سنين . وقيـل : جعلوا الرهان ثلاث قلائص . ثم أتى النبيّ صـلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : " فهلا احتطت ، فإن البِضع ما بين الثلاث والتسع والعشر ! ولكن ارجع فزدهم فى الرهان واستزدهم فى الأجل " ففعـل أبو بكر ، فجعلوا القلائص مائة والأجل تسعة أعوام ؛ فغلبت الروم فى أثناء الأجل . وقال الشعبيّ : فظهروا فى تسع سنين . القشيريّ : المشهور فى الروايات أن ظهور الروم كان فى السابعة من غلبـة فارس للروم ، ولعـل رواية الشعبيّ تصحيف من السبع إلى التسع من بعض النقلة . وفى بعض الروايات : أنه جعل القلائص سبعا إلى تسع سنين . ويقال : إنه آخر فتوح كسرى أبرويز فتح فيه القسطنطينية حتى بنى فيها بيت النار ؛ فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسـلم فساءه ذلك ، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين . وحكى النقاش وغيره : أن أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه لمـا أراد الهجرة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم تعلق به أُبَيّ بن خلف وقال له : أعطنى كفيلا بالخطر[٣] إن غلبت ؛ فكفل به ابنه عبد الرحمن ، فلما أراد أُبَيّ الخروج إلى أُحد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلا ، ثم مات أُبَيّ بمكة من جرح جرحه النبيّ صلى الله عليه وسـلم ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية على رأس تسع سنين من مناحبتهم . وقال الشعبيّ : لم تمض تلك المدّة حتى غلبت الروم فارس ، وربطوا خيلهم بالمدائن ، وبنوا رومِيَة ؛ فقَمَر[٤] أبو بكر أُبيًّا وأخذ مال الخَطَر من ورثته ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " تصدّق به " فتصدّق به . وقال المفسرون : إن سبب غلبة[٥] الروم فارس آمرأةٌ كانت فى فارس لا تلد إلا الملوك والأبطال ، فقال لها كسرى : أريد أن أستعمل أحد بنيك على جيش أجهزه إلى الروم ؛ فقالت : هذا هُرمُز أروغ من ثعلب وأحذر من صقر ، وهذا فَرُّخان أحدّ من سِنان وأنفذ من نَبْل ، وهذا شهربزان[٦] أحلم من كذا ، فآختر ؛ قال فآختار الحليم وولّاه ، فسار إلى الروم بأهل فارس فظهر على

---

(١) فى ج : « الرهان » . (٢) القلائص : جمع القلوص ، وهى الفتية من الإبل . (٣) الخطر (بالتحريك) : الرهن ، وما يخاطر عليه . (٤) قمرت الرجل : غلبته . (٥) راجع هذا الخبر فى تاريخ الطبرى (جـ ٤ ص ١٠٠٥ من القسم الأول طبع أوربا) . (٦) هكذا ورد فى كتب التفسير . والذى فى تاريخ الطبرى : « شهربراز » .

Marfat.com

الروم . قال عكرمة وغيره : إن شهر بزان لما غلب الروم خرّب ديارها حتى بلغ الخليج، فقال أخوه فَرُّخان : لقد رأيتنى جالسا على سرير كسرى ؛ فكتب كسرى إلى شهر بزان أرسل إلىّ برأس فرخان فلم يفعل؛ فكتب كسرى إلى فارس : إنى قد استعملت عليكم فُرُّخان وعزلت شهر بزان، وكتب إلى فَرُّخان إذا ولى أن يقتل شهر بزان؛ فأراد فَرُّخان قتل شهر بزان فأخرج له شهر بزان ثلاث صحائف من كسرى يأمره بقتل فرُّخان، فقال شهر بزان لفرخان: إن كسرى كتب إلىّ أن أقتلك ثلاث صحائف وراجعته أبدا فى أمرك، أفتقتلنى أنت بكتاب واحد ؟ فرد المُلْك إلى أخيه ، وكتب شهر بزان إلى قيصر ملك الروم فتعاونا على كسرى ، فغلبت الروم فارس ومات كسرى . وجاء الخبر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ففرح من معه من المسلمين ؛ فذلك قوله تعالى : «الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ» يعنى أرض الشام. عكرمة : بأذرعات ، وهى ما بين بلاد العرب والشام . وقيل : إن قيصر كان بعث رجلا يدعى يحنّس وبعث كسرى شهر بزان فالتقيا بأذرعات وبصرى وهى أدنى بلاد الشام إلى أرض العرب والعجم . مجاهد : بالجزيرة، وهو موضع بين العراق والشام . مقاتل : بالأردنّ وفلسطين . و « أدنى » معناه أقرب . قال ابن عطية : فإن كانت الواقعة بأذرعات فهى من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة ، وهى التى ذكرها امرؤ القيس فى قوله :

تنوّرتها من أذرعات وأهلُها * بيثربَ أدنى دارِها نظرٌ عالِ

وإن كانت الواقعة بالجزيرة فهى أدنى بالقياس إلى أرض كسرى ، وإن كانت بالأردنّ فهى أدنى إلى أرض الروم . فلما طرأ ذلك وغلبت الروم سُرّ الكفار فبشر الله عباده بأن الروم سيغلبون وتكون الدولة لهم فى الحرب .

وقد مضى الكلام فى فواتح السور . وقرأ أبو سعيد الخدرىّ وعلى بن أبى طالب ومعاوية بن قُرة « غَلَبَتِ الرُّومُ » بفتح الغين واللام . وتأويل ذلك أن الذى طرأ يوم بدر إنما كانت الروم غلبت فعز ذلك على كفار قريش وسرّ بذلك المسلمون ، فبشر الله تعالى عباده أنهم سيغلبون أيضا فى بضع سنين؛ ذكر هذا التأويل أبو حاتم. قال أبو جعفر النحاس:

Marfat.com

قراءة أكثر النـاس « غُلِبت الروم » بضم الغين وكسر اللام . وروى عن ابن عمــر وأبى سعيد الخدرى أنهما قرأا « غَلَبْت الروم » وقرأا « سيُغلبون » . وحكى أبو حاتم أن عِصمة روى عن هارون : أن هــذه قراءة أهل الشام؛ وأحمد بن حنبل يقــول : إن عصمة هذا ضعيف، وأبو حاتم كثير الحكاية عنه، والحديث يدل على أن القراءة « غُلِبَت » بضم الغين، وكان فى هذا الإخبار دليل على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الروم غلبتها فارس ، فأخبر الله عز وجل نبيــه محمدا صلى الله عليه وســلم أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين ، وأن المؤمنين يفرحون بذلك، لأن الروم أهل كتاب ، فكان هــذا من علم الغيب الذى أخبر الله عز وجل به ممــا لم يكن [علموه][1] ، وأمر أبا بكر أن يراهنهم على ذلك وأن يبالغ فى الرهان، ثم حُرّم الرهان بعدُ ونُسخ بتحريم القِمار . قال ابن عطية : والقراءة بضم الغين أصح ، وأجمع الناس على « سيغلِبون » أنه بفتح اليــاء ، يراد به الروم . ويروى عن ابن عمر أنه قرأ أيضا بضم اليــاء[2] فى « سيغلَبون » ، وفى هذه القراءة قلب للمعنى الذى تظاهرت الروايات به . قال أبو جعفر النحاس : ومن قرأ « سيُغلبون » فالمعنى عنده : وفارس من بعد غلبهم ، أى من بعــد أن غَلَبوا، سيُغلبون . وروى أن إيقــاع الروم بالفرس كان يوم بدر؛ كما فى حديث أبى سعيد الخدرى حديثِ الترمِذىّ ، وروى أن ذلك كان يوم الحديبِية، وأن الخبر وصل يوم بيعــة الرّضوان ؛ قاله عكرمة وقتادة . قال ابن عطية : وفى كِلا اليومين كان نصر من الله للمؤمنين . وقــد ذكر الناس أن سبب سرور المسلمين بغلبة الروم وهمّهم أن تغلب إنمــا هو أن الروم أهل كتاب كالمسلمين، وفارس[3] من أهل الأوثان؛ كما تقدّم بيانه فى الحديث . قال النحاس : وقول آخر وهو أولى — أن فرحهم إنمــا كان لإنجاز وعد الله تعالى؛ إذ كان فيــه دليل على النبــوّة لأنه أخبر تبارك وتعالى بمــا يكون فى بضع سنين فكان فيــه . قال ابن عطية : ويشــبه أن يعلّل ذلك بمــا يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدو الأصغر لأنه أيسر مئونة ، ومتى غلب الأكبر كثر الخوف منه ؛ فتأمل هذا المعنى، مع ما كان رسول الله

---

(١) زيادة عن النحاس . (٢) فى ك : بفتح الياء . (٣) فى ش : « كالمسلمين ، فهم أقرب من أهل الأوثان ... » .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم ترجّاه من ظهور دينـه وشَرْع الله الذى بعثه به وغلبته على الأمم ، و إرادة كفار مكة أن يرميه الله بملك يستأصله و يريحهم منـه . وقيل : سرورهم إنمـا كان بنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين ؛ لأن جبريل أخبر بذلك النبيّ عليه السلام يوم بدر ؛ حكاه القُشَيْرِىّ .

قلت : و يحتمـل أن يكون سرورهم بالمجموع من ذلك ، فسروا بظهورهم على عدوّهم و بظهور الروم أيضا و بإنجاز وعد الله . وقرأ أبو حَيْوَة الشامىّ ومحمد بن السَّمَيْقَع « من بعد غَلْبهم » بسكون اللام ، وهما لغتان ؛ مثل الظَّعْن والظَّعَن . وزعم الفرّاء أن الأصل « من بعد غلبتهـم » فحذفت التـاء كما حذفت فى قـوله عز وجل « وَإِقَامِ الصَّلَاةِ » وأصلـه و إقامة الصلاة . قال النحاس : « وهذا غلط لا يُخِيل[1] على كثير من أهل النحو ؛ لأن « إقام الصلاة » مصدر قد حذف منه لاعتلال فعله ، فجعلت التاء عوضا من المحذوف ، و «غلب» ليس بمعتل ولا حذف منه شيء . وقد حكى الأصمعىّ : طَرَد طَرَدًا ، وجَلَبَ جَلَبًا ، وحَلَبَ حَلَبًا ، وغَلَبَ غَلَبًا ؛ فأىّ حذف فى هذا ، وهل يجوز أن يقال فى أَكَلَ أَكْلا وما أشبهه — : حذف منه » ؟ .

﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ حذفت الهاء من « بِضع » فرقا بين المذكر والمؤنث ، وقد مضى الكلام فيه فى « يوسف »[2] . وفتحت النون من « سِنِينَ » لأنه جمع مسلم . ومن العرب من يقول « فى بضع سنين » كما يقول فى « غِسلين » . وجاز أن يُجمع سنة جمع من يعقل بالواو والنون والياء والنون ؛ لأنه قد حذف منها شيء فجعل هذا الجمع عوضا من النقص الذى فى واحده ؛ لأن أصل « سنة » سنهة أو سنوة ، وكسرت السين منه دلالة على أن جمعه خارج عن قياسه ونمطه ؛ هذا قول البصريين . و يلزم الفرّاء أن يضمها لأنه يقول : الضمة دليل على الواو وقد حذف من سنة واو فى أحد القولين ، ولا يضمها أحد علمناه .

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ أخبر تعالى بآنفراده بالقدرة وأن ما فى العالم من غلبة وغيرها إنمـا هى منه و بإرادته وقـدرته فقال « لله الأمر » أى إنفاذ الأحكام .

---

(١) أى لا يشكل ، وهو من أخال الشيء اشتبه . (٢) راجع جـ ٩ ص ١٩٧ .

Marfat.com

« منْ قَبْلُ وَمنْ بَعْدُ » أى من قبل هذه الغلبة ومن بعدها . وقيل : من قبلِ كل شيء ومن بعد كل شيء . و « مِن قبلُ ومن بعدُ » ظرفان بنيا على الضم ؛ لأنهما تعرّفا بحذف ما أضيفا إليهما وصارا متضمنين ما حذف فخالفا تعريف الأسماء وأشبها الحروف فى التضمين فبنيا ، وخُصّا بالضم لشبههما بالمنادى المفرد فى أنه إذا نُكّر وأضيف زال بناؤه ، وكذلك هما فَضُمّا . ويقال : «من قبلٍ ومن بعدٍ» . وحكى الكسائى عن بعض بنى أسد « لِلّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدُ » الأوّل مخفوض منون ، والثانى مضموم بلا تنوين . وحكى الفرّاء « مِن قبلِ ومن بعدِ » مخفوضين بغير تنوين . وأنكره النحاس وردّه . وقال الفرّاء فى كتابه : فى القرآن أشياء كثيرة ، الغلط فيها بيّن ، منها أنه زعم أنه يجوز «من قبلِ ومن بعدِ» وإنما يجوز «من قبلٍ ومن بعدٍ» على أنهما نكرتان . قال الزجاج : المعنى من متقدّم ومن متأخر . ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ تقدم ذكره . ﴿ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ يعنى من أوليائه ؛ لأن نصره مختصّ بغلبة أوليائه لأعدائه ، فأما غلبة أعدائه لأوليائه فليس بنصره ، وإنما هو ابتلاء وقد يسمّى ظفرا . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فى نقمته ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ لأهل طاعته .

قوله تعالى : وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ لأن كلامه صدق . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وهم الكفار وهم أكثر . وقيل : المراد مشركو مكة . وانتصب « وَعْدَ اللَّهِ » على المصدر ؛ أى وعد ذلك وعدا . ثم بيّن تعالى مقدار ما يعلمون فقال : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعنى أمر معايشهم ودنياهم : متى يزرعون ومتى يحصدون ، وكيف يغرسون وكيف يبنون ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة . وقال الضحاك : هو بنيان قصورها ، وتشقيق أنهارها وغرس أشجارها ؛ والمعنى واحد . وقيل : هو ما تلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا

Marfat.com

عند استراقهم السمع من سماء الدنيا؛ قاله سعيد بن جبير. وقيل : الظاهر والباطن؛ كما قال في موضع آخر « أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ »[1] .

قلت : وقول ابن عباس أشبه بظاهر الحياة الدنيا ، حتى لقد قال الحسن : بلغ والله من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقد الدرهم فيخبرك بوزنه ولا يحسن أن يصلي. وقال أبو العباس المبرّد : قسم كسرى أيامه فقال : يصلح يوم الريح للنوم ، ويوم الغيم للصيد، ويوم المطر للشرب واللهو، ويوم الشمس للحوائج . قال ابن خالَوَيْه : ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا . ﴿ وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ ﴾ أي عن العلم بها والعمل لها ﴿ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ قال بعضهم :

ومن البليّة أن ترى لك صاحبا * في صورة الرجل السميع المبصر
فطِنٍ بكل مصيبة في ماله * وإذا يصاب بدينه لم يشعر

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾

قوله : ﴿ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ ظرف للتفكر وليس بمفعول، تعدّى إليه « يَتَفَكَّرُوا » بحرف جرّ؛ لأنهم لم يؤمروا أن يتفكروا في خلق أنفسهم، إنما أمروا أن يستعملوا التفكر في خلق السموات والأرض وأنفسهم، حتى يعلموا أن الله لم يخلق السموات وغيرها إلا بالحق . قال الزجاج: في الكلام حذف ، أي فيعلموا ؛ لأن في الكلام دليلا عليه . ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ قال الفرّاء : معناه إلا للحق ؛ يعني الثواب والعقاب . وقيل : إلا لإقامة الحق . وقيل : « بِالْحَقِّ » بالعدل . وقيل : بالحكمة ؛ والمعنى متقارب . وقيل : « بِالْحَقِّ » أي أنه هو الحق وللحق خلقها ، وهو الدلالة على توحيده وقدرته . ﴿ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي للسموات والأرض أجل

(١) آية ٣٣ سورة الرعد . جـ ٩ ص ٣٢٣ .

Marfat.com

ينتهيان إليه وهو يوم القيامة . وفى هـذا تنبيه على الفناء ، وعلى أن لكل مخلوق أجلا ، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء . وقيل : « وَأَجَلٍ مُسَمًّى » أى خلق ما خلق فى وقت سماه لأن يخلق ذلك الشيء فيه . ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ اللام للتوكيد، والتقدير : لكافرون بلقاء ربهم ، على التقديم والتأخير ؛ أى لكافرون بالبعث بعد الموت . وتقول: إن زيدا فى الدار لجالس . ولو قلت : إن زيدا لفى الدار لجالس جاز . فإن قلت : إن زيدا جالس لفى الدار لم يجز؛ لأن اللام إنما يؤتى بها توكيدا لاسم إن وخبرها، وإذا جئت بهما لم يجز أن تأتى بها . وكذا إن قلت : إن زيدا لجالس لفى الدار لم يجز .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴾ ببصائرهم وقلوبهم . ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ ﴾ أى قلبوها للزراعة ؛ لأن أهل مكة لم يكونوا أهل حرث ؛ قال الله تعالى: « تُثِيرُ الْأَرْضَ »(١) . ﴿ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ أى وعمـروها أولئك أكثر ممـا عمروها هؤلاء فلم تنفعهـم عمارتهم ولا طول مدتهـم . ﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالمعجزات . وقيـل : بالأحكام فكفروا ولم يؤمنوا . ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ بأن أهلكهم بغير ذنب ولا رسل ولا حجة . ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالشرك والعصيان .

قوله تعالى : ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٤٥٣

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى ﴾ السّوءى فُعْلَى من السوء تأنيث الأسوإ وهو الأقبح ، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن . وقيل : يعنى بها هاهنا النار ؛ قاله ابن عباس . ومعنى « أساءوا » أشركوا ؛ دل عليه « أن كذبوا بِآياتِ الله » . « السوءى » : اسم جهنم ؛ كما أن الحسنى اسم الجنة . ﴿ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ أى لأن كذبوا ؛ قاله الكسائى. وقيل : بأن كذبوا . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ » بالرفع اسم كان ، وذكّرت لأن تأنيثها غير حقيق . و « السُّوءَى » خبر كان . والباقون بالنصب على خبر كان . « السوءى » بالرفع ٱسم كان . ويجوز أن يكون ٱسمها التكذيب ؛ فيكون التقدير : ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساءوا ؛ و يكون السوءى مصدراً لأساءوا ، أو صفة لمحذوف ؛ أى الخلّة السوءى . وروى عن الأعمش أنه قرأ « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءُ » برفع السوء . قال النحاس : السوء أشدّ الشر ؛ والسوءى الفعلى منه . ﴿ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ قيل بمحمد والقرآن ؛ قاله الكلبيّ . مقاتل : بالعذاب أن ينزل بهم . الضحاك : بمعجزات محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾

قرأ أبو عمرو وأبو بكر « يرجعون » بالياء . الباقون بالتاء . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمىّ « يُبْلَسُ » بفتح اللام ؛ والمعروف فى اللغة : أبلس الرجل إذا سكت وٱنقطعت حجته ، ولم يؤمّل أن يكون له حجة. وقريب منه : تحيّر ؛ كما قال العجاج :

يا صاحِ هل تعرِفُ رَسْماً مُكْرَسا * قال نعـم أعرفـه وأبْلَسا[(١)]

(١) المكرس : الذى قد بعرت فيه الإبل و بوّلت فركب بعضه بعضا .

Marfat.com

وقد زعم بعض النحويين أن إبليس مشتق من هذا ، وأنه أبلس لأنه انقطعت حجته . النحاس : ولو كان كما قال لوجب أن ينصرف ، وهو فى القرآن غير منصرف . الزجاج : المبلس الساكت المنقطع فى حجته، اليائس من أن يهتدى إليها . ﴿ولم يكن لهم من شركائهم﴾ أى ماعبدوه من دون الله ﴿ شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ قالوا ليسوا بآلهـة فتبرءوا منها وتبرأت منهم؛ حسبما تقدم فى غير موضع .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ يعنى المؤمنين من الكافرين ؛ ثم بين كيف تفريقهم فقال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال النحاس : سمعت الزجاج يقول : معنى « أمّا » دع ما كنا فيه وخذ فى غيره . وكذا قال سيبويه : إن معناها مهما كنا[(1)] فى شيء فخذ فى غير ما كنا فيه . ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال الضحاك : الروضة الجنة ، والرياض الجنان . وقال أبو عبيد : الروضـة ما كان فى تسفُّل ، فإذا كانت مرتفعة فهى تُرْعة . وقال غيره : أحسن ما تكون الروضة إذا كانت فى موضع مرتفع غليظ ؛ كما قال الأعشى :

ما رَوْضَةٌ من رياض الحَزْن مُعْشِبَةٌ * خضراءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ[(2)]
يضاحِكُ الشمسَ منها كوكَبٌ شَرِقٌ * مُؤَزَّرٌ بعميم النَّبْتِ مُكْتَهِلُ[(3)]
يومًا بأطيَبَ منها نَشْرَ رائحةٍ * ولا بأحسنَ منها إذ دنَا الأُصُلُ[(4)]

إلا أنه لا يقال لها روضة إلا إذا كان فيها نبت ، فإن لم يكن فيها نبت وكانت مرتفعة فهى ترعة . وقد قيل فى الترعة غير هذا . وقال القُشَيْرِيّ : والروضة عند العرب ما ينبت حول

(١) فى ش و ج « مهما يكن » .　　(٢) رياض الحزن أحسن من رياض الخفوض لارتفاعها .

(٣) قوله : « يضاحك الشمس » أى يدور معها حيثما دارت . وكوكب كل شيء معظمه ؛ والمراد هنا الزهر . ومؤزر : مفعل من الإزار . والشرق : الريان الممتلىء ماء . والعميم : التام السن . والمكتهل : الذى قد بلغ وتم .　(٤) النشر : الرائحة الطيبة . والأصل : جمع أصيل ؛ وخص هنا الوقت لأن المنبت يكون فيه أحسن ما يكون لتباعد الشمس والفىء عنه .

Marfat.com

الغدير من البقول ؛ ولم يكن عند العرب شيء أحسن منه . الجوهري : والجمع روْض ورِياض ، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها . والرّوض : نحوٌ من نصف القِرْبَة ماء . وفي الحوض رَوْضة من ماء إذا غطّى أسفله . وأنشد أبو عمرو :

* ورَوْضةٍ سَقَيْتُ منها نِضْوتي (١) *

﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ قال الضحاك وابن عباس : يُكرمون . وقيل ينعّمون؛ وقاله مجاهد وقتادة . وقيل يسرّون . السُّدّي : يفرحون . والحَبْرَة عند العرب : السرور والفرح؛ ذكره الماوردي . وقال الجوهري : الحَبْر : الحُبُور وهو السرور؛ ويقال: حبره يحبره (بالضم) حَبْرا وحَبَرَة ؛ قال تعالى : « فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ » أي ينعمون و يكرمون و يسرون . ورجل يَحْبُور (٢) يفعول من الحبور . النحاس : وحكى الكسائي حبرته أي أكرمته ونعّمته . وسمعت عليّ بن سليمان يقول: هو مشتق من قولهم: على أسنانه حَبْرة أي أثر؛ فـ « يحبرون » يَتَبيّن عليهم أثر النعيم . والحبر مشتق من هذا . قال الشاعر :

لا تملأ الدّلو وعَرِّق (٣) فيها * أما تَرَى حَبارَ من يَسْقيها

وقيل : أصله من التحبير وهو التحسين ؛ فـ « يُحْبَرُونَ » يحسّنون . يقال : فلان حَسَن الحِبر والسِّبر إذا كان جميلا حسن الهيئة . ويقال أيضا : فلان حسن الحَبْر والسَّبْر (بالفتح)؛ وهذا كأنه مصدر قولك : حبَرْتُه حَبْرا إذا حسّنته . والأول اسم؛ ومنه الحديث : "يخرج رجل من النار ذهب حِبْره وسِبْره" وقال يحيى بن أبي كثير « في رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ » قال : السَّماع (٤) في الجنة؛ وقاله الأوزاعي ، قال : إذا أخذ أهل الجنة في السماع (٤) لم تبق شجرة في الجنة إلا رَدّدت الغناء بالتسبيح والتقديس . وقال الأوزاعي : ليس أحد من خلق الله أحسنَ صوتا من إسرافيل ؛ فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم . زاد غير الأوزاعي : ولم تبق شجرة في الجنة إلا ردّدت ، ولم يبق سِتر ولا باب إلا ارتج وانفتح ، ولم تبق حلقة

---

(١) النضو : الدابة التي أهزلتها الأسفار . (٢) اليحبور : الناعم من الرجال .
(٣) أعرقت الكأس وعرّقتها : أقللت ماءها . (٤) السماع : الغناء .

Marfat.com

إلا طنت بألوان طنينها ، ولم تبق أجمة من آجام الذهب إلا وقع أهبوب الصوت فى مقاصبها فزمّرت تلك المقاصب بفنون الزمر، ولم تبق جارية من جوار الحور العِين إلا غنّت بأغانيها، والطير بألحانها ، و يوحى الله تبارك وتعالى إلى الملائكة أن جاوبوهم وأسمعوا عبادى الذين نزهوا أسماعهم عن مزامير الشيطان فيجاوبون بألحان وأصواتٍ روحانيين فتختلط هذه الأصوات فتصير رجة واحدة، ثم يقول الله جل ذكره : يا داود قم عند ساق عرشى فمجّدنى ؛ فيندفع داود بتمجيد ربه بصوت يغمر الأصوات و يجليها[(١)] وتتضاعف اللذة ؛ فذلك قوله تعالى : « فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ » . ذكره الترمذي الحكيم رحمه الله . وذكر الثعلبي من حديث أبى الدّرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذكّر الناس ؛ فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم ؛ وفى أخريات القوم أعرابى فقال : يا رسول الله، هل فى الجنة من سماع ؟ فقال : " نعم يا أعرابى ! إن فى الجنة لنهرا حافتاه الأبكار من كل بيضاء خمصانية يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة " فسأل رجل أبا الدّرداء : بماذا يتغنين ؟ فقال : بالتسبيح . والخمصانية : المرهفة الأعلى، الخمصانة البطن، الضخمة الأسفل .

قلت : وهذا كله من النعيم والسرور والإكرام ؛ فلا تعارض بين تلك الأقوال . وأين هذا من قوله الحق : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » على ما يأتى[(٢)] . وقوله عليه السلام : " فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ". وقد روى : "إن فى الجنة لأشجارا عليها أجراس من فضة، فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحا من تحت العرش فتقع فى تلك الأشجار[(٣)] فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربا " . ذكره الزمخشري .

---

(١) فى ك : « ويحليها » بالحاء المهملة . وفى كتاب التذكرة : « ويخليها » بالخاء المعجمة .

(٢) راجع ص ١٠٣ من هذا الجزء . (٣) فى الأصول : « الأجراس » .

Marfat.com

قوله تعالى : وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُولَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ تقدم الكلام فيه . ﴿ وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾ أى بالبعث . ﴿ فَأُولَئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أى مقيمون . وقيل : مجموعون . وقيل : معذبون . وقيل : نازلون؛ ومنه قوله تعالى : « إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ » أى نزل به ؛ قاله آبن شجرة ، والمعنى متقارب .

قوله تعالى : فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ ﴾ الآية فيه ثلاثة أقوال : الأول — أنه خطاب للؤمنين بالأمر بالعبادة والحض على الصلاة فى هذه الأوقات . قال ابن عباس : الصلوات الخمس فى القرآن؛ قيل له : أين ؟ فقال : قال الله تعالى « فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ » صلاة المغرب والعشاء « وَحِينَ تُصْبِحُونَ » صلاة الفجر « وَعَشِيًّا » العصر « وَحِينَ تُظْهِرُونَ » الظهر ؛ وقاله الضحاك وسعيد بن جبير . وعن ابن عباس أيضا وقتادة : أن الآية تنبيه على أربع صلوات : المغرب والصبح والعصر والظهر ؛ قالوا : والعشاء الآخرة هى فى آية أخرى فى « وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ »(١) وفى ذكر أوقات العورة . وقال النحاس : أهل التفسير على أن هذه الآية « فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ » فى الصلوات . وسمعت علىّ بن سليمان يقول : حقيقته عندى : فسبحوا الله فى الصلوات ، لأن التسبيح يكون فى الصلاة ؛ وهو القول الثانى . والقول الثالث — فسبحوا الله حين تمسون وحين تصبحون ؛ ذكره الماوردىّ . وذكر القول

(١) راجع جـ ٩ ص ١١٠ .

Marfat.com

الأول ، ولفظه فيه : فصلوا لله حين تمسون وحين تصبحون . وفى تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان : أحدهما ــ لمـا تضمنها من ذكر التسبيح فى الركوع والسجود . الثانى ــ مأخوذ من السبحة والسبحة الصلاة ؛ ومنــه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " تكون لهم سبحة يوم القيامة " أى صلاة .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ اعتراض بين الكلام بدءوب الحمد على نعمه وآلائه . وقيل : معنى «وَلَهُ الْحَمْدُ» أى الصلاة له لاختصاصها بقراءة الحمد . والأول أظهر؛ فإن الحمد لله من نوع تعظيم الله تعالى والحض على عبادته ودوام نعمته ؛ فيكون نوعا آخر خلاف الصلاة ، والله أعلم . وبدأ بصلاة المغرب لأن الليل يتقدّم النهار . وفى سورة « سبحان »(١) بدأ بصلاة الظهر إذ هى أول صلاة صلاها جبريل بالنبى صلى الله عليه وسلم . المـاورديّ : وخص صلاة الليل باسم التسبيح وصلاة النهار باسم الحمد لأن للإنسان فى النهار متقلبا فى أحوالٍ توجب حمد الله تعالى عليها ، وفى الليل على خلوة توجب تنزيه الله من الأسواء فيها ؛ فلذلك صار الحمد بالنهار أخص فسميت به صلاة النهار ، والتسبيح بالليل أخص فسميت به صلاة الليل .

الثالثـــة ــ قــرأ عكرمة « حِينًا تُمْسُونَ وَحِينًا تُصْبِحُونَ » والمعنى : حينا تمسون فيه وحينا تصبحون فيه ؛ فحذف « فيه » تخفيفا ، والقول فيه كالقول فى « وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا »(٢) . ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ قال الجوهريّ : العشِيّ والعشية من صـلاة المغرب إلى العتمة ؛ تقول : أتيته عشية أمسِ وعشِيّ أمسِ . وتصغـير العشِيّ : عشيان ، على غير [قياس] مُكَبَّرِه ؛ كأنهم صـغّروا عَشْيَانًا ، والجمع عُشَيَّانات . وقيـل أيضا فى تصغيره : عُشَيْشِيَان ، والجمـع عُشَيْشِيَات . وتصغير العَشِيَّة عُشَيْشِيَة ، والجمـع عُشَيْشِيات . والعِشاء (بالكسر والمد)(٣) مثل العشِيّ . والعِشاءان(٤) المغرب والعتمة . وزعم قوم أن العِشاء من زوال الشمس إلى طلوع الفجر ، وأنشدوا :

غدونا غـدوة سحـــرا بليـــلٍ ٭ عِشاء بعـد ما ٱنتصف النهـار

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣١٠ . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٧٧ فما بعد . (٣) من ك . (٤) فى جـ : «والعشاء» .

Marfat.com

الماوردى : والفرق بين المساء والعشاء : أن المساء بُدُو الظلام بعد المغيب ، والعشاء آخر النهار عند ميل الشمس للغيب ، وهو مأخوذ من عشا العين وهو نقص النور من الناظر كنقص نور الشمس .

قوله تعالى : يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

بيّن كمال قدرته ، أى كما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها ، كذلك يحييكم بالبعث . وفى هذا دليل على صحة القياس ؛ وقد مضى فى « آل عمران » بيان « يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ »[1] .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٥٦ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ أى من علامات رُبُوبِيَّته ووحدانيته أن خلقكم من تراب ؛ أى خلق أباكم منه والفرع كالأصل ، وقد مضى بيان هذا فى «الأنعام»(١) .
و « أنْ » فى موضع رفع بالابتداء وكذا « أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا » .

﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ثم أنتم عقلاء ناطقون تتصرفون فيما هو قِوام معايشكم ، فلم يكن ليخلقكم عبثًا ؛ ومن قدر على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح . ومعنى : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى نساء تسكنون إليها . ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى من نطف الرجال ومن جنسكم . وقيل : المراد حوّاء، خلقها من ضِلع آدم ؛ قاله قتادة . ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ قال ابن عباس ومجاهد : المودّة الجماع ، والرحمة الولد ؛ وقاله الحسن . وقيل : المودّة والرحمة عطف قلوبهم بعضهم على بعض. وقال السدى: المودةُ : المحبةُ، والرحمةُ: الشفقةُ ؛ ورُوى معناه عن ابن عباس قال: المودّة حبُّ الرجل امرأته، والرحمة رحمته إياها أن يصيبها بسوء. ويقال: إن الرجل أصله من الأرض ، وفيه قوة الأرض ، وفيه الفرج الذى منه بُدِئ خلقه فيحتاج الى سَكَن ، وخُلقت المرأة سكنًا للرجل ؛ قال الله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ » الآية . وقال : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا » فأول ارتفاق الرجل بالمرأة سكونه إليها مما فيه من غليان القوّة ، وذلك أن الفرج إذا تحمل(٢) فيه هيّج ماء الصلب إليه، فإليها يسكن وبها يتخلص من الهِياج، وللرجال خُلق البُضْع منهنّ، قال الله تعالى: «وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ»(٣) فأعلم الله عز وجل الرجال أن ذلك الموضع خلق منهن للرجال ، فعليها بذله فى كل وقت يدعوها الزوج، فإن منعته فهى ظالمة وفى حرج عظيم ؛ ويكفيك من ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها" . وفى لفظ آخر: " إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تُصبح " . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدم

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ . (٢) كذا فى الأصل . (٣) راجع جـ ١٣ ص ١٣٢ .

Marfat.com

في « البقرة »[1] وكانوا يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق . ﴿ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ اللّسان في الفم ؛ وفيه اختلاف اللغات : من العربيّة والعجمية والتركية والرومية . واختلاف الألوان في الصور : من البياض والسواد والحمرة ؛ فلا تكاد ترى أحداً إلا وأنت تفرق بينه وبين الآخر . وليس هذه الأشياء من فعل النطفة ولا من فعل الأبوين؛ فلا بد من فاعل، فعُلِم أن الفاعل هو الله تعالى ؛ فهذا من أدلّ دليل على المدبر البارئ . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾[2] أي للبَرّ والفاجر . وقرأ حفص : « للعَالِمِينَ » بكسر اللام جمع عالم . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ قيل : في هذه الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار ؛ فحذف حرف الجر لاتصاله بالليل وعطفه عليه ، والواو تقوم مقام حرف الجر إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر خاصة ؛ فجعل النوم بالليل دليلا على الموت ، والتصرفُ بالنهار دليلا على البعث . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ يريد سماع تفهّم وتدبّر . وقيل : يسمعون الحق فيتبعونه . وقيل : يسمعون الوعظ فيخافونه . وقيل : يسمعون القرآن فيصدّقونه ؛ والمعنى متقارب . وقيل : كان منهم من إذا تُلِي القرآن وهو حاضر سدّ أذنيه حتى لا يسمع ؛ فبيّن الله عز وجل هذه الدلائل عليه . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ قيل : المعنى أن يريكم ، فحذف « أن » لدلالة الكلام عليه ؛ قال طرفة :

أَلَا أيّهذا اللائمي أحضُرَ الوَغَى * وأنْ أشهَدَ اللّذاتِ هل أنت مُخْلِدِي

وقيل : هو على التقديم والتأخير ؛ أي ويريكم البرق من آياته . وقيل : أي ومن آياته آيةٌ يريكم بها البرق ؛ كما قال الشاعر[3] :

وما الدّهر إلا تارتان فمنهما * أموتُ وأخرى أبتغي العيش أكْدَحُ

وقيل : أي من آياته أنه يريكم البرق خوفا وطمعا من آياته ؛ قاله الزجاج ، فيكون عطف جملة على جملة . ﴿ خَوْفًا ﴾ أي للمسافر . ﴿ وَطَمَعًا ﴾ للمقيم ؛ قاله قتادة . الضحاك :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٥١ . (٢) بفتح اللام قراءة نافع ، وبها كان يقرأ المؤلف .
(٣) هو ابن مقبل ؛ كما في شواهد سيبويه والخزانة .

Marfat.com

« خَوْفًا » من الصـواعق ، « وَطَمَعًا » فى الغيثِ . يحيي بن سـلام : « خَوْفًا » من البرد أن يهلك الزرع ، « وَطَمَعًا » فى المطر أن يحيي الزرع . ابن بحر: « خَوْفًا » أن يكون البرق بَرْقًا خُلَّبًا لا يمطر ، « وَطَمَعًا » أن يكون ممطرا ؛ وأنشد قول الشاعر :

لا يكن بَرْقُك برقًا خُلّبـا ✽ إن خير البرق ما الغيث معه

وقال آخـــر :

فقـد أَرِد المياه بغـير زاد ✽ سـوى عدّى لها برق الغمام

والبرق الخُلّب : الذى لا غيث فيـه كأنه خادع ؛ ومنه قيـل لمن يَعِد ولا يُنْجِز : إنمـا أنت كبرقٍ خُلّب . والخُلّب أيضا : السحاب الذى لا مطر فيـه . ويقال : بَرْقُ خُلّب ، بالإضافة . ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ تقـدم . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ « أَنْ » فى محل رفع كما تقدم؛ أى قيامها واستمساكها بقدرته بلا عمد . وقيل : بتدبيره وحكمته ؛ أى يمسكها بغير عمد لمنافع الخلق . وقيل: « بأمرِهِ » بإذنه؛والمعنى واحد. ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ أى الذى فعل هذه الأشياء قادر على أن يبعثكم من قبوركم ؛ والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث ؛ كما يجيب الداعى المطاعَ مَدْعوّه ؛ كما قال القائل :

دَعَـوْتُ كُلَيبا بآسمـــه فكأنمـا ✽ دعوت برأس الطَّود أو هو أسرع (١)

يريد برأس الطود : الصَّـدى أو الحجـر إذا تَدَهْـده . وإنمـا عطف هـذا على قيام السموات والأرض بـ « ثم » لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتـداره على مثـله ، وهو أن يقول : يأهل القبور قوموا؛ فلا تبقَ نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر ؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٢) » . و « إذا » الأولى فى قوله تعـالى :

---

(١) رواية البيت كما فى اللسان :

دعوت جليـدا دعـوة فكأنما ✽ دعوت به ابن الطود أو هو أسرع

قال : وآبن الطود : الجلمود الذى يتدهـدى من الطود . والطود : الجبل العظيم . وتدهده الحجر : تدحرج . فى كتاب ما يعول عليه : دعوت خليدا ... بالخاء المعجمة .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٩ .

Marfat.com

« إِذَا دَعَاكُمْ » للشرط ، والثانية فى قوله تعالى : « إِذَا أَنْتُمْ » للفاجأة ، وهى تنوب مناب الفاء فى جواب الشرط . وأجمع القراء على فتح التاء هنا فى « تَخْرُجُونَ » . واختلفوا فى التى فى «الأعراف» فقرأ أهل المدينة : « ومنها تُخرجون » بضم التاء، وقرأ أهل العراق: بالفتح[(١)]، و إليه يميل أبوعبيد . والمعنيان متقاربان ، إلا أن أهل المدينة فرّقوا بينهما لنسق الكلام ، فنسقُ الكلام فى التى فى « الأعراف » بالضم أشبه ؛ إذ كان الموت ليس من فعلهم ، وكذا الإخراج . والفتح فى سورة الروم أشبه بنسق الكلام ؛ أى إذا دعاكم خرجتم أى أطعتم؛ فالفعل [بهم][(٢)] أشبه . وهذا الخروج إنما هو عند نفخة إسرافيل النفخة الآخرة؛ على ما تقدّم و يأتى. وقرئ: « تخرجون » بضم التاء وفتحها ، ذكره الزَّمَخْشَرِيّ ولم يزد على هذا شيئا، ولم يذكر ما ذكرناه من الفرق ، والله أعلم . ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا وعبدا . ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ رُوى عن أبى سعيد الخدريّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "كلّ قنوت فى القرآن فهو طاعة" . قال النحاس : مطيعون طاعة انقياد . وقيل : « قَانِتُونَ » مقرّون بالعبودية ، إما قالة و إما دلالة ؛ قاله عكرمة وأبو مالك والسدّى . وقال ابن عباس : « قَانِتُونَ » مصلون . الربيع بن أنس : « كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ » أى قائم يوم القيامة ؛ كما قال : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ »[(٣)] أى للحساب . الحسن : كل له قائم بالشهادة أنه عبد له . سعيد بن جبير : « قَانِتُونَ » مخلصون .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أمّا بدء خلقه فبعلوقه فى الرحم قبل ولادته ، وأمّا إعادته فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث ؛ فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلا على ما يخفى من إعادته ؛ استدلالا بالشاهد على الغائب ، ثم أكد ذلك بقوله

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨١ فما بعد . (٢) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس .
(٣) راجع جـ ١٩ ص ٢٥٢ .

Marfat.com

﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وقرأ ابن مسعود وابن عمر : «يُبْدِئُ الْخَلْقَ» من أبدأ يبدئ؛ دليله قوله تعالى : «إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ»(١) . ودليل قراءة العامة قوله سبحانه : «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ»(٢) . و «أَهْوَنُ» بمعنى هيّن ؛ أى الإعادة هيّن عليه؛ قاله الرّبيع بن خُثَيم والحسن . فأهون بمعنى هيّن ؛ لأنه ليس شيء أهونَ على الله من شيء . قال أبو عبيدة : ومن جعل أهون يعبر عن تفضيل شيء على شيء فقوله مردود بقوله تعالى : «وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً» وبقوله : «وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا» . والعرب تحمل أفعل على فاعل ، ومنه قول الفرزدق :

إن الذى سَمَكَ السماء بنى لنا * بيتًا دعائمــه أعزّ وأطول

أى دعائمه عزيزة طويلة . وقال آخر(٣) :

لَعَمْرُكَ ما أدرِى وإنى لأوْجَل * على أيّنا تَعْـــدُو المنيّة أوّل

أراد : إنى اوجل . وأنشد أبو عبيدة أيضا :

إنى لأمْنَحُكَ الصّدود وإننى * قَسَمًا إليك مع الصُّدود لأَمْيَلُ(٤)

أراد لمـائل . وأنشد أحمد بن يحيي :

تمنّى رجال أن أموت وإن أَمُتْ * فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأَوْحَدِ

أراد بواحد . وقال آخر :

لعمرك إن الزِّبرقان لبـاذل * لمعروفه عند السنينَ وأفضل

أى وفاضل . ومنه قولهم : الله أكبر ؛ إنما معناه الله الكبير . وروى معمر عن قتادة قال : فى قراءة عبد الله بن مسعود «وهو عليه هين» . وقال مجاهد وعكرمة والضحاك : إن المعنى أن الإعادة أهون عليه – أى على الله – من البداية؛ أى أيسر ، وإن كان جميعه على الله تعالى هينا؛ وقاله ابن عباس . ووجهه أن هذا مَثَل ضربه الله تعالى لعباده؛ يقول : إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه؛ فينبغى أن يكون البعث لمن قدر على البـداية عندكم وفيما بينكم

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٩٤ .
(٢) راجع جـ ٧ ص ١٨٧ فما بعد .
(٣) القائل هو معن بن أوس .
(٤) البيت للأحوص بن محمد الأنصارى .

Marfat.com

أهونَ عليه من الإنشاء . وقيل : الضمير فى «عَلَيْهِ» للخلوقين؛ أى وهو أهون عليه، أى على الخلق، يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ويقال لهم : كونوا فيكونون؛ فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نُطَفًا ثم عَلَقا ثم مُضَغا ثم أجِنّة ثم أطفالا ثم غلمانا ثم شبانا ثم رجالا أو نساء . وقاله ٱبن عباس وقُطْرُب . وقيل : أهون أسهل؛ قال :

وهان على أسماء أن شطّت النّوَى * يحِنّ إليها والِهٌ ويتــوق

أى سهل عليها، وقال الربيع بن خُثَيم فى قوله تعالى: « وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » قال : ما شيء على الله بعزيز . عِكرمة: تعجّب الكفار من إحياء الله الموتى فنزلت هذه الآية . ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ أى ما أراده جلّ وعزّ كان . وقال الخليل : المثل الصفة؛ أى وله الوصف الأعلى ﴿فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كما قال : « مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ » أى صفتها . وقد مضى الكلام فى ذلك.(١) وعن مجاهد : « الْمَثَلُ الأَعْلَى » قولُ لا إله إلا الله ؛ ومعناه : أى الذى له الوصف الأعلى، أى الأرفع الذى هو الوصف بالوحدانية . وكذا قال قتادة : إن المثل الأعلى شهادةُ أن لا إله إلا الله؛ ويَعْضُده قوله تعالى : « ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ » على ما نبيّنه آنفا إن شاء الله تعالى . وقال الزجاج: « وَلَهُ الْمَثَـلُ الأَعْلَى فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ » أى قوله : « وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب و يسهل؛ يريد التفسير الأوّل . وقال ابن عباس : أى ليس كمثله شيء ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم .(٢)

قوله تعالى : ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ . وجـ ٢ ص ١٣١ .

Marfat.com

فيـــه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ثم قال : ﴿مِنْ شُرَكَاءَ﴾؛ ثم قال : ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فـ « من » الأولى للابتـداء؛ كأنه قال : أخذ مثلا وآنتزعه من أقرب شيء منكم وهى أنفسكم . والثانية للتبعيض ، والثالثة زائدة لتأكيـد الاستفهام . والآية نزلت فى كفار قريش، كانوا يقولون فى التلبية : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ؛ قاله سعيد بن جبير . وقال قتادة : هذا مثل ضربه الله للشركين؛ والمعنى : هل يرضى أحدكم أن يكون مملوكه فى ماله ونفسه مثله ، فإذا لم ترضوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء .

الثانيـــة ــ قال بعض العلمـاء : هـذه الآية أصل فى الشركة بين المخلوقين لافتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه ، وذلك أنه لمـا قال جل وعز : « ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » الآية ، فيجب أن يقولوا : ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقتنا ! فيقال لهم : فكيف يتصوّر أن تنزهوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدى شركائى فى خلقى ؛ فهذا حكم فاسـد وقلة نظـر وعَمَى قلب ! فإذا بطلت الشركة بين العبيـد وساداتهم فيما يملكه السادة والخلق كلهم عبيد لله تعالى فيبطل أن يكون شيء من العالَم شريكا لله تعالى فى شيء من أفعاله ؛ فلم يبق إلا أنه واحد يستحيل أن يكون له شريك ، إذ الشركة تقتضى المعاونة ، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضا بالمـال والعمل ؛ والقـديمُ الأزلِيّ منزه عن ذلك جلّ وعزّ .

وهذه المسألة أفضل للطالب من حفظ ديوان كامل فى الفقه ؛ لأن جميع العبادات البدنية لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة فى القلب ، فافهم ذلك .

قوله تعـالى : ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعـالى : ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لمـا قامت عليهم الحجـة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم فى عبادتها وتقليد الأسلاف فى ذلك . ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أى لا هادى لمن أضله الله تعالى . وفى هذا ردّ على القدرية . ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ .

Marfat.com

قوله تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال الزجاج : « فِطْرَةَ » منصوب بمعنى ٱتبع فطرة الله . قال : لأن معنى «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ» ٱتبع الدّين الحنيف وٱتبع فطرة الله . وقال الطبرى : «فِطْرَةَ اللهِ» مصدر من معنى : «فَأَقِمْ وَجْهَكَ» لأن معنى ذلك : فطر الله الناس على ذلك فِطرة . وقيل : معنى ذلك ٱتبعوا دين الله الذى خلق النّاس له ؛ وعلى هـذا القول يكون الوقف على « حَنِيفًا » تاما . وعلى القولين الأوّلين يكون متصلا ، فلا يوقف على « حَنِيفًا » . وسميت الفطرة دِينًا لأن النـاس يُخلقون له ، قال جلّ وعزّ : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »(١) . ويقال : «عَلَيْهَا» بمعنى لها ؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا »(٢) . والخطاب بـ«أَقِمْ وَجْهَكَ» للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، أمره بإقامة وجهه للدّين المستقيم ؛ كما قال : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ »(٣) وهو دين الإسـلام . وإقامة الوجه هو تقويم المقصد والقوّة على الجدّ فى أعمال الدين ؛ وخصّ الوجه بالذكر لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفُه . ودخل فى هـذا الخطاب أمّتُه بٱتفاق من أهل التأويل . و « حَنِيفًا » معناه معتدلا مائلا عن جميع الأديان المحرّفة المنسوخة .

الثانيـة — فى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " ما من مولود إلا يولد على الفِطرة — فى رواية " على هذه الملّة — أبواه يُهوّدانه ويُنصّرانه ويُمجّسانه كما تُنتَج البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تُحسّون فيهـا من جدعاء " ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم ؛ «فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ» ، فى رواية : " حتى

(١) راجع جـ ١٧ ص ٥٥ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢١٧ . (٣) راجع ص ٤٢ من هذا الجزء .

(٤) أى سليمة من العيوب مجتمعة الأعضاء كاملتها .

Marfat.com

تكونوا أنتم تجدعونها " قالوا : يا رسول الله، أفرأيتَ من يموت صغيرا ؟ قال : " الله أعلم بما كانوا عاملين " . لفظ مسلم .

الثالثــة — واختلف العلماء فى معنى الفطرة المذكورة فى الكتاب والسنة على أقوال متعدّدة ؛ منها الإسلام ؛ قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرهما ؛ قالوا : وهو المعروف عند عامّة السلف من أهل التأويل ؛ واحتجوا بالآية وحديث أبى هريرة ، وعَضَدوا ذلك بحديث عِياض بن حِمار المُجَاشِعىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس يوما : " ألا أحدّثكم بما حدّثنى الله فى كتابه، أن الله خلق آدم و بنيه حنفاء مسلمين، وأعطاهم المال حلالا لا حرام فيه فجعلوا مما أعطاهم الله حلالا وحراما ... " الحديث . و بقوله صلى الله عليه وسلم : " خمس من الفطرة ... " فذكر منها قصّ الشارب ، وهو من سنن الإسلام؛ وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث : أن الطفل خلق سليما من الكفر على الميثاق الذى أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه، وأنهم إذا ماتوا قبل أن يُدرِكوا فى الجنة ؛ أولادَ مسلمين كانوا أو أولاد كفار . وقال آخرون : الفطرة هى البداءة التى ابتدأهم الله عليها ؛ أى على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء ، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ . قالوا : والفطرة فى كلام العرب البداءة . والفاطر : المبتدئ؛ واحتجوا بما روى عن ابن عباس أنه قال : لم أكن أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ؛ أى ابتدأتها . قال المَرْوَزِىّ : كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ثم تركه . قال أبو عمر فى كتاب التمهيد له : ما رسمه مالك فى موطّئه وذكر فى باب القدر(1) فيه من الآثار — يدلّ على أن مذهبه فى ذلك نحو هذا ، والله أعلم . ومما احتجوا به ما روى عن كعب القُرَظى فى قول الله تعالى : « فَرِيقًا هَـدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّـلَالَةُ »(2) قال : من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيّره إلى الضلالة و إن عمل بأعمال الهدى ، ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى و إن عمل بأعمال الضلالة، ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة، ثم ردّه الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه، قال : وكان من الكافرين .

(1) فى ج ، ش ، ك : أبواب .　　(2) راجع ج ٧ ص ١٨٨ فما بعد .

Marfat.com

قلت : قد مضى قول كعب هذا فى « الأعراف » وجاء معناه مرفوعا من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : دُعِى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة غلام من الأنصار فقلت : يا رسول الله ، طُوبَى لهذا عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه ! قال : "أو غير ذلك يا عائشة! إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم" خرجه ابن ماجه فى السنن . وخرج أبو عيسى الترمذىّ عن عبد الله بن عمرو قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده كتابان فقال : "أتدرون ما هذان الكتابان" ؟ فقلنا : لا يارسول الله ، إلا أن تخبرنا ؛ فقال للذى فى يده اليمنى : "هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا — ثم قال للذى فى شماله — هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا ..." وذكر الحديث، وقال فيه : حديث حسن . وقالت فرقة : ليس المراد بقوله تعالى : «فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» ولا قوله عليه السلام : "كل مولود يولد على الفطرة" العمومَ ، وإنما المراد بالناس المؤمنون ؛ إذ لو فُطر الجميع على الإسلام لما كفر أحد ، وقد ثبت أنه خلق أقواما للنار ؛ كما قال تعالى : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ »(١) وأخرج الذرّية من صلب آدم سوداء وبيضاء . وقال فى الغلام الذى قتله الخضر : طبع يوم طبع كافرا . وروى أبو سعيد الخُدْرى قال : صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر بنهار(٢) ؛ وفيه : وكان فيما حفِظنا أن قال : "ألا إن بنى آدم خُلقوا طبقات شتّى فمنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا، ومنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت كافرا، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت مؤمنا، ومنهم حَسَن القضاء حَسَن الطلب". ذكره حماد بن زيد بن سلمة(٣) فى مسند الطيالسى قال: حدثنا علىّ بن زيد عن أبى نضرة عن أبى سعيد . قالوا : والعموم بمعنى الخصوص كثير فى لسان العرب ؛ ألا ترى إلى قوله

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٢٤ . (٢) أى والشمس عالية . (٣) لفظ « سلمة » ساقط من جـ ، ش .

Marfat.com

عز وجل : «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ»(١) ولم تدمر السموات والأرض . وقوله : «فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ»(٢) ولم تفتح عليهم أبواب الرحمة . وقال إسحاق بن رَاهَوَيه الحنظلي : تم الكلام عند قوله : «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا» ثم قال : «فِطْرَتَ اللَّهِ» أى فطر الله الخلق فطرة إما بجنة أو نار، وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله : "كل مولود يولد على الفطرة" ولهذا قال : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ قال شيخنا أبو العباس : من قال هى سابقة السعادة والشقاوة فهذا إنما يليق بالفطرة المذكورة فى القرآن؛ لأن الله تعالى قال : «لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» وأما فى الحديث فلا ؛ لأنه قد أخبر فى بقية الحديث بأنها تبدّل وتغيّر . وقالت طائفة من أهل الفقه والنظر : الفطرة هى الخِلقة التى خلق عليها المولود فى المعرفة بربه ؛ فكأنه قال : كل مولود يولد على خِلْقة يعرف بها ربّه إذا بلغ مبلغ المعرفة ؛ يريد خِلقة مخالفة لخلقة البهائم التى لا تصل بخلقتها إلى معرفتــه . واحتجوا على أن الفطرة الخِلقة ، والفاطر الخالق؛ لقول الله عز وجل : «الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»(٣) يعنى خالقهن ، وبقوله : «وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي»(٤) يعنى خلقنى ، وبقوله : «الَّذِي فَطَرَهُنَّ»(٥) يعنى خلقهن . قالوا : فالفطرة الخِلقة ، والفاطر الخالق ؛ وأنكروا أن يكون المولود يُفْطَر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار . قالوا : وإنما المولود على السلامة فى الأغلب خِلْقةً وطبعاً وبِنية ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة ؛ ثم يعتقدون الكفر والإيمان بعد البلوغ إذا ميّزوا . واحتجوا بقوله فى الحديث : "كما تُنتَج البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ — يعنى سالمة — هل تُحِسّون فيها من جَدْعاء" يعنى مقطوعة الأذن . فمثّل قلوبَ بنى آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة الخَلْق ليس فيها نقصان ، ثم تقطع آذانها بعدُ وأنوفها ؛ فيقال : هذه بحائر وهذه سوائب(٦) . يقول : فكذلك قلوب الأطفال فى حين ولادتهم ليس لهم كفر ولا إيمان، ولا معرفة ولا إنكار كالبهائم السائمة، فلما بلغوا استهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم ، وعصم الله أقلّهم . قالوا : ولو كان الأطفال قد فطِروا على شيء من الكفر والإيمان فى أوّليّة أمورهم ما انتقلوا عنه أبدا ، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون . قالوا :

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٠٥ .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٤٢٥ .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٣١٨ فما بعد .
(٤) راجع جـ ١٥ ص ١٧ .
(٥) راجع جـ ١١ ص ٢٩٦ .
(٦) راجع جـ ٦ ص ٣٣٥ .

Marfat.com

ويستحيل فى المعقول أن يكون الطفل فى حين ولادته يعقل كفرا أو إيمانا ، لأن الله أخرجهم فى حال لا يفقهون معها شيئا ، قال الله تعالى : « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا »[١] فمن لا يعلم شيئا استحال منه كفر أو إيمان ، أو معرفة أو إنكار . قال أبو عمر بن عبد البر : هذا أصح ما قيل فى معنى الفطرة التى يولد الناس عليها . ومن الحجة أيضا فى هذا قوله تعالى : « إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »[٢] و « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ »[٣] ومن لم يبلغ وقت العمل لم يرتهن بشىء . وقال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »[٤] ولما أجمعوا على دفع القَوَد والقصاص والحدود والآثام عنهم فى دار الدنيا كانت الآخرة أولى بذلك . والله أعلم . ويستحيل أن تكون الفطرة المذكورةُ الإسلامَ ، كما قال ابن شهاب ؛ لأن الإسلام والإيمان : قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ، وهذا معدوم من الطفل ، لا يجهل ذلك ذو عقل . وأما قول الأوزاعى : سألت الزهرىّ عن رجل عليه رَقَبة أيجزى عنه الصبىّ أن يعتقه وهو رضيع ؟ قال نعم ؛ لأنه وُلد على الفطرة يعنى الإسلام ؛ فإنما أجزَى عتقه عند من أجازه ؛ لأن حكمه حكمُ أبويه . وخالفهم آخرون فقالوا : لا يجزى فى الرقاب الواجبة إلا من صام وصلّى ، وليس فى قوله تعالى : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »[٥] ولا فى " أن يختم الله للعبد بما قضاه له وقدّره عليه " — دليل على أن الطفل يولد حين يولد مؤمنا أو كافرا ، لما شهدت له العقول أنه فى ذلك الوقت ليس ممن يعقل إيمانا ولا كفرا ، والحديث الذى جاء فيه : "أن الناس خلقوا على طبقات" ليس من الأحاديث التى لا مطعن فيها ؛ لأنه انفرد به علىّ بن زيد بن جُدعان ، وقد كان شعبة[٦] يتكلّم فيه . على أنه يحتمل قوله : " يولد مؤمنا " أى يولد ليكون مؤمنا ، ويولد ليكون كافرا على سابق علم الله فيه ، وليس فى قوله فى الحديث " خلقت هؤلاء للجنة وخلقت هؤلاء للنار " أكثر من مراعاة ما يختم به لهم ؛ لا أنهم فى حين طفولتهم ممن يستحق جنة أو نارا ، أو يعقل كفرا أو إيمانا .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥١ .
(٢) راجع جـ ١٧ ص ٦٢ فما بعد .
(٣) راجع جـ ١٩ ص ٨٢ فما بعد .
(٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٣١ فما بعد .
(٥) راجع جـ ٧ ص ١٨٧ فما بعد .
(٦) لفظة « شعبة » ساقطة من ج .

Marfat.com

قلت : وإلى ما اختاره أبو عمر واحتج له ، ذهب غير واحد من المحققين منهم ابن عطية فى تفسيره فى معنى الفطرة ، وشيخنا أبو العباس . قال ابن عطية : والذى يعتمد عليه فى تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التى فى نفس الطفل التى هى معدّة ومهيّأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربّه ويعرف شرائعه ويؤمن به ؛ فكأنه تعالى قال : أقم وجهك للدّين الذى هو الحنيف ، وهو فطرة الله الذى على الإعداد له فطر البشر ، لكن تعرضهم العوارض ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه" فذكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التى هى كثيرة . وقال شيخنا فى عبارته : إن الله تعالى خلق قلوب بنى آدم مؤهلة لقبول الحق ، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودينَ الإسلام وهو الدّين الحق . وقد دلّ على صحة هذا المعنى قوله : "كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء هل تحسّون فيها من جَدْعاء" يعنى أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلقة سليما من الآفات ، فلو تُرك على أصل تلك الخلقة لبقى كاملا بريئا من العيوب ، لكن يُتصرّف فيه[(1)] فيُجدع أذنه ويُوسم وجهه فتطرأ عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل ؛ وكذلك الإنسان ، وهو تشبيه واقع ووجهه واضح .

قلت : وهذا القول مع القول الأوّل موافق له فى المعنى ، وأن ذلك بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا ، وتأكدت حجة الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة : من خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر ، والبر والبحر ، واختلاف الليل والنهار ؛ فلما عملت أهواؤهم فيهم أتتهم الشياطين فدعتهم إلى اليهودية والنصرانية فذهبت بأهوائهم يمينا وشمالا ، وأنهم إن ماتوا صغارا فهم فى الجنة ، أعنى جميع الأطفال ، لأن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه فى صورة الذّر أقرّوا له بالربوبية وهو قوله تعالى : «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ[(2)] وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا[(3)]» . ثم أعادهم فى صلب آدم بعد أن أقروا له بالرّبوبية ، وأنه الله لا إله غيره ، ثم يُكتب العبد فى بطن أمّه شقيّا أو سعيدا على

(1) لفظة « فيه » ساقطة من ح .
(2) قراءة نافع ، وبها كان يقرأ المؤلف .
(3) راجع ح ٧ ص ٣١٤ فما بعد .

Marfat.com

الكتاب الأول ، فمن كان فى الكتاب الأول شقيًّا عُمِّــر حتى يجرى عليه القلم فينقض الميثاق الذى أخذ عليه فى صلب آدم بالشرك ، ومن كان فى الكتاب الأول سعيدا عُمِّر حتى يجرى عليه القلم فيصير سعيدا ، ومن مات صغيرا من أولاد المسلمين قبــل أن يجرى عليه القلم فهم مع آبائهم فى الجنة ، ومن كان من أولاد المشركين فمات قبل أن يجرى عليه القلم فليس يكونون مع آبائهم ؛ لأنهم ماتوا على الميثاق الأول الذى أخذ عليهم فى صلب آدم ولم ينقض الميثاق . ذهب إلى هـذا جماعة من أهل التأويل ، وهو يجمع بين الأحاديث ، ويكون معنى قوله عليه السلام لمـا سئل عن أولاد المشركين فقال : " الله أعلم بمـا كانوا عاملين " يعنى لو بلغوا . ودلّ على هذا التأويل أيضا حديث البخارىّ عن سَمُرة بن جُنْدُب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ الحـديثُ الطويل حديثُ الرؤيا ، وفيــه قوله عليه السلام : " وأما الرجل الطــويل الذى فى الروضة فإبراهيم عليــه السلام ، وأما الوِلدان حوله فكل مولود يولد على الفطــرة " . قال فقيل : يارسول الله ، وأولاد المشركين ؟ فقال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " وأولاد المشركين " . وهذا نصّ يرفع الخلاف ، وهو أصح شىء رُوى فى هذا الباب ، وغيره من الأحاديث فيها علل وليست من أحاديث الأئمة الفقهاء ؛ قاله أبو عمر بن عبد البر . وقد روى من حديث أنس قال : سئل رســول الله صلى الله عليــه وسلم عن أولاد المشركين فقال : " لم تكن لهم حسنات فيجزَوْا بهـا فيكونوا من ملوك الجنة ، ولم تكن لهم سيئات فيعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار ، فهم خدم لأهل الجنة " ذكره يحيى بن سلام فى التفسير له . وقد زدنا هذه المسألة بيـانا فى كتاب التذكرة ، وذكرنا فى كتاب المقتبس فى شرح مــوطأ مالك بن أنس ماذكره أبو عمر من ذلك ، والحمد لله . وذكر إسحاق بن راهْوَيه قال : حدّثنا يحيى بن آدم قال : أخبرنا جرير بن حازم عن أبى رجاء العُطارِدىّ قال : سمعت ابن عباس يقول : لا يزال أمر هذه الأمة مواتيا أو متقاربا ـــ أو كلمة تشبه هاتين ـــ حتى يتكلموا أو ينظروا فى الأطفال والقَدَر . قال يحيى بن آدم : فذكرته لابن المبارك فقال : أيسكت الإنسان على الجهل ؟ قلت : فتأمر بالكلام ؟ قال فسكت . وقال أبو بكر الوراق : « فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » هى الفقر والفاقة ؛ وهذا حسن ؛ فإنه منذ ولد إلى حين يموت فقير محتاج ، نعم ! وفى الآخرة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ أى هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق . ولا يجيء الأمر على خلاف هـذا بوجه ؛ أى لا يشقى من خلقه سعيدا ، ولا يسعد من خلقه شقيًّا . وقال مجاهد : المعنى لا تبديل لدين الله ؛ وقاله قتادة وابن جُبير والضحاك وابن زيد والنَّخَعِيّ ، قالوا : هـذا معناه فى المعتقدات . وقال عكرمة : وروى عن ابن عباس وعمـر ابن الخطاب أن المعنى : لا تغيير لخلق الله من البهائم أن تخصى فحولها ؛ فيكون معناه النهى عن خِصاء الفحول من الحيوان . وقد مضى هـذا فى « النساء »(١) . ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى ذلك القضاء المستقيم ؛ قاله ابن عباس . وقال مقاتل : ذلك الحساب البيّن . وقيل : « ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى دين الإسلام هو الدين القيم المستقيم . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقا معبودا ، وإلهًا قديما سبق قضاؤه ونَفَذ حكمه .

قوله تعالى : مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ آختلف فى معناه ؛ فقيل : راجعين إليه بالتوبة والإخلاص . وقال يحيى بن سلام والفرّاء : مقبلين إليه . وقال عبدالرحمن بن زيد : مطيعين له . وقيل : تائبين إليه من الذنوب(٢) ؛ ومنه قول [أبى] قيس بن الأَسْلَت :

فإن تابـوا فإن بنى سـليم * وقومهم هوازن قـد أنابوا

والمعنى واحد ؛ فإن « ناب وتاب وثاب وآب » معناه الرجوع . قال الماوردِيّ : وفى أصل الإنابة قولان : أحدهما ــ أن أصله القطع ؛ ومنه أخذ آسم الناب لأنه قاطع ؛ فكأن الإنابة هى الانقطاع إلى الله عزّ وجلّ بالطاعة . الثانى ــ أصله الرجوع ؛ مأخوذ(٣) من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد أخرى ؛ ومنه النَّوْبة لأنها الرجوع إلى عادة . الجوهرى :

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٨٩ فما بعد .
(٢) لفظة « من الذنوب » ساقطة من جـ
(٣) لفظة « مأخوذ » ساقطة من جـ

Marfat.com

وأناب إلى الله أقبل وتاب . والنَّوْبة واحدة النُّوَب ، تقول : جاءت نَوْبتك ونيابتك ، وهم يتناوبون النَّوْبة فيما بينهم فى الماء وغيره . وانتصب على الحال ، قال محمد بن يزيد : لأن معنى : «أَقِمْ وَجْهَكَ» فأقيموا وجوهكم منيبين . وقال الفرّاء : المعنى فأقم وجهك ومن معك منيبين . وقيل : انتصب على القطع ؛ أى فأقم وجهك أنت وأمتك المنيبين إليه ؛ لأن الأمر له ، أمرٌ لأمته ؛ فحسن أن يقول مُنيبين إليه ، وقد قال الله تعالى : «يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ»[1] . ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى خافوه وامتثلوا ما أمركم به . ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [بيّن أن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص ؛ فلذلك قال : «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ»][2] وقد مضى هذا مبينا «فى النساء والكهف»[3] وغيرهما . ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ تأوله أبو هريرة وعائشة وأبو أمامة : أنه لأهل القبلة من أهل الأهواء والبِدع . وقد مضى « فى الأنعام »[4] بيانه . وقال الربيع بن أنس : الذين فرّقوا دينهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ؛ وقاله قتادة ومَعْمَر . وقرأ حمزة والكسائى : «فَارَقُوا دِينَهم» ، وقد قرأ بذلك علىّ ابن أبى طالب ؛ أى فارقوا دينهم الذى يجب اتباعه ، وهو التوحيد . ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ أى فِرقا ؛ قاله الكَلْبىّ . وقيل أديانا ؛ قاله مقاتل . ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أى مسرورون معجبون ، لأنهم لم يتبيّنوا الحق وعليهم أن يتبيّنوه . وقيل : كان هذا قبل أن تنزل الفرائض . وقول ثالث : أن العاصى لله عز وجل قد يكون فرحا بمعصيته ، فكذلك الشيطان وقُطّاع الطريق وغيرهم ، والله أعلم . وزعم الفرّاء أنه يجوز أن يكون التمام « وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ويكون المعنى : من الذين فارقوا دينهم « وَكَانُوا شِيَعًا » . على الاستئناف ، وأنه يجوز أن يكون متصلا بما قبله . [النحاس : وإذا كان متصلا بما قبله][2] فهو عند البصريين على البدل بإعادة الحرف ؛ كما قال جل وعز : « قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ » ولو كان بلا حرف لجاز .

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٤٧ . (٢) ما بين المربعين ساقط من جـ
(٣) راجع جـ ٥ ص ١٨٠ وجـ ١١ ص ٦٩ . (٤) راجع جـ ٧ ص ١٤٩ وص ٢٤٠ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ ﴾ أى قحط وشدّة ﴿ دَعَوْا رَبَّهُمْ ﴾ أن يرفع ذلك عنهم ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ قال ابن عباس : مقبلين عليه بكل قلوبهم لا يشركون . ومعنى هذا الكلام التعجب، عجّب نبيّه من المشركين فى ترك الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحجج عليهم؛ أى إذا مسّ هؤلاء الكفارَ ضرٌّ من مرض وشدّة دعوْا ربّهم؛ أى استغاثوا به فى كشف ما نزل بهم، مقبلين عليه وحده دون الأصنام، لعلمهم بأنه لا فرج عندها . ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ أى عافية ونعمة . ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أى يشركون به فى العبادة .

قوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قيل : هى لام كى . وقيل : هى لام أمر فيه معنى التهديد؛ كما قال جل وعز : « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ »(١) . ﴿ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد ووعيد . وفى مصحف عبد الله « وَلِيَتَمَتَّعوا » ؛ أى مكّناهم من ذلك لكى يتمتعوا، فهو إخبار عن غائب ؛ مثل : « لِيَكْفُرُوا » . وهو على خط المصحف خطاب بعد الإخبار عن غائب ؛ أى تمتعوا أيها الفاعلون لهذا .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ استفهام فيه معنى التوقيف . قال الضحاك : « سُلْطَانًا » أى كتابا ؛ وقاله قتادة والربيع بن أنس . وأضاف الكلام إلى الكتاب توسعًا . وزعم الفراء أن العرب تؤنّث السلطان ؛ تقول : قضَتْ به عليك السلطان . فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح ، وبه جاء القرآن ، والتأنيث عندهم جائز لأنه بمعنى الحجة ؛ أى حجة

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٢ فما بعد .

Marfat.com

تنطق بشرككم ؛ قاله ابن عباس والضحاك أيضا . وقال علىّ بن سليمان عن أبى العباس محمد ابن يزيد قال : سُلطان جمع سليط ؛ مثل رغيف ورغفان ، فتذكيره على معنى الجمع وتأنيثه على معنى الجماعة . وقد مضى فى «آل عمران» الكلام فى السلطان أيضا مستوفى (١). والسلطان: ما يدفع به الإنسان عن نفسه أمرا يستوجب به عقوبة ؛ كما قال تعالى : « أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢) » .

قوله تعالى : وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾ يعنى الخِصْب والسّعة والعافية ؛ قاله يحيى بن سلام . النّقاش : النعمة والمطر . وقيل : الأمن والدّعة ؛ والمعنى متقارب . ﴿ فَرِحُوا بِهَا ﴾ أى بالرحمة . ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أى بلاء وعقوبة ؛ قاله مجاهد . السُّدّى : قحط المطر . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى بما عملوا من المعاصى . ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ أى ييأسون من الرحمة والفرج (٣) ؛ قاله الجمهور . وقال الحسن : إن القنوط ترك فرائض الله سبحانه وتعالى فى السرّ . قَنِط يَقْنَط ،وهى قراءة العامة . وقَنَط يقنِط ،وهى قراءة أبى عمرو والكسائى و يعقوب . وقرأ الأعمش : «قَنِط يَقْنِط (٤)» بالكسر فيهما؛ مثل حَسِب يَحْسِب .

والآية صفة للكافر ، يقنط عند الشدّة ، ويبطَر عند النعمة ؛ كما قيل :

كحمار السَّوء إن أعلفته * رَمَحَ الناس وإن جاع نَهق

وكثير ممن لم يرسخ الإيمان فى قلبه بهذه المثابة ؛ وقد مضى فى غير موضع . فأما المؤمن فيشكر ربّه عند النعمة ، ويرجوه عند الشدّة .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧)

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٣ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٧٦ فما بعد .
(٣) فى ك ، ش : « الفرج » بالحاء . (٤) راجع جـ ١٠ ص ٣٥ .

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى يوسع الخير فى الدنيا لمن يشاء أو يضيق ؛ فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط . ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

قوله تعالى : فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨)

قوله تعالى : ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ لمـا تقدّم أنه سبحانه يبسط الرزق [لمن يشاء] (١) ويقدِر أمر مَن وسع عليه الرزق أن يوصل إلى الفقير كفايته ليمتحن شكر الغنيّ . والخطاب للنبيّ عليه السلام والمراد هو وأمته ؛ لأنه قال : « ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ » . وأمر بإيتاء ذى القربى لقُرب رَحِمه ؛ وخيرُ الصدقة ما كان على القريب ، وفيها صلة الرّحِم . وقد فضّل رسول الله صلى الله عليـه وسلم الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب ، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدةً : "أما إنّك لو أعطيْتِها أخوالَك كان أعظمَ لأجرك" .

الثانيــة ــ واختلف فى هذه الآية ؛ فقيل : إنها منسوخة بآية المواريث . وقيل : لا نسخ ، بل للقريب حق لازم فى البِرّ على كل حال ؛ وهو الصحيح . قال مجاهد وقتادة : صِـلة الرّحِم فرض من الله عز وجل ، حتى قال مجاهـد : لا تقبل صدقة من أحد ورَحِمُـه محتاجة . وقيل : المراد بالقربى أقرباء النبيّ صلى الله عليه وسلم . والأول أصح ؛ فإن حقهم مبيّن فى كتاب الله عز وجل فى قوله : « فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ » (٢) . وقيل : إن الأمر بالإيتاء لذى القربى على جهة الندب . قال الحسن : « حقَّه » المواساة فى اليسر ، وقول ميسور فى العسر . ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ قال ابن عباس : أى أطعم السائل الطوّاف ؛ وابن السبيل : الضيف ؛ فجعل الضيافة فرضا ، وقد مضى جميع هذا مبسوطا مبيّنًا (٣) فى مواضعه والحمد لله .

---

(١) مابين المربعين ساقط من ك . (٢) راجع جـ ٨ ص ١ .
(٣) راجع جـ ٢ ص ١٥ و ٢٤١ ، و جـ ٨ ص ١١ و جـ ٩ ص ٦٤ .

Marfat.com

الثالثة — ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أى إعطاء الحق أفضل من الإمساك إذا أريد بذلك وجهُ الله والتقرّبُ إليه . ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى الفائزون بمطلوبهم من الثواب فى الآخرة . وقد تقدّم فى « البقرة »(١) القول فيه .

قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (٣٩)

قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — لمّا ذكر ما يراد به وجهه ويثيب عليه ذكر غير ذلك من الصفة وما يراد به أيضا وجهه . وقرأ الجمهور: « آتَيْتُمْ » بالمد بمعنى أعطيتم . وقرأ ابن كثير ومجاهد وحُميد بغير مدّ؛ بمعنى ما فعلتم من رِبًا لِيَرْبُوَ ؛ كما تقول : أتيت صوابا وأتيت خطأ . وأجمعوا على المدّ فى قوله : «وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ» . والربا الزيادة وقد مضى فى « البقرة »(٢) معناه، وهو هناك محرّم وهاهنا حلال . وثبت بهذا أنه قسمان : منه حلال ومنه حرام . قال عكرمة فى قوله تعالى : «وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ » قال : الرِّبا رِبَوان ، ربا حلال وربا حرام ؛ فأما الرّبا الحلال فهو الذى يُهْدَى ، يُلتمس ماهو أفضل منه . وعن الضحاك فى هذه الآية : هو الرّبا الحلال الذى يُهدى ليُثاب ماهو أفضل منه ، لا له ولا عليه ، ليس له فيه أجر(٣) وليس عليه فيه إثم . وكذلك قال ابن عباس : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا » يريد هدية الرجل الشئ يرجو أن يثاب أفضل منه ؛ فذلك الذى لا يربو عند الله ولا يؤجر صاحبه ولكن لا إثم عليه، وفى هذا المعنى نزلت الآية . قال ابن عباس وابن جُبير وطاوس ومجاهد : هذه آية نزلت فى هبة الثواب . قال ابن عطية : وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسلام وغيره؛ فهو و إن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى . وقاله القاضى أبو بكر بن العربى . وفى كتاب النّسائى

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٨١ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٤٨ فما بعد . (٣) فى جـ : « وليس فيه أجر » .

Marfat.com

عن عبد الرحمن بن علقمة قال: قدم وفد ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم هديّة [فقال : "أهدية أم صـدقة] (١) فإن كانت هدية فإنما يُبْتَغى بها وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقضاء الحاجة، و إن كانت صدقة فإنما يُبْتَغى بها وجه الله عز وجل" قالوا: لا بل هدية؛ فقبلها منهم وقعد معهم يسائلهم و يسألونه. وقال ابن عباس أيضا و إبراهيم النَّخعي: نزلت في قوم يُعطون قراباتهـم و إخوانهم على معنى نفعهم وتمويلهم والتفضّل عليهم، وليزيدوا في أموالهم على وجه النفع لهم. وقال الشّعبي: معنى الآية أن ما خدم الإنسان به أحدا وخف له لينتفع به في دنياه فإن ذلك النفع الذي يَجزِي به الخدمة لا يربو عند الله. وقيل: كان هذا حراما على النبيّ صـلى الله عليه وسلم على الخصوص؛ قال الله تعالى: «وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ» (٢) فنهى أن يعطى شيئا فيأخذ أكثر منه عِوضا. وقيل: إنه الربا المحرّم؛ فمعنى: «لَا يَرْبُو عِنْدَ اللّهِ» على هذا القول لا يحكم به لآخذه بل هو للمأخوذ منه. قال السدّي: نزلت هذه الآية في ربا ثَقيف؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش.

الثانيـــة — قال القاضي أبو بكر بن العربي: صريح الآية فيمن يَهب يطلب (٣) الزيادة من أموال الناس في المكافأة. قال المُهَلَّب: اختلف العلماء فيمن وَهَب هبة يطلب ثوابها وقال: إنما أردت الثواب؛ فقال مالك: ينظر فيه؛ فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله ذلك؛ مثل هبة الفقير للغنيّ، وهبـة الخادم لصاحبه، وهبة الرجل لأميره ومَن فوقه؛ وهو أحد قولي الشافعي. وقال أبو حنيفـة: لا يكون له ثواب إذا لم يشـترط؛ وهو قول الشافعي الآخر. قال: والهبة للثواب باطلة لا تنفعه؛ لأنها بيع بثمن مجهول. واحتج الكوفي بأن موضوع الهبـة التبرع، فلو أوجبنا فيها العِوض لبطل معنى التبرع وصارت في معنى المعاوضات، والعرب قد فرّقت بين لفظ البيع ولفظ الهبة، فجعلت لفظ البيع على ما يستحق فيه العوض، والهبـة بخلاف ذلك. ودليلنا ما رواه مالك في موطئـه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أيّمـا رجل وهب هبـة يرى أنها للثواب فهو على هبته حتى يرضى

(١) ما بين المربعين ساقط من ش. (٢) راجع جـ ١٩ ص ٦٦. (٣) لفظة يطلب ساقطة من جـ و ش.

Marfat.com

منها . ونحوه عن عليّ رضى الله عنه قال: المواهب ثلاثة: مَوْهبة يراد بها وجه الله ، وموهبة يراد بها وجوه الناس، وموهبة يراد بها الثواب ؛ فموهبة الثواب يرجع فيها صاحبها إذا لم يُثب منها . وترجم البخاريّ رحمه الله (باب المكافأة فى الهبة) وساق حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويُثيب عليها ، وأثاب على لِقْحة[(١)] ولم ينكر على صاحبها حين طلب الثواب ، وإنما أنكر سخطه للثواب وكان زائدا على القيمة . خرجه الترمذى .

الثالثة — ما ذكره عليّ رضى الله عنه وفصّله من الهبة صحيح ؛ وذلك أن الواهب لا يخلو فى هبته من ثلاثة أحوال: أحدها — أن يريد بها وجه الله تعالى ويبتغى عليها الثواب منه . والثانى — أن يريد بها وجوه الناس رياء ليحمدوه عليها ويُثْنُوا عليه من أجلها . والثالث — أن يريد بها الثواب من الموهوب له ؛ وقد مضى الكلام فيه . وقال صلى الله عليه وسلم : " الأعمال بالنيات وإنما لكل آمرئ ما نوى " . فأما إذا أراد بهبته وجه الله تعالى وآبتغى عليه الثواب من عنده فله ذلك عند الله بفضله ورحمته؛قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ .

وكذلك من يصل قرابته ليكون غنيًّا حتى لا يكون كَلًّا فالنية فى ذلك متبوعة ؛ فإن كان ليتظاهر بذلك دنيا فليس لوجه الله ، وإن كان لما له عليه من حق القرابة وبينهما من وشيجة الرحم فإنه لوجه الله .

وأما من أراد بهبته وجوه الناس رياء ليحمدوه عليها ويثنوا عليه من أجلها فلا منفعة له فى هبته؛ لا ثواب فى الدنيا ولا أجر فى الآخرة ؛ قال الله عز وجل : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ »[(٢)] الآية .

وأما من أراد بهبته الثواب من الموهوب له فله ما أراد بهبته، وله أن يرجع فيها مالم يثب بقيمتها، على مذهب ابن القاسم، أو ما لم يرض منها بأزيد من قيمتها، على ظاهر قول عمر

(١) اللقحة (بكسر اللام وفتحها) : الناقة الحلوب . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣١١ .

Marfat.com

وعليّ، وهو قول مُطَرِّف في الواضحة: أن الهبة ما كانت قائمة العين، وإن زادت أو نقصت فللواهب الرجوع فيها وإن أثابه الموهوب فيها أكثر منها . وقد قيل : إنها إذا كانت قائمة العين لم تتغير فإنه يأخذ ما شاء . وقيل : تلزمه القيمة كنكاح التفويض، وأما إذا كان بعد فوت الهبة فليس له إلا القيمة اتفاقا؛ قاله ابن العربي .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ لِيَرْبُوَ ﴾ قرأ جمهور القرّاء السبعة : « ليربو » بالياء وإسناد الفعل إلى الربا . وقرأ نافع وحده : بضم التاء [والواو] ساكنة على المخاطبة؛ بمعنى تكونوا ذوى زيادات، وهذه قراءة ابن عباس والحسن وقتادة والشعبي . قال أبو حاتم : هى قراءتنـا . وقرأ أبو مالك: « لتربوها » بضمير مؤنث . ﴿ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى لا يزكو ولا يثيب عليه؛ لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه وكان خالصا له؛ وقد تقدّم فى « النساء »(١) . ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ ﴾ قال ابن عباس : أى من صدقة . ﴿ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ أى ذلك الذى يقبله ويضاعفه له عشرة أضعافه أو أكثر؛ كما قال : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً »(٢) . وقال : « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ »(٢) . وقال : « فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ » ولم يقل فأنتم المضعفون لأنه رجع من المخاطبة إلى الغيبة؛ مثل قوله : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ »(٣) . وفى معنى المُضْعِفين قولان : أحدهمـا — أنه تضاعف لهم الحسنات كما ذكرنا . والآخر — أنهم قد أضعف لهم الخير والنعيم؛ أى هم أصحاب أضعاف، كما يقال : فلان مُقْوٍ إذا كانت إبله قوية، أوله أصحاب أقوياء . ومُسْمِن إذا كانت إبله سمانا . ومُعْطِش إذا كانت إبله عِطاشا . ومضعِف إذا كانت إبله ضعيفة؛ ومنه قول النبيّ صـلى الله عليه وسلم : " اللهم إنى أعوذ بك من الخبيث المخبِث الشيطان الرجيم " . فالمخبث : الذى أصابه خبث، يقال : فلان ردىء أى هو ردىء فى نفسه . ومردِئ : أصحابه أردئاء .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٤١٠ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٣٧ و ص ٣١٤ .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ .

Marfat.com

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ ابتداء وخبر . وعاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين وأنه الخالق الرازق المميت المحيي . ثم قال على جهة الاستفهام : ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ لا يفعل . ثم نزّه نفسه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والأولاد بقوله الحق : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وأضاف الشركاء إليهم لأنهم كانوا يسمونهم بالآلهة والشركاء ، ويجعلون لهم من أموالهم .

قوله تعالى : ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ اختلف العلماء فى معنى الفساد والبر والبحر؛ فقال قتادة والسدّى : الفساد الشرك، وهو أعظم الفساد . وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد : فساد البَرّ قتلُ ابن آدم أخاه؛ قابيلُ قتل هابيل . وفى البحر بالمَلِك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا . وقيل : الفساد القحط وقلّة النبات وذهاب البركة . ونحوه قال ابن عباس قال : هو نقصان البركة بأعمال العباد كى يتوبوا . قال النحاس : وهو أحسن ماقيل فى الآية . وعنه أيضا : أن الفساد فى البحر انقطاع صيده بذنوب بنى آدم . وقال عطية : فإذا قلّ المطرقل الغَوْص عنده ، وأخفق الصيادون، وعميت دواب البحر . وقال ابن عباس : إذا مطرت السماء تفتحت الأصداف فى البحر، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ . وقيل : الفساد كساد الأسعار وقلّة المعاش . وقيل : الفساد المعاصى وقطعُ السبيل والظلم؛ أى صار هذا العمل مانعا من الزرع والعمارات والتجارات؛ والمعنى كله متقارب . والبر والبحر هما المعروفان المشهوران فى اللغة وعند الناس؛ لا ما قاله بعض العُبّاد[1] : أن البر اللسانُ، والبحر القلب؛ لظهور

(١) فى جـ، ك : « فى الفقه » .

Marfat.com

ما على اللسان وخفاء ما فى القلب . وقيل : الـبَر : الفيافى، والبحر : القرى ؛ قاله عكرمة . والعـرب تسمى الأمصار البحار . وقال قتادة : الـبَرّ أهل العمود ، والبحر أهل القـرى والريف . وقال ابن عباس : إن البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر ما كان على شط نهر ؛ وقاله مجاهد، قال : أما والله ما هو بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء جار فهى بحر . وقال معناه النحاس، قال : فى معناه قولان : أحدهما ــ ظهر الجـدب فى البر ؛ أى فى البوادى وقراها، وفى البحر أى فى مدن البحر؛ مثل : « وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ »(١) . أى ظهر قلة الغيث وغلاء السعر . ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ﴾ أى عقاب بعض ﴿ ٱلَّذِى عَمِلُوا ﴾ ثم حذف . والقول الآخر ــ أنه ظهرت المعاصى من قطع السبيل والظلم ، فهـذا هو الفساد على الحقيقة، والأول مجاز إلا أنه على الجواب الثانى، فيكون فى الكلام حذف واختصار دلّ عليه ما بعده، و يكون المعنى : ظهرت المعاصى فى البر والبحر فحبس الله عنهما الغيث وأغلى سعرهم ليـذيقهم عقاب بعض الذى عمـلوا . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعلهم يتوبون . وقال : « بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا » لأن معظم الجزاء فى الآخرة . والقراءة « لِيُذِيقَهُمْ » بالياء . وقرأ ابن عباس بالنون ، وهى قراءة السُّلَمِى وابن مُحَيْصِن وقُنْبُل و يعقوب على التعظيم؛ أى نذيقهم عقوبة بعض ما عملوا .

قوله تعـالى : قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُـلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أى قل لهم يا محمد سيروا فى الأرض ليعتبروا بمن قبلهم، و ينظروا كيف كان عاقبـة من كذب الرسـل ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ أى كافرين فاهلكوا .

قوله تعـالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ قال الزجاج : أى أقم قصدك، واجعل جهتك اتباع الدّين القيم؛ يعنى الإسلام. وقيل : المعنى أوضح الحق وبالغ فى الإعذار، واشتغل بما أنت فيه ولا تحزن عليهم. ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى لا يردّه الله عنهم، فإذا لم يردّه لم يتهيأ لأحد دفعه. ويجوز عند غير سيبويه « لَا مَرَدًّ لَهُ » وذلك عند سيبويه بعيد، إلا أن يكون فى الكلام عطف. والمراد يوم القيامة. ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ قال ابن عباس : معناه يتفرقون. وقال الشاعر :

وكنّا كَنَدْمَانَىْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً * من الدهرِ حتى قِيلَ لن يَتَصدَّعا (١)

أى لن يتفرقا؛ نظيره قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ » « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ». والأصل يتصدّعون؛ ويقال : تصدّع القوم إذا تفرقوا؛ ومنه اشتق الصداع، لأنه يفرق شُعب الرأس.

قوله تعالى : مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أى جزاء كفره. ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أى يوطّئون لأنفسهم فى الآخرة فراشا ومسكنا وقرارا بالعمل الصالح؛ ومنه : مهدُ الصبيّ. والمهاد الفراشُ، وقد مهدت الفراش مَهْدًا : بسطته ووطّأته. وتمهيد الأمور : تسويتها وإصلاحها. وتمهيد العذر : بسطُه وقبوله. والتمهّد : التمكن. وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد « فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » قال : فى القبر.

ج

قوله تعالى : لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

(١) البيت لمتمم بن نويرة اليربوعى من قصيدة يرثى بها أخاه مالكا مطلعها :

لعمرى وما دهرى بتأبين هالك * ولا جزع مما أصاب فأوجعا

وقوله : « كندمانى جذيمة » يعنى جذيمة الأبرش وكان ملكا. ونديماه : يقال لهما مالك وعقيل. ويضرب بهما المثل لطول ما نادماه، فقد نادماه أربعين سنة ما أعادا عليه حديثا.

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي يمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله . وقيل يصدّعون ليجزيهم الله ؛ أي ليميّز الكافر من المسلم . ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ أي ومن أعلام كمال قدرته إرسال الرياح مبشّرات أي بالمطر لأنها تتقدّمه . وقد مضى في «الحجر» بيانه[(1)] . ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ يعني الغيث والخصب . ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ ﴾ أي في البحر عند هبوبها . وإنما زاد « بِأَمْرِهِ » لأن الرياح قد تهُبّ ولا تكون مواتية ، فلا بدّ من إرساء السفن والاحتيال بحبسها ، وربما عصفت فأغرقتها بأمره . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يعني الرزق بالتجارة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هذه النعم بالتوحيد والطاعة[(2)] . وقد مضى هذا كلّه مبينا .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي المعجزات والحجج النيّرات ﴿ فَانْتَقَمْنَا ﴾ أي فكفروا فانتقمنا ممن كفر . ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ « حقًّا » نصب على خبر كان ، «ونصر» اسمها . وكان أبو بكر يقف على « حَقًّا » أي وكان عقابنا حقا ، ثم قال : « عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » ابتداء وخبر ؛ أي أخبر بأنه لا يخلف الميعاد[(3)] ، ولا خُلف في خبرنا . وروى من حديث أبي الدّرداء قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "ما من مسلم يَذُبّ عن عرض أخيه إلا كان حقًّا على الله تعالى أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة — ثم تلا — وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين " . ذكره النحاس والثعلبيّ والزّمخشريّ وغيرهم .

(1) راجع جـ ١٠ ص ١٥ . (2) راجع جـ ١ ص ٣٨٨ و ٣٩٧ و جـ ٢ ص ١٩٤ فما بعد .
(3) في جـ ، ش : « أي أخبرنا به ولا ... » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾ قرأ ابن محيصن وابن كثير وحمزة والكسائي : « الريح » بالتوحيد . والباقون بالجمع . قال أبو عمرو : وكل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع، وما كان بمعنى العذاب فهو موحد . وقد مضى في « البقرة »(١) معنى هذه الآية وفي غيرها . « كِسَفًا » جمع كِسْفة وهي القطعة . وفي قراءة الحسن وأبي جعفر وعبد الرحمن الأعرج وابن عامر « كِسْفا » بإسكان السين، وهي أيضا جمع كسفة؛ كما يقال: سِدْرة وسِدْر؛ وعلى هذه القراءة يكون المضمر الذي بعده عائدا عليه؛ أي فترى الودق أي المطر يخرج من خلال الكسف؛ لأن كل جمع بينه وبين واحده الهاء [لا غير](٢) فالتذكير فيه حَسَن . ومن قرأ : « كِسَفًا » فالمضمر عنده عائد على السحاب . وفي قراءة الضحاك وأبي العالية وابن عباس : « فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَلِهِ » ويجوز أن يكون خَلَل جمع خِلال . ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ﴾ أي بالمطر . ﴿ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يفرحون بنزول المطر عليهم . ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أي يائسين مكتئبين قد ظهر الحزن عليهم لاحتباس المطر عنهم . و « مِنْ قَبْلِهِ » تكرير عند الأخفش معناه التأكيد؛ وأكثر النحويين على هذا القول؛ قاله النحاس . وقال قُطْرُب : إن « قبل » الأولى للإنزال والثانية للمطر؛ أي وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر . وقيل : المعنى من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع، ودلّ على الزرع المطر إذ بسببه يكون . ودلّ عليه أيضا « فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا » على ما يأتي . وقيل : المعنى من قبل السحاب من قبل رؤيته؛ واختار هذا القول النحاس، أي من قبل رؤية السحاب ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أي ليائسين . وقد تقدم ذكر السحاب(٣) .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٧ فما بعد . (٢) ما بين المربعين زيادة من ش وك . (٣) راجع جـ ٢ ص ٢٠٠ فما بعدها .

Marfat.com

قوله تعالى : فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ أَثَرِ رَحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ يعنى المطر ؛ أى انظروا نظر استبصار واستدلال ؛ أى استدلوا بذلك على أن من قدر عليه قادر على إحياء الموتى . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى : « آثَارِ » بالجمع . الباقون بالتوحيد ؛ لأنه مضاف إلى مفرد . والأثر فاعل « يُحْيِي » ويجوز أن يكون الفاعل اسم الله عز وجل . ومن قرأ : « آثَارِ » بالجمع فلأن رحمة الله يجوز أن يراد بها الكثرة ؛ كما قال تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » (١) . وقرأ الجحدرى وأبو حيوة وغيرهما : « كَيْفَ تُحْيِي الْأَرْضَ » بتاء ؛ ذهب بالتأنيث إلى لفظ الرحمة ؛ لأن أثر الرحمة يقوم مقامها فكأنه هو الرحمة ؛ أى كيف تحيي الرحمة الأرض أو الآثار . « ويحيي » أى يحيي الله عز وجل أو المطر أو الأثر فيمن قرأ بالياء . و ﴿ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ ﴾ فى موضع نصب على الحال على الحمل على المعنى لأن اللفظ لفظ الاستفهام والحال خبر ؛ والتقدير : فانظر إلى أثر رحمة الله محيية للأرض بعد موتها . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ استدلال بالشاهد على الغائب .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ يعنى الريح ، والريح يجوز تذكيره . قال محمد بن يزيد : لا يمتنع تذكير كل مؤنث غير حقيقى ، نحو أعجبنى الدار وشبهه . وقيل : فرأوا السحاب . وقال ابن عباس : الزرع ، وهو الأثر ؛ والمعنى : فرأوا الأثر مصفرًّا ؛ واصفرار الزرع بعد اخضراره يدلّ على يبسه ، وكذا السحاب يدلّ على أنه لا يمطر ، والريح على أنها لا تلقح ﴿ لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أى ليظلّنّ ؛ وحسن وقوع الماضى فى موضع المستقبل لما فى الكلام من معنى المجازاة ، والمجازاة لا تكون إلا بالمستقبل ؛ قاله الخليل وغيره .

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٦٧ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ أى وضحت الحجج يا محمد؛ لكنهم لإلْفهم تقليد الأسلاف فى الكفر ماتت عقولهم وعميت بصائرهم، فلا يتهيأ لك إسماعهم وهدايتهم . وهذا ردّ على القدرية . ﴿ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أى لا تُسمع مواعظَ الله إلا المؤمنين الذين يصغون إلى أدلة التوحيد وخَلَقتُ لهم الهداية . وقد مضى هذا فى « النمل » (١) ووقع قوله « بِهَادِ الْعُمْيِ » هنا بغير ياء .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ ذكر استدلالا آخر على قدرته فى نفس الإنسان ليعتبر . ومعنى : « مِنْ ضَعْفٍ » من نطفة ضعيفة . وقيل : « مِنْ ضَعْفٍ » أى فى حال ضعف؛ وهو ما كانوا عليه فى الابتداء من الطفولة والصغر . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ يعنى الشبيبة . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا ﴾ يعنى الهرم . وقرأ عاصم وحمزة : بفتح الضاد فيهن، الباقون بالضم، لغتان، والضم لغة النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقرأ الجحدريّ : «من ضَعْف ثم جعل من بعد ضَعْف » بالفتح فيهما ؛ «ضُعْفًا» بالضم خاصة . أراد أن يجمع بين اللغتين . قال الفراء : الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم . الجوهرى : الضَّعْف والضُّعْف : خلاف القوّة . وقيل : الضعف بالفتح فى الرأى، و بالضم فى الجسد؛ ومنه الحديث فى الرجل

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٢ .

Marfat.com

الذى كان يخدع فى البيوع : "أنه يبتاع وفى عُقدته ضعف"(١) . ﴿ وَشَيْبَةً ﴾ مصدر كالشَّيب ، والمصدر يصلح للجملة ، وكذلك القول فى الضعف والقوّة . ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ يعنى من قوة وضعف . ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بتدبيره . ﴿ الْقَدِيرُ ﴾ على إرادته . وأجاز النحويون الكوفيون « من ضَعَف » بفتح العين ، وكذا كل ما كان فيه حرف من حروف الحلق ثانيا أو ثالثا .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى يحلف المشركون . ﴿ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ ليس فى هذا رد لعذاب القبر ؛ إذ كان قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من غير طريق أنه تعوّذ منه ، وأمر أن يتعوّذ منه ؛ فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال : سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّ حبيبة وهى تقول : اللّهمّ أمتعنى بزوجى رسول الله ، وبأبى أبى سفيان ، وبأخى معاوية ؛ فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لقد سألت الله لآجال مضروبة وأرزاق مقسومة ولكن سليه أن يعيذك من عذاب جهنم وعذاب القبر" فى أحاديث مشهورة خرجها مسلم والبخارىّ وغيرهما . وقد ذكرنا منها جملة فى كتاب (التذكرة) . وفى معنى : « مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » قولان : أحدهما — أنه لا بدّ من خمدة قبل يوم القيامة ؛ فعلى هذا قالوا : مالبثنا غير ساعة . [(٢) والقول الآخر — أنهم يعنون فى الدنيا لزوالها وانقطاعها ، كما قال تعالى : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »(٣) كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، وإن كانوا قد أقسموا على غيب وعلى غير ما يدرون . قال الله عز وجل :](٢) ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ أى كانوا يكذبون فى الدنيا ؛ يقال : أُفِك الرجلُ إذا صُرِف عن الصّدق والخير . وأرض مأفوكة : ممنوعة من المطر . وقد زعم جماعة من أهل النظر أن القيامة لا يجوز أن يكون فيها كذب لما هم فيه ، والقرآن يدلّ على غير ذلك ، قال الله عز وجل : « كَذَٰلِكَ كَانُوا

---

(١) أى فى رأيه ونظره فى مصالح نفسه . (٢) مابين المربعين ساقط من ش (٣) راجع جـ ١٩ ص ٢٠٧ فما بعد

Marfat.com

يُؤْفَكُونَ » أي كما صُرفوا عن الحق في قَسَمهم أنهم ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يُصرفون عن الحق في الدنيا ؛ وقال جل وعز : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١) » وقال : « ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا (٢) » .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ اختلف في الذين أوتوا العلم ؛ فقيل الملائكة . وقيل الأنبياء . وقيل علماء الأمم . وقيل مؤمنو هذه الأمة . وقيل جميع المؤمنين ؛ أي يقول المؤمنون للكفار ردًّا عليهم لقد لبثتم في قبوركم إلى يوم البعث . والفاء في قوله : « فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ » جواب لشرط محذوف دلّ عليه الكلام ؛ مجازه : إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث . وحكى يعقوب عن بعض القراء وهي قراءة الحسن : « إلى يوم البعَث » بالتحريك ؛ وهذا مما فيه حرف من حروف الحلْق . وقيل : معنى « فِي كِتَابِ اللَّهِ » في حكم الله . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ؛ أي وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله والإيمانَ لقد لبثتم إلى يوم البعث ؛ قاله مقاتل وقتادة والسّدي . القشيري : وعلى هذا « أُوتُوا الْعِلْمَ » بمعنى كتاب الله . وقيل : الذين حكم لهم في الكتاب بالعلم ﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ أي اليوم الذي كنتم تنكرونه .

قوله تعالى : فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٣٠٥ فما بعد .

(٢) راجع جـ ٦ ص ٤٠٢ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أى لا ينفعهم العلم بالقيامة ولا الاعتذار يومئذ. وقيل: لمـا ردّ عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يعذروا. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أى ولا حالهم حال من يستعتب ويرجع؛ يقـال : استعتبته فأعتبنى، أى استرضيته فأرضانى، وذلك إذا كنت جانيا عليه. وحقيقة أعتبته: أزلت عتبه. وسيأتى فى « فصلت » بيانه[1]. وقرأ عاصم وحمزة والكسائى: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ» بالياء، والباقون بالتاء.

قوله تعـالى : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أى من كل مثل يدلهم على مايحتاجون إليه، وينبههم على التوحيد وصدق الرسل. ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أى معجزة؛ كفلق البحر والعصا وغيرهما ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ﴾ يامعشر المؤمنين. ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أى تتبعون البـاطل والسحر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أى كما طبع الله على قلوبهم حتى لا يفهموا الآيات عن الله فكذلك ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أدلّة التوحيد ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أى اصـبر على أذاهم فإن الله ينصرك ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أى لا يستفزنّك عن دينك ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ قيل : هو النضر بن الحارث. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته؛ يقال : استخف فلان فلانا أى استجهله حتى حمله على اتباعه فى الغيّ. وهو فى موضع جزم بالنهى، أُكّد بالنون الثقيلة فبُنِيَ على الفتح كما يبنى الشيئان إذا ضم أحدهما إلى الآخر. «الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ» فى موضـع رفع، ومن العرب من يقول : اللذون فى موضع الرفع. وقد مضى فى « الفاتحة »[2].

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٥١ فـا بعد.　　(٢) راجع جـ ١ ص ١٤٨.

Marfat.com

تفسير سورة لقمان

وهى مكية ، غير آيتين قال قتادة : أولهما « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ » إلى آخر الآيتين[1] . وقال ابن عباس : ثلاث آيات ، أولهن « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ » . وهى أربع وثلاثون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ مضى الكلام فى فواتح السُّوَر . و « تِلْكَ » فى موضع رفع على إضمار مبتدأ ، أى هذه تلك . ويقال : « تِيكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ » بدلا من تلك . والكتاب : القرآن . والحكيم : المحكم ؛ أى لا خلل فيه ولا تناقض . وقيل ذو الحكمة وقيل الحاكم ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ بالنصب على الحال ؛ مثل : « هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً[2] » وهذه قراءة المدنيين وأبى عمرو وعاصم والكسائى . وقرأ حمزة : « هُدًى وَرَحْمَةٌ » بالرفع ، وهو من وجهين : أحدهما — على إضمار مبتدأ ؛ لأنه أول آية . والآخر — أن يكون خبر « تِلْكَ » . والمحسن : الذى يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه . وقيل : هم المحسنون فى الدِّين وهو الإسلام ؛ قال الله تعالى : « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ[3] » الآية . ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ فى موضع الصفة ، ويجوز الرفع على القطع بمعنى : هم الذين ، والنصب بإضمار أعنى . وقد مضى الكلام فى هذه الآية والتى بعدها فى « البقرة[4] » وغيرها .

(١) راجع ص ٧٦ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٣٨ . (٣) راجع جـ ٥ ص ٣٩٩ .
(٤) راجع جـ ١ ص ١٦٢ فما بعد . و جـ ٦ ص ٢٢١ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ « مَنْ » فى موضع رفع بالابتداء . و « لَهْوَ الْحَدِيثِ » : الغناء؛ فى قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . النحاس : وهو ممنوع بالكتاب والسنة؛ والتقدير : من يشترى ذا لهو أو ذات لهو ؛ مثل : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ[(١)] » . أو يكون التقدير : لما كان إنما اشتراها يشتريها ويبالغ فى ثمنها كأنه اشتراها للهو[(٢)] .

قلت : هذه إحدى الآيات الثلاث التى استدلّ بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه . والآية الثانية قوله تعالى : « وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ[(٣)] » . قال ابن عباس: هو الغناء بالحميرية ؛ اسمدى لنا؛ أى غنّى لنا .

والآية الثالثة قوله تعالى : « وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ[(٤)] » قال مجاهد : الغناء والمزامير . وقد مضى فى « سبحان[(٤)] » الكلام فيه . وروى الترمذىّ عن أبى أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تبيعوا القَيْنات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام، فى مثل هذا أنزلت هذه الآية : ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله " إلى آخر الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، إنما يُروى من حديث القاسم عن أبى أمامة، والقاسم ثقة وعلىّ بن يزيد يضعّف فى الحديث ؛ قاله محمد بن إسماعيل . قال ابن عطية : وبهذا فسر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد، وذكره أبو الفرج الجَوْزى عن الحسن وسعيد بن جبير وقتادة والنَّخَعىّ .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ فما بعد . (٢) كذا فى جميع نسخ الأصل . وفى كتاب النحاس : « أو يكون التقدير : لما كان إنما يشتريها ويبالغ فى ثمنها كأنه اشترى اللهو » . وفى العبارتين غموض ، ولعل العبارة هكذا : أو يكون التقدير أنه لما كان إنما يشتريها ويبالغ فى ثمنها لأجل لهوها كان كأنه اشترى اللهو .

(٣) راجع جـ ١٧ ص ١٢١ فما بعد . (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٩٠ .

Marfat.com

قلت : هذا أعلى ما قيل فى هذه الآية ، وحلف على ذلك ابن مسعود بالله الذى لا إله إلا هو ثلاث مرات إنه الغناء . روى سعيد بن جُبير عن أبى الصَّهباء البكرى قال : سئل عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ » فقال : الغناء والله الذى لا إله إلا هو؛ يرددها ثلاث مرات . وعن ابن عمر أنه الغناء؛ وكذلك قال عكرمة وميمون بن مِهران ومكحول . وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال قال عبد الله بن مسعود : الغناء ينبت النفاق فى القلب ؛ وقاله مجاهد ، وزاد : إنّ لهو الحديث فى الآية الاستماع إلى الغناء وإلى مثله من الباطل . وقال الحسن : لهو الحديث المعازف والغناء . وقال القاسم بن محمد : الغناء باطل والباطل فى النار . وقال ابن القاسم سألت مالكا عنه فقال : قال الله تعالى : « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ »(١) أفحق هو؟ ! وترجم البخارى(٢) (بَابٌ كُلُّ لهو باطلٌ إذا شغل عن طاعة الله، ومن قال لصاحبه تعال أقامِرْك)،وقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا) فقوله : « إذا شَغَل عن طاعة الله » مأخوذ من قوله تعالى : « لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » . وعن الحسن أيضا : هو الكفر والشرك . وتأوّله قوم على الأحاديث التى يَتَلَهَّى بها أهل الباطل واللعب . وقيل : نزلت فى النضر بن الحارث ؛ لأنه اشترى كتب الأعاجم : رستم ، واسفنديار ؛ فكان يجلس بمكة ، فإذا قالت قريش إن محمدا قال كذا ضحك منه ، وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس ويقول : حديثى هذا أحسن من حديث محمد ؛ حكاه الفراء والكلبى وغيرهما . وقيل : كان يشترى المغنّيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قَيْنَته فيقول : أطعميه وآسقيه وغنّيه ؛ ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه . وهذا القول والأول ظاهر فى الشراء . وقالت طائفة : الشراء فى هذه الآية مستعار ، وإنما نزلت الآية فى أحاديث قريش وتلهيهم بأمر الإسلام وخوضهم فى الباطل . قال ابن عطية : فكان ترك مايجب فعله وامتثال هذه المنكرات،

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٣٥ فما بعد . (٢) فى آخر كتاب الاستئذان .

Marfat.com

شراءً لها؛ على حد قوله تعـالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى »(١)؛ اشتروا الكفر بالإيمـان؛ أى استبدلوه منه واختاروه عليه . وقال مُطَرِّف : شراء لهو الحديث استحبابه . قتادة : ولعلّه لا ينفق فيه مالا ، ولكن سماعه شراؤه .

قلت : القول الأوّل أولى ماقيل به فى هذا الباب ؛ للحديث المرفوع فيه ، وقول الصحابة والتابعين فيه . وقد زاد الثعلبي والواحدي فى حديث أبى أمامة : "ومامن رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المَنْكِب(٢) [والآخر على هذا المنكر] فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يكون هو الذى يسكت". وروى الترمذى وغيره من حديث أنس وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "صوتان ملعونان فاجران أنهى عنهما : صوت مزمار ورنّة شيطان عند نغمة ومَرَح ورنّة عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب". وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عن علي عليه السلام قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " بُعثت بكسر المزامير " خرجه أبو طالب الغيلاني . وخرج ابن بشران عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بُعثت بهدم المزامير والطبل " . وروى الترمذى من حديث علي رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا فعلت أمّتى خمس عشرة خَصْلة حلّ بها البلاء — فذكر منها : إذا اتخذت القَيْنـات والمعازِف" . وفى حديث أبى هريرة : " وظهرت القِيان والمعـازِف " . وروى ابن المبـارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المُنْكَدِر عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من جلس إلى قَينة يسمع منها صُبّ فى أذنه الآنُك(٣) يوم القيامة " . وروى أسد بن موسى عن عبد العزيز بن أبى سـلمة عن محمد بن المنكدر قال : بلغنا أن الله تعـالى يقول يوم القيامة : " أين عبـادى الذين كانوا ينزّهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهـو ومزامير الشيطان أحِلّوهم رياض المسك(٤) وأخبروهم أنى قد أحللت عليهم رضوانى " . وروى ابن وهب عن مالك عن محمد بن المنكدر مثله ، وزاد بعد قوله " المسك : ثم يقول للملائكة أسمعوهم حمدى وشكرى وثنائى ، وأخبروهم ألّا خوف عليهم ولا هم يحزنون". وقد روى مرفوعا هـذا المعنى من حديث أبى موسى الأشعرى أنه قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم :

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٠ .
(٢) ما بين المربعين ساقط من الأصل المطبوع .
(٣) الآنك : الرصاص .
(٤) فى جـ ، ش : " رياض الجنة ".

Marfat.com

" من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين " . فقيل : ومَن الروحانيون يا رسول الله؟ قال : " قرّاء أهل الجنة " خرّجه الترمذيّ الحكيم أبو عبدالله فى نوادر الأصول، وقد ذكرنا فى كتاب التذكرة مع نظائره : " فمن شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها فى الآخرة، ومن لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة " . إلى غير ذلك . وكل ذلك صحيح المعنى على ما بيّنّاه هناك . ومن رواية مكحول عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات وعنده جارية مغنية فلا تصلّوا عليه " . ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء . وهى المسألة : —

الثانيــة — وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به، الذى يحرّك النفوس ويبعثها على الهوى والغَزَل، والمُجُون الذى يحرك الساكن ويبعث الكامن؛ فهذا النوع إذا كان فى شعر يُشَبَّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن وذكر الخمور والمحرّمات لا يُختلف فى تحريمه؛ لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق . فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح؛ كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان فى حفر الخَنْدَق وحَدْوِ أنْجَشة(١) وسَلَمة بن الأكوع . فأما ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغانى بالآلات المطربة من الشبّابات(٢) والطار والمعازف والأوتار فحرام . ابن العربىّ : فأما طبل الحرب فلا حرج فيه؛ لأنه يقيم النفوس ويُرهب العدو . وفى اليراعة(٣) تردّد . والدف مباح.(٤)[الجوهرىّ : وربما سمّوا قصبة الراعى التى يزمر بها هيرعة ويراعة](٤) . قال القشيرىّ : ضُرب بين يدى النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة، فهمّ أبو بكر بالزجر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح " فكنّ يضربن ويقلن : نحن بنات النجار، حبذا محمد من جار . وقد قيل : إن الطبل فى النكاح كالدُّف ، وكذلك الآلات المشهرة للنكاح يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام ولم يكن فيه رَفَث .

---

(١) هو عبد أسود كان يسوق أو يقود بنساء النبىّ صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع ، وكان حسن الحداء، وكانت الإبل تزيد فى الحركة بحدائه . (٢) الشبابة (بالتشديد) : قصبة الزمر، وهى مولدة .
(٣) اليراعة : مزمار الراعى . (٤) ما بين المربعين ساقط من جـ، ش .

Marfat.com

الثالثــة ــ الاشتغال بالغناء على الدوام سفه تُرَد به الشهادة، فإن لم يدم لم ترَدّ . وذكر إسحاق بن عيسى الطباع قال : سألت مالك بن أنس عما يُرَخِّص فيـه أهل المدينة من الغناء فقال : إنمـا يفعله عنـدنا الفساق . وذكر أبو الطيب طاهر بن عبـد الله الطبرى قال : أما مالك بن أنس فإنه نهى عن الغناء وعن استماعه، وقال : إذا اشترى جارية ووجدها مغنية كان له ردّها بالعيب ؛ وهو مذهب سائر أهل المدينة ؛ إلا إبراهيم بن سعد فإنه حكى عنـه زكريا الساجى أنه كان لا يرى به بأسا . وقال ابن خُوَيْزِمَنْـدَاد : فأما مالك فيقال عنـه : إنه كان عالمـا بالصناعة وكان(١) مذهبـه تحريمها . وروى عنه أنه قال : تعلمت هذه الصناعة وأنا غلام شاب، فقالت لى أمى : أىْ بنىّ ! إن هذه الصناعة يصلح لها من كان صبيح الوجه ولستَ كذلك ، فاطلب العلوم الدينيـة ؛ فصحبت ربيعـة فجعل الله فى ذلك خـيرا . قال أبو الطيب الطـبرىّ : وأما مذهب أبى حنيفـة فإنه يكره الغناء مع إباحته شرب النّبيـذ ، ويجعـل سمـاع الغناء من الذنوب . وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة : إبراهيم والشـعبىّ وحماد والثورى وغيرهم ، لا اختلاف بينهـم فى ذلك . وكذلك لا يعرف بين أهـل البصرة خلاف فى كراهيـة ذلك والمنع منه ؛ إلا ما روى عن عبيـد الله بن الحسن العنبرى أنه كان لا يرى به بأسا . قال : وأما مذهب الشـافعىّ فقال : الغناء مكروه يشـبه الباطل ، ومن استكثر منـه فهو سفيه تردّ شهادته . وذكر أبو الفرج الجوْزى عن إمامه أحمـد بن حنبـل ثلاثَ روايات قال : وقد ذكر أصحابنا عن أبى بكر الخلّال وصاحبه عبد العزيز إباحة الغناء، وإنما أشاروا إلى ما كان فى زمانهما من القصائد الزُّهديّات؛ قال : وعلى هذا يحمل مالم يكرهه أحمد؛ ويدلّ عليه أنه سئل عن رجل مات وخلف ولدا وجارية مغنية فاحتاج الصبى إلى بيعها فقال : تباع على أنها ساذجة لا على أنها مغنية . فقيل له : إنها تساوى ثلاثين ألفا؛ ولعلها إن بيعت ساذجة تساوى عشرين ألفا ؟ فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة . قال أبو الفرج : وإنما قال أحمد هذا لأن هذه الجارية المغنية لاتغنى بقصائد الزهد، بل بالأشعار المطربة المثيرة إلى العشـــق .

(١) لفظة : « كان » ساقطة من جـ .

Marfat.com

وهـذا دليـل على أن الغناء محظور؛ إذ لو لم يكن محظـورا ما جاز تفويت المـال على اليتيم. وصار هذا كقول أبي طلحة للنبيّ صلى الله عليه وسلم: عندى خمر لأيتام؟ فقال: "أرقها". فلو جاز استصلاحها لما أمر بتضييـع مال اليتـامى. قال الطبريّ: فقـد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه. وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبيد الله العنبرى؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: "عليكم بالسواد الأعظم. ومن فارق الجمـاعة مات ميتة جاهلية". قال أبو الفرج: وقال القفّال من أصحابنـا: لا تقبل شهادة المغنّى والرقاص.

قلت: وإذ قد ثبت أن هـذا الأمر لا يجوز فأخذ الأجرة عليه لا تجوز. وقـد ادّعى أبو عمر بن عبـد البر الإجماع على تحريم الأجرة على ذلك. وقد مضى فى الأنعام عند قوله: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ»(1) وحسبُك.

الرابعـــة — قال القاضى أبو بكر بن العربى: وأما سمـاع القينات فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته؛ إذ ليس شيء منها عليـه حراما لا من ظاهرها ولا من باطنها، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها. أمّا أنه لا يجوز انكشاف النساء للرجال ولا هتك الأستار ولا سماع الرّفث، فإذا خرج ذلك إلى ما لا يحـل ولا يجوز مُنع من أوّله واجتُثّ من أصله. وقال أبو الطيّب الطبرىّ: أما سماع الغناء من المرأة التى ليست بمحرم فإن أصحاب الشافعىّ قالوا لا يجوز، سواء كانت حرّة أو مملوكة. قال: وقال الشافعىّ: وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه تردّ شهادته؛ ثم غلّظ القول فيـه فقال: فهى دِياثة. وإنما جعل صاحبها سفيها لأنه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيها.

الخامســـة — قوله تعـالى: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قراءة العامة بضم الياء؛ أى ليضل غيره عن طريق الهدى، وإذا أضل غيره فقد ضل. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وأبو عمرو ورُوَيْس وابن أبي إسحـاق (بفتـح اليـاء) على اللازم؛ أى ليَضل هو نفسه.

(1) راجع جـ ٧ ص ٣.

Marfat.com

﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قراءة المدنيّين وأبى عمرو وعاصم بالرفع عطفا على «مَنْ يَشْتَرِى» ويجوز أن يكون مستأنفا . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى : «وَيَتَّخِذَها» بالنصب عطفا على «لِيُضِلّ» . ومن الوجهين جميعا لا يحسن الوقف على قوله : «بِغَيْرِ عِلْمٍ» والوقف على قوله : «هُزُوًا» ، والهاء فى «يَتَّخِذَهَا» كناية عن الآيات . ويجوز أن يكون كناية عن السبيل ؛ لأن السبيل يؤنث ويذكر . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أى شديد يهينهم . قال الشاعر :

ولقد جزعت إلى النصارى بعد ما * لَقِيَ الصليبُ من العذاب مهينا[(١)]

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَلَّى ﴾ أى أعرض . ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ نصب على الحال . ﴿ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ ثقلا وصمما . وقد تقدم[(٢)] . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ تقدم أيضا[(٣)] .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ لما ذكر عذاب الكفار ذكر نعيم المؤمنين . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى دائمين . ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ أى وعدهم الله هذا وعدا حقا لا خُلْف فيه . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم أيضا[(٤)] .

(١) هذا البيت لجرير من قصيدة يهجو بها الأخطل ، مطلعها :

أمسيت إذ رحل الشباب حزينا * ليت الليالى قبل ذاك فنينا

(٢) راجع جـ ٦ ص ٤٠٤ . (٣) راجع جـ ١ ص ١٩٨ و ٢٣٨ فما بعد .

(٤) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ و جـ ٢ ص ١٣١ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ تكون « تَرَوْنَهَا » فى موضع خفض على النعت لـ « عمد » فيمكن أن يكون ثَمّ عَمَد ولكن لا تُرَى . ويجوز أن تكون فى موضع نصب على الحال من « السَّمَوَات » ولا عَمَـد ثَمّ البتة . النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول : الأولى أن يكون مستأنفا ، ولا عَمَد ثَمّ ؛ قاله مكىّ . ويكون « بِغَيْرِ عَمَدٍ» التمام . وقد مضى فى « الرعد »(١) الكلام فى هذه الآية . ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أى جبالا ثوابت . ﴿ أَنْ تَمِيدَ ﴾ فى موضع نصب ؛ أى كراهية أن تميد . والكوفيون يقدّرونه بمعنى لئلا تميد . ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ عن ابن عباس : من كل لون حَسَن . وتأوله الشعبىّ على الناس ؛ لأنهم مخلوقون من الأرض ؛ قال : من كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم ، ومن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم . وقد تأول غيره أن النطفة مخلوقة من تراب ، وظاهر القرآن يدلّ على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ [مبتدأ(٢) وخبر . والخلق بمعنى المخلوق ؛ أى هذا الذى ذكرته مما تعاينون « خَلْقُ اللَّهِ »(٢)] أى مخلوق الله ، أى خلقها من غير شريك . ﴿ فَأَرُونِي ﴾ معاشر المشركين ﴿ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى الأصنام . ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ ﴾ أى المشركون ﴿ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى خسران ظاهر . و « ما » استفهام فى موضع رفع بالابتداء وخبره « ذا » وذا بمعنى الذى . و « خلق » واقع على هاء محذوفة ؛ تقديره فأرونى أى شىء خلق الذين من دونه ؛ والجملة فى موضع نصب بـ «فأرونى» وتضمر الهاء مع « خلق »

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٧٩ . (٢) ما بين المربعين ساقط من ش .

Marfat.com

تعود على الذين ؛ أى فأرونى الأشياء التى خلقها الذين من دونه . وعلى هـذا القول تقول : ماذا تعلمت، أنحوٌ أم شعر . ويجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ«أرونى و « ذا » زائد ؛ وعلى هذا القول يقول : ماذا تعلمت ، أنحوا أم شعرا .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ مفعولان . ولم ينصرف « لُقْمَانَ » لأن فى آخره ألفا ونونا زائدتين ؛ فأشـبه فُعلان الذى أنثاه فُعلَى فلم ينصرف فى المعرفة لأن ذلك ثقل ثان، وآنصرف فى النكرة لأن أحد الثقلين قد زال؛ قاله النحاس . وهو لقمان بن باعوراء ابن ناحور بن تارَح ، وهو آزر أبو إبراهيم ؛ كذا نسبه محمـد بن إسحاق . وقيل : هو لقمان ابن عنقاء بن سرون وكان نو بيا من أهل أيلة ؛ ذكره السهيلي . قال وهب : كان آبنَ أخت أيوب . وقال مقاتل : ذكر أنه كان ابن خالة أيوب . الزَّمَخْشرِي : وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته ، وقيل كان من أولاد آزر ، عاش ألف سنة وأدركه داود عليه الصلاة والسلام وأخذ عنه العلم، وكان يُفتى قبل مبعث داود ، فلما بعث قطع الفتوى فقيل له ، فقال : ألا أكتفى إذ كُفيت . وقال الواقدى : كان قاضـيا فى بنى إسرائيل . وقال سعيد ابن المسيِّب : كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر ، أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوّة ؛ وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليًّا ولم يكن نبيا. وقال بنبوّته عِكرمة والشعبي ؛ وعلى هـذا تكون الحكمة النبوّة . والصواب أنه كان رجلا حكيما بحكمة الله تعـالى — وهى الصواب فى المعتقدات والفقه فى الدِّين والعقل(١) — قاضيًا فى بنى إسرائيل ، أسود مشقَّق الرِّجلين ذا مشافر ، أى عظيم الشفتين ؛ قاله ابن عبـاس وغيره . وروى من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لم يكن لقمان نبيًّا ولكن كان عبدا كثير التفكر

(١) فى تفسير ابن عطية : « ... والعمل » .

Marfat.com

حسن اليقين ، أحبّ الله تعالى فأحبه ، فمنّ عليه بالحكمة ، وخيّره فى أن يجعله خليفة يحكم بالحق ؛ فقال : ربّ ، إن خيّرتنى قبلتُ العافية وتركت البلاء ، وإن عزمتَ علىّ فسمعاً وطاعة فإنك ستعصمنى ؛ ذكره ابن عطيـة . وزاد الثعلبىّ : فقالت له الملائكة بصوت لا يراهم : لِمَ يا لقمان ؟ قال : لأن الحاكم بأشـدّ المنازل وأكدرها ، يغشـاه المظلوم من كل مكان ، إن يُعَنْ فبالحَرِى[1] أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة . ومن يكن فى الدنيا ذليلا [فذلك][2] خير من أن يكون فيها شريفا . ومن يَخْتَرِ الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة . فعجبت الملائكة من حسن منطقه ؛ فنام نومة فأعطى الحكمة فانتبه يتكلّم بهـا . ثم نودى داود بعده فقبلها — يعنى الخلافة — ولم يشترط ما اشترطه لقمان ، فهوَى فى الخطيئة غير مرة ، كل ذلك يعفو الله عنـه . وكان لقمان يوازره بحكمته ؛ فقال له داود : طوبى لك يالقمان ! أعطيت الحـكمة وصُرف عنك البلاء ، وأعطى داود الخلافة وٱبتُلى بالبلاء والفتنـة . وقال قتادة : خيّر الله تعالى لقمان بين النبوّة والحكمة ؛ فاختار الحكمة على النبوّة ؛ فأتاه جبريل عليه السلام وهو نائم فذرّ عليه الحكمة فأصبح وهو ينطِق بها ؛ فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوّة وقد خيّرك ربك؟ فقال : إنه لو أرسـل إلىّ بالنبوّة عَزْمة[3] لرجوْت فيهـا العون منه ، ولكنه خيّرنى نخفت أن أضعُف عن النبوّة ، فكانت الحكمة أحبّ إلىّ .

واختلف فى صنعته ؛ فقيل : كان خياطا ؛ قاله سعيد بن المسيّب ، وقال لرجل أسود : لا تحزن من أنك أسـود ، فإنه كان من خير الناس ثلاثةٌ من السودان : بلال ومِهْجع مولى عمـر ولقمان . وقيل : كان يحتطب كل يوم لمولاه حُزْمة حطب . وقال لرجل ينظر إليه : إن كنت ترانى غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت ترانى أسود فقلبى أبيض . وقيل : كان راعيا ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال له : ألست عبد بنى فلان؟ قال بلى . قال : فـا بلغ بك ما أرى ؟ قال : قدَر الله ، وأدائى الأمانة ، وصدق الحديث ،

---

(١) يقال : فلان حرىّ بكذا ، وحرى بكذا ، وحربكذا ، وبالحرى أن يكون كذا ؛ أى جدير وخليق .

(٢) زيادة يقتضيها السياق . (٣) عزائم الله : فرائضه التى أوجبها على عباده .

Marfat.com

وترك ما لا يعنيني؛ قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر. وقال خالد الرَّبَعي : كان نجارا؛ فقال له سيده : اذبح لى شاة وائتنى بأطيبها مُضْغتين؛ فأتاه باللسان والقلب؛ فقال له : ما كان فيها شيء أطيب من هذين؟ فسكت، ثم أمره بذبح شاة أخرى ثم قال له : ألق أخبثها مضغتين؛ فألق اللسان والقلب؛ فقال له : أمرتك أن تأتينى بأطيب مضغتين فأتيتنى باللسان والقلب، وأمرتك أن تُلق أخبثها فألقيت اللسان والقلب؟! فقال له : إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا .

قلت : هــذا معناه مرفوع فى غير ما حديث ؛ من ذلك قوله صــلى الله عليه وســلم : " ألا وإنَّ فى الجسد مضغة إذا صَلُحت صَلُح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب " . وجاء فى اللسان آثار كثيرة صحيحة وشهيرة ؛ منها قوله عليــه السلام : " من وقاه الله شر اثنتين وَلَجَ الجنة : ما بين لَحْيَيْه[(١)] ورجليه ... " الحديث. وحِكَمُ لقمان كثيرةٌ مأثورة هذا منها . وقيل له : أيّ الناس شر؟ قال : الذى لا يبالى أن رآه الناس مسيئا .

قلت : وهــذا أيضا مرفوع معنى ، قال صلى الله عليــه وسلم : " كلّ أمتى معافى إلا المجاهرون وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يافلان عمِلت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربّه ويصبح يَكْشِف سِتر الله عنه ". رواه أبو هريرة خرجه البخارى . وقال وهب بن منبّه : قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب . وروى أنه دخل على داود عليــه السلام وهو يَسْرُد الدروع ، وقد ليّن الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله ، فأدركته الحكمة فسكت؛ فلما أتمها لبسها وقال : نِعم لَبُوسُ الحرب أنتِ. فقال : الصمت حكمة، وقليل فاعله . فقال له داود : بحقٍّ ما سُمّيت حكيما .

قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ فيه تقديران : أحدهما أن تكون « أن » بمعنى أى مفسرة ؛ أى قلنا له اشكر. والقول الآخر أنها فى موضع نصب والفعل داخل فى صلتها؛ كما حكى سيبويه : كتبت إليه أن قم ؛ إلا أن هــذا الوجه عنده بعيد . وقال الزجاج : المعنى ولقد آتينا لقمان

(١) اللحيان : حائطا الفم ، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم من كل ذى لحى .

Marfat.com

الحكمة لأن يشكر الله تعالى . وقيل : أى بأن آشكر لله تعالى فشكر ؛ فكان حكيما بشكره لنا .
والشكر لله : طاعته فيما أمر به . وقد مضى القول فى حقيقته لغة ومعنى فى «البقرة»(١) وغيرها.
﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى من يطع الله تعالى فإنما يعمل لنفسه؛ لأن نفع الثواب
عائد إليه . ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ أى كفر النعم فلم يوحّد الله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ عن عبادة خلقه
﴿ حَمِيدٌ ﴾ عند الخلق ؛ أى محمود . وقال يحيى بن سلام : « غَنِيٌّ » عن خلقه «حَمِيدٌ» فى فعله

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

قوله تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ قال السُّهَيْلِى : اسم ابنه ثاران؛ فى قول
الطبرى والقُتَبِيّ . وقال الكلبى : مشكم . وقيل أنعم ؛ حكاه النقاش . وذكر القشيرى أن
ابنه وامرأته كانا كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما .

قلت : ودلّ على هذا قوله : « لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » . وفى صحيح مسلم
وغيره عن عبد الله قال : لما نزلت « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ »(٢) شق ذلك على
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينا لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : " ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه : يابنيّ لا تشرك بالله إن الشرك
لظلم عظيم ". واختلف فى قوله : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » فقيل : إنه من كلام لقمان . وقيل :
هو خبر من الله تعالى منقطعا من كلام لقمان متصلا به فى تأكيد المعنى؛ ويؤيد هذا الحديث
المأثور أنه لما نزلت : «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» أشفق أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقالوا : أينا لم يظلم؛ فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »فسكن إشفاقهم،
وإنما يسكن إشفاقهم بأن يكون خبرا من الله تعالى؛ وقد يسكن الإشفاق بأن يذكر الله ذلك
عن عبد قد وصفه بالحكمة والسداد . و « إذ » فى موضع نصب بمعنى اذكر . وقال الزجاج

(١) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩ فما بعد . .

Marfat.com

فى كتابه فى القرآن: إن « إذ » فى موضع نصب بـ « آتينا » والمعنى : ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال . النحاس : وأحسبه غلطا؛ لأن فى الكلام واوا تمنع من ذلك . وقال : ﴿ يَا بُنَيِّ ﴾ بكسر الياء؛ لأنها دالة على الياء المحذوفة، ومن فتحها فلخفة الفتحة عنده؛ وقد مضى فى «هود»(١) القول فى هذا . وقوله : «يابنى» ليس هو على حقيقة التصغير وإن كان على لفظه، وإنمـا هو على وجه الترقيق؛ كما يقال للرجل : يا أُخَيّ، وللصبي هو كُوَيْس .

قوله تعـالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

فيـــه ثمـانى مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ هاتان الآيتان اعتراض بين أثناء وصيّة لقمان . وقيل : إن هذا مما أوصى به لقمان ابنه ؛ أخبر الله به عنه؛ أى قال لقمان لابنه : لا تشرك بالله ولا تطع فى الشرك والديك، فإن الله وصّى بهما فى طاعتهما ممـا لا يكون شركا ومعصية لله تعالى . وقيل : أى وإذ قال لقمان لابنه؛ فقلنا للقمان فيما آتيناه من الحكمة ووصينا الإنسان بوالديه ؛ أى قلنا له اشـكر لله ، وقلنا له ووصينا الإنسان . وقيل : وإذ قال لقمان لابنه لا تشرك ، ونحن وصينا الإنسان بوالديه حسنا، وأمرنا الناس بهـذا ، وأمر لقمان به ابنـه ؛ ذكر هـذه الأقوال القشيرى . والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا فى شأن سـعد ابن أبى وقّاص؛ كما تقدم فى « العنكبوت(٢) » وعليه جماعة المفسرين .

(١) فى نسخ الأصل : « يوسف » وهو تحريف . راجع جـ ٩ ص ٣٩ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٨ .

Marfat.com

وجملة هـذا الباب أن طاعة الأبوين لا تراعى فى ركوب كبيرة ولا فى ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتهما فى المباحات، ويستحسن فى ترك الطاعات الندب؛ ومنه أمر الجهاد الكفاية، والإجابة للأم فى الصلاة مع إمكان الإعادة؛ على أن هـذا أقوى من الندب؛ لكن يعلل بخوف هلكة عليها، ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى(١) من الندب. وخالف الحسن فى هذا التفصيل فقال: إن منعته أمه من شهود العِشاء شفقة فلا يطعها.

الثانيـــة — لما خصّ تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرضاع حصل لها بذلك ثلاث مراتب، وللأب واحدة؛ وأشبه ذلك قوله صلى الله عليه وسلم حين قال له رجل من أبَرّ؟ قال: "أمك" قال ثم من؟ قال: "أمك" قال ثم من؟ قال: "أمك" قال ثم من؟ قال: "أبوك" فجعل له الربع من المَبَرّة كما فى هذه الآية؛ وقد مضى هذا كله فى «سبحان»(٢).

الثالثـــة — قوله تعالى: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أى حملته فى بطنها وهى تزداد كل يوم ضعفا على ضعف. وقيل: المرأة ضعيفة الخلقة ثم يُضعفها الحمل. وقرأ عيسى الثقفى: «وَهَنًا على وَهَن» بفتح الهاء فيهما؛ ورويت عن أبى عمرو، وهما بمعنًى واحد. قال قَعْنَب ابن أم صاحب:

هل للعواذل من ناهٍ فيزجُرَها * إن العواذل فيها الأَيْنُ والوَهَنُ

يقال: وَهَن يَهِن، ووَهُن يَوْهَنُ ووَهِن، يَيْهَن؛ مثل وَرِم يرِم. وانتصب «وَهْنًا» على المصدر؛ ذكره القشيرى. النحاس: على المفعول الثانى بإسقاط حرف الجر؛ أى حملته بضعف على ضعف. وقرأ الجمهور: «وَفِصَالُهُ» وقرأ الحسن ويعقوب: «وفَصْله» وهما لغتان؛ أى وفصاله فى انقضاء عامين؛ والمقصود من الفصال الفطام، فعبر بغايته ونهايته. ويقال: انفصل عن كذا أى تميّز؛ وبه سُمّى الفَصِيل.

---

(١) لفظة «أقوى ساقطة من الأصل المطبوع». (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٩.

Marfat.com

الرابعــــة ــ الناس مُجْمِعــون على العامين فى مدة الرضاع فى باب الأحكام والنفقات ، وأما فى تحريم اللبن فحددت فرقة بالعام لا زيادة ولا نقص . وقالت فرقة : العامان وما آتصل بهما من الشهر ونحـوه إذا كان متصل الرضاع . وقالت فرقة : إن فُطِم الصبيّ قبل العامين وترك اللبن فإن ما شرب بعد ذلك فى الحولين لا يحرّم ؛ وقد مضى هذا فى «البقرة» (١) مستوفًى .

الخامســـــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي ﴾ «أَن» فى موضع نصب فى قول الزجاج، وأن المعنى : ووصينا الإنسان بوالديه أن آشكرلى . النحاس : وأجود منه أن تكون « أن » مفسرة، والمعنى : قلنا له أن آشكر لى ولوالديك . قيل : الشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية . وقال سفيان بن عُيَيْنة : من صلّى الصـلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ، ومن دعا لوالديه فى أدبار الصلوات فقد شكرهما .

السادســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِـعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قد بينا أن هذه الآية والتى قبلها نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقاص لمـّا أسلم، وأن أمّه وهى حَمْنة بنت أبى سفيان بن أميّة حلفت ألّا تأكل؛ كما تقدم فى الآية قبلها .

السابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ نعت لمصدر محـذوف ؛ أى مصاحبا معروفا؛ يقال صاحبته مصاحبة ومصاحَبًا . و « مَعْرُوفًا » أى ما يحسن .

والآية دليـلٌ على صلة الأبوين الكافرَيْن بما أمكن من المـال إن كانا فقيرين، و إلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق . وقد قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق للنبيّ عليه الصلاة والسلام وقد قَدِمت عليها خالتها وقيل أمها من الرضاعة فقالت : يا رسول الله، إن أمّى قدِمت علىّ وهى راغبة أفأصلها ؟ قال: "نعم" . وراغبة قيل معناه : عن الإسلام . قال آبن عطية : والظاهر عندى أنها راغبة فى الصلة ، وما كانت لِتقْدم على أسماء لولا حاجتها . ووالدة أسماء هى قُتيلة بنت عبد العُزى بن عبد أســد . وأم عائشة وعبد الرحمن هى أم رُومان قديمة الإسلام .

(١) راجع ج ٣ ص ١٦٠ .

Marfat.com

الثامنــة — قوله تعـالى : ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ وصيّة لجميع العالم ؛ كأن المأمور الإنسان . و « أَنَابَ » معناه مال ورجع إلى الشيء ؛ وهذه سبيل الأنبياء والصالحين . وحكى النقاش أن المأمور سعد، والذى أناب أبو بكر؛ وقال : إن أبا بكر لمـا أسلم أتاه سعد وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزّبير فقالوا : آمنت! قال نعم؛ فنزلت فيـه : « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ »[1] فلمّا سمعها الستة آمنوا؛ فأنزل الله تعـالى فيهم : « وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَى[1] — إلى قوله — أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللَّهُ » . وقيـل : الذى أناب النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال ٱبن عباس : ولمـا أسلم سعد أسلم معه أخواه عامر وعُوَيمِر؛ فلم يبق منهم مشرك إلا عُتبة . ثم توعّد عزّ وجلّ ببعث مَن فى القبور والرجوع إليه للجزاء والتوقيف على صغير الأعمال وكبيرها .

قوله تعـالى : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾

المعنى : وقال لقمان لٱبنه يا بُنَيَّ . وهـذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ٱبنه بقدر قدرة الله تعالى . وهذه الغاية التى أمكنه أن يفهمه، لأن الخردلة يقال : إن الحسّ لا يدرك لها ثِقَلًا ، إذ لا ترجّح ميزانا . أى لو كان للإنسان رزق مثقال حبّة خَرْدل فى هـذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقها إلى مَن هى رزقه ؛ أى لا تهتم للرزق حتى تشتغل به عن أداء الفرائض، وعن ٱتباع سبيل من أناب إليّ .

قلت : ومن هذا المعنى قولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن مسعود : "لا تكثِر همك ما يُقدّر يكون وما تُرزق يأتيك". وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا؛ سبحانه لا شريك له . وروى أن ٱبن لقمان سأل أباه

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٣٧ فـا بعد . وص ٢٤٣ فـا بعد .

عن الحبة تقع في سُفل البحر أيعلمها الله ؟ فراجعه لقمان بهذه الآية . وقيل : المعنى أنه أراد الأعمال ، المعاصي والطاعات ؛ أي إن تك الحسـنة أو الخطيئة مثقالَ حبـة يأت بها الله ؛ أي لا تفوت الإنسان المقدّر وقوعُها منه . وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف مضاف [ذلك][1] إلى تبيين قدرة الله تعالى . وفي القول الأوّل ليس فيه ترجية ولا تخويف .

قوله تعـالى : ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ عبارة تصلح للجواهر ، أي قدر حبة ، وتصلح للأعمال ؛ أي ما يزنه على جهة المماثلة قدر حبة . وممـا يؤيّد قول من قال هي من الجواهر : قراءة عبد الكريم الجَزَري[2] «فتكِنّ» بكسر الكاف وشدّ النون ، من الكِنّ الذي هو الشيء المغطى . وقرأ جمهور القرّاء : « إِنْ تَكُ » بالتـاء من فوق « مِثْقَالَ » بالنصب على خبر كان ، وآسمها مضمر تقديره : مسألتك ، على ما روى ، أو المعصية والطاعة على القول الثاني ؛ ويدلّ على صحته قولُ ابن لقمان لأبيه : يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله؟ فقال لقمان له : « يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّـةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ » الآية . فما زال آبنـه يضطرب حتى مات؛ قاله مقاتل . والضمير في « إِنَّهَا » ضمير القصة؛ كقولك : إنها هند قائمة ؛ أي القصة إنها إن تك مثقال حبـة . والبصريون يجيزون : إنها زيد ضربته؛ بمعنى إن القصة . والكوفيون لا يجيزون هذا إلا في المؤنث كما ذكرنا . وقرأ نافع : « مِثقالُ » بالرفع، وعلى هذا « تكُ » يرجع إلى معنى خردلة؛ أي إن تك حبة من خردل . وقيل : أسند إلى المثقال فعلا فيه علامة التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنث هو منه؛ لأن مثقال الحبـة من الخردل إما سيئة أو حسنة؛ كما قال : « فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا »[3] فأنث وإن كان المِثل مذكرا؛ لأنه أراد الحسنات . وهذا كقول الشاعر :

مَشَيْنَ كما اهتزت رِماحٌ تسفّهَتْ * أعالِيَهـا مَرُّ الرياح النّـواسِمِ[4]

و « تَكُ » هاهنا بمعنى تقع فلا تقتضي خبرا .

---

(١) زيادة من ابن عطية . (٢) في جـ : « الجوزي » . (٣) في جـ : « الجـوزي » . راجع جـ ٧ ص ١٥٠ . (٤) البيت لذي الرمة . و «تسفهت» : استخفت ، والسفه خفة العقل وضعفه . و « النواسم » : الضـعيفة الهبوب . وصف نساء فيقول : إذا مشين اهتززن في مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ قيل : معنى الكلام المبالغة والانتهاء فى التفهيم ؛ أى أن قدرته تعالى تنال ما يكون فى تضاعيف صخرة وما يكون فى السماء والأرض . وقال ابن عباس : الصخرة تحت الأرضين السبع وعليها الأرض . وقيل : هى الصخرة على ظهر الحوت . وقال السُّدّى : هى صخرة ليست فى السموات والأرض، بل هى وراء سبع أرضين عليها مَلَك قائم ؛ لأنه قال : ﴿أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ وفيهما غُنْية عن قوله : « فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ » ؛ وهذا الذى قاله ممكن، ويمكن أن يقال : قوله : « فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ » تأكيد؛ كقوله : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ »[1]، وقوله : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا »[2] .

قوله تعالى : يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ وصّى ابنه بعُظْم الطاعات وهى الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهذا إنما يريد به بعد أن يمتثل ذلك هو فى نفسه ويزدجر عن المنكر ، وهنا هى الطاعات والفضائل أجمع . ولقد أحسن من قال :

وٱبدأ بنفسك فٱنهها عن غيّها * فإذا ٱنتهت عنه فأنت حكيم

فى أبيات تقدّم فى « البقرة » ذكرها[3] .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ يقتضى حضًّا على تغيير المنكر وإن نالك ضرر ؛ فهو إشعار بأن المغيِّر يؤذَى أحيانا ؛ وهذا القدر على جهة الندب والقوّة فى ذات الله ؛ وأما على اللزوم فلا ، وقد مضى الكلام فى هذا مستوفًى فى « آل عمران والمائدة »[4] . وقيل : أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها ، وألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عز وجل ؛ وهذا قول حسن لأنه يعمّ .

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١١٧ .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٤ .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٦٧ .
(٤) راجع جـ ٤ ص ٤٧ ، وجـ ٦ ص ٢٤٣ .

Marfat.com

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ قال ابن عباس : من حقيقة الإيمـان الصبرُ على المكاره . وقيل : إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من عزم الأمور ؛ أى مما عزمه الله وأمر به ؛ قاله ابن جريج . ويحتمـل إن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحَزم السالكين طريق النجاة . وقول ابن جريج أصوب .

قوله تعـالى : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائى وابن مُحَيْصِن : « تصاعر » بالألف بعد الصاد . وقـرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد : « تُصَعِّر » وقـرأ الجحدرى : « تُصْعر » بسكون الصاد؛ والمعنى متقارب . والصَّعَر : الميل؛ ومنه قول الأعرابى : وقد أقام الدهر صعرى، بعد أن أقمت صعره . ومنه قول عمرو بن حُنَىّ التغلبى :

وكنا إذا الجبّار صَعّر خدّه * أقمنا له من مَيْـله فتقوّمِ[(١)]

وأنشده الطبرى : « فتقوّمَا » . قال ابن عطية : وهو خطأ؛ لأن قافية الشعر مخفوضة[(٢)] .
وفى بيت آخر:

* أقمنـا له من خدّه المتصـعر *

قال الهروى : « ولا تصاعر » أى لا تعرِض عنهم تكبّرا عليهم ؛ يقال : أصاب البعيرَ صَعَرٌ وصَيَد إذ أصابه داء يَلْوِى منه عنقه . ثم يقال للتكبّر : فيه صَعَر وصَيَد؛ فمعنى : « لَا تُصَعِّر » أى لا تلزم خدّك الصَّعَر . وفى الحديث : "يأتى على الناس زمان ليس فيهم إلا أَصْعَرُ أو أبتر"

(١) يريد : فتقوم أنت . (٢) قبل هذا البيت كما فى معجم الشعراء للمرزبانى :

تعاطى الملوك الحق ما قصدوا بنا * وليس علينا قتلهم بمحـرم

قال المرزبانى : وهذا البيت ــ بيت الشاهد ــ يروى من قصيدة المتلمس التى أولها :

يعـيرنى أمى رجال ولن ترى * أخا كرم إلا بأن يتـكرما

Marfat.com

والأصعر : المعرض بوجهه كبرا؛ وأراد رُذالة النـاس الذين لا دين لهم . وفى الحـديث : "كلّ صعّار ملعونٌ" أى كل ذى أُبَّهة وكبر .

الثانيـــة — معنى الآية : ولا تُمِـل خدّك للناس كبرا عليهـم و إعجابا و احتقارا لهم . وهذا تأو يل ابن عباس و جماعة . وقيل : هو أن تلوى شِدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره ؛ فالمعنى : أقبـل عليهم متواضعا مؤنسا مستأنسا ، و إذا حدّثك أصغرهم فاصغ إليه حتى يكمل حديثه . وكذلك كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يفعل .

قلت : ومن هذا المعنى(١) ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عبـاد الله إخوانا ، ولا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث" . فالتدابر الإعراض وترك الكلام والسلام ونحوه . و إنمـا قيل للإعراض تدابر لأن من أبغضته أعرضت عنـه ووليته دبرك؛ وكذلك يصنع هو بك . ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك وواجهته لتسرّه و يسرّك ؛ فمعنى التدابر موجود فيمن صعّر خده، و به فسر مجاهد الآية . وقال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : قوله : « وَلَا تُصَاعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ » كأنه نهى أن يذلّ الإنسان نفسه من غير حاجة ؛ ونحو ذلك روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ليس للإنسان أن يذلّ نفسه" .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ولا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أى متبخترا متكبرا، مصدر فى موضع الحال، وقد مضى فى « سبحان »(٢) . وهو النشاط والمشى فرحا فى غير شغل وفى غير حاجة . وأهل هذا الخـُلُق ملازمون للفخر والخُيَلاء؛ فالمرِح مختال فى مشيته . روى يحيى ابن جابر الطائى عن ابن عائذ الأزدى عن غُضيف بن الحارث قال : أتيت بيت المقـدس أنا وعبد الله بن عبيد بن عُمير(٣) قال : فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاصى فسمعته يقول : إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول : يابن آدم ما غرّك بى ! ألم تعلم أنى بيت الوحدة ! ألم تعلم أنى بيت الظلمة : ألم تعلم أنى بيت الحق ! يابن آدم ماغرّك بى ! لقد كنت تمشى حولى

(١) فى جـ « ومن هذا الباب » . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٠ . (٣) ورد هذا الاسم مضطربا فى نسخ الأصل . والتصويب من تهذيب التهذيب .

Marfat.com

فَدَادا . قال ابن عائذ قلت لغُضيف : ما الفدَاد يا أبا أسماء ؟ قال : كبعض مِشيتك يابن أخى أحيانا . قال أبو عبيد : والمعنى ذا مال كثير وذا خُيلاء . وقال صلى الله عليه وسلم : " من جرّ ثوبه خُيَلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة ". والفخور : هو الذى يعدد ما أعطى ولا يشكر الله تعالى؛ قاله مجاهد . وفى اللفظة الفخر بالنسب وغير ذلك .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

فيـــه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ لما نهاه عن الخُلُق الذميم رسم له الخُلقَ الكريم الذى ينبغى أن يستعمله فقال : « وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ » أى توسّط فيه . والقصد : ما بين الإسراع والبطء؛ أى لا تَدِبّ دبيب المُتَمَاوتين ولا تَثب وثب الشطار؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن " . فأما ما روى عنه عليه السلام أنه كان إذا مشى أسرع ، وقول عائشة فى عمر رضى الله عنهما : كان إذا مشى أسرع ــ فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت ؛ والله أعلم . وقد مدح الله سبحانه مَن هذه صفته حسبما تقدّم بيانه فى « الفرقان »(١) .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ أى انقص منه؛ أى لا تتكلف رفع الصوت وخذ منـه ما تحتاج إليه ؛ فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلّف يؤذى . والمراد بذلك كله التواضع؛ وقد قال عمر لمؤذّن تكلّف رفع الأذان بأكثر من طاقته : لقد خشيت أن ينشق مُرَيْطَاؤك ! والمؤذّن هو أبو محذورة سَمُرة بن مِعير(٢) . والمُرَيطاء : ما بين السرة إلى العانة .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ أى أقبحها وأوحشها؛ ومنه أتانا بوجه منكر . والحمار مَثَل فى الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نُهاقه؛ ومن استفحاشهم

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٦٨ .		(٢) فى الأصول : « معمر » بالميم بدل الياء وهو تحريف .

Marfat.com

لذكره مجردا أنهم يكنون عنه و يرغبون عن التصريح فيقولون : الطويل الأذنين ؛ كما يكنى عن الأشياء المستقذرة . وقد عُدّ فى مساوئ الآداب أن يجرى ذكر الحمار فى مجلس قوم من أولى المروءة . ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا و إن بلغت منه الرُّجلة (١) . وكان عليه الصلاة والسلام يركبه تواضعا وتذللا لله تبارك وتعالى .

الرابعـة — فى الآية دليل على تعريف قبح رفع الصوت فى المخاطبة والمُلاحاة (٢) بقبح أصوات الحمير ؛ لأنها عالية . وفى الصحيح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوّذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا " . وقد روى : أنه (٣) ماصاح حمار ولا نبح كلب إلا أن يرى شيطانا . وقال سفيان الثّورى : صياح كل شىء تسبيح إلا نهيق الحمير . وقال عطاء : نهيق الحمير دعاء على الظلمة .

الخامسـة — وهذه (٤) الآية أدب من الله تعالى بترك الصياح فى وجوه الناس تهاونا (٥) بهم ، أو بترك الصياح جملة ؛ وكانت العرب تَفْخَر بجهارة الصوت الجَهِير وغير ذلك ، فمن كان منهم أشد صوتا كان أعز ، ومن كان أخفض كان أذل ، حتى قال شاعرهم :

جَهِير الكلام جهير العُطاس * جَهِير الرُّواء (٦) جهير النَّعَم
ويَعْدُو على الأَيْنَ عَدْوَى الظَّليم * ويعلو الرجال بخَلْق عَمَم (٧)

فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله : « إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » أى لو أن شيئا يهاب لصوته لكان الحمار ؛ فجعلهم فى المثل سواء .

السادسـة — قوله تعالى : ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ اللام للتأكيد، ووحد الصوت وإن كان مضافا إلى الجماعة لأنه مصدر والمصدر يدل على الكثرة ، وهو مصدر صات يَصُوت صَوْتا فهو صائت . ويقال : صوّت تصويتا فهو مصوِّت . ورجل صاتٌ أى شديد الصوت بمعنى صائت ؛ كقولهم : رجل مالٌ ونالٌ ؛ أى كثير المال والنوال .

(١) الرجلة (بضم فسكون) : المشى راجلا . (٢) الملاحاة : الملاومة والمباغضة .
(٣) لفظة «أنه» ساقطة من جـ . (٤) فى ك : «وفى هذه الآية إذن من الله تعالى بترك الصوت والصياح» .
(٥) فى جـ : «تهازيا» . (٦) الرواء (بالضم والمد) : المنظر الحسن . والنعم : الإبل .
(٧) الأين : الإعياء . والخلق العمم : التام .

Marfat.com

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ذكر نعمه على بنى آدم، وأنه سخّر لهم «مَا فِي السَّمٰوَاتِ» من شمس وقمر ونجوم وملائكة تحوطهم وتجر إليهم منافعهم . «وَمَا فِي الْأَرْضِ» عام فى الجبال والأشجار والثمار وما لا يحصى . ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ أى أكملها وأتمها . وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة : «وَأَصْبَغَ» بالصاد على بدلها من السين؛ لأن حروف الاستعلاء تجتذب السين من سُفلها إلى عُلوّها فتردّها صادا . والنِّعَم : جمع نِعمة كسِدْرة وسِدَر (بفتح الدال) وهى قراءة نافع وأبى عمرو وحفص . الباقون : « نِعمةً » على الإفراد؛ والإفراد يدلّ على الكثرة ؛ كقوله تعـالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »(١) . وهى قراءة ابن عبـاس من وجوه صحاح . وقيل : إن معناها الإسلام ؛ قال النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية : " الظاهرةُ الإسلام وما حَسُن من خَلْقك، والباطنة ما ستر عليك من سيّئ عملك". النحاس : وشرحُ هذا أن سعيد بن جُبير قال فى قول الله عز وجل : «وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ»(٢) قال : يدخلكم الجنة . وتمام نعمة الله عز وجل على العبد أن يدخله الجنة ، فكذا لمّـا كان الإسلام يئول أمره إلى الجنة سُمّى نعمة . وقيـل : الظاهرة الصحة وكمال الخلق ، والباطنة المعرفة والعقل . وقال المحاسبى : الظاهرة نعم الدنيا ، والبـاطنة نعم العُقْبى . وقيـل : الظاهرة ما يرى بالأبصار من المـال والجاه والجمال فى النـاس وتوفيق الطاعات ، والبـاطنة ما يجده المـرء فى نفسه من العلم بالله

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٦٦ فـا بعد .		(٢) راجع جـ ٦ ص ٨٠ فـا بعد .

Marfat.com

وحسن اليقين وما يدفع الله تعالى عن العبد من الآفات . وقد سرد الماوردي في هذا أقوالا تسعة ، كلها ترجع إلى هذا .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ﴾ تقدم معناها في « الحج »(١) وغيرها . نزلت في يهودي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، أخبرني عن ربك ، من أي شيء هو ؟ فجاءت صاعقة فأخذته ؛ قاله مجاهد . وقد مضى هذا في « الرعد »(٢) . وقيل : إنها نزلت في النضر بن الحارث ، كان يقول : إن الملائكة بنات الله ؛ قاله ابن عباس . ﴿ يُجَٰدِلُ ﴾ يخاصم ﴿ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ﴾ أي بغير حجة ﴿ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ أي نير بين ؛ إلا الشيطان فيما يلقي إليهم . « وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ »(٣) وإلا تقليد الأسلاف كما في الآية بعد . ﴿ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ يتبعونه .

قوله تعالى : وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى . ﴿ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾ لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع ؛ نظيره : « وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ »(٤) . وفي حديث جبريل قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" . ﴿ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ قال ابن عباس : لا إله إلا الله ؛ وقد مضى في « البقرة »(٥) . وقد قرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه والسلمي وعبد الله بن مسلم بن يسار : « وَمَن يُسَلِّمْ » . النحاس : و « يسلم » في هذا أعرف ؛ كما قال عز وجل : « فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ »(٦) ومعنى : « أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ » قصدت بعبادتي إلى الله عز وجل ؛ ويكون « يسلّم » على التكثير ؛ إلا أن المستعمل

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٥ و ١٥ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٩٨ . (٣) راجع جـ ٧ ص ٧٧ .
(٤) راجع جـ ١١ ص ٢٤٨ فما بعد . (٥) راجع جـ ٣ ص ٢٧٩ . (٦) راجع جـ ٤ ص ٤٥ .

Marfat.com

فى سلّمت أنه بمعنى دفعت ؛ يقال سلمت فى الحنطة ، وقد يقال أسلمت . الزمخشرى : قرأ علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : « وَمَنْ يُسَلِّمْ » بالتشديد ؛ يقال : أسلم أمرك وسلّم أمرك إلى الله تعالى ؛ فإن قلت : ماله عُدّى بإلى، وقد عدّى باللام فى قوله عز وجل : « بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ »[1] ؟ قلت : معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالما لله ؛ أى خالصا له . ومعناه مع إلى راجع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه . والمراد التوكل عليه والتفويض إليه . ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ أى مصيرها .

قوله تعالى : وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى نجازيهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ . ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ أى نبقيهم فى الدنيا مدّة قليلة يتمتعون بها . ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أى نلجئهم ونسوقهم . ﴿ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ وهو عذاب جهنم . ولفظ « مَن » يصلح للواحد والجمع ، فلهذا قال : « كُفْرُهُ » ثم قال : « مَرْجِعُهُمْ » وما بعده على المعنى .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أى هم يعترفون بأن الله خالقهن فلم يعبدون غيره . ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى على ما هدانا له من دينه ، وليس الحمد لغيره . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا ينظرون ولا يتدبّرون . ﴿ لِلَّهِ

(١) راجع جـ ٢ ص ٧٤ فما بعد .

Marfat.com

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى ملكا وخلقا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أى الغنى عن خلقه وعن عبادتهم ، وإنما أمرهم لينفعهم . ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ أى المحمود على صنعه .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

لما احتجّ على المشركين بما احتجّ بيّن أن معانى كلامه سبحانه لاتنفد،وأنها لا نهاية لها. وقال القفّال : لما ذكر أنه سخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض وأنه أسبغ النعم نبّه على أن الأشجار لو كانت أقلاما، والبحار مدادا فكتب بها عجائب صنع الله الدالّة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب . قال القُشَيْرِيّ : فردّ معنى تلك الكلمات إلى المقدورات، وحملُ الآية على الكلام القديم أولى ؛ والمخلوق لا بدّ له من نهاية ، فإذا نفيت النهاية عن مقدوراته فهو نفى النهاية عما يقدّر فى المستقبل على إيجاده، فأما ما حصره الوجود وعدّه فلابدّ من تناهيه، والقديمُ لا نهاية له على التحقيق . وقد مضى الكلام فى معنى « كَلِمَاتُ اللهِ » فى آخر « الكهف »[1] . وقال أبو علىّ : المراد بالكلمات والله أعلم ما فى المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود . وهذا نحو مما قاله القفّال، وإنما الغرض الإعلام بكثرة معانى كلمات الله وهى فى نفسها غير متناهية، وإنما قرّب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة ،لا أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور . ومعنى نزول الآية : يدلّ على أن المراد بالكلمات الكلام القديم . قال ابن عباس : إن سبب هذه الآية أن اليهود قالت : يا محمد ، كيف عُنينا بهذا القول « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »[2] ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه ، وعندك أنها تبيان كل شىء ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "التوراة قليل من كثير" ونزلت هذه الآية ، والآية مدنية . قال أبو جعفر النحاس : فقد تبيّن أن الكلمات ها هنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء ؛ لأنه عز وجل علم قبل أن

(١) راجع جـ ١١ ص ٦٨ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٤ .

Marfat.com

يخلق الخلق ما هو خالق فى السموات والأرض من كل شيء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر، وعلم الأجناس كلّها وما فيها من شعرة وعضو ، وما فى الشجرة من ورقة ، وما فيها من ضروب الخلق ، وما يتصرف فيـه من ضروب الطّعم واللون ؛ فلو سَمّى كل دابة وحدها ، وسَمّى أجزاءها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحوّلت عليه من الأحوال، وما زاد فيها فى كل زمان ، وبيّن كلّ شجرة وحدها وما تفرّعت إليه ، وقدّر ما ييبس من ذلك فى كل زمان ، ثم كتب البيان على كل واحد منها ما أحاط الله جل ثناؤه به منها، ثم كان البحر مدادا لذلك البيان الذى بيّن الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء يمدّه من بعده سبعة أبحر لكان البيان عن تلك الأشياء أكثر .

قلت : هذا معنى قول القفال ، وهو قول حسن إن شاء الله تعـالى . وقال قوم : إن قريشا قالت سيتم هذا الكلام لمحمد وينحسر ؛ فنزلت . وقال السدّى : قالت قريش ما أكثر كلام محمد ! فنزلت .

قوله تعـالى : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ ﴾ قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء ، وخبره فى الجملة التى بعدها ، والجمـلة فى موضع الحال ؛ كأنه قال : والبحر هـذه حاله ؛ كذا قدّرها سيبويه . وقال بعض النحويين : هو عطف على « أنّ » لأنها فى موضع رفع بالابتداء . وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحاق: «وَالْبَحْرَ» بالنصب على العطف على « ما » وهى اسم « أنّ » . وقيل : أى ولو أن البحر يمدّه أى يزيد فيه . وقرأ ابن هُرْمُز والحسن : « يُمِدّه » ؛ من أمدّ . قالت فرقة : هما بمعنًى واحد. وقالت فرقة : مدّ الشيء بعضه بعضا ؛ كما تقول : مدّ النيل الخليج ؛ أى زاد فيه . وأمدّ الشيء ماليس منه . وقد مضى هذا فى « البقرة . وآل عمران »(١) . وقرأ جعفر بن محمد: « والبحر مداده » . ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ تقدم(٢) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ تقدم أيضا(٣) . وقال أبو عبيدة : البحر ها هنا المـاء العذب الذى ينبت الأقلام ، وأما المـاء الملح فلا ينبت الأقلام .

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ وجـ ٤ ص ١٩٤ فما بعد . (٢) راجع جـ ١١ ص ٦٨ .
(٣) راجع جـ ٢ ص ١٣١ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ قال الضحاك : المعنى ما ابتداء خلقكم جميعا إلا كخلق نفس واحدة، وما بعثكم يوم القيامة إلا كبعث نفس واحدة . قال النحاس : وهكذا قدّره النحويون بمعنى إلا كخلق نفس واحدة؛ مثل : «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ»[1] . وقال مجاهد : لأنه يقول للقليل والكثير كن فيكون . ونزلت الآية فى أُبَىّ بن خلف وأبى الأسدين ومُنَبِّه[2] ونبيه ابنى الحجاج بن السباق ، قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قد خلقنا أطوارا ، نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما ، ثم تقول إنا نُبعث خَلْقًا جديدا جميعا فى ساعة واحدة ! فأنزل الله تعالى: «مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ» ؛ لأن الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد، وخَلْقُه للعالم كخلقه لنفس واحدة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لما يقولون ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بما يفعلون .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ تقدم فى «الحج وآل عمران»[3] . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى ذلّلهما بالطلوع والأفول تقديرا للآجال وإتماما للمنافع . ﴿ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قال الحسن : إلى يوم القيامة . قتادة :

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ فما بعد . (٢) كذا فى نسخ الأصل . وفى روح المعانى : « وأبى الأسود » .

(٣) فى الأصل : « الحج والأنعام » وهو تحريف . راجع جـ ١٢ ص ٩٠ وجـ ٤ ص ٥٦ .

Marfat.com

إلى وقته في طلوعه وأفوله لا يَعْدُوه ولا يَقْصُر عنه . ﴿ وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي من قدر على هذه الأشياء فلا بدّ من أن يكون عالمـا بها ، والعالم بها عالم بأعمالكم . وقراءة العامة « تَعْمَلُونَ » بالتاء على الخطاب . وقرأ السُّلَمِيّ ونصر بن عاصم والدُّورِيّ عن أبي عمرو بالياء على الخبر . ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي فعل الله تعالى ذلك لتعلموا وتقرّوا ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ أي الشيطان ؛ قاله مجاهد . وقيل : ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان . ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ العليّ في مكانته ، الكبير في سلطانه .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ ﴾ أي السفن ﴿ تَجْرِي ﴾ في موضع الخبر . ﴿ فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ ﴾ أي بلطفه بكم وبرحمته لكم في خلاصكم منه . وقرأ ابن هُرْمُز : « بنعمات الله » جمع نعمة وهو جمع السلامة ، وكان الأصل تحريك العين فأسكنت . ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾ « مِنْ » للتبعيض ، أي ليريكم جرى السفن ؛ قاله يحيى بن سلام . وقال ابن شجرة : « مِنْ آيَاتِهِ » ما تشاهدون من قدرة الله تعالى فيه . النقاش : ما يرزقهم الله منه . وقال الحسن : مفتاح البحار السفن ، ومفتاح الأرض الطرق ، ومفتاح السماء الدعاء . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي صبّار لقضائه شكور على نعمائه . وقال أهل المعاني : أراد لكل مؤمن بهذه الصفة ؛ لأن الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان . والآية : العلامة ، والعلامة لا تستبين في صدر كل مؤمن إنما تستبين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء . قال الشَّعْبِيّ : الصبر نصف الإيمان ، والشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله ؛ ألم تر إلى قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » وقوله : « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ »[1] وقال عليه السلام : " الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر " .

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٣٩ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ قال مقاتل : كالجبال . وقال الكلبي : كالسحاب ؛ وقاله قتادة — جمع ظُلّة ؛ شبّه الموج بها لكبرها وارتفاعها . قال النابغة في وصف بحر :

يماشيهن أخضر ذو ظلال * على حافاته فِلَقَ الدِّنان

وإنما شبّه الموج وهو واحد بالظل وهو جمع ؛ لأن الموج يأتي شيئا بعد شيء ويركب بعضه بعضا كالظلل . وقيل : هو بمعنى الجمع ، وإنما لم يجمع لأنه مصدر . وأصله من الحركة والازدحام ؛ ومنه : ماج البحر ، والناس يموجون . قال كعب :

فجئنا إلى موج من البحر وسطه * أحابيش منهم حاسر ومقنع

وقرأ محمد بن الحنفية : « مَوْجٌ كالظِّلال » جمع ظِلّ . ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ موحّدين له لا يدعون لخلاصهم سواه ؛ وقد تقدّم.(١) ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ ﴾ يعني من البحر . ﴿ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ قال ابن عباس : مُوفٍ بما عاهد عليه الله في البحر . النقاش : يعني عدل في العهد ، وفَى في البر بما عاهد عليه الله في البحر . وقال الحسن : «مُقْتَصِدٌ» مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة . وقال مجاهد : « مُقْتَصِدٌ » في القول مضمر للكفر . وقيل : في الكلام حذف ؛ والمعنى : فمنهم مقتصد ومنهم كافر . ودلّ على المحذوف قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ الختار : الغدار . والختر : أسوأ الغدر . قال عمرو بن معديكرب :

فإنك لو رأيت أبا عمير * ملأت يديك من غدر وختر

وقال الأعشى :

بالأبلق الفَرْدِ من تيماء منزلُهُ * حِصنٌ حَصين وجارٌ غيرُ خَتّار

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٥ .

قال الجوهري : الختر الغدر ؛ يقال : ختره فهو ختار . الماوردي : وهو قول الجمهور . وقال عطية : إنه الجاحد . ويقال : ختر يختِر ويختُر (بالضم والكسر) خترا ؛ ذكره القُشيري . وجحدُ الآيات إنكار أعيانها . والجحد بالآيات إنكار دلائلها .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (٣٣)

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ يعني الكافر والمؤمن ؛ أي خافوه ووحّدوه . ﴿ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ تقدّم معنى « يجزى » في البقرة[(١)] وغيرها . فإن قيل : فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث[(٢)] لم تمسّه النار إلا تحلّة القسم " . وقال : " من ابتلى بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كنّ له حجابا من النار " . قيل له : المعنىّ بهذه الآية أنه لا يحمل والدٌ ذنب ولده ، ولا مولود ذنب والده ، ولا يؤاخذ أحدهما عن الآخر . والمعنيُّ بالأخبار أن ثواب الصبر على الموت والإحسان إلى البنات يحجب العبد عن النار ، ويكون الولد سابقا له إلى الجنة . ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي البعث ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ﴾ أي تخدعنكم ﴿ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ بزينتها وما تدعوا إليه فتتكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العمل للآخرة ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ قراءة العامة هنا وفي سورة الملائكة[(٣)] والحديد[(٤)] بفتح الغين ، وهو الشيطان في قول مجاهد وغيره ، وهو الذي يغترّ الخلق ويمنّيهم الدنيا ويلهيهم عن الآخرة ؛ وفي سورة « النساء » : « يعدُهُم ويمنّيهم[(٥)] » . وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة وابن السَّمَيْقَع بضم الغين ؛ أي لا تغترّوا . كأنه مصدر غرّ يغر غُرورا . قال سعيد بن جُبير : هو أن يعمل بالمعصية ويتمنّى المغفرة .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧٧ . (٢) أي لم يبلغوا مبلغ الرجال ويجرى عليهم القلم فيكتب عليهم الحنث ؛ وهو الإثم . (٣) راجع ص ٣٢٢ من هذا الجزء . (٤) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٧ . (٥) راجع جـ ٥ ص ٣٩٥ .

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

زعم الفراء أن هذا معنى النفى ؛ أى ما يعلمه أحد إلا الله تعالى . قال أبو جعفر النحاس : وإنما صار فيه معنى النفى والإيجاب بتوقيف الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال فى قول الله عز وجل « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » : " إنها هذه " :

قلت : قد ذكرنا فى سورة «الأنعام»[1] حديث ابن عمر فى هذا، خرجه البخارى . وفى حديث جبريل عليه السلام قال : " أخبرنى عن الساعة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما المسئول عنها بأعلم من السائل، هن خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا " قال : " صدقت " . لفظ أبى داود الطيالسى . وقال عبد الله بن مسعود : كل شىء أوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم غير خمس : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » الآية إلى آخرها . وقال ابن عباس : هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى ، ولا يعلمها ملك مقرب ولا نبى مرسل ؛ فمن ادعى أنه يعلم شيئا من هذه فقد كفر بالقرآن ؛ لأنه خالفه . ثم إن الأنبياء يعلمون كثيرا من الغيب بتعريف الله تعالى إياهم . والمراد إبطال كون الكهنة والمنجمين ومن يستسق بالأنواء[2] وقد يعرف بطول التجارب أشياء من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك ؛ حسبما تقدم ذكره فى الأنعام[1] . وقد تختلف التجربة وتنكسر العادة ويبقى العلم لله تعالى وحده . وروى أن يهوديا كان يحسب حساب النجوم ، فقال لابن عباس : إن شئت نبأتك نجم ابنك، وأنه يموت بعد عشرة أيام،

(١) راجع ج ٧ ص ١ و ص ٢ فما بعد . (٢) الأنواء : جمع نوء، وهو سقوط نجم فى المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع آخر من المشرق يقابله فى ساعته . وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها .

Marfat.com

وأنت لا تمـوت حتى تعمى ، وأنا لا يحـول علىّ الحول حتى أموت . قال : فأين موتك يا يهودىّ؟ فقال : لا أدرى . فقال ابن عباس : صدق الله . «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُـوتُ » فرجع ابن عباس فوجد ابنه محموما ، ومات بعد عشرة أيام . ومات اليهودىّ قبل الحول ، ومات ابن عباس أعمى . قال علىّ بن الحسين راوى هذا الحديث : هـذا أعجب الأحاديث . وقال مقاتل : إن هـذه الآية نزلت فى رجل من أهـل البادية اسمـه الوارث ابن عمرو بن حارثة ، أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن امرأتى حبلى فأخبرنى ماذا تلد ، وبلادنا جدبة فأخبرنى متى ينزل الغيث ، وقد علمتُ متى وُلدت فأخبرنى متى أموت ، وقـد علمت ما عملت اليوم فأخبرنى ماذا أعمل غدا ، وأخبرنى متى تقوم الساعة ؟ فأنزل الله تعالى هـذه الآية؛ ذكره القُشَيْرِى والمـاوَرْدىّ . وروى أبو المَلِيح عن أبى عَزّة الهُـذَلىّ قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يَقْدَمَها — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — « إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ — إلى قوله — بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُـوتُ » ذكره المـاوردىّ، وخرّجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بمعناه . وقد ذكرناه فى كتاب (التذكرة) مستوفًى . وقراءة العامة : «وَيُنَزِّلُ» مشدّدا . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمـزة والكسائى مخففا . وقـرأ أُبَىّ بن كَعْب : « بِأَيَّةِ أَرْضٍ » الباقون «بِأَيِّ أَرْضٍ» . قال الفراء : اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أىّ . وقيل : أراد بالأرض المكان فذكّر . قال الشاعر :

فلا مُزْنة وَدَقَتْ ودْقَها * ولا أرضَ أبقَل إبقالَهـا[(١)]

وقال الأخفش : يجوز مررت بجارية أىّ جارية ، وأيّة جارية . وشبه سيبويه تأنيث «أىّ» بتأنيث كُلّ فى قولهم : كُلَّتُهُنّ . ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِـيرٌ﴾ « خَبِيرٌ » نعت لـ « عليم » أو خبر بعد خبر . والله تعالى أعلم .

(١) القائل هو عامر بن جوين الطائى . وصف أرضا مخصبة لكثرة ما نزل بها من الغيث . والمزنة : السحابة . والودق : المطر .

Marfat.com

تفسير سورة السجدة

وهى مكية ، غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة ؛ وهى قوله تعالى : « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا » تمام ثلاث آيات ؛ قاله الكلبي ومقاتل . وقال غيرهما : إلا خمس آيات ، من قوله تعالى : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ[1] — إلى قوله — الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ » . وهى ثلاثون آية . وقيل تسع وعشرون . وفى الصحيح عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة « الم . تَنْزِيلُ » السجدة ، و « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » الحديث . وخرج الدارمي أبو محمد فى مسنده عن جابر بن عبد الله قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ : « الم . تَنْزِيلُ » السجدة . و « تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ » . قال الدارمي : وأخبرنا أبو المغيرة قال حدثنا عبدة عن خالد بن مَعْدان قال : اقرءوا المنجية ، وهى « الم . تَنْزِيلُ » فإنه بلغنى أن رجلا كان يقرؤها ، ما يقرأ شيئا غيرها ، وكان كثير الخطايا ؛ فنشرت جناحها عليه وقالت : ربّ اغفر له فإنه كان يُكثر من قراءتى ؛ فشفّعها الربّ فيه وقال : "اكتبوا له بكل خطيئة حسنة وارفعوا له درجة" .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : الم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ الم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ الإجماع على رفع « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ » ولو كان منصوبا على المصدر لجاز ؛ كما قرأ الكوفيون : « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ »[1] . و « تَنْزِيلُ » رفع بالابتداء والخبر ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ . أو خبر على إضمار مبتدأ ؛ أى هذا تنزيل ، أو المتلو تنزيل ، أو هذه الحروف تنزيل . ودلّت : « الم »

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣ فما بعد .

على ذكر الحروف . ويجوز أن يكون « لَا رَيْبَ فِيهِ » في موضع الحال من « الْكِتَابِ » . و﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الخبر . قال مكيّ : وهو أحسنها . ومعنى : « لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » لا شك فيه أنه من عند الله؛ فليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأوّلين .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ هذه « أَمْ » المنقطعة التي تقدّر ببل وألف الاستفهام؛ أي بل أيقولون . وهي تدلّ على خروج من حديث إلى حديث؛ فإنه عز وجلّ أثبت أنه تنزيل من رب العالمين، وأن ذلك مما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أي افتعله واختلقه . ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ كذّبهم في دعوى الافتراء . ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا ﴾ قال قتادة : يعني قريشا، كانوا أمّة أميّة لم يأتهم نذير من قبل محمد صلى الله عليه وسلم . و« لِتُنْذِرَ » متعلق بما قبلها فلا يوقف على « مِنْ رَبِّكَ » . ويجوز أن يتعلق بمحذوف؛ التقدير: أنزله لتنذر قوما، فيجوز الوقف على « مِنْ رَبِّكَ » . و« ما » في قوله : ﴿ مَا أَتَاهُمْ ﴾ نفي . ﴿ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ صلة . و« نَذِيرٍ » في محل الرفع، وهو المُعْلِم المُخَوِّف . وقيل : المراد بالقوم أهل الفَتْرة بين عيسى ومحمد عليهما السلام؛ قاله ابن عباس ومقاتل . وقيل : كانت الحجة ثابتة لله جل وعز عليهم بإنذار من تقدّم من الرسل وإن لم يروا رسولا؛ وقد تقدّم هذا المعنى[1] .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢١ .

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ عرّفهم كمال قدرته ليسمعوا القرآن و يتأملوه . ومعنى: « خَلَقَ » أبدع وأوجد بعد العدم و بعد أن لم تكن شيئا . ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة . قال الحسن : من أيام الدنيا . وقال ابن عباس : إن اليوم من الأيام الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض مقدارُه ألف سنة من سِنِى الدنيا . وقال الضحاك : فى ستة آلاف سنة ؛ أى فى مدّة ستة أيام من أيام الآخرة . ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدّم فى الأعراف والبقرة وغيرهما(١)، وذكرنا ما للعلماء فى ذلك مستوفى فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) . وليست « ثُمَّ » للترتيب وإنما هى بمعنى الواو . ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أى ما للكافرين من ولىّ يمنع من عذابهم ولا شفيع . ويجوز الرفع على الموضع . ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ فى قدرته ومخلوقاته .

قوله تعالى : يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يُنزل القضاءَ والقدر . وقيل : ينزل الوحى مع جبريل . وروى عمرو بن مرّة عن عبد الرحمن بن سابط قال : يدبّر أمر الدنيا أربعة : جبريل ، وميكائيل، ومَلَك الموت ، وإسرافيل ؛ صلوات الله عليهم أجمعين . فأما جبريل فموكّل بالرياح والجنود . وأما ميكائيل فموكّل بالقطر والماء . وأما مَلَك الموت موكّل بقبض الأرواح . وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم . وقد قيل : إن العرش موضع التدبير؛ كما أن مادون العرش موضع التفصيل؛ قال الله تعالى: « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ »(٢) . وما دون السموات موضع التصريف؛ قال الله تعالى : « وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا »(٣) .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ وجـ ١ ص ٢٥٤ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٩ فما بعد .

(٣) راجع جـ ١٣ ص ٥٧ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ قال يحيى بن سلام : هو جبريل يصعَد إلى السماء بعد نزوله بالوحى . النقاش : هو المَلَك الذى يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض . وقيل : إنها أخبار أهل الأرض تصعَد إليه مع حملتها من الملائكة ؛ قاله ابن شجرة . ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ . وقيل : « ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ » أى يرجع ذلك الأمر والتدبير إليه بعد انقضاء الدنيا « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ » وهو يوم القيامة . وعلى الأقوال المتقدّمة فالكناية فى « يَعْرُجُ » كناية عن المَلَك، ولم يجرله ذكر لأنه مفهوم من المعنى، وقد جاء صريحا فى « سَأَلَ سَائِلٌ » قوله : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ »[(1)] . والضمير فى ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يعود على السماء على لغة من يذكّرها، أو على مكان الملك الذى يرجع إليه، أو على اسم الله تعالى؛ والمراد إلى الموضع الذى أقره فيه، وإذا رجعت إلى الله فقد رجعت إلى السماء، أى إلى سدرة المنتهى؛ فإنه إليها يرتفع ما يصعد به من الأرض ومنها ينزل ما يهبط به إليها؛ ثبت معنى ذلك فى صحيح مسلم . والهاء فى « مِقْدَارُهُ » راجعة إلى التدبير؛ والمعنى : كان مقدار ذلك التدبير ألف سنة من سِنِي الدنيا ؛ أى يقضى أمر كل شيء لألف سنة فى يوم واحد ، ثم يلقيه إلى ملائكته ، فإذا مضت قضى لألف سنة أخرى ، ثم كذلك أبدا ؛ قاله مجاهد . وقيل : الهاء للعروج . وقيل : المعنى أنه يدبّر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، ثم يعرج إليه ذلك الأمر فيحكم فيه فى يوم كان مقداره ألف سنة . وقيل : المعنى يدبر أمر الشمس فى طلوعها وغروبها ورجوعها إلى موضعها من الطلوع ، فى يوم كان مقداره فى المسافة ألف سنة . وقال ابن عباس : المعنى كان مقداره لو ساره غير المَلَك ألف سنة ؛ لأن النزول خمسمائة والصعود خمسمائة . وروى ذلك عن جماعة من المفسرين ، وهو اختيار الطبرى ؛ ذكره المهدوى . وهو معنى القول الأول . أى أن جبريل لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة فى يوم من أيامكم ؛ ذكره الزمخشرى . وذكر الماوردى عن ابن عباس والضحاك أن المَلَك يصعد فى يوم مسيرة ألف سنة . وعن قتادة أن المَلَك ينزل ويصعد في يوم مقداره ألف سنة ؛ فيكون مقدار

(1) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٨ .

Marfat.com

نزوله خمسمائة سنة ، ومقدار صعوده خمسمائة على قول قتادة والسدّى . وعلى قول ابن عباس والضحاك : النزول ألف سنة ، والصعود ألف سنة . ﴿ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أى مما تحسبون من أيام الدنيا . وهذا اليوم عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة من سِنِي العالَم ، وليس بيوم يستوعب نهارا بين ليلتين ؛ لأن ذلك ليس عند الله . والعرب قد تعبّر عن مدّة العصر باليوم ؛ كما قال الشاعر :

يومان يومُ مُقامات وأندية * ويومُ سير إلى الأعداء تأويب (١)

وليس يريد يومين مخصوصين ، وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين ، فعبّر عن كل واحد من الشطرين بيوم . وقرأ ابن أبى عبلة : « يُعْرَجُ » على البناء للمفعول . وقرئ : « يَعُدُّونَ » بالياء . فأما قوله تعالى : « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » فمشكل مع هذه الآية . وقد سأل عبد الله بن فيروز الدّيلمى عبدَ الله بن عباس عن هذه الآية وعن قوله : « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » فقال : أيام سمّاها سبحانه ، وما أدرى ما هى ؟ فأكره أن أقول فيها مالا أعلم . ثم سئل عنها سعيد بن المسيّب فقال : لا أدرى . فأخبرته بقول ابن عباس فقال ابن المسيّب للسائل : هذا ابن عباس اتّقى أن يقول فيها وهو أعلم منى . ثم تكلم العلماء فى ذلك فقيل : إن آية « سَأَلَ سَائِلٌ » هو إشارة إلى يوم القيامة ، بخلاف هذه الآية . والمعنى : أن الله تعالى جعله فى صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة ؛ قاله ابن عباس . والعرب تصف أيام المكروه بالطول وأيام السرور بالقصر . قال :

ويوم كظلّ الرمح قصّر طوله * دمُ الزّق عنّا واصطفاقُ المزاهر

وقيل : إن يوم القيامة فيه أيام ؛ فمنه ما مقداره ألف سنة ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة . وقيل : أوقات القيامة مختلفة ، فيعذّب الكافر بجنس من العذاب ألف سنة ، ثم ينتقل إلى جنس آخر مدّته خمسون ألف سنة . وقيل : مواقف القيامة خمسون موقفا ، كلّ موقف ألف سنة . فمعنى : « يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ » أى مقدار

(١) البيت لسلامة بن جندل . والتأويب فى كلام العرب : سير النهار كله إلى الليل . يقال : أوّب القوم تأويبا أى ساروا بالنهار .

Marfat.com

وقت ، أو موقف من يوم القيامة . وقال النحاس : اليوم فى اللغة بمعنى الوقت ؛ فالمعنى : تعرج الملائكة والروح إليه فى وقت كان مقداره ألف سنة ، وفى وقت آخر كان مقداره خمسين ألف سنة . وعن وهب بن منبّه « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » قال : ما بين أسفل الأرض إلى العرش . وذكر الثعلبيّ عن مجاهد وقتادة والضحاك فى قوله تعالى : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »(١) أراد من الأرض إلى سدرة المنتهى التى فيها جبريل . يقول تعالى : يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة فى يوم واحد من أيام الدنيا . وقوله : ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يعنى إلى المكان الذى أمرهم الله تعالى أن يعرجوا إليه . وهذا كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ »(٢) أراد أرض الشام . وقال تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ »(٣) أى إلى المدينة . وقال أبو هريرة قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أتانى مَلَك من ربى عز وجل برسالة ثم رفع رجله فوضعها فوق السماء والأخرى على الأرض لم يرفعها بعد " .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى عِلم ما غاب عن الخلق وما حضرهم . و « ذَٰلِكَ » بمعنى أنا . حسبما تقدّم بيانه فى أوّل البقرة(٤) . وفى الكلام معنى التهديد والوعيد؛ أى أخلصوا أفعالكم وأقوالكم فإنى أجازى عليها .

قوله تعالى : الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

(١) راجع ص ٨٧ و ٨٨ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٩٨ .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٤٧ فما بعد . (٤) راجع جـ ١ ص ١٥٧ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : « خَلْقَهُ » بإسكان اللام . وفتحها الباقون . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم طلبا لسهولتها . وهو فعل ماض فى موضع خفض نعت لـ « شىء » . والمعنى على ما روى عن ابن عباس : أحكم كل شىء خلقه ، أى جاء به على ما أراد ، لم يتغير عن إرادته . وقول آخر — أن كل شىء خلقه حسن ؛ لأنه لا يقدر أحد أن يأتى بمثله ؛ وهو دال على خالقه . ومن أسكن اللام فهو مصدر عند سيبويه ؛ لأن قوله : « أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ » يدل على : خلق كل شىء خلقا ، فهو مثل : « صُنْعَ اللَّهِ »(١) و « كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ »(٢) . وعند غيره منصوب على البدل من « كل » أى الذى أحسن خلق كل شىء . وهو مفعول ثان عند بعض النحويين ، على أن يكون معنى : « أَحْسَنَ » أفهم وأعلم ، فيتعدى إلى مفعولين ، أى أفهم كل شى خلقه . وقيل : هو منصوب على التفسير ؛ والمعنى : أحسن كل شىء خلقا . وقيل : هو منصوب بإسقاط حرف الجر ، والمعنى : أحسن كل شىء فى خلقه . وروى معناه عن ابن عباس و ﴿ أَحْسَنَ ﴾ أى أتقن وأحكم ؛ فهو أحسن من جهة ما هو لمقاصده التى أريد لها . ومن هذا المعنى قال ابن عباس وعكرمة : ليست است القرد بحسنة ، ولكنها متقنة محكمة . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد « أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ » قال : أتقنه . وهو مثل قوله تبارك وتعالى : « الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ »(٣) أى لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ، ولا خلق البهيمة [على] خلق الإنسان . ويجوز : « خلقه » بالرفع ؛ على تقدير ذلك خلقه . وقيل : هو عموم فى اللفظ خصوص فى المعنى ؛ والمعنى : حسّن خلق كل شىء حسن . وقيل : هو عموم فى اللفظ والمعنى ، أى جعل كل شى خلقه حسنا ، حتى جعل الكلب فى خلقه حسنا ؛ قاله ابن عباس . وقال قتادة : فى است القرد حسنة .

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ يعنى آدم . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ تقدم فى « المؤمنون »(٤) وغيرها . وقال الزجاج : « مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » ضعيف .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ فما بعد . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٢٠ .
(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٠٣ فما بعد . (٤) راجع جـ ١٢ ص ١٠٩

Marfat.com

وقال غيره : «مَهِين» لا خطر له عند الناس . ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ رجع الى آدم، أى سوّى خلقه . ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ ثم رجع الى ذرّيتـه فقال : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ . وقيل : ثم جعل ذلك الماء المَهين خلقا معتدلا، وركّب فيه الروح وأضافه إلى نفسه تشريفا . وأيضا فإنه من فعله وخلقه كما أضاف العبد إليه بقوله : « عَبْدِى » . وعبّر عنه بالنفخ لأن الروح فى جنس الريح . وقد مضى هـذا مبيَّنا فى « النساء »[1] وغيرها . ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أى ثم أنتم لا تشكرون بل تكفرون .

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ۝١٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ﴾ هـذا قول منكرى البعث ؛ أى هلكنا وبطلنا وصرنا ترابا . وأصله من قول العرب : ضلّ الماء فى اللبن إذا ذهب . والعرب تقول للشئ غلب عليه غيره حتى خفى فيه أثره : قد ضلّ . قال الأخطل :

كنتَ القَذَى فى موجٍ أكدرَ مُزْبِد * قـذف الأتىّ به فضلّ ضلالا

وقال قُطْرُب : معنى ضَلَلْنا غِبنا فى الأرض . وأنشد قول النابغة الذبيانى :

فآبَ مُضِلّوه بعين جَلِيّة * وغُودِر بالجَوْلانِ حَزْمٌ ونائلُ

وقرأ ابن مُحَيصن ويحيى بن يعمر : « ضَلِلْنَا » بكسر اللام، وهى لغة . قال الجوهرى : وقد ضللت أضِل قال الله تعالى : « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى »[2] . فهذه لغة نجد وهى الفصيحة . وأهل العالية يقولون : « ضَلِلْتُ » — بكسر اللام — أَضَلّ . وهو ضالّ تالّ ، وهى الضلالة والتلالة . وأضلّه أى أضاعه وأهلكه . يقال : أُضِلّ الميّت إذا دفن . قال :

* فآب مُضِلوه ... ... * البيت .

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٢ . (٢) راجع ص ٣١٣ من هذا الجزء .

Marfat.com

ابن السِّكِّيت . أضللت بعيرى إذا ذهب منك . وضللت المسجد والدار : إذا لم تعرف موضعهما . وكذلك كل شىء مقيم لا يهتدى له . وفى الحديث "لعلّى أَضِل الله" يريد أضل عنه، أى أخفى عليه، من قوله تعالى : «أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» أى خفينا . وأضله الله فضَلّ؛ تقول : إنك تهدى الضالّ ولا تهدى المتضال . وقرأ الأعمش والحسن : «صَلَلْنَا» بالصاد؛ أى أنتنّا . وهى قراءة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . النحاس : ولا يعرف فى اللغة صللنا ولكن يقال : صلّ اللحمُ وأصلّ ، وخَمّ وأخمّ إذا أنتن . الجوهرىّ : صلّ اللحم يصِلّ — بالكسر — صلولا، أى أنتن، مطبوخا كان أو نيئًا . قال الحُطَيئة :

ذاك فتًى يبـذُل ذا قِدرِه * لَا يُفْسِدُ اللحمَ لديه الصُّلولُ

وأَصَلّ مثله . ﴿إِنَّا(١) لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أى نخلق بعد ذلك خلقا جديدا؟ ويقرأ: «أَئِنّا» . النحاس : وفى هـذا سؤال صعب من العربية ؛ يقال : ما العامل فى « إِذَا » ؟ و « إِنّ » لا يعمل ما بعدها فيما قبلها . والسؤال فى الاستفهام أشدّ ؛ لأن ما بعـد الاستفهام أجدر؛ ألا يعمل فيما قبله من « إن » كيف وقد اجتمعا . فالجواب على قراءة من قرأ : «إِنا» أن العامل «ضَلَلْنَا» ، وعلى قراءة من قرأ : «أَئِنّا» أن العامل مضمر، والتقدير أنبعث إذا متنا . وفيه أيضا سؤال آخر، يقال: أين جواب « إذا » على القراءة الأولى لأن فيها معنى الشرط؟ فالقول فى ذلك أن بعدها فعلا ماضيا ؛ فلذلك جاز هـذا . ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ أى ليس لهم جحـود قدرة الله تعالى عن الإعادة؛ لأنهم يعترفون بقدرته ولكنهم اعتقدوا أن لا حساب عليهم، وأنهم لا يلقون الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

فيه مسألتان :

---

(١) قوله : « إنا » قراءة نافع ، وعليها جرى المؤلف .

Marfat.com

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾ لما ذكر استبعادهم للبعث ذكر توفّيهم وأنه يعيدهم . ﴿ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ من توفى العدد والشئ إذا استوفاه وقبضه جميعا . يقال : توفاه الله أى استوفى روحه ثم قبضه . وتوفيت مالى من فلان أى استوفيته . ﴿ مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾ واسمه عزرائيل ومعناه عبد الله ؛ كما تقدّم فى «البقرة»(١) . وتصرّفه كلّه بأمر الله تعالى وبخلقه واختراعه . وروى فى الحديث أن " البهائم كلّها يتوفّى الله أرواحها دون مَلَك الموت " كأنه يعدم حياتها ؛ ذكره ابن عطية .

قلت : وقد روى خلافه ، وأن مَلَك الموت يتوفّى أرواح جميع الخلائق حتى البرغوث والبعوضة . روى جعفر بن محمد عن أبيه قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مَلَك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ارفق بصاحبي فإنه مؤمن " فقال مَلَك الموت عليه السلام : " يا محمد ، طب نفسا وقرّ عينًا فإنى بكل مؤمن رفيق . واعلم أن ما من أهل بيت مَدَر ولا شعر فى برّ ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم . والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها " . قال جعفر ابن علىّ : بلغنى أنه يتصفّحهم عند مواقيت الصلوات ؛ ذكره الماوردىّ . وذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت البغدادىّ قال : حدّثنى أبو محمد الحسن بن محمد الخلال قال : حدّثنا أبو محمد عبد الله بن عثمان الصفّار قال حدّثنا أبو بكر حامد المصرى قال حدّثنا يحيى بن أيوب العلاف قال حدثنا سليمان بن مُهير الكلابىّ قال: حضرت مالك بن أنس رضى الله عنه فأتاه رجل فسأله : أبا عبد الله، البراغيث أملَك الموت يقبض أرواحها؟ قال : فأطرق مالك طويلا ثم قال : ألها أنفس ؟ قال نعم . قال : مَلَك الموت يقبض أرواحها ؛ « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا »(٢) . قال ابن عطية بعد ذكره الحديث : وكذلك الأمر فى بنى آدم ، إلا أنه نوعُ شَرَف بتصرف مَلَك وملائكة معه فى قبض أرواحهم . فخلق الله تعالى مَلَك

(١) راجع ج ٢ ص ٣٨ . (٢) راجع ج ١٥ ص ٢٦٠ فما بعد .

Marfat.com

الموت وخلق على يديه قبض الأرواح، واستلالها من الأجسام وإخراجها منها. وخلق الله تعالى جندا يكونون معه يعملون عمله بأمره؛ فقال تعالى: «وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ» (١)، وقال تعالى: «تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا» (٢) وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام». والبارئ خالق الكل، الفاعل حقيقة لكل فعل؛ قال الله تعالى: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا». «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ» (٣). «يُحْيِي وَيُمِيتُ». فملك الموت يقبض والأعوان يعالجون والله تعالى يُزْهِق الروح. وهذا هو الجمع بين الآي والأحاديث؛ لكنه لما كان مَلَك الموت متولّي ذلك بالوساطة والمباشرة أضيف التوفّي إليه كما أضيف الخلق للملك؛ كما تقدم في «الحج» (٤). وروى عن مجاهد أن الدنيا بين يدى مَلَك الموت كالطّست بين يدى الإنسان يأخذ من حيث شاء. وقد روى هذا المعنى مرفوعا، وقد ذكرناه في (كتاب التذكرة). وروى أن مَلَك الموت لما وكّله الله تعالى بقبض الأرواح قال: ربّ جعلتني أُذكر بسوء ويشتمني بنو آدم. فقال الله تعالى له: "إني أجعل للموت عللا وأسبابا من الأمراض والأسقام ينسبون الموت إليها فلا يذكرك أحد إلا بخير". وقد ذكرناه في التذكرة مستوفًى — وقد ذكرنا أنه يدعو الأرواح فتجيئه ويقبضها، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة أو العذاب — بما فيه شفاء لمن أراد الوقوف على ذلك.

الثانية — استدلّ بهذه الآية بعض العلماء على جواز الوكالة من قوله: ﴿وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أى بقبض الأرواح. قال ابن العربي: «وهذا أخذ من لفظه لا من معناه، ولو اطّرد ذلك لقلنا في قوله تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا» (٥): إنها نيابة عن الله تبارك وتعالى ووكالة في تبليغ رسالته، ولقلنا أيضا في قوله تبارك وتعالى: «وَآتُوا الزَّكَاةَ» (٤) إنه وكالة؛ فإن الله تعالى ضمن الرزق لكلّ دابة وخصّ الأغنياء بالأغذية وأوعز إليهم بأن رزق الفقراء عندهم، وأمر بتسليمه إليهم مقدارا معلوما في وقت معلوم، دبّره بعلمه، وأنفذه

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٨. (٢) راجع جـ ٧ ص ٦ وص ٩٩. (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٦.
(٤) راجع جـ ١٢ ص ٧ وص ٩٩. (٥) راجع جـ ٧ ص ٣٠١ فما بعد.

Marfat.com

من حكمه، وقدّره بحكمته . والأحكام لا تتعلق بالألفاظ إلا أن ترد على موضوعاتها الأصلية في مقاصدها المطلوبة، فإن ظهرت في غير مقصدها لم تعلّق عليها . ألا ترى أن البيع والشراء معلوم اللفظ والمعنى، وقد قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ» (١) ولا يقال : هذه الآية دليل على جواز مبايعة السيد لعبده ؛ لأن المقصدين مختلفان. أما إنه إذا لم يكن بدّ من المعاني فيقال : إن هذه الآية دليل على أن للقاضي أن يستنيب من يأخذ الحق ممن هو عليه قسرًا دون أن يكون له في ذلك فعل، أو يرتبط به رضًا إذا وجد ذلك .

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ابتداء وخبر . قال الزجاج : والمخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم مخاطبةٌ لأمته . والمعنى : ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب . ومذهب أبي العباس غير هذا، وأن يكون المعنى : يا محمد، قل للمجرم ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم لندمت على ما كان منك . «نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ» أي من الندم والخزي والحزن والذلّ والغم . «عِنْدَ رَبِّهِمْ» أي عند محاسبة ربهم وجزاء أعمالهم . «رَبَّنَا» أي يقولون ربنا . «أَبْصَرْنَا» أي أبصرنا ما كنا نكذب . «وَسَمِعْنَا» ما كنا ننكر . وقيل : «أَبْصَرْنَا» صدق وعيدك . «وَسَمِعْنَا» تصديق رسلك . أبصروا حين لا ينفعهم البصر، وسمعوا حين لا ينفعهم السمع . «فَارْجِعْنَا» أي إلى الدنيا . «نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ» أي مصدقون بالبعث؛ قاله النقاش . وقيل : مصدقون بالذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أنه حق ؛ قاله يحيى بن سلام . قال سفيان الثوري : فأكذبهم الله تعالى فقال : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٢). وقيل : معنى «إِنَّا مُوقِنُونَ» أي قد زالت عنا الشكوك الآن ؛ وكانوا يسمعون ويبصرون في الدنيا ، ولكن لم يكونوا

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٦٦ فما بعد . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤٠٩ فما بعد .

Marfat.com

يتدبرون ، وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع، فلما تنبهوا فى الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا . وقيل : أى ربنا لك الحجة ، فقد أبصرنا رسلك وعجائب خلقك فى الدنيا، وسمعنا كلامهم فلا حجة لنا . فهذا اعتراف منهم ، ثم طلبوا أن يردّوا إلى الدنيا ليؤمنوا .

قوله تعالى : وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾

قال محمد بن كعب القُرَظىّ : لما قالوا : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » ردّ عليهم بقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ يقول : لو شئت لهديت الناس جميعا فلم يختلف منهم أحد ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ الآية ؛ ذكره ابن المبارك فى « رقائقه » فى حديث طويل . وقد ذكرناه فى « التذكرة » . النحاس : « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » فى معناه قولان : أحدهما — أنه فى الدنيا . والآخر — أن سياق الكلام يدلّ على أنه فى الآخرة؛ أى لو شئنا لرددناهم إلى الدنيا والمحنة كما سألوا . « وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » أى حق القول منى لأعذّبن من عصانى بنار جهنم . وعلم الله تبارك وتعالى [أنه] لو ردهم لعادوا؛ كما قال تعالى : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » .

وهذه الهداية معناها خلق المعرفة فى القلب . وتأويل المعتزلة : ولو شئنا لأكرهناهم على الهداية بإظهار الآيات الهائلة ، لكن لا يحسن منه فعله ؛ لأنه ينقض الغرض المُجْرَى بالتكليف إليه وهو الثواب الذى لا يُستحق إلا بما يفعله المكلف باختياره . وقالت الإمامية فى تأويلها : إنه يجوز أن يريد هداها إلى طريق الجنة فى الآخرة ولم يعاقب أحدا، لكن حق القول منه أنه يملأ جهنم ، فلا يجب على الله تعالى عندنا هداية الكل إليها ؛ قالوا : بل الواجب هداية المعصومين ، فأما من له ذنب فجائز هدايته إلى النار جزاء على أفعاله . وفى جواز ذلك منع ؛ لقطعهم على أن المراد هداها إلى الإيمان . وقد تكلم

Marfat.com

العلماء عليهم فى هذين التأويلين بما فيه كفاية فى أصول الدين . وأقرب مالهم فى الجواب أن يقال: فقد بطل عندنا وعندكم أن يهديهم الله سبحانه على طريق الإلجاء والإجبار والإكراه ، فصار يؤدّى ذلك إلى مذهب الجبرية ، وهو مذهب رذل عندنا وعندكم؛ فلم يبق الا أن المهتدين من المؤمنين إنما هداهم الله تعالى إلى الإيمان والطاعة على طريق الاختيار حتى يصح التكليف فمن شاء آمن وأطاع اختيارا لاجبرا ؛ قال الله تعالى : « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ »(١) ، وقال : «فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا»(١) . ثم عقّب هاتين الآيتين بقوله تعالى: « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . [فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم ، ونفى أن يشاءوا إلا أن يشاء الله](٢)؛ ولهذا فرّطت المجبرة لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق(٣) بمشيئة الله تعالى ، فقالوا : الخلق مجبورون فى طاعتهم كلها ، التفاتاً إلى قوله : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . وفرطت القدرية لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق بمشيئة العباد ، فقالوا : الخلق خالقون لأفعالهم ، التفاتا منهم إلى قوله تعالى : « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ » . ومذهبنا هو الاقتصاد فى الاعتقاد ، وهو مذهب بين مذهبي المجبرة والقدرية ؛ وخير الأمور أوساطها . وذلك أن أهل الحق قالوا : نحن نفرق بين ما اضطررنا إليه وبين ما اخترناه ، وهو أنا ندرك تفرقة بين حركة الارتعاش الواقعة فى يد الإنسان بغير محاولته و إرادته ولا مقرونة بقدرته ، وبين حركة الاختيار إذا حرّك يده حركة مماثلة لحركة الارتعاش؛ ومن لا يفرق بين الحركتين : حركة الارتعاش وحركة الاختيار ، وهما موجودتان فى ذاته ومحسوستان فى يده بمشاهدته و إدراك حاسته — فهو معتوه فى عقله ومختلّ فى حسه ، وخارج من حزب العقلاء . وهذا هو الحق المبين ، وهو طريق بين طريق الإفراط والتفريط . و :

* كلا طرفَيْ قصد الأمور ذميم(٤) *

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٣٩ فما بعد وص ١٥٠ .
(٢) ما بين المربعين ساقط من جـ ، ك .
(٣) كذا فى نسخ الأصل : « ولعلها مقرونة » .
(٤) هذا عجز بيت وصدره :

* ولا تغل فى شىء من الأمر واقتصد *

وبهذا الاعتبار اختار أهل النظر من العلماء أن سمّوا هذه المنزلة بين المنزلتين كَسْبًا ، وأخذوا هذه التسمية من كتاب الله العزيز، وهو قوله سبحانه : «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ»(١) .

قوله تعالى : فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)

قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ فيه قولان : أحدهما — أنه من النسيان الذي لا ذكر معه ؛ أي لم يعملوا لهذا اليوم فكانوا بمنزلة الناسين . والآخر — أن «نَسِيتُمْ» بما تركتم، وكذا «إِنَّا نَسِينَاكُمْ» . واحتج محمد بن يزيد بقوله تعالى : «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ»(٢) قال : والدليل على أنه بمعنى ترك أن الله عز وجل أخبر عن إبليس أنه قال : «مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ»(٣) فلو كان آدم ناسيا لكان قد ذكره . وأنشد :

كأنه خارجًا من جَنْب صَفْحته * سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوه عنـد مُفْتَأَدِ(٤)

أي تركوه . ولو كان من النسيان لكان قد عملوا به مرة . قال الضحاك : «نَسِيتُمْ» أي تركتم أمري . يحيى بن سلام : أي تركتم الإيمان بالبعث في هذا اليوم . ﴿ نَسِينَاكُمْ ﴾ تركناكم من الخير؛ قاله السُّدّي . مجاهد : تركناكم في العذاب . وفي استئناف قوله : «إِنَّا نَسِينَاكُمْ» وبناء الفعل على «إنّ» واسمها تشديد في الانتقام منهم . والمعنى : فذوقوا هذا؛ أي ما أنتم فيه من نكس الرءوس والخزي والغم بسبب نسيان الله . أو ذوقوا العذاب المخلّد، وهو الدائم الذي لا انقطاع له في جهنم . ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني في الدنيا من المعاصي . وقد يعبر بالذّوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوما، لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم . قال عمر بن أبي ربيعة :

فذُقْ هجرها إن كنت تزعم أنها * فسادٌ ألَا يا رُبّما كذب الزعم

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٢٤ فما بعد. (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٥١ . (٣) راجع جـ ٧ ص ١٧٧ فما بعد.

(٤) السفود : حديدة يشوى عليها اللحم . الشرب (بالفتح) : جماعة القوم يشربون . والمفتأد . موضع النار الذي يشوى فيه . والبيت من معلقة النابغة الذبياني .

Marfat.com

الجوهري : وذُقْت ما عند فلان ؛ أي خبرته . وذقت القَوْس إذا جذبت وترها لتنظر ما شدّتها . وأذاقه الله وبال أمره . قال طُفيل :

فذوقوا كما ذُقنا غَداة مُحَجَّرٍ * من الغيظ فى أكبادنا والتَّحَوُّبِ

وتذوقته أي ذقته شيئا بعد شيء . وأمر مستذاق أي مجرب معلوم . قال الشاعر :

وعهدُ الغانيات كعهد قَيْنٍ * وَنَتْ عنه الجعائل مُسْتذاقِ

والذوّاق : الملول .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

هذه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي أنهم لإلفهم الكفر لا يؤمنون بك ؛ إنما يؤمن بك وبالقرآن المتدبرون له والمتعظون به ، وهم الذين إذا قرئ عليهم القرآن ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ قال ابن عباس : ركعا . قال المهدوي : وهذا على مذهب من يرى الركوع عند قراءة السجدة ؛ واستدلّ بقوله تبارك وتعالى : « وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ »[1] . وقيل : المراد به السجود ، وعليه أكثر العلماء ؛ أي خرّوا سُجّدا لله تعالى على وجوههم تعظيما لآياته وخوفا من سَطْوته وعذابه . ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي خلطوا التسبيح بالحمد ؛ أي نزّهوه وحَمِدوه ؛ فقالوا فى سجودهم : سبحان الله وبحمده ، سبحان ربِّيَ الأعلى وبحمده ؛ أي تنزيها لله تعالى عن قول المشركين . وقال سفيان : « وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ » أي صلّوا حمدا لربهم . ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادته ؛ قاله يحيى بن سلام . النقاش : « لَا يَسْتَكْبِرُونَ » كما استكبر أهل مكة عن السجود .

قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ أي ترتفع وتنبو عن مواضع الاضطجاع . وهو فى موضع نصب على الحال ؛ أي متجافية جنوبهم . والمضاجع جمع مضجع ؛ وهي

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٨٢ .

Marfat.com

مواضع النوم . و يحتمل عن وقت الاضطجاع ، ولكنه مجاز ، والحقيقة أولى . ومنه قول عبد الله بن رواحة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه * إذا انشق معروف من الصبح ساطع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه * إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

قال الزجاج والرمانى : التجافى التنحى إلى جهة فوق . وكذلك هو فى الصفح عن المخطئ فى سبّ ونحوه . والجنوب جمع جنب . وفيما تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجله قولان : أحدهما — لذكر الله تعالى ، إمّا فى صلاة و إما فى غير صلاة ؛ قاله ابن عباس والضحاك . الثانى — للصلاة . وفى الصلاة التى تتجافى جنوبهم لأجلها أربعة أقوال : أحدها — التنفّل بالليل ؛ قاله الجمهور من المفسرين وعليه أكثر الناس، وهو الذى فيه المدح، وهو قول مجاهد والأوزاعىّ ومالك بن أنس والحسن بن أبى الحسن وأبى العالية وغيرهم . ويدلّ عليه قوله تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » لأنهم جوزوا على ما أخفوا بما خفى . والله أعلم . وسيأتى بيانه .

وفى قيام الليل أحاديث كثيرة ؛ منها حديث معاذ بن جبل أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال له : " أَلَا أدلّك على أبواب الخير : الصوم جُنّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل — قال ثم تلا — « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ — حتى بلغ — يَعْمَلُونَ » " أخرجه أبو داود الطيالسىّ فى مسنده والقاضى إسماعيل ابن إسحاق وأبو عيسى الترمذىّ ، وقال فيه : حديث حسن صحيح . الثانى — صلاة العشاء التى يقال لها العتمة ؛ قاله الحسن وعطاء . وفى الترمذىّ عن أنس بن مالك أن هذه الآية « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » نزلت فى انتظار الصلاة التى تُدْعَى العَتَمَة قال : هذا حديث حسن غريب . الثالث — التنفّل ما بين المغرب والعشاء؛ قاله قتادة وعكرمة . وروى أبو داود عن أنس بن مالك أن هذه الآية « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » قال : كانوا يتنفّلون ما بين المغرب والعشاء . الرابع — قال الضحاك : تجافى الجنب هو أن يصلّى الرجل العشاء والصبح فى جماعة . وقاله أبو الدرداء وعُبادة .

Marfat.com

قلت : وهذا قول حسن ، وهو يجمع الأقوال بالمعنى . وذلك أن منتظِر العشاء إلى أن يصليها فى صلاة وذكرٍ لله جلّ وعزّ ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يزال الرجل فى صلاةٍ ما انتظر الصلاة " . وقال أنس : المراد بالآية انتظار صلاة العشاء الآخرة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل . قال ابن عطية : وكانت الجاهلية ينامون من أول الغروب ومن أيّ وقت شاء الإنسان ، فجاء انتظار وقت العشاء غريبًا شاقًّا . ومصلِّى الصبح فى جماعة لا سيما فى أوّل الوقت ؛ كما كان عليه السلام يصليها . والعادة أن من حافظ على هذه الصلاة فى أوّل الوقت يقوم سَحَرًا يتوضأ و يصلّى و يذكر الله عز وجل إلى أن يطلع الفجر؛ فقد حصل التجافى أوّلَ الليل وآخره . يزيد هذا ما رواه مسلم من حديث عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من صلّى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما قام الليل كله". ولفظ الترمذى وأبى داود فى هذا الحديث : " من شهد العشاء فى جماعة كان له قيام نصف ليلة، ومن صلّى العشاء والفجر فى جماعة كان له كقيام ليلة " . وقد مضى فى سورة « النور » عن كعب فيمن صلّى بعد العشاء الآخرة أربع ركعات كن له بمنزلة ليلة القدر (١) .

وجاءت آثار حسان فى فضل الصلاة بين المغرب والعشاء وقيام الليل . ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا يحيى بن أيوب قال حدثنى محمد بن الحجاج أو ابن أبى الحجاج أنه سمع عبد الكريم يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بُنِيَ له قصر فى الجنة " فقال له عمر بن الخطاب : إذًا تَكْثر قصورنا و بيوتنا يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الله أكبر وأفضل — أو قال — أطيب " . وعن عبد الله بن عمرو بن العاصى قال : صلاة الأوّابين الخلوة التى بين المغرب والعشاء حتى تثوب الناس إلى الصلاة . وكان عبد الله بن مسعود يصلّى فى تلك الساعة و يقول : صلاة الغفلة بين المغرب والعشاء ؛ ذكره ابن المبارك . ورواه الثعلبي مرفوعا عن ابن عمر قال قال

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٣٠٨ .

Marfat.com

النبي صلى الله عليه وسلم : " من جفت جنباه عن المضاجع ما بين المغرب والعشاء بني له قصران في الجنة مسيرة عام، وفيهما من الشجر ما لو نزلها أهل المشرق والمغرب لأوسعتهم فاكهة " . وهي صلاة الأوابين وغفلة الغافلين . وإن من الدعاء المستجاب الذي لا يرد الدعاء بين المغرب والعشاء .

فصل في فضل التجافي — ذكر ابن المبارك عن ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ؛ ليقم الحامدون لله على كل حال ، فيقومون فيسرحون إلى الجنة . ثم ينادي ثانية : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم؛ ليقم الذين كانت جنوبهم تتجافى عن المضاجع « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » . قال : فيقومون فيسرحون إلى الجنة . قال : ثم ينادي ثالثة : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ؛ ليقم الذين كانوا « لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ » ، فيقومون فيسرحون إلى الجنة . ذكره الثعلبي مرفوعا عن أسماء بنت يزيد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد فنادى بصوت تسمعه الخلائق كلهم : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم، ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم ينادي الثانية ستعلمون اليوم من أولى بالكرم ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون، ثم ينادي الثالثة ستعلمون اليوم من أولى بالكرم ليقم الحامدون لله على كل حال في السراء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعا إلى الجنة، ثم يحاسب سائر الناس". وذكر ابن المبارك قال أخبرنا معمر عن رجل عن أبي العلاء بن الشخير عن أبي ذر قال : ثلاثة يضحك الله إليهم ويستبشر الله بهم : رجل قام من الليل وترك فراشه ودفئه ، ثم توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قام إلى الصلاة ؛ فيقول الله لملائكته : " ما حمل عبدي على ما صنع " فيقولون : ربنا أنت أعلم به منا ؛ فيقول : " أنا أعلم به ولكن أخبروني " فيقولون : رجيته شيئا فرجاه وخوفته مخافه . فيقول : " أشهدكم أني قد أمنته مما خاف وأوجبت له ما رجاه " قال : ورجل كان

Marfat.com

فى سَرِيّة فلقِى العدوّ فانهزم أصحابه وثبت هو حتى يُقتل أو يفتح الله عليهم ؛ فيقول الله لملائكته مثل هذه القصة . ورجل سَرَى فى ليلة حتى إذا كان فى آخر الليل نزل هو وأصحابه ، فنام أصحابه وقام هو يصلّى ؛ فيقول الله لملائكته ... » وذكر القصة .

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ فى موضع نصب على الحال ؛ أى داعين . ويحتمل أن تكون صفة مستأنفة ؛ أى تتجافى جنوبهم وهم أيضا فى كل حال يدعون ربهم ليلهم ونهارهم . و ﴿ خَوْفًا ﴾ مفعول من أجله . ويجوز أن يكون مصدرا . ﴿ وَطَمَعًا ﴾ مثله ؛ أى خوفا من العذاب وطمعا فى الثواب . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ تكون « ما » بمعنى الذى وتكون مصدرا، وفى كِلَا الوجهين يجب أن تكون منفصلة[1] من « مِن » و « يُنْفِقُونَ » قيل : معناه الزكاة المفروضة . وقيل : النوافل ؛ وهذا القول أمدح .

قوله تعالى : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

قرأ حمزة : ﴿ مَا أُخْفِي لَهُمْ ﴾ بإسكان الياء . وفتحها الباقون . وفى قراءة عبد الله «مَانُخْفِى» بالنون مضمومة . وروى المفضّل عن الأعمش « ما يُخْفَى لَهُمْ » بالياء المضمومة وفتح الفاء . وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة : «من قُرّات أعين» . فمن أسكن الياء من قوله : « ما أخفِى فهو مستقبل وألفه ألف المتكلم . و « ما » فى موضع نصب بـ « ـأخفى » وهى استفهام ، والجملة فى موضع نصب لوقوعها موقع المفعولين ، والضمير العائد على « ما » محذوف . ومن فتح الياء فهو فعل ماض مبنى للفعول . و « ما » فى موضع رفع بالابتداء، والخبر « أخفى » وما بعده ، والضمير فى « أخفى » عائد على « ما » . قال الزجاج : ويقرأ « مَا أَخْفَى لَهُمْ » بمعنى ما أخفى الله لهم ؛ وهى قراءة محمد بن كعب ، و « ما » فى موضع نصب . المهدوىّ : ومن قرأ : « قرّات أعين » فهو جمع قُرّة، وحَسُن الجمع فيه لإضافته إلى جمع ، والإفراد لأنه

(١) الذى فى كتب الإملاء أنه يجوز .

Marfat.com

مصدر ، وهو اسم للجنس . وقال أبو بكر الأنبارى : وهـذا غير مخالف للصحف ؛ لأن تاء « قُرّة » تكتب تاء على لغة من يجرى الوصل على الوقف ؛ كما كتبوا (رحمت الله) بالتاء . ولا يُستنكر سقوط الألف من « قُرات » فى الخط وهو موجود فى اللفـظ ؛ كما لم يستنكر سقوط الألف من السموات[1] وهى ثابتة فى اللسان والنطق . والمعنى المراد : أنه أخبر تعالى بمـا لهم من النعيم الذى لم تعلمه نفس ولا بشر ولا مَلَك . وفى معنى هذه الآية : قال النبىّ صلى الله عليـه وسلم : " قال الله عز وجل أعددتُ لعبادى الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر — ثم قرأ هذه الآية — « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ — إلى قوله — بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » " خرجه الصحيح من حديث سهل بن سعد الساعدى . وقال ابن مسعود : فى التوراة مكتوب : على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَر على قلب بشر . وقال ابن عبـاس : الأمر فى هـذا أجلّ وأعظم من أن يُعرف تفسيره .

قلت : وهذه الكرامة إنمـا هى لأعلى أهل الجنة منزلا ؛ كما جاء مبيّناً فى صحيح مسلم عن المغيرة بن شُعبة يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سأل موسى عليه السلام ربّه فقال يا ربِّ ما أدنى أهل الجنة منزلةً قال هو رجل يأتى بعدما يدخل أهل الجنة الجنة فيقال له ادخل الجنة فيقول أى ربّ كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذَاتهم فيقال له أترضى أن يكون لك مثـلُ مُلْك مَلِك من ملوك الدنيـا فيقول رضيتُ ربِّ فيقول لك ذلك ومثله ومثله معه ومثله ومثله ومثله ومثله فقال فى الخامسة رضيت ربّ فيقال هـذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذّت عينك فيقول رضيتُ رَبّ قال رَبِّ فأعلاهم منزلةً قال أولئك الذين أردتُ غَرَسْتُ[2] كرامتهم بيدى وختمتُ عليها فلم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر — قال — ومصداقُه من كتاب الله قوله تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ

(١) فى بعض النسخ : « المسلمات » .

(٢) قال النووى : « أما أردت فبضم التاء ، ومعناه اخترت واصطفيت . وأما غرست كرامتهم بيدى الخ فمعناه اصطفيتهم وتوليتهم فلا يتطرق الى كرامتهم تغيير » .

Marfat.com

مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . وقد روى عن المغيرة موقوفا قوله . وخرّج مسلم أيضا عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذُخرًا بَلْهَ[1] ما أطلعكم عليه — ثم قرأ — « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » " . وقال ابن سيرين : المراد به النظر إلى الله تعالى . وقال الحسن : أخفى القوم أعمالا فأخفى الله تعالى لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت .

قوله تعالى : أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ أي ليس المؤمن كالفاسق ؛ فلهذا آتينا هؤلاء المؤمنين الثواب العظيم . قال ابن عباس وعطاء بن يَسار : نزلت الآية في عليّ بن أبي طالب والوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط ؛ وذلك أنهما تلاحيا[2] فقال له الوليد : أنا أَبْسَطُ منك لسانا وأحدّ سِنانا وأردّ للكتيبة — وروى وأملأ في الكتيبة — جسدا . فقال له عليّ : اسكت ! فإنك فاسق ؛ فنزلت الآية . وذكر الزجاج والنحاس أنها نزلت في عليّ وعُقبة بن أبي مُعَيْط . قال ابن عطية : وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية ؛ لأن عُقبة لم يكن بالمدينة ، وإنما قُتل في طريق مكة مُنْصَرَفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر . ويعترض القول الآخر بإطلاق اسم الفسق على الوليد . وذلك يحتمل أن يكون في صدر إسلام الوليد لشيء كان في نفسه ، أو لما روى من نقله عن بني المُصْطَلِق ما لم يكن ، حتى نزلت فيه : «إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا»[3] على ما يأتي في الحُجُرات بيانه . ويحتمل أن تطلق الشريعة ذلك عليه ؛ لأنه كان على طرف مما يبغي ، وهو الذي شرب الخمر في زمن

(١) بله : من أسماء الأفعال ، وهي مبنية على الفتح مثل كيف ، ومعناها : دع عنكم ما أطلعكم عليه ؛ فالذي لم يطلعكم أعظم ؛ وكأنه أضرب عنه استقلالا له في جنب ما لم يطلع عليه . (شرح النووي) .

(٢) الملاحاة : المقاولة والمخاصمة . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٣١١ .

Marfat.com

عثمان رضى الله عنـه ، وصلّى الصبح بالناس ثم التفت وقال : أتريدون أن أزيدكم ، ونحو هذا مما يطول ذكره .

الثانيــة — لما قسّم الله تعالى المؤمنين والفاسقين الذين فسقهم بالكفر — لأن التكذيب فى آخر الآية يقتضى ذلك — اقتضى ذلك نفى المساواة بين المؤمن والكافر؛ ولهذا منع القصاص بينهما ؛ إذ من شرط وجوب القصاص المساواة بين القاتل والمقتول. وبذلك احتج علماؤنا على أبى حنيفة فى قتله المسلم بالذمىّ. وقال : أراد نفى المساواة هاهنا فى الآخرة فى الثواب وفى الدنيا فى العدالة . ونحن حملناه على عمومه ، وهو أصح، إذ لا دليل يخصه ؛ قاله ابن العربى .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوُونَ ﴾ قال الزجاج وغيره : « مَنْ » يصلح للواحد والجمع . النحاس : لفظ « مَنْ » يؤدى عن الجماعة؛ فلهذا قال : « لَا يَسْتَوُونَ »؛ هذا قول كثير من النحويين . وقال بعضهم : « لَا يَسْتَوُونَ » لاثنين؛ لأن الاثنين جمع، لأنه واحد جمع مع آخر . وقاله الزجاج أيضا . والحديث يدلّ على هـذا القول؛ لأنه عن ابن عباس وغيره قال : نزلت « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا » فى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه ، « كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا » فى الوليد بن عُقبة بن أبى مُعَيط . وقال الشاعر :

أليس الموت بينهما سواء * إذا ماتوا وصاروا فى القبور

قوله تعالى : أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَآ أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ أخبر عن مقر الفريقين غدا ؛ فللمؤمنين جنات المأوى ، أي يأوون إلى الجنات ؛ فأضاف الجنات إلى المأوى لأن ذلك

Marfat.com

الموضع يتضمن جنات . ﴿ نُزُلًا ﴾ أى ضيافة . والنُّزُل : ما يُهيّأ للنازل والضيف . وقد مضى فى آخر « آل عمران »[1] وهو نصب على الحال من الجنات ؛ أى لهم الجنات معدّة، ويجوز أن يكون مفعولا له . ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أى خرجوا عن الإيمان إلى الكفر ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ أى مقامهم فيها . ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ أى إذا دفعهم لهب النار إلى أعلاها ردّوا إلى موضعهم فيها، لأنهم يطمعون فى الخروج منها . وقد مضى هذا فى «الحج»[2] . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ أى يقول لهم خزنة جهنم . أو يقول الله لهم : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ والذوق يُستعمل محسوسًا ومعنًى . وقد مضى فى هذه السورة بيانه[3] .

قوله تعالى : وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى ﴾ قال الحسن وأبو العالية والضحاك وأُبَىّ بن كعب وإبراهيم النَّخَعِىّ : العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها مما يُبْتَلَى به العبيد حتى يتوبوا ؛ وقاله ابن عباس . وعنه أيضا أنه الحدود . وقال ابن مسعود والحسين بن علىّ وعبد الله بن الحارث : هو القتل بالسيف يوم بدر . وقال مقاتل : الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف ؛ وقاله مجاهد . وعنه أيضا : العذاب الأدنى عذاب القبر ؛ وقاله البراء ابن عازب . قالوا : والأكبر عذاب يوم القيامة . قال القشيرىّ : وقيل عذاب القبر . وفيه نظر ؛ لقوله : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » . قال : ومن حمل العذاب على القتل قال : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى يرجع من بقى منهم . ولا خلاف أن العذاب الأكبر عذابُ جهنم ؛ إلا ما روى عن جعفر بن محمد أنه خروج المهدى بالسيف . والأدنى غلاء السعر . وقد قيل : إن معنى قوله : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » على قول مجاهد والبراء : أى لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه ؛

(١) راجع ج ٤ ص ٣٢١ . (٢) راجع ج ١٢ ص ٢٧ .
(٣) راجع ص ٩٨ و ٩٩ من هذا الجزء .

Marfat.com

كقوله : « فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا »(١) . وسُمِّيت إرادة الرجوع رجوعا كما سُمِّيت إرادة القيام قياما في قوله تعالى : « إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ »(٢) . ويدلّ عليه قراءة من قرأ : « يُرْجَعُونَ » على البناء للمفعول ؛ ذكره الزمخشري .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه . ﴿ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ أي بحججه وعلاماته . ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ بترك القبول . ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ لتكذيبهم وإعراضهم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ أي فلا تكن يا محمد في شك من لقاء موسى؛ قاله ابن عباس . وقد لقيه ليلة الإسراء . قتادة : المعنى فلا تكن في شك من أنك لقيته ليلة الإسراء . والمعنى واحد . وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة ، وستلقاه فيها . وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب بالقبول؛ قاله مجاهد والزجاج . وعن الحسن أنه قال في معناه : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » فأوذي وكُذّب ، فلا تكن في شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب والأذى ؛ فالهاء عائدة على محذوف، والمعنى من لقاء ما لاقى . النحاس : وهذا قول غريب ، إلا أنه من رواية عمرو

---

(١) راجع ص ٩٥ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٦ ص ٨٠ فما بعد .

Marfat.com

ابن عُبيد . وقيل فى الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى : قل يتوفاكم مَلَك الموت الّذى وُكّل بكم فلا تكن فى مِرْية من لقائه ؛ بخاء معترضا بين « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » وبين « وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ » . والضمير فى « وَجَعَلْنَاهُ » فيه وجهان : أحدهما — جعلنا موسى؛ قاله قتادة . الثانى — جعلنا الكتاب؛ قاله الحسن . ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ أى قادةً وقُدْوةً يُقتَدى بهم فى دينهم . والكوفيون يقرءون « أَئِمَّة » النحاس : وهو لحن عند جميع النحويين ؛ لأنه جمع بين همزتين فى كلمة واحدة ، وهو من دقيق النحو .

وشرحه : أن الأصل « أَأْمِمَة » ثم ألقيت حركة الميم على الهمزة وأدغمت الميم ، وخففت الهمزة الثانية لئلا يجتمع همزتان، والجمع بين همزتين فى حرفين بعيد ؛ فأمّا فى حرف واحد فلا يجوز إلا تخفيف الثانية نحو قولك : آدم وآخر . ويقال : هذا أوَمّ من هذا وأيَمّ ؛ بالواو والياء . وقد مضى هذا فى « براءة »(1) والله تعالى أعلم . ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى يدعون الخلق إلى طاعتنا . ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أى أمرناهم بذلك . وقيل : « بِأَمْرِنَا » أى لأمرنا ؛ أى يهدون الناس لديننا . ثم قيل : المراد الأنبياء عليهم السلام ؛ قاله قتادة . وقيل : المراد الفقهاء والعلماء . ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ قراءة العامة « لَمَّا » بفتح اللام وتشديد الميم وفتحها ؛ أى حين صبروا . وقرأ يحيى وحمزة والكسائى وخَلَف ورُوَيْس عن يعقوب : « لِمَا صَبَرُوا » أى لصبرهم جعلناهم أئمة . واختاره أبو عبيد اعتبارا بقراءة ابن مسعود « بِمَا صَبَرُوا » بالباء . وهذا الصبر صبرٌ على الدين وعلى البلاء . وقيل : صبروا عن الدنيا . ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى يقضى ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيجازى كُلًّا بما يستحق . وقيل : يقضى بين الأنبياء وبين قومهم ؛ حكاه النقاش .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

---

(1) راجع جـ ٨ ص ٨٤ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وقتادة وأبو زيد عن يعقوب « نَهْدِ لَهُمْ » بالنون؛ فهذه قراءة بيّنة . النحاس : و بالياء فيها إشكال ؛ لأنه يقال : الفعل لا يخلو من فاعل، فأين الفاعل لـ « يهد »؟ فتكلم النحويون فى هذا؛ فقال الفراء : « كَمْ » فى موضع رفع بـ « يَهْدِ » . وهذا نقض لأصول النحويّين فى قولهم: إن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ولا فى « كَمْ » بوجهٍ ؛ أعنى ما قبلها . ومذهب أبى العباس أن « يَهْدِ » يدلّ على الهُدَى ؛ والمعنى أولم يَهْد لهم الهدى . وقيل : المعنى أولم يهد الله لهم ؛ فيكون معنى الياء والنون واحدا ؛ أى أو لم نُبَيّن لهم إهلا كنا القرون الكافرة من قبلهم . وقال الزجاج : « كَمْ » فى موضع نصب بـ « أَهْلَكْنَا » . ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ يحتمل الضمير فى « يَمْشُونَ » أن يعود على الماشين فى مساكن المهلكين ؛ أى وهؤلاء يمشون ولا يعتبرون . ويحتمل أن يعود على المهلكين فيكون حالا ؛ والمعنى : أهلكناهم ماشين فى مساكنهم . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ آيات الله وعظاته فيتعظون .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَاءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ أى أولم يعلموا كمال قدرتنا بسَوْقنا الماء إلى الأرض اليابسة التى لا نبات فيها لنحييها . الزمخشرى : الجرز الأرض التى جُرِز نباتها ، أى قُطع ؛ إما لعدم الماء وإما لأنه رُعِىَ وأزيل . ولا يقال للتى لا تنبت كالسباخ جُرُز ؛ ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ قال ابن عباس : هى أرض باليمن . وقال مجاهد : هى أَبْيَن . وقال عكرمة : هى الأرض الظمآى . وقال الضحاك : هى الأرض الميتة العَطْشَى . وقال الفراء : هى الأرض التى لا نبات فيها . وقال الأصمعى : هى الأرض التى لا تنبت شيئا . وقال محمد بن يزيد : يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام؛ إلا أنه يجوز على قول من قال : العباس والضحاك . والإسناد

Marfat.com

عن ابن عباس صحيحٌ لا مطعن فيه . وهذا إنما هو نعت والنعت للعرفة يكون بالألف واللام ؛ وهو مشتق من قولهم : رجل جَروز إذا كان لا يبقى شيئا إلا أكله . قال الراجز :

يَخبّ جَروز وإذا جاع بكى　*　ويأكل التمر ولا يُلقى النَّوى

وكذلك ناقةٌ جروز : إذا كانت تأكل كل شيء تجده . وسيف جُراز : أي قاطع ماض . وَجَرَزتِ الجراد الزرع : إذا استأصلته بالأكل . وحكى الفرّاء وغيره أنه يقال : أرض جُرْز وجُرُز وجَرْز وجَرَز . وكذلك بخل ورغب ورهب ؛ في الأربعة أربع لغات . وقد روى أن هذه الأرض لا أنهار فيها ، وهي بعيدة من البحر ، وإنما يأتيها في كل عام وِدَان (١) فيزرعون ثلاث مرات في كل عام . وعن مجاهد أيضا : أنها أرض النيل . ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ ﴾ أي بالماء . ﴿ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ ﴾ من الكلأ والحشيش . ﴿ وَأَنْفُسُهُمْ ﴾ من الحبّ والخضر والفواكه . ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ هذا فيعلمون أنا نقدر على إعادتهم . و « فَنُخْرِجُ » يكون معطوفا على « نَسُوقُ » أو منقطعا مما قبله . « تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُم » في موضع نصب على النعت .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ « مَتَى » في موضع رفع ، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الظرف . قال قتادة : الفتح القضاء . وقال الفراء والقُتَبِيّ : يعني فتح مكة . وأَوْلى من هذا ما قاله مجاهد ، قال : يعني يوم القيامة . ويروى أن المؤمنين قالوا : سيحكم الله عز وجل بيننا يوم القيامة فيثيب المحسن ويعاقب المسيء . فقال الكفار على التهزيء : متى يوم الفتح ، أي هذا الحكم . ويقال للحاكم : فاتح وفتاح ؛ لأن الأشياء تنفتح على يديه وتنفصل . وفي القرآن : « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ

(١) في الأصول : « واديان » . والودان : البلل .

Marfat.com

قومنا بالحق » وقد مضى هذا فى « البقرة » وغيرها . ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ على الظرف .[1] [2]
وأجاز الفراء الرفع . ﴿ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أى يؤخرون و يمهلون
للتوبة ، إن كان يوم الفتح يوم بدر أو فتح مكة . ففى بدر قتلوا ، و يوم الفتح هربوا فلحقهم[3]
خالد بن الوليد فقتلهم .

قوله تعالى : فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ قيل : معناه فأعرض عن سفههم ولا تجبهم
إلا بما أمرت به . ﴿ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ أى انتظر يوم الفتح ، يوم يحكم الله لك عليهم .
ابن عباس : « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى عن مشركى قريش مكة ، وأن هذا منسوخ بالسيف
فى « براءة » فى قوله : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » . « وَانْتَظِرْ » أى موعدى[4]
لك . قيل : يعنى يوم بدر . ﴿ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ أى ينتظرون بكم حوادث الزمان . وقيل :
الآية غير منسوخة ، إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال كالهُدْنة وغيرها . وقيل : أعرض
عنهم بعد ما بلّغت الحجة ، وانتظر إنهم منتظرون . إن قيل : كيف ينتظرون القيامة وهم
لا يؤمنون ؟ ففى هذا جوابان : أحدهما — أن يكون المعنى إنهم منتظرون الموت وهو من
أسباب القيامة ؛ فيكون هذا مجازا . والآخر — أن فيهم من يشك وفيهم من يؤمن بالقيامة ؛
فيكون هذا جوابا لهذين الصنفين . والله أعلم . وقرأ ابن السَّمَيْقَع : « إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ » بفتح
الظاء . ورويت عن مجاهد وابن مُحَيْصِن . قال الفراء : لا يصح هذا إلا بإضمار ، مجازه : إنهم
منتظرون بهم . قال أبو حاتم : الصحيح الكسر ، أى انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك .
وقد قيل : إن قراءة ابن السَّمَيْقَع (بفتح الظاء) معناها : وانتظر هلاكهم فإنهم أحقاء
بأن يُنتظر هلاكهم ، يعنى أنهم هالكون لا محالة ، وانتظر ذلك فإن الملائكة فى السماء ينتظرونه ؛
ذكره الزمخشرى . وهو معنى قول الفراء . والله أعلم .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٥٠ فما بعد . (٢) راجع جـ ٢ ص ٣ فما بعد .
(٣) فى ش : « هزموا » . (٤) راجع جـ ٧ ص ٧٢ .

Marfat.com

سورة الأحزاب

مدنيّة فى قول جميعهم . نزلت فى المنافقين وإيذائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطعنهم فيه وفى مناكحته وغيرها . وهى ثلاث وسبعون آية . وكانت هذه السورة تعدل سورة البقرة . وكانت فيها آية الرجم : (الشيخ والشيخة إذا زَنَيا فارجموهما ألْبَتَّةَ نكالاً من الله والله عزيز حكيم) ؛ ذكره أبو بكر الأنبارى عن أُبَىّ بن كعب . وهذا يحمله أهل العلم على أن الله تعالى رفع من الأحزاب إليه ما يزيد على ما فى أيدينا ، وأن آية الرَّجْم رفع لفظها . وقد حدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد قال حدّثنا أبو عبيد القاسم بن سلّام قال حدّثنا ابن أبى مريم عن ابن لَهِيعة عن أبى الأسود عن عروة عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتى آية، فلما كُتب المصحف لم يقدر منها إلا على ما هى الآن . قال أبو بكر : فمعنى هذا من قول أم المؤمنين عائشة : أن الله تعالى رفع إليه من سورة الأحزاب ما يزيد على ما عندنا .

قلت : هذا وجه من وجوه النسخ، وقد تقدم فى «البقرة»(1) القولُ فيه مستوفًى والحمد لله . وروى زِرّ قال قال لى أُبَىّ بن كعب : كم تعدّون سورة الأحزاب؟ قلت : ثلاثا وسبعين آية ؛ قال : فوالذى يحلف به أُبَىّ بن كعب أن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ، ولقد قرأنا منها آية الرجم : الشيخ والشيخة إذا زَنَيا فارجموهما ألْبَتَّةَ نكالاً من الله والله عزيز حكيم . أراد أُبَىّ أن ذلك من جملة ما نُسخ من القرآن . وأما ما يحكى من أن تلك الزيادة كانت فى صحيفة فى بيت عائشة فأكلتها الداجن فمن تأليف الملاحدة والروافض .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾

(1) راجع ج ٢ ص ٦١ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ ضُمّت «أىّ» لأنه نداء مفرد، والتنبيه لازم لها . و «النبيّ» نعت لأىّ عند النحويين؛ إلا الأخفش فإنه يقول : إنه صلة لأىّ . مكىّ : ولا يُعرف فى كلام العرب اسم مفرد صلة لشىء . النحاس : وهو خطأ عند أكثر النحويين؛ لأن الصلة لا تكون إلا جملة ، والاحتيال له فيما قال أنه لما كان نعتا لازما سُمِّىَ صلة ؛ وهكذا الكوفيون يسمّون نعت النكرة صلةً لها . ولا يجوز نصبه على الموضع عند أكثر النحويين . وأجازه المازنىّ، جعله كقولك : يا زيدُ الظريفَ، بنصب «الظريف» على موضع زيد . مكىّ : وهذا نعت يستغنى عنه، ونعت «أىّ» لا يستغنى عنه فلا يحسن نصبه على الموضع . وأيضا فإن نعت «أىّ» هو المنادى فى المعنى فلا يحسن نصبه . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان يحبّ إسلام اليهود : قُرَيظة والنَّضير وبنى قَيْنُقَاع ، وقد تابعه[1] ناس منهم على النفاق، فكان يُلين لهم جانبَه؛ ويكرم صغيرهم وكبيرهم، وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه، وكان يسمع منهم؛ فنزلت . وقيل؛ إنها نزلت فيما ذكر الواحدى والقُشَيْرىّ والثّعلبىّ والماوَرْدى وغيرهم فى أبى سفيان بن حرب وعِكرمة بن أبى جهل وأبى الأعور عمرو[2] بن سفيان ، نزلوا المدينة على عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول رأس المنافقين بعد أُحُد ، وقد أعطاهم النبى صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح وطُعْمة بن أُبَيْرِق، فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب : ارفض ذكر آلهتنا اللّات والعزّى ومَناة، وقل إن لها شفاعة ومنعة[3] لمن عبدها ، ونَدَعُك وربّك . فشقّ على النبى صلى الله عليه وسلم ما قالوا . فقال عمر : يا رسول الله ائذن لى فى قتلهم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "إنى قد أعطيتهم الأمان" فقال عمر : اخرجوا فى لعنة الله وغضبه . فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا من المدينة؛ فنزلت الآية . ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ أى خَفِ الله . ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ من أهل مكة؛ يعنى أبا سفيان وأبا الأعور وعكرمة . ﴿ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ من أهل المدينة؛ يعنى عبد الله بن أُبَىّ وطُعْمة وعبد الله بن سعد بن أبى سرح فيما نُهيت عنه،

(١) فى جـ وك : «بايعه» . (٢) فى الأصول : «عمر» . (٣) فى أسباب النزول : «ومنفعة» .

ولا تمل إليهم . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بكفرهم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يفعل بهم . الزمخشري : وروى أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم في الموادعة التي كانت بينه وبينهم، وقام معهم عبد الله بن أبيّ ومعتّب بن قشير والجدّ بن قيس، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفض ذكر آلهتنا . وذكر الخبر بمعنى ما تقدّم . وأن الآية نزلت في نقض العهد ونبذ الموادعة . «وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ» من أهل مكة . «وَٱلْمُنَٰفِقِينَ» من أهل المدينة فيما طلبوا إليك . وروى أن أهل مكة دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شطر أموالهم، ويزوّجه شيبة بن ربيعة بنته، وخوّفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع؛ فنزلت . النحاس : ودلّ بقوله «إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً» على أنه كان يميل إليهم استدعاءً لهم إلى الإسلام؛ أي لو علم الله عز وجل أن ميلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنه؛ لأنه حكيم . ثم قيل : الخطاب له ولأمته .

قوله تعالى : ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني القرآن . وفيه زجر عن اتباع مراسم الجاهلية، وأمر بجهادهم ومنابذتهم، وفيه دليل على ترك اتباع الآراء مع وجود النص . والخطاب له ولأمته . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قراءة العامة بتاء على الخطاب، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم . وقرأ السلمي وأبو عمرو وابن أبي إسحاق : «يعملون» بالياء على الخبر؛ وكذلك في قوله : «بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا»(١) . ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي اعتمد عليه في كل أحوالك؛ فهو الذي يمنعك ولا يضرك من خذلك . ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظا . وقال شيخ من أهل الشام : قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد من ثقيف فطلبوا منه أن يمتعهم باللات سنة — وهي الطاغية التي كانت ثقيف تعبدها — وقالوا : لتعلم قريش منزلتنا عندك؛ فهم

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٣٨٠ فما بعد .

Marfat.com

النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فنزلت « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا » أى كافياً لك ما تخافه منهم . و « بِاللَّهِ » فى موضع رفع لأنه الفاعل . و « وَكِيلًا » نصب على البيان أو الحال .

قوله تعالى : مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قال مجاهد : نزلت فى رجل من قريش كان يدعى ذا القلبين من دهائه ، وكان يقول : إن لى فى جوفى قلبين ، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد . قال : وكان من فِهْر . الواحدى والقُشَيْرى وغيرهما : نزلت فى جميل بن معمر الفهرى ، وكان رجلا حافظا لما يسمع . فقالت قريش : ما يحفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان . وكان يقول : لى قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد . فلما هُزم المشركون يوم بدر ومعهم جميل بن معمر ، رآه أبو سفيان فى العير وهو معلّق إحدى نَعْلَيْه فى يده والأخرى فى رجله ؛ فقال أبو سفيان : ما حال الناس ؟ قال انهزموا . قال : فما بال إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما فى رجلى ؛ فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله فى يده . وقال السُّهَيْلى : كان جميل بن معمر الجُمَحى ، وهو ابن معمر ابن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمَح ، واسم جمح : تَيْم ؛ وكان يدعى ذا القلبين فنزلت فيه الآية ، وفيه يقول الشاعر :

وكيف ثوائى بالمدينة بعد ما * قضى وَطَرًا منها جَمِيلُ بن معمر

قلت : كذا قالوا جميل بن معمر . وقال الزمخشرى : جميل بن أسد الفهرى . وقال ابن عباس : سببها أن بعض المنافقين قال : إن محمدا له قلبان ؛ لأنه ربما كان فى شىء فنزع

Marfat.com

فى غيره نزعة ثم عاد إلى شأنه الأول ؛ فقالوا ذلك عنه فأكذبهم الله عز وجل . وقيل : نزلت فى عبد الله بن خَطَل . وقال الزهرى وابن حبّان : نزل ذلك تمثيلا فى زيد بن حارثة لما تبنّاه النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فالمعنى : كما لا يكون لرجل قلبان كذلك لا يكون ولد واحد لرجلين . قال النحاس : وهذا قول ضعيف لا يصح فى اللغة ، وهو من منقطعات الزهرى ، رواه معمر عنه . وقيل : هو مثل ضرب للمُظاهر ؛ أى كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المُظاهر أمّه حتى تكون له أُمّان . وقيل : كان الواحد من المنافقين يقول : لى قلب يأمرنى بكذا ، وقلب يأمرنى بكذا ؛ فالمنافق ذو قلبين ؛ فالمقصود ردّ النفاق . وقيل : لا يجتمع الكفر والإيمان بالله تعالى فى قلب ، كما لا يجتمع قلبان فى جوف ؛ فالمعنى : لا يجتمع اعتقادان متغايران فى قلب . و يظهر من الآية بجملتها نفى أشياء كانت العرب تعتقدها فى ذلك الوقت ، و إعلام بحقيقة الأمر ، والله أعلم .

الثانيـــة ـــ القلب بَضْعة[1] صغيرة على هيئة الصَّنَوْبَرة ، خلقها الله تعالى فى الآدمى وجعلها محلا للعلم ، فيحصى به العبد من العلوم ما لا يسع فى أسفار ، يكتبه الله تعالى فيه بالخط الإلهى ، و يضبطه فيه بالحفظ الربانى ، حتى يحصيه ولا ينسى منه شيئا . وهو بين لَمَّتين[2] : لَمَّة من المَلَك ، ولَمَّة من الشيطان ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم . خرّجه الترمذى ، وقد مضى فى « البقرة »[3] . وهو محل الخَطَرات والوساوس ومكان الكفر والإيمان ، وموضع الإصرار والإنابة ، ومجرى الانزعاج والطمأنينة[4] . والمعنى فى الآية : أنه لا يجتمع فى القلب الكفر والإيمان ، والهدى والضلال ، والإنابة والإصرار ؛ وهذا نفى لكل ما توهمه أحد فى ذلك من حقيقة أو مجاز ، والله أعـــلم .

الثالثـــة ـــ أعلم الله عز وجل فى هذه الآية أنه لا أحد بقلبين ، ويكون فى هذا طعن على المنافقين الذين تقدّم ذكرهم ؛ أى إنما هو قلب واحد ، فإما فيه إيمان وإما فيه كفر ؛ لأن

(١) البضعة (بالفتح وقد تكسر) القطعة من اللحم .
(٢) اللمة (بالفتح) الهمة والخطرة تقع فى القلب .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٧ فما بعد .
(٤) فى بعض النسخ : « والطمأنينة والاعتدال » .

Marfat.com

درجة النفاق كأنها متوسطة ، فنفاها الله تعالى وبيّن أنه قلب واحد . وعلى هذا النحو يستشهد الإنسان بهذه الآية ، متى نسى شيئا أو وهم . يقول على جهة الاعتذار : ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ يعنى قول الرجل لامرأته : أنتِ علىّ كظهر أمّى . وذلك مذكور فى سورة « المجادلة »[1] على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل فى زيد بن حارثة . وروى الأئمة أن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد ابن محمد حتى نزلت : « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ » وكان زيد فيما روى عن أنس ابن مالك وغيره مَسْبِيًّا من الشأم، سبته خيل من تِهامة، فابتاعه حكيم بن حزام بن خُويلد، فوهبه لعمته خديجة فوهبته خديجة للنبىّ صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبنّاه ، فأقام عنده مدّة، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان فى فدائه ، فقال لهما النبىّ صلى الله عليه وسلم وذلك قبل البعث : "خَيِّراه فإن اختاركما فهو لكما دون فداء" . فاختار الرق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حريته وقومه ؛ فقال محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : "يامعشر قريش اشهدوا أنه ابنى يرثنى وأرثه" وكان يطوف على حِلَق قريش يشهدهم على ذلك ، فرضى ذلك عمه وأبوه وانصرفا . وكان أبوه لما سبى يدور الشأم ويقول :

بكيتُ على زيد ولم أدر ما فعل * أحَىٌّ فيُرجَى أم أتى دونه الأجَلْ
فوالله لا أدرى وإنى لسائل * أغالك بعدى السهلُ أم غالك الجبل
فياليت شعرى ! هل لك الدهرَ أوبةٌ * فحسبى من الدنيا رجوعُك لى بَجَلْ[2]
تُذَكِّرُنيه الشمس عند طلوعها * وتَعرِض ذكراه إذا غَرْبُها أفَلْ
وإن هبّت الأرياح هيّجْنَ ذِكرَه * فياطول ما حُزنى عليه وما وَجَلْ
سأُعمِل نَصَّ العِيس فى الأرض جاهدًا * ولا أسأم التَّطواف أو تسأمُ الإبل
حياتِىَ أو تأتِى علىّ منيّتى * فكل امرئ فانٍ وإن غرّه الأمل

---
(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٧٩ فما بعد .
(٢) بجل : كنعم زنة ومعنى . وأبجله الشىء : كفاه .

Marfat.com

فأخبر أنه بمكة ؛ فجاء إليه فهلك عنده . وروى أنه جاء إليه فخيّره النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا وانصرف . وسيأتى من ذكره وفضله وشرفه شفاءٌ عند قوله : « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا »[1] إن شاء الله تعالى . وقتل زيد بمُؤْتَةَ من أرض الشام سنة ثمانٍ من الهجرة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أمّره فى تلك الغزاة، وقال : "إن قُتل زيد فجعفر فإن قتل جعفر فعبدالله بن رواحة" . فقتل الثلاثة فى تلك الغزاة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نَعْى زيد وجعفر بكى وقال : " أخواى ومؤنساى ومحدِّثاى".

قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٥)

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ نزلت فى زيد بن حارثة، على ما تقدّم بيانه . وفى قول ابن عمر : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ، دليل على أن التّبنّى كان معمولا به فى الجاهلية والإسلام ، يُتوارث به و يتناصر، إلى أن نسخ الله ذلك بقوله : « ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ » أى أعدل . فرفع الله حكم التّبنّى ومنع من إطلاق لفظه ، وأرشد بقوله إلى أن الأَوْلى والأعدل أن يُنسب الرجل إلى أبيه نَسَبًا ؛ فيقال : كان الرجل فى الجاهلية إذا أعجبه من الرجل جلَده وظَرْفه ضمه إلى نفسه ، وجعل له نصيب الذكر من أولاده من ميراثه ، وكان يُنْسب إليه فيقال فلان بن فلان . وقال النحاس : هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التبنّى ، وهو من نسخ السنّة بالقرآن؛ فأمر أن يدعوا من دعوا إلى أبيه المعروف، فإن لم يكن له أب معروف نسبوه إلى وَلائه ، فإن لم يكن له وَلاء معروف قال له يا أخى ؛ يعنى فى الدين ، قال الله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »[2] .

(١) راجع ص ١٨٨ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٢٢

Marfat.com

الثانيــة — لو نسبه إنسان إلى أبيه من التبنّى فإن كان على جهة الخطأ، وهو أن يسبق لسانه إلى ذلك من غير قصد فلا إثم ولا مؤاخذة؛ لقوله تعالى: «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ». وكذلك لو دعوت رجلا إلى غير أبيه وأنت ترى أنه أبوه فليس عليك بأس؛ قاله قتادة. ولا يجرى هذا المجرى ما غلب عليه اسم التبنّى كالحال فى المِقْداد بن عمرو فإنه كان غلب عليه نسب التبنّى، فلا يكاد يعرف إلا بالمقداد بن الأسود؛ فإن الأسود بن عبد يغوث كان قد تبنّاه فى الجاهلية وعرف به. فلما نزلت الآية قال المِقْداد: أنا ابن عمرو؛ ومع ذلك فبقى الإطلاق عليه. ولم يُسمع فيمن مضى من عَصَّى مُطْلِق ذلك عليه وإن كان متعمدا. وكذلك سالم مولى أبى حذيفة، كان يدعى لأبى حذيفة. وغير هؤلاء ممن تُبُنِّىَ وٱنْتُسِب لغير أبيه وشُهِر بذلك وغَلَب عليه. وذلك بخلاف الحال فى زيد بن حارثة؛ فإنه لا يجوز أن يقال فيه زيد بن محمد، فإن قاله أحد متعمّدا عصى لقوله تعالى: «وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ» أى فعليكم الجناح. والله أعلم. ولذلك قال بعده: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أى «غَفُورًا» للعمد، و «رَحِيمًا» برفع إثم الخطأ.

الثالثــة — وقد قيل: إن قول الله تبارك وتعالى: «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ» مُجْمَل؛ أى وليس عليكم جناح فى شىء أخطأتم، وكانت فُتْيَا عطاء وكثيرٍ من العلماء. على هذا إذا حلف رجل ألّا يفارق غريمه حتى يستوفى منه حقه، فأخذ منه ما يرى أنه جيّد من دنانير فوجدها زيوفا أنه لا شىء عليه. وكذلك عنده إذا حلف ألا يسلّم على فلان فسلّم عليه وهو لا يعرفه أنه لا يحنث؛ لأنه لم يتعمد ذلك. و «ما» فى موضع خفض ردًّا على «ما» التى مع «أَخْطَأْتُمْ». ويجوز أن تكون فى موضع رفع على إضمار مبتدإ؛ والتقدير: ولكن الذى تؤاخذون به ما تعمّدت قلوبكم. قال قتادة وغيره: من نسب رجلا إلى غير أبيه، وهو يرى أنه أبوه، خطأ (١) فذلك من الذى رفع الله فيه الجناح. وقيل: هو أن يقول له فى المخاطبة: يا بنىّ؛ على غير تبنٍّ.

الرابعــة (٢) — قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ «بِأَفْوَاهِكُمْ» تأكيد لبطلان القول؛ أى أنه قول لا حقيقة له فى الوجود، إنما هو قول لسانىّ فقط. وهذا كما تقول: أنا أمشى

(١) فى ش: «خطأ من الخطأ الذى ...».
(٢) هذه المسألة هكذا وردت فى جميع نسخ الأصل. و يلاحظ أنها مقحمة هنا وموضعها الآية السابقة.

Marfat.com

إليك على قَدَم؛ فإنما تريد بذلك المبرّة . وهذا كثير . وقد تقدّم هذا المعنى في غير موضع[(١)] .
﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾ « الحقّ » نعت لمصدر محذوف؛ أي يقول القول الحق . و ﴿ يَهْدِى ﴾ معناه يبين ؛ فهو يتعدى بغير حرف جرّ .

الخامســة — الأدعياء جمع الدّعيّ، وهو الذي يدعى آبنا لغير أبيه أو يدّعي غير أبيه ؛ والمصدر الدِّعْوة بالكسر؛ فأمر تعالى بدعاء الأدعياء إلى آبائهم للصُّلْب، فمن جهل ذلك فيه ولم تشتهر أنسابهم كان مَوْلًى وأخًا في الدِّين . وذكر الطبريّ أن أبا بكرة قرأ هذه الآية وقال : أنا ممن لا يُعرف أبوه، فأنا أخوكم في الدِّين ومولاكم . قال الراوي عنه : ولو علم — والله — أن أباه حمار لانتمى إليه . ورجال الحديث يقولون في أبي بكرة : نُفَيع بن الحارث .

السادســة — روى الصحيح عن سعد بن أبي وَقّاص وأبي بكرة كلاهما قال : سَمِعَتْه أذناي ووعاه قلبي محمداً[(٢)] صلى الله عليه وسلم يقول : "من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام" . وفي حديث أبي ذرّ أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "ليس من رجل آدّعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر" .

قوله تعالى : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

فيــه تسع مســائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ هذه الآية أزال الله تعالى بها أحكاماً كانت في صدر الإسلام ؛ منها : أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يصلّي على ميّت

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٧ وجـ ٨ ص ١١٨ فما بعد .

(٢) قوله : « محمدا » نصب على البدل من الضمير المنصوب في قوله : « سمعته أذناي » .

Marfat.com

عليه دَيْن ، فلما فتح الله عليه الفتوح قال : "أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن تُوُفِّيَ وعليه دَين فعليّ قضاؤه ومن ترك مالاً فلورثته " أخرجه الصحيحان . وفيهما أيضا "فأيكم ترك دَيْناً أو ضَياعا فأنا مولاه" . قال ابن العربيّ : فانقلبت الآن الحال بالذنوب ، فإن تركوا مالا ضُويِق العصبة فيه ، وإن تركوا ضياعا أسلموا إليه ؛ فهذا تفسير الولاية المذكورة في هذه الآية بتفسير النبيّ صلى الله عليه وسلم وتنبيهه ؛ (ولا عِطْر بعد عَرُوس) . قال ابن عطية : وقال بعض العلماء العارفين هو أَوْلى بهم من أنفسهم ؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك ، وهو يدعوهم إلى النجاة . قال ابن عطية : ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام : " أنا آخِذ بحُجَزِكم عن النارِ وأنتم تقتحمون فيها تقحّم الفَراش " .

قلت : هذا قول حسن في معنى الآية وتفسيرها ، والحديث الذي ذُكر أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما مَثَلي ومَثَل أمتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفَراش يقعن فيه وأنا آخِذٌ(1) بحُجَزِكم وأنتم تَقَحَّمُون فيه". وعن جابر مثله ؛ وقال : "وأنتم تَفَلَّتُون من يدي" . قال العلماء : الحُجْزَة للسراويل ، والمَعْقِد للإزار ؛ فإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه أخذ بذلك الموضع منه . وهذا مثل لاجتهاد نبيِّنا عليه الصلاة والسلام في نجاتنا ، وحرصه على تخلّصنا من الهلكات التي بين أيدينا ؛ فهو أَوْلى بنا من أنفسنا ؛ ولجهلنا بقدر ذلك وغلبة شهواتنا علينا وظفر عدوّنا اللعين بنا صِرنا أحقر من الفِراش وأذلّ من الفَراش ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم ! وقيل : أولى بهم أي أنه إذا أمر بشيء ودعت النفس إلى غيره كان أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أَوْلى . وقيل : أولى بهم أي هو أولى بأن يحكم على المؤمنين فينفذ حكمه في أنفسهم ؛ أي فيما يحكمون به لأنفسهم مما يخالف حكمه .

الثانية — قال بعض أهل العلم : يجب على الإمام أن يقضي من بيت المال دين الفقراء اقتداءً بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قد صرح بوجوب ذلك عليه حيث قال : "فعليّ قضاؤه" . والضَّياع (بفتح الضاد) مصدر ضاع ، ثم جعل اسما لكل ما هو بصدد أن يضيع

(1) مرجع الضمير في هذه الرواية المستوقد المفهوم من الكلام .

Marfat.com

من عيال و بنين لا كافل لهم، ومال لا قيّم له . وسميت الأرض ضَيعة لأنها معترضة للضياع، وتجمع ضِياعا بكسر الضاد .

التالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ شرّف الله تعالى أزواج نبيـه صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين؛ أى فى وجوب التعظيم والمبرّة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال، وحجبهن رضى الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات . وقيـل : لمـا كانت شفقتهن عليهـم كشفقة الأمهات أنزلن منزلة الأمهات ، ثم هـذه الأمومة لا توجب ميراثا كأمومة التّبنّى . وجاز تزويج بناتهن، ولا يجعلن أخوات للناس . وسيأتى عدد أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فى آية التخيير(١) إن شاء الله تعالى .

واختلف الناس هل هنّ أمهات الرجال والنساء أم أمهات الرجال خاصة؛ على قولين : فروى الشعبيّ عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة قالت لها : يا أمّة؛ فقالت لها : لست لك بأم، إنمـا أنا أم رجالكم . قال ابن العربى : وهو الصحيح .

قلت : لا فائدة فى اختصاص الحصر فى الإباحة للرجال دون النساء ، والذى يظهر لى أنهن أمهات الرجال والنساء؛ تعظيماً لحقهن على الرجال والنسـاء . يدلّ عليه صدر الاية : « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ »، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورةً . ويدلّ على ذلك حديث أبى هريرة وجابر؛ فيكون قـوله : « وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » عائدا إلى الجميـع . ثم إن فى مصحف أُبَىّ بن كعب « وأزواجه أمهاتهـم وهو أبٌ لهم » . وقـرأ ابن عبـاس : « من أنفسهم وهو أب [لهم](٢) وأزواجه [أمهاتهم](٢) » . وهذا كلّه يوهن ماروواه مسروق إن صح من جهة الترجيح، و إن لم يصح فيسقط الاستدلال به فى التخصيص، و بقينا على الأصل الذى هو العموم الذى يسبق إلى الفهوم(٣) . والله أعلم .

الرابعـة — قوله تعـالى : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ قيل : إنه أراد بالمؤمنين الأنصار، و بالمهاجرين قريشا . وفيه قولان :

(١) راجع ص ١٦٤ من هذا الجزء . (٢) مابين المربعين ز يادة يقتضيها السياق ، ليست فى نسخ الأصل .
(٣) كذا فى ج . وفى ك : « الفهم » . وفى ش : « المفهوم » .

Marfat.com

أحدهما — أنه ناسخ للتوارث بالهجرة . حكى سعيد عن قتادة قال : كان نزل في سورة الأنفال « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا »(١) فتوارث المسلمون بالهجرة ؛ فكان لا يرث الأعرابيّ المسلم من قريبه المسلم المهاجر شيئا حتى يهاجر ، ثم نسخ ذلك في هذه السورة بقوله : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ » . الثاني — أن ذلك ناسخ للتوارث بالحلف والمؤاخاة في الدِّين؛ روى هشام بن عُروة عن أبيه عن الزبير : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نِعم الإخوان فآخيناهم فأورثونا وأورثناهم ؛ فآخى أبو بكر خارجة بن زيد ، وآخيت أنا كعب بن مالك ، فجئت فوجدت السلاح قد أثقله ؛ فوالله لقد مات عن الدنيا ما ورثه غيرى ، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فرجعنا إلى موارثنا . وثبت عن عُروة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين الزّبير وبين كعب بن مالك، فأرْتُثَّ(٢) كعب يوم أُحد فجاء الزبير يقوده بزمام راحلته ؛ فلو مات يومئذ كعب عن الضِّح(٣) والريح لورثه الزبير، فأنزل الله تعالى : «وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » . فبيّن الله تعالى أن القرابة أولى من الحِلف ، فتركت الوراثة بالحِلف وورثوا بالقرابة . وقد مضى في « الأنفال »(٤) الكلام في توريث ذوى الأرحام . وقوله : « فِي كِتَابِ اللَّهِ » يحتمل أن يريد القرآن، ويحتمل أن يريد اللوح المحفوظ الذى قضى فيه أحوال خلقه . و« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » متعلق بـ « أَوْلَى » لا بقوله : « وَأُولُو الْأَرْحَام » بالإجماع ؛ لأن ذلك كان يوجب تخصيصا ببعض المؤمنين ، ولا خلاف في عمومها ، وهذا حلّ إشكالها ؛ قاله ابن العربى . النحاس : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ» يجوز أن يتعلق « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » بـ « أُولُو » فيكون التقدير : وأُولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين . ويجوز أن يكون المعنى أولى من المؤمنين . وقال المهدوىّ : وقيل إن معناه : وأولو الأرحام بعضهم أولى

(١) راجع جـ ٨ ص ٥٥ فما بعد . (٢) الارتثاث : أن يحمل الجريح من المعركة وهو ضعيف قد أثخنته الجراح . (٣) الضح (بالكسر) : ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض . أراد لو مات عما طلعت عليه الشمس وجرت عليه الريح ؛ وكنى بهما عن كثرة المال . (٤) راجع جـ ٨ ص ٥٩ .

Marfat.com

ببعض فى كتاب الله إلا مايجوز لأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يُدعَين أمهات المؤمنين . والله تعالى أعلم .

الخامسة — واختلف فى كونهن كالأمهات فى المَحْرَم و إباحة النظر، على وجهين : أحدهما — هنّ مَحْرَم، لا يحرم النظر إليهنّ . الثانى — أن النظر إليهن محرّم، لأن تحريم نكاحهن إنما كان حفظًا لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهن ، وكان من حفظ حقّه تحريمُ النظر إليهن ؛ ولأن عائشة رضى الله عنها كانت إذا أرادت دخول رجل عليها (١) أمرت أختها أسماء أن ترضعه ليصير آبنًا لأختها من الرضاعة، فيصير مَحْرَمًا يستبيح النظر. وأما اللاتى طلقهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته فقد آختلف فى ثبوت هذه الحرمة لهن على ثلاثة أوجه: أحدها — ثبتت لهن هذه الحرمة تغليبًا لحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . الثانى — لا يثبت لهن ذلك، بل هن كسائر النساء؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أثبت عصمتهن، وقال: "أزواجى فى الدنيا هنّ أزواجى فى الآخرة". الثالث — من دخل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم منهن ثبتت حرمتها وحَرُم نكاحها و إن طلقها ؛ حفظًا لحرمته وحراسة لخلوته ، ومن لم يدخل بها لم تثبت لها هذه الحرمة؛ وقد همّ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه برجم آمرأة فارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوّجت فقالت : لم هذا ! وما ضرب علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجابًا ولا سُمّيت أمّ المؤمنين ؛ فكفّ عنها عمر رضى الله عنه .

السادسة — قال قوم : لا يجوز أن يُسَمَّى النبيّ صلى الله عليه وسلم أبًا لقوله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُمْ » . ولكن يقال : مِثل الأب للمؤمنين ؛ كما قال : "إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلّمكم ..." الحديث . خرجه أبو داود . والصحيح أنه يجوز أن يقال : إنه أبٌ للمؤمنين، أى فى الحرمة، وقوله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ » أى فى النسب. وسيأتى . وقرأ ابن عباس : « مِنْ أنفسهم وهو أبٌ لهم وأزواجه» . وسمع عمر هذه القراءة فأنكرها وقال : حُكّها ياغلام ؟ فقال : إنها فى مصحف أُبَىّ ؛ فذهب إليه

(١) راجع جـ ٥ ص ١٠٩ وجـ ٤ ص ١٥٤ شرح الموطأ .

Marfat.com

فسأله فقال له أُبَيّ: إنه كان يلهيني القرآن و يلهيك الصَّفْق[1] بالأسواق؟ وأغلظ لعمر. وقد قيل في قول لوط عليه السلام «هَؤُلَاءِ بَنَاتِي»[2]: إنما أراد المؤمنات؛ أي تزوجوهن. وقد تقدّم.

السابعــة — قال قوم: لا يقال بناته أخوات المؤمنين، ولا أخوالهن أخوال المؤمنين وخالاتهم. قال الشافعيّ رضي الله عنه: تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر الصديق وهي أخت عائشة، ولم يقل هي خالة المؤمنين. وأطلق قوم هذا وقالوا: معاوية خال المؤمنين؛ يعني في الحرمة لا في النسب.

الثامنــة — قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ يريد الإحسان في الحياة، والوصية عند الموت؛ أي إن ذلك جائز؛ قاله قتادة والحسن وعطاء. وقال محمد ابن الحنفيّة، نزلت في إجازة الوصية لليهوديّ والنصرانيّ؛ أي يفعل هذا مع الوَلِيّ والقريب وإن كان كافرا؛ فالمشرك وَلِيّ في النسب لا في الدِّين فيوصي له بوصية. واختلف العلماء هل يجعل الكافر وصيًّا؛ فجوّز بعضٌ ومنع بعض. وردّ النظر إلى السلطان في ذلك بعض؛ منهم مالك رحمه الله تعالى. وذهب مجاهد وابن زيد والرمّاني إلى أن المعنى: إلى أوليائكم من المؤمنين. ولفظ الآية يَعْضُد هذا المذهب، وتعميم الوليّ أيضا حسن. وولاية النسب لا تدفع الكافر، وإنما تدفع أن يلقى إليه بالمودّة كوليّ الإسلام.

التاســعة — قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ «الْكِتَاب» يحتمل الوجهين المذكورين المتقدمين في «كِتَابِ اللَّهِ». و «مَسْطُورًا» من قولك سطرت الكتاب اذا أثبتّه أسطارا. وقال قتادة: أي مكتوبا عند الله عز وجل ألّا يرث كافرٌ مسلما. قال قتادة: وفي بعض القراءة «كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبًا». وقال القُرَظيّ: كان ذلك في التوراة.

قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾

(١) الصفق: التبايع. (٢) راجع جـ ٩ ص ٧٦ فما بعد.

Marfat.com

قوله تعالى : « ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ أى عهدهم على الوفاء بما حملوا ، وأن يبشر بعضهم ببعض ، ويصدق بعضهم بعضا ؛ أى كان مسطورا حين كتب الله ما هو كائن، وحين أخذ الله تعالى المواثيق من الأنبياء . ﴿ وَمِنْكَ ﴾ يا محمد ﴿ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ وإنما خص هؤلاء الخمسة و إن دخلوا فى زمرة النبيين تفضيلا لهم . وقيل : لأنهم أصحاب الشرائع والكتب ، وأولو العزم من الرسل وأئمة الأمم . و يحتمل أن يكون هذا تعظيما فى قطع الولاية بين المسلمين والكافرين؛ أى هذا مما لم تختلف فيه الشرائع ، أى شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. أى كان فى ابتداء الإسلام توارثٌ بالهجرة، والهجرة سبب متأكد فى الديانة، ثم توارثوا بالقرابة مع الإيمان وهو سبب وكيد؛ فأما التوارث بين مؤمن وكافر فلم يكن فى دين أحد من الأنبياء الذين أخذ عليهم المواثيق ؛ فلا تُداهنوا فى الدين ولا تمالئوا الكفار . ونظيره: « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا — إلى قوله — وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »(١). ومن ترك التفرق فى الدين ترك موالاة الكفار . وقيل : أى النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم كان ذلك فى الكتاب مسطورا ومأخوذا به المواثيق من الأنبياء . ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أى عهدًا وثيقًا عظيما على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة ، وأن يصدق بعضهم بعضا . والميثاق هو اليمين بالله تعالى ؛ فالميثاق الثانى تأكيد للميثاق الأول باليمين . وقيل : الأول هو الإقرار بالله تعالى، والثانى فى أمر النبوة . ونظير هذا قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي »(٢) الآية . أى أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعلن محمد صلى الله عليه وسلم أن لا نبى بعده . وقدّم محمدا فى الذكر لما روى قتادة عن الحسن عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ» قال : "كنت أولهم فى الخلق وآخرهم فى البعث" . وقال مجاهد : هذا فى ظهر آدم عليه الصلاة والسلام .

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٩ فما بعد . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٢٤ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها — ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم؛ حكاه النقاش . وفى هذا تنبيه؛ أى إذا كان الأنبياء يُسألون فكيف مَن سواهم .

الثانى — ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم ؛ حكاه علىّ بن عيسى .

الثالث — ليسأل الأنبياء عليهم السلام عن الوفاء بالميثاق الذى أخذه عليهم ؛ حكاه ابن شجرة .

الرابع — ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة، وفى التنزيل : « فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ » . وقد تقدّم (١) . وقيل : فائدة سؤالهم توبيخ الكفار؛ كما قال تعالى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ » (٢) . ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وهو عذاب جهنم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾

يعنى غزوة الخندق والأحزاب وبنى قُرَيظة (٣) ، وكانت حالا شديدة معقبة بنعمة ورخاء وغبطة ، وتضمّنت أحكاما كثيرة وآيات باهرات عزيزة ، ونحن نذكر من ذلك بعون الله تعالى ما يكفى فى عشر مسائل :

الأولى — اختلف فى أىّ سنة كانت ؛ فقال ابن إسحاق : كانت فى شوال من السنة الخامسة . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك رحمه الله : كانت وقعة الخندق سنة أربع،

(١) راجع جـ ٧ ص ١٦٤ (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٧٤ .

(٣) سميت غزوة الخندق لأجل الخندق الذى حفر حول المدينة بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم . وأما تسميتها بالأحزاب : فلاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين ، وهم قريش وغطفان واليهود .

Marfat.com

وهي وبنو قُريظة في يوم واحد، وبين بني قريظة والنَّضير أربع سنين . قال ابن وهب وسمعت مالكا يقول : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتال من المدينة ، وذلك قوله تعالى : «إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» . قال : ذلك يوم الخندق ، جاءت قريش من ها هنا واليهود من ها هنا والنَّجدية من ها هنا ، يريد مالك : إن الذين جاءوا من فوقهم بنو قريظة، ومن أسفل منهم قريش وغَطَفان . وكان سببها : أن نفرا من اليهود منهم كنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيق وسلام بن أبي الحُقَيق وسلام ابن مِشْكم وحُيَيّ بن أخطب النضريّون وهَوْذة بن قيس وأبو عمار من بني وائل ، وهم كلهم يهود ، هم الذين حزّبوا الأحزاب وألّبوا وجمعوا ، خرجوا في نفر من بني النَّضير ونفر من بني وائل فأتوا مكة فدعوا إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وواعدوهم من أنفسهم بعون من انتدب إلى ذلك ؛ فأجابهم أهل مكة إلى ذلك ، ثم خرج اليهود المذكورون إلى غَطَفان فدعوهم إلى مثل ذلك فأجابوهم؛ فخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غَطَفان وقائدهم عُيينة بن حصن بن حُذيفة بن بدر الفَزَاريّ على فَزَارة ، والحارث بن عوف المُرّي على بني مُرّة ، ومسعود بن رُخَيلة على أشجع . فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتماعهم وخروجهم شاور أصحابه ، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق فرضي رأيه . وقال المهاجرون يومئذ : سلمان منا . وقال الأنصار : سلمان منا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سلمان منّا أهل البيت " . وكان الخندق أوّلَ مشهد شهده سلمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ حر . فقال : يارسول الله، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا؛ فعمل المسلمون في الخندق مجتهدين ، ونكص المنافقون وجعلوا يتسللّون لِواذاً[1] فنزلت فيهم آيات من القرآن ذكرها ابن إسحاق وغيره . وكان مَن فرغ من المسلمين من حصّته عاد إلى غيره ، حتى كمل الخندق . وكانت فيه آيات بيّنات وعلامات للنبوّات .

قلت : ففي هذا الذي ذكرناه من هذا الخبر من الفقه وهي : —

(١) أي مستخفين ومستترين بعضهم ببعض .

Marfat.com

الثانيـة — مشاورة السلطان أصحابَه وخاصّته فى أمر القتال ؛ وقد مضى ذلك فى « آل عمران، والنمل »[1] . وفيه التحصّن من العدوّ بما أمكن من الأسباب واستعمالها ؛ وقد مضى ذلك فى غير موضع . وفيه أن حفر الخندق يكون مقسوما على الناس ؛ فمن فرغ منهم عاون من لم يفرغ ، فالمسلمون يدٌ على مَن سواهم ؛ وفى البخارى ومسلم عن البَرَاء بن عازِب قال : لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنّى الغبارُ جِلدة بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعته يرتجِز بكلمات ابن رَواحة ويقول :

اللّهمّ لولا أنت ما آهتدينا * ولا تصدّقنا ولا صلّينا

فأنزِلَنْ سكينةً علينا * وثبّت الأقدام إن لاقينا

وأما ما كان فيه من الآيات وهى : —

الثالثة — فروى النسائى عن أبى سكينة رجلٍ من المحرَّرين[2] عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق عرضت لهم صخرة حالت بينهم و بين الحفر، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ المِعْول ووضع رداءه ناحية الخندق وقال : «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا»[3] الآية ؛ فَنَدَر[4] ثلث الحجر وسلمان الفارسى قائم ينظر، فَبَرَق مع ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بَرْقَةٌ، ثم ضرب الثانية وقال : « وَتَمَّتْ » الآية ؛ فَنَدَر الثلث الآخر؛ فبرقت برقة فرآها سلمان ، ثم ضرب الثالثة وقال : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا » الآية ؛ فندر الثلث الباقى ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ رداءه وجلس . قال سلمان : يا رسول الله ، رأيتك حين ضربت ! ما تضرب ضربة إلا كانت معها برقة؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رأيت ذلك ياسلمان" ؟ فقال : أى والذى بعثك بالحق يارسول الله ! قال : " فإنى حين ضربت الضربة الأولى رُفعت لى مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رأيتها بعينيّ" — قال له من حضره من أصحابه : يارسول الله،

(١) راجع ج ٤ ص ٢٤٩ فما بعد ، و ج ١٣ ص ١٩٤ .
(٢) أى المعتق من النار .
(٣) راجع ج ٧ ص ٧١ .
(٤) ندر : سقط .

Marfat.com

ادع الله أن يفتحها علينا و يغنّمنا ذراريهم و يخرّب بأيدينا بلادهم (1) ؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثم ضربتُ الضربة الثانية فرُفعت لى مدائن قَيْصر وما حولها حتى رأيتها بعينى — قالوا : يا رسول الله ، ادع الله تعالى أن يفتحها علينا و يغنمنا ذراريهم و يخرب بأيدينا بلادهم ؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثم ضربتُ الضربة الثالثة فرُفعت لى مدائن الحبشة وما حولها من القرى حتى رأيتها بعينى — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : دعوا الحبشة ما وَدَعوكم وآتركوا الترك ما تركوكم » . وخرجه أيضا عن البَرَاء قال : لما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحفر الخندق عرض لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول ، فآشتكينا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقى ثوبه وأخذ المِعْول وقال : « باسم الله » فضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة ثم قال : « الله أكبر أُعْطيت مفاتيح الشام والله إنى لأبصر إلى قصورها الحمراء الآن من مكانى هذا » قال : ثم ضرب أخرى وقال : « باسم الله » فكسر ثلثا آخر ثم قال : « الله أكبر أُعطيت مفاتيح فارس والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض » . ثم ضرب الثالثة وقال : « باسم الله » فقطع الحجر وقال : « الله أكبر أُعطيت مفاتيح اليمن والله إنى لأبصر باب صنعاء » . صححه أبو محمد عبد الحق .

الرابعة — فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق أقبلت قريش فى نحو عشرة آلاف بمن معهم من كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غَطفان بمن معها من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أُحُد ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى نزلوا بظهر سَلْع (2) فى ثلاثة آلاف وضربوا عسكرهم والخندق بينهم وبين المشركين ، وآستعمل على المدينة آبنَ أُمّ مَكْتوم — فى قول ابن شهاب — وخرج عدوّ الله حُيَيّ بن أخْطَب النضرى حتى أتى كعب بن أسد القُرَظِيّ ، وكان صاحبَ عقد بنى قريظة و رئيسَهم ، وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاقده وعاهده ؛ فلما سمع كعب بن أسد حُيَيّ بن أخطب

(1) فى النسائى : « ديارهم » .	(2) سلع : جبل بالمدينة .

Marfat.com

أغلق دونه باب حصنه وأبى أن يفتح له ؛ فقال له : افتح لى يا أخى ، فقال له : لا أفتح لك ، فإنك رجل مشئوم ، تدعونى إلى خلاف محمد وأنا قد عاقدته وعاهدته ، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقًا، فلست بناقض ما بينى و بينه . فقال حُيَىّ : افتح لى حتى أكلمك وأنصرف عنك ؛ فقال: لا أفعل؛ فقال: إنما تخاف أن آكل معك جشيشتك؛ فغضب كعب وفتح له ؛ فقال : ياكعب ! إنما جئتك بعزّ الدهر ، جئتك بقريش وسادتها، وغَطَفان وقادتها ؛ قد تعاقدوا على أن يستأصلوا محمدا ومن معه ؛ فقال له كعب : جئتنى والله بذل الدهر وبجهام(١) لا غيث فيه ! ويحك ياحُيَىّ ؟ دَعْنِى فلستُ بفاعل ما تدعونى إليه ؛ فلم يزل حُيَىّ بكَعْب يَعِده ويَغُره حتى رجع إليه وعاقده على خذلان محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأن يسير معهم، وقال له حُيَىّ بن أخطب : إن انصرفت قريش وغَطَفان دخلت عندك بمن معى من اليهود . فلما انتهى خبر كعب وحُيَىّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعث سعد بن عُبادة وهو سيد الخزرج، وسيد الأوس سعد بن معاذ ، و بعث معهما عبد الله بن رَواحة وخَوّات بن جُبير ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " انطلقوا إلى بنى قُريظة فإن كان ماقيل لنا حقا فآلحنوا لنا لَحنًا ولا تَفُتّوا فى أعضاد الناس . و إن كان كذبا فآجهروا به للناس " فانطلقوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما قيل لهم عنهم ، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : لا عهد له عندنا ؛ فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ؛ وكانت فيه حدّة فقال له سعد بن عُبادة : دع عنك مشاتمتهم ، فالذى بيننا و بينهم أكثر من ذلك ، ثم أقبل سعد وسعد حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جماعة المسلمين فقالا : عَضَل والقارَة — يعرّضان بغدر عَضَل والقارة بأصحاب الرَّجيع خُبيب وأصحابه — فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أبشروا يامعشر المسلمين " وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف ، وأتى المسلمين عدوُّهم من فوقهم ؛ يعنى من فوق الوادى من قبل المشرق ، ومن أسفل منهم من بطن الوادى من قبل المغرب ، حتى ظنوا بالله الظنونا ؛ وأظهر المنافقون كثيرا مما كانوا يسرّون ، فمنهم من قال : إن بيوتنا عورة ، فلننصرف إليها ،

(١) الجهام : السحاب لا ماء فيه .

Marfat.com

فإنا نخاف عليها ؛ وممن قال ذلك : أَوْس بن قَيْظي . ومنهم من قال : يَعِدنا محمد أن يفتح كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه يذهب إلى الغائط ! وممن قال ذلك : مُعَتِّب بن قُشير أحد بنى عمرو بن عوف . فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام المشركون بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر لم يكن بينهم حَرْب إلا الرمى بالنَّبْل والحصى . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه اشتدّ على المسلمين البلاء بعث إلى عُيَيْنة بن حِصن الفَزَارى ، وإلى الحارث بن عوف المُرِّى ، وهما قائدا غَطَفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة لينصرفا بمن معهما من غَطَفان ويخذلا قريشا ويرجعا بقومهما عنهم . وكانت هذه المقالة مراوضة ولم تكن عقدا ؛ فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما أنهما قد أنابا ورضِيَا أتى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فقالا : يا رسول الله ، هذا أمر تحبّه فنصنعه لك ، أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع ، أو أمر تصنعه لنا؟ قال : "بل أمر أصنعه لكم، والله ما أصنعه إلا أنى قد رأيت العرب قد رمتكم عن قَوْس واحدة" فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله ، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وما طمعوا قطّ أن ينالوا منا ثمرة إلا شِراء أو قِرًى ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك نعطيهم أموالنا ! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم !! فسُرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وقال : "أنتم وذاك" . وقال لعيينة والحارث : "انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف" . وتناول سعد الصحيفة وليس فيها شهادة فمحاها .

الخامسة — فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون على حالهم، والمشركون يحاصرونهم ولا قتال بينهم؛ إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد وُدّ العامرىّ من بنى عامر بن لُؤَىّ، وعِكرمة بن أبى جهل، وهُبَيرة بن أبى وهب، وضِرار بن الخطاب الفهرىّ، وكانوا فرسان قريش وشجعانهم، أقبلوا حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا : إن هذه لمكيدة ، ما كانت العرب تكيدها . ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق ، فضربوا خيلهم فاقتحمت بهم ، وجاوزوا الخندق وصاروا بين الخندق وبين سَلْع ، وخرج على بن أبى طالب

Marfat.com

فى نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثُّغرة التى آقتحموا منها ، وأقبلت الفرسان نحوهم ، وكان عمرو بن عبد وُدّ قد أثبتته الجراح يوم بَدْر فلم يشهد أُحُدًا ، وأراد يوم الخندق أن يُرى مكانُه ، فلما وقف هو وخيله ، نادى : من يبارز ؟ فبرزله علىّ بن أبى طالب وقال له : ياعمرو ، إنك عاهدت الله فيما بلغنا أنك لا تُدْعَى إلى إحدى خلّتين إلا أخذت احداهما ؟ قال نعم . قال : فإنى أدعوك إلى الله والإسلام . قال : لا حاجة لى بذلك . قال : فأدعوك إلى البراز . قال : يا بن أخى ، والله ما أحبّ أن أقتلك لما كان بينى وبين أبيك . فقال له علىّ : أنا والله أحبّ أن أقتلك . فحَمِى عمرو بن عبد وُدّ ونزل عن فرسه ، فعقره وصار نحو علىّ ، فتنازلا وتجاولا وثار النقع بينهما حتى حال دونهما ، فما آنجلى النَّقع حتى رُئِىَ علىّ على صدر عمرو يقطع رأسه ، فلما رأى أصحابُه أنه قد قتله علىّ اقتحموا بخيلهم الثُّغرة منهزمين هاربين . وقال علىّ رضى الله عنه فى ذلك :

نصر الحجارةَ من سفاهة رأيِهِ * ونصرتُ دِينَ محمد بضراب(1)
نازلته فتركته متجدِّلًا(2) * كالجذع بين دَكادكٍ ورَوابى(3)
وعففتُ عن أثوابه ولو آننى * كنت المقطَّرَ بَزَّنى أثوابى(4)
لا تحسبُنّ الله خاذلَ دينه * ونبيِّه يا معشر الأحزاب

قال ابن هشام : أكثر أهل العلم بالسير(5) يشك فيها لعلىّ . قال ابن هشام : وألقى عِكرمة ابن أبى جهل رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو ؛ فقال حسان بن ثابت فى ذلك :

فرّ وألقى لنا رُمْحَه * لعلّك عِكرِمَ لم تَفعلِ
ووليت تَعْدو كعَدْوِ الظَّلِيم * ما إن تجور عن المَعْدِلِ
ولم تُلقِ ظهرك مستأنسًا * كأن قفاك قَفَا فُرعُلِ

(1) فى سيرة ابن هشام : « بصوابى » . (2) فى سيرة ابن هشام : « فصددت حين تركته ... » .
(3) المتجدّل : اللاصق بالأرض . والدكادك : جمع دكداك ، وهو الرمل اللين . والروابى : جمع رابية ، وهو ما ارتفع من الأرض. (4) المقطر : الذى ألقى على أحد قطاريه ، أى جنبيه . و بزنى : سلبنى وجردنى .
(5) فى سيرة ابن هشام : « بالشعر » .

Marfat.com

قال ابن هشام : فرعل صغير الضباع . وكانت عائشة رضى الله عنها فى حصن بنى حارثة ، وأُمّ سعد بن معاذ معها ، وعلى سعد درع مُقَلَّصة(١) قد خرجت منها ذراعه ، وفى يده حربته وهو يقول :

لَبِّثْ قليلاً يلحق الهَيْجا جَمَلْ * لا بأس بالموت إذا كان الأجَلْ

ورُمى يومئذ سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل(٢) . واختلف فيمن رماه ؛ فقيل : رماه حِبّان بن قيس ابن العَرِقة(٣) ، أحد بنى عامر بن لؤىّ ، فلما أصابه قال له : خذها وأنا ابن العَرِقة . فقال له سعد : عرّق الله وجهك فى النار . وقيل : إن الذى رماه خفاجة ابن عاصم بن حبان(٤) . وقيل : بل الذى رماه أبو أسامة الجُشَمِىّ ، حليف بنى مخزوم . ولحسان مع صفية بنت عبد المطلب خبر طريف يومئذ ؛ ذكره ابن إسحاق وغيره .

قالت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها : كنا يوم الأحزاب فى حِصن حسان ابن ثابت، وحسان معنا فى النساء والصبيان، والنبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى نحر العدوّ لايستطيعون الانصراف إلينا ، فإذا يهودىّ يدور ، فقلت لحسان : انزل إليه فاقتله ؛ فقال : ما أنا بصاحب هذا يابنة عبد المطلب ! فأخذت عمودا ونزلت من الحصن فقتلته ، فقلت : يا حسان، انزل فاسلبه، فلم يمنعنى من سَلَبه إلا أنه رجل . فقال : مالى بسلبه حاجة يابنة عبد المطلب ! قال : فنزلت فسلبته . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد أنكر هذا عن حسان جماعة من أهل السِّيَر وقالوا : لو كان فى حسان من الجبن ما وصفتم لهجاه بذلك الذين كان يهاجيهم فى الجاهلية والإسلام، ولَهُجِىَ بذلك ابنه عبد الرحمن ؛ فإنه كان كثيرا ما يهاجى الناس من شعراء العرب ؛ مثل النجاشى وغيره .

السادسة — وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعىّ فقال : يا رسول الله ، إنى قد أسلمت ولم يعلم قومى بإسلامى، فمُرْنى بما شئت ؛ فقال له رسول

(١) مقلصة : مجتمعة منضمة . (٢) الأكحل : عرق فى وسط الذراع . (٣) العرقة (بفتح العين وكسر الراء) : أم حبان ، واسمها قلابة بنت سعيد بن سعد تكنى أم فاطمة ، وسميت العرقة لطيب ريحها ، وهى جدّة خديجة . (٤) فى الأصول : « جبارة » والتصويب عن سيرة ابن هشام وشرح المواهب .

Marfat.com

الله صلى الله عليه وسلم : " إنما أنت رجل واحد من غَطَفان فلو خرجتَ نخذّلت عنّا إن استطعت كان أحبّ إلينا من بقائك معنا فاخرج[1] فإن الحرب خدعة[2] " . فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قُريظة — وكان ينادمهم فى الجاهلية — فقال : يابنى قريظة ، قد عرفتم وُدّى إياكم ، وخاصّة مابينى و بينكم ؛ قالوا : قل فلستَ عندنا بمتّهم ؛ فقال لهم : إن قريشا وغَطَفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، و إن قريشا وغطَفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه فإن رأوا نُهْزة[2] أصابوها ، و إن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم و بين الرجل ، ولا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا . ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لهم : قد عرفتم وُدّى لكم معشرَ قريش ، وفراق محمدا ، وقد بلغنى أمر أرى من الحق أن أبلّغكموه نصحًا لكم ، فاكتموا علىّ ؛ قالوا نفعل ؛ قال : تعلمون أن معشر يهودَ ، قد نَدموا على ما كان من خذلانهم محمدا ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد نَدمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغَطَفان [رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب] أعناقهم[3] ، ثم نكون معك على ما بقى منهم حتى نستأصلهم . ثم أتى غَطَفان فقال مثل ذلك . فلما كان ليلة السبت وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله والمؤمنين ، أرسل أبو سفيان إلى بنى قُريظة عِكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان يقول لهم : إنا لسنا بدار مُقام ، قد هلك الخُفّ والحافر ، فاغدوا صبيحة غدٍ للقتال حتى نناجز محمدا ؛ فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت ، وقد علمتم ما نال منّا من تعدّى فى السبت ، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُنًا ؛ فلما رجع الرسول بذلك قالوا : صَدَقنا واللهِ نعيم بن مسعود ؛ فردّوا

---

(١) فى ك : « أن تقاتل معنا » . وفى جـ : « مقامك » . قوله : « خدعة » فى النهاية لابن الأثير : « يروى بفتح الخاء وضمها مع سكون الدال ، وبضمها مع فتح الدال . فالأول معناه : أن الحرب ينقضى أمرها بخدعة واحدة من الخداع ؛ أى أن المقاتل إذا خدع مرة واحدة لم تكن لها إقالة . وهى أفصح الروايات وأصحها . ومعنى الثانى : هو الاسم من الخداع . ومعنى الثالث : أن الحرب تخدع الرجال وتمنيهم ولا تفى لهم ، كما يقال : فلان رجل لعبة وضحكة ؛ أى كثير اللعب والضحك .

(٢) النهزة : الفرصة تجدها من صاحبك .

(٣) ما بين المربعين كذا ورد فى ك . والذى فى جـ ، ش : « ... وغطفان رهنا رجالا ونسلمهم » .

Marfat.com

إليهم الرسل وقالوا : والله لا نعطيكم رهنا أبدا فاخرجوا معنا إن شئتم و إلا فلا عهد بيننا وبينكم . فقال بنو قريظة : صدق والله نعيم بن مسعود . وخذل الله بينهم ، واختلفت كلمتهم ، وبعث الله عليهم رِيحًا عاصفًا فى ليالٍ شديدة البرد ، فجعلت الريح تقلب آنيتهم وتكفأ قدورهم .

السابعة — فلما اتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم اختلاف أمرهم ، بعث حذيفة ابن اليمان ليأتيه بخبرهم ، فأتاهم واستتر فى غمارهم(١) ، وسمع أبا سفيان يقول : يامعشر قريش ، ليتعرّف كل امرئ جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد جليسى وقلت : ومن أنت؟ فقال : أنا فلان . ثم قال أبو سفيان : ويلكم يا معشر قريش ! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، ولقد هلك الكراع والخُفّ(٢) وأخلفتنا بنو قُريظة ، ولقينا من هذه الريح ماترون ، ما يستمسك لنا بناء ، ولا تثبت لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، فآرتحلوا فإنى مرتحل ؛ ووثب على جمله فما حلّ عقال يده إلا وهو قائم . قال حذيفة : ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لى إذ بعثنى ، قال لى : "مُرَّ إلى القوم فآعلم ما هم عليه ولا تحدث شيئا" — لقتلته بسهم ؛ ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رحيلهم ، فوجدته قائما يصلّى فى مِرْط لبعض نسائه مراجل — قال ابن هشام : المراجل ضرب من وَشْى اليمن — فأخبرته فحمد الله .

قلت : وخبر حذيفة هذا مذكور فى صحيح مسلم ، وفيه آيات عظيمة ، رواه جرير عن الأعمش عن إبراهيم التيمىّ عن أبيه قال : كنا عند حذيفة فقال رجل لو أدركتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلت معه وأبليت . فقال حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ! لقد رأيتُنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقرّ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألا رجل يأتينى بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة" ؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد ، ثم قال : "ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة" ؟ فسكتنا فلم يجبه أحد . فقال : "قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم" فلم أجد بُدًّا إذ دعانى بآسمى أن أقوم . قال : "اذهب فأتنى بخبر القوم ولا تَذْعَرْهم علىّ(٣)" قال : فلما ولّيت من عنده جعلت كأنما

(١) مثلث الغين . (٢) الكراع : اسم يجمع الخيل . والخف : اسم يجمع الإبل .
(٣) الذعر : الفزع ، يريد لا تعلمهم بنفسك وآمش فى خفية لئلا ينفروا منك و يقبلوا علىّ .

Marfat.com

أمشي في حَمّام[1] حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يَصْلِي ظهره بالنار، فوضعت سهما في كَبِد القوس فأردت أن أرميَــه ، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ولا تَذْعَرْهم علىّ " ولو رميته لأصبته : فرجعت وأنا أمشي في مثل الحَمّام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغتُ قُررت، فألبسني رســول الله صلى الله عليه وسلم من فضــل عباءة كانت عليه يصلّى فيها ، فلم أزل نائمــا حتى أصبحت ، فلما أصبحت قال : " قم يا نَوْمَان " . ولمــا أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذهب الأحزاب، رجع إلى المدينة ووضع المسلمون سلاحهم، فأتاه جبريل صلى الله عليه وسلم في صورة دِحْيَة بن خليفة الكلبي، على بغلة عليها قطيفة ديباج فقال له : يا محمد ، إن كنتم قد وضعتم سلاحكم فمــا وضعت الملائكة سلاحها . إن الله يأمرك أن تخرج إلى بني قُريظة ، وإني متقدم إليهم فمزلزل بهم حصونهم . فأمر رســول الله صلى الله عليه وسلم وهي : —

الثامنــــة — مناديًا فنادى : لا يصلّيَنّ أحد العصر إلا في بني قُريظة ؛ فتخوّف ناس فوت الوقت فصــلوا دون بني قُريظــة . وقال آخرون : لا نصلّى العصر إلا حيث أمرنا رســول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت . قال : فما عنّف واحدا من الفريقين . وفي هذا من الفقه تصويب المجتهدين . وقد مضى بيانه في « الأنبياء »[2] . وكان سعد بن معاذ إذ أصابه السهم دعا ربه فقال : اللّهُم إن كنت أبقيْتَ من حرب قريش فأبقِني لها ؛ فإنه لا قوم أحب أن أجاهدهم من قوم كذّبوا رســولك وأخرجوه . اللّهُمّ وإن كنت وضعت الحــرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ، ولا تُمِتْني حتى تقرّ عيني في بني قُريظة . وروى ابن وهب عن مالك قال : بلغني أن سعد بن معاذ مَرّ بعائشة رضي الله عنها ونساءٍ معها في الأُطُم[3] (فارع)[4] ، وعليه دِرع مُقلَّصة[5] مشمرّ الكُمّين ، وبه أثر صفرة وهو يرتجز :

لَبِّثْ قليلًا يُدْرِكِ الهَيْجَا جَمَــلْ * لا بأس بالموت إذا حان الأَجَلْ

(١) يقول : كأنما أمشي في حرّ لم يصبني برد ولا من تلك الريح الشديدة شيء ببركة توجيه النبي صلى الله عليه وسلم .
(٢) راجع جـ ١١ ص ٣١١ . (٣) الأطم : حصن مبني بحجارة . (٤) في الأصول : « في الأطم الذي فارع » . وفارع حصن بالمدينة ، يقال إنه حصن حسان بن ثابت . (٥) مقلصة : مجتمعة منضمة .

Marfat.com

فقالت عائشة رضي الله عنها : لست أخاف أن يصاب سعد اليوم إلا فى أطرافه ؛ فأصيب فى أَكْحَله . وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قالت عائشة رضى الله عنها : ما رأيت رجلا أجمل من سعد بن معاذ حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأصيب فى أكحله ثم قال : اللهم إن كان حرب قُرَيظة لم يبق منه شيء فاقبضنى إليك ، وإن كان قد بقيت منه بقية فأبقنى حتى أجاهد مع رسولك أعداءه ؛ فلما حُكّم فى بنى قُرَيظة تُوُفِّىَ ؛ ففرح الناس وقالوا : نرجو أن يكون قد استجيبت دعوته .

التاسعة — ولما خرج المسلمون إلى بنى قُرَيظة أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية علىّ بن أبى طالب ، واستخلف على المدينة ابن أمّ مَكْتوم ، ونهض علىّ وطائفة معه حتى أتوا بنى قريظة ونازلوهم ، فسمعوا سبّ الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانصرف علىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يارسول الله ، لا تبلغ إليهم ، وعَرّض له . فقال له : "أظنك سمعت منهم شتمى . لو رأونى لكفُّوا عن ذلك" ونهض إليهم فلما رأوه أمسكوا . فقال لهم : "نقضتم العهد يا إخوة القرود أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته" فقالوا : ما كنت جاهلا يا محمد فلا تجهل علينا ؛ ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة . وعرض عليهم سيّدهم كعب ثلاثَ خصال ليختاروا أيّها شاءوا : إما أن يُسلموا و يتبعوا محمدا على ماجاء به فيسلَموا . قال : وتحرزوا أموالكم ونساءكم وأبناءكم ، فوالله إنكم لتعلمون أنه الذى تجدونه مكتوبا فى كتابكم . وإما أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم ثم يتقدموا ؛ فيقاتلون حتى يموتوا من آخرهم . وإما أن يبيّتوا المسلمين ليلة السبت فى حين طمأنينتهم فيقتلوهم قتلا . فقالوا له : أما الإسلام فلا نُسلم ولانخالف حكم التوراة ، وأما قتل أبنائنا ونسائنا فما جزاؤهم المساكين منا أن نقتلهم ، ونحن لا نتعدّى فى السبت . ثم بعثوا إلى أبى لُبابة ، وكانوا حلفاء بنى عمرو بن عوف وسائر الأوس ، فأتاهم فجمعوا إليه أبناءهم ونساءهم ورجالهم وقالوا له : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ فقال نعم ، — وأشار بيده إلى حَلْقه — إنه الذبح إن فعلتم . ثم ندم أبو لبابة فى الحين ، وعلم أنه خان الله ورسوله ، وأنه أمرٌ لا يستره الله عليه عن نبيّه صلى الله عليه وسلم .

Marfat.com

فانطلق إلى المدينة ولم يرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فربط نفسه فى سارية وأقسم ألا يبرح من مكانه حتى يتوب الله عليه فكانت امرأته تحله لوقت كل صلاة . قال ابن عيينة وغيره : فيه نزلت : «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ»(١) الآية . وأقسم ألا يدخل أرض بنى قريظة أبدا مكانا أصاب فيه الذنب . فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم من فعل أبى لبابة قال : "أما إنه لو أتانى لاستغفرت له وأما إذ فعل مافعل فلا أطلقه حتى يطلقه الله تعالى" فأنزل الله تعالى فى أمر أبى لبابة : «وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ»(٢) الآية . فلما نزل فيه القرآن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإطلاقه ، فلما أصبح بنو قريظة نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواثب الأوس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله ، وقد علمت أنهم حلفاؤنا ، وقد أسعفت(٣) عبد الله بن أبى ابن سلول فى بنى النضير حلفاء الخزرج ، فلا يكن حظنا أوكس وأنقص عندك من حظ غيرنا ، فهم موالينا . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم — قالوا بلى . قال — : — فذلك إلى سعد بن معاذ" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ضرب له خيمة فى المسجد ، ليعوده من قريب فى مرضه من جرحه الذى أصابه فى الخندق . فحكم فيهم بأن تقتل المقاتلة ، وتسبى الذرية والنساء ، وتقسم أموالهم . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع أرقعة(٤)" . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا إلى موضع بسوق المدينة اليوم — زمن ابن إسحاق — فخندق بها خنادق ، ثم أمر عليه السلام فضربت أعناقهم فى تلك الخنادق ، وقتل يومئذ حيي بن أخطب وكعب بن أسد ، وكانا رأس القوم ، وكانوا من الستمائة إلى السبعمائة . وكان على حيي حلة فقاحية(٥) قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة ، أنملة أنملة لئلا يسلبها . فلما نظر إلى رسول الله

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩٤ . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٤٢ .
(٣) الأسعاف : قضاء الحاجة . (٤) أرقعة جمع رقيع ، والرقيع السماء ، سميت بذلك لأنها رقعت بالنجوم .
(٥) أى بلون الورد حين أن يتفتح .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم حين أتى به ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبل قال : أمَا والله ما لُمتُ نفسي في عداوتك .

* ولكنه من يخذل الله يخذل *

ثم قال : يأيها الناس، لا بأس بأمر الله كتاب وقَدَر ومَلْحمة(١) كُتبت على بني إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه . وقتـل من نسائهم امرأة ، وهي بُنَـانة امرأة الحكم القُرَظي التي طرحت الرَّحَى على خَلّاد بن سُويد فقتلته . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل كل من أنبت منهـم وترك من لم يُنبت . وكان عطية القُرَظي ممن لم ينبت ، فاستحياه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مذكور في الصحابة . ووَهب رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت ابن قيس بن شماس ولَدَ الزَّبِير بن باطا فاستحياهم؛ منهم عبد الرحمن بن الزَّبير أسلم وله صحبة. ووَهَب أيضا عليه السلام رفاعة بن سَمَوْءل القرظي لأم المنذر سلمى بنت قيس، أخت سَليط ابن قيس من بني النجار، وكانت قد صلّت إلى القبلتين؛ فأسـلم رفاعة وله صحبة ورواية . وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال : أتى ثابت بن قيس بن شمّـاس إلى ابن باطا — وكانت له عنده يد — وقال : قد استوهبتك من رسول الله صلى الله عليه وسـلم ليدك التي لك عندي ، قال : ذلك يفعل الكريم بالكريم ، ثم قال : وكيف يعيش رجل لا ولد له ولا أهل ؟ قال : فأتى ثابت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فأعطاه أهله وولده؛ فأتى فأعلمه فقال : كيف يعيش رجل لا مال له؟ فأتى ثابت النبيَّ صلى الله عليه وسلم فطلبـه فأعطاه ماله ، فرجع إليـه فأخبره ؛ قال : ما فعل ابن أبي الحُقَيق الذي كأن وجهه مرآة صينية ؟ قال : قتـل . قال : فما فعل المجلسان ، يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو ابن قُريظة؟ قال : قتلوا . قال : فما فعلت الفئتان؟ قال : قتلتا . قال : برئت ذمتك، ولن أصبّ فيها دلوا أبدا، يعني النخل، فألحقني بهم، فأبى أن يقتله فقتله غيره . واليد التي كانت لابن باطا عند ثابت أنه أسره يوم بُعاث فجز ناصيته وأطلقه .

(١) الملحمة : الوقعة العظيمة القتل .

Marfat.com

العاشرة — وقسم صلى الله عليه وسلم أموال بنى قُريظة فأسهم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهما . وقد قيل : للفارس سهمان وللراجل سهم . وكانت الخيل للمسلمين يومئذ ستة وثلاثين فرسا . ووقع للنبي صلى الله عليه وسلم من سَبْيهم ريحانة بنت عمرو بن جنافة (١) أحد بنى عمرو بن قُريظة، فلم تزل عنده إلى أن مات صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن غَنيمة قريظة هى أوّل غنيمة قسّم فيها للفارس والراجل، وأوّل غنيمة جعل فيها الخُمس . وقد تقدّم أن أوّل ذلك كان فى بعث عبد الله بن جَحْش؛ فالله أعلم . قال : أبو عمر : وتهذيب ذلك أن تكون غنيمة قريظة أوّلَ غنيمة جرى فيها الخمس بعد نزول قوله : « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ (٢) » الآية . وكان عبد الله بن جَحْش قد خمّس قبل ذلك فى بعثه ، ثم نزل القرآن بمثل ما فعله ؛ وكان ذلك من فضائله رحمة الله عليه .

وكان فتح قريظة فى آخر ذى القعدة وأوّل ذى الحجة من السنة الخامسة من الهجرة .

فلما تمّ أمر بنى قريظة أجيبت دعوة الرجل الفاضل الصالح سعد بن معاذ ، فانفجر جرحه وانفتح عرقه، فجرى دمه ومات رضى الله عنه . وهو الذى أتى الحديث فيه : "اهتزّ لموته عَرْشُ الرحمن" يعنى سكان العرش من الملائكة فرحوا بقدوم روحه واهتزّوا له . وقال ابن القاسم عن مالك : حدّثنى يحيى بن سعيد قال : لقد نزل لموت سعد بن معاذ سبعون ألف مَلَك ، ما نزلوا إلى الأرض قبلها . قال مالك : ولم يستشهد يوم الخَندق من المسلمين إلا أربعة أو خمسة .

قلت : الذى اُسْتُشْهِد يوم الخندق من المسلمين ستةُ نفرٍ فيما ذكر أهل العلم بالسِّيَر : سعد ابن معاذ أبو عمرو من بنى عبد الأشهل ، وأنس بن أوْس بن عتيك ، وعبد الله بن سهل وكلاهما أيضا من بنى عبد الأشهل ، والطّفيل بن النعمان ، وثعلبة بن غَنَمة (٣) ، وكلاهما من بنى سلمة ، وكعب بن زيد من بنى دينار بن النجار ، أصابه سَهْمٌ غَرْبٌ (٤) فقتله ، رضى الله عنهم .

(١) ويقال : فيه « خنافة » بالخاء المعجمة . (٢) راجع جـ ٨ ص ١ . (٣) فى المواهب اللدنية والإصابة : « ثعلبة بن عنمة بفتح العين المهملة والنون » . (٤) قال ابن هشام : « سهم غرب ، وسهم غرب (بإضافة وغير إضافة) وهو الذى لا يعرف من أين جاء ولا من رمى به » .

Marfat.com

وقتل من الكفار ثلاثة : منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار ، أصابه سهم مات منه بمكة . وقد قيل : إنما هو عثمان بن أمية بن منبه بن عبيد بن السباق . ونوفل بن عبد الله ابن المغيرة المخزومي ، اقتحم الخندق فتورّط فيه فقتل، وغلب المسلمون على جسده ؛ فروى عن الزهري أنهم أعطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في جسده عشرة آلاف درهم فقال : "لا حاجة لنا بجسده ولا بثمنه" فخلّى بينهم و بينه . وعمرو بن [عبد] ودّ الذي قتله عليّ مبارزة، وقد تقدّم . واستشهد يوم قريظة من المسلمين خلّاد بن سُويد بن ثعلبة بن عمرو من بني الحارث بن الخزرج ؛ طرحت عليه امرأةٌ من بني قُريظة رحى فقتلته . ومات في الحصار أبو سنان بن مِحْصَن بن حُرْثان الأسدي ، أخو عُكاشة بن مِحْصَن ، فدفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقبرة بني قُريظة التي يتدافن فيها المسلمون السكان بها اليوم. ولم يُصب غير هذين، ولم يغزُ كفارُ قريش المؤمنين بعد الخندق . وأسند الدارِمي أبو محمد في مسنده : أخبرنا يزيد ابن هارون عن ابن أبي ذِئب عن المَقْبُري عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخُدْري عن أبيه قال : حُبسنا يوم الخندق حتى ذهب هَوِيٌّ(١) من الليل حتى كفينا؛ وذلك قول الله عز وجل : « وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا » فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالًا فأقام فصلّى الظهر فأحسن كما كان يصليها في وقتها ، ثم أمره فأقام العصر فصلّاها ، ثم أمره فأقام المغرب فصلّاها ، ثم أمره فأقام العشاء فصلّاها، وذلك قبل أن ينزل : « فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا »(٢) خرّجه النسائي أيضا . وقد مضت هذه المسألة في « طه »(٣) . وقد ذكرنا في هذه الغزاة أحكاما كثيرة لمن تأملها في مسائل عشر. ثم نرجع إلى أوّل الآي وهي تسع عشرة آية تضمّنت ما ذكرناه .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ يعني الأحزاب. ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ قال مجاهد : هي الصَّبا ، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم . قال : والجنود الملائكة ولم تقاتل يومئذ . وقال عِكْرِمة : قالت الجنوب للشَّمال ليلة الأحزاب :

---

(١) الهوى (بالفتح) : الزمان الطويل . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٢٣ . (٣) راجع ج ١١ ص ١٨٠

Marfat.com

انطلق لنصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقالت الشّمال : إن مَحْوَةَ(1) لا تسرى بليل . فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصَّبا . وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نُصرت بالصَّبا وأهلكت عادٌ بالدَّبور" . وكانت هذه الريح معجزة للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين كانوا قريبا منها، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق ، وكانوا فى عافية منها، ولا خبر عندهم بها . ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وقرئ بالياء؛ أى لم يرها المشركون. قال المفسرون : بعث الله تعالى عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط ، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها فى بعض ، وأرسل الله عليهم الرُّعب ، وكثر تكبير الملائكة فى جوانب العسكر؛ حتى كان سيِّد كل خباء يقول : يابنى فلان هَلُمّ إلىّ فإذا آجتمعوا قال لهم : النَّجاءَ النَّجاءَ ؛ لما بعث الله تعالى عليهم من الرعب . ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وقرئ: «يعملون» بالياء على الخبر، وهى قراءة أبى عمرو . الباقون بالتاء؛ يعنى من حفر الخندق والتحرز من العدو .

قوله تعالى : ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ (10)

قوله تعالى : ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ «إذ» فى موضع نصب بمعنى واذكر . وكذا «وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ» . «مِنْ فَوْقِكُمْ» يعنى من فوق الوادى، وهو أعلاه من قبل المشرق ، جاء منه عَوْف بن مالك فى بنى نصر ، وعيينة بن حِصْن فى أهل نجد، وطُلَيحة ابن خويلد الأسدى فى بنى أسد . «وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ» يعنى من بطن الوادى من قبل المغرب ، جاء منه أبو سفيان بن حرب على أهل مكة ، ويزيد بن جَحْش على قريش ، وجاء أبو الأعور السُّلَمى ومعه حُيَىّ بن أخطب اليهودى فى يهود بنى قُرَيظة مع عامر بن الطُّفَيل من وجه الخندق . ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ أى شَخَصت . وقيل : مالت؛ فلم تلتفت إلا إلى

(1) محوة : من أسماء الشمال؛ لأنها تمحو السحاب وتذهب بها ، وهى معرفة لا تنصرف، ولا تدخلها ألف ولام .

Marfat.com

عدوّها دَهَشًا من فرط الهَوْل . ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أى زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجر وهى الحلاقيم ، واحدها حنجرة؛ فلولا أن الحلوق ضاقت عنها لخرجت؛ قاله قتادة . وقيل : هو على معنى المبالغة على مذهب العرب على إضمار كاد ؛ قال[1] :

إذا ما غَضِبْنا غَضْبَةً مُضَرِيّةً * هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دَمَا

أى كادت تقطر . ويقال : إن الرئة تنفتح عند الخوف فيرتفع القلب حتى يكاد يبلغ الحنجرة مثلا؛ ولهذا يقال للجبان : انتفخ سَحْره . وقيل : إنه مثل مضروب فى شدّة الخوف ببلوغ القلوب الحناجر وإن لم تزل عن أماكنها مع بقاء الحياة . قال معناه عكرمة . روى حماد ابن زيد عن أيوب عن عكرمة قال : بلغ فزعها . والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضربانه ، أى كأنه لشدّة اضطرابه بلغ الحنجرة . والحنجرة والحُنجور (بزيادة النون) حرف الحلق . ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ قال الحسن : ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون، وظن المؤمنون أنهم يُنصرون . وقيل : هو خطاب للمنافقين ؛ أى قلتم هلك محمد وأصحابه . وآختلف القرّاء فى قوله تعالى : «الظُّنُونَا ، والرسولا ، والسبيلا» آخر السورة؛ فأثبت ألفاتها فى الوقف والوصل نافع وابن عامر . وروى عن أبى عمرو والكسائى تمسكا بخط المصحف ، مصحف عثمان ، وجميع المصاحف فى جميع البلدان . وآختاره أبو عبيد ؛ إلا أنه قال : لا ينبغى للقارئ أن يدرج القراءة بعدهن لكن يقف عليهن . قالوا : ولأن العرب تفعل ذلك فى قوافى أشعارهم ومصاريعها ؛ قال :

نحن جلبنا القُرَّح[2] القوافلا * تستنفر الأواخرُ الأوائلا

وقرأ أبو عمرو والجحدرى ويعقوب وحمزة بحذفها فى الوصل والوقف معا . قالوا : هى زائدة فى الخط كما زيدت الألف فى قوله تعالى : « وَلَأَوْضَعُوا[3] خِلَالَكُمْ » فكتبوها كذلك ، وغير هذا . وأما الشعر فموضع ضرورة ، بخلاف القرآن فإنه أفصح اللغات ولا ضرورة فيه . قال ابن الأنبارى : ولم يخالف المصحف من قرأ . « الظنون . والسبيل . والرسول » بغير ألف

(١) القائل هو بشار بن برد .	(٢) القرح : جمع القارح ، وهى الناقة أوّل ما تحمل .
(٣) هذا يدل على أن رسم المصحف : « ولا أو » بزيادة ألف .

فى الحروف الثلاثة ، وخطّهن فى المصحف بألف لأن الألف التى فى « أطعنا » والداخلة فى أول « الرسول . والظنون . والسبيل » كفى من الألف المتطرفة المتأخرة كما كَفَتْ ألفُ أبى جادٍ من ألف هوّاز . وفيه حجة أخرى : أن الألف أنزلت منزلة الفتحة وما يُلحق دِعامة للحركة التى تسبق والنية فيه السقوط ؛ فلما عُمل على هذا كانت الألف مع الفتحة كالشىء الواحد يوجب الوقفُ سقوطَهما و يعمل على أن صورة الألف فى الخط لا توجب موضعا فى اللفظ ، وأنها كالألف فى «سٰحِران» وفى «فٰطِر السموات والأرض» وفى «وٰعَدْنا موسى» وما يشبههن مما يُحذف من الخط وهو موجود فى اللفظ[1] ، وهو مسقط من الخط . وفيه حجة ثالثة هى أنه كتب على لغة من يقول لقيت الرجلا . وقرئ على لغة من يقول : لقيت الرجل ، بغير ألف . أخبرنا أحمد بن يحيى عن جماعة من أهل اللغة أنهم رووا عن العرب قام الرّجلو ، بواو ، ومررت بالرجلى ، بياء ، فى الوصل والوقف . ولقيت الرجلا ؛ بألف فى الحالتين كلتيهما . قال الشاعر :

أسائلةٌ عُميرةَ عن أبيها ❊ خلالَ الجيش تعترِف الرِّكابا[2]

فأثبت الألف فى « الركاب » بناء على هذه اللغة . وقال الآخر :

إذا الجوزاء أردفت الثريا ❊ ظننت بآل فاطمة الظنونا

وعلى هذه اللغة بنى نافع وغيره . وقرأ ابن كثير وابن مُحيصن والكسائىّ بإثباتها فى الوقف وحذفها فى الوصل . قال ابن الأنبارىّ : ومن وصل بغير ألف ووقف بألف لجائز أن يحتج بأن الألف احتاج إليها عند السكت حرصًا على بقاء الفتحة ، وأن الألف تدعمها وتقويها .

قوله تعالى : هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

« هنا » للقريب من المكان . و « هنالك » للبعيد . و « هناك » للوسط . ويشار به إلى الوقت ؛ أى عند ذلك اختبر المؤمنون ليتبين المخلص من المنافق . وكان هذا الابتلاء بالخوف والقتال والجوع والحصر والنزال . ﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ أى حرّكوا تحريكا .

(١) فى الأصول : « وهو موجود فى اللفظ و يثبت فى اللفظ وهو ... » .
(٢) البيت لبشر بن أبى خازم . واعترف القوم : سألهم .

Marfat.com

قال الزجاج : كل مصدر من المضاعف على فِعلال يجوز فيه الكسر والفتح ؛ نحو قلقلته قِلقالا وقَلقالًا ، وزلزلوا زِلزالًا وزَلزالًا . والكسر أجود ؛ لأن غير المضاعف على الكسر نحو دحرجته دِحراجا . وقراءة العامة بكسر الزاى . وقرأ عاصم والجحدرىّ « زَلزالا » بفتح الزاى . قال ابن سلام : أى حرّكوا بالخوف تحريكا شديدا . وقال الضحاك : هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق . وقيل : إنه ٱضطرابهم عما كانوا عليه ؛ فمنهم من اضطرب فى نفسه ومنهم من اضطرب فى دينه . و « هنالك » يجوز أن يكون العامل فيه « ٱبْتُلِىَ » فلا يوقف على «هنالك» . ويجوز أن يكون « وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا » فيوقف على «هنالك» .

قوله تعالى : وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أى شك ونفاق . ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أى باطلا من القول . وذلك أن طُعْمة بن أُبَيْرِق ومُعَتِّب ٱبن قُشير وجماعة نحو من سبعين رجلا قالوا يوم الخندق : كيف يَعِدُنا كنوزَ كِسْرى وقَيْصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرّز ؟ وإنما قالوا ذلك لمّا فَشَا فى أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم من قوله عند ضرب الصخرة ، على ما تقدم فى حديث النسائىّ ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ الطائفة تقع على الواحد فما فوقه . وعُنِى به هنا أوس بن قَيْظِىّ والد عَرابة بن أوس ؛ الذى يقول فيه الشماخ :

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجْد * تلقّاها عَرابةُ باليمين

و «يَثْرِب» هى المدينة، وسمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم طَيْبة وطابة . وقال أبو عبيدة : يثرب اسم أرض، والمدينة ناحية منها . السُّهَيلى : وسميت يثرب لأن الذى نزلها من العماليق اسمه يثرب بن عميل بن مهلائيل بن عوض بن عملاق بن لاوذ بن إرم . وفى بعض هذه الأسماء اختلاف . وبنو عميل (١) هم الذين سكنوا الجُحْفَة (٢) فأجحفت بهم السيول فيها . وبها سميت الجحفة . ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بفتح الميم قراءة العامّة . وقرأ حفص والسُّلَمى والجحدرى وأبو حَيْوَة: بضم الميم؛ يكون مصدرا من أقام يقيم؛ أى لا إقامة، أو موضعا يقيمون فيه . ومن فتح فهو اسم مكان؛ أى لا موضع لكم تقيمون فيه . ﴿فَارْجِعُوا﴾ أى إلى منازلكم . أمروهم بالهروب من عسكر النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : قالت اليهود لعبد الله بن أُبَىّ ابن سلول وأصحابه من المنافقين : ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان وأصحابه ! فارجعوا إلى المدينة فإنا مع القوم فأنتم آمنون .

قوله تعالى : ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ فى الرجوع إلى منازلهم بالمدينة، وهم بنو حارثة ابن الحارث، فى قول ابن عباس . وقال يزيد بن رُومان : قال ذلك أوس بن قَيْظِىّ عن ملإ من قومه . ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أى سائبة ضائعة ليست بحصينة، وهى مما يلى العدوّ . وقيل : مُمْكِنة للسّراق لخلوها من الرجال . يقال : دارٌ مُعْوِرة وذات عَوْرة إذا كان يسهل دخولها . يقال : عَوِر المكان عَوَرًا فهو عَوِر . وبيوت عَوِرة . وأعْوَر فهو مُعْوِر . وقيل : عَوِرة ذات عَوْرة . وكل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عَوْرة؛ قاله الهروىّ . وقرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو رجاء العُطارِدىّ : «عَوِرة» بكسر الواو؛ يعنى قصيرة الجدران فيها خلل . تقول العرب : دار فلان عَوِرة إذا لم تكن حصينة . وقد أعور الفارس إذا بدا فيه خَلَل للضرب والطعن؛ قال الشاعر :

متى تَلْقَهم لم تَلْقَ فى البيت مُعْوِرًا * ولا الضيفَ مفجوعًا ولا الجارَ مُرْمِلا

(١) فى كتاب معجم البلدان لياقوت : «يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام» . (٢) فى معجم البلدان : «وقال الكلبى : إن العماليق أخرجوا بنى عقيل وهم إخوة عاد فنزلوا الجحفة ...» .

Marfat.com

الجوهري : والعورة كل خلل يُتَخَوَّف منه في ثغر أو حرب . النحاس : يقال أعور المكان إذا تُبُيِّنت فيه عورة، وأعور الفارس إذا تُبُيِّن فيه موضع الخلل . المهدوي : ومن كسر الواو في «عورة» فهو شاذ؛ ومثله قولهم : رجل عوِر(١)؛ أي لاشيء له ، وكان القياس أن يُعَلّ فيقال : عارٍ؛ كيوم راحٍ، ورجلٍ مالٍ(٢)؛ أصلهما روِح ومولٍ . ثم قال تعالى : ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ تكذيبا لهم وردا عليهم فيما ذكروه . ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي ما يريدون إلا الهرب . قيل : من القتل . وقيل : من الدِّين . وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في قبيلتين من الأنصار : بني حارثة وبني سَلِمة؛ وهَموا أن يتركوا مراكزهم يوم الخندق ، وفيهم أنزل الله تعالى : «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا(٣)» الآية . فلما نزلت هذه الآية قالوا : والله ما ساءنا ما كنا هممنا به ؛ إذ الله وليُّنا . وقال السدي : الذي استأذنه منهم رجلان من الأنصار من بني حارثة أحدهما — أبو عَرابة بن أوس ، والآخر أوْس بن قيظي . قال الضحاك : ورجع ثمانون رجلا بغير إذنه .

قوله تعالى : وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ وهي البيوت أو المدينة؛ أي من نواحيها وجوانبها، الواحد قُطْر، وهو الجانب والناحية . وكذلك القُتْر لغة في القطر . ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا﴾ أي لجاءوها؛ هذا على قراءة نافع وابن كثير بالقصر . وقرأ الباقون بالمد؛ أي لأعطوها من أنفسهم، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم . وقد جاء في الحديث : أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يعذَّبون في الله ويُسألون الشرك ، فكلٌّ أعطى ما سألوه إلا بلالًا . وفيه دليل على قراءة المد ، من الإعطاء . ويدل على قراءة القصر قوله : «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ

(١) اضطربت الأصول هنا؛ فقد ذكر في ش : «رجل أعور أي لاشيء له» . وفي ج : «رجل عور كور ... » بالكاف . وفي ك : «رجل عور لور ... » باللام . ولعل الكلمة الأخيرة اتباع؛ على أننا لم نجدها في مظانها .

(٢) أي ذو ريح وذو مال . (٣) راجع ج ٤ ص ١٨٥ .

Marfat.com

لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ» ؛ فهذا يدل على «لَأَتَوْهَا» مقصورا . وفى «الفتنة» هنا وجهان : أحدهما — سُئلوا القتال فى العصبية لأسرعوا إليه ؛ قاله الضحاك . الثانى — ثم سئلوا الشرك لأجابوا إليه مسرعين ؛ قاله الحسن . ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا ﴾ أى بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلا حتى يهلكوا ؛ قاله السُّدّى والقُتَبِيّ والحسن والفراء . وقال أكثر المفسرين : أى وما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلا ولأجابوا بالشرك مسرعين ؛ وذلك لضعف نياتهم ولفرط نفاقهم ؛ فلو اختلطت بهم الأحزاب لأظهروا الكفر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَانُوا عَـٰهَدُوا ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى مَن قبل غزوة الخندق و بعد بدر . قال قتادة : وذلك أنهم غابوا عن بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر ، فقالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن . وقال يزيد بن رُومان : هم بنو حارثة ، هَمُّوا يوم أُحُد أن يفشلوا مع بنى سَلِمة ، فلما نزل فيهم مانزل عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها فذكر الله لهم الذى أعطوه من أنفسهم . ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ أى مسئولا عنه . قال مقاتل والكلْبى : هم سبعون رجلا بايعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وقالوا : اشترط لنفسك ولربّك ماشئت . فقال : "اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأموالكم وأولادكم" فقالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك يانبيّ الله ؟ قال : "لكم النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة" . فذلك قوله تعالى : « وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا » أى أن الله ليسألهم عنه يوم القيامة .

قوله تعالى : قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ أى مَن حضر أجله مات أو قُتل ؛ فلا ينفع الفِرار . ﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى فى الدنيا بعد الفِرار إلى أن تنقضى آجالكم ؛ وكل ما هو آتٍ فقريب . وروى السّاجى عن يعقوب الحضرمىّ « وَإِذًا لَا يُمَتَّعُونَ » بياء . وفى بعض الروايات « وإذا لا تمتعوا » نصب بـ « إذًا » والرفع بمعنى ولا تمتعون . و« إذًا » ملغاة، ويجوز إعمالها . فهذا حكمها إذا كان قبلها الواو والفاء . فإذا كانت مبتدأة نصبْت بها فقلت : إذًا أكرمَك .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى يمنعكم منه . ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا ﴾ أى هلاكا . ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ أى خيرا ونصرا وعافية . ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أى لا قريبا ينفعهم ولا ناصرًا ينصرهم .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ أى المعترضين منكم لأن يصدّوا الناس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وهو مشتق من عاقنى عن كذا أى صرفنى عنه . وعوّق ، على التكثير ﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ على لغة أهل الحجاز . وغيرهم يقولون : « هَلُمُّوا » للجماعة ، وهَلُمِّى للرأة ؛ لأن الأصل : « ها » التى للتنبيه ضُمت إليها « لَمّ » ثم حذفت الألف استخفافًا وبُنيت على الفتح . ولم يجز فيها الكسر ولا الضم لأنها لا تنصرف . ومعنى « هَلُمّ » أقبل ؛ وهؤلاء طائفتان ؛ أى منكم من يثبّط و يعوّق . والعوق المنع والصرف ؛ يقال : عاقه يعوقه عوقا ، وعوّقه واعتاقه بمعنى واحد . قال مقاتل : هم عبد الله بن أُبَىّ وأصحابه المنافقون .

Marfat.com

« وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ » فيهم ثلاثة أقوال : أحدها — أنهم المنافقون؛ قالوا للسلمين : ما محمد وأصحابه إلا أَكَلَة رأس (١)، وهو هالك ومن معه ، فهلم إلينا . الثانى — أنهم اليهود من بنى قُريظة؛ قالوا لإخوانهم من المنافقين : هلم إلينا؛ أى تعالوا إلينا وفارقوا محمدا فإنه هالك، وإن أبا سفيان إن ظَفِر لم يُبْق منكم أحدا . والثالث — ما حكاه ابن زيد : أن رجلا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم بين الرماح والسيوف، فقال أخوه — وكان من أمّه وأبيه — : هلم إلىّ، قد تُبع بك وبصاحبك ؛ أى قد أحيط بك وبصاحبك . فقال له : كذبت ، والله لأخبرنه بأمرك ؛ وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره ، فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى : « قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا » . ذكره الماوَرْدى والثعلبى أيضا . ولفظه : قال ابن زيد هذا يوم الأحزاب ، انطلق رجل من عند النبى صلى الله عليه وسلم فوجد أخاه بين يديه رغيف وشواء ونبيذ ؛ فقال له : أنت فى هذا ونحن بين الرماح والسيوف ؟ فقال : هَلُمّ إلى هـذا فقد تبع لك ولأصحابك ، والذى تحلف به لا يستقلّ بها محمد أبدا . فقال : كذبت . فذهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم يخبره فوجده قد نزل عليه جبريل بهذه الآية . ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ خوفا من الموت . وقيل : لا يحضرون القتال إلا رِياءً وسُمْعة .

قوله تعالى : أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أى بخلاء عليكم؛ أى بالحفر فى الخندق والنفقة فى سبيل الله ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل : بالقتال معكم . وقيل : بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم .

---

(١) أى هم قليل يشبعهم رأس واحد ؛ وهو جمع آكل .

Marfat.com

وقيل : أشحّةً بالغنائم إذا أصابوها ؛ قاله السدى . وانتصب على الحال . قال الزجاج : ونصبه عند الفراء من أربع جهات : إحداها — أن يكون على الذم ؛ ويجوز أن يكون عنده نصبا بمعنى يعوّقون أشحة . ويجوز أن يكون التقدير : والقائلين أشحة . ويجوز عنده [« وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا » أشحة ؛ أى أنهم يأتونه أشحة على الفقراء بالغنيمة](١). النحاس : ولا يجوز أن يكون العامل فيه « المعوقين » ولا « القائلين » ؛ لئلا يفرق بين الصلة والموصول . ابن الأنبارى : « إِلَّا قَلِيلًا » غير تام ؛ لأن « أَشِحَّةً » متعلق بالأول ، فهو ينتصب من أربعة أوجه : أحدها — أن تنصبه على القطع من « المعوّقين » كأنه قال : قد يعلم الله الذين يعوقون عن القتال ويشحون عن الإنفاق على فقراء المسلمين . ويجوز أن يكون منصوبا على القطع من « القائلين » أى وهم أشحة . ويجوز أن تنصبه على القطع مما فى « يأتون » ؛ كأنه قال : ولا يأتون البأس إلا جبناء بخلاء . ويجوز أن تنصب « أشحة » على الذم . فمن هذا الوجه الرابع يحسن أن تقف على قوله : « إِلَّا قَلِيلًا » . « أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ » وقف حسن . ومثله « أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ » حال من المضمر فى « سَلَقُوكُمْ » وهو العامل فيه .

﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ وصفهم بالجبن ؛ وكذا سبيل الجبان ينظر يمينا وشمالا محدّدا بصره ، وربما غشى عليه . وفى « الْخَوْفُ » وجهان : أحدهما — من قتال العدوّ إذا أقبل ؛ قاله السدّى . الثانى — الخوف من النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا غلب ؛ قاله ابن شجرة . « رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ » خوفا من القتال على القول الأول . ومن النبيّ صلى الله عليه وسلم على الثانى . « تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ » لذهاب عقولهم حتى لا يصح منهم النظر إلى جهة . وقيل : لشدّة خوفهم حذرا أن يأتيهم القتل من كل جهة .

﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ وحكى الفراء « صلقوكم » بالصاد . وخطيبٌ مِسْلاق ومِصْلاق إذا كان بليغا . وأصل الصلق الصوت ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لعن الله الصالقة والحالقة والشاقّة " . قال الأعشى :

(١) ما بين المربعين من كتاب النحاس وهو واضح . وعبارة الأصول : « ولا يأتون البأس إلا قليلا ، يأتونه أشحة ؛ أى أشحة على الفقراء بالغنيمة جبناء » .

Marfat.com

فيهم المجد والسماحة والنّجـ * ـدة فيهم والخاطب السّلاق(١)

قال قتادة : ومعناه بسطوا ألسنتهم فيكم فى وقت قسمة الغنيمة ، يقولون : أعطنا أعطنا، فإنا قد شهدنا معكم . فعند الغنيمة أشحّ قوم وأبسطهم لسانا، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم . قال النحاس : هذا قول حسن؛ لأن بعده « أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ »(٢) . وقيل : المعنى بالغوا فى مخاصمتكم والاحتجاج عليكم . وقال القتبى : المعنى آذوكم بالكلام الشديد . السّلق : الأذى . ومنه قول الشاعر :

ولقد سلقنا هوازنا * بنواهل حتى انحنينا

« أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ » أى على الغنيمة؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : على المال أن ينفقوه فى سبيل الله؛ قاله السدّى . « أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا » يعنى بقلوبهم وإن كان ظاهرهم الإيمان؛ والمنافق كافر على الحقيقة لوصف الله عز وجل لهم بالكفر(٣) . ﴿ فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى لم يثبهم عليها؛ إذا لم يقصدوا وجه الله تعالى بها . ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — وكان نفاقهم على الله هيّنا . الثانى — وكان إحباط عملهم على الله هيّنا .

قوله تعالى : يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ أى لجبنهم؛ يظنون الأحزاب لم ينصرفوا وكانوا انصرفوا، ولكنهم لم يتباعدوا فى السير . ﴿ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ ﴾ أى وإن يرجع الأحزاب إليهم للقتال . ﴿ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ ﴾ تمنوا أن يكونوا مع الأعراب حذرًا من القتل وتربّصًا للدوائر . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « لو أنهم بُدًّى فى الأعراب » ؛ يقال : بادٍ وبُدًّى؛ مثل غازٍ وغُزًّى . ويُمَدّ مثل صائم وصوّام . بدا فلان يبدو إذا خرج

(١) ويروى : « المسلاق » . (٢) فى الأصول : « أشحة عليكم » .
(٣) عبارة الأصول : « لوصف الله عز وجل بالكفر » وهو خطأ .

Marfat.com

إلى البادية . وهي البِداوة والبَداوة ؛ بالكسر والفتح . وأصل الكلمة من البَدْو وهو الظهور . ﴿ يَسْأَلُونَ ﴾ وقرأ يعقوب في رواية رُوَيس « يتساءلون عن أنبائكم » أى عن أخبار النبي صلى الله عليه وسلم . يتحدّثون : أمَا هلك محمد وأصحابه ! أمَا غلب أبو سفيان وأحزابه ! أى يودّوا لو أنهم بادون سائلون عن أنبائكم من غير مشاهدة القتال لفرط جبنهم . وقيل : أى هم أبدًا لجبنهم يسألون عن أخبار المؤمنين ، وهل أصيبوا . وقيل : كان منهم في أطراف المدينة من لم يحضر الخندق ، جعلوا يسألونَ عن أخباركم ويتمنون هزيمة المسلمين . ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى رميًا بالنَّبل والحجارة على طريق الرياء والسمعة ؛ ولو كان ذلك لله لكان قليله كثيرا .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

فيه مسألتان .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ هذا عتاب للمتخلفين عن القتال ؛ أى كان لكم قدوة في النبي صلى الله عليه وسلم حيث بذل نفسه لنصرة دين الله في خروجه إلى الخندق . والأسوة القدوة . وقرأ عاصم « أُسوة » بضم الهمزة . الباقون بالكسر ؛ وهما لغتان . والجمع فيهما واحد عند الفرّاء . والعلة عنده في الضم على لغة من كسر في الواحدة : الفرقُ بين ذوات الواو وذوات الياء ؛ فيقولون كِسْوة وكُسًا ، ولِحية ولُحًى . الجوهري : والأُسوة والإسوة بالضم والكسر لغتان . والجمع أُسًى وإسًى . وروى عقبة ابن حسان الهجرى عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » قال : في جوع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره الخطيب أبو بكر أحمد وقال : تفرد به عقبة بن حسان عن مالك ، ولم أكتبه إلا بهذا الإسناد .

الثانيــة — قوله تعالى: ﴿ أُسْوَةٌ ﴾ الأسوة القدوة . والأسوة ما يتأسّى به ؛ أى يُتعزّى به . فيقتدَى به في جميع أفعاله ويتعزّى به في جميع أحواله ؛ فلقد شُجّ وجهه ، وكسرت رباعيته ،

Marfat.com

وقُتِل عمه « حمزة » وجاع بطنه ، ولم يُلْفَ إلا صابرا محتسبًا ، وشاكرا راضيًا . وعن أنس ابن مالك عن أبى طلحة قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفعنا [عن بطوننا][(١)] عن حَجَر حجر ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين . خرجه أبو عيسى الترمذى وقال فيه : حديث غريب . وقال صلى الله عليه وسلم لما شُجّ : " اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون " وقد تقدّم . ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ قال سعيد بن جبير : المعنى لمن كان يرجو لقاء الله بإيمانه ويصدّق بالبعث الذى فيه جزاء الأفعال . وقيل : أى لمن كان يرجو ثواب الله فى اليوم الآخر . ولا يجوز عند الحذاق من النحويين أن يكتب « يرجو » إلا بغير ألف إذا كان لواحد ؛ لأن العلة التى فى الجمع ليست فى الواحد . ﴿ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ خوفا من عقابه ، ورجاء لثوابه . وقيل : إن « لِمَنْ » بدل من قوله : « لَكُمْ » ولا يجيزه البصريون ؛ لأن الغائب لا يبدل من المخاطب ، وإنما اللام من « لِمن » متعلقة بـ « حسنة » ، و « أُسْوة » اسم « كَانَ » و « لَكُمْ » الخبر . وٱختلف فيمن أريد بهذا الخطاب على قولين : أحدهما — المنافقون ؛ عطفًا على ماتقدّم من خطابهم . الثانى — المؤمنون ؛ لقوله : « لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ » .

وٱختلف فى هذه الأسوة بالرسول عليه السلام ، هل هى على الإيجاب أو على الاستحباب ؛ على قولين : أحدهما — على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب . الثانى — على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب . ويحتمل أن يحمل على الإيجاب فى أمور الدين ، وعلى الاستحباب فى أمور الدنيا .

قوله تعالى : وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ ﴾ ومن العرب من يقول : « راء » على القلب . ﴿ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ ﴾ يريد قوله تعالى فى سورة البقرة : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ

(١) زيادة عن سنن الترمذى .

Marfat.com

تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم»[1] الآية . فلما رأوا الأحزاب يوم الخندق قالوا : «هذا ما وعدنا الله ورسوله» ؛ قاله قتادة . وقول ثان رواه كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ذكرت الأحزاب فقال : " أخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها — يعني على قصور الحيرة ومدائن كسرى — فأبشروا بالنصر " فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله، موعد صادق ؛ إذ وعدنا بالنصر بعد الحصر . فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون : «هذا ما وعدنا الله ورسوله» ذكره الماوردي . و « ما وعدنا » إن جعلت « ما » بمعنى الذي فالهاء محذوفة . و إن جعلتها مصدرا لم تحتج إلى عائد (وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) قال الفراء : وما زادهم النظر إلى الأحزاب . وقال علي بن سليمان : « رأى » يدل على الرؤية، وتأنيث الرؤية غير حقيقي، والمعنى : ما زادهم الرؤية إلا إيمانا بالرب وتسليما للقضاء، قاله الحسن . ولو قال : ما زادوهم لجاز . ولما اشتد الأمر على المسلمين وطال المقام في الخندق، قام عليه السلام على التل الذي عليه مسجد الفتح في بعض الليالي، وتوقع ما وعده الله من النصر وقال : " من يذهب ليأتينا بخبرهم وله الجنة " فلم يجبه أحد . وقال ثانيا وثالثا فلم يجبه أحد ، فنظر إلى جانبه وقال : " من هذا " ؟ فقال حذيفة . فقال : " ألم تسمع كلامي منذ الليلة " ؟ قال حذيفة : فقلت يا رسول الله، منعني أن أجيبك الضر والقر . قال : " انطلق حتى تدخل في القوم فتسمع كلامهم وتأتيني بخبرهم . اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى ترده إلي ، انطلق ولا تحدث شيئا حتى تأتيني " . فانطلق حذيفة بسلاحه، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده يقول : " يا صريخ المكروبين و يا مجيب المضطرين اكشف همي وغمي وكربي فقد ترى حالي وحال أصحابي " . فنزل جبريل وقال : " إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك " فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه و بسط يديه وأرخى عينيه وهو يقول : " شكرا شكرا كما رحمتني ورحمت أصحابي " . وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحا ؛ فبشر أصحابه بذلك .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٣ .

Marfat.com

قال حذيفة : فانتهيت إليهم و إذا نيرانهم تتقد، فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء فما تركت لهم نارا إلا أطفأتها ولا بناء إلا طرحته، وجعلوا يتترسون من الحصباء . وقام أبوسفيان إلى راحلته وصاح فى قريش : النجاءَ النجاءَ ! وفعل كذلك عُيينة بن حِصن والحارث بن عوف والأقرع ابن حابس . وتفرقت الأحزاب، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد إلى المدينة و به من الشَّعَث ما شاء الله ؛ فجاءته فاطمة بغَسول فكانت تغسل رأسه ، فأتاه جبريل فقال : "وضعتَ السلاح ولم تضعه أهل السماء، مازلت أتبعهم حتى جاوزت بهم الروحاء— ثم قال — انهض إلى بنى قريظة" . وقال أبوسفيان : ما زلت أسمع قعقعة السلاح حتى جاوزت الرَّوْحاء .

قوله تعالى : مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَـٰهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ رفع بالابتداء، وصَلُح الابتداء بالنكرة لأن «صَدَقُوا» فى موضع النعت . ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ . « مَن » فى موضع رفع بالابتداء . وكذا « وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ » والخبر فى المجرور . والنَّحْب : النذر والعهد؛ تقول منه : نَحَبت أَنْحُب؛ بالضم . قال الشاعر :

و إذا نحبت كَلْبٌ على الناس إنهم * أحق بتاج الماجد المتكرم

وقال آخر :

* قد نحب المجدُ علينا نَحْبا (١) *

وقال آخر :

* أَنَحْبٌ فيقضَى أم ضلالٌ وباطلُ (٢) *

---

(١) قبله : * يا عمرو يابن الأكرمين نسبا *

(٢) هذا عجز بيت للبيد، وصدره : * ألا تسألان المرء ماذا يحاول *

Marfat.com

وروى البخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال : قال عمّي أنس بن النَّضْر ــ سُمِّيت به ــ ولم يشهد بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكَبُر عليه فقال : أوّل مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غِبتُ عنه ، أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد لَيَرَيَنّ الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ؛ فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد من العام القابل ، فاستقبله سعد بن مالك فقال : يا أبا عمرو أين ؟ قال : واهًا(١) لريح الجنة ! أجدها دون أُحُد ؛ فقاتل حتى قُتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورَمْية . فقالت عمّتي الرُّبَيِّع بنت النضر : فما عرفت أخي إلا بَبَنانه ، ونزلت هذه الآية « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا » لفظ الترمذي ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » الآية : منهم طلحة بن عبيد الله ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصيبت يده ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أوْجب(٢) طلحة الجنة " . وفي الترمذي عنه : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا لأعرابي جاهل : سله عمن قضى نحبه من هو ؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته ، يوقّرونه ويهابونه ؛ فسأله الأعرابي فأعرض عنه ، ثم سأله فأعرض عنه ؛ ثم إني اطّلعت من باب المسجد وعليّ ثياب خضر ، فلما رآني النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أين السائل عمن قضى نحبه " ؟ قال الأعرابي : أنا يا رسول الله . قال : " هذا ممن قضى نَحْبَه " قال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يونس بن بكير . وروى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من أُحُد ، مرّ على مصعب بن عُمير وهو مقتول على طريقه ، فوقف عليه ودعا له ، ثم تلا هذه الآية : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ ــ إلى ــ تَبْدِيلًا » ثم قال رسول الله صلى الله عليه

(١) هذه الكلمة توضع موضع الإعجاب بالشيء .

(٢) أوجب الرجل : إذا فعل فعلا وجبت له به الجنة أو النار .

Marfat.com

وسلم : " أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأْتُوهم وزوروهم والذى نفسى بيده لا يسلّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردّوا عليه " . وقيل : النحب الموت ؛ أى مات على ما عاهد عليه؛ عن ابن عباس . والنحب أيضا الوقت والمدّة . يقال : قضى فلان نحبه إذا مات . وقال ذو الرمّة :

عشيّةَ فرّ الحارثيّون بعد ما * قضَى نَحْبه فى ملتقَى الخيل هَوْبَرُ

والنَّحْب أيضا الحاجة والهمة؛ يقول قائلهم : مالى عندهم نحب؛ وليس المراد بالآية . والمعنى فى هذا الموضع بالنحب النذر كما قدّمنا أوّلا ؛ أى منهم من بذل جهده على الوفاء بعهده حتى قتل ؛ مثل حمزة وسعد بن معاذ وأنس بن النضر وغيرهم . ومنهم من ينتظر الشهادة وما بدّلوا عهدهم ونذرهم . وقد روى عن ابن عباس أنه قرأ « فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمِنْهُمْ مَنْ بَدَّلَ تَبْدِيلًا » . قال أبو بكر الأنبارى : وهذا الحديث عند أهل العلم مردود؛ لخلافه الإجماع ، ولأن فيه طعنا على المؤمنين والرجال الذين مدحهم الله وشرفهم بالصدق والوفاء؛ فما يعرف فيهم مغيّر وما وجد من جماعتهم مبدّل؛ رضى الله عنهم . ﴿ لِيَجْزِىَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أى أمر الله بالجهاد ليجزى الصادقين فى الآخرة بصدقهم . ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ فى الآخرة ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ أى إن شاء أن يعذبهم لم يوفقهم للتوبة؛ وإن لم يشأ أن يعذبهم تاب عليهم قبل الموت . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ قال محمد بن عمرو يرفعه إلى عائشة : قالت « الَّذِينَ كَفَرُوا » هاهنا أبو سفيان وعُيينة بن بدر، رجع أبو سفيان إلى تِهامة، ورجع عُيينة إلى نجد . ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ بأن أرسل عليهم ريحا وجنودا حتى رجعوا ورجعت بنو قُريظة إلى صياصيهم؛ فكفى أمر قريظة بالرعب . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا ﴾ أمره ﴿ عَزِيزًا ﴾ لا يُغلَب .

Marfat.com

قوله تعالى : وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعنى الذين عاونوا الأحزاب : قريشا وغطفان ؛ وهم بنو قُريظة . وقد مضى خبرهم . ﴿ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ أى حصونهم ؛ واحدها صِيصَة . قال الشاعر :

فأصبحت الثّيران صَرْعَى وأصبحتْ * نساء تميم يبتدرْن الصياصيا (١)

ومنه قيل لشوكة الحائك التى بها يُسوّى السَّداة واللُّحمة : صِيصة . قال دريدُ بن الصِّمّة :

فجئتُ إليه والرماحُ تَنُوشُه * كوقع الصَّياصِى فى النسيج الممدّد

ومنه : صيصَة الديك التى فى رجله . وصَياصِى البقر قرونها ؛ لأنها تمتنع بها . وربما كانت تركّب فى الرماح مكان الأسنة ؛ ويقال : جَذّ الله صِئْصِئه ؛ أى أصله . ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ وهم الرجال . ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ وهم النساء والذّرّية ؛ على ما تقدّم . ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا ﴾ بعدُ . قال يزيد ابن رُومان وابن زيد ومقاتل : يعنى حُنَين ؛ ولم يكونوا نالوها ، فوعدهم الله إياها . وقال قتادة : كنا نتحدّث أنها مكة . وقال الحسن : هى فارس والروم . وقال عِكرمة : كل أرض تفتح الى يوم القيامة . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — على ما أراد بعباده من نقمة أو عفوٍ قديرٌ ؛ قاله محمد بن إسحاق . الثانى — على ما أراد أن يفتحه

(١) البيت لعبد بنى الحسحاس ، وقد أورده صاحب اللسان شاهدا على أن صياصى البقر قرونها ؛ وروايته فى البيت :

فأصبحت الثيران غرقى وأصبحت * نساء تميم يلتقطن الصياصيا

أى يلتقطن القرون لينسجن بها ، يريد لكثرة المطر غرق الوحش .

Marfat.com

من الحصون والقُرى قدير؛ قاله النقاش. وقيل: «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ» مما وَعَدَكُمُوه «قَدِيرًا» لا تردّ قدرته ولا يجوز عليه العجز تعالى. ويقال: تأسِرون وتأسُرون (بكسر السين وضمها) حكاه الفراء.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

فيه ثماني مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ قال علماؤنا: هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدّم من المنع من إيذاء النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ وكان قد تأذى ببعض الزوجات. قيل: سألنه شيئا من عرض الدنيا. وقيل: زيادة في النفقة. وقيل: آذينه بغيرة بعضهن على بعض. وقيل: أمر صلى الله عليه وسلم بتلاوة هذه الآية عليهنّ وتخييرهنّ بين الدنيا والآخرة. وقال الشافعيّ رحمه الله تعالى: إن مَن مَلَك زوجة فليس عليه تخييرها. أمر صلى الله عليه وسلم أن يخيّر نساءه فآخترنه. وجملة ذلك أن الله سبحانه خيّر النبيّ صلى الله عليه وسلم بين أن يكون نبياً ملِكا وعرض عليه مفاتيح خزائن الدنيا، وبين أن يكون نبياً مسكيناً؛ فشاور جبريل فأشار عليه بالمسكنة فاختارها؛ فلما اختارها وهي أعلى المنزلتين، أمره الله عز وجل أن يخيّر زوجاته؛ فربما كان فيهنّ من يكره المقام معه على الشدّة تنزيهاً له. وقيل: إن السبب الذى أوجب التخيير لأجله، أن امرأة من أزواجه سألته أن يصوغ لها حَلْقة من ذهب، فصاغ لها حلقة من فضة وطلاها بالذهب — وقيل بالزعفران — فأبت إلا أن تكون من ذهب؛ فنزلت آية التخيير فخيّرهنّ، فقلن اخترنا الله ورسوله. وقيل: إن واحدة منهنّ اختارت الفراق. فالله أعلم. روى البخاريّ ومسلم — واللفظ لمسلم — عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم، فوجد الناس جلوسًا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال : — فأذِن لأبي بكر فدخل ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذِن له ، فوجد النبيّ صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجمًا ساكتًا — قال : — فقال والله لأقولنّ شيئا أضحك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال : يا رسول الله ، لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمتُ إليها فوجأتُ عنقها ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " هنّ حولي كما ترى يسألنني النفقة " فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ؛ كلاهما يقول : تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ! ! فقلن : واللهِ لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبدا ليس عنده . ثم اعتزلهنّ شهرا أو تسعا وعشرين . ثم نزلت عليه هذه الآية : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ — حتى بلغ — لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » . قال : فبدأ بعائشة فقال : "ياعائشة، إني أريد أن أعرِض عليك أمرا أحِبُّ ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك" قالت : وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيك يارسول الله أستشير أبويّ ! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت . قال : "لاتسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إنّ الله لم يبعثني مُعَنِّتا ولا مُتَعَنِّتا ولكن بعثني معلما مُيَسِّرًا" . وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : أمِر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخيير أزواجه بدأ بي فقال : "يا عائشة، إني ذاكر لكِ أمرا فلا عليكِ ألا تستعجلي حتى تستأمري أبويْك" قالت : وقد علم أن أبويّ لم يكونا ليأمراني بفراقه ؛ قالت ثم قال : " إنّ الله يقول : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا — حتى بلغ — لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا »" فقلت : أفي هذا أستأمر أبويّ ! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، وفعل أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت . قال : هذا حديث حسن صحيح . قال العلماء : وأما أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم عائشة أن تشاور أبويها لأنه كان يحبها، وكان يخاف أن يحملها فرط الشباب على أن تختار فراقه ، ويعلم من أبويها أنهما لا يشيران عليها بفراقه .

Marfat.com

الثانية — قوله تعالى : ﴿ قُل لِّأَزْوَاجِكَ ﴾ كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم أزواج، منهن من دخل بها، ومنهن من عقد عليها ولم يدخل بها، ومنهن من خطبها فلم يتم نكاحه معها .

فأولهن : خديجة بنت خُوَيلد بن أسد بن عبد العُزى بن قُصَيّ بن كِلاب . وكانت قبله عند أبي هالة (1) واسمه زرارة بن النبّاش الأسدى ، وكانت قبله عند عتيق بن عائذ، وَلَدت منه غلاما اسمه عبد مناف . وولدت من أبي هالة هند بن أبي هالة، وعاش إلى زمن الطاعون فمات فيه . ويقال : إن الذى عاش إلى زمن الطاعون هند بن هند، وسُمعت نادبته تقول حين مات : واهندُ بن هنداه، وار بِيبَ رسول الله . ولم يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم على خديجة غيرها حتى ماتت . وكانت يوم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت أربعين سنة، وتوفيت بعد أن مضى من النبوّة سبع سنين، وقيل : عشر . وكان لها حين توفيت خمس وستون سنة . وهى أول امرأة آمنت به . وجميع أولاده منها غير إبراهيم . قال حكيم بن حزام : توفيت خديجة فخرجنا بها من منزلها حتى دفنّاها بالحَجُون ؛ ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرتها ، ولم تكن يومئذ سُنَّةُ الجنازة الصلاةَ عليها .

ومنهن : سَوْدة بنت زَمْعة بن قيس بن عبد شمس العامرية ، أسلمت قديما وبايعت ، وكانت عند ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو ؛ وأسلم أيضا ، وهاجرا جميعا إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية، فلما قدما مكة مات زوجها . وقيل : مات بالحبشة؛ فلما حلّت خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتزوّجها ودخل بها بمكة ، وهاجر بها إلى المدينة ؛ فلما كبرت أراد طلاقها فسألته ألّا يفعل وأن يدعها فى نسائه، وجعلت ليلتها لعائشة — حسبما هو مذكور فى الصحيح — فأمسكها، وتوفيت بالمدينة فى شوّال سنة أربع وخمسين .

ومنهن : عائشة بنت أبى بكر الصدّيق، وكانت مسماة لجُبير بن مطعم، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال أبو بكر : يا رسول الله، دَعْنى أسُلّها من جُبير سَلًّا رفيقا؛ فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة بسنتين، وقيل بثلاث سنين؛ وبنى بها بالمدينة

(1) فى كتب الصحابة أقوال فيمن كان قبل .

Marfat.com

وهى بنت تسع، و بقيت عنده تسع سنين، ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى بنت ثمـان عشرة، ولم يتزوج بِكرا غيرها، وماتت سنة تسع وخمسين، وقيل ثمـان وخمسين .

ومنهن : حفصة بنت عمر بن الخطاب القُرَشية العدويّة، تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم طلقها، فأتاه جبريل فقال : " إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوّامة قوّامة" فراجعها . قال الواقدىّ : وتوفيت فى شعبان سنة خمس وأربعين فى خلافة معاوية، وهى ابنة ستين سنة . وقيل : ماتت فى خلافة عثمان بالمدينة .

ومنهن : أم سلمة ، واسمها هند بنت أبى أميّة المخزومية — واسم أبى أميـة سُهيل — تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليال بقين من شوّال سنة أربع، زوّجها منه ابنها سلمة على الصحيح، وكان عُمَرُ ابنُها صغيرا، وتوفيت فى سنة تسع وخمسين . وقيـل : سنة ثنتين وستين؛ والأول أصح . وصلّى عليها سعيد بن زيد . وقيل أبو هريرة . وقُبِرت بالبقيع وهى ابنـة أربع وثمـانين سنة .

ومنهنّ ، أم حبيبة، واسمها رَمْلة بنت أبى سفيان . بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضَّمْرىّ إلى النجاشىّ، ليخطب عليه أم حبيبة فزوجه إياها، وذلك سنة سبع من الهجرة، وأصدق النجاشىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار، وبعث بها مع شُرحبيل بن حَسَنة ، وتوفيت سنة أربع وأربعين . وقال الدّارَقُطْنِىّ : كانت أم حبيبة تحت عبيد الله بن جحش فمـات بأرض الحبشة على النصرانية، فزوّجها النجاشىّ النبىّ صلى الله عليه وسلم، وأمهرها عنه أربعة آلاف ، وبعث بها إليه مع شُرحبيل بن حسنة .

ومنهنّ : زينب بنت جَحْش بن رِئاب الأسديّة؛ وكان اسمها بَرّة فسماها رسول الله صلى الله عليه وسـلم زينب، وكان اسم أبيها بُرّة؛ فقالت : يا رسـول الله ، بدّل اسم أبى فإن الـبُرّة حقيرة؛ فقال لها النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لو كان أبوك مؤمنا سميناه باسم رجل منا أهل البيت ولكنى قد سميته جحشا والجحش من البُرّة " ذكر هذا الحديث الدّارَقُطْنِىّ . تزوّجها

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى سنة خمس من الهجرة ، وتوفيت سنة عشرين ، وهى بنت ثلاث وخمسين .

ومنهنّ : زينب بنت خُذيمة بن الحارث [بن عبد الله] بن عمرو بن عبد مناف بن هلال ابن عامر بن صَعْصعة الهلالية ، كانت تسمى فى الجاهلية أمّ المساكين ؛ لإطعامها إياهم . تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان على رأس واحد وثلاثين شهرا من الهجرة ، فمكثت عنده ثمانية أشهر، وتوفيت فى حياته فى آخر ربيع الأوّل على رأس تسعة وثلاثين شهرا ، ودفنت بالبقيع .

ومنهنّ : جُوَيرية بنت الحارث بن أبى ضِرار الخُزاعية المُصْطَلِقيّة، أصابها فى غزوة بنى المُصْطَلِق فوقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شَمّاس فكاتبها؛ فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابتها وتزوّجها ، وذلك فى شعبان سنة ست، وكان آسمها بَرّة فسمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم جُوَيرية، وتوفيت فى ربيع الأول سنة ست وخمسين . وقيل : سنة خمسين، وهى ابنة خمس وستين .

ومنهن : صفية بنت حُيَيّ بن أخْطَب الهارونية، سباها النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم خَيْبر واصطفاها لنفسه، وأسلمت وأعتقها، وجعل عتقها صداقها . وفى الصحيح : أنها وقعت فى سهم دِحْيَة الكَلْبيّ فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعة أرؤس، وماتت فى سنة خمسين . وقيل : سنة اثنتين وخمسين، ودفنت بالبقيع .

ومنهن : رَيحانة بنت زيد بن عمرو بن خُنافة من بنى النّضير، سباها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقها، وتزوّجها فى سنة ست، وماتت مَرْجِعَه من حَجة الوَداع، فدفنها بالبقيع. وقال الواقديّ : ماتت سنة ست عشرة وصلّى عليها عمر . قال أبو الفرج الجَوْزِيّ : وقد سمعت من يقول : إنه كان يطؤها بملك اليمين ولم يعتقها .

قلت : ولهذا والله أعلم لم يذكرها أبو القاسم عبد الرحمن السُّهَيْلى فى عداد أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم .

Marfat.com

ومنهن : ميمونة بنت الحارث الهلالية ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسَرِف على عشرة أميال من مكة، وذلك فى سنة سبع من الهجرة فى عُمْرة القَضِيّة، وهى آخر آمرأة تزوّجها رسـول الله صلى الله عليه وسلم، وقدّر الله تعـالى أنها ماتت فى المكان الذى بنى فيـه رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، ودفنت هنالك ، وذلك فى سنة إحدى وستين . وقيل : ثلاث وستين . وقيل ثمـان وستين .

فهـؤلاء المشهورات من أزواج النبيّ صـلى الله عليه وسـلم ، وهنّ اللاتى دخل بهن ؛ رضى الله عنهن .

فأما من تزوّجهن ولم يدخل بهن؛ فمنهن : الكلابية . واختلفوا فى آسمها؛ فقيل فاطمة . وقيل عَمْرة . وقيل العالية . قال الزهرىّ : تزوّج فاطمة بنت الضحاك الكلابية فاستعاذت منه فطلقها ، وكانت تقـول : أنا الشقيّة . تزوّجها فى ذى القعدة سنة ثمـان من الهجرة، وتوفيت سنة ستين .

ومنهن : أسماء بنت النعمان بن الجَوْن بن الحارث الكِنْدية، وهى الجونية . قال قتادة : لمـا دخل عليها دعاها فقالت : تعال أنت ، فطلّقها . وقال غيره : هى التى استعاذت منه . وفى البخارىّ قال : تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم أميمة بنت شَراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسَيد أن يجهزها و يكسوها ثوبين . وفى لفظ آخر قال أبو أُسيد : أتِى رسـول الله صلى الله عليه وسلم بالجَوْنية ، فلما دخل عليها قال : ” هبِى لى نفسك “ فقالت : وهل تهب المِلكة نفسها للسُّوقة ! فأهوى بيده ليضعها عليها لتسكن ؛ فقالت : أعوذ بالله منك ! فقال : ” قد عُذتِ بمعاذ “ ثم خرج علينا فقال : ” يا أبا أسَيد ، أكسها رازِقيين (١) وألحقها بأهلها “ .

ومنهنّ : قُتَيلة بنت قيس، أخت الأشعث بن قيس، زوّجها إياه الأشعث، ثم آنصرف إلى حَضرَموْت ، فحملها إليه فبلغه وفاة النبيّ صلى الله عليه وسـلم . فردّها إلى بلاده، فارتدّ

(١) قوله « رازقيين » بالتثنية ، صفة موصوف محذوف للعلم . فى رواية « رازقيتين » والرازقية : ثياب من كتان بيض طوال .

Marfat.com

وارتدت معـه . ثم تزوّجها عِكرمة بن أبي جَهْل ، فوجد من ذلك أبو بكر وَجْدًا شديدا . فقـال له عمـر : إنهـا والله ماهي من أزواجه ، ماخيّرها ولا حجبها . ولقـد برّأها الله منه[1] بالارتداد . وكان عروة ينكر أن يكون تزوّجها .

ومنهنّ : أم شريك الأزدية، واسمها غُزَيَّة[2] بنت جابر بن حكيم، وكانت قبله عند أبي بكر ابن أبي سلمى ، فطلقها النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يدخل بها . وهي التي وهبت نفسها . وقيل : إن التي وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم خَوْلة بنت حكيم .

ومنهنّ : خَوْلة بنت الهُذَيل بن هُبَيرة، تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهلكت قبل أن تصل إليه .

ومنهنّ : شَرَاف بنت خليفة، أخت دِحْية، تزوّجها ولم يدخل بها .

ومنهنّ : ليلى بنت الخَطِيم ، أخت قيس، تزوّجها وكانت غيورا فاستقالته فأقالها .

ومنهنّ : عمرة بنت معاوية الكِندية، تزوّجها النبي صلى الله عليه وسلم . قال الشعبيّ : تزوّج آمرأة من كِنْدة فجيء بها بعد ما مات .

ومنهنّ : ابنـة جندب بن ضمرة الجُنْدُعية . قال بعضهم : تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنكر بعضهم وجود ذلك .

ومنهنّ : الغِفارِيّة . قال بعضهم : تزوج آمرأة من غِفار ، فأمرها فنزعت ثيابها فرأى بياضا فقـال : " الْحَقِي بأهلك " . ويقال : إنمـا رأى البياض بالكلابية . فهؤلاء اللاتى عقد عليهنّ ولم يدخل بهنّ، صلى الله عليه وسلم .

فأما من خطبهنّ فلم يتم نكاحه معهنّ، ومن وهبت له نفسها :

فمنهنّ : أم هانئ بنت أبي طالب، واسمها فاختـة . خطبها النبيّ صلى الله عليه وسـلم فقالت : إني امرأة مُصْبِيَة[3] واعتذرت إليه فعذرها .

---

(١) كذا في الأصـول وأسـد الغابة ، وعبارته : « وقـد برأها الله بالردّة » والذي في شرح المواهب : « ... وارتدّت مع أخيها فبرئت من الله ورسوله ... الخ » .

(٢) في المواهب : « جابر بن عوف » .

(٣) أي ذات صبيان .

Marfat.com

ومنهنّ : ضُباعة بنت عامر .

ومنهنّ : صفية بنت بَشامة بن نضلة، خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان أصابها سِباء، فخيّرها النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : " إن شئت أنا و إن شئت زوجك " ؟ قالت : زوجي . فأرسلها ؛ فلعنتها بنو تميم ؛ قاله ابن عباس .

ومنهنّ : أم شريك . وقد تقدّم ذكرها .

ومنهنّ : ليلى بنت الخَطيم ؛ وقد تقدّم ذكرها .

ومنهنّ : خولة بنت حكيم بن أمية ؛ وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأرجأها ، فتزوّجها عثمان بن مظعون .

ومنهنّ : جَمْرة بنت الحارث بن عَوف المزى ؛ خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال أبوها : إن بها سوءا ولم يكن بها، فرجع إليها أبوها وقد برِصَت ، وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر .

ومنهنّ : سودة القرشية؛ خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم و كانت مصبِية . فقالت : أخاف أن يَضْغُوَ(١) صِبيَتِي عند رأسك . فحمِدها ودعا لها .

ومنهنّ : امرأة لم يُذكر اسمها . قال مجاهد : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت : أستأمر أبي . فلقيت أباها فأذن لها ، فلقِيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " قد التحفنا لحافا غيرك " .

فهؤلاء جميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان له من السّراري سُرِّيّتان : مارِية القبطية، ورَيْحانة ؛ في قول قتادة. وقال غيره : كان له أربع : مارية، ورَيحانة، وأخرى جميلة أصابها في السَّبْي، وجاريةٌ وهبتها له زينب بنت جحش .

(١) أي يصيحوا و يضجوا .

Marfat.com

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ « إِنْ » شرط ، وجوابه « فَتَعَالَيْنَ » ؛ فعلق التخيير على شرط . وهذا يدل على أن التخيير والطلاق المعلقين على شرط صحيحان ، فينفذان ويمضيان ؛ خلافا للجهال المبتدعة الذين يزعمون أن الرجل إذا قال لزوجته : أنتِ طالق إن دخلتِ الدار ، أنه لا يقع الطلاق إن دخلت الدار ؛ لأن الطلاق الشرعيّ هو المنجَّز في الحال لا غير .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَيْنَ ﴾ هو جواب الشرط ، وهو فعل جماعة النساء ، من قولك تعالى ؛ وهو دعاء إلى الإقبال إليه يقال : تعال بمعنى أقبل ، وُضع لمن له جلالة ورفعة ، ثم صار في الاستعمال لكل داع إلى الإقبال ، وأما في هذا الموضع فهو على أصله ؛ فإن الداعي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾ قد تقدّم الكلام في المُتْعة في « البقرة »(١) . وقرئ « أُمَتِّعْكُنَّ » بضم العين . وكذا « وَأُسَرِّحْكُنَّ » بضم الحاء على الاستئناف . والسراح الجميل : هو أن يكون طلاقا للسنة من غير ضرار ولا منع واجب لها .

الخامسة — اختلف العلماء في كيفية تخيير النبيّ صلى الله عليه وسلم أزواجه على قولين : الأول — أنه خيّرهنّ بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية أو الطلاق ، فاخترن البقاء ؛ قالته عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبيّ وابن شهاب وربيعة . ومنهم من قال : إنما خيرهنّ بين الدنيا فيفارقهنّ ، وبين الآخرة فيمسكهنّ ؛ لتكون لهنّ المنزلة العليا كما كانت لزوجهنّ ؛ ولم يخيرهنّ في الطلاق ؛ ذكره الحسن وقتادة . ومن الصحابة عليّ فيما رواه عنه أحمد بن حنبل أنه قال : لم يخيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه إلا بين الدنيا والآخرة .

قلت : القول الأول أصح ؛ لقول عائشة رضى الله عنها لما سئلت عن الرجل يخير امرأته فقالت : قد خيّرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أفكان طلاقا ! في رواية : فاخترناه فلم يعدّه طلاقا . ولم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا التخيير المأمور بين البقاء والطلاق ؛ لذلك قال : " ياعائشة إني ذاكرٌ لكِ أمرا فلا عليك ألّا تعجلي فيه حتى تستأمري

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٠٠ فما بعد .

Marfat.com

أبويك " الحديث . ومعلوم أنه لم يرد الاستئمار فى اختيار الدنيا وزينتها على الآخرة . فثبت أن الاستئمار إنما وقع فى الفرقة ، أو النكاح . والله أعلم .

السادسة — اختلف العلماء فى المخيَّرة إذا اختارت زوجها ؛ فقال جمهور العلماء من السلف وغيرهم وأئمة الفتوى : إنه لا يلزمه طلاق ، لا واحدة ولا أكثر ؛ هذا قول عمر ابن الخطاب وعليّ وٱبن مسعود وزيد بن ثابت وٱبن عباس وعائشة . ومن التابعين عطاء ومسروق وسليمان بن يسار وربيعة وٱبن شهاب . وروى عن عليّ وزيد أيضا : إن ٱختارت زوجها فواحدة بائنة ؛ وهو قول الحسن البصريّ والليث ، وحكاه الخطابى والنقاش عن مالك . وتعلقوا بأن قوله : اختارى ، كناية عن إيقاع الطلاق ، فإذا أضافه إليها وقعت طلقة ؛ كقوله : أنتِ بائن . والصحيح الأول ؛ لقول عائشة : خيّرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه فلم يعدّه علينا طلاقا . أخرجه الصحيحان . قال ابن المنذر : وحديث عائشة يدل على أن المخيَّرة إذا ٱختارت زوجها لم يكن ذلك طلاقا ، ويدل على أن ٱختيارها نفسها يوجب الطلاق ، ويدل على معنى ثالث ؛ وهو أن المخيَّرة إذا ٱختارت نفسها أنها تطليقة يملك زوجها رجعتها ؛ إذ غير جائز أن يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلاف ما أمره الله . وروى هذا عن عمر وابن مسعود وابن عباس . وبه قال ابن أبى ليلى والثوريّ والشافعيّ . وروى عن عليّ أنها إذا ٱختارت نفسها أنها واحدة بائنة . وهو قول أبى حنيفة وأصحابه . ورواه ابن خُوَيْزِمَنْدَاد عن مالك . وروى عن زيد بن ثابت أنها إذا ٱختارت نفسها أنها ثلاث . وهو قول الحسن البصريّ ، وبه قال مالك والليث ؛ لأن المِلك إنما يكون بذلك . وروى عن عليّ رضى الله عنه أنها إذا ٱختارت نفسها فليس بشىء . وروى عنه أنها إذا ٱختارت زوجها فواحدة رجعية .

السابعة — ذهب جماعة من المدنيّين وغيرهم إلى أن التمليك والتخيير سواء ، والقضاء ماقضت فيهما جميعا ؛ وهو قول عبد العزيز بن أبى سلمة . قال ابن شعبان : وقد ٱختاره كثير من أصحابنا ، وهو قول جماعة من أهل المدينة . قال أبو عمر : وعلى هذا القول أكثر

Marfat.com

الفقهاء . والمشهور من مذهب مالك الفرق بينهما ؛ وذلك أن التمليك عند مالك هو قول الرجل لامرأته : قد ملّكتك ؛ أي قد ملّكتك ما جعل الله لى من الطلاق واحدة أو آثنتين أو ثلاثا ؛ فلما جاز أن يملّكها بعض ذلك دون بعض وادعى ذلك، كان القولُ قولَه مع يمينه إذا ناكرها . وقالت طائفة من أهل المدينة : له المناكرة فى التمليك وفى التخيير سواء فى المدخول بها . والأول قول مالك فى المشهور. وروى ابن خُوَيْزِمَنْدَاد عن مالك أن للزوج أن يناكر المخيَّرة فى الثلاث، وتكون طلقة بائنة كما قال أبو حنيفة . وبه قال أبو الجَهْم . قال سُحْنون : وعليه أكثر أصحابنا .

وتحصيل مذهب مالك : أن المخيّرة إذا آختارت نفسها وهى مدخول بها فهو الطلاق كله، وإن أنكر زوجها فلا نكرة له . وإن آختارت واحدة فليس بشىء، وإنما الخيار البتات، إما أخذته وإما تركته؛ لأن معنى التخيير التسريح؛ قال الله تعالى فى آية التخيير : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾[(1)] فمعنى التسريح البتات، قال الله تعالى : « الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » . والتسريح بإحسان هو الطلقة الثالثة ؛ روى ذلك عن النبىّ صلى الله عليه وسلم كما تقدّم . ومن جهة المعنى أن قوله : اختاريني أو آختارى نفسك يقتضى ألّا يكون له عليها سبيل إذا آختارت نفسها، ولا يملك منها شيئا ؛ إذ قد جعل إليها أن تخرج ما يملكه منها أو تقيم معه إذا آختارته ، فإذا آختارت البعض من الطلاق لم تعمل بمقتضى اللفظ، وكانت بمنزل من خُيّر بين شيئين فاختار غيرهما . وأما التى لم يدخل بها فله مناكرتها فى التخيير والتمليك إذا زادت على واحدة ؛ لأنها تبين فى الحال .

الثامنة — اختلفت الرواية عن مالك متى يكون لها الخيار ؛ فقال مرة : لها الخيار ما دامت فى المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدل على الإعراض . فإن لم تختر ولم تقض شيئا حتى آفترقا من مجلسهما بطل ما كان من ذلك إليها ؛ وعلى هذا أكثر الفقهاء. وقال مرة : لها الخيار أبدا ما لم يعلم أنها تركت ؛ وذلك يُعلم بأن تمكّنه من نفسها بوطء أو مباشرة ؛ فعلى هذا إن منعت نفسها ولم تختر شيئا كان له رفعها إلى الحاكم لتوقع أو تسقط، فإن أبت أسقط

(1) راجع ج ٣ ص ١٢٥

Marfat.com

الحاكم تمليكها . وعلى القول الأول إذا أخذت فى غير ذلك من حديث أو عمل أو مشى أو ما ليس فى التخيير بشيء كما ذكرنا سقط تخييرها . واحتج بعض أصحابنا لهذا القول بقوله تعالى : « فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ »(١) . وأيضا فإن الزوج أطلق لها القول ليعرف الخيار منها، فصار كالعقد بينهما ، فإن قبلته وإلا سقط ؛ كالذى يقول : قد وهبت لك أو بايعتك، فإن قبل وإلا كان الملك باقيا بحاله . هذا قول الثورى والكوفيين والأوزاعى والليث والشافعى وأبى ثور ، وهو اختيار ابن القاسم . ووجه الرواية الثانية أن ذلك قد صار فى يدها وملكته على زوجها بتمليكه إياها فلما ملكت ذلك وجب أن يبقى فى يدها كبقائه فى يد زوجها .

قلت : وهذا هو الصحيح لقوله عليه السلام لعائشة : " إنى ذاكر لك أمرا فلا عليك ألا تستعجلى حتى تستأمرى أبويك" رواه الصحيح، وخرجه البخارى، وصححه الترمذى . وقد تقدم فى أول الباب . وهو حجة لمن قال : إنه إذا خيّر الرجل امرأته أو ملكها أن لها أن تقضى فى ذلك وإن افترقا من مجلسهما ؛ روى هذا عن الحسن والزُّهْرى، وقاله مالك فى إحدى روايتيه . قال أبو عبيد : والذى عندنا فى هذا الباب ، اتباع السنة فى عائشة فى هذا الحديث، حين جعل لها التخيير إلى أن تستأمر أبويها، ولم يجعل قيامها من مجلسها خروجا من الأمر . قال المَرْوزى : هذا أصح الأقاويل عندى ، وقاله ابن المنذر والطّحاوى .

قوله تعالى : يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

(١) راجع جـ ٥ ص ٤١٨ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء : لما آختار نساءُ النبيّ صلى الله عليه وسلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم شكرهنّ الله على ذلك فقال تكرمة لهن : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ » (١) الآية . وبين حكمهن عن غيرهن فقال : وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا (١) » . وجعل ثواب طاعتهنّ وعقاب معصيتهنّ أكثر مما لغيرهنّ فقال : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » . فأخبر تعالى أن من جاء من نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم بفاحشة — والله عاصم رسوله عليه السلام من ذلك كما مر فى حديث الإفك (٢) — يضاعف لها العذاب ضعفين ؛ لشرف منزلتهنّ وفضل درجتهنّ ، وتقدّمهنّ على سائر النساء أجمع . وكذلك بيّنت الشريعة فى غير ما موضع حسبما تقدّم بيانه غير مرة — أنه كلما تضاعفت الحُرُمات فهتكت تضاعفت العقوبات ؛ ولذلك ضُوعف حدّ الحرّ على العبد والثيّب على البكر . وقيل : لما كان أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فى مهبط الوحى وفى منزل أوامر الله ونواهيه ، قوى الأمر عليهن ولزمهن بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن ؛ فضوعف لهنّ الأجر والعذاب . وقيل ، إنما ذلك لعظم الضرر فى جرائمهن بإيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فكانت العقوبة على قدر عظم الجريمة فى إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وقال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (١) » . واختار هذا القول الكِيَا الطبرى .

الثانيــة — قال قوم : لو قُدّر الزنى من واحدة منهن — وقد أعاذهنّ الله من ذلك — لكانت تُحدّ حدّين لعظم قدرها ، كما يزاد حدّ الحرة على الأَمَة . والعذاب بمعنى الحدّ ، قال الله تعالى : « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ (٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣) » . وعلى هذا فمعنى الضعفين معنى المثلين أو المرتين . وقال أبو عبيدة : ضِعف الشيء شيئان حتى يكون ثلاثة . وقاله أبو عمرو فيما

(١) راجع ص ٢١٩ و ص ٢٢٨ و ص ٢٣٧ من هذا الجزء .

(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٩٧ فما بعد و ص ١٦٦ . (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٦٢ .

Marfat.com

حكى الطبرى عنه؛ فيضاف إليه عذابان مثله فيكون ثلاثة أعذبة . وضعّفه الطبرى . وكذلك هو غير صحيح وإن كان له باللفظ تعلّق الاحتمال . وكون الأجر مرتين مما يفسد هذا القول؛ لأن العذاب فى الفاحشة بإزاء الأجر فى الطاعة؛ قاله ابن عطية . وقال النحاس : فرق أبو عمرو بين « يُضَاعف ويضعّف » قال : «يُضَاعَف» للرار الكثيرة . و «يضعّف» مرتين . وقرأ « يضعّف » لهذا . وقال أبو عبيدة : « يُضَاعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ » يجعل ثلاثة أعذبة . قال النحاس : التفريق الذى جاء به أبو عمرو وأبو عبيدة لا يعرفه أحد من أهل اللغة علمته ، والمعنى فى «يضاعف ويضعّف» واحد؛ أى يجعل ضعفين؛ كما تقول : إن دفعت إلىّ درهما دفعت إليك ضِعْفَيه ؛ أى مِثْلَيه ؛ يعنى درهمين . ويدل على هذا « نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ » ولا يكون العذاب أكثر من الأجر . وقال فى موضع آخر « آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ »[1] أى مثلين . وروى معمر عن قتادة « يُضَاعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » قال : عذابُ الدنيا وعذاب الآخرة . قال القشيرى أبو نصر : الظاهر أنه أراد بالضعفين المثلين ؛ لأنه قال : « نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ » . فأما فى الوصايا، لو أوصى لإنسان بضعفى نصيب ولده فهو وصية بأن يعطى مِثل نصيبه ثلاث مرات ؛ فإن الوصايا تجرى على العرف فيما بين الناس ، وكلام الله يردّ تفسيره إلى كلام العرب، والضعف فى كلام العرب المِثل إلى ما زاد، وليس بمقصور على مثلين . يقال : هذا ضعف هذا ؛ أى مثله . وهذا ضعفاه ، أى مثلاه ؛ فالضعف فى الأصل زيادة غير محصورة؛ قال الله تعالى : « فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ »[1] ولم يرِد مثلا ولا مِثلين . كل هذا قول الأزهرى . وقد تقدم فى « النور » الاختلاف فى حد من قذف واحدة منهن[2] ؛ والحمد لله .

الثالثة — قال أبو رافع : كان عمر رضى الله عنه كثيرا ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب فى الصبح ، وكان إذا بلغ « يَانِسَاءَ النَّبِيِّ » رفع بها صوته ؛ فقيل له فى ذلك فقال : "أذكّرهن العهد" . قرأ الجمهور : «مَنْ يَأْتِ» بالياء . وكذلك «مَنْ يَقْنُتْ» حملا على لفظ

(١) راجع ص ٢٥٠ وص ٣٠٦ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٧٦ .

Marfat.com

«مَن» . والقنوت الطاعة؛ وقد تقدم[1] . وقرأ يعقوب : «من تأت» و «تقنت» بالتاء من فوق، حملا على المعنى . وقال قوم : الفاحشة إذا وردت معرفة فهى الزنى واللواط . و إذا وردت منكرة فهى سائر المعاصى . و إذا وردت منعوتة فهى عقوق الزوج وفساد عشرته . وقالت فرقة : بل قوله « فَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ » تعم جميع المعاصى . وكذلك الفاحشة كيف وردت . وقرأ ابن كثير «مبيَّنة» بفتح الياء . وقرأ نافع وأبو عمرو بكسرها . وقرأت فرقة : «يُضَاعِفْ» بكسر العين على إسناد الفعل إلى الله تعالى . وقرأ أبو عمرو فيما روى خارجة «نضاعف» بالنون المضمومة ونصب «العذاب» وهذه قراءة ابن مُحَيْصِن . وهذه مفاعلة من واحد؛ كطارقت النعل وعاقبت اللص . وقرأ نافع وحمزة والكسائى «يضاعَف» بالياء وفتح العين، «العذابُ» رفعا . وهى قراءة الحسن وابن كثير وعيسى . وقرأ ابن كثير وابن عامر « نُضَعِّف » بالنون وكسر العين المشددة، « العذابَ » نصبا . قال مقاتل : هذا التضعيف فى العذاب إنما هو فى الآخرة؛ لأن إيتاء الأجر مرتين أيضا فى الآخرة . وهذا حسن؛ لأن نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يأتين بفاحشة توجب حدًّا . وقد قال ابن عباس : ما بَغَت امرأة نبيّ قط، و إنما خانت فى الإيمان والطاعة . وقال بعض المفسرين : العذاب الذى تُوعِدْن به «ضعفين» هو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة؛ فكذلك الأجر . قال ابن عطية : وهذا ضعيف، اللهم إلا أن يكون أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لا ترفع عنهن حدودُ الدنيا عذابَ الآخرة، على ما هى حال الناس عليه؛ بحكم حديث عُبادة بن الصامت[2] . وهذا أمر لم يُرْوَ فى أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا حفظ تقرره . وأهل التفسير على أن الرزق الكريم الجنة؛ ذكره النحاس .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٦ و جـ ٣ ص ٢١٣ .

(٢) لفظ الحديث كما فى كتاب البخارى فى تفسير سورة الممتحنة : « قال : كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : " أتبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا — وقرأ آية النساء (يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك — فمن وفى منكم فأجره على الله . ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له . ومن أصاب منها شيئا من ذلك فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه و إن شاء غفرله) » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ يعنى فى الفضل والشرف . وقال : « كَأَحَدٍ » ولم يقل كواحدة ؛ لأن أحدا نفى من المذكر والمؤنث والواحد والجماعة (١) . وقد يقال على ما ليس بآدمىّ ؛ يقال : ليس فيها أحد ، لا شاة ولا بعير . وإنما خصص النساء بالذكر لأن فيمن تقدم آسية ومريم . وقد أشار إلى هذا قتادة ؛ وقد تقدّم فى « آل عمران » الاختلاف فى التفضيل بينهن ، فتأمله هناك (٢) . ثم قال : « إِنِ اتَّقَيْتُنَّ » أى خفتن الله . فبيّن أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى ؛ لما منحهن الله من صحبة الرسول وعظيم المحل منه ، ونزول القرآن فى حقهن .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ فى موضع جزم بالنهى ؛ إلا أنه مبنىّ كما بنى الماضى ، هذا مذهب سيبويه ؛ أى لا تلنّ القول . أمرهن الله أن يكون قولهن جزلا وكلامهن فصلا ، ولا يكون على وجه يُظهر فى القلب علاقة بما يَظهر عليه من اللين ؛ كما كانت الحال عليه فى نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه ؛ مثل كلام المريبات والمومسات . فنهاهن عن مثل هذا .

قوله تعالى : ﴿ فَيَطْمَعَ ﴾ بالنصب على جواب النهى . ﴿ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ أى شك ونفاق ؛ عن قتادة والسّدّى . وقيل : تشوّف لفجور ، وهو الفسق والغَزَل ؛ قاله عكرمة . وهذا أصوب ، وليس للنفاق مدخل فى هذه الآية . وحكى أبو حاتم أن الأعرج قرأ « فَيَطْمِعَ » بفتح الياء (٣) وكسر الميم . النحاس : أحسب هذا غلطا ، وأن يكون قرأ « فيطمعِ » بفتح الميم وكسر العين بعطفه على « تَخْضَعْنَ » فهذا وجه جيد حسن . ويجوز « فيُطْمِعَ » بمعنى فيطمع الخضوع أو القول .

---

(١) كذا فى الأصول ؛ يريد أنه نفى عام للذكر والمؤنث .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٨٢
(٣) فى الأصول : « بفتح الياء » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ قال ابن عباس : أمرهن بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والمرأة تندب إذا خاطبت الأجانب وكذا المحرمات عليها بالمصاهرة إلى الغلظة فى القول من غير رفع صوت ؛ فإن المرأة مأمورة بخفض الكلام . وعلى الجملة فالقول المعروف : هو الصواب الذى لا تنكره الشريعة ولا النفوس .

قوله تعالى : وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى ﴿ وَقَرْنَ ﴾ قرأ الجمهور « وَقِرْنَ » بكسر القاف . وقرأ عاصم ونافع بفتحها . فأما القراءة الأولى فتحتمل وجهين : أحدهما — أن يكون من الوقار ؛ تقول : وَقَر يَقِر وَقارًا أى سكن ، والأمر قِرْ ، وللنساء قِرْنَ ، مثل عِدْنَ وزِنّ . والوجه الثانى — وهو قول المبرد (١) ، أن يكون من القرار ؛ تقول : قَرَرت بالمكان (بفتح الراء) أقِر ، والأصل أقْرِرن ، بكسر الراء ، فحذفت الراء الأولى تخفيفا ؛ كما قالوا فى ظَلَلْت : ظِلْت ، ومَسَسْت : مِسْت ، ونقلوا حركتها إلى القاف ، واستغنى عن ألف الوصل لتحرك القاف . قال أبو علىّ : بل على أن أبدلت الراء ياء كراهة التضعيف ، كما أبدلت فى قيراط ودينار ، ويصير للياء حركة الحرف المبدل منه ؛ فالتقدير : إقْيِرْن ، ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحرك الياء بالكسر فتسقط الياء لاجتماع الساكنين ، وتسقط همزة الوصل لتحرك ما بعدها فيصير « قِرْنَ » . وأما قراءة أهل المدينة وعاصم ، فعلى لغة العرب : قرِرت فى المكان إذا أقمت فيه (بكسر الراء) أقَر (بفتح القاف) ؛ من باب حمِد يحمَد ، وهى لغة أهل الحجاز ذكرها أبو عبيد فى « الغريب المصنف » عن الكسائى ، وهو من أجلّ مشايخه ، وذكرها الزجاج وغيره ، والأصل « إقْرَرْنَ »

(١) فى نسخة : « الفراء » .

Marfat.com

حذفت الراء الأولى لثقل التضعيف، وألقيت حركتها على القاف فتقول: قَرْن. قال الفراء: هو كما تقول: أَحَسْتَ صاحبك؛ أي هل أَحْسَسْتَ. وقال أبو عثمان المازني: قَرِرت به عينا (بالكسر لا غير)، من قُرّة العين. ولا يجوز قَرِرت في المكان (بالكسر) وإنما هو قَرَرت (بفتح الراء)، وما أنكره من هذا لا يقدح في القراءة إذا ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ فيستدلّ بما ثبت عنه من القراءة على صحة اللغة. وذهب أبو حاتم(1) أيضا أن «قَرْن» لا مذهب له في كلام العرب. قال النحاس: وأمّا قول أبي حاتم: «لا مذهب له» فقد خولف فيه، وفيه مذهبان: أحدهما ما حكاه الكسائي، والآخر ما سمعت عليّ بن سليمان يقول، قال: وهو من قَرِرْتُ به عَيْنا أَقَر، والمعنى: واقررن به عَيْناً في بيوتكن. وهو وجه حسن؛ إلا أن الحديث يدلّ على أنه من الأول. كما روى أن عمارا قال لعائشة رضى الله عنها: إن الله قد أمرك أن تَقَرّى في منزلك؛ فقالت: يا أبا اليَقْظان، مازلتَ قوّالا بالحق! فقال: الحمد لله الذى جعلنى كذلك على لسانك. وقرأ ابن أبي عَبْلة «واقْرِرن» بألف وصل وراءين، الأولى مكسورة.

الثانيــة — معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى. هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء؛ كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة؛ على ما تقدم في غير موضع. فأمر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم بملازمة بيوتهنّ، وخاطبهنّ بذلك تشريفا لهنّ، ونهاهنّ عن التبرج، وأعلم أنه فعل الجاهلية الأولى فقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾. وقد تقدّم معنى التبرج في «النور»(2). وحقيقته إظهار ما ستره أحسن؛ وهو مأخوذ من السّعة، يقال: في أسنانه بَرَج إذا كانت متفرّقة؛ قاله المبرد. واختلف الناس في «الجاهلية الأُولَى»؛ فقيل: هى الزمن الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام، كانت المرأة تلبس الدّرع من اللؤلؤ، فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال. وقال الحكم بن عُيينة: ما بين آدم ونوح،

(1) في ج، وش، وك: «زعم».　　(2) راجع ج ١٢، ص ٣٠٩.

Marfat.com

وهى ثمانمائة سنة ، وحُكيت لهم سِيَر ذميمة . وقال ابن عباس : ما بين نوح وإدريس . الكلبيّ : ما بين نوح وإبراهيم . قيل : إن المرأة كانت تلبس الدّرع من اللؤلؤ غير مَخِيط الجانبين ، وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى بدنها . وقالت فرقة : ما بين موسى وعيسى . الشعبى : ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . أبو العالية : هى زمان داود وسليمان ؛ كان فيه للمرأة قميص من الدر غير مخيط الجانبين . وقال أبو العباس المبرد : والجاهلية الأولى كما تقول الجاهلية الجهلاء ، قال : وكان النساء فى الجاهلية الجهلاء يُظهرن ما يقبح إظهاره، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخِلّها(١) ، فينفرد خِلّها بما فوق الإزار إلى الأعلى ، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى الأسفل ، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل . وقال مجاهد : كان النساء يتمشّين بين الرجال ، فذلك التبرج . قال ابن عطية : والذى يظهر عندى أنه أشار للجاهلية التى لحقنها ، فأمِرْن بالنّقلة عن سيرتهنّ فيها ، وهى ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة ؛ لأنهم كانوا لا غَيْرة عندهم ؛ وكان أمر النساء دون حجاب(٢) ، وجَعْلُها أولى بالنسبة إلى ما كنّ عليه ؛ وليس المعنى أن ثَمّ جاهلية أخرى . وقد أوقع اسم الجاهلية على تلك المدّة التى قبل الإسلام ؛ فقالوا : جاهلىّ فى الشعراء . وقال ابن عباس فى البخارىّ : سمعت أبى فى الجاهلية يقول ؛ إلى غير هذا .

قلت : وهذا قول حسن . ويعترض بأن العرب كانت أهل قَشَف وضَنْك فى الغالب، وأن التنعم وإظهارَ الزينة إنما جرى فى الأزمان السابقة ، وهى المراد بالجاهلية الأولى ، وأن المقصود من الآية مخالفة من قبلهنّ من المِشية على تَغْنيج وتكسير وإظهار المحاسن للرجال ، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعا . وذلك يشمل الأقوال كلّها ويعمّها فيلزمن البيوت ، فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكنّ على تبذّل(٣) وتستّر تام . والله الموفق .

الثالثة — ذكر الثعلبىّ وغيره : أن عائشة — رضى الله عنها — كانت إذا قرأت هذه الآية تبكى حتى تَبُلّ خمارها . وذكر أن سَوْدة قيل لها : لم لا تحجّين ولا تعتمرين كما يفعل

(١) فى ش : « خلها » والخل (بالكسر) : الصديق الخالص . (٢) فى الأصول : « جبة » .
(٣) التبذل : ترك التزين والتهيؤ بالهيئة الحسنة الجميلة على جهة التواضع .

Marfat.com

أخواتك ؟ فقالت : قد حججت واعتمرت ، وأمرنى الله أن أقرّ فى بيتى . قال الراوى : فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها . رضوان الله عليها ! قال ابن العربى : لقد دخلت نَيِّفًا على ألف قرية ، فما رأيت نساء أصْون عيالا ولا أعفّ نساء من نساء نابلس، التى رُمِى بها الخليل صلى الله عليه وسلم بالنار ؛ فإنى أقمت فيها فما رأيت امرأة فى طريق نهارا إلا يوم الجمعة فإنهنّ يخرجن إليها حتى يمتلئ المسجد منهنّ ، فإذا قُضيت الصلاة وانقلبن إلى منازلهنّ لم تقع عينى على واحدة منهنّ إلى الجمعة الأخرى . وقد رأيت بالمسجد الأقصى عفائف ما خرجن من معتكفهنّ حتى استشهدن فيه .

الرابعة — قال ابن عطية : بكاء عائشة رضى الله عنها إنما كان بسبب سفرها أيام الجمل، وحينئذ قال لها عمّار : إن الله قد أمرك أن تَقَرِّى فى بيتك . قال ابن العربى : تعلق الرافضة — لعنهم الله — بهذه الآية على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها إذ قالوا : إنها خالفت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجت تقود الجيوش، وتباشر الحروب، وتقتحم مأزق الطعن والضرب فيما لم يفرض عليها ولا يجوز لها . قالوا : ولقد حُصر عثمان ، فلما رأت ذلك أمرت برواحلها فقربت لتخرج إلى مكة؛ فقال لها مَرْوان : أقيمى هنا يا أم المؤمنين، وردّى هؤلاء الرّعاع ؛ فإن الإصلاح بين الناس خير من حجّك . قال ابن العربى قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إن عائشة رضى الله عنها ، نذرت الحج قبل الفتنة ، فلم تر التخلف عن نذرها؛ ولو خرجت فى تلك الثائرة لكان ذلك صوابا لها . وأما خروجها إلى حرب الجمل فما خرجت لحرب، ولكن تعلق الناس بها، وشكَوْا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتهارج الناس ، ورجَوْا بركتها ، وطمِعوا فى الاستحياء منها إذا وقفت إلى الخلق ، وظنّت هى ذلك [فخرجت](1) مقتدية بالله فى قوله : « لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ »(2)، وقوله : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا »(3) . والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر وأنثى، حُر

(1) زيادة عن ابن العربى . (2) راجع جـ ٥ ص ٣٨٢ . (3) راجع جـ ١٦ ص ٣١٥ .

Marfat.com

أو عبد . فلم يرد الله تعالى بسابق قضائه ونافذ حكمه أن يقع إصلاح، ولكن جرت مطاعنات وجراحات حتى كاد يفنى الفريقان ، فعمد بعضهم إلى الجمل فعرقبه ، فلما سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبى بكر عائشة رضى الله تعالى عنها، فاحتملها إلى البصرة، وخرجت فى ثلاثين امرأة، قرنهن علىّ بها حتى أوصلوها إلى المدينة برّة تقيّة مجتهدة ، مصيبة مثابة فيما تأولت، مأجورة فيما فعلت؛ إذ كل مجتهد فى الأحكام مصيب . وقد تقدّم فى « النحل »(١) اسم هذا الجمل، و به يعرف ذلك اليوم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى فيما أمر ونهى. ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ قال الزجاج : قيل يراد به نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : يراد به نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته؛ على ما يأتى بيانه بعدُ . و « أَهْلَ الْبَيْتِ » نصب على المدح . قال : وإن شئت على البدل . قال : ويجوز الرفع والخفض . قال النحاس : إن خفض على أنه بدل من الكاف والميم لم يجز عند أبى العباس محمد بن يزيد ، قال لا يبدل من المخاطبة ولا من المخاطب ؛ لأنهما لا يحتاجان إلى تبيين . ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ مصدر فيه معنى التوكيد .

قوله تعالى : وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ج إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

فيــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ هذه الألفاظ تعطى أن أهل البيت نساؤه . وقد اختلف أهل العلم فى أهل البيت ، من هم ؟ فقال عطاء وعكرمة وابن عباس : هم زوجاته خاصّة، لا رجل معهن . وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ لقوله تعالى : « وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ » . وقالت فرقة منهم الكلبىّ : هم علىّ وفاطمة والحسن والحسين خاصة؛ وفى هذا أحاديث عن النبىّ عليه السلام، واحتجّوا بقوله تعالى : « لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ »

(١) راجع جـ ١٠ ص ٧٣ فما بعد .

Marfat.com

بالميم ، ولو كان للنساء خاصة لكان « عنكنّ ويطهركنّ » ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون خرج على لفظ الأهل ؛ كما يقول الرجل لصاحبه : كيف أهلك ؛ أى امرأتك ونساؤك ؛ فيقول : هم بخير ؛ قال الله تعالى : « أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » (١) .

والذى يظهر من الآية أنها عامة فى جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم . وإنما قال : « وَيُطَهِّرَكُمْ » لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعَلِيًّا وحسَنًا وحُسَيْنًا كان فيهم ، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غُلّب المذكر ؛ فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت ؛ لأن الآية فيهنّ ، والمخاطبة لهنّ ، يدلّ عليه سياق الكلام . والله أعلم . أما أن أمّ سلمة قالت : نزلت هذه الآية فى بيتى ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا وفاطمة وحَسَنًا وحُسَيْنًا ، فدخل معهم تحت كساءٍ خَيْبَرِيٍّ وقال : " هؤلاء أهل بيتى " — وقرأ الآية — وقال : " اللهم أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا " فقالت أمّ سلمة : وأنا معهم يا رسول الله ؟ قال : " أنتِ على مكانك وأنتِ على خير " أخرجه الترمذى وغيره وقال : هذا حديث غريب . وقال القشيرى : وقالت أمّ سلمة أدخلت رأسى فى الكساء وقلت : أنا منهم يارسول الله ؟ قال : " نعم " . وقال الثعلبى : هم بنو هاشم ، فهذا يدل على أن البيت يراد به بيت النسب ، فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم . وروى نحوه عن زيد بن أرقم رضى الله عنهم أجمعين . وعلى قول الكلبى يكون قوله : « وَاذْكُرْنَ » ابتداء مخاطبة الله تعالى ؛ أى مخاطبة أمر الله عز وجل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، على جهة الموعظة وتعديد النعمة بذكر ما يتلى فى بيوتهنّ من آيات الله تعالى والحكمة . قال أهل العلم بالتأويل : « آيَاتِ اللَّهِ » القرآن . « وَالْحِكْمَةِ » السنة . والصحيح أن قوله : « وَاذْكُرْنَ » منسوق على ما قبله . وقال « عنكم » لقوله « أهل » فالأهل مذكر ؛ فسماهنّ — وإن كنّ إناثا — باسم التذكير فلذلك صار « عنكم » . ولا اعتبار بقول الكلبى وأشباهه ، فإنه توجد له أشياء فى هذا التفسير ما لو كان فى زمن السلف الصالح لمنعوه من ذلك وحجروا عليه . فالآيات كلها من قوله : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ — إلى قوله — إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا » منسوق بعضها على بعض ،

(١) راجع جـ ٩ ص ٧٠ .

Marfat.com

فكيف صار فى الوسط كلاما منفصلا لغيرهنّ! وإنما هذا شيء جرى فى الأخبار أن النبي عليه السلام لما نزلت عليه هذه الآية دعا عليًّا وفاطمة والحسن والحسين ، فعمد النبي صلى الله عليه وسلم إلى كساء فلفّها عليهم ، ثم ألوى بيده إلى السماء فقال : "اللّهم هؤلاء أهل بيتى اللّهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا" . فهذه دعوة من النبي صلى الله عليه وسلم لهم بعد نزول الآية ، أحبَّ أن يدخلهم فى الآية التى خوطب بها الأزواج ، فذهب الكلبي ومن وافقه فصيّرها لهم خاصّة ، وهى دعوة لهم خارجة من التنزيل .

الثانيـة — لفظ الذّكر يحتمل ثلاثة معان : أحدها — أى آذكرن موضع النعمة ، إذ صيّركن الله فى بيوت تُتلى فيها آيات الله والحكمة . الثانى — آذكرن آيات الله وآقدرن قدرها ، وفكّرن فيها حتى تكون منكن على بالٍ لتتعظن بمواعظ الله تعالى، ومن كان هذا حاله ينبغى أن تحسن أفعاله . الثالث — «آذكرن» بمعنى آحفظن وآقرأن والزمنه الألسنة، فكأنه يقول : آحفظن أوامر الله تعالى ونواهيه، وذلك هو الذى يُتلى فى بيوتكن من آيات الله . فأمر الله سبحانه وتعالى أن يخبرن بما ينزل من القرآن فى بيوتهن ، وما يرين من أفعال النبي عليه الصلاة والسلام ، ويسمعن من أقواله حتى يبلغن ذلك إلى الناس ، فيعملوا ويقتدوا . وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء فى الدّين .

الثالثـة — قال ابن العربى : فى هذه الآية مسألة بديعة ، وهى أن الله تعالى أمر نبيّه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل عليه من القرآن ، وتعليم ما علمه من الدين ، فكان إذا قرأ على واحد أو ما اتفق سقط عنه الفرض، وكان على من سمعه أن يبلغه إلى غيره ، ولا يلزمه أن يذكره لجميع الصحابة ، ولا كان عليه إذا علم ذلك أزواجه أن يخرج إلى الناس فيقول لهم نزل كذا ولا كان كذا ، ولهذا قلنا : يجوز العمل بخبر بُسْرة[(1)] فى إيجاب الوضوء من مسّ الذكر ، لأنها روت ما سمعت وبلّغت ما وعت . ولا يلزم أن يبلغ ذلك الرجال، كما قال أبو حنيفة ، على أنه قد نقل عن سعد بن أبى وقاص وآبن عمر .

(١) هى بسرة بنت صفوان بن نوفل ، روت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

فيــه مسألتان :

الأولى — روى الترمذى عن أم عُمارة الأنصارية أنها أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : ما أرى كل شيء إلا للرجال ، وما أرى النساء يذكرن بشيء ! فنزلت هذه الآية : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » الآية . هذا حديث حسن غريب . و« الْمُسْلِمِينَ » اسم « إنّ » . «وَالْمُسْلِمَاتِ» عطف عليه . ويجوز رفعهن عند البصريين ، فأما الفرّاء فلا يجوز عنده إلا فيما لا يتبين فيه الإعراب .

الثانيــة — بدأ تعالى فى هذه الآية بذكر الإسلام الذى يعمّ الإيمـان وعمل الجوارح ، ثم ذكر الإيمان تخصيصا له وتنبيها على أنه عُظْم الإسلام ودِعامته . والقانت : العابد المطيع . والصادق : معناه فيما عوهد عليه أن يفِى به . والصابر عن الشهوات وعلى الطاعات فى المَكْره والمَنْشط[(١)] . والخاشع : الخائف لله . والمتصدّق بالفرض والنفل . وقيل : بالفرض خاصّة ؛ والأول أمدح . والصائم كذلك . ﴿والحافظين فروجهم والحافظاتِ﴾ أى عمـا لا يحلّ من الزنى وغيره . وفى قوله : « وَالْحَافِظَاتِ » حذف يدل عليه المتقدّم ، تقديره : والحافظاتها ، فاكتفى بمـا تقدّم . وفى « الذَّاكِرَاتِ » أيضا مثله ، ونظيره قول الشاعر :

(١) المكره (بفتح الميم) : المكروه . والمنشط : وهو الأمر الذى تنشط له وتخف إليه وتؤثر فعله ؛ وهو مصدر بمعـنى النشـاط .

Marfat.com

وكُمْتًا مُدَمّاة كأن متونها * جرى فوقها واستشعرت لَوْنُ مُذْهَبِ(١)

وروى سيبويه : « لَوْنَ مُذْهَبِ » بالنصب . وإنما يجوز الرفع على حذف الهاء، كأنه قال : واستشعرته ؛ فيمن رفع لونا . والذاكر قيل فى أدبار الصلوات وغُدُوًّا وعَشِيًّا ، وفى المضاجع وعند الانتباه من النوم . وقد تقدّم هذا كله مفصلا فى مواضعه ، وما يترتب عليه من الفوائد والأحكام ، فأغنى عن الإعادة(٢) . والحمد لله رب العالمين . قال مجاهد : لا يكون ذاكرا لله تعالى كثيرا حتى يذكره قائما وجالسا ومضطجعا . وقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : من أيقظ أهله بالليل وصلّيا أربع ركعات كُتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — روى قتادة وابن عباس ومجاهد فى سبب نزول هذه الآية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب زينب بنت جحش، وكانت بنت عمته، فظنّت أن الخطبة لنفسه، فلما تبيّن أنه يريدها لزيد ، كرهت وأبت وامتنعت ؛ فنزلت الآية . فأذعنت زينب حينئذ وتزوّجته . فى رواية : فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش ، وأن زيدا كان بالأمس عبدا ، إلى أن نزلت هذه الآية ، فقال له أخوها : مُرْنى بما شئت ، فزوّجها من زيد . وقيل : إنها نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى مُعَيط ، وكانت وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم ، فزوّجها من زيد بن حارثة ؛ فكرهت ذلك هى وأخوها وقالا : إنما أردنا رسول

(١) الكمت : جمع أكمت، وهى حمرة تضرب إلى السواد . والمدماة : شديدة الحمرة مثل الدم . والمتون : جمع متن، وهو الظهر . واستشعرت : جعلت شعارها . والمذهب : المموه بالذهب . والبيت لطفيل الغنوى (عن سيبويه والعينى) .

(٢) راجع جـ ١ ص ٣٣١ و جـ ٤ ص ٨٢ و ٣١٠ .

Marfat.com

الله صلى الله عليه وسلم فزوّجنا غيره؛ فنزلت الآية بسبب ذلك، فأجابا إلى تزويج زيد؛ قاله ابن زيد. وقال الحسن: ليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا أمر الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم بأمر أن يعصياه.

الثانية — لفظة «ما كان، وما ينبغي» ونحوهما، معناها الحظر والمنع. فتجيء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون؛ كما في هذه الآية. وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلا كقوله تعالى: «مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا»[(١)]. وربما كان العلم بامتناعه شرعا كقوله تعالى: «مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ»[(٢)]، وقوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ»[(٣)]. وربما كان في المندوبات؛ كما تقول: ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل، ونحو هذا.

الثالثة — في هذه الآية دليل بل نص في أن الكفاءة لا تعتبر في الأحساب وإنما تعتبر في الأديان؛ خلافا لمالك والشافعي والمغيرة وسُحنون. وذلك أن الموالي تزوجت في قريش؛ تزوج زيد زينب بنت جحش. وتزوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير. وزوج أبو حذيفة سالما من فاطمة[(٤)] بنت الوليد بن عُتبة. وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف. وقد تقدم هذا المعنى في غير[(٥)] موضع.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ قرأ الكوفيون: «أَنْ يَكُونَ» بالياء. وهو اختيار أبي عبيد؛ لأنه قد فرق بين المؤنث وبين فعله. الباقون بالتاء؛ لأن اللفظ مؤنث [فتأنيث] فعله حسن. والتذكير على أن الخيرة بمعنى التخيير؛ فالخيرة مصدر بمعنى الاختيار. وقرأ ابن السَّمَيْقَع «الخِيْرَة» بإسكان الياء. وهذه الآية في ضمن قوله تعالى: «النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ»[(٦)]. ثم توعد تعالى وأخبر أن من يعص الله ورسوله فقد ضل.

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٢١. (٢) راجع جـ ٤ ص ١٢١. (٣) راجع جـ ١٦ ص ٥٣.
(٤) في الأصول وابن العربي: «هند» والتصويب عن كتب الصحابة. (٥) راجع جـ ٣ ص ٦٩ و جـ ١٣ ص ٢٧٨. (٦) راجع ص ١٢١ من هذا الجزء.

Marfat.com

وهذا أدل دليل على ما ذهب إليه الجمهور من فقهائنا، وفقهاء أصحاب الإمام الشافعي وبعض الأصوليين، من أن صيغة « أفعل » للوجوب في أصل وضعها ؛ لأن الله تبارك وتعالى نفى خيرة المكلّف عند سماع أمره وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم أطلق على من بقيت له خيرة عند صدور الأمر اسم المعصية؛ ثم علّق على المعصية بذلك الضلالَ، فلزم حمل الأمر على الوجوب . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — روى الترمذيّ قال : حدّثنا عليّ بن حجر قال حدثنا داود بن الزِّبْرِقان عن داود بن أبي هند عن الشعبيّ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ يعني بالإسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالعتق فأعتقته . ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ — إلى قوله — وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوجها قالوا : تزوج حليلة ابنه ، فأنزل الله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبنّاه وهو صغير، فلبث حتى صار رجلا يقال له زيد بن محمد، فأنزل الله تبارك وتعالى « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ »

Marfat.com

فلان مولى فلان ، وفلان أخو فلان ، هو أقسط عند الله [يعنى أعدل] [1] . قال أبو عيسى : هذا حديث [غريب] [1] قد روى عن داود بن أبى هند عن الشعبى عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها . قالت : لو كان النبيّ صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ » هذا الحرف لم يُرْوَ بطوله .

قلت : هذا القدر هو الذى أخرجه مسلم فى صحيحه ، وهو الذى صححه الترمذى فى جامعه . وفى البخاريّ عن أنس بن مالك أن هذه الآية «وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ» نزلت فى شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة . وقال عمر وابن مسعود وعائشة والحسن : ما أنزل الله على رسوله آية أشدّ عليه من هذه الآية . وقال الحسن وعائشة : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية لشدّتها عليه . وروى فى الخبر أنه : أمسى زيد فأوى إلى فراشه ، قالت زينب : ولم يستطعنى زيد ، وما أمتنع منه غير ما منعه الله منى ، فلا يقدر علىّ . هذه رواية أبى عِصمة نوح بن أبى مريم ، رفع الحديث إلى زينب أنها قالت ذلك . وفى بعض الروايات : أن زيدا تورّم ذلك منه حين أراد أن يقربها ؛ فهذا قريب من ذلك . وجاء زيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن زينب تؤذينى بلسانها وتفعل وتفعل ! وإنى أريد أن أطلقها ، فقال له : "أمسك عليك زوجك واتق الله" الآية . فطلّقها زيد فنزلت : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ » الآية .

واختلف الناس فى تأويل هذه الآية ، فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين ، منهم الطبرى وغيره — إلى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم وقع منه استحسان لزينب بنت جحش ، وهى فى عِصمة زيد ، وكان حريصا على أن يطلّقها زيد فيتزوّجها هو ؛ ثم إن زيدا لما أخبره بأنه يريد فراقها ، ويشكو منها غِلظة قولٍ وعصيان أمرٍ ، وأذًى باللسان وتعظُّمًا بالشرف ، قال له : " اتق الله — أى فيما تقول عنها — وأمسك عليك زوجك" وهو يخفى الحرص على طلاق زيد إيّاها . وهذا الذى كان يخفى فى نفسه ، ولكنه لزم مايجب من الأمر بالمعروف .

(١) زيادة عن صحيح الترمذى .

Marfat.com

وقال مقاتل : زوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش من زيد فمكثت عنده حيناً، ثم إنه عليه السلام أتى زيدا يوما يطلبه ، فأبصر زينب قائمة ، كانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش، فهويها وقال : "سبحان الله مقلّب القلوب" ! فسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ، ففطن زيد فقال : يارسول الله ، ائذن لى فى طلاقها ، فإن فيها كبراً، تعظّم علىّ و تؤذينى بلسانها ، فقال عليه السلام : "أمسك عليك زوجك واتق الله" . وقيل : إن الله بعث ريحا فرفعت الستر وزينب مُتَفَضِّلة (١) فى منزلها ، فرأى زينب فوقعت فى نفسه ، ووقع فى نفس زينب أنها وقعت فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك لما جاء يطلب زيدا ، فجاء زيد فأخبرته بذلك ، فوقع فى نفس زيد أن يطلقها . وقال ابن عباس : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ﴾ الحبّ لها . ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ أى تستحييهم . وقيل : تخاف وتكره لائمة المسلمين لو قلت طلّقها ، ويقولون أمر رجلا بطلاق امرأته ثم نكحها حين طلقها . ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ فى كل الأحوال . وقيل : والله أحق أن تستحى منه، ولا تأمر زيدا بإمساك زوجته بعد أن أعلمك الله أنها ستكون زوجتك، فعاتبه الله على جميع هذا . وروى عن علىّ بن الحسين : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيدا يطلق زينب ، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها ، فلما تشكّى زيد للنبيّ صلى الله عليه وسلم خُلُقَ زينب ، وأنها لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقها ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على جهة الأدب والوصية : "اتق الله فى قولك وأمسك عليك زوجك" وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوّجها، وهذا هو الذى أخفى فى نفسه، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوّجها ؛ وخشى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحقه قول من الناس فى أن يتزوّج زينب بعد زيد، وهو مولاه ، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشى الناس فى شىء قد أباحه الله له ، بأن قال : «أمسك» مع علمه بأنه يطلّق . وأعلمه أن الله أحق بالخشية، أى فى كل حال . قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وهذا القول أحسن ماقيل فى تأويل هذه الآية، وهو الذى

(١) تفضلت المرأة : لبست ثياب مهنتها . أو كانت فى ثوب واحد .

Marfat.com

عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين ؛ كالزهري والقاضي بكر بن العلاء القشيري[1] ، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم . والمراد بقوله تعالى : «وَتَخْشَى النَّاسَ» إنما هو إرجاف المنافقين بأنه نَهَى عن تزويج نساء الأبناء وتزوج بزوجة ٱبنه . فأما ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم هَوِى زينب ٱمرأة زيد — وربما أطلق بعض المُجّان لفظ عَشِق — فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل هذا ، أو مستخِفّ بحرمته . قال الترمذي الحكيم في نوادر الأصول ، وأسند إلى علي بن الحسين قولَه : فعلي بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جوهرا من الجواهر ، ودُرًّا من الدّرر ، أنه إنما عَتَب الله عليه في أنه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك ، فكيف قال بعد ذلك لزيد : "أمسك عليك زوجك" وأخذتك خشية الناس أن يقولوا : تزوج ٱمرأة ٱبنه ، والله أحق أن تخشاه . وقال النحاس : قال بعض العلماء : ليس هــذا من النبي صــلى الله عليه وســلم خطيئة ؛ ألا ترى أنه لم يؤمر بالتــوبة ولا بالاستغفار منــه . وقد يكون الشيء ليس بخطيئة إلا أن غيره أحسن منه ، وأخفى ذلك في نفسه خشية أن يفتتن الناس .

الثانيــة — قال ٱبن العربي : فإن قيل لأي معنى قال له : "أمسك عليك زوجك" وقد أخبره الله أنها زوجه . قلنا : أراد أن يختبر منه مالم يعلمه الله من رغبته فيها أو رغبته عنها ؛ فأبدى له زيد من النُّفْرة عنها والكراهة فيهــا مالم يكن علمه منه في أمرها . فإن قيل : كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لا بدّ منه ؟ وهذا تناقض . قلنا : بل هو صحيح للمقاصد الصحيحة ؛ لإقامة الحجة ومعرفة العاقبة ؛ ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن ، فليس في مخالفة متعلّق الأمر لمتعلّق العلم ما يمنع من الأمر به عقلا وحكما . وهذا من نفيس العــلم فتيقنوه وتقبلوه وقوله : « وَٱتَّقِ ٱللَّهَ » أي في طلاقها ، فلا تطلّقها . وأراد نهى تنزيه لا نهى تحريم ، لأن الأولى ألا يطلق . وقيــل : « ٱتَّقِ ٱللَّهَ » فلا تذمها بالنسبة

---

(١) هو القاضي بكر بن محمد بن العلاء القشيري ، الفقيه المالكي ولي قضاء العراق . له كتاب في الأحكام والردّ على المزني والأشربة ، ورد فيه على الطحاوي ، وكتاب في الأصول ، والردّ على القدرية والردّ على الشافعي . توفي سنة ٣٤٣ هـ (الوافي بالوفيات للصفدي) .

Marfat.com

إلى الكِبْر وأذى الزوج . « وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ » قيل تعلّق قلبه . وقيل : مفارقة زيد إياها .
وقيل : علمه بأن زيدا سيطلقها ؛ لأن الله قد أعلمه بذلك .

الثالثة — روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لزيد : "ما أجد فى نفسى أوثق منك فاخطب زينب علىّ" قال : فذهبت ووليّتها ظهرى توقيرا للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وخطبتها ففرحت وقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامِر ربّى(١) ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن ، فتزوجها النبيّ صلى الله عليه وسلم ودخل بها .

قلت : معنى هذا الحديث ثابت فى الصحيح . وترجم له النسائى (صلاة المرأة إذا خُطبت واستخارتها ربّها) روى الأئمة — واللفظ لمسلم — عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد : " فاذكرها علىّ " قال : فانطلق زيد حتى أتاها وهى تُخَمّر عجينها . قال : فلما رأيتها عَظُمت فى صدرى ، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فولّيتها ظهرى ، ونَكَصْتُ على عقبى ، فقلت : يا زينب ، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ؛ قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامِر ربّى ؛ فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن . قال : فقال ولقد رأيتُنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا الخبز واللحم حين امتدّ النهار ... الحديث . فى رواية " حتى تركوه " . وفى رواية عن أنس أيضا قال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أَوْلَم على امرأة [من نسائه](٢) ما أوْلَم على زينب ؛ فإنه ذبح شاة . قال علماؤنا : فقوله عليه السلام لزيد : " فاذكرها علىّ " أى اخطبها ؛ كما بيّنه الحديث الأول . وهذا امتحان لزيد واختبار له ، حتى يظهر صبره وانقياده وطوعه .

قلت : وقد يستنبط من هذا أن يقول الإنسان لصاحبه : اخطب علىّ فلانة ، لزوجه المطلقة منه ، ولا حرج فى ذلك . والله أعلم .

---

(١) آمره فى أمره ، ووامره واستأمره : شاوره .

(٢) زيادة من مسلم .

Marfat.com

الرابعة — لما وكلت أمرها إلى الله وصح تفويضها إليه تولى الله إنكاحها ؛ ولذلك قال : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ . وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وسلم « وَطَرًا زَوَّجْتُكَهَا » . ولما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق، ولا شيء مما يكون شرطا في حقوقنا[1] ومشروعا لنا . وهذا من خصوصياته صلى الله عليه وسلم ، التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع من المسلمين . ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النبي صلى الله عليه وسلم وتقول : زوجكنّ آباؤكنّ وزوّجني الله تعالى . أخرجه النسائي عن أنس بن مالك قال : كانت زينب تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم تقول : إن الله عز وجل أنكحني من السماء . وفيها نزلت آية الحجاب ؛ وسيأتي .

الخامسة — المُنْعَم عليه في هذه الآية هو زيد بن حارثة ، كما بيناه؛ وقد تقدّم خبره في أول السورة[2] . وروى أن عمّه لقيه يوما وكان قد ورد مكة في شغل له ، فقال : ما اسمك يا غلام ؟ قال : زيد؛ قال : ابن من ؟ قال : ابن حارثة . قال ابن من ؟ قال : ابن شراحيل الكلبي . قال: فما اسم أمك؟قال: سُعْدَى ، وكنت في أخوالي طيّ؛ فضمّه إلى صدره . وأرسل إلى أخيه وقومه فحضروا ، وأرادوا منه أن يقيم معهم؛ فقالوا : لمن أنت ؟ قال : لمحمد ابن عبد الله؛ فأتوه وقالوا : هذا ابننا فردّه علينا . فقال: " أعرِضُ عليه فإن اختاركم فخذوا بيده " فبعث إلى زيد وقال : " هل تعرف هؤلاء " ؟ قال نعم ! هذا أبي، وهذا أخي، وهذا عمي . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " فأيّ صاحب كنتُ لك " ؟ فبكى وقال : لِمَ سألتني عن ذلك ؟ قال : " أخيّرك فإن أحببت أن تلحق بهم فالحق وإن أردت أن تقيم فأنا مَن قد عرفتَ " فقال : ما أختار عليك أحدا . فجذبه عمّه وقال : يا زيد ، اخترت العبوديّة على أبيك وعمك ! فقال : أيْ واللهِ العبودية عند محمد أحبّ إليّ من أن أكون عندكم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اشهدوا أني وارث وموروث " . فلم يزل يقال : زيد بن محمد إلى أن نزل قوله تعالى : « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ » ونزل « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ » .

(١) في ش : « حقوقها » . (٢) راجع ص ١١٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

السادسة — قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السُّهيلي رضى الله عنه : كان يقال زيد بن محمد حتى نزل « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ » فقال : أنا زيد بن حارثة . وحرم عليه أن يقول : أنا زيد بن محمد . فلما نُزِع عنه هذا الشرف وهذا الفخر(١)، وعلِم الله وحشته من ذلك شرّفه بخصّيصة لم يكن يَخُصّ بها أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى أنه سماه فى القرآن ؛ فقال تعالى : « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا » يعنى من زينب . ومَن ذكره الله تعالى باسمه فى الذكر الحكيم حتى صار آسمه(٢) قرآنا يُتْلَى فى المحاريب، نوّه به غاية التنويه؛ فكان فى هذا تأنيس له وعوض من الفخر بأبوّة محمد صلى الله عليه وسلم له . ألا ترى إلى قول أُبَىّ ابن كعب حين قال له النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله أمرنى أن أقرأ عليك سورة كذا " فبكى وقال : أوَذُكِرتُ هنالك ؟ وكان بكاؤه من الفرح حين أخبر أن الله تعالى ذكره؛ فكيف بمن صار آسمه قرآنا يُتلى مخلَّدا لا يبيد، يتلوه أهل الدنيا إذا قرءوا القرآن، وأهل الجنة كذلك أبدا ، لا يزال على ألسنة المؤمنين ، كما لم يزل مذكورا على الخصوص عند رب العالمين ؛ إذ القرآن كلام الله القديم ، وهو باق لا يبيد؛ فاسم زَيْد هذا فى الصحف المكرّمة المرفوعة المطهرة ، تذكره فى التلاوة السَّفَرةُ الكرام البَرَرَة . وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبيّ من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضا من الله تعالى له مما نُزِع عنه . وزاد فى الآية أن قال : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » أى بالإيمان؛ فدلّ على أنه من أهل الجنة، علِم ذلك قبل أن يموت، وهذه فضيلة أخرى .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَطَرًا ﴾ الوَطَر كلّ حاجة للمرء له فيها همّة؛ والجمع الأوطار . قال ابن عباس : أى بلغ ما أراد من حاجته؛ يعنى الجماع . وفيه إضمار؛ أى لما قضى وطره منها وطلّقها « زَوّجْنَاكَهَا » . وقراءة أهل البيت « زوّجْتُكَها » . وقيل : الوطر عبارة عن الطلاق؛ قاله قتادة .

الثامنة — ذهب بعض الناس من هذه الآية ، ومن قول شعيب : « إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ »(٣) إلى أن ترتيب هذا المعنى فى المهور ينبغى أن يكون : « أنكحه إياها » فتقدّم

(١) فى الأصول : « ... وهذا الفخر منه » بزيادة لفظة « منه » .
(٢) لفظة « اسمه » ساقطة من الأصل المطبوع . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٧١ .

Marfat.com

ضمير الزوج كما في الآيتين . وكذلك قوله عليه السلام لصاحب الرداء " اذهب فقد أنكحتكها بما معك من القرآن " . قال ابن عطية : وهذا غير لازم ؛ لأن الزوج في الآية مخاطب لحسن تقديمه، وفي المهور الزوجان [سواء]، فقدّم من شئت، ولم يبق ترجيح إلا بدرجة الرجال، وأنهم القوامون .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ دليل على ثبوت الولي في النكاح ؛ وقد تقدّم الخلاف في ذلك (١) . روى أن عائشة وزينب تفاخرتا، فقالت عائشة : أنا التي جاء بي الملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم في سَرَقة (٢) من حرير فيقول : " هذه امرأتك " خرّجه الصحيح . وقالت زينب : أنا التي زوّجني الله من فوق سبع سموات . وقال الشعبي : كانت زينب تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأَدِلّ عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تَدِلّ بهنّ — : إن جدّي وجدّك واحد ، وإن الله أنكحك إيّاى من السماء ، وإن السّفير في ذلك جبريل . وروى عن زينب أنها قالت : لما وقعت في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستطعني زيد، وما أمتنع منه غير ما يمنعه الله تعالى منّي فلا يقدر عليّ .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة . أعلمهم أن هذا ونحوه هو السّنن الأقدم في الأنبياء أن ينالوا ما أحلّه لهم؛ أى سَنّ لمحمد صلى الله عليه وسلم التوسعة عليه في النكاح سُنّة الأنبياء الماضية ؛ كداود وسليمان . فكان لداود مائة امرأة وثلاثمائة سُرّية ، ولسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سُرّية . وذكر الثعلبي عن مقاتل وابن الكلبي أن الإشارة إلى داود عليه السلام؛ حيث جمع الله بينه وبين من فُتن بها .

(١) راجع جـ ٣ ص ٧٢ فما بعدها . (٢) السرق (بفتحتين) : شقق الحرير الأبيض .

Marfat.com

و « سُنَّةَ » نصب على المصدر؛ أى سَنّ الله له سُنة واسعة . و « الَّذِينَ خَلَوْا » هم الأنبياء؛ بدليل وصفهم بعدُ بقوله : « الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ » .

قوله تعـالى : مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً ﴿٤٠﴾

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى ــ لمـا تزوج زينب قال الناس : تزوج امرأة ابنه ؛ فنزلت الآية ؛ أى ليس هو بأبنه حتى تحرم عليه حليلته ، ولكنه أبو أمّته فى التبجيل والتعظيم ، وأن نساءه عليهم حرام. فأذهب الله بهذه الآية ما وقع فى نفوس المنافقين وغيرهم ، وأعلم أن محمدا لم يكن أبا أحد من الرجال المعاصرين له فى الحقيقة . ولم يقصد بهذه الآية أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يكن له ولد ، فقد ولد له ذكور : إبراهيم ، والقاسم ، والطيّب ، والمطهّر؛ ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلا . وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ، ولم يكونا رجلين معاصرَين له .

الثانيــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَٰكِن رَسُولَ اللهِ ﴾ قال الأخفش والفراء : أى ولكن كان رسـول الله . وأجازا « ولكنْ رسولُ الله وخاتمُ » بالرفع . وكذلك قرأ ابن أبى عبْلة وبعض الناس « ولكنْ رسولُ اللهِ » بالرفع؛ على معنى هو رسول الله وخاتم النبيين . وقرأت فرقة «ولكنّ» بتشديد النون ، ونصب «رسول الله» على أنه اسم «لكنّ» والخبر محذوف . « وَخَاتَمَ » قرأ عاصم وحده بفتح التـاء ، بمعنى أنهـم به خُتموا ؛ فهو كالخاتَم والطابَع لهم . وقرأ الجمهور بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم ؛ أى جاء آخرهم . وقيل : الخاتم والخاتِم لغتان ؛ مثل طابَع وطابِـع ، ودانَق ودانِق ، وطابَق من اللحم وطابِق .

الثالثــة ــ قال ابن عطية : هــذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمّة[(١)] خَلَفًا وسلَفًا متلقاة على العموم التام مقتضية نصًّا أنه لا نبىّ بعده صلى الله عليه وسلم.وما ذكره القاضى أبو الطيّب فى كتابه المسمّى بالهداية : من تجويز الاحتمال فى ألفاظ هذه الآية ضعيف . وما ذكره الغزالى

(١) فى جـ، ش : «الأئمة» .

Marfat.com

فى هذه الآية ، وهذا المعنى فى كتابه الذى سمّاه بالاقتصاد، إلحاد عندى ، وتطرّق خبيث إلى تشويش عقيدة المسلمين فى ختم محمد صلى الله عليه وسلم النبوّة ؛ فالحذرَ الحذرَ منه ! والله الهادى برحمته .

قلت : وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا نبوّة بعدى إلا ما شاء الله". قال أبو عمر : يعنى الرؤيا — والله أعلم — التى هى جزء منها ؛ كما قال عليه السلام : "ليس يبق بعدى من النبوّة إلا الرؤيا الصالحة" . وقرأ ابن مسعود « من رجالكم ولكن نبياً ختم النبيين » . قال الرُّمّانى : ختم به عليه الصلاة والسلام الاستصلاح، فمن لم يصلح به فميئوس من صلاحه .

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : "بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق" . وفى صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَثَلى ومَثَلُ الأنبياء كمثَل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها إلا موضع لَبِنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجّبون منها ويقولون لولا موضِعُ اللَّبِنة ! — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — فأنا موضع اللَّبِنة جئت فختمتُ الأنبياء" . ونحوه عن أبى هريرة ، غير أنه قال : فأنا اللَّبِنة وأنا خاتَم النبيين" .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾

أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه ، ويكثروا من ذلك على ما أنعم به عليهم ، وجعل تعالى ذلك دون حدّ لسهولته على العبد . ولعظم الأجر فيه قال ابن عباس : لم يُعذر أحد فى ترك ذكر الله إلا من غُلب على عقله . وروى أبو سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون" . وقيل : الذكر الكثير ما جرى على الإخلاص من القلب ، والقليل ما يقع على حكم النفاق كالذكر باللسان .

قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

أى اشغلوا ألسنتكم فى معظم أحوالكم بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير . قال مجاهد : وهذه كلمات يقولهن الطاهر والمحدِث والجنب . وقيل : ادعوه . قال جرير :

Marfat.com

فلا تنس تسبيح الضحى إن يوسفا * دعا ربه فاختاره حين سبحا

وقيل : المراد صلّوا لله بكرة وأصيلا ؛ والصلاة تسمّى تسبيحا . وخص الفجر والمغرب والعشاء بالذكر لأنها أحق بالتحريض عليها ، لاتصالها بأطراف الليل.[١] وقال قتادة والطبرى : الإشارة إلى صلاة الغداة وصلاة العصر . والأصيل : العشيّ وجمعه أصائل . والأصُل بمعنى الأصيل ، وجمعه آصال ؛[٢] قاله المبرد . وقال غيره : أُصُل جمع أصيل ؛ كرغيف ورغف . وقد تقدم .

مسألة — هذه الآية مدنيّة ، فلا تعلّق بها لمن زعم أن الصلاة إنما فرضت أوّلا صلاتين فى طرفى النهار . والرواية بذلك ضعيفة فلا التفات إليها ولا معوّل عليها . وقد مضى الكلام فى كيفية فرض الصلاة وما للعلماء فى ذلك فى « سبحان »[٣] والحمد لله .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ قال ابن عباس : لما نزل « إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ » قال المهاجرون والأنصار : هذا لك يا رسول الله خاصّةً ، وليس لنا فيه شىء ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قلت : وهذه نعمة من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النعم ؛ ودليل على فضلها[٤] على سائر الأمم . وقد قال : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ »[٥] . والصلاة من الله على العبد هى رحمته له وبركته لديه . وصلاة الملائكة : دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم ؛ كما قال : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا »[٦] وسيأتى . وفى الحديث : أن بنى إسرائيل سألوا موسى عليه السلام : أيُصلّى ربك جل وعز ؟ فأعظم ذلك ؛ فأوحى الله جل وعز : «إن صلاتى بأن رحمتى سبقت غضبى» ذكره النحاس . وقال ابن عطية : وروت فرقة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم

(١) فى ك : « بأطراف النهار » . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٥٥ (٣) راجع جـ ١٠ ص ٢١٠
(٤) فى ا ، جـ ، ش : «وفضيلتها» . (٥) راجع جـ ٤ ص ١٧٠ (٦) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٣ فما بعد .

Marfat.com

قيل له : يا رسول الله ، كيف صلاة الله على عباده . قال : "سبُّوح قُدّوس – رحمتي سبقت غضبي" . واختلف في تأويل هذا القول ؛ فقيل : إنه كلمة من كلام الله تعالى وهي صلاته على عباده . وقيل سُبُّوح قُدّوس من كلام(١) محمد صلى الله عليه وسلم ، وقدّمه بين يدي نطقه باللفظ الذي هو صلاة الله وهو " رحمتي سبقت غضبي " من حيث فهم من السائل أنه توهّم في صلاة الله على عباده وجهًا لا يليق بالله عز وجل ؛ فقدّم التنزيه والتعظيم بين يدي إخباره.

قوله تعالى : ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أي من الضلالة إلى الهدى . ومعنى هذا التثبيت على الهداية ؛ لأنهم كانوا في وقت الخطاب على الهداية . ثم أخبر تعالى برحمته بالمؤمنين تأنيسًا لهم فقال : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾.

قوله تعالى : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

اختلف في الضمير الذي في « يَلْقَوْنَهُ » على من يعود ؛ فقيل على الله تعالى ، أي كان بالمؤمنين رحيما ، فهو يؤمنهم من عذاب الله يوم القيامة . وفي ذلك اليوم يلقونه . و﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ أي تحية بعضهم لبعض . ﴿ سَلَامٌ ﴾ أي سلامة لنا ولكم من عذاب الله . وقيل : هذه التحية من الله تعالى ؛ المعنى : فيسلّمهم من الآفات ، أو يبشرهم بالأمن من المخافات ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أي يوم القيامة بعد دخول الجنة . قال معناه الزجاج ؛ واستشهد بقوله جل وعز : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ »(٢) . وقيل : « يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ » أي يوم يلقون مَلَك الموت ؛ وقد ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سلّم عليه . روى عن البَرَاء بن عازِب قال : « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ » فيسلّم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه ، لا يقبض روحه حتى يسلّم عليه .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾

(١) في ا ، ح ، ش : « كلام » من كلام .   (٢) راجع جـ ٨ ص ٣١٣

Marfat.com

هذه الآية فيها تأنيس للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللؤمنين ، وتكريم لجميعهم . وهذه الآية تضمنت من أسمائه صلى الله عليه وسلم ستة أسماء ولنبيّنا صلى الله عليه وسلم أسماء كثيرة وسمات جليلة ، ورد ذكرها فى الكتاب والسنة والكتب المتقدّمة . وقد سماه الله فى كتابه محمدا وأحمد . وقال صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه الثقات العدول : " لى خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب " . وفى صحيح مسلم من حديث جُبير بن مُطْعِم : وقد سماه الله « رَءُوفًا رَحِيماً » . وفيه أيضا عن أبى موسى الأشعرىّ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمّى لنا نفسه أسماء ، فيقول : « أنا محمد وأحمد والمُقَفِّى والحاشر ونبيّ التوبة ونبيّ الرحمة » . وقد تتبع القاضى أبو الفضل عِياض فى كتابه المسمّى (بالشِّفا) ما جاء فى كتاب الله وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومما نقل فى الكتب المتقدّمة (1) ، وإطلاق الأمة أسماء كثيرة وصفات عديدة ، قد صدقت عليه صلى الله عليه وسلم مُسَمَّياتها ، ووجدت فيه معانيها . وقد ذكر القاضى أبو بكر بن العربىّ فى أحكامه فى هذه الآية من أسماء النبيّ صلى الله عليه وسلم سبعة وستين اسما . وذكر صاحب (وسيلة المتعبدين إلى متابعة سيد المرسلين) عن ابن عباس أن لمحمد صلى الله عليه وسلم مائة وثمانين اسما ، من أرادها وجدها هناك . وقال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا ومعاذا ، فبعثهما إلى اليمن ، وقال : "اذهبا فبشِّرا ولا تُنَفِّرا ، ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا فإنه قد أنزل علىّ ..." وقرأ هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ شَاهِدًا ﴾ قال سعيد عن قتادة : « شاهدًا » على أمته بالتبليغ إليهم ، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم ؛ ونحو ذلك . ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ معناه للؤمنين برحمة الله وبالجنة . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ معناه للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد . ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ ﴾ الدعاء إلى الله هو تبليغ التوحيد والأخذ به ، ومكافحة الكفرة . و﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ هنا معناه : بأمره إياك ، وتقديره ذلك فى وقته وأوانه . ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ هنا استعارة للنور الذى يتضمنه شرعه .

(1) فى ا و ش : « القديمة » .

Marfat.com

وقيل : « وَسِرَاجًا » أى هاديا من ظلم الضلالة ؛ وأنت كالمصباح المضيء . ووصفه بالإنارة لأن من السُّرُج ما لا يضيء ، إذا قَلّ سليطه(١) ودَقّت فتيلته . وفي كلام بعضهم : ثلاثة تُضْنِي : رسول بطيء ، وسراج لا يضيء ، ومائدة ينتظر لها من يجيء . وسئل بعضهم عن الموحشَيْن فقال : ظلام ساتر وسراج فاتر ، وأسند النحاس قال : حدّثنا محمد بن إبراهيم الرازى قال حدّثنا عبد الرحمن بن صالح الأزدى قال حدّثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن شَيبان النحوى قال حدّثنا قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا ومعاذا فقال : " انطلقا فبشِّرا ولا تُعَسِّرا فإنه قد نزل عليّ الليلة آية « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » — من النار — وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ — قال — شهادة أن لا إله إلا الله — بِإِذْنِهِ — بأمره — وَسِرَاجًا مُنِيرًا — قال — بالقرآن " . وقال الزجاج : « وَسِرَاجًا » أى وذا سراج مُنير ؛ أى كتاب نَيِّر . وأجاز أيضا أن يكون بمعنى : وتاليًا كتاب الله .

قوله تعالى : وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الواو عاطفة جملة على جملة ؛ والمعنى منقطع من الذى قبله . أمره تعالى أن يبشر المؤمنين بالفضل الكبير من الله تعالى . وعلى قول الزجاج : ذا سراج منير ، أو وتاليًا سراجًا منيرا ، يكون معطوفا على الكاف لا في « أَرْسَلْنَاكَ » . قال ابن عطية : قال لنا أَبِي رضى الله عنه : هذه من أرجى آية عندى فى كتاب الله تعالى ؛ لأن الله عز وجل قد أمر نبيّه أن يبشّر المؤمنين بأن لهم عنده فضلا كبيرا ؛ وقد بيّن تعالى الفضل الكبير فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ

(١) السليط : الزيت .

Marfat.com

عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ (١) » . فالآية التى فى هذه السورة خبر ، والتى فى « حم . عسق » تفسير لها . ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ ﴾ أى لا تطعهم فيما يشيرون عليك من المداهنة فى الدين ولا تمالئهم . « ٱلْكَافِرِينَ » : أبى سفيان وعكرمة وأبى الأعور السُّلَمِىّ ؛ قالوا : يا محمد ، لا تذكر آلهتنا بسوء نتبعك . « وَٱلْمُنَافِقِينَ » : عبد الله بن أُبَىّ وعبد الله ابن سعد وطُعْمة بن أُبَيْرِق ، حثّوا النبىّ صلى الله عليه وسلم على إجابتهم بتعِلّة المصلحة . ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ أى دع أن تؤذيهم مجازاة على إذايتهم إياك (٢) . فأمره تبارك وتعالى بترك معاقبتهم ، والصفح عن زللهم ؛ فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول . ونُسخ من الآية على هذا التأويل مايخصّ الكافرين ، وناسخه آية السيف . وفيه معنى ثانٍ : أى أعرض عن أقوالهم وما يؤذونك ، ولا تشتغل به ؛ فالمصدر على هذا التأويل مضاف إلى الفاعل . وهذا تأويل مجاهد ، والآية منسوخة بآية السيف . ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أمره بالتوكل عليه وآنسه بقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ وفى قوة الكلام وعدٌ بنصر . والوكيل : الحافظ القائم على الأمر .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ ﴾ لما جرت قصة زيد وتطليقه زينب ، وكانت مدخولا بها ، وخطبها النبىّ صلى الله عليه وسلم بعد انقضاء عدّتها — كما بيّناه — خاطب الله المؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل البناء ، وبيّن ذلك الحكم للأمة ؛ فالمطلّقة إذا لم تكن ممسوسةً لا عدّة عليها بنص الكتاب وإجماع الأمة على ذلك . فإن دخل بها فعليها العدّة إجماعا .

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٠ (٢) فى الأصول : « على إذايتك إياهم » .

Marfat.com

الثانيــة — النكاح حقيقة فى الوطء، وتسمية العقد نكاحا لملابسته له من حيث إنه طريق إليه . ونظيره تسميتهم الخمر إثما[1] لأنه سبب فى اقتراف الإثم . ولم يرد لفظ النكاح فى كتاب الله إلا فى معنى العقد، لأنه فى معنى الوطء، وهو من آداب القرآن، الكناية عنه بلفظ : الملامسة والمماسّة والقُربان والتغشّى والإتيان .

الثالثــة — استدل بعض العلماء بقوله تعالى : « ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ » وبمهلة « ثُمَّ » على أن الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح، وأن من طلّق المرأة قبل نكاحها وإن عيّنها، فإن ذلك لا يلزمه . وقال هذا نَيِّفٌ على ثلاثين من صاحبٍ وتابعٍ وإمامٍ . سمّى البخارى منهم اثنين وعشرين[2] . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم "لا طلاق قبل نكاح" ومعناه : أن الطلاق لا يقع حتى يحصل النكاح . قال حبيب بن أبى ثابت : سئل على بن الحسين رضى الله عنهما عن رجل قال لامرأة : إن تزوجتك فأنت طالق ؟ فقال : ليس بشىء، ذكر الله عز وجل النكاح قبل الطلاق . وقالت طائفة من أهل العلم : إن طلاق المعيّنة الشخص أو القبيلة أو البلد لازم قبل النكاح؛ منهم مالك وجميع أصحابه، وجمع عظيم من علماء الأمة . وقد مضى فى «براءة»[3] الكلام فيها ودليل الفريقين . والحمد لله . فإذا قال : كل امرأة أتزوجها [طالق] وكل عبد أشتريه حرّ؛ لم يلزمه شىء . وإن قال : كلّ امرأة أتزوجها إلى عشرين سنة ، أو إن تزوجت من بلد فلان أو من بنى فلان فهى طالق ، لزمه الطلاق ما لم يخف العَنَت على نفسه فى طول السنين، أو يكون عمره فى الغالب لا يبلغ ذلك ، فله أن يتزوج . وإنما لم يلزمه الطلاق إذا عمّ لأنه ضيّق على نفسه المناكح، فلو منعناه ألّا يتزوج لحرج[4] وخيف عليه العنت . وقد قال بعض أصحابنا : إنه إن وجد ما يتسرر به لم ينكح؛ وليس بشىء ، وذلك أن الضرورات والأعذار ترفع الأحكام، فيصير هذا من حيث الضرورة كمن لم يحلف، قاله ابن خُوَيْزِمَنْدَاد .

---

(١) الخمر : تؤنث وتذكر ؛ والتأنيث أكثر . (٢) الذى سماهم البخارى فى (باب لا طلاق قبل النكاح) أربعة وعشرون . (٣) راجع جـ ٨ ص ٢١١ (٤) حرج : أثم .

Marfat.com

الرابعـة — استدلّ داود — ومن قال بقوله — ان المطلقة الرجعية إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضى عدّتها ثم فارقها قبل أن يمسها، أنه ليس عليها أن تتم عدّتها ولا عدّة مستقبلة؛ لأنها مطلقة قبل الدخول بها . وقال عطاء بن أبى رباح وفرقة : تمضى فى عدّتها من طلاقها الأول — وهو أحد قولى الشافعى — ؛ لأن طلاقه لها إذا لم يمسها فى حكم من طلقها فى عدّتها قبل أن يراجعها . ومن طلّق امرأته فى كل طُهر مرّة بنت ولم تستأنف . وقال مالك : إذا فارقها قبل أن يمسها إنها لا تبنى على ما مضى من عدّتها ، وإنها تنشىء من يوم طلقها عدّة مستقبلة . وقد ظلم زوجها نفسه وأخطأ إن كان آرتجعها ولا حاجة له بها . وعلى هذا أكثر أهل العلم؛ لأنها فى حكم الزوجات المدخول بهن فى النفقة والسكنى وغير ذلك ؛ ولذلك تستأنف العدّة من يوم طلقت، وهو قول جمهور فقهاء البصرة والكوفة ومكة والمدينة والشام . وقال الثورىّ : أجمع الفقهاء عندنا على ذلك .

الخامسـة — فلو كانت بائنة غير مبتوتة فتزوّجها فى العدّة ثم طلّقها قبل الدخول فقد اختلفوا فى ذلك أيضا ، فقال مالك والشافعىّ وزفر وعثمان البتّى : لها نصف الصداق وتتم بقية العدّة الأولى. وهو قول الحسن وعطاء وعكرمة وابن شهاب. وقال أبو حنيفة وأبو يوسف والثّورىّ والأوزاعىّ : لها مهر كامل للنكاح الثانى وعدّة مستقبلة. جعلوها فى حكم المدخول بها لاعتدادها من مائه . وقال داود : لها نصف الصداق ، وليس عليها بقية العدّة الأولى ولا عدّة مستقبلة . والأولى ما قاله مالك والشافعىّ ، والله أعلم .

السادسـة — هذه الآية مخصصة لقوله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » (١) ، ولقوله : « وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ » (٢) . وقد مضى فى « البقرة » ، ومضى فيها الكلام فى المتعة (٢) ، فأغنى عن الإعادة هنا . ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه دفع المتعة بحسب الميسرة والعسرة ، قاله

(١) راجع ج ١٨ ص ١٦٢ (٢) راجع ج ٣ ص ١١٢ فما بعد، وص ٢٠٠ فما بعد .

Marfat.com

ابن عباس . الثـانى — أنه طلاقها طاهرا من غير جماع ؛ قاله قتادة . وقيل : فسرحوهنّ بعد الطلاق إلى أهلهنّ ، فلا يجتمع الرجل والمطلّقة فى موضع واحد .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ قال سعيد: هى منسوخة بالآية التى فى البقرة، وهى قوله : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَافَرَضْتُمْ » أى فلم يذكر المتعة . وقد مضى الكلام فى هذا فى « البقرة »(١) مستوفى . وقوله : « وَسَرِّحُوهُنَّ » طلّقوهنّ . والتسريح كناية عن الطلاق عند أبى حنيفة، لأنه يستعمل فى غيره فيحتاج إلى النية. وعند الشافعى صريح . وقد مضى فى «البقرة»(١) القول فيه فلا معنى للإعادة . ﴿جَمِيلًا﴾ سُنّة ، غير بدْعة .

قوله تعـالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

فيــه تسع عشرة مسألة :

الأولى — روى السّدى عن أبى صالح عن أم هانئ بنت أبى طالب قالت : خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرنى(٢) ؛ ثم أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٠٤ وص ١٢٥   (٢) قالت : إنى امرأة مصبية (ذات صبيان) . وفى بعض الروايات : قالت يارسول الله ، لأنت أحب إلى من سمعى وبصرى وحق الزوج عظيم . فأخشى أن أضيع حق الزوج .

Marfat.com

عَمَّـاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ قالت : فلم أكن أحل له ؛ لأنى لم أهاجر، كنت من الطُّلقاء . خرّجه أبو عيسى وقال : هـذا حديث حسن لا نعـرفه إلا من هذا الوجه . قال ابن العربي : وهو ضعيف جدا، ولم يأت هذا الحديث من طريق صحيح يُحتجّ بهـا .

الثانيــة — لمـا خير رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه فاخترنه ، حَرُم عليـه التزوج بغيرهن والاستبدال بهن ، مكافأة لهن على فعلهن . والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ الآية . وهل كان يحلّ له أن يطلق واحدة منهن بعد ذلك ؟ فقيل : لا يحل له ذلك جزاءً لهن على اختيارهن له . وقيل : كان يحلّ له ذلك كغيره من النـاس ولكن لا يتزوج بدلها . ثم نسخ هذا التحريم فأباح له أن يتزوج بمن شاء عليهن من النساء ، والدليل عليـه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ والإحلال يقتضى تقـدّم حَظْر . وزوجاته اللاتى فى حياته لم يكنّ محرمات عليـه ، وإنمـا كان حرم عليه التزويج بالأجنبيات فانصرف الإحلال إليهن ، ولأنه قال فى سـياق الآية ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ ﴾ الآية . ومعلوم أنه لم يكن تحتـه أحد من بنات عمه ولا من بنات عماته ولا من بنـات خاله ولا من بنات خالاته ، فثبت أنه أحلّ له التزويج بهذا ابتداء . وهذه الآية وإن كانت مقدمة فى التلاوة فهى متأخرة النزول على الآية المنسوخة بها ، كآيتى الوفاة فى « البقرة »(١) .

وقد اختلف الناس فى تأويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ فقيل : المراد بها أن الله تعالى أحلّ له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها، قاله ابن زيد والضحاك . فعلى هذا تكون الآية مبيحة جميع النساء حاشا ذوات المحارم . وقيل : المراد أحللنا لك أزواجك، أى الكائنات عندك، لأنهن قد اخترنك على الدنيا والآخرة، قاله الجمهور من العلماء . وهو الظاهر، لأن قوله : « آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ » ماض، ولا يكون الفعل المـاضى بمعنى الاستقبال إلا بشروط . ويجىء الأمر على هذا التأويل ضيّقًا على النبي صلى الله عليه وسلم . ويؤيد هذا التأويل ما قاله

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٧٣ و ٢٢٦

Marfat.com

ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوج فى أىّ الناس شاء ، وكان يشقّ ذلك على نسائه، فلما نزلت هذه الآية وحرم عليه بها النساء إلا مَن سُمّيَ ، سُرّ نساؤه بذلك .

قلت : والقول الأوّل أصح لما ذكرناه . ويدلّ أيضا على صحته ماخرّجه الترمذىّ عن عطاء قال: قالت عائشة رضى الله عنها : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحلّ الله تعالى له النساء . قال : هذا حديث حسن صحيح .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ أحلّ الله تعالى السرارى لنبيّه صلى الله عليه وسلم ولأمّته مطلقا، وأحل الأزواج لنبيّه عليه الصلاة والسلام مطلقا، وأحلّه للخلق بعدَدٍ . وقوله : ﴿ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أى ردّه عليك من الكفار . والغنيمة قد تسمى فيئًا؛ أى مما أفاء الله عليك من النساء بالمأخوذ على وجه القهر والغلبة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ ﴾ أى أحللنا لك ذلك زائدا من الأزواج اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، على قول الجمهور؛ لأنه لو أراد أحللنا لك كل امرأة تزوجتَ وآتيت أجرها، لما قال بعد ذلك : «وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ» لأن ذلك داخل فيما تقدّم .

قلت : وهذا لا يلزم ، وإنما خصّ هؤلاء بالذكر تشريفا ؛ كما قال تعالى : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ »[(١)] . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ فيه قولان : الأوّل — لا يحلّ لك من قرابتك كبنات عمك العباس وغيره من أولاد عبد المطلب ، و بنات أولاد بنات عبد المطلب ، وبنات الخال من ولد بنات عبد مناف بن زُهْرة إلا من أسلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده والمهاجر من هجر ما نهى الله تعالى عنه" . الثانى — لا يحلّ لك منهن إلا من هاجر إلى المدينة؛ لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِم

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٨٥

Marfat.com

مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا[1] ﴾ ومن لم يهاجر لم يَكْمُل ، ومَن لم يكمل لم يصلح للنبيّ صلى الله عليه وسلم الذى كَمُل وشَرُف وعَظُم ، صلى الله عليه وسلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ مَعَكَ ﴾ المَعِية هنا الاشتراك فى الهجرة لا فى الصحبة فيها ؛ فمن هاجر حلّ له ، كان فى صحبته إذ هاجر أو لم يكن . يقال : دخل فلان معى وخرج معى ؛ أى كان عمله كعملى و إن لم يقترن فيه عَمَلُكما . ولو قلت : خرجنا معا لاقتضى ذلك المعنيين جميعا : الاشتراك فى الفعل ، والاقتران [فيه] .

السابعة — ذكر الله تبارك وتعالى العمّ فَرْدًا والعمّات جمعا . وكذلك قال : «خَالِكَ» ، « وَخَالَاتِكَ » والحكمة فى ذلك : أن العمّ والخال فى الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز ، وليس كذلك العمة والخالة . وهذا عُرْف لغوىّ ، فجاء الكلام عليه بغاية البيان لرفع الإشكال ، وهذا دقيق فتأملوه ؛ قاله ابن العربى .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً ﴾ عطف على « أَحْلَلْنَا » . المعنى وأحللنا لك امرأة تَهَب نفسها من غير صداق . وقد اختلف فى هذا المعنى؛ فروى عن ابن عباس أنه قال : لم تكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة إلا بعقد نكاح أو مِلك يمين . فأما الهبة فلم يكن عنده منهن أحد . وقال قوم : كانت عنده موهوبة .

قلت : والذى فى الصحيحين يقوّى هذا القول و يَعْضُده ؛ روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كنت أغار على اللاتى وَهَبْنَ أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : أما تستحى امرأة تَهَب نفسها لرجل ! حتى أنزل الله تعالى « تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ » فقلت : والله ما أرى رَبَّكَ إلا يسارع فى هواك . وروى البخارىّ عن عائشة أنها قالت : كانت خَوْلة بنت حكيم من اللائى وهبن أنفسهنّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فدلّ هذا على أنهن كنّ غير واحدة . والله تعالى أعلم . الزّمخشرىّ : وقيل الموهوبات أربع : ميمونة بنت الحارث ، و زينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وأم شريك بنت جابر ، وخَوْلة بنت حكيم .

(١) راجع جـ ٨ ص ٥٥

Marfat.com

قلت : وفى بعض هذا اختلاف . قال قتادة : هى ميمونة بنت الحارث .وقال الشعبيّ : هى زينب بنت خزيمـة أم المساكين آمرأة من الأنصار . وقال علىّ بن الحسين والضحاك ومقاتل : هى أم شريك بنت جابر الأسدية . وقال عروة بن الزبير : أم حكيم بنت الأوقص السـلمية .

التاسعة — وقد آختلف فى اسم الواهبة نفسها؛ فقيل هى أم شريك الأنصارية ،اسمها غُزِيّة . وقيل غُزَيلة . وقيل ليلى بنت حكيم . وقيل : هى ميمونة بنت الحارث حين خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم ، بفاءها الخاطب وهى على بعيرها فقالت : البعير وما عليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : هى أم شريك العامرية ، وكانت عند أبى العكر الأزدى . وقيل عند الطُّفيل بن الحارث فولدت له شريكا . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوّجها ؛ ولم يثبت ذلك . والله تعالى أعلم ؛ ذكره أبو عمر بن عبد البر . وقال الشعبيّ وعروة : هى زينب بنت خزيمة أم المساكين . والله تعالى أعلم .

العاشرة — قرأ جمهور الناس « إِنْ وَهَبَتْ » بكسر الألف ، وهـذا يقتضى استئناف الأمر ؛ أى إن وقع فهو حلال له . وقـد روى عن آبن عباس ومجاهد أنهما قالا : لم يكن عند النبيّ صلى الله عليه وسلم آمرأة موهوبة؛ وقد دللنا على خلافه . وروى الأئمة من طريق سهل وغيره فى الصحاح : أن آمرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت أهب لك نفسى ، فسكت حتى قام رجل فقال : زوِّجْنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فلوكانت هـذه الهبة غير جائزة لما سكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لا يقرّ على الباطل إذا سمعه ؛ غير أنه يحتمل أن يكون سكوته منتظرا بيانا ؛ فنزلت الآية بالتحليل والتخيير ، فاختار تركها وزوّجها من غيره . ويحتمل أن يكون سكت ناظرا فى ذلك حتى قام الرجل لها طالبا . وقرأ الحسن البصرىّ وأُبَىّ بن كعب والشعبيّ «أنْ» بفتح الألف . وقرأ الأعمش « وَٱمْرَأَةً مُؤْمِنَةً وَهَبَتْ» . قال النحاس : وكسر «إنْ» أجمع للمعانى ؛ لأنه قيل إنهن نساء . وإذا فتح كان المعنى على واحدة بعينها ؛ لأن الفتح على البدل من آمرأة ، أو بمعنى لأن .

Marfat.com

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مُؤْمِنَةً ﴾ يدلّ على أن الكافرة لا تحلّ له . قال إمام الحرمين : وقد اختلف فى تحريم الحرة الكافرة عليه . قال ابن العربيّ : والصحيح عندى تحريمها عليه. وبهذا يتميز علينا ؛ فإنه ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظه فيه أكثر، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أطهر ؛ فجوز لنا نكاح الحرائر الكتابيات ، وقصر هو صلى الله عليه وسلم لجلالته على المؤمنات . وإذا كان لا يحلّ له من لم تهاجر لنقصان فضل الهجرة فأحرى ألّا تحل له الكافرة الكتابية (١) لنقصان الكفر .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا ﴾ دليل على أن النكاح عقد معاوضة على صفات مخصوصة ، قد تقدمت فى «النساء» (٢) وغيرها . وقال الزجاج : معنى « إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ » حلّت . وقرأ الحسن : «أن وهبت» بفتح الهمزة . و «أن» فى موضع نصب . قال الزجاج : أى لأن . وقال غيره : « أن وهبت » بدل اشتمال من « امرأة » .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ أى إذا وهبت المرأة نفسها وقبلها النبيّ صلى الله عليه وسلم حلت له ، وإن لم يقبلها لم يلزم ذلك . كما إذا وهبت لرجل شيئا فلا يجب عليه القبول ؛ بَيْدَ أن من مكارم أخلاق نبيّنا أن يقبل من الواهب هبته . ويرى الأكارم أن ردّها هُجْنة فى العادة ، ووصمة على الواهب وأذيّة لقلبه ؛ فبيّن الله ذلك فى حق رسوله صلى الله عليه وسلم وجعله قرآنا يتلى ؛ ليرفع عنه الحرج ، ويبطل بُطْل الناس فى عادتهم وقولهم .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً لَكَ ﴾ أى هبة النساء أنفسهن خالصة ومزية لا تجوز ؛ فلا يجوز أن تهب المرأة نفسها لرجل . ووجه الخاصيّة أنها لو طلبت فرض المهر قبل الدخول لم يكن لها ذلك . فأما فيما بيننا فللمفوضة طلب المهر قبل الدخول، ومهر المثل بعد الدخول .

(١) فى ابن العربى « الحرة » . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٢٧ فما بعد .

Marfat.com

الخامسة عشرة — أجمع العلماء على أن هبة المرأة نفسها غير جائز[1]، وأن هذا اللفظ من الهبة لا يتم عليه نكاح ؛ إلا ما روى عن أبي حنيفة وصاحبيه فإنهم قالوا : إذا وهبت فأشهد هو على نفسه بمهر فذلك جائز . قال ابن عطية : فليس فى قولهم إلا تجويز العبارة ولفظة الهبة ، وإلا فالأفعال التى اشترطوها هى أفعال النكاح بعينه ، وقد تقدمت هذه المسألة فى « القصص » مستوفاة[2] . والحمد لله .

السادسة عشرة — خصّ الله تعالى رسوله فى أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد — فى باب الفرض والتحريم والتحليل — مزيّةً على الأمة وُهبت له[3] ، ومرتبة خصّ بها ؛ ففرضت عليه أشياء ما فرضت على غيره ، وحُرِّمت عليه أفعال لم تحرم عليهم ، وحللت له أشياء لم تحلل لهم ؛ منها متفق عليه ومختلف فيه .

فأما ما فُرض عليه فتسعة : الأوّل — التهجد بالليل ؛ يقال : إن قيام الليل كان واجبا عليه إلى أن مات ؛ لقوله تعالى : « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ[4] . قُمِ اللَّيْلَ » الآية . والمنصوص أنه كان واجبا عليه ثم نسخ بقوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ[5] » وسيأتى . الثانى — الضحا . الثالث — الأضحى . الرابع — الوتر ؛ وهو يدخل فى قسم التهجّد . الخامس — السواك . السادس — قضاء دين من مات معسرا . السابع — مشاورة ذوى الأحلام فى غير الشرائع . الثامن — تخيير النساء . التاسع — إذا عمـل عملا أثبته . زاد غيره : وكان يجب عليه إذا رأى منكرا أنكره وأظهره ، لأن إقراره لغيره على ذلك يدلّ على جوازه ، ذكره صاحب البيان .

وأما ما حرم عليـه فجملته عشرة : الأوّل — تحريم الزكاة عليـه وعلى آله . الثانى — صدقة التطوّع عليه ، وفى آله تفصيل باختلاف . الثالث — خائنة الأعين[6] ، وهو أن يظهر خلاف ما يضمر ، أو يخدع عما يجب . وقد ذمّ بعضَ الكفار عند إذنه ثم ألان له القول

(١) أى أمر غير جائز . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٧٢ . (٣) فى ابن العربى : « وهبة له » .
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٣٠ (٥) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٧ (٦) الخائنـة بمعنى الخيانة ، وهى من المصادر التى جاءت على لفظ الفاعلة كالعافيـة ؛ فاذا كف الإنسان لسانه وأوما بعينه فقد خان ، وإذا كان ظهور تلك الحالة من قبل العين سميت خائنة الأعين .

Marfat.com

عند دخوله[1] . الرابع — حرّم الله عليه إذا لبس لأْمته[2] أن يخلعها عنه أو يحكم الله بينه و بين محاربه . الخامس — الأكل متكئًا . السادس — أكل الأطعمة الكريهة الرائحة . السابع — التبدل بأزواجه ؛ وسيأتى . الثامن — نكاح آمرأة تكره صحبته . التاسع — نكاح الحرة الكتابية . العاشر — نكاح الأمة .

وحرّم الله عليه أشياء لم يحرمها على غيره تنزيها له وتطهيرا . فحرّم الله عليه الكتابة وقول الشعر وتعليمه ؛ تأكيدًا لحجته وبيانا لمعجزته ؛ قال الله تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ[3] » . وذكر النقاش أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ما مات حتى كتب ؛ والأوّل هو المشهور . وحرم عليه أن يمدّ عينيه إلى ما متّع به الناس ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ[4] » الآية .

وأما ما أُحلّ له صلى الله عليه وسلم فجملته ستة عشر : الأوّل — صَفِيّ المغنم . الثانى — الاستبداد بخمس الخمس أو الخمس . الثالث — الوصال . الرابع — الزيادة على أربع نسوة . الخامس — النكاح بلفظ الهبة . السادس — النكاح بغير وليّ . السابع — النكاح بغير صداق . الثامن — نكاحه فى حالة الإحرام . التاسع — سقوط القَسْم بين الأزواج عنه ؛ وسيأتى . العاشر — إذا وقع بصره على امرأة وجب على زوجها طلاقها ؛ وحلّ له نكاحها . قال آبن العربى : هكذا قال إمام الحرمين ، وقد مضى ما للعلماء فى قصة زيد من هذا المعنى . الحادى عشر — أنه أعتق صفيّة وجعل عتقها صداقها . الثانى عشر — دخوله مكة بغير إحرام ، وفى حقنا فيه اختلاف . الثالث عشر — القتال بمكة . الرابع عشر — أنه لا يورث . وإنما ذكر هذا فى قسم التحليل لأن الرجل إذا قارب الموت بالمرض زال عنه أكثر ملكه ، ولم يبق له إلا الثلث خالصا ، وبقى ملك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما تقرر بيانه فى آية المواريث[5] ، وسورة « مريم[6] » بيانه أيضا . الخامس عشر — بقاء زوجيته من بعد

---

(١) راجع كتاب البخارى ومسلم (باب الأدب) . (٢) اللأمة (وقد يترك همزها) : الدرع . وقيل السلاح .

(٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٥١ . (٤) راجع جـ ١١ ص ٢٦١ .

(٥) راجع جـ ٥ ص ٥٩ . (٦) راجع جـ ١١ ص ١٨ .

Marfat.com

الموت . السادس عشر — إذا طلّق امرأة تبقى حرمته عليها فلا تُنكح . وهذه الأقسام الثلاثة تقدّم معظمها مفصلا فى مواضعها . وسيأتى إن شاء الله تعالى .

[وأبيح (١) له عليه الصلاة والسلام أخذ الطعام والشراب من الجائع والعطشان، وإن كان من هو معه يخاف على نفسه الهلاك، لقوله تعالى : « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ » . وعلى كل أحد من المسلمين أن يَقِيَ النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه (٢) . وأبيح له أن يحمى لنفسه . وأكرمه الله بتحليل الغنائم . وجعلت الأرض له ولأمته مسجدا وطهورا . وكان من الأنبياء [مَن] لا تصح صلاتهم إلا فى المساجد . ونُصر بالرُّعب؛ فكان يخافه العدوّ من مسيرة شهر . وبُعث إلى كافة الخلق ، وقد كان مَن قبله من الأنبياء يُبعث الواحد إلى بعض الناس دون بعض . وجُعلت معجزاته كمعجزات الأنبياء قبله وزيادة . وكانت معجزة موسى عليه السلام العصا وانفجارَ الماء من الصخرة . وقد انشق القمر للنبي صلى الله عليه وسلم، وخرج الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم . وكانت معجزة عيسى صلى الله عليه وسلم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . وقد سبّح الحصى فى يد النبي صلى الله عليه وسلم، وحنّ الجذع إليه؛ وهذا أبلغ . وفضّله الله عليهم بأن جعل القرآن معجزة له ، وجعل معجزته فيه باقية إلى يوم القيامة ، ولهذا جُعلت نبوّته مؤبّدة لا تُنسخ إلى يوم القيامة (١)] .

السابعة عشر — قوله تعالى : ﴿ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ أى ينكحها، يقال: نَكَح واستنكح؛ مثل عَجِب واستعجب، وعَجِل واستعجل . ويجوز أن يَرِد الاستنكاح بمعنى طلب النكاح ، أو طلب الوطء . و « خَالِصَةً » نصب على الحال ، قاله الزجاج . وقيل : حال من ضمير متصل بفعل مضمر دلّ عليه المضمر، تقديره : أحللنا لك أزواجك ، وأحللنا لك امرأة مؤمنة أحللناها خالصة، بلفظ الهبة وبغير صداق وبغير ولِيّ .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فائدته أن الكفار وإن كانوا مخاطبين بفروع الشريعة عندنا فليس لهم فى ذلك دخول، لأن تصريف الأحكام إنما يكون فيهم على تقدير الإسلام .

(١) ما بين المربعين ساقط من ج وك . (٢) فى ش : « بنفسه » بالباء بدل اللام؛ والجملة غير ظاهرة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾ أى ما أوجبنا على المؤمنين ، وهو ألا يتزوجوا إلا أربع نسوة بمهر و بيّنة وولِيّ . قال معناه أُبَيّ بن كعب وقتادة وغيرهما .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ أى ضيق فى أمر أنت فيه محتاج إلى السّعة، أى بيّنا هذا البيان وشرحنا هذا الشرح « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ » . ف « لكيلا » متعلق بقوله : « إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ » أى فلا يضيق قلبك حتى يظهر منك أنك قد أثمت عند ربّك فى شيء . ثم آنس تعالى جميع المؤمنين بغفرانه ورحمته فقال تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُئْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

فيه إحدى عشرة مسألة .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ قرئ مهموزا وغير مهموز ، وهما لغتان، يقال : أرجيت الأمر وأرجاته إذا أخرته . ﴿ وَتُؤْوِي ﴾ تضمّ، يقال : آوى إليه (ممدودة الألف) ضمّ إليه . وأوى (مقصورة الألف) انضمّ إليه .

الثانيــة — وآختلف العلماء فى تأويل هــذه الآية، وأصح ما قيل فيها . التوسعة على النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ترك القَسْم، فكان لا يجب عليه القَسْم بين زوجاته . وهذا القول هو الذى يناسب ما مضى، وهو الذى ثبت معناه فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها؛ قالت : كنت أغار على اللائى وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : أوتهب المرأة نفسها لرجل ؟ فلما أنزل الله عز وجل « تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ » قالت : قلت والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . قال

Marfat.com

ٱبن العربيّ : هـذا الذى ثبت فى الصحيح هو الذى ينبغى أن يعوّل عليه . والمعنى المراد : هو أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان مخيّرا فى أزواجه ، إن شاء أن يَقْسِم قَسَم ، وإن شاء أن يترك القَسم ترك . فخص النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن جعل الأمر إليه فيه ؛ لكنه كان يقسم من قِبل نفسه دون أن فرض ذلك عليه ، تطييبا لنفوسهنّ ، وصونًا لهنّ عن أقوال الغَيْرة التى تؤدى إلى ما لا ينبغى . وقيل : كان القَسْم واجبا على النبى صلى الله عليه وسلم ثم نسخ الوجوب عنه بهذه الآية . قال أبو رَزين : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد همّ بطلاق بعض نسائه فقلن له : اقسم لنا ماشئت . فكان ممن آوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ، فكان قسمتهنّ من نفسه وماله سواء بينهنّ . وكان ممن أرجى سودة وجُوَيْرِية وأم حبيبة وميمونة وصفية ؛ فكان يقسم لهنّ ماشاء . وقيل : المراد الواهبات . روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة فى قوله : « تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ » قالت : هذا فى الواهبات أنفسهنّ . قال الشعبيّ : هنّ الواهبات أنفسهنّ ؛ تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم منهنّ وترك منهنّ . وقال الزُّهْرى : ما علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرجأ أحدا من أزواجه ، بل آواهن كلهن . وقال ٱبن عباس وغيره : المعنى فى طلاق من شاء ممن حصل فى عصمته ، وإمساك من شاء . وقيل غير هذا . وعلى كلّ معنًى فالآية معناها التوسعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والإباحة . وما ٱخترناه أصح والله أعلم .

الثالثة ــ ذهب هبة الله فى الناسخ والمنسوخ إلى أن قوله : « تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ » الآية ، ناسخ لقوله : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » الآية . وقال : ليس فى كتاب الله ناسخ تقدّم المنسوخَ سوى هـذا . وكلامه يضعف من جهات . وفى « البقرة » عدّة المتوفى عنها أربعة أشهر وعشر ، وهو ناسخ للحول وقد تقدّم عليه (١) .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ « ٱبْتَغَيْتَ » طلبت ، والابتغاء الطلب . و « عَزَلْتَ » أزلت ؛ والعزلة الإزالة ، أى إن أردت أن تؤوى إليك ٱمرأة ممن

(١) راجع جـ ٣ ص ١٧٤ و ٢٢٦ .

Marfat.com

عزلتهن من القسمة وتضمّها إليك فلا بأس عليك فى ذلك . وكذلك حكم الإرجاء ، فدلّ أحد الطرفين على الثانى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ أى لا ميل، يقال : جنحت السفينة أى مالت إلى الأرض . أى لا ميل عليك باللوم والتوبيخ .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ﴾ قال قتادة وغيره : أى ذلك التخيير الذى خيّرناك فى صحبتهن أدنى إلى رضاهن إذ كان من عندنا ؛ لأنهن إذا علمن أن الفعل[1] من الله قرّت أعينهن بذلك ورضين ؛ لأن المرء إذا علم أنه لا حق له فى شىء كان راضيا بما أوتى منه وإن قلّ . وإن علم أن له حقًّا لم يقنعه ما أوتى منه ، واشتدت غيْرته عليه وعَظُمَ حرصه فيه . فكان ما فعل الله لرسوله من تفويض الأمر إليه فى أحوال أزواجه أقرب إلى رضاهن معه ، وإلى استقرار أعينهن بما يسمح به لهن ، دون أن تتعلق قلوبهن بأكثر منه . وقرئ : « تُقِرَّ أعينَهن » بضم التاء ونصب الأعين . « وتُقَرّ أعينُهن » على البناء للمفعول . وكان عليه السلام مع هذا يشدد على نفسه فى رعاية التسوية بينهن، تطييبا لقلوبهن — كما قدّمناه — ويقول : "اللهم هـذه قدرتى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك" يعنى قلبه ؛ لإيثاره عائشة رضى الله عنها دون أن يكون يظهر ذلك فى شىء من فعله . وكان فى مرضه الذى توفى فيه يطاف به محمولا على بيوت أزواجه ، إلى أن استأذنهن أن يقيم فى بيت عائشة . قالت عائشة : أوّل ما اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت ميمونة ، فاستأذن أزواجه أن يمرّض فى بيتها — يعنى بيت عائشة — فأذنّ له ... الحديث، خرجه الصحيح . وفى الصحيح أيضا عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتفقد[2] ،

---

(١) فى ش وك : « العدل » .

(٢) كذا فى ش وك ، والذى فى البخارى : ليتعذر» قال القسطلانى : « بالعين المهملة والذال المعجمة ؛ أى يطلب العذر فيما يحاوله من الانتقال إلى بيت عائشة . وعند القابسى « يتقدّر » بالقاف والدال المهملة ؛ أى يسأل عن قدر ما بقى إلى يومها ليهون عليه بعض ما يجد ؛ لأن المريض يجد عند بعض أهله ما لا يجده عند بعض من الأنس والسكون » .

Marfat.com

يقول : " أين أنا اليوم أين أنا غدا " استبطاء ليوم عائشة رضى الله عنها . قالت : فلما كان يومى قبضه الله تعالى بين سَحْرى ونَحْرى[١] ؛ صلى الله عليه وسلم .

السابعة — على الرجل أن يعدِل بين نسائه لكل واحدة منهن يوما وليلة ؛ هذا قول عامة العلماء . وذهب بعضهم إلى وجوب ذلك فى الليل دون النهار . ولا يُسقِط حقّ الزوجة مرضُها ولا حَيضُها ، ويلزمه المقام عندها فى يومها وليلتها . وعليه أن يعدل بينهن فى مرضه كما يفعل فى صحته ؛ إلا أن يَعْجِز عن الحركة فيقيم حيث غلب عليه المرض ، فإذا صحّ استأنف القَسم . والإماء والحرائر والكتابيات والمسلمات فى ذلك سواء . قال عبد الملك : للحُرّة ليلتان وللأَمة ليلة . وأما السرارى فلا قَسْم بينهن و بين الحرائر ، ولا حظّ لهن فيه .

الثامنة — ولا يجمع بينهن فى منزل واحد إلا برضاهن ، ولا يدخل لإحداهن فى يوم الأخرى وليلتها لغير حاجة . واختلف فى دخوله لحاجة وضرورة ؛ فالأكثرون على جوازه ؛ مالك وغيره . وفى كتاب ابن حبيب منعه . وروى ابن بكير عن مالك عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان ، فإذا كان يوم هذه لم يشرب من بيت الأخرى الماء . قال ابن بكير : وحدثنا مالك عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان ماتتا فى الطاعون ، فأسهم بينهما أيهما تدلى أوّل .

التاسعة — قال مالك : ويعدل بينهن فى النفقة والكسوة إذا كن معتدلات الحال ، ولا يلزم ذلك فى المختلفات المناصب . وأجاز مالك أن يفضل إحداهما فى الكسوة على غير وجه الميل . فأما الحُبّ والبغض فخارجان عن الكسب فلا يتأتّى العدل فيهما ، وهو المعنىّ بقوله صلى الله عليه وسلم فى قَسْمه : "اللهم هذا فِعلى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك". أخرجه النسائى وأبو داود عن عائشة رضى الله عنها . وفى كتاب أبى داود « يعنى القلب » ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ»[٢] ، وقوله تعالى : « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ » . وهذا هو وجه تخصيصه بالذكر هنا ، تنبيها منه لنا على أنه يعلم

(١) تريد بين جنبى وصدرى . والسحر : الرئة ، فأطلقت على الجنب مجازا ، من باب تسمية المحل باسم الحالّ فيه . والنحر : الصدر .
(٢) راجع جـ ٥ ص ٤٠٧ .

Marfat.com

ما في قلوبنا من ميل بعضنا إلى بعض من عندنا من النساء دون بعض، وهو العالم بكل شيء « لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » (١) « يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » (٢) لكنه سمح في ذلك، إذ لا يستطيع العبد أن يصرف قلبه عن ذلك الميل، وإلى ذلك يعود قوله: « وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً » . وقد قيل في قوله : « ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ » وهي :

العاشرة — أي ذلك أقرب ألّا يحزنّ إذا لم يجمع إحداهن مع الأخرى ويعاين الأثرة والميل . وروى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل" . ﴿ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ توكيد للضمير، أي ويرضين كلهن . وأجاز أبو حاتم والزجاج « وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ » على التوكيد للضمر الذي في « آتيتهن » . والفراء لا يجيزه، لأن المعنى ليس عليه، إذ كان المعنى وترضى كل واحدة منهن، وليس المعنى بما أعطيتهن كلهن. النحاس: والذي قاله حسن.

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ خبر عام، والإشارة إلى ما في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من محبة شخص دون شخص . وكذلك يدخل في المعنى أيضا المؤمنون . وفي البخاري عن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت : أي الناس أحب إليك ؟ فقال : "عائشة" فقلت : من الرجال ؟ قال : "أبوها" قلت : ثم من ؟ قال : "عمر بن الخطاب ..." فعدّ رجالا . وقد تقدّم القول في القلب بما فيه كفاية في أول « البقرة » (٣) ، وفي أول هذه السورة (٤) . يروى أن لقمان الحكيم كان عبدا نجارا قال له سيّده : اذبح شاة وائتني بأطيبها بضعتين، فأتاه باللسان والقلب . ثم أمره بذبح شاة أخرى فقال له : ألق أخبثها بضعتين، فألق اللسان والقلب . فقال : أمرتك أن تأتيني بأطيبها بضعتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تلق بأخبثها بضعتين فألقيت اللسان والقلب ! ؟ فقال : ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا .

(١) راجع جـ ٤ ص ٦ فما بعد .
(٢) راجع جـ ١١ ص ١٦٥ فما بعد .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٧ .
(٤) ص ١١٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

فيـــه سبع مسائل :

الأولى — اختلف العلمـاء فى تأويل قوله : « لَا يَحِـلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ مِنْ بَعْـدُ » على أقوال ســـبعة :

الأولى — أنها منسوخة بالسُّنة ، والناسخ لها حديث عائشة ، قالت : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحلّ له النساء . وقد تقدّم (١) .

الثـانى — أنها منسوخه بآية أخرى ، روى الطحاوىّ عن أم سـلمة قالت : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسـلم حتى أحلّ الله له أن يتزوّج من النسـاء من شاء، إلا ذات مَحْرم، وذلك قوله عز وجل : «تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ» . قال النحاس : وهذا والله أعلم أوْلى ما قيـل فى الآية ؛ وهو وقول عائشة واحد فى النسخ . وقـد يجوز أن تكون عائشة أرادت أحلّ له ذلك بالقرآن . وهو مع هذا قول علىّ بن أبى طالب وابن عباس وعلىّ بن الحسين والضحاك . وقد عارض بعض فقهاء الكوفيين فقال : محال أن تنسخ هذه الآية يعنى « تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ » « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » وهى قبلها فى المصحف الذى أجمع عليه المسلمون . ورجح قول من قال نسخت بالسُّـنّة . قال النحاس : وهـذه المعارضة لا تلزم وقائلها غالط ؛ لأن القرآن بمنزلة سـورة واحدة ، كما صحّ عن ابن عباس : أنزل الله القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا فى شهر رمضان . ويبين لك أن اعتراض هـذا [المعترض] لا يلزم [أن] قوله عز وجل « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ (٢) » منســوخة على قول أهل التأويل — لا نعلم بينهم

(١) ص ٢٠٧ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣ ص ٢٢٦ .

Marfat.com

خلافا — بالآية التى قبلها « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا »(١) :

الثالث — أنه صلى الله عليه وسلم حظر عليه أن يتزوّج على نسائه ؛ لأنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ؛ هذا قول الحسن وابن سيرين وأبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام . قال النحاس : وهذا القول يجوز أن يكون هكذا ثم نسخ .

الرابع — أنه لما حرم عليهن أن يتزوجن بعده حُرم عليه أن يتزوّج غيرهن ؛ قاله أبو أمامة بن سهل بن حُنيف .

الخامس — « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » أى من بعد الأصناف التى سُمّيت ؛ قاله أُبَىّ بن كعب وعكرمة وأبو رَزين ، وهو اختيار محمد بن جرير . ومن قال إن الإباحة كانت له مطلقة قال هنا : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ » معناه لا تحل لك اليهوديات ولا النصرانيات . وهذا تأويل فيه بُعْدٌ . وروى عن مجاهد وسعيد بن جُبير وعكرمة أيضا . وهو القول السادس . قال مجاهد : لئلا تكون كافرة أُمًّا للؤمنين . وهذا القول يبعد؛ لأنه يقدّره : من بعد المسلمات، ولم يجر للسلمات ذكر . وكذلك قدّر « وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ » أى ولا أن تطلق مسلمة لتستبدل بها كتابيــة .

السابع — أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان له حلال أن يتزوّج من شاء ثم نسخ ذلك . قال : وكذلك كانت الأنبياء قبله صلى الله عليه وعليهم وسلم ؛ قاله محمد بن كعب القُرَظى .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ قال ابن زيد : هذا شىء كانت العرب تفعله ، يقول أحدهم : خذ زوجتى وأعطنى زوجتك ، روى الدَّارَقُطْنى عن أبى هريرة قال : كان البدل فى الجاهلية أن يقول الرجل للرجل : انزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى وأزيدك؛ فأنزل الله عز وجل « وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ » قال : فدخل عُيينة بن حِصْن الفَزَارِىّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده

(١) راجع جـ ٣ ص ١٧٤ ، ٢٢٦

Marfat.com

عائشة ، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ياعُيينة فأين الاستئذان "؟ فقال : يارسول الله ، ما استأذنت على رجل من مُضَرَ منذ أدركت . قال : مَن هذه الحميراء إلى جنبك؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذه عائشة أم المؤمنين " قال : أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق . فقال : " ياعُيينة ، إن الله قد حرّم ذلك " . قال فلما خرج قالت عائشة : يا رسول الله، مَن هـذا ؟ قال : " أحمق مطاعٌ وإنه على ما ترين لَسَيِّدُ قومه " . وقد أنكر الطبري والنحاس وغيرهما ما حكاه ابن زيد عن العرب ، من أنها كانت تبادل بأزواجها . قال الطبري : وما فعلت العرب قط هذا ، وما روى من حديث عيينة بن حِصن من أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة ... الحديث ؛ فليس بتبديل، ولا أراد ذلك ، وإنما احتقر عائشة لأنها كانت صبية فقال هذا القول .

قلت : وما ذكرناه من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة من أن البـدل كان في الجاهلية يدلّ على خلاف ما أنكر من ذلك ، والله أعلم . قال المـبرد : وقرئ «لَا يَحِل» بالياء والتاء . فمن قرأ بالتاء فعلى معنى جماعة النساء، و بالياء من تحت على معنى جميع النساء . وزعم الفراء قال : اجتمعت القراء على أن القراءة بالياء؛ وهذا غلط، وكيف يقال: اجتمعت القراء وقد قرأ أبو عمرو بالتاء بلا اختلاف عنه !

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ قال ابن عباس : نزل ذلك بسبب أسماء بنت عُمَيس ؛ أعجب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حين مات عنها جعفر بن أبي طالب حُسنها ، فأراد أن يتزوجها ، فنزلت الآية ؛ وهذا حديث ضعيف قاله ابن العربي .

الرابعـــة — في هذه الآية دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها . وقد أراد المغيرة بن شُعبة زواج امرأة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " انظر إليها فإنه أجدر أن يُؤدم بينكما[1] " . وقال عليه السلام لآخر : " انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئا " أخرجه الصحيح . قال الحميدي وأبو الفرج الجوزي . يعني صفراء أو زرقاء . وقيل رمصاء[2] .

(١) أي أحرى أن تدوم المودّة بينكما . يقال : أدم الله بينهما يأدم أدما ؛ أي ألف ووفق .
(٢) الرمص (بالتحريك) : وسخ يجتمع في الموق ؛ فإن سال فهو غمص ، و إن جمد فهو رمص .

Marfat.com

الخامسة — الأمر بالنظر إلى المخطوبة إنما هو على جهة الإرشاد إلى المصلحة؛ فإنه إذا نظر إليها فلعله يرى منها ما يرغّبه فى نكاحها . ومما يدلّ على أن الأمر على جهة الإرشاد ما ذكره أبو داود من حديث جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل" . فقوله : "فإن استطاع فليفعل" لا يقال مثله فى الواجب . وبهذا قال جمهور الفقهاء مالك والشافعيّ والكوفيون وغيرهم وأهل الظاهر . وقد كره ذلك قوم لا مبالاة بقولهم؛ للأحاديث الصحيحة ، وقوله تعالى : « وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ » . وقال سهل بن أبى حثمة : رأيت محمد بن مسلمة يطارد ثُبَيْتَة بنت الضحاك على إجّار من أجاجير المدينة فقلت له : أتفعل هذا ؟ فقال نعم ! قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إذا ألقى الله فى قلب أحدكم خِطْبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها" . الإجّار : السطح، بلغة أهل الشام والحجاز . قال أبو عبيد : وجمع الإجار أجاجير وأجاجرة .

السادسة — اختلف فيما يجوز أن ينظر منها؛ فقال مالك : ينظر إلى وجهها وكفّيها، ولا ينظر إلا بإذنها . وقال الشافعيّ وأحمد : بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مستترة . وقال الأوزاعيّ : ينظر إليها ويجتهد وينظر مواضع اللحم منها . قال داود : ينظر إلى سائر جسدها؛ تمسكاً بظاهر اللفظ . وأصولُ الشريعة تردّ عليه فى تحريم الاطلاع على العورة . والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ اختلف العلماء فى إحلال الأَمَة الكافرة للنبيّ صلى الله عليه وسلم على قولين : تحلّ لعموم قوله : « إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ » ؛ قاله مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم . قالوا : قوله تعالى « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » أى لا تحلّ لك النساء من غير المسلمات ، فأما اليهوديات والنّصرانيات والمشركات فحرام عليك؛ أى لا يحلّ لك أن تتزوّج كافرة فتكون أمًّا للؤمنين ولو أعجبك حسنها؛ إلا ما ملكت يمينك، فإن له أن يتسرّى بها . القول الثانى — لا تحلّ؛ تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة، وقد قال الله تعالى : « وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ »(١) فكيف به صلى الله عليه وسلم .

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٦٥ .

Marfat.com

و « ما » فى قوله : « إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ » فى موضع رفع بدل من « النساء » . ويجوز أن يكون فى موضع نصب على استثناء ، وفيه ضعف . ويجوز أن تكون مصدرية ، والتقدير : إلا ملك يمينك ، وملك بمعنى مملوك ، وهو فى موضع نصب لأنه استثناء من غير الجنس الأول .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

فيـه ست عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ « أنْ » فى موضع نصب على معنى : إلا بأن يؤذن لكم ، ويكون الاستثناء ليس من الأول . ﴿ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ نصب على الحال ، أى لا تدخلوا فى هـذه الحال . ولا يجوز فى « غيْر » الخفض على النعت للطعام ، لأنه لو كان نعتا لم يكن بدّ من إظهار الفاعلين ، وكان يقول : غيرناظرين إناه أنتم . ونظير هـذا من النحو : هذا رجلٌ مع رجل ملازمٌ له ، و إن شئت قلت : هذا رجلٌ مع رجلٍ ملازمٍ له هو .

وهذه الآية تضمّنت قصتين : إحداهما — الأدب فى أمر الطعام والجلوس . والثانية — أمر الحجاب . وقال حماد بن زيد : هذه الآية نزلت فى الثقلاء . فأما القصة الأولى فالجمهور

Marfat.com

من المفسرين على أن : سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب بنت جحش امرأة زيد أَوْلم عليها (١) ، فدعا الناس ، فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته مولّية وجهها إلى الحائط ، فثَقُلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أنس : فما أدرى أأنا أخبرت النبيّ صلى الله عليه وسلم أن القوم قد خرجوا أو أخبرنى . قال : فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بينى وبينه ونزل الحجاب . قال : ووعظ القومَ بما وُعظوا به ، وأنزل الله عز وجل « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ — إلى قوله — إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً » أخرجه الصحيح . وقال قتادة ومقاتل فى كتاب الثعلبيّ : إن هذا السبب جرى فى بيت أم سلمة . والأول الصحيح ، كما رواه الصحيح . وقال ابن عباس : نزلت فى ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبيّ صلى الله عليه وسلم فيدخلون قبل أن يدرِك الطعام، فيقعدون إلى أن يدرِك ، ثم يأكلون ولا يخرجون . وقال إسماعيل بن أبى حكيم : وهذا أدب أدّب الله به الثقلاء . وقال ابن أبى عائشة فى كتاب الثعلبيّ : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم . وأما قصة الحجاب فقال أنس بن مالك وجماعة : سببها أمر القعود فى بيت زينب، القصة المذكورة آنفا . وقالت عائشة رضى الله عنها وجماعة : سببها أن عمر قال قلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهنّ البَرّ والفاجر ، فلو أمرتهنّ أن يحتجبن ؛ فنزلت الآية . وروى الصحيح عن ابن عمر قال : قال عمر وافقت ربّى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم، وفى الحجاب، وفى أسارى بدر . هذا أصح ما قيل فى أمر الحجاب ، وما عدا هذين القولين من الأقوال والروايات فواهية، لا يقوم شيء منها على ساق ، وأضعفها ما روى عن ابن مسعود : أن عمر أمر نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم بالحجاب، فقالت زينب بنت جحش : يابن الخطاب، إنك تَغَار علينا والوحى ينزل فى بيوتنا ! فأنزل الله تعالى : « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » وهذا باطل ، لأن الحجاب نزل يوم البناء بزينب ، كما بيّناه . أخرجه البخاريّ ومسلم والترمذى وغيرهم . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يَطْعَم ومعه بعض

(١) أى التى كانت امرأة زيد ثم طلقها وانقضت عدتها منه .

أصحابه ، فأصاب يَدُ رجل منهم يدَ عائشة ، فكره النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت آية الحجاب . قال ابن عطية : وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونُضْجَه . وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك ، فنهى الله المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ودخل في النهي سائر المؤمنين ، والتزم الناس أدب الله تعالى لهم في ذلك ، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل ، لا قبله لانتظار نُضْج الطعام .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ دليل على أن البيت للرجل ، ويحكم له به ، فإن الله تعالى أضافه إليه . فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ والحِكْمَةِ إنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً(١) خَبِيراً » قلنا : إضافة البيوت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم إضافة مِلك ، وإضافة البيوت إلى الأزواج إضافة محل ، بدليل أنه جعل فيها الإذن للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، والإذن إنما يكون للمالك .

الثالثـــة — واختلف العلماء في بيوت النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ كان يسكن فيها أهله بعد موته ، هل هي ملك لهنّ أم لا على قولين : فقالت طائفة : كانت ملكا لهنّ ، بدليل أنهنّ سكنّ فيها بعد موت النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى وفاتهنّ ، وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم وهب ذلك لهنّ في حياته . الثاني — أن ذلك كان إسكانا كما يسكن الرجل أهله ولم يكن هبة ، وتمادى سكناهنّ بها إلى الموت . وهذا هو الصحيح ، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البر وابن العربيّ وغيرهم ، فإن ذلك من مئونتهنّ التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم استثناها لهنّ ، كما استثنى لهنّ نفقاتهنّ حين قال : "لا تَقْتَسم ورثتى دينارا ولا درهما ، ما تركت بعد نفقة أهلي ومئونة عاملي فهو صدقة" . هكذا قال أهل العلم ، قالوا : ويدلّ على ذلك أن مساكنهنّ لم يرثها عنهنّ ورثتهنّ . قالوا : ولو كان ذلك ملكا لهنّ كان لا شك قد ورثه عنهنّ ورثتهنّ . قالوا : وفي ترك ورثتهنّ ذلك دليل على أنها لم تكن لهنّ ملكا ، وإنما كان لهنّ

(١) راجع ص ١٨٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

سكنى حياتهن ، فلما توفين جعل ذلك زيادة فى المسجد الذى يعم المسلمين نفعه، كما جعل ذلك الذى كان لهن من النفقات فى تركة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مضين لسبيلهن، فزيد إلى أصل المال فصرف فى منافع المسلمين مما يعم جميعهم نفعه . والله الموفق .

قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ أى غير منتظرين وقت نضجه . و « إناه » مقصور ، وفيه لغات : « إنَى » بكسر الهمزة . قال الشيبانى :

وكِسْرَى إذ تقسّمه بنُوه * بأسياف كما اقْتُسِم اللّحام

تمخّضت المَنون له بيوم * أَنَى(١) ولكل حاملة تمام

وقرأ ابن أبى عبلة : « غيرِ نَاظِرِينَ إِنَاه » مجرورا صفة لـ « طعام » . الزمخشرى : وليس بالوجه ، لأنه جرى على غير ما هو له ، فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللفظ ، فيقال : غيرِ ناظرين إناه أنتم ، كقولك : هندُ زيدٌ ضاربته هى . وأنى (بفتحها) ، وأناء (بفتح الهمزة والمد) قال الحطيئة :

وآنيت العَشاء إلى سُهَيل * أو الشِّعْرَى فطال بِىَ الأَناءُ

يعنى إلى طلوع سهيل . وإناه مصدر أنى الشيء يأنى إذا فرغ وحان وأدرك .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ فأكد المنع ، وخص وقت الدخول بأن يكون عند الإذن على جهة الأدب ، وحفظ الحضرة الكريمة من المباسطة المكروهة . قال ابن العربى : وتقدير الكلام : ولكن إذا دعيتم وأذن لكم فى الدخول فادخلوا ، وإلا فنفس الدعوة لا تكون إذنا كافيا فى الدخول . والفاء فى جواب « إذا » لازمة لما فيها من معنى المجازاة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ أمر تعالى بعد الإطعام بأن يتفرق جميعهم وينتشروا . والمراد إلزام الخروج من المنزل عند انقضاء المقصود من الأكل . والدليل على ذلك أن الدخول حرام ، وإنما جاز لأجل الأكل ، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح وعاد التحريم إلى أصله .

(١) « أنى » هنا فعل ماض ، بمعنى أدرك وبلغ ؛ كما فى اللسان وشرح القاموس .

Marfat.com

السادسة — فى هذه الآية دليل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف لا على ملك نفسه ؛ لأنه قال : « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا » فلم يجعل له أكثر من الأكل، ولا أضاف إليه(١) سواه ، وبقى الملك على أصله .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ عطف على قوله : « غيرَ ناظرِينَ » و « غيرَ » منصوبة على الحال من الكاف والميم فى « لكم » أى غير ناظرين ولا مستأنسين ؛ والمعنى المقصود : لا تمكثوا مستأنسين بالحديث كما فعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وليمة زينب . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ أى لا يمتنع من بيانه وإظهاره . ولما كان ذلك يقع من البشر لعلة الاستحياء نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك فى البشر . وفى الصحيح عن أم سلمة قالت : جاءت أم سُلَيم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيي من الحق ، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأت الماء " .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا ﴾ الآية . روى أبو داود الطيالسى عن أنس بن مالك قال قال عمر : وافقت ربى فى أربع ...؛ الحديث . وفيه : قلت يارسول الله ، لو ضربتَ على نسائك الحجاب ، فإنه يدخل عليهنّ البرّ والفاجر ؛ فأنزل الله عز وجل « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » .

واختلف فى المتاع ؛ فقيل : مايتمتع به من العوارىّ(٢) . وقيل فَتْوَى . وقيل صحف القرآن . والصواب أنه عام فى جميع ما يمكن أن يطلب من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا .

التاسعة — فى هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن فى مسألتهنّ من وراء حجاب فى حاجة تَعرِض ، أو مسألة يُستفتين فيها ؛ ويدخل فى ذلك جميع النساء بالمعنى ، وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة ، بدنها وصوتها ؛ كما تقدم ، فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة كالشهادة عليها ، أو داء يكون ببدنها ، أو سؤالها عما يعرض وتعيّن عندها .

---

(١) فى ح ، ش : « إليهم » .　　(٢) العوارى : جمع العارية ، ما تداولوه بينهم .

Marfat.com

العاشرة — استدلّ بعض العلماء بأخذ الناس عن أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم من وراء حجاب على جواز شهادة الأعمى ، و بأن الأعمى يطأ زوجته بمعرفته بكلامها . وعلى إجازة شهادته أكثر العلماء ، ولم يجزها أبو حنيفة والشافعيّ وغيرهما . قال أبو حنيفة : تجوز في الأنساب . وقال الشافعيّ : لا تجوز إلا فيما رآه قبل ذهاب بصره .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ يريد من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء ، وللنساء في أمر الرجال ؛ أي ذلك أنفى للريبة وأبعد للتهمة وأقوى في الحماية . وهذا يدلّ على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له ؛ فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ الآية . هذا تكرار للعلة وتأكيد لحكمها ؛ وتأكيد العلل أقوى في الأحكام .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾ روى إسماعيل آبن إسحاق قال حدثنا محمد بن عبيد قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة أن رجلا قال : لو قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجتُ عائشة ؛ فأنزل الله تعالى : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ » الآية . ونزلت : « وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » . وقال القشيري أبو نصر عبد الرحمن : قال ابن عباس قال رجل من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حِراء — في نفسه — لو توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوّجت عائشة ، وهي بنت عمي . قال مقاتل : هو طلحة بن عبيد الله . قال ابن عباس : وندم هذا الرجل على ما حدّث به في نفسه، فمشى إلى مكة على رجليه وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله، وأعتق رقيقا فكفّر الله عنه . وقال ابن عطية : روى أنها نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال : لو مات رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوّجت عائشة ؛ فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأذّى به ؛ هكذا كنّى عنه ابن عباس ببعض الصحابة . وحكى مكيّ عن معمر أنه قال : هو طلحة بن عبيد الله .

Marfat.com

قلت : وكذا حكى النحاس عن معمر أنه طلحة ؛ ولا يصح . قال ابن عطية : لله درّ ابن عباس ! وهذا عندى لا يصح على طلحة بن عبيد الله . قال شيخنا الإمام أبو العباس : وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة ، وحاشاهم عن مثله ! والكذب فى نقله[(١)] ؛ وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال . يروى أن رجلا من المنافقين قال حين تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ سلمة بعد أبى سلمة ، وحفصة بعد خُنيس بن حُذافة : ما بال محمد يتزوّج نساءنا ! والله لو قدمات لأجلنا السهام على نسائه ؛ فنزلت الآية فى هذا ؛ فحرم الله نكاح أزواجه من بعده ، وجعل لهن حكم الأمهات . وهذا من خصائصه تمييزًا لشرفه وتنبيها على مرتبته صلى الله عليه وسلم . قال الشافعيّ رحمه الله : وأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتى مات عنهن لا يحلّ لأحد نكاحهن ، ومن استحلّ ذلك كان كافرا ؛ لقوله تعالى : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا » . وقد قيل : إنما منع من التزوّج بزوجاته ؛ لأنهن أزواجه فى الجنة ، وأن المرأة فى الجنة لآخر أزواجها . قال حذيفة لامرأته : إن سرّك أن تكونى زوجتى فى الجنة إن جمعنا الله فيها فلا تزوّجى من بعدى ؛ فإن المرأة لآخر أزواجها . وقد ذكرنا ما للعلماء فى هذا فى (كتاب التذكرة) من أبواب الجنة .

الرابعة عشرة — اختلف العلماء فى أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد موته ؛ هل بقين أزواجا أم زال النكاح بالموت ، وإذا زال النكاح بالموت فهل عليهن عدة أم لا ؟ فقيل : عليهن العدة ؛ لأنه تُوُفّى عنهن ، والعدة عبادة . وقيل : لا عدة عليهن ؛ لأنها مدة تربص لا ينتظر بها الإباحة . وهو الصحيح ؛ لقوله عليه السلام : " ما تركت بعد نفقة عيالى " وروى " أهلى " وهذا اسم خاص بالزوجية ؛ فأبقى عليهن النفقة والسكنى مدة حياتهن لكونهن نساءه ، وحرمن على غيره ؛ وهذا هو معنى بقاء النكاح . وإنما جعل الموت فى حقه عليه السلام لهن بمنزلة المغيب فى حق غيره ؛ لكونهن أزواجا له فى الآخرة قطعا بخلاف سائر

(١) فى ش : « وحاشاهم عن مثله ... وإنما ... والكذب فى نقله » وموضع النقط فى الأصل بياض .
وفى ك : « وحاشاهم عن مثله وإنما الكذب فى نقله » .

Marfat.com

الناس ؛ لأن الرجل لا يعلم كونه مع أهله فى دار واحدة ، فربما كان أحدهما فى الجنة والآخر فى النار ؛ فبهذا انقطع السبب فى حق الخلق و بقى فى حق النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وقد قال عليه السلام : " زوجاتى فى الدنيا هن زوجاتى فى الآخرة " . وقال عليه السلام : " كل سبب ونسب ينقطع إلا سببي ونسبي فإنه باق إلى يوم القيامة " .

فرع — فأما زوجاته عليه السلام اللاتى فارقهن فى حياته مثل الكَلْبية وغيرها ؛ فهل كان يحلّ لغيره نكاحهن ؟ فيه خلاف . والصحيح جواز ذلك ؛ لما روى أن الكلبية التى فارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها عكرمة بن أبى جهل على ما تقدّم . وقيل : إن الذى تزوّجها الأشعث بن قيس الكندى . قال القاضى أبو الطيّب : الذى تزوّجها مهاجر بن أبى أميّة ، ولم ينكر ذلك أحد ؛ فدلّ على أنه إجماع .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ يعنى أَذِيّة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نكاح أزواجه ؛ فجعل ذلك من جملة الكبائر ولا ذنب أعظم منه .

السادسة عشرة — قد بيّنا سبب نزول الحجاب من حديث أنس وقول عمر ، وكان يقول لسَوْدة إذا خرجت وكانت امرأة طويلة : قد رأيناك يا سودة ، حرصا على أن ينزل الحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب . ولا بُعْد فى نزول الآية عند هذه الأسباب كلها — والله أعلم — بَيْدَ أنه لما ماتت زينب بنت جحش قال : لا يشهد جنازتها إلا ذو محرم منها ؛ مراعاةً للحجاب الذى نزل بسببها . فدلته أسماء بنت عُمَيس على سترها فى النعش فى القُبّة ، وأعلمته أنها رأت ذلك فى بلاد الحبشة فصنعه عمر . وروى أن ذلك صُنع فى جنازة فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ﴿٥٤﴾

البارئ سبحانه وتعالى عالم بما بدا وما خفى وما كان وما لم يكن ، لا يخفى عليه ماضٍ تقضّى ، ولا مستقبَلٌ يأتى . وهذا على العموم تمدّح به ، وهو أهل المدح والحمد . والمراد به هاهنا التوبيخ والوعيد لمن تقدّم التعريض به فى الآية قبلها ، ممن أشير إليه بقوله : « ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ » ، ومن أشير إليه فى قوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن

Marfat.com

تنكحوا أزواجه من بعده أبدا» فقيل لهم فى هذه الآية : إن الله تعالى يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة ويجازيكم عليها . فصارت هذه الآية منعطفة[(١)] على ماقبلها مبينة لها . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٥٥)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت هذه الآية .

الثانية — ذكر الله تعالى فى هذه الآية من يحلّ للمرأة البروز له ، ولم يذكر العمّ والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين . وقد يسمى العم أبا ، قال الله تعالى : « نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ[(٢)] » وإسماعيل كان العمّ . قال الزجاج : العمّ والخال ربما يصفان المرأة لولديهما ، فان المرأة تحلّ لابن العمّ وابن الخال فكره لهما الرؤية . وقد كره الشعبى وعكرمة أن تضع المرأة خمارها عند عمها أو خالها . وقد ذكر فى هذه الآية بعض المحارم وذكر الجميع فى سورة « النور » ، فهذه الآية بعض تلك ، وقد مضى الكلام هناك مستوفى[(٣)] ، والحمد لله .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ﴾ لما ذكر الله تعالى الرخصة فى هذه الأصناف وانجزمت الإباحة ، عطف بأمرهن بالتقوى عطف جملة . وهذا فى غاية البلاغة والإيجاز ، كأنه قال : اقتصرن على هذا واتقين الله فيه أن تتعدّينه إلى غيره . وخص النساء بالذكر وعيّنهن فى هذا الأمر ، لقلة تحفظهن وكثرة استرسالهن . والله أعلم . ثم توعّد تعالى بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ .

---

(١) فى ابن العربى « منقطعة » وهو تحريف .　(٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٨ .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ٢٢٦

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

هذه الآية شرّف الله بها رسولَه عليه السلام حياتَه وموته ، وذكر منزلته منه ، وطهّر بها سوء فعل من استصحب فى جهته فكرة سوء، أو فى أمر زوجاته ونحو ذلك . والصلاة من الله رحمته ورضوانه ، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره .

مسألة — واختلف العلماء فى الضمير فى قوله : « يُصَلُّونَ » فقالت فرقة : الضمير فيه لله والملائكة ؛ وهذا قولٌ من الله تعالى شرّف به ملائكته ، فلا يصحبه الاعتراض الذى جاء فى قول الخطيب : من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصِهما فقد غوَى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بئس الخطيب أنت ، قل ومن يعص الله ورسوله " أخرجه الصحيح . قالوا : لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره فى ضمير ، ولله أن يفعل فى ذلك ما يشاء . وقالت فرقة : فى الكلام حذف ، تقديره إن الله يصلّى وملائكته يصلون ، وليس فى الآية اجتماع فى ضمير ، وذلك جائز للبشر فعله . ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم " بئس الخطيب أنت " لهذا المعنى ، وإنما قاله لأن الخطيب وقف على ومن يعصهما ، وسكت سكتة . واستدلوا بما رواه أبو داود عن عدىّ بن حاتم أن خطيبا خطب عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله ومن يعصهما . فقال : " قم — أو اذهب — بئس الخطيب أنت " . إلا أنه يحتمل أن يكون لمّا خطّأه فى وقفه وقال له : " بئس الخطيب " أصلح له بعد ذلك جميع كلامه ، فقال : " قل ومن يعص الله ورسوله " كما فى كتاب مسلم . وهو يؤيد القول الأول بأنه لم يقف على « ومن يعصهما » . وقرأ ابن عباس : « وملائكتُه » بالرفع على موضع اسم الله قبل دخول « إنّ » . والجمهور بالنصب عطفا على المكتوبة .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً » أمر الله تعالى عباده بالصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم دون أنبيائه تشريفا له ، ولا خلاف فى أن

Marfat.com

الصلاة عليــه فرض فى العمر مرة ، وفى كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التى لا يسع تركها ولايغفلها إلا من لاخير فيه . الزَّمَخْشَرىّ : فإن قلت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة أم مندوب إليها ؟ قلت : بل واجبة . وقد اختلفوا فى حال وجوبها ؛ فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره . وفى الحديث : " من ذُكرت عنـده فلم يصلّ علىّ فدخل النار فأبعده الله " . ويروى أنه قيل له : يارسول الله ، أرأيت قول الله عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ » فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " هذا من العلم المكنون ولولا أنكم سألتمونى عنـه ما أخبرتكم به إن الله تعـالى وكّل بى ملكين فلا أذكر عنـد مسلم فيصلّى علىّ إلا قال ذلك الملكان غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جوابا لذينك الملَكَين آمين . ولا أُذكر عند عبـد مسلم فلا يصلى علىّ إلا قال ذلك الملَكَان لا غفـر الله لك وقال الله تعالى وملائكته لذينك الملَكَين آمين " . ومنهم من قال : تجب فى كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره، كما قال فى آية السجدة وتشميت العاطس . وكذلك فى كل دعاء فى أوّله وآخره ومنهم من أوجبها فى العمر . وكذلك قال فى إظهار الشهادتين . والذى يقتضيه الاحتياط : الصلاة عند كل ذكر ، لمـا ورد من الأخبار فى ذلك

الثانيــة — واختلفت الآثار فى صفة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، فروى مالك عن أبى مسعود الأنصارىّ قال : أتانا رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ونحن فى مجلس سعد ابن عُبادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلّى عليـك يا رسول الله ، فكيف نصلّى عليـك ؟ قال : فسكت رسول الله صـلى الله عليه وسـلم حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد والسـلام كما قد علمتم " . ورواه النسائىّ عن طلحة مثله ، بإسقاط قوله : " فى العالمين " وقوله : " والسـلام كما قد علمتم " . وفى البـاب عن كعب بن عُجْرة وأبى حُميـد الساعدىّ وأبى سعيد الخُـدْرىّ وعلىّ بن أبى طالب وأبى هريرة وبُريدة الخزاعىّ وزيد بن خارجة ،

Marfat.com

ويقال ابن حارثة . أخرجها أئمة أهل الحديث فى كتبهم . وصحح الترمذى حديث كعب ابن عُجْرة . خرّجه مسلم فى صحيحه مع حديث أبى حميد الساعدى . قال أبو عمر : روى شُعبة والثورى عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن كعب بن عُجرة قال : لما نزل قوله تعالى : « يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة ؟ فقال : " قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد " وهذا لفظ حديث الثورى لا حديث شعبة ، وهو يدخل فى التفسير المسند إليه لقول الله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » فبيّن كيف الصلاة عليه وعلمهم فى التحيات كيف السلام عليه ، وهو قوله : " السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته " . وروى المسعودى عن عون ابن عبد الله عن أبى فاختة عن الأسود عن عبد الله أنه قال : إذا صلّيتم على النبى صلى الله عليه وسلم فأحسنوا الصلاة عليه ؛ فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه . قالوا فعلّمنا ؛ قال : " قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيّد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ونبيّك ورسولك إمامِ الخير وقائد الخير ورسولِ الرحمة . اللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد " . وروينا بالإسناد المتصل فى كتاب (الشفا) للقاضى عياض عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : عدّهن فى يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " عدّهن فى يدى جبريل وقال هكذا أنزلت من عند رب العزة اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد . اللهم وترحّم على محمد وعلى آل محمد كما ترحمت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد . اللهم وتحنّن على محمد

Marfat.com

وعلى آل محمد كما تحننت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » . قال ابن العربي : من هـذه الروايات صحيح ومنها سقيم ، وأصحها ما رواه مالك فاعتمدوه . ورواية غير مالك من زيادة الرحمة مع الصلاة وغيرها لا يقوى ، وإنما على الناس أن ينظروا في أديانهم نظرهم في أموالهم ، وهم لا يأخذون في البيع دينـارا معيبا ، وإنمـا يختارون السالم الطيب ، كذلك لا يؤخذ من الروايات عن النبي صلى الله عليه وسـلم إلا ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم سنده ، لئلا يدخل في حيز الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو يطلب الفضل إذا به قد أصاب النقص ، بل ربمـا أصاب الخسران المبين .

الثالثـــة — في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صلّى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا » . وقال سهل بن عبد الله : الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم أفضل العبادات ، لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته ، ثم أمر بها المؤمنين ، وسائر العبادات ليس كذلك . قال أبو سليمان الداراني : من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يسأل الله حاجته ، ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسـلم ، فإن الله تعالى يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يرد ما بينهما . وروى سعيد بن المسيّب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : الدعاء يُحجَب دون السماء حتى يصلّى على النبي صلى الله عليه وسـلم ، فإذا جاءت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسـلم رفع الدعاء . وقال النبي صلى الله عليه وسـلم : « من صلّى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة يصلون عليه ما دام اسمي في ذلك الكتاب » .

الرابعـــة — واختلف العلمـاء في الصلاة على النبي صـلى الله عليه وسـلم في الصلاة ؛ فالذي عليه الجم الغفير والجمهور الكثير : أن ذلك من سنن الصلاة ومستحباتها . قال ابن المنذر : يستحب ألا يصلّي أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ترك ذلك تارك فصلاته مجزية في مذهب مالك وأهل المدينة وسفيان الثوري وأهل الكوفة من أصحاب الرأي وغيرهم . وهو قول جُلّ أهل العـلم . وحكى عن مالك وسفيان أنها في التشهد الأخير

Marfat.com

مستحبة ، وأن تاركها فى التشهد مسىء . وشذ الشافعىّ فأوجب على تاركها فى الصلاة الإعادة . وأوجب إسحاق الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان. وقال أبو عمر: قال الشافعىّ إذا لم يصلّ على النبىّ صلى الله عليه وسلم فى التشهد الأخير بعد التشهد وقبل التسليم أعاد الصلاة . قال : وإن صلّى عليه قبل ذلك لم تجزه . وهذا قول حكاه عنه حَرْملة بن يحيى ، لا يكاد يوجد هكذا عن الشافعىّ إلا من رواية حَرْملة عنه، وهو من كبار أصحابه الذين كتبوا كتبه . وقد تقلّده أصحاب الشافعىّ ومالوا إليه وناظروا عليه، وهو عندهم تحصيل مذهبه . وزعم الطحاوىّ أنه لم يقل به أحد من أهل العلم غيره . وقال الخطّابى وهو من أصحاب الشافعىّ : وليست بواجبة فى الصلاة، وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعىّ، ولا أعلم له فيها قدوة . والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عمل السلف الصالح قبل الشافعىّ وإجماعهم عليه، وقد شُنّع عليه فى هذه المسألة جدا. وهذا تشهد ابن مسعود الذى اختاره الشافعىّ وهو الذى علّمه النبىّ صلى الله عليه وسلم، ليس فيه الصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم، وكذلك كل من روى التشهد عنه صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عمر : كان أبو بكر يعلّمنا التشهد على المنبر كما تعلّمون الصبيان فى الكتّاب . وعلّمه أيضا على المنبر عمر ، وليس فيه ذكر الصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم .

قلت : قد قال بوجوب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة محمد بن المواز من أصحابنا فيما ذكر ابن القصّار وعبد الوهاب، واختاره ابن العربىّ للحديث الصحيح : إن الله أمرنا أن نصلّى عليك فكيف نصلّى عليك ؟ فعلم الصلاة ووقتها فتعينت كيفيةً ووقتاً . وذكر الدّارَقُطْنِىّ عن أبى جعفر محمد بن علىّ بن الحسين أنه قال : لو صلّيتُ صلاة لم أصلّ فيها على النبىّ صلى الله عليه وسلم ولا على أهل بيته لرأيت أنها لا تتم . وروى مرفوعا عنه عن ابن مسعود عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . والصواب أنه قول أبى جعفر؛ قاله الدّارَقُطْنِىّ .

الخامسة — قوله تعالى: ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ قال القاضى أبو بكر بن بكير: نزلت هذه الآية على النبى صلى الله عليه وسلم فأمر الله أصحابه أن يسلّموا عليه . وكذلك من بعدهم أمروا

Marfat.com

أن يسلموا عليه عند حضورهم قبره وعند ذكره . وروى النسائي عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبِشْر يُرى في وجهه ، فقلت : إنا لنرى البشرى في وجهك ! فقال : " إنه أتاني المَلَك فقال يا محمد إن ربك يقول أما يرضيك إنه لا يصلّي عليك أحد إلا صلّيتُ عليه عشرا ولا يسلّم عليك أحد إلا سلّمتُ عليه عشرا " . وعن محمد بن عبد الرحمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما منكم من أحد يسلم عليّ إذا مِتُّ إلا جاءني سلامه مع جبريل يقول يا محمد هذا فلان بن فلان يقرأ عليك السلام فأقول وعليه السلام ورحمة الله وبركاته " وروى النسائي عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لله ملائكة سيّاحين في الأرض يبلّغوني من أمتي السلام " . قال القُشيري : والتسليم قولك : سلام عليك .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — اختلف العلماء في أذِيّة الله بماذا تكون ؟ فقال الجمهور من العلماء : معناه بالكفر ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه ، ووصفه بما لا يليق به ؛ كقول اليهود لعنهم الله : وقالت اليهود يد الله مغلولة . والنصارى : المسيح ابن الله . والمشركون : الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه . وفي صحيح البخاري قال الله تعالى : " كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك ... " الحديث . وقد تقدّم في سورة « مريم »[1] . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال الله تبارك وتعالى : " يؤذيني ابن آدم يقول ياخيبة الدهر فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أقلّب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما " . هكذا جاء هذا الحديث موقوفا على أبي هريرة في هذه الرواية . وقد جاء مرفوعا عنه " يؤذيني ابن آدم

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٩

Marfat.com

يَسُبّ الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار » أخرجه أيضا مسلم . وقال عكرمة : معناه بالتصوير والتعرض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله المصورين » . قلت : وهذا مما يقوى قول مجاهد فى المنع من تصوير الشجر وغيرها ؛ إذ كل ذلك صفة اختراع وتشبه بفعل الله الذى انفرد به سبحانه وتعالى . وقد تقدم هذا فى سورة « النمل »[1] والحمد لله . وقالت فرقة : ذلك على حذف مضاف ، تقديره : يؤذون أولياء الله . وأما أذية رسوله صلى الله عليه وسلم فهى كل ما يؤذيه من الأقوال فى غير معنًى واحد، ومن الأفعال أيضا . أما قولهم : « فساحر . شاعر . كاهن مجنون . وأما فعلهم : فكسر رباعيته وشج وجهه يوم أُحُد، وبمكة إلقاء السَّلَى على ظهره وهو ساجد » إلى غير ذلك . وقال ابن عباس : نزلت فى الذين طعنوا عليه حين اتخذ صفية بنت حُيَيّ . وأطلق إيذاء الله ورسوله وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبدا . وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه .. ومنه ..

الثانيــة — قال علماؤنا : والطعن فى تأمير أسامة بن زيد أذيةٌ له عليه السلام . روى الصحيح عن ابن عمر قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثًا وأمّر عليهم أسامة ابن زيد فطعن الناس فى إمرته ؛ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن تطعنوا فى إمرته فقد كنتم تطعنون فى إمرة أبيه من قبلُ وايمُ الله إن كان لخليقا للإمارة وإن كان لَمِن أحب الناس إلىّ وإن هذا لمن أحب الناس إلىّ بعده » . وهذا البعث — والله أعلم — هو الذى جهّزه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أسامة وأمّره عليهم وأمَره أن يغزو « أُبْنَى » وهى القرية التى عند مُؤْتَة ، الموضع الذى قُتل فيه زيد أبوه مع جعفر بن أبى طالب وعبد الله ابن رَواحة . فأمره أن يأخذ بثأر أبيه فطعن مَن فى قلبه ريب فى إمْرته ؛ من حيث إنه كان من الموالى، ومن حيث إنه كان صغير السنّ؛ لأنه كان إذ ذاك ابن ثمان عشرة سنة؛ فمات النبىّ صلى الله عليه وسلم وقد برز هذا البعث عن المدينة ولم ينفصل بعدُ عنها ؛ فنفذه أبو بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٢١

الثالثة — فى هذا الحديث أوضح دليل على جواز إمامة المَوْلَى والمفضول على غيرهما ما عدا الإمامة الكبرى . وقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم سالما مولى أبى حُذيفة على الصلاة بقُبَاء ، فكان يؤمّهم وفيهم أبو بكر وعمر وغيرهم من كبراء قريش . وروى الصحيح عن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقى عمر بعُسْفان ، وكان عمر يستعمله على مكة فقال : من استعملت على هذا الوادى ؟ قال : آبن أبزى . قال : ومَن آبن أبْزَى ؟ قال : مَوْلًى من موالينا . قال : فآستخلفت عليهم مَوْلًى ! قال : إنه لقارئ لكتاب الله و إنه لعالم بالفرائض — قال — أما إن نبيكم قد قال : "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما و يضع به آخرين".

الرابعة — كان أسامة رضى الله عنه الحب آبن الحبّ وبذلك كان يُدْعَى ، وكان أسودَ شديدَ السواد، وكان زيد أبوه أبيض من القطن . هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح . وقال غير أحمد : كان زيد أزهر اللون وكان أسامة شديدَ الأُدْمَة . و يروى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يُحسّن أسامة وهو صغير و يمسح مخاطه، و ينقّى أنفه ويقول : "لو كان أسامة جارية لزيّناه وجهزناه وحبّبناه إلى الأزواج" . وقد ذكر أن سبب ارتداد العرب بعد النبىّ صلى الله عليه وسلم، أنه لما كان عليه السلام فى حَجّة الوداع بجبل عرفة عشيّة عرفة عند النّفر ، آحتبس النبىّ صلى الله عليه وسلم قليلا بسبب أسامة إلى أن أتاه؛ فقالوا : ما آحتبس إلا لأجل هذا ! تحقيرا له . فكان قولهم هذا سبب ارتدادهم . ذكره البخارىّ فى التاريخ بمعناه . والله أعلم .

الخامسة — كان عمر رضى الله عنه يفرض لأسامة فى العطاء خمسة آلاف ، ولابنه عبد الله ألفين ؛ فقال له عبد الله : فضّلت علىّ أسامة وقد شهدتُ ما لم يشهد ! فقال : إن أسامة كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، وأباه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ؛ ففضل رضى الله عنه محبوبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على محبوبه . وهكذا يجب أن يُحَبّ ما أحبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم و يُبْغَض مَن أبغض . وقد قابل مَرْوان هذا الحبّ بنقيضه ؛ وذلك أنه مرّ بأسامة بن زيد وهو يصلى عند باب بيت

Marfat.com

النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له مروان : إنما أردت أن نرى مكانك ، فقد رأينا مكانك ، فعل الله بك ! وقال[1] قولا قبيحا . فقال له أسامة : إنك آذيتني ، وإنك فاحش متفحش ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى يبغض الفاحش المتفحش " . فانظر ما بين الفعلين وقس ما بين الرجلين ، فقد آذى بنو أمية النبيّ صلى الله عليه وسلم فى أحبابه ، وناقضوه فى محابه .

قوله تعالى : ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ معناه أبعدوا من كل خير . واللعن فى اللغة : الإبعاد ، ومنه اللعان . ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ تقدم معناه فى غير موضع . والحمد لله رب العالمين .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾

أذية المؤمنين والمؤمنات هى أيضا بالأفعال والأقوال القبيحة ، كالبهتان والتكذيب الفاحش المختلق . وهذه الآية نظير الآية التى فى النساء : « وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا »[2] كما قال هنا . وقد قيل : إن من الأذية تعييره بحسب مذموم ، أو حرفة مذمومة ، أو شىء يثقل عليه إذا سمعه ، لأن أذاه فى الجملة حرام . وقد ميّز الله تعالى بين أذاه وأذى الرسول وأذى المؤمنين فجعل الأول كفرا والثانى كبيرة ، فقال فى أذى المؤمنين : ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ وقد بيّناه . وروى أن عمر بن الخطاب قال لأبىّ بن كعب : قرأت البارحة هذه الآية ففزعت منها « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا » الآية ، والله إنى لأضربهم وأنهرهم . فقال له أبىّ : يا أمير المؤمنين ، لست منهم ، إنما أنت معلم ومقوّم . وقد قيل : إن سبب نزول هذه الآية أن عمر رأى جارية من الأنصار فضربها وكره ما رأى من زينتها ، فخرج أهلها فآذوا عمر باللسان ؛ فأنزل الله هذه الآية . وقيل : نزلت فى علىّ ، فإن المنافقين كانوا يؤذونه ويكذبون عليه . رضى الله عنه .

---

(١) فى الأصول : « وفعل قولا ... » . (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٨٠ .

Marfat.com

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾

فيـه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ ﴾ قد مضى الكلام فى تفضيل أزواجه واحدة واحدة[(١)] . قال قتادة : مات رسول الله صـلى الله عليه وسـلم عن تسع . خمس من قريش : عائشة، وحفصة ، وأمّ حبيبة، وَسَوْدة ، وأمّ سـلمة . وثلاث من سائر العرب : ميمـونة، وزينب بنت جحش، وجويرية . وواحدة من بنى هارون : صفية . وأما أولاده فكان للنبيّ صلى الله عليه وسلم أولاد ذكور وإناث .

فالذكور من أولاده : القاسم ،أمّه خديجة، وبه كان يُكْنَى صلى الله عليه وسلم، وهو أول من مات من أولاده، وعاش سنتين . وقال عروة : ولدت خديجة للنبيّ صلى الله عليه وسلم القاسم والطاهر وعبد الله والطيّب . وقال أبو بكر البرقى : ويقال إن الطاهر هو الطيّب وهو عبد الله . وإبراهيم أمّه مارية القبطية ، ولد فى ذى الحجة سنة ثمـان من الهجرة ، وتوفى آبن ستة عشر شهرا ، وقيل ثمـانية عشر ؛ ذكره الدّارَقُطْنِيّ . ودفن بالبقيع . وقال صـلى الله عليه وسلم : " إن له مرضعا تُتِم رضاعه فى الجنة " . وجميع أولاد النبيّ صلى الله عليه وسـلم من خديجة سوى إبراهيم . وكل أولاده ماتوا فى حياته غير فاطمة .

وأما الإناث من أولاده فمنهنّ : فاطمة الزهراء بنت خديجة، ولدتها وقريش تبنى البيت قبل النبوّة بخمس سنين، وهى أصغر بناته ، وتزوّجها علىّ رضى الله عنهما فى السنة الثانية من الهجرة فى رمضان ، وبنى بها فى ذى الحجة . وقيـل : تزوّجها فى رجب ، وتوفيت بعـد رسول الله صلى الله عليه وسلم بيسير ، وهى أوّل من لحقه من أهل بيتـه . رضى الله عنها .

(١) راجع ص ١٦٢ فما بعد من هذا الجزء .

Marfat.com

ومنهن : زينب — أمها خديجة — تزوجها آبن خالتها أبو العاصى بن الربيع ، وكانت أم العاصى هالة بنت خويلد أخت خديجة . وآسم أبى العاصى لَقيط . وقيل هاشم . وقيل هُشيم . وقيل مِقْسم . وكانت أكبر بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفيت سنة ثمان من الهجرة ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبرها .

ومنهن : رُقَيّة — أمها خديجة — تزوجها عُتبة بن أبى لهَب قبل النبوة، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ »(١) قال أبو لهب لابنه : رأسى من رأسك حرام إن لم تطلّق آبنته ، ففارقها ولم يكن بَنَى بها . وأسلمت حين أسلمت أمها خديجة ، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم هى وأخواتها حين بايعه النساء، وتزوجها عثمان بن عفان ، وكانت نساء قريش يقلن حين تزوجها عثمان :

أحسنُ شخصين رأى إنسانُ * رقيّةٌ وبعلها عثمانُ

وهاجرت معه إلى أرض الحبشة الهجرتين ، وكانت قد أسقطت من عثمان سقطا(٢)، ثم ولدت بعد ذلك عبد الله، وكان عثمان يُكْنَى به فى الإسلام ، وبلغ ست سنين فنقره ديك فى وجهه فمات ، ولم تلد له شيئا بعد ذلك . وهاجرت إلى المدينة ومرضت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز إلى بدر فخلّف عثمانَ عليها ، فتوفّيت ورسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر، على رأس سبعة عشر شهرا من الهجرة . وقدم زيد بن حارثة بشيرا من بدر ، فدخل المدينة حين سوّى التراب على رُقَيّة . ولم يشهد دفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهن : أم كلثوم — أمها خديجة — تزوجها عُتيبة بن أبى لهب — أخو عتبة — قبل النبوّة، وأمره أبوه أن يفارقها للسبب المذكور فى أمر رقية، ولم يكن دخل بها، فلم تزل بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأسلمت حين أسلمت أمها ، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أخواتها حين بايعه النساء ، وهاجرت إلى المدينة حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما توفّيت رقية تزوجها عثمان ، وبذلك سمى ذا النُّورَيْن . وتوفيت

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٣٤ . (٢) السقط : بتثليث السين ، والكسر أكثر .

Marfat.com

فى حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم فى شعبان سنة تسع من الهجرة . وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرها، و نزل فى حفرتها عليّ والفضل وأسامة . وذكر الزبير بن بكار أن أكبر ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم : القاسم ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، وكان يقال له الطيّب والطاهر، ووُلد بعد النبوّة ومات صغيرا . ثم أمّ كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية . فمات القاسم بمكة ثم مات عبـــد الله .

الثانيـــة ــــ لمـا كانت عادة العربيات التبذّل، وكنّ يكشفْن وجوههنّ كما يفعل الإماء، وكان ذلك داعية إلى نظر الرجال إليهن ، وتشعّب الفكرة فيهن، أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمرهن بإرخاء الجلابيب عليهن إذا أردن الخروج إلى حوائجهن، وكنّ يتبرّزن فى الصحراء قبل أن تتخذ الكُنُف ــــ فيقع الفرق بينهن وبين الإماء، فتُعرف الحرائر بسترهن، فيُكفّ عن معارضتهن من كان عذَبا أو شابًّا . وكانت المرأة من نساء المؤمنين قبل نزول هذه الآية تتبرّز للحاجة فيتعرّض لها بعض الفجار يظن أنها أَمَة، فتصيح به فيذهب، فشكوا ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . ونزلت الآية بسبب ذلك . قال معناه الحسن وغيره .

الثالثـــة ــــ قوله تعالى : ﴿ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ الجلابيب جمع جلباب، وهو ثوب أكبر من الخمار . وروى عن ابن عباس وابن مسعود أنه الرداء . وقد قيل : إنه القناع . والصحيح أنه الثوب الذى يستر جميع البـدن . وفى صحيح مسلم عن أم عطيّة قلت : يا رســول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ قال : " لتُلْبِسْها أختُها من جلبابها " .

الرابعـــة ــــ واختلف الناس فى صــورة إرخائه ؛ فقال ابن عباس وعَبيدة السَّلْمانيّ : ذلك أن تلوِيه المرأة حتى لا يظهــر منها إلا عين واحدة تُبصر بهـا . وقال ابن عباس أيضا وقتادة : ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشــدّه، ثم تعطِفه على الأنف، وإن ظهــرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه . وقال الحسن : تغطّى نصف وجهها .

الخامســـة ــــ أمر الله سبحانه جميع النساء بالستر، وأن ذلك لا يكون إلا بما لا يصف جلدها، إلا إذا كانت مع زوجها فلها أن تلبس ما شاءت ؛ لأن له أن يستمتع بها كيف شاء .

Marfat.com

ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ ليلة فقال : "سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن وماذا فتح من الخزائن من يوقظ صواحب الحجر رُبَّ كاسيةٍ فى الدنيا عاريةٌ فى الآخرة" . وروى أن دِحْيَةَ الكلبيّ لما رجع من عند هِرَقْل فأعطاه النبيّ صلى الله عليه وسلم قُبْطِيَّة، فقال : "اجعل صديعاً لك قميصا وأعط صاحبتك صديعا تختمر به" . والصّديع النصف . ثم قال له : "مُرْها تجعل تحتها شيئا لئلا يصف" . وذكر أبو هريرة رقّة الثياب للنساء فقال: الكاسيات العاريات الناعمات الشقيّات[1] . ودخل نسوة من بنى تميم على عائشة رضى الله عنها عليهن ثياب رِقاق، فقالت عائشة : إن كنتنّ مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات، وإن كنتن غير مؤمنات فتمتعينه[2]. وأدخلت امرأة عروس على عائشة رضى الله عنها وعليها خمار قُبْطِيّ مُعَصْفَر، فلما رأتها قالت : لم تؤمن بسورة « النور » امرأة تلبس هذا . وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نساء كاسيات عاريات مائلات مُمِيلات رءوسهن مثل أسنمة البُخْت لا يَدخلْنَ الجنة ولا يجدْنَ ريحها" . وقال عمر رضى الله عنه: ما يمنع المرأة المسلمة إذا كانت لها حاجة أن تخرج فى أطمارها[3] أو أطمار جارتها مستخفية، لا يعلم بها أحد حتى ترجع الى بيتها.

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ ﴾ أى الحرائر ، حتى لا يختلطن بالإماء؛ فاذا عُرِفن لم يقابلن بأدنى من المعارضة مراقبة لرتبة الحرّية ، فتنقطع الأطماع عنهن . وليس المعنى أن تُعرف المرأة حتى تُعلم من هى . وكان عمر رضى الله عنه إذا رأى أمَة قد تقنعت ضربها بالدرّة ، محافظة على زىّ الحرائر . وقد قيل : إنه يجب الستر والتقنّع الآن فى حق الجميع من الحرائر والإماء. وهذا كما أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا النساء المساجد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قوله : "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله" حتى قالت عائشة رضى الله عنها : لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا لمنعهنّ من الخروج إلى المساجد كما مُنعت نساء بنى إسرائيل . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ تأنيس للنساء فى ترك الجلابيب قبل هذا الأمر المشروع .

(١) فى ح : « المتنعمات » . (٢) وردت هذه الكلمة محرّفة فى نسخ الأصل، ولعلها « فتمتعن به » .
(٣) الأطمار : جمع الطمر (بكسر الطاء وسكون الميم) وهو الثوب الخلق .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ الآية . أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد؛ كما روى سفيان بن سعيد عن منصور عن أبي رزين قال : «الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ» قال : هم شيء واحد، يعني أنهم قد جمعوا هذه الأشياء . والواو مقحمة ، كما قال :

إلى الملك القَرْم وابن الهمام * ولَيْثِ الكَتيبة في المُزْدحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة ، وقد مضى في « البقرة »[1] . وقيل : كان منهم قوم يُرجفون ، وقوم يتبعون النساء للرِّيبة ، وقوم يشكّكون المسلمين . قال عكرمة وشَهْر ابن حَوْشَب : « الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » يعني الذين في قلوبهم الزنى . وقال طاوس : نزلت هذه الآية في أمر النساء . وقال سلمة بن كُهيل : نزلت في أصحاب الفواحش ، والمعنى متقارب . وقيل : المنافقون والذين في قلوبهم مرض شيء واحد ، عبّر عنهم بلفظين ؛ دليله آية المنافقين في أول سورة « البقرة »[1] . والمرجفون في المدينة قوم كانوا يخبرون المؤمنين بما يسوءهم من عدوّهم ، فيقولون إذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنهم قد قتلوا أو هزموا ، وإن العدوّ قد أتاكم ، قاله قتادة وغيره . وقيل كانوا يقولون : أصحاب الصُّفّة قوم عزّاب ، فهم الذين يتعرّضون للنساء . وقيل : هم قوم من المسلمين ينطقون بالأخبار الكاذبة حُبًّا للفتنة . وقد كان في أصحاب الإفك قوم مسلمون ولكنهم خاضوا حُبًّا

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٥ وص ١٩٢ .

Marfat.com

للفتنة . وقال ابن عباس : الإرجاف التماس الفتنة ، والإرجاف : إشاعة الكذب والباطل للاغتمام[١] به . وقيل : تحريك القلوب ، يقال : رجفت الأرض — أى تحركت وتزلزلت — ترجُف رَجْفا . والرَّجَفان : الاضطراب الشديد . والرَّجّاف : البحر ، سُمّى به لاضطرابه . قال الشـاعر :

المُطعِمون اللحـم كلّ عشـيّة * حتى تَغيب الشمسُ فى الرّجاف[٢]

والإرجاف : واحـدُ أراجيف الأخبار . وقـد أرجَفوا فى الشئ ، أي خاضوا فيه .

قال الشـاعر :

فإنا وإن عيّرتمونا بقتـله * وأرجف بالإسلام باغ وحاسدُ

وقال آخـر :

أبالأراجيف يابن اللـؤم توعِدنى * وفى الأراجيف خِلت اللؤمُ والخور[٣]

فالإرجاف حرام ، لأن فيه إذاية . فدلّت الآية على تحريم الإيذاء بالإرجاف .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ أى لنسلطنّك عليهم فتستأصلهم بالقتل . وقال ابن عباس : لم ينتهوا عن إيذاء النساء وأن الله عز وجل قـد أغراه بهم . ثم إنه قال عز وجل : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ »[٤] وإنه أمره بلعنهم ، وهـذا هو الإغراء ؛ وقال محمد بن يزيد : قد أغراه بهم فى الآية التى تلى هـذه مع اتصال الكلام بها ، و... [illegible]له عز وجل : « أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا » . فهذا فيه معنى الأمر

---

(١) فى ز : « الاهتمام » وفى ش : الإغمام . (٢) قال ابن برى : البيت لمطرود بن كعب الخزاعى يرثى عبد المطلب جد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقبله :

يأيها الرجل المحوّل رحله * هلا نزلت بآل عبد مناف

(٣) البيت للعين المنقرى يهجو به العجاج أو رؤبة . والرواية المعروفة فيه :

أبالأراجيز يابن اللـؤم توعدنى * وفى الأراجيز خلت اللؤم والخور

والأراجيز : جمع أرجوزة بمعنى الرجز ، وهو بحر من بحور الشعر . وجاء به علماء النحو شاهدا على أن « خلت » من الأفعال التى يلغى عملها لتوسطها بين مفعوليها . ولو نصبت قوله « اللؤم والخور » على المفعولية لجاز . (راجع كتاب سيبويه جـ ١ ص ٦١ وباب ظن وأخواتها فى كتب النحو) . (٤) راجع جـ ٨ ص ٢١٨ .

بقتلهم وأخذهم ؛ أى هذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف . وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : « خمس يُقتلن فى الحلّ والحَرَم » . فهذا فيه معنى الأمر كالآية سواء . النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى الآية . وقيل : إنهم قد انتهوا عن الإرجاف فلم يُغربهم . ولام «لَنُغْرِيَنَّكَ» لام القسم ، واليمين واقعة عليها ، وأدخلت اللام فى «إن» توطئة لها.

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ أى فى المدينة . ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصب على الحال من الضمير فى « يُجَاوِرُونَكَ » ؛ فكان الأمر كما قال تبارك وتعالى ؛ لأنهم لم يكونوا إلا أقلاء . فهذا أحد جوابى الفرّاء ، وهو الأولى عنده ، أى لا يجاورونك إلا فى حال قلتهم . والجواب الآخر — أن يكون المعنى إلا وقتا قليلا ، أى لا يبقون معك إلا مدّة يسيرة ، أى لا يجاورونك فيها إلا جوارا قليلا حتى يهلكوا ، فيكون نعتا لمصدر أو ظرف محذوف . ودلّ على أن مَن كان معك ساكنا بالمدينة فهو جارٌ . وقد مضى فى « النساء »(1) .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿مَلْعُونِينَ﴾ هذا تمام الكلام عند محمد بن يزيد ، وهو منصوب على الحال . وقال ابن الأنبارى : « قليلا ملعونين » وقف حسن . النحاس : ويجوز أن يكون التمام « إِلَّا قَلِيلًا » وتنصب « مَلْعُونِينَ » على الشتم . كما قرأ عيسى بن عمر: «وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ» . وقد حكى عن بعض النحويين أنه قال : يكون المعنى أينما ثُقفوا أخذوا ملعونين . وهذا خطأ لا يَعمل ما [كان](2) مع المجازاة فيما قبله . وقيل : معنى الآية إن أصرّوا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا وهم مطرودون ملعونون . وقد فعل بهم هذا ، فإنه لما نزلت سورة « براءة » جمعوا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " يافلان قم فاخرج فإنك منافق ويا فلان قم " فقام إخوانهم من المسلمين وتولّوا إخراجهم من المسجد .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ نصب على المصدر ؛ أى سنّ الله جل وعز فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويُقتل . ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أى تحويلا وتغييرا ، حكاه النقّاش . وقال السدّى : يعنى أن من قُتل بحق فلا دِية على قاتله .

(1) راجع جـ ٥ ص ١٨٣ فما بعد .	(2) زيادة عن النحاس .

Marfat.com

المهدوي : وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد ، والدليل على ذلك بقاء المنافقين معه حتى مات . والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم ، وقد مضى هذا في « آل عمران »[1] وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ هؤلاء المؤذون لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما توعدوا بالعذاب سألوا عن الساعة ، استبعادا وتكذيبا ، موهمين أنها لا تكون . ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي أجبهم عن سؤالهم وقل علمها عند الله، وليس في إخفاء الله وقتها عني ما يبطل نبوتي، وليس من شرط النبي أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله جل وعز . ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أي ما يعلمك . ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ أي في زمان قريب . وقال صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار إلى السبابة والوسطى ، خرجه أهل الصحيح . وقيل : أي ليست الساعة تكون قريبا ، فحذف هاء التأنيث ذهابا بالساعة إلى اليوم ؛ كقوله : « إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » ولم يقل قريبة ذهابا بالرحمة إلى العفو ، إذ ليس تأنيثها أصليا . وقد مضى هذا مستوفى[2] . وقيل : إنما أخفى وقت الساعة ليكون العبد مستعدا لها في كل وقت

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي طردهم وأبعدهم . واللعن : الطرد والإبعاد عن الرحمة . وقد مضى في « البقرة »[3] بيانه . ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ فأنث السعير لأنها بمعنى النار . ﴿ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ ينجيهم من عذاب الله والخلود فيه .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٠٣ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٧ . (٣) راجع جـ ٢ ص ٢٥ .

Marfat.com

قوله تعالى : يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ قراءة العامة بضم التاء وفتح اللام، على الفعل المجهول . وقرأ عيسى الهمدانى وابن إسحاق : « نُقَلِّبُ » بنون وكسر اللام . « وُجُوهَهُمْ » نصبا . وقرأ عيسى أيضا : « تُقَلِّبُ » بضم التاء وكسر اللام على معنى تقلب السعيرُ وجوهَهم . وهذا التقليب تغيير ألوانهم بلفح النار، فتسودّ مرة وتخضرّ أخرى . و إذا بدّلت جلودهم بجلود أخر فحينئذ يتمنون أنهم ما كفروا ﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا ﴾ . ويجوز أن يكون المعنى : يقولون يوم تقلّب وجوههم فى النار يا ليتنا . ﴿ أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾ أى لم نكفر فننجو من هذا العذاب كما نجا المؤمنون . وهذه الألف تقع فى الفواصل فيوقف عليها ولا يوصل بها . وكذا « السَّبِيلَا » وقد مضى فى أوّل السورة[1] . وقرأ الحسن : « إِنَّا أَطَعْنَا سَادَاتِنَا » بكسر التاء، جمع سادة . وكان فى هذا زجر عن التقليد . والسادة جمع السيد، وهو فَعَلة، مثل كتبة وفجرة . وساداتنا جمع الجمع . والسادة والكبراء بمعنًى . وقال قتادة : هم المطعمون فى غزوة بدر . والأظهر العموم فى القادة والرؤساء فى الشرك والضلالة ، أى أطعناهم فى معصيتك وما دعونا إليه ﴿ فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ أى عن السبيل وهو التوحيد، فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب . والإضلال لا يتعدّى إلى مفعولين من غير توسط حرف الجر، كقوله : « لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ[2] » .

قوله تعالى : رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

(١) راجع ص ١٤٥ من هذا الجزء .
(٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٥ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ قال قتادة : عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . وقيل : عذاب الكفر وعذاب الإضلال؛ أى عذّبهم مثلَى ماتعذّبنا فإنهم ضلّوا وأضلّوا . ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ قرأ ابن مسعود وأصحابه ويحيى وعاصم بالباء. الباقون بالثاء، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد والنحاس، لقوله تعالى: « أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ »(١) وهذا المعنى كثير . وقال محمد بن أبى السرى : رأيت فى المنام كأنى فى مسجد عسقلان وكأن رجلا يناظرنى فيمن يبغض أصحاب محمد فقال : والعنهم لعنا كثيرا، ثم كررها حتى غاب عنى، لا يقولها إلا بالثاء . وقراءة الباء ترجع فى المعنى إلى الثاء؛ لأن ما كبر كان كثيرا عظيم المقدار .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

لما ذكر الله تعالى المنافقين والكفار الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، حذر المؤمنين من التعرض للإيذاء، ونهاهم عن التشبّه ببنى اسرائيل فى أذيّتهم نبيّهم موسى . واختلف الناس فيما أوذى به محمد صلى الله عليه وسلم وموسى ، فحكى النقاش أن أذيّتهم محمدا عليه السلام قولهم : زيد بن محمد . وقال أبو وائل : أذيته أنه صلى الله عليه وسلم قسم قسما فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فغضب وقال : " رحم الله موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر" . وأما أذيّة موسى صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس وجماعة : هى ما تضمّنه حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أنه قال : " كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة وكان موسى عليه السلام يتستّر كثيرا ويخفى بدنه فقال قوم هو آدر(٢) وأبرص أو به آفة، فانطلق ذات يوم يغتسل فى عين بأرض الشام وجعل ثيابه على صخرة ففرّ الحجر بثيابه واتبعه موسى عريانا يقول ثوبى حَجَرُ ثوبى حَجَرُ(٣) حتى انتهى الى ملأ من بنى إسرائيل فنظروا إليه وهو من

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٨٤ فما بعد . (٢) الأدره (وزان الغرفة) : انتفاخ الخصية .

(٣) أى دع ثوبى يا حجر .

Marfat.com

أحسنهم خَلْقا وأعد لهم صورة وليس به الذى قالوا فهو قوله تبارك وتعالى : « فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا » " أخرجه البخارىّ ومسلم بمعناه . ولفظ مسلم : قال قال رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : "كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سَـوْءةِ بعض وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر قال فذهب يوما(١) يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففرّ الحجر بثوبه قال فجمح(٢) موسى عليه السلام بإثره يقول ثَوْبِى حَجَرُ ثوبى حَجَرُ حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سَوْءة موسى وقالوا والله ما بموسى من بأس فقام الحجر حتى نُظِر إليه قال فأخذ ثوبه فطفِق بالحجر ضَرْبا " قال أبو هريرة : والله إنه بالحجر نَدَبٌ(٣) ستةٌ أو سبعةٌ ضَرْبُ موسى بالحجر . فهـذا قول . وروى عن ابن عباس عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : آذَوْا موسى بأن قالوا : قتل هارون؛ وذلك أن موسى وهرون خرجا من فَحْص(٤) التِّيه إلى جبل فمـات هارون فيه، فجاء موسى فقالت بنو إسرائيل لموسى : أنت قتلته، وكان ألين لنا منك وأشدّ حُبًّا . فآذوه بذلك فأمر الله تعـالى الملائكة فحملته حتى طافوا به فى بنى إسرائيل ، ورأوا آية عظيمة دلّتهم على صدق موسى ، ولم يكن فيه أثر القتل . وقد قيل : إن الملائكة تكلّمت بموته ولم يعرف موضع قبره إلا الرَّخَم، وأنه تعالى جعله أصم أبكم . ومات هارون قبل موسى فى التِّيه ، ومات موسى قبل انقضاء مدّة التِّيه بشهرين . وحكى القشيرىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : أن الله تعالى أحيا هارون فأخبرهم أنه لم يقتله ، ثم مات . وقد قيل : إن أَذِيّة موسى عليه السلام رميهم إياه بالسحر والجنون . والصحيح الأول . و يحتمل أن فعلوا كل ذلك فبرّأه الله من جميع ذلك .

مســـألة — فى وضع موسى عليه السلام ثوبه على الحجر ودخوله فى المـاء عُريانا — دليل على جواز ذلك، وهو مذهب الجمهور . ومنعه ابن أبى لَيْلَى واحتجّ بحديث لم يصحّ ؛ وهو

---

(١) فى مسلم : « مرة » . (٢) جرى أشد الجرى . (٣) الندب (بالتحريك) : أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد ، فشبـه به أثر الضرب فى الحجر . (٤) قال ياقوت : الفحص كل موضع يسكن سهلا كان أو جبلا بشرط أن يزرع . والتيه : هو الموضع الذى ضـل فيه موسى بن عمران عليه السلام وقومه . وهو أرض بين أيلة (العقبة) ومصر و بحر القلزم (البحر الأحمر) . وهو الآن قلب شبه جزيرة طورسينا .

Marfat.com

قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تدخلوا الماء إلا بمئزر فإن للماء عامرا " . قال القاضى عياض : وهو ضعيف عند أهل العلم .

قلت : أما إنه يستحب التستر لما رواه إسرائيل عن عبد الأعلى أن الحسن بن علىّ دخل غَديرا وعليه بُرد له متوشحا به ، فلما خرج قيل له ، قال : إنما تسترت ممن يرانى ولا أراه؛ يعنى من ربى والملائكة . فإن قيل : كيف نادى موسى عليه السلام الحجر نداء من يعقل ؟ قيل : لأنه صدر عن الحجر فعل مَن يعقل . و « حَجَرُ » منادى مفرد محذوف حرف النداء ، كما قال تعالى : « يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا »[1] . و « ثوبى » منصوب بفعل مضمر؛ التقدير: أعطنى ثوبى، أو اترك ثوبى، فحذف الفعل لدلالة الحال عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهًا ﴾ أى عظيما . والوجيه عند العرب : العظيم القدر الرفيع المنزلة . و يروى أنه كان إذا سأل الله شيئا أعطاه إياه . وقرأ ابن مسعود : « وَكَانَ عَبْدًا لِلهِ » . وقيل : معنى « وَجِيهًا » أى كلمه تكليما . قال أبو بكر الأنبارىّ فى (كتاب الرد) : زعم مَن طعن فى القرآن أن المسلمين صحّفوا « وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهًا » وأن الصواب عنده « وَكَانَ عَبْدًا لِلهِ وَجِيهًا » وذلك يدل على ضعف مقصده ونقصان فهمه وقلة علمه ، وذلك أن الآية لو حملت على قوله وقرئت : « وكان عبدا » نقص الثناء على موسى عليه السلام؛ وذلك أن « وَجِيهًا » يكون عند أهل الدنيا وعند أهل زمانه وعند أهل الآخرة، فلا يوقف على مكان المدح، لأنه إن كان وجيها عند بنى الدنيا كان ذلك إنعاما من الله عليه لا يبين عليه معه ثناء من الله . فلما أوضح الله تعالى موضع المدح بقوله : « وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهًا » استحق الشرف وأعظم الرفعة بأن الوجاهة عند الله ، فمن غيّر اللفظة صرف عن نبىّ الله أفخر الثناء وأعظم المدح .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾

(١) راجع ج ٩ ص ١٧٥ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أى قصدا وحقا . وقال ابن عباس : أى صوابا . وقال قتادة ومقاتل : يعنى قولوا قولا سديدا فى شأن زينب وزيد ، ولا تنسبوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما لا يحلّ . وقال عكرمة وابن عباس أيضا : القول السداد لا إله إلا الله . وقيل : هو الذى يوافق ظاهره باطنه . وقيل : هو ما أريد به وجه الله دون غيره . وقيل : هو الإصلاح بين المتشاجرين . وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض . والقول السداد يعم الخيرات ، فهو عام فى جميع ما ذكر وغير ذلك .

وظاهر الآية يعطى أنه إنما أشار إلى ما يكون خلافا للأذى الذى قيل فى جهة الرسول وجهة المؤمنين . ثم وعد جل وعز بأنه يجازى على القول السداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب ؛ وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة . ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أى فيما أمر به ونهى عنه ﴿ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

لما بيّن تعالى فى هذه السورة من الأحكام ما بيّن ، أمر بالتزام أوامره . والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور . روى الترمذى الحكيم أبو عبد الله : حدثنا إسماعيل بن نصر عن صالح بن عبد الله عن محمد بن يزيد[1] بن جوهر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تعالى لآدم يا آدم إنى عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها فقال

(١) فى ش و ك : « محمد بن زيد » ولم نقف على تصويبه .

Marfat.com

وما فيها يا رب قال إن حملتها أُجرت وإن ضيّعتها عُذّبت فاحتملها بمـا فيها فلم يلبث فى الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها " . فالأمانة هى الفرائض التى ائتمن الله عليها العباد . وقـد اختلف فى تفاصيل بعضها على أقوال ؛ فقال ابن مسعود : هى فى أمانات الأموال كالودائع وغيرها . وروى عنه أنهـا فى كل الفرائض ؛ وأشـدّها أمانة المـال . وقال أُبَىّ بن كَعْب : من الأمانة أن ائتمنت المـرأة على فرجها . وقال أبو الدرداء : غسل الجنابة أمانة ، وأن الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شىء من دينه غيرها . وفى حديث مرفوع " الأمانة الصـلاة " إن شئت قلت قـد صلّيت وإن شئت قلت لم أصـلّ . وكذلك الصيام وغسل الجنـابة . وقال عبـد الله بن عمرو بن العـاص : أوّل ما خلق الله تعـالى من الإنسان فرجه وقال هـذه أمانة استودعتكها ، فلا تلبسها[1] إلا بحق . فإن حفظتها حفظتك ، فالفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليـد أمانة ، والرجل أمانة ، ولا إيمـان لمن لا أمانة له . وقال السدّى : هى ائتمـان آدم ابنه قابيل على ولده وأهـله ، وخيانته إياه فى قتـل أخيه . وذلك أن الله تعالى قال له : " يا آدم ، هل تعلم أن لى بيتا فى الأرض " قال : " اللهم لا " قال : " فإن لى بيتا بمكة فأته ، فقال للسماء : احفظى ولدى بالأمانة ؟ فأبت ، وقال للأرض : احفظى ولدى بالأمانة فأبت ، وقال للجبال كذلك فأبت . فقال لقابيل : احفظ ولدى بالأمانة ، فقال نعم ، تذهب وترجع فتجد ولدك كما يسرك . فرجع فوجده قد قتل أخاه ، فذلك قوله تبارك وتعـالى : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا » الآية . وروى معمر عن الحسن أن الأمانة عُرضت على السموات والأرض والجبـال ، قالت : وما فيها ؟ قيل لها : إن أحسنتِ جوزيتِ وإن أسأتِ عوقبتِ . فقالت لا . قال مجاهد : فلمـا خلق الله تعالى آدم عرضها عليـه ، قال : وما هى ؟ قال : إن أحسنت أجرتك وإن

(١) كذا وردت هـذه الجملة فى نسخ الأصل . والذى فى نوادر الأصول : « فلا تبسل منها شيئا إلا بحقها » والإبسال هنا التضييع ؛ وهو رواية الدر المنثور ؛ قال : « فلا تضيعها إلا فى حقهـا » . يقال : أبسلت فلانا إذا أسـلمته للهلكة .

Marfat.com

أساتَ عذّبتك . قال : فقد تحملتها يارب . قال مجاهد : فما كان بين أن تحملها إلى أن أُخرج من الجنة إلا قدر ما بين الظهر والعصر . وروى علىّ بن طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ » قال : الأمانة الفرائض ، عرضها الله عز وجل على السموات والأرض والجبال ، إن أدّوها أثابهم ، و إن ضيّعوها عذّبهم . فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله عز وجل ألا يقوموا به . ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها . قال النحاس : وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير . وقيل : لما حضرت آدم صلى الله عليه وسلم الوفاة أمر أن يعرض الأمانة على الخلق ، فعرضها فلم يقبلها إلا بنوه . وقيل : هذه الأمانة هى ما أودعه الله تعالى فى السموات والأرض والجبال والخلق ، من الدلائل على ربوبيته أن يظهروها فأظهروها ، إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدها ؛ قاله بعض المتكلمين . ومعنى « عَرَضْنَا » أظهرنا ، كما تقول : عرضت الجارية على البيع . والمعنى إنا عرضنا الأمانة وتضييعها على أهل السموات وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن (فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا) أى أن يحملن وزرها ، كما قال جل وعز : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ »[(1)] . (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) قال الحسن : المراد الكافر والمنافق . (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا) لنفسه (جَهُولًا) بربه . فيكون على هذا الجواب مجازا ، مثل : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »[(2)] . وفيه جواب آخر على أن يكون حقيقة أنه عرض على السموات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وهى الثواب والعقاب ، أى أظهر لهن ذلك فلم يحملن وزرها ، وأشفقت وقالت : لا أبتغى ثوابا ولا عقابا ، وكلٌّ يقول : هذا أمر لا نطيقه ، ونحن لك سامعون ومطيعون فيما أُمرن به وسُخّرن له ؛ قاله الحسن وغيره . قال العلماء : معلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب ، فلا بد من تقدير الحياة على القول الأخير . وهذا العرض عرض تخيير لا إلزام . والعرض على الإنسان إلزام . وقال القفّال وغيره : العرض فى هذه الآية ضرب مَثَل ، أى أن السموات والأرض على كبر أجرامها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٠ فما بعد . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ فما بعد .

Marfat.com

تقلد الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب ، أى أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد كُلِّفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عَقَل . وهذا كقوله : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَـٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ »(١) — ثم قال : — « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » . قال القفال : فإذا تقرّر فى أنه تعالى يضرب الأمثال ، وورد علينا من الخبر ما لا يخرج إلا على ضرب المثل ، وجب حمله عليه . وقال قوم : إن الآية من المجاز ، أى إنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت ، فعبّر عن هذا المعنى بقوله . « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ » الآية . وهذا كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه ، وأنت تريد قايست قوته بثقل الحمل ، فرأيت أنها تقصر عنه . وقيل : « عَرَضْنَا » بمعنى عارضنا الأمانة بالسموات والأرض والجبال فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة ، ورجحت الأمانة بثقلها عليها . وقيل : إن عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال إنما كان من آدم عليه السلام . وذلك أن الله تعالى لما آستخلفه على ذرّيته ، وسلّطه على جميع ما فى الأرض من الأنعام والطير والوحش ، وعهد إليه عهدا أمره فيه ونهاه وحرّم وأحلّ ، فقبله ولم يزل عاملا به . فلما أن حضرته الوفاة سأل الله أن يعلمه مَن يستخلف بعده ، ويقلده من الأمانة ما تقلده ، فأمره أن يعرض ذلك على السموات بالشرط الذى أخذ عليه من الثواب إن أطاع ومن العقاب إن عصى ، فأبَيْن أن يقبلنه شفقًا(٢) من عذاب الله . ثم أمره أن يعرض ذلك على الأرض والجبال كلها فأبياه . ثم أمره أن يعرض ذلك على ولده فعرضه عليه فقبله بالشرط ، ولم يَهَب منه ما تهيبت السموات والأرض والجبال . « إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا » لنفسه « جَهُولًا » بعاقبة ما تقلّد لربه . قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله محمد بن على : عجبت من هذا القائل من أين أتى بهذه القصة ! فإن نظرنا إلى الآثار وجدناها بخلاف ما قال ، وإن نظرنا إلى ظاهره وجدناه بخلاف ما قال ، وإن نظرنا إلى باطنه وجدناه بعيدا مما قال ! وذلك أنه ردّد ذكر الأمانة ولم يذكر ما الأمانة ، إلا أنه يومئ فى مقالته إلى أنه سلّطه على

(١) راجع جـ ١٨ ص ٤٤ . (٢) الشفق والاشفاق : الخوف .

Marfat.com

جميع ما فى الأرض، وعهِد الله إليه عهدا فيه أمره ونهيه وحِلّه وحرامه، وزعم أنه أمره أن يعرض ذلك على السموات والأرض والجبال؛ فما تصنع السموات والأرض والجبال بالحلال والحرام؟ وما التسليط(1) على الأنعام والطير والوحش! وكيف إذا عرضه على ولده فقبله فى أعناق ذرّيته من بعده. وفى مبتدأ الخبر فى التنزيل أنه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال حتى ظهر الإباء منهم، ثم ذكر أن الإنسان حملها، أى من قِبَل نفسه لا أنه حُمِّل ذلك، فسماه «ظَلُومًا» أى لنفسه، «جَهُولًا» بما فيها. وأما الآثار التى هى بخلاف ماذكر، فحدثنى أبى رحمه الله قال حدثنا الفيض بن الفضل الكوفى حدثنا السِّرِيّ بن إسماعيل عن عامر الشّعبيّ عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: لما خلق الله الأمانة مثّلها صخرة، ثم وضعها حيث شاء، ثم دعا لها السموات والأرض والجبال ليحمِلْنها، وقال لهن: إنّ هذه «الأمانة»، ولها ثواب وعليها عقاب؛ قالوا: يارب، لا طاقة لنا بها؛ وأقبل الإنسان من قبْل أن يدعى فقال للسموات والأرض والجبال: ما وقوفكم؟ قالوا: دعانا ربنا أن نحمل هذه فأشفقن منها ولم نطقها؛ قال: فحركها بيده وقال: والله لو شئت أن أحملها لحملتها؛ فحملها حتى بلغ بها إلى ركبتيه، ثم وضعها وقال: والله لو شئت أن أزداد لَزْددت؛ قالوا: دونك! فحملها حتى بلغ بها حِقْوَيه(2)، ثم وضعها وقال: والله لو شئت أن أزداد لَزْددت؛ قالوا: دونك، فحملها حتى وضعها على عاتقه، فلما أهوى ليضعها، قالوا: مكانك! إن هذه «الأمانة» ولها ثواب وعليها عقاب، وأمرنا ربنا أن نحملها فأشفقن منها، وحملتها أنت من غير أن تدعى لها، فهى فى عنقك وفى أعناق ذرّيتك إلى يوم القيامة، إنك كنت ظلوما جهولا. وذكر أخبارا عن الصحابة والتابعين تقدم أكثرها. ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ أى التزم القيام بحقها، وهو فى ذلك ظلوم لنفسه. وقال قتادة: للأمانة، جهول بقدر ما دخل فيه. وهذا تأويل ابن عباس وابن جُبير. وقال الحسن: جهول بربه. قال: ومعنى «حملها» خان فيها. وقال الزجاج: والآية فى الكافر والمنافق والعصاة على قدرهم على هذا التأويل. وقال ابن عباس وأصحابه

(1) فى ا: «وما تسليطه».　　(2) الحقو (بفتح الحاء وكسرها): الخاصرة.

Marfat.com

والضحاك وغيره : «الإنسان» آدم، تحمّل الأمانة فما تمّ له يوم حتى عصى المعصية التي أخرجته من الجنة . وعن ابن عباس أن الله تعالى قال له : أتحمل هذه الأمانة بما فيها . قال وما فيها ؟ قال : إن أحسنتَ جُزيت وإن أسأت عوقبت . قال : أنا أحملها بما فيها بين أذنى وعاتق . فقال الله تعالى له : إنى سأعينك، قد جعلت لبصرك حجابا فأغلقه عما لا يحلّ لك، ولفرجك لباسا فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك. وقال قوم : «الإنسان» النوع كله. وهذا حسن مع عموم الأمانة كما ذكرناه أولا . وقال السدّى : الإنسان قابيل . فالله أعلم . ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴾ اللام فى « لِيُعَذِّبَ » متعلقة بـ « حمل » أى حملها ليعذب العاصى ويثيب المطيع ؛ فهى لام التعليل ؛ لأن العذاب نتيجة حمل الأمانة . وقيل بـ « عرضنا » ؛ أى عرضنا الأمانة على الجميع ثم قلدناها الإنسان ليظهر شركُ المشرك ونفاق المنافق ليعذبهم الله، وإيمانُ المؤمن ليثيبه الله . ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ ﴾ قراءة الحسن بالرفع ، يقطعه من الأول؛ أى يتوب الله عليهم بكل حال . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ خبر بعد خبر لـ « كان » . ويجوز أن يكون نعتا لغفور، ويجوز أن يكون حالا من المضمر . والله أعلم بالصواب .

سورة سبأ

مكية فى قول الجميع، إلا آية واحدة اختلف فيها، وهى قوله تعالى : «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» الآية . فقالت فرقة : هى مكية، والمراد المؤمنون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ قاله ابن عباس . وقالت فرقة : هى مدنية، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة؛ كعبد الله بن سلام وغيره؛ قاله مقاتل . وقال قتادة : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنون به كائنا من كان . وهى أربع وخمسون آية .

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ « الَّذِى » فى موضع خفض على النعت أو البدل . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على إضمار مبتدأ ، وأن يكون فى موضع نصب بمعنى أعنى . وحكى سيبويه « الحمد لله أهل الحمد » بالرفع والنصب والخفض . والحمد الكامل والثناء الشامل كله لله ؛ إذ النعم كلها منه . وقد مضى الكلام فيه فى أول الفاتحة[(١)] . ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ ﴾ قيل : هو قوله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ[(٢)] » . وقيل : هو قوله « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[(٣)] » فهو المحمود فى الآخرة كما أنه المحمود فى الدنيا ، وهو المالك للآخرة كما أنه المالك للأولى . ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ فى فعله . ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بأمر خلقه .

قوله تعالى : يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى ما يدخل فيها من قطر وغيره ، كما قال : « فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الْأَرْضِ[(٢)] » من الكنوز والدفائن والأموات وما هى له كفات[(٤)] . ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وغيره . ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والمقادير والبركات . وقرأ على بن أبى طالب « وما ننزل » بالنون والتشديد . ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ من الملائكة وأعمال العباد ؛ قاله الحسن وغيره . ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٣١ .
(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٤ فما بعد وص ٢٤٥ .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣١٣ .
(٤) الكفات : الموضع الذى يضم إليه الشىء ويقبض .

Marfat.com

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٣) لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُولَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ قيل : المراد أهل مكة . قال مقاتل : قال أبو سفيان لكفار مكة : واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبدا ولا نُبعث . فقال الله : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ وروى هارون عن طَلْق المعلم قال : سمعت أشياخنا يقرءون « قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَيَأْتِيَنَّكُمْ » بياء، حملوه على المعنى، كأنه قال : ليأتينكم البعث أو أمره . كما قال : « هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ »(١) . فهؤلاء الكفار مقرون بالابتداء منكرون الإعادة، وهو نقض لما اعترفوا بالقدرة على البعث، وقالوا : وإن قدر لا يفعل . فهذا تحكّم بعد أن أخبر على ألسنة الرسل أنه يبعث الخلق ، وإذا ورد الخبر بشيء وهو ممكن في الفعل مقدور، فتكذيب مَن وجب صدقه محال . ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ بالرفع قراءة نافع وابن كثير على الابتداء ، وخبره « لَا يَعْزُبُ عَنْهُ » وقرأ عاصم وأبو عمرو « عالِمِ » بالخفض، أي الحمد لله عالم، فعلى هذه القراءة لا يحسن الوقف على قوله : « لَتَأْتِيَنَّكُمْ » . وقرأ حمزة والكسائي : « علّام الغيب » على المبالغة والنعت . ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ أي لا يغيب عنه، « ويَعْزِب » أيضا . قال الفراء : والكسر أحبّ إليّ . النحاس : وهي قراءة يحيى بن وثاب، وهي لغة معروفة . يقال : عزَب يعزُب و يعزِب إذا بَعُد وغاب . ﴿ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ أي قدر نملة صغيرة . ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ ﴾ وفي قراءة الأعمش « وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ » بالفتح فيهما عطفا على « ذَرَّةٍ » . وقراءة العامة

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٢ .

Marfat.com

بالرفع عطفا على « مِثْقَالُ » . ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ فهو العالم بما خلق ولا يخفى عليه شيء .
﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ منصوب بلام كي، والتقدير: لتأتينكم ليجزى. ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾
بالثواب ، والكافرين بالعقاب . ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ يعنى المؤمنين . ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم .
﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو الجنة .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا ﴾ أى فى إبطال أدلتنا والتكذيب بآياتنا .
﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا ، وأن الله لا يقدر على بعثهم فى الآخرة ، وظنوا
أنا نُهملهم ؛ فهؤلاء ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ ﴾ يقال : عاجزه وأعجزه إذا غالبه وسبقه .
و « أَلِيمٍ » قراءة نافع بالكسر نعتا للرجز، فإن الرجز هو العذاب، قال الله تعالى : « فَأَنْزَلْنَا عَلَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ »(١) . وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم « عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ »
برفع « الميم » هنا وفى « الجاثية »(٢) نعتا للعذاب. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحُميد بن قيس ومجاهد
وأبو عمرو « مُعَجِّزِينَ » مثبطين؛ أى ثبطوا الناس عن الإيمان بالمعجزات وآيات القرآن .

قوله تعالى : وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾

لما ذكر الذين سعوا فى إبطال النبوة بيّن أن الذين أوتوا العلم يرون أن القرآن حق .
قال مقاتل : « الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » هم مؤمنو أهل الكتاب . وقال ابن عباس : هم أصحاب
محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل جميع المسلمين ، وهو أصح لعمومه . والرؤية بمعنى العلم ، وهو
فى موضع نصب عطفا على « لِيَجْزِيَ » أى ليجزى وليرى، قاله الزجاج والفراء . وفيه نظر؛

(١) راجع جـ ١ ص ٤١٥ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٥٩ فما بعد .

Marfat.com

لأن قوله : « لِيَجْزِيَ » متعلق بقوله : « لَتَأْتِيَنَّكُمُ السَّاعَةُ » ، ولا يقال : لتأتينكم الساعة ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق ، فإنهم يرون القرآن حقًّا وإن لم تأتهم الساعة . والصحيح أنه رفع على الاستئناف ، ذكره القشيري .

قلت : وإذا كان « لِيَجْزِيَ » متعلقا بمعنى أثبت ذلك فى كتاب مبين ، فيحسن عطف « وَيَرَى » [عليه] ، أى وأثبت أيضا ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق (1) . ويجوز أن يكون مستأنفا . ﴿ الَّذِي ﴾ فى موضع نصب على أنه مفعول أول لـ « يرى » ﴿ هُوَ الْحَقَّ ﴾ مفعول ثان ، و « هو » فاصلة . والكوفيون يقولون « هو » عماد . ويجوز الرفع على أنه مبتدأ . و « الْحَقُّ » خبره ، والجملة فى موضع نصب على المفعول الثانى ، والنصب أكثر فيما كانت فيه الألف واللام عند جميع النحويين ، وكذا ما كان نكرة لا يدخله الألف واللام فيشبه المعرفة . فإن كان الخبر اسما معروفا نحو قولك : كان أخوك هو زيد ، فزعم الفراء أن الاختيار فيه الرفع . وكذا كان محمد هو عمرو . وعلته فى اختياره الرفع أنه لما لم تكن فيه الألف واللام أشبه النكرة فى قولك : كان زيد هو جالس ، لأن هذا لا يجوز فيه إلا الرفع . ﴿ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ أى يهدى القرآن إلى طريق الإسلام الذى هو دين الله . ودل بقوله : « العزيز » على أنه لا يغالب . وبقوله : « الحميد » على أنه لا يليق به صفة العجز .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ ﴾ وإن شئت أدغمت اللام فى النون لقربها منها . ﴿ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ هذا إخبار عمن قال : « لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ » أى هل نرشدكم إلى رجل ينبئكم ، أى يقول لكم : إنكم تبعثون بعد البلى فى القبور . وهذا صادر عن فرط إنكارهم . الزمخشرى : « فإن قلت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهورا علما فى قريش ، وكان إنباؤه بالبعث شائعا عندهم ، فما معنى قولهم : « هَلْ نَدُلُّكُمْ

(1) فى الأصول : « وأثبت أيضا رؤية الذين ... » .

Marfat.com

عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ » فنكّروه لهم وعرضوا عليهم الدلالة عليه، كما يُدَلّ على مجهول فى أمر مجهول. قلت : كانوا يقصدون بذلك الطّنز(١) والهزؤ والسخرية ، فأخرجوه مخرج التحكى(٢) ببعض الأحاجى التى يتحاجى بها للضحك والتلهى ، متجاهلين به و بأمره . و « إذا » فى موضع نصب والعامل فيها « مُزِّقْتُمْ » قاله النحاس . ولا يجوز أن يكون العامل فيها « يُنَبِّئُكُمْ » ، لأنه ليس يخبرهم ذلك الوقت . ولا يجوز أن يكون العامل فيها ما بعد « إنَّ » ، لأنه لا يعمل فيما قبله ، وألا يتقدّم عليها ما بعدها ولا معمولها . وأجاز الزجاج أن يكون العامل فيها محذوفا ؛ التقدير : إذا مزقتم كل ممزق بعثتم ، أو ينبئكم بأنكم تبعثون إذا مزقتم . المهدوى : ولا يعمل فيه « مُزِّقْتُمْ » ؛ لأنه مضاف إليه، والمضاف إليه لا يعمل فى المضاف . وأجازه بعضهم على أن يجعل « إذَا » للجازاة ، فيعمل فيها حينئذ ما بعدها لأنها غير مضافة إليه . وأكثر ما تقع « إذَا » للجازاة فى الشعر . ومعنى ﴿ مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ فرقتم كل تفريق . والمَزْق خرق الأشياء؛ يقال : ثوب مَزِيق وممزوق ومتمزِّق وممزَّق .

قوله تعالى : أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفْتَرَى على اللهِ كَذِباً ﴾ لما دخلت ألف الاستفهام استغنيت عن ألف الوصل فحذفتها ، وكان فتح ألف الاستفهام فرقا بينها و بين ألف الوصل . وقد مضى هذا فى سورة « مريم » عند قوله تعالى : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ »(٣) مستوفًى . ﴿ أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ هذا مردود على ماتقدّم من قول المشركين، والمعنى : قال المشركون « أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً » . والافتراء الاختلاق . « أَمْ بِهِ جِنَّةٌ » أى جنون، فهو يتكلم بما لا يدرى . ثم ردّ عليهم فقال : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِى الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ أى ليس الأمر كما قالوا، بل هو أصدق الصادقين ، ومن ينكر البعث فهو غدًا فى العذاب ، واليوم فى الضلال عن الصواب ؛ إذ صاروا إلى تعجيز الإله ونسبة الافتراء إلى من أيده الله بالمعجزات .

(١) الطنز : السخرية . (٢) فى الكشاف والبحر : «التحلي» باللام . (٣) راجع ج ١١ ص ١٤٧

Marfat.com

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

أعلم الله تعالى أن الذى قدر على خلق السموات والأرض وما فيهن قادر على البعث وعلى تعجيل العقوبة لهم ، فاستدلّ بقدرته عليهم ، وأن السموات والأرض ملكه ، وأنهما محيطتان بهم من كل جانب ، فكيف يأمنون الخسف والكسف كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة . وقرأ حمزة والكسائى « إِنْ يَشَأْ يَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يُسْقِطْ » بالياء فى الثلاث ؛ أى إن يشأ الله أمر الأرض فتنخسف بهم ، أو السماء فتسقط عليهم كِسَفًا . الباقون بالنون على التعظيم . وقرأ السُّلمى وحفص « كِسَفًا » بفتح السين . الباقون بالإسكان . وقد تقدّم بيانه فى « سبحان »(1) وغيرها . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أى فى هذا الذى ذكرناه من قدرتنا « لآية » أى دلالة ظاهرة . ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ أى تائب رجّاع إلى الله بقلبه . وخص المنيب بالذكر لأنه المنتفع بالفكرة فى حجج الله وآياته .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ بيّن لمنكرى نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم أن إرسال الرسل ليس أمرًا بِدْعًا ، بل أرسلنا الرسل وأيّدناهم بالمعجزات ، وأحللنا بمن خالفهم العقاب . ﴿ آتينا ﴾ أعطينا . ﴿ فضلًا ﴾ أى أمرًا فضلناه به على غيره . واختلف فى هذا الفضل على تسعة أقوال : الأول ــ النبوّة . الثانى ــ الزبور . الثالث ــ العلم ، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا »(2) . الرابع ــ القوّة ، قال الله تعالى : « وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ »(3) . الخامس ــ تسخير

(1) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٠ (2) راجع جـ ١٣ ص ١٦٣ فما بعد . (3) راجع جـ ١٥ ص ١٥٨

Marfat.com

الجبال والناس، قال الله تعالى: «يا جبال أوبي معه»[1]. السادس — التوبة، قال الله تعالى: «فغفرنا له ذلك»[1]. السابع — الحكم بالعدل، قال الله تعالى: «يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض»[1] الآية. الثامن — إلانة الحديد، قال تعالى: «وألنا له الحديد»[1]. التاسع — حسن الصوت، وكان داود عليه السلام ذا صوت حسن ووجه حسن. وحسن الصوت هبة من الله تعالى وتفضل منه، وهو المراد بقوله تبارك وتعالى: «يزيد في الخلق ما يشاء»[2] على ما يأتي إن شاء الله تعالى. وقال صلى الله عليه وسلم لأبي موسى: "لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود". قال العلماء: المزمار والمزمور الصوت الحسن، وبه سميت آلة الزمر مزمارا. وقد استحسن كثير من فقهاء الأمصار القراءة بالتزيين والترجيع، وقد مضى هذا في مقدمة الكتاب[3] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿يا جبال أوبي معه﴾ أي وقلنا يا جبال أوبي معه، أي سبحي معه، لأنه قال تبارك وتعالى: «إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق»[1]. قال أبو ميسرة: هو التسبيح بلسان الحبشة، ومعنى تسبيح الجبال: هو أن الله تعالى خلق فيها تسبيحا كما خلق الكلام في الشجرة، فيسمع منها ما يسمع من المسبح معجزة لداود عليه الصلاة والسلام. وقيل: المعنى سيري معه حيث شاء؛ من التأويب الذي هو سير النهار أجمع وينزل الليل. قال ابن مقبل:

لحقنا بحي أوبوا السير بعد ما * دفعنا شعاع الشمس والطرف يجنح

وقرأ الحسن وقتادة وغيرهما: «أوبي معه» أي رجعي معه؛ من آب يئوب إذا رجع، أوبا وأوبة وإيابا. وقيل: المعنى تصرفي معه على ما يتصرف عليه داود بالنهار، فكان إذا قرأ الزبور صوتت الجبال معه، وأصغت إليه الطير، فكأنها فعلت ما فعل. وقال وهب ابن منبه: المعنى نوحي معه والطير تساعده على ذلك، فكان إذا نادى بالنياحة أجابته الجبال

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٨٤ وص ١٨٨ و ١٥٩ (٢) راجع ص ٣١٨ فما بعد من هذا الجزء.
(٣) راجع جـ ١ ص ١١ فما بعد.

Marfat.com

بصداها ، وعكفت الطير عليه من فوقه . فصَدَى الجبالِ الذى يسمعه الناس إنما كان من ذلك اليوم إلى هذه الساعة ؛ فأيِّد بمساعدة الجبال والطير لئلا يجد فَتْرة(١) ، فإذا دخلت الفترة اهتاج ، أى ثار وتحرك ، وقوى بمساعدة الجبال والطير . وكان قد أعطى من الصوت ما يتزاحم الوحوش من الجبال على حسن صوته ، وكان الماء الجارى ينقطع عن الجرى وقوفا لصوته . « وَالطَّيْرُ » بالرفع قراءة ابن أبى إسحاق ونصر عن عاصم وابن هُرْمُز ومَسْلمة بن عبد الملك ، عطفا على لفظ الجبال ، أو على المضمر فى « أَوِّبِى » وحسّنه الفصل بمع . الباقون بالنصب عطفا على موضع « يَا جِبَالُ » أى نادينا الجبال والطير ، قاله سيبويه . وعند أبى عمرو ابن العلاء بإضمار فعل على معنى وسخرنا له الطير . وقال الكسائى : هو معطوف ، أى وآتيناه الطير ، حملا على « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا » . النحاس : ويجوز أن يكون مفعولا معه ، كما تقول : استوى الماء والخشبة . وسمعت الزجاج يجيز : قمت وزيدا ، فالمعنى أوّبى معه ومع الطير . ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ قال ابن عباس : صار عنده كالشمع . وقال الحسن : كالعجين ، فكان يعمله من غير نار . وقال السدّى : كان الحديد فى يده كالطين المبلول والعجين والشمع ، يصرفه كيف شاء ، من غير إدخال نار ولا ضرب بمِطْرَقة . وقاله مقاتل . وكان يفرغ من الدّرع فى بعض اليوم أو بعض الليل ، ثمنها ألف درهم . وقيل : أعطى قوةً يَثْنِي بها الحديد ، وسبب ذلك أن داود عليه السلام ، لما ملك بنى إسرائيل لِقى مَلَكا وداود يظنه إنسانا ، وداود متنكر خرج يسأل عن نفسه وسيرته فى بنى إسرائيل فى خفاء ، فقال داود لذلك الشخص الذى تمثّل له : " ما قولك فى هذا الملِك داود " ؟ فقال له الملَك " نِعم العبد لولا خَلّة فيه " قال داود : " وما هى " ؟ قال : " يرتزق من بيت المال ولو أكل من عمل يده لتمت فضائله " . فرجع فدعا الله فى أن يعلّمه صنعة ويسهلها عليه ، فعلّمه صنعةَ لَبُوس كما قال جل وعز فى سورة الأنبياء(٢) ، فألان له الحديد فصنع الدروع ، فكان يصنع الدرع فيما بين يومه وليلته يساوى ألف درهم ، حتى ادّخر منها كثيرا وتوسّعت

---

(١) الفترة : الضعف .
(٢) راجع جـ ١١ ص ٣٢٠

معيشة منزله ، ويتصدّق على الفقراء والمساكين ، وكان ينفق ثلث المال فى مصالح المسلمين ، وهو أوّل من اتخذ الدروع وصنعها وكانت قبل ذلك صفائح . ويقال : إنه كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف . والدرع مؤنثة إذا كانت للحرب . ودرع المرأة مذكر .

مسألة — فى هذه الآية دليل على تعلّم أهل الفضل الصنائع ، وأن التحرّف بها لا ينقص من مناصبهم ، بل ذلك زيادة فى فضلهم وفضائلهم ؛ إذ يحصل لهم التواضع فى أنفسهم والاستغناء عن غيرهم ، وكسب الحلال الخلى عن الامتنان . وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن خير ما أكل المرء من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده " . وقد مضى هذا فى « الأنبياء » مُجَوّدا والحمد لله .

قوله تعالى : أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ أى دروعًا سابغات ، أى كوامل تامات واسعات ؛ يقال : سبغ الدرعُ والثوب وغيرهما إذا غطّى كل ماهو عليه وفضل منه . ﴿وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ﴾ قال قتادة : كانت الدروع قبله صفائح فكانت ثقالا ؛ فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع من الخفة والحصانة . أى قدّر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه . أى لا تقصد الحصانة فتثقل ، ولا الخفة فتزيل المنعة . وقال ابن زيد : التقدير الذى أمر به هو فى قدر الحَلْقة ، أى لا تعملها صغيرة فتضعف فلا تقوى الدروع على الدفاع ، ولا تعملها كبيرة فينال لابسها . وقال ابن عباس : التقدير الذى أمر به هو فى المسمار ، أى لا تجعل مسمار الدرع رقيقا فيَقْلَق (١) ، ولا غليظا فيَفصِم الحلَق . روى «يقصم» بالقاف، والفاء أيضا رواية . ﴿فِى السَّرْدِ﴾ السَّرْد نسج حلَق الدروع ، ومنه قيل لصانع حلق الدروع : السرّاد والزرّاد ، تبدل من السين الزاى ، كما قيل : سرّاط وزرّاط . والسَّرد : الخَرْز ، يقال : سرد يسرد إذا خرز . والمِسْرَد : الإشفى ، ويقال سراد ؛ قال الشمّاخ :

(١) القلق : ألا يستقر فى مكان واحد .

Marfat.com

فظلت تباعا خيلنا في بيوتكم[١] * كما تابعت سرد العنان الخوارز

والسِّراد : السير الذي يخرز به ؛ قال لبيد :

يشك صفاحها بالروق شزرا * كما خرج السِّراد من النقال[٢]

ويقال : قد سرد الحديث والصوم ؛ فالسرد فيهما أن يجيء بهما[٣] ولاء في نسق واحد، ومنه سرد الكلام . وفي حديث عائشة : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يسرد الحديث كسردكم ،وكان يحدّث الحديث لو أراد العادّ أن يعدّه لأحصاه . قال سيبويه : ومنه رجل سَرَنْدَى أي جرىء؛ قال : لأنه يمضي قُدُما[٤] . وأصل ذلك في سرد الدرع ، وهو أن يُحكمها ويجعل نظام حلقها ولاء غير مختلف . قال لبيد .

صنع الحديدَ مضاعفًا أسراده * لينال طول العيش غير مَرُوم

وقال أبو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما * داودُ أو صَنَعُ السوابغ تُبَّعُ[٥]

﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ أي عملا صالحا . وهذا خطاب لداود وأهله ، كما قال : «اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا» . ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

قوله تعالى : وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ﴾ قال الزجاج ، التقدير وسخرنا لسليمان الريح . وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه : «الرِّيحُ» بالرفع على الابتداء، والمعنى له تسخير الريح، أو بالاستقرار،

(١) رواية البيت كما في ديوانه :

شككن بأحشاء الذنابى على هدى * كما تابعت ... ... الخ

(٢) الروق : القرن . والنقال : جمع النقل (بالتحريك) والنقل ، وهو الخف الخلق . (٣) في الأصول : «به» .

(٤) أي لم يعرج ولم ينثن ؛ يوصف به الذكر والأنثى . (٥) قضاهما : أحكمهما ، أو فرغ منهما . والصنع (بالتحريك) : الحذق في العمل . والصنع ها هنا تبع ، وهو ملك من ملوك حمير . ويروى : «أو صنع السوابغ» .

Marfat.com

أى ولسليمان الريح ثابتة، وفيه ذلك المعنى الأول . فإن قال قائل : إذا قلت أعطيت زيدا درهما ولعمرو دينار؛ فرفعته فلم يكن فيه معنى الأول، وجاز أن يكون لم تعطه الدينار . وقيل : الأمر كذا ولكن الآية على خلاف هذا من جهة المعنى ، لأنه قد علم أنه لم يسخرها أحد إلا الله عز وجل . ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ أى مسيرة شهر . قال الحسن : كان يغدو من دمشق فَيقيل بإِصْطَخر، و بينهما مسيرة شهر للمسرع، ثم يروح من إِصْطَخر و يبيت بكابُل، و بينهما شهر للمسرع . قال السُّدّى : كانت تسير به فى اليوم مسيرة شهرين . وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : كان سليمان إذا جلس نصبت حواليه أربعمائة ألف كرسى، ثم جلس رؤساء الإنس مما يليه، وجلس سِفْلة الإنس مما يليهم، وجلس رؤساء الجن مما يلى سِفْلة الإنس، وجلس سِفْلة الجن مما يليهم، ومُوكّل بكل كرسى طائر لعملٍ قد عرفه، ثم تقلّهم الريح ، والطير تظلهم من الشمس ، فيغدو من بيت المقدس إلى إصطخر، فيبيت ببيت المقدس، ثم قرأ ابن عباس : « غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » . وقال وهب بن منبّه : ذكر لى أن منزلا بناحية دِجْلة مكتوبا فيه — كتبه بعض صحابة سليمان ؛ إمّا من الجن وإما من الإنس — : نحن نزلنا وما بنيناه ، ومَبْنيّا وجدناه، غُدُوّنا من إِصْطَخر فَقِلْناه، ونحن رائحون منه إن شاء الله تعالى فبائتون فى الشام . وقال الحسن : شغلت سليمانَ الخيلُ حتى فاتته صلاة العصر، فعقر الخيل فأبدله الله خيرا منها وأسرع ، أبدله الريح تجرى بأمره حيث شاء ، غدوّها شهر ورواحها شهر . وقال ابن زيد : كان مستقر سليمان بمدينة تَدْمُر، وكان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشأم إلى العراق، فبنوها له بالصُّفّاح(١) والعَمَد والرخام الأبيض والأصفر . وفيه يقول النابغة :

إلّا سليمانَ إذ قال الإله له * قُمْ فى البرِيّة فَاحدُدْها(٢) عن الفَنَد
وخَيِّس(٣) الجن إنى قد أذنت لهم * يبنون تَدْمر بالصُّفّاح والعَمَد

---

(١) الصفاح (كرمان) : حجارة عريضة رقيقة .   (٢) الحد : المنع . والفند : الخطأ .
(٣) خيس : ذلل .

Marfat.com

فمن أطاعك فانفعه بطاعته * كما أطاعك وادْلُله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبةً * تنهى الظَّلوم ولا تقعُد على ضَمَد (١)

ووجدت هذه الأبيات منقورة فى صخرة بأرض يَشْكُر، أنشأهن بعض أصحاب سليمان عليه الصلاة والسلام :

ونحن ولا حولٌ سوى حولِ ربّنا * نروح إلى الأوطان من أرض تدْمُرِ
إذا نحن رُحْنا كان رَيْثُ رواحِنا * مسيرةَ شهرٍ والغُدُوُّ لآخَرِ
أناسٌ شرَوْا لله طوْعًا نفوسَهم * بنصر ابن داودَ النبيِّ المطهَّرِ
لهم فى معالى الدّين فضلٌ ورفعة (٢) * وإن نُسِبُوا يومًا فمن خير مَعْشَرِ
متى يركبوا الريحَ المطيعةَ أسرعتْ * مبادِرةً عن شَهْرِها لم تُقَصِّرِ
تظلّهم طيرٌ صفوفٌ عليهمُ * متى رَفْرَفَتْ من فوقهم لم تُنَفَّرِ

قوله تعالى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ القِطر: النحاس؛ عن ابن عباس وغيره . أُسيلت له مسيرة ثلاثة أيام كما يسيل الماء، وكانت بأرض اليمن، ولم يذب النحاس فيما روى لأحد قبله ، وكان لا يذوب، ومن وقته ذاب؛ وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله تعالى لسليمان . قال قتادة : أسال الله عينا يستعملها فيما يريد . وقيل لعكرمة : إلى أين سالت ؟ فقال: لا أدرى! وقال ابن عباس ومجاهد والسُّدّى : أجريت له عين الصُّفْر ثلاثة أيام بلياليهن . قال القشيرى: وتخصيص الإسالة بثلاثة أيام لا يدرى ما حدّه ، ولعله وَهْم من الناقل؛ إذ فى رواية عن مجاهد : أنها سالت من صنعاء ثلاث ليال مما يليها؛ وهذا يشير إلى بيان الموضع لا إلى بيان المدّة . والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان فى معدنه عينا تسيل كعيون المياه، دلالة على نبوّته . وقال الخليل : القِطْر : النحاس المذاب .

قلت : دليله قراءة من قرأ: «من قِطْرٍ آنٍ» . ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ أى بأمره ﴿ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ الذى أمرناه به من طاعة سليمان . ﴿ نُذِقْهُ مِنْ

(١) الضمد : الحقد . (٢) فى الأصول : « رأفة » والتصويب من البحر وروح المعانى .

Marfat.com

عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى فى الآخرة ؛ قاله أكثر المفسرين . وقيل ذلك فى الدنيا ، وذلك أن الله تعالى وكّل بهم — فيما روى السُّدّى — ملَكا بيده سوط من نار ، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة من حيث لا يراه فأحرقته . و « مَن » فى موضع نصب بمعنى وسخرنا له من الجن من يعمل . ويجوز أن يكون فى موضع رفع ، كما تقدّم فى الريح .

قوله تعالى : يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

فيه ثمانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ المحراب فى اللغة : كل موضع مرتفع . وقيل للذى يصلّى فيه : محراب؛ لأنه يجب أن يرفع ويعظّم . وقال الضحاك : « مِن مَّحَٰرِيبَ » أى من مساجد . وكذا قال قتادة . وقال مجاهد : المحاريب دون القصور . وقال أبو عبيدة : المحراب أشرف بيوت الدار . قال :

وماذا عليه أن ذكرتُ أوانسًا * كغِزلان رَمْل فى محاريبِ أقيالِ (١)

وقال عَدِىّ بن زيد :

كدُمَى العاج فى المحاريب أو كال‍ * ‍بَيْض فى الرَّوْض زهره مستنيرُ

وقيل : هو ما يرقى إليه بالدرج كالغرفة الحسنة ؛ كما قال : « إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢) » وقوله : « فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ (٣) » أى أشرف عليهم . وفى الخبر "أنه أمر أن يعمل حول كرسيّه ألف محراب فيها ألف رجل عليهم المسوح يَصْرخون إلى الله دائما ، وهو على الكرسى فى موكبه والمحاريب حوله ، ويقول لجنوده إذا ركب : سبّحوا الله إلى ذلك العَلَم ، فإذا بلغوه قال : هلّلوه إلى ذلك العَلَم ، فإذا بلغوه قال : كبّروه إلى ذلك العَلَم الآخر ، فتَلجّ الجنود بالتسبيح والتهليل لجّةً واحدة .

(١) البيت لامرئ القيس . والأقيال : جمع قيل ، وهو الملك .
(٢) راجع ج ١٥ ص ١٦٥ (٣) راجع ج ١١ ص ٨٤

Marfat.com

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَتَمَـاثِيلَ ﴾ جمع تمثال . وهو كل ما صُـوّر على مثـل صورة من حيوان أو غير حيوان . وقيـل : كانت من زجاج ونحاس ورخام تمـاثيل أشياء ليست بحيوان . وذكر أنها صـور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا ؛ قال صلى الله عليـه وسلم : " إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنَوْا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصُّـورَ " . أى ليتذكروا عبادتهم فيجتهدوا فى العبادة . وهـذا يدلّ على أن التصوير كان مباحا فى ذلك الزمان ، ونسخ ذلك بشرع محمد صلى الله عليه وسلم . وسيأتى لهـذا مزيد بيان فى سورة « نوح »(١) عليه السـلام . وقيل : التمـاثيل طِلّسْمات كان يعملها ، ويحرم على كل مصـوّر أن يتجاوزها فلا يتجاوزها ، فيعمل تمثالا للذباب أو للبعوض أو للتماسيح فى مكان ، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزه واحد أبدا مادام ذلك التمثال قائمـا . وواحد التمـاثيل تمثال بكسر التاء . قال :

ويا رُبَّ يوم قد لَهَـوْتُ وليلةٍ * بآنســـة كأنهـا خطّ تمثـالِ(٢)

وقيل : إن هذه التمـاثيل رجال اتخـذهم من نحاس وسأل ربه أن ينفخ فيها الروح ليقاتلوا فى سبيل الله ولا يَحِيك(٣) فيهم السلاح . ويقال : إن اسفنديار كان منهم ؛ والله أعلم . وروى أنهم عملوا له أسدين فى أسفل كرسيه ونسرين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما ، وإذا قعد أطلق النَّسران أجنحتهما .

الثالثـــة ــ حكى مكىّ فى الهداية له : أن فرقة تجوّز التصوير ، وتحتج بهذه الآية . قال ابن عطية : وذلك خطأ ، وما أحفظ عن أحد من أئمة العلم من يجوّزه .

قلت : ما حكاه مكىّ ذكره النحاس قبـله ، قال النحاس : قال قوم عمل الصور جائز لهذه الآية ، ولمـا أخبر الله عز وجل عن المسيح . وقال قوم : قد صح النهى عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم عنها ، والتوعّد لمن عملها أو اتخذها ، فنسخ الله عز وجل بهـذا ما كان مباحا قبله ، وكانت الحكمة فى ذلك لأنه بُعث عليه السلام والصور تُعبد ، فكان الأصلح إزالتها .

(١) راجع جـ ١٨ ص ٣٠٧ فما بعد . (٢) البيت لامرئ القيس . (٣) حاك السيف حيكا : أثر وعمل .

Marfat.com

الرابعة — التمثال على قسمين : حيوان وموات . والموات على قسمين : جماد ونام؛ وقد كانت الجن تصنع لسليمان جميعه ؛ لعموم قوله : « وَتَمَاثِيلَ » . وفى الإسرائيليات : أن التماثيل من الطير كانت على كرسى سليمان . فإن قيل : لا عموم لقوله : « وَتَمَاثِيلَ » فإنه إثبات فى نكرة، والإثبات فى النكرة لا عموم له ، إنما العموم فى النفى فى النكرة . قلنا : كذلك هو ، بَيْدَ أنه قد اقترن بهذا الإثبات فى النكرة ما يقتضى حمله على العموم ، وهو قوله : « مَا يَشَاءُ » فاقتران المشيئة به يقتضى العموم له . فإن قيل : كيف استجاز الصور المنهى عنها ؟ قلنا : كان ذلك جائزا فى شرعه ونسخ ذلك بشرعنا كما بينا ، والله أعلم . وعن أبى العالية: لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرما .

الخامسة — مقتضى الأحاديث يدل على أن الصور ممنوعة ، ثم جاء " إلا ما كان رَقْمًا[1] فى ثوب " فخص من جملة الصور ، ثم ثبتت الكراهية فيه بقوله عليه السلام لعائشة فى الثوب : "أخريه عنى فإنى كلما رأيته ذكرت الدنيا" . ثم بهتكه[2] الثوب المصور على عائشة منع منه ، ثم بقطعها له وسادتين تغيرت الصورة وخرجت عن هيئتها ، فإن جواز ذلك إذا لم تكن الصورة فيه متصلة الهيئة ، ولو كانت متصلة الهيئة لم يجز ، لقولها فى النُّمْرُقة[3] المصوّرة: اشتريتها لك لتقعد عليها وتَوَسَّدها ، فمنع منه وتوعّد عليه . وتبين بحديث الصلاة إلى الصور أن ذلك جائز فى الرقم فى الثوب ثم نسخه المنع منه . فهكذا استقر الأمر فيه والله أعلم ؛ قاله ابن العربى .

السادسة — روى مسلم عن عائشة قالت : كان لنا ستر فيه تمثال طائر وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حوّلى هذا فإنى كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا " . قالت : وكانت لنا قطيفة كنا نقول علمها حرير ، فكنا نلبسها . وعنها قالت : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مستترة بقِرَام[4] فيه صورة ، فتلوّن وجهه ،

---

(١) الرقم : النقش والوشى . (٢) الهتك : الخرق والشق . (٣) النمرقة (بضم النون والراء وبكسرهما وبغير هاء) : الوسادة . (٤) القرام : الستر الرقيق .

Marfat.com

ثم تناول الستر فهتكه ، ثم قال : " إن من أشدّ الناس عذابا يوم القيامة الذين يُشَبِّهونَ بخلق الله عز وجل " . وعنها : أنه كان لها ثوب فيه تصاوير ممدود إلى سَهْوة (١) ، فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلّي إليه فقال : " أخِّريه عني " قالت : فأخرته فجعلته وسادتين . قال بعض العلماء : ويمكن أن يكون تهتيكه عليه السلام الثوب وأمره بتأخيره ورعًا ؛ لأن محل النبوّة والرسالة الكمالُ . فتأمله .

السابعة — قال المزنيّ عن الشافعيّ : إن دعى رجل إلى عرس فرأى صورة ذات روح أو صورا ذات أرواح ، لم يدخل إن كانت منصوبة . وإن كانت توطأ فلا بأس ، وإن كانت صور الشجر . ولم يختلفوا أن التصاوير في الستور المعلقة مكروهة غير محرمة . وكذلك عندهم ما كان خرطا أو نقشا في البناء . واستثنى بعضهم " ما كان رقما في ثوب " ، لحديث سهل بن حُنيف .

قلت : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المصورين ولم يستثن . وقوله : " إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم أحيُوا ما خلقتم " ولم يستثن . وفي الترمذيّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يخرج عُنُق (٢) من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول : إني وُكِّلت بثلاث : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر وبالمصوّرين " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وفي البخاريّ ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أشد الناس عذابا يوم القيامة المصوّرون " . يدل على المنع من تصوير شيء ، أي شيء كان . وقد قال جل وعز : « ما كان لكم أنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها » (٣) على ما تقدّم بيانه فاعلمه .

الثامنة — وقد آستثنى من هذا الباب لُعَب البنات ، لما ثبت عن عائشة رضى الله عنها أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تزوّجها وهي بنت سبع سنين ، وزُفّت إليه وهي بنت تسع

(١) السهوة : بيت صغير منحدر في الأرض قليلا شبيه بالمخدع والخزانة . وقيل : هو كالصفة تكون بين يدى البيت . وقيل : شبيه بالرف أو الطاق يوضع فيه الشيء . (٢) العنق : القطعة .

(٣) راجع ج ١٣ ص ٢١٩

Marfat.com

ولُعَبُهَا معها، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة . وعنها أيضا قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان لي صواحب يلعبن معي ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل ينقمعن(١) منه فيسرِّبهنّ(٢) إليّ فيلعبن معي . خرجهما مسلم . قال العلماء : وذلك للضرورة إلى ذلك وحاجة البنات حتى يتدرّبن على تربية أولادهنّ . ثم إنه لا بقاء لذلك ، وكذلك ما يصنع من الحلاوة أو من العجين لا بقاء له ، فرخّص في ذلك ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ﴾ قال ابن عرفة : الجوابي جمع الجابية، وهي حُفيرة كالحوض . وقال : كحياض الإبل . وقال ابن القاسم عن مالك : كالجَوْبَة من الأرض ، والمعنى متقارب . وكان يقعد على الجَفْنَة الواحدة ألف رجل . النحاس : «وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ» الأَوْلى أن تكون بالياء ، ومن حذف الياء قال سبيل الألف واللام أن تدخل على النكرة فلا يغيّرها عن حالها ، فلما كان يقال جوابٍ ودخلت الألف واللام أقرّ على حاله فحذف الياء . وواحد الجوابي جابية ، وهي القِدر العظيمة ، والحوض العظيم الكبير الذي يُجْبَى فيه الشيء أي يجمع ؛ ومنه جبيت الخراج، وجَبيت الجراد ؛ أي جعلت الكساء فجمعته فيه . إلا أن لَيْثًا روى عن مجاهد قال : الجوابي جمع جَوْبة ، والجوبة الحفرة الكبيرة تكون في الجبل فيها ماء المطر . وقال الكسائي : جَبَوْت الماء في الحوض وجبيته أي جمعته ، والجابية : الحوض الذي يجبي فيه الماء للإبل ، قال :

تروح على آلِ المُحَلِّقِ جَفْنَةٌ * كجابية الشيخ العراقي تَفْهَقُ(٣)

ويروى أيضا .

نفى الذمّ عن آل المُحَلَّق جفنةٌ * كجابية السيح(٤) ... ...

ذكره النحاس .

---

(١) أي يتغيبن ويدخلن في بيت أو من وراء ستر؛ حياء وهيبة له عليه السلام . (٢) أي يرسلهن ويبعثهن

(٣) البيت للأعشى . والفهق : الامتلاء . وخص العراقي لجهله بالمياه لأنه حضري ؛ فاذا وجدها ملأ جابيته وأعدها ولم يدر متى يجد المياه ، وأما البدوي فهو عالم بالمياه فهو لا يبالي ألا يعدها . (٤) السيح : الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ قال سعيد بن جُبير : هى قدور النحاس تكون بفارس . وقال الضحاك : هى قدور تعمل من الجبال . غيره : قد نحتت من الجبال الصُّم مما عملت له الشياطين ، أثافيها(١) منها منحوتة هكذا من الجبال . ومعنى « رَاسِيَاتٍ » ثوابت ، لا تُحمل ولا تحرك لعظمها . قال ابن العربى : وكذلك كانت قدور عبد الله بن جُدعان ، يصعد إليها فى الجاهلية بسُلَّم . وعنها عبّر طرفة بن العبد بقوله :

كالجوابى لا تَنِى مُتْرَعَةً * لِقِرَى الأضياف أو للمحتضِر

قال ابن العربى : ورأيت برباط أبى سعيد قدور الصوفية على نحو ذلك ، فإنهم يطبخون جميعا ويأكلون جميعا من غير استئثار واحد منهم على أحد .

قوله تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ قد مضى معنى الشكر فى «البقرة»(٢) وغيرها . وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم صَعِد المنبر فتلا هذه الآية ثم قال : " ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود " قال فقلنا : ما هن ؟ فقال : " العدل فى الرضا والغضب . والقصد فى الفقر والغنى . وخشية الله فى السر والعلانية " . خرجه الترمذى الحكيم أبو عبد الله عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة . وروى أن داود عليه السلام قال : " يارب كيف أطيق شكرك على نعمك . وإلهامى وقدرتى على شكرك نعمةٌ لك " فقال : " يا داود الآن عرفتنى " . وقد مضى هذا المعنى فى سورة «إبراهيم»(٣) . وأن الشكر حقيقته الاعتراف بالنعمة للمنعم واستعمالها فى طاعته ، والكفران استعمالها فى المعصية . وقليل من يفعل ذلك ؛ لأن الخير أقل من الشر ، والطاعة أقل من المعصية ، بحسب سابق التقدير . وقال مجاهد : لما قال الله تعالى « ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا » قال داود لسليمان : إن الله عز وجل قد ذكر الشكر فاكفنى صلاة النهار أكفك صلاة الليل ، قال : لا أقدر ، قال : فاكفنى — قال الفاريابى ، أراه قال إلى صلاة الظهر — قال نعم ، فكفاه . وقال الزهرى : « ٱعْمَلُوا

(١) الأثافى (جمع الأثفية) : ما يوضع عليه القدر . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٩ ص ٣٤٣ .

Marfat.com

آلَ دَاوُدَ شُكْرًا » أى قولوا الحمد لله . و« شُكْرًا » نصب على جهة المفعول ؛ أى اعملوا عملا هو الشكر . وكأن الصلاة والصيام والعبادات كلها هى فى نفسها الشكر إذ سدّت مسدّه ، ويبيّن هذا قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ »(١) وهو المراد بقوله «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور » . وقد قال سفيان بن عُيَيْنَة فى تأويل قوله تعالى « أَنِ اشْكُرْ لِي » أن المراد بالشكر الصلوات الخمس . وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تَفَطَّر(٢) قدماه ؛ فقالت له عائشة رضى الله عنها : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال : "أفلا أكون عبدا شكورا". انفرد بإخراجه مسلم . فظاهر القرآن والسنة أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان ؛ فالشكر بالأفعال عمل الأركان ، والشكر بالأقوال عمل اللسان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ يحتمل أن يكون مخاطبة لآل داود ، ويحتمل أن يكون مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عطية : وعلى كل وجه ففيه تنبيه وتحريض . وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلا يقول : اللهم اجعلنى من القليل ؛ فقال عمر : ما هذا الدعاء ؟ فقال الرجل : أردت قوله تعالى « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور » . فقال عمر رضى الله عنه : كل الناس أعلم منك يا عمر ! وروى أن سليمان عليه السلام كان يأكل الشعير ويطعم أهله الخشكار(٣) ويطعم المساكين الدَّرْمَك(٤) . وقد قيل : إنه كان يأكل الرماد ويتوسّده ، والأول أصح ، إذ الرماد ليس بقوت . وروى أنه ما شبع قَطُّ ، فقيل له فى ذلك فقال : أخاف إن شبعت أن أنسى الجياع . وهذا من الشكر ومن القليل ، فتأمله ، والله أعلم .

قوله تعالى : فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٦٥ فما بعد .   (٢) تفطر : تنشقق .   (٣) الخشكار : ما خشن من الطحين (فارسية) .   (٤) الدرمك : دقيق الحوارى . وهو الدقيق الأبيض .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ أى فلما حكمنا على سليمان بالموت حتى صار كالأمر المفروغ منه ووقع به الموت ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾ وذلك أنه كان متكئا على المنسأة (وهى العصا بلسان الحبشة ، فى قول السُّدّى . وقيل : هى بلغة اليمن ، ذكره القشيرى) فمات كذلك وبقى خافى الحال إلى أن سقط ميّتا لانكسار العصا لأكل الأَرَضة إياها ، فعُلم موته بذلك ، فكانت الأَرَضة دالّة على موته ، أى سببا لظهور موته ، وكان سأل الله تعالى ألا يعلموا بموته حتى تمضى عليه سنة . واختلفوا فى سبب سؤاله لذلك على قولين : أحدهما ماقاله قتادة وغيره ، قال : كانت الجن تدّعى علم الغيب ، فلما مات سليمان عليه السلام وخفى موته عليهم ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ . ابن مسعود : أقام حولا والجن تعمل بين يديه حتى أكلت الأَرَضة منسأته فسقط . ويروى أنه لما سقط لم يُعلم منذ مات ؛ فوُضعت الأَرَضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة ثم حسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة . وقيل : كان رؤساء الجن سبعة ، وكانوا منقادين لسليمان عليه السلام ، وكان دواد عليه السلام أسّس بيت المقدس فلما مات أوصى إلى سليمان فى إتمام مسجد بيت المقدس ، فأمر سليمان الجن به ؛ فلما دنا وفاته قال لأهله : لا تخبروهم بموتى حتى يتموا بناء المسجد ، وكان بقى لإتمامه سنة . وفى الخبر أن ملك الموت كان صديقه فسأله عن آية موته فقال : أن تخرج من موضع سجودك شجرة يقال لها الخرنوبة ، فلم يكن يوم يصبح فيه إلا تنبت فى بيت المقدس شجرة فيسألها : ما اسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمى كذا وكذا ؛ فيقول : ولأى شيء أنت ؟ فتقول : لكذا ولكذا ؛ فيأمر بها فتقطع ، ويغرسها فى بستان له ، ويأمر بكتب منافعها ومضارّها وآسمها وما تصلح له فى الطب ؛ فبينما هو يصلّى ذات يوم إذ رأى شجرة نبتت بين يديه فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخرنوبة ؛ قال : ولأى شيء أنت ؟ قالت : لخراب هذا المسجد ؛ فقال سليمان : ما كان الله ليخربه وأنا حىّ ، أنتِ التى على وجهك هلاكى وهلاك بيت المقدس ! فنزعها وغرسها فى حائطه ثم قال : اللهم عمّ عن الجن موتى حتى تعلم الإنس أن

Marfat.com

الجن لا يعلمون الغيب . وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ، وأنهم يعلمون ما في غد ؛ ثم لبس كفنه وتحنط ودخل المحراب وقام يصلي واتكأ على عصاه على كرسيّه ، فمات ولم تعلم الجن إلى أن مضت سنة وتم بناء المسجد . قال أبو جعفر النحاس : وهذا أحسن ما قيل في الآية ، ويدل على صحته الحديث المرفوع ، روى إبراهيم بن طُهمان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كان نبيّ الله سليمان بن داود عليهما السلام إذا صلّى رأى شجرة نابتة بين يديه فيسألها ما اسمك ؟ فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء كتبت ؛ فبينما هو يصلي ذات يوم إذا شجرة نابتة بين يديه قال ما اسمك؟ قالت : الخرنوبة؛ فقال : لأي شيء أنت ؟ فقالت : لخراب هذا البيت ؛ فقال : اللّهمّ عَمِّ عن الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب؛ فنحتها عصا فتوكأ عليها حولا لا يعلمون فسقطت، فعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فنظروا مقدار ذلك فوجدوه سنة . وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس « تَبَيَّنَتِ الإِنْسُ أن لَوْ كَانَ الجِنُّ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ » . وقرأ يعقوب في رواية رُوَيْس « تُبُيِّنَتِ الجِنُّ » غير مسمى الفاعل . ونافع وأبو عمرو « تأكل مِنْسَاتَه » بألف بين السين والتاء من غير همز. والباقون بهمزة مفتوحة موضع الألف، لغتان ، إلا أن ابن ذَكْوَان أسكن الهمزة تخفيفا ، قال الشاعر في ترك الهمزة :

إذا دَبَبْتَ على المِنْساة من كِبَرٍ * فقد تباعد عنك اللّهْوُ والغَزَلُ

وقال آخر فهمز وفتح :

ضربنا بمِنْسَأة وجهه * فصار بذاك مهينا ذليلا

وقال آخر :

أمن أجل حَبْل لا أباك ضربتَه * بمنسأة قد جرّ حبلُك أحبُلا

وقال آخر فسكّن همزها :

وقائم قد قام من تُكَأَتِهْ * كقومة الشيخ إلى مِنْسَأْتِهْ

Marfat.com

وأصلها من : نسأت الغنم أى زجرتها وسقتها ، فسمّيت العصا بذلك لأنه يزجر بها الشيء ويساق . وقال طَرفَة :

أمُونٍ كألواح الإران نَسأْتها * على لاحِبٍ كأنه ظَهْرُ بُرْجُدِ(1)

فسكّن همزها . قال النحاس : واشتقاقها يدل على أنها مهموزة ؛ لأنها مشتقة من نسأته أى أخرته ودفعته فقيل لها مِنْسأة لأنها يدفع بها الشيء ويؤخر . وقال مجاهد وعكرمة : هى العصا ، ثم قرأ « منساته » أبدل من الهمزة ألفا ، فإن قيل : البدل من الهمزة قبيح جدا وإنما يجوز فى الشعر على بُعْد وشذوذ ، وأبو عمرو بن العلاء لايغيب عنه مثل هذا لاسيما وأهل المدينة على هذه القراءة . فالجواب على هذا أن العرب استعملت فى هذه الكلمة البدل ونطقوا بها هكذا كما يقع البدل فى غير هذا ولا يقاس عليه حتى قال أبو عمرو : ولست أدرى ممن هو إلا أنها غير مهموزة لأن ما كان مهموزا فقد يترك همزه وما لم يكن مهموزا لم يجز همزه بوجه . المهدوِىّ : ومن قرأ بهمزة ساكنة فهو شاذٌّ بعيد ؛ لأن هاء التأنيث لا يكون ماقبلها إلا متحركا أو ألفا ، لكنه يجوز أن يكون ماسكن من المفتوح استخفافا ، ويجوز أن يكون لما أبدل الهمزة ألفا على غير قياس قلب الألف همزة كما قلبوها فى قولهم العألم والخأتم ، وروى عن سعيد بن جبير « مِن » مفصولة « سأته » مهموزة مكسورة التاء ؛ فقيل : إنه من سئة القوس فى لغة من همزها ، وقد روى همزسية القوس عن رؤبة . قال الجوهرى : سية القوس ما عطف من طرفيها ، والجمع سِيَات ، والهاء عوض من الواو ، والنسبة إليها سِيَوِىّ . قال أبو عبيدة : كان رؤبة يهمز « سية القوس » وسائر العرب لا يهمزونها .

وفى دابة الأرض قولان : أحدهما — أنها الأَرَضة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقد قرئ « دابة الأَرَض » بفتح الراء ، وهو جمع الأَرَضة(2) ؛ ذكره الماوردى . الثانى — أنها دابة تأكل العيدان . قال الجوهرى : والأَرَضة (بالتحريك) : دُوَيْبة تأكل الخشب ؛ يقال : أرِضت الخشبة تُؤرض أرْضا (بالتسكين) فهى ماروضة إذا أكلتها .

---

(1) الأمون : التى يؤمن عثارها . والإران : تابوت الموتى . واللاحب : الطريق الواضح . والبرجد : كساء مخطط .

(2) فى نسخ الأصل : « وهو واحد » .

Marfat.com

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا خَرَّ ﴾ أى سقط ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ ﴾ قال الزجاج : أى تبينت الجن موته . وقال غيره : المعنى تبين أمر الجن ؛ مثل : «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » . وفى التفسير بالأسانيد الصحاح عن ابن عباس قال : أقام سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام حولًا لا يُعلم بموته وهو متكئ على عصاه ، والجن منصرفة فيما كان أمرها به ، ثم سقط بعد حول ؛ فلما خرّ تبيّنت الإنس أن لو كان الجن يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين . وهذه القراءة من ابن عباس على جهة التفسير . وفى الخبر : أن الجن شكرت ذلك للأَرَضَة فأينما كانت يأتونها بالماء . قال السدى : والطين ، ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب فإنه مما يأتيها[1] به الشياطين شكرا ؛ وقالت : لو كنت تأكلين الطعام والشراب لأتيناك بهما . و « أَنْ » فى موضع رفع على البدل من الجن ، والتقدير : تبين أمر الجن ، فحذف المضاف ، أى تبين وظهر للإنس وانكشف لهم أمر الجن أنهم لا يعلمون الغيب . وهذا بدل الاشتمال . ويجوز أن تكون فى موضع نصب على تقدير حذف اللام . و « لَبِثُوا » أقاموا . و « الْعَذَابِ الْمُهِينِ » السُّخرة والحمل والبنيان وغير ذلك . وعمّر سليمان ثلاثا وخمسين سنة ، ومدّة ملكه أربعون سنة ؛ فملك وهو آبن ثلاث عشرة سنة ، وابتدأ فى بنيان بيت المقدس وهو آبن سبع عشرة سنة . وقال السُّدِّى وغيره : كان عمر سليمان سبعا وستين سنة ، وملك وهو آبن سبع عشرة سنة ، وآبتدأ فى بنيان بيت المقدس وهو آبن عشرين سنة ، وكان ملكه خمسين سنة . وحكى أن سليمان عليه السلام آبتدأ بنيان بيت المقدس فى السنة الرابعة من ملكه ، وقرّب بعد فراغه منه آثنى عشر ألف ثور ومائة وعشرين ألف شاة ، واتخذ اليوم الذى فرغ فيه من بنائه عيداً ، وقام على الصخرة رافعا يديه إلى الله تعالى بالدعاء فقال : اللهمّ أنت وهبت لى هذا السلطان وقوّيتنى على بناء هذا المسجد ، اللهمّ فأوزعنى شكرك على ما أنعمت علىّ وتوفّنى على مِلّتك ولا تُزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، اللهمّ إنى أسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصال : لا يدخله مذنب دخل للتوبة إلا غفرتَ له وتبت عليه . ولا خائفٌ إلا أمّنته . ولا سقيم

---

(١) فى ج ، ح ، ك : « فإنها مما يأتيها بها » .

Marfat.com

إلا شفيته . ولا فقير إلا أغنيته . والخامس — ألا تصرف نظرك عمن دخله حتى يخرج منه؛ إلا من أراد إلحادًا أو ظلمًا ، يارب العالمين ؛ ذكره الماوردي .

قلت : وهذا أصح مما تقدّم أنه لم يفرغ بناؤه إلا بعد موته بسنة ، والدليل على صحة هذا ماخرّجه النسائي وغيره بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم "أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالا ثلاثة : حكما يصادف حكمه فأوتيه ، وسأل الله تعالى ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه ، وسأل الله تعالى حين فرغ من بنائه المسجد ألا يأتيه أحد لا يَنْهَزه (١) إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه " وقد ذكرنا هذا الحديث في « آل عمران (٢) » وذكرنا بناءه في « سبحان (٣) » .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِم (٤) آيَةٌ ﴾ قرأ نافع وغيره بالصرف والتنوين على أنه اسم حيّ ، وهو في الأصل اسم رجل ؛ جاء بذلك التوقيف عن النبي صلى الله عليه وسلم . روى الترمذي قال : حدّثنا أبو كُريب وعبد بن حُميد قالا حدّثنا أبو أسامة عن الحسن بن الحكم النخعي قال حدّثنا أبو سَبْرة النّخعي عن فَروة بن مُسيك المرادي قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ، ألا أقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم؛ فأذن لي في قتالهم وأمرني ؛ فلما خرجت من عنده سأل عني : " ما فعل الغُطَيفي (٥) " ؟ فأخبر أني قد سرت ، قال : فأرسل في أثري فردّني فأتيته وهو في نفر من أصحابه فقال : " ادع القوم فمن أسلم منهم فاقبل منه ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك ؛ قال : وأنزل في سبأ ما أنزل ؛ فقال رجل : يارسول الله ، وما سبأ ؟ أرض أو امرأة ؟ قال : ليس بأرض ولا بامرأة

---

(١) أي لا يحركه . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٣٧ (٣) راجع جـ ١٠ ص ٢١١
(٤) « في مساكنهم » قراءة نافع وبها كان يقرأ المؤلف رحمة الله عليه . (٥) في الأصول والترمذي : « القطيفي » بالقاف بدل الغين وهو تحريف .

Marfat.com

ولكنه رجل ولَد عشرة من العرب فتيامَن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة . فأما الذين تشاءموا فَلخْم وجُذام وغسّان وعاملة . وأما الذين تيامَنوا فالأزد والأشعريُّون وحِمْير وكِنْدة ومَذْحِج وأنمار . فقال رجل : يارسول الله وما أنمار؟ قال: "الذين منهم خَثْعم وبَجِيلة" . وروى هذا عن ٱبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب . وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو « لِسَبَأَ » بغير صرف ، جعله اسماً للقبيلة ، وهو اختيار أبي عبيد، وٱستدل على أنه ٱسم قبيلة بأن بعده « فِي مَسَاكِنِهِمْ » . النحاس : ولو كان كما قال لكان في مساكنها . وقد مضى في « النمل »(١) زيادة بيان لهذا المعنى . وقال الشاعر في الصرف :

الواردون وتَيْمٌ في ذُرى سبأ ❊ قد عضّ أعناقَهم جِلدُ الجواميس

وقال آخر في غير الصرف :

من سَبَأَ الحاضرين مأرِبَ إذ ❊ يَبْنُون من دون سَيْلها العَرِما

وقرأ قُنبُل وأبو حَيْوَة والجحْدَرِيّ « لسَبْأ » بإسكان الهمزة . « فِي مَسَاكِنِهِمْ » قراءة العامة على الجمع ، وهي ٱختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لأن لهم مساكن كثيرة وليس بمسكن واحد . وقرأ إبراهيم وحمزة وحفص «مسكنِهِم» موحّداً، إلا أنهم فتحوا الكاف . وقرأ يحيى والأعمش والكسائيّ موحّداً كذلك ، إلا أنهم كسروا الكاف . قال النحاس : والساكن في هذا أبين؛ لأنه يجمع اللفظ والمعنى، فإذا قلت «مسكنهم» كان فيه تقديران : أحدهما — أن يكون واحداً يؤدى عن الجمع . والآخر — أن يكون مصدراً لا يثنّى ولا يجمع ؛ كما قال الله تعالى : «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ»(٢) فجاء بالسمع موحّداً . وكذا «مَقْعَدِ صِدْقٍ»(٣) و«مَسْكِن» مثل مسجد، خارج عن القياس، ولا يوجد مثله إلا سماعاً . ﴿ آيَةٌ ﴾ اسم كان، أي علامة دالة على قدرة الله تعالى على أن لهم خالقاً خلقهم ، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يُخرجوا من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك ، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها، وفي ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر . ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ يجوز

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٨١		(٢) راجع جـ ١ ص ١٨٥		(٣) راجع جـ ١٧ ص ١٤٩

Marfat.com

أن يكون بدلا من « آية »، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف، فيوقف على هذا الوجه على «آية» وليس بتمام . قال الزجاج: أى الآية جنتان، فجنتان رفع لأنه خبر ابتداء محذوف. وقال الفراء : رفع تفسيرا للآية ، ويجوز أن تنصب « آية » على أنها خبر كان، ويجوز أن تنصب الجنتين على الخبر أيضا فى غير القرآن . وقال عبد الرحمن بن زيد : إن الآية التى كانت لأهل سبأ فى مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة قطّ ولا ذبابا ولا بُرغوثا ولا قملة ولا عقربا ولا حية ولا غيرها من الهوام، وإذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل والدواب فإذا نظروا إلى بيوتهم ماتت الدواب . وقيل : إن الآية هى الجنتان، كانت المرأة تمشى فيهما وعلى رأسها مِكْتَل(١) فيمتلىء من أنواع الفواكه من غير أن تمسها بيدها ؛ قاله قتادة . وروى أن الجنتين كانتا بين جبلين باليمن . قال سفيان : وُجد فيهما قصران مكتوب على أحدهما : نحن بنينا سَلْحِين فى سبعين خريفاً دائبين ، وعلى الآخر مكتوب : نحن بنينا صِرْواح، مَقِيل ومَراح ؛ فكانت إحدى الجنتين عن يمين الوادى والأخرى عن شماله . قال القشيرىّ : ولم يرد جنتين اثنتين بل أراد من الجنتين يَمنة ويَسرة؛ أى كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار؛ تستتر الناس بظلالها . ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ أى قيل لهم كلوا ، ولم يكن ثمّ أمر، ولكنهم تمكنوا من تلك النعم. وقيل: أى قالت الرسل لهم قد أباح الله تعالى لكم ذلك ؛ أى أباح لكم هذه النعم فاشكروه بالطاعة . ﴿ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ أى من ثمار الجنتين . ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ يعنى على ما رزقكم . ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ هذا كلام مستأنف؛ أى هذه بلدة طيبة أى كثيرة الثمار . وقيل : غير سبخة . وقيل : طيبة ليس فيها هوام لطيب هوائها. قال مجاهد : هى صنعاء . ﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أى والمنعم بها عليكم ربّ غفور يستر ذنوبكم، فجمع لهم بين مغفرة ذنوبهم وطيب بلدهم ولم يجمع ذلك لجميع خلقه . وقيل : إنما ذكر المغفرة مشيرا إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام . وقد مضى القول فى هذا فى أول «البقرة»(٢). وقيل: إنما امتنّ عليهم بعفوه عن عذاب الاستئصال بتكذيب من كذبوه من سالف الأنبياء إلى أن استداموا الإصرار فاستؤصلوا.

---

(١) المكتل : شبه الزنبيل . (٢) راجع جـ ١ ص ١٧٧

Marfat.com

قوله تعالى : فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ يعنى عن أمره واتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين . قال السُّدّى ووهب : بعث إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبيًّا فكذبوهم . قال القُشيرى : وكان لهم رئيس يلقّب بالحمار، وكانوا فى زمن الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم . وقيل : كان له ولد فمات فرفع رأسه إلى السماء فبزق وكفر ؛ ولهذا يقال : أكفر من حمار . وقال الجوهرى : وقولهم « أكفر من حمار » هو رجل من عادٍ مات له أولاد فكفر كفرًا عظيمًا، فلا يمرّ بأرضه أحد إلا دعاه إلى الكفر، فإن أجابه وإلا قتله . ثم لما سال السيل بجنتيهم تفرّقوا فى البلاد؛ على ما يأتى بيانه . ولهذا قيل فى المثل : « تفرّقوا أيادى سَبَا » . وقيل : الأوس والخزرج منهم . ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم سَيْلَ العَرِمِ ﴾ والعرِم فيما روى عن ابن عباس : السّد ؛ فالتقدير : سَيل السّد العَرِم . وقال عطاء : العرم اسم الوادى . قتادة : العرم وادى سبأ ؛ كانت تجتمع إليه مسايل من الأودية، قيل من البحر وأودية اليمن ؛ فردموا ردمًا بين جبلين وجعلوا فى ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، فكانوا يسقون من الأعلى ثم من الثانى ثم من الثالث على قدر حاجاتهم ؛ فأخصبوا وكَثُرت أموالهم، فلما كذبوا الرسل سلّط الله عليهم الفار فنقب الردم . قال وهب : كانوا يزعمون أنهم يجدون فى علمهم وكهانتهم أنه يخرّب سدّهم فارة فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا إلى جانبها هرّة؛ فلما جاء ما أراد الله تعالى بهم أقبلت فارة حمراء إلى بعض تلك الهِرر فساورتها حتى ٱستأخرت عن الصخرة ثم وثبت ودخلت فى الفرجة التى كانت عندها ونقبت السّد حتى أوهنته للسيل وهم لا يدرون؛ فلما جاء السيل دخل تلك الخلل حتى بلغ السد وفاض الماء على أموالهم فغرّقها ودفن بيوتهم. وقال الزجاج : العَرِم اسم الجُرَذ الذى نقب السّكْر عليهم، وهو الذى يقال له الخُلْد — وقاله قتادة أيضا — فنسب السيل إليه لأنه بسببه . وقد قال ابن الأعرابى أيضا : العَرِم من

Marfat.com

أسماء الفأر . وقال مجاهد وابن أبي نجيح : العَرِم ماء أحمر أرسله الله تعالى في السّد فشقه وهدمه . وعن ابن عباس أيضا أن العَرِم المطر الشديد . وقيل العَرْم بسكون الراء . وعن الضحاك كانوا في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام . وقال عمرو بن شُرَحْبيل : العرم المُسَنَّاة ؛ وقاله الجوهري ، قال : ولا واحد لها من لفظها ، ويقال واحدها عَرِمة . وقال محمد بن يزيد : العَرِم كل شيء حاجز بين شيئين ، وهو الذي يسمى السِّكْر ، وهو جمع عرِمة . النحاس : وما يجتمع من مطر بين جبلين وفي وجهه مُسَنَّاة فهو العَرِم ، والمُسَنَّاة هي التي يسميها أهل مصر الجسر[1] ؛ فكانوا يفتحونها إذا شاءوا فإذا رَوِيت جنتاهم سدّوها . قال الهَرَوي : المُسَنَّاة الضفيرة تبنى للسيل تردّه ، سُمّيت مُسَنَّاة لأن فيها مفاتح الماء . وروى أن العرم سدّ بنته بِلْقِيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام ، وهو المسنّاة بلغة حِمْير ، بنته بالصخر والقار ، وجعلت له أبوابا ثلاثة بعضها فوق بعض ، وهو مشتق من العرامة وهي الشدّة ، ومنه : رجل عارم ، أي شديد ، وعَرَمت العظم أعرِمه وأعرُمه عَرْمًا إذا عَرقته ، وكذلك عَرَمت الإبل الشجر أي نالت منه . والعُرام بالضم : العراق من العظم والشجر . وتعرّمت العظم تعرّقته . وصبيّ عارم بيّن العُرام (بالضم) أي شَرِس . وقد عرِم يعرم ويعرم عرامة (بالفتح) . والعَرِم العارم ؛ عن الجوهري .

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ وقرأ أبو عمرو (أُكُلِ خَمْطٍ) بغير تنوين مضافا . قال أهل التفسير والخليل : الخمط الأراك . الجوهري : الخمط ضرب من الأراك له حمل يؤكل . وقال أبو عبيدة : هو كل شجر ذي شوك فيه مرارة . الزجاج : كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله . المبرّد : الخمط كل ما تغيّر إلى ما لا يشتهى . واللبن خَمْط إذا حَمُض . والأَوْلى عنده في القراءة « ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ » بالتنوين على أنه نعت لـ « أُكُل » أو بدل منه ؛ لأن الأكل هو الخمط بعينه عنده ، فأما الإضافة فباب جوازها أن يكون

(١) في جـ : « الحبس » والحِبس (بكسر الحاء) : حجارة أو خشب تبنى في مجرى الماء لتحبسه كي يشرب القوم ويسقوا أموالهم ، والجمع أحباس .

Marfat.com

تقديرها ذواتى أكل حموضة أو أكل مرارة . وقال الأخفش : والإضافة أحسن فى كلام العرب؛ نحو قولهم : ثوبُ خَزٍّ. والخمط : اللبن الحامض . وذكر أبو عبيد أن اللبن إذا ذهب عنه حلاوة الحلَب ولم يتغيّر طعمه فهو سامط، وإن أخذ شيئا من الريح فهو خامط وخميط ، فإن أخذ شيئا من طعمٍ فهو مُمَحَّل ، فإذا كان فيه طعم الحلاوة فهو فُوّهة[1] . وتخمّط الفحل . هَدَر . وتخمّط فلان أى غضب وتكبّر . وتخمّط البحر أى التطم . وخَمَطت الشاة أخمطها خَمْطًا : إذا نزعت جلدها وشويتها فهى [خميط ، فإن نزعت شعرها وشويتها فهى][2] سميط . والخَمْطة : الخمر التى قد أخذت رِيح الإدراك كرِيح التفّاح ولم تُدرِك بعدُ . ويقال هى الحامضة؛ قاله الجوهرى . وقال القُتَبِى فى أدب الكاتب . يقال للحامضة خمطة، ويقال : الخمطة التى قد أخذت شيئًا من الرِيح ؛ وأنشد :

عُقارٌ كماء النِّيِّ ليست بخمطة * ولا خَلّةٍ يكوِى الشُّروبَ شِهابُها[3]

﴿وأَثْلٍ﴾ قال الفرّاء : هو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولا؛ ومنه اتخذ مِنبرُ النبىّ صلى الله عليه وسلم، وللأثل أصول غليظة يتخذ منه الأبواب، وورقه كورق الطرفاء، الواحدة أثلة والجمع أثلات . وقال الحسن : الأثل الخشب . قتادة : هو ضرب من الخشب يشبه الطرفاء رأيته بفَيْد . وقيل هو السَّمُر . وقال أبو عبيدة : هو شجر النُّضار . [النضار : الذهب . والنضار : خشب يعمل منه قصاع ، ومنه : قدح نضار][4] . ﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ قال الفرّاء : هو السَّمُر ؛ ذكره النحاس . وقال الأزهرى : السِّدر من الشجر سدران : برىّ لا يُنتفع به ولا يصلح ورقه للغَسُول وله ثمر عَفِص لا يؤكل، وهو الذى يسمى الضّال . والثانى — سِدْر ينبت على الماء وثمره النَّبِق وورقه غَسول يشبه شجر العُنّاب . قال قتادة : بينما شجر القوم من خير شجر إذ صيّره الله تعالى من شرّ الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة

(١) فى المخصص لابن سيده : « ... فهو فوهة » صاحب العين : فوهة بالفاء » . وفى كتب اللغة « القوهة بالضم » : اللبن تغير قليلا وفيه حلاوة . والفوهة (كقبرة : اللبن فيه طعم الحلاوة . (٢) ما بين المربعين ساقط من نسخ الأصل . وهو من كتب اللغة . (٣) الخلة : التى جاوزت القدر فخرجت من حال الخمر إلى حال الحموضة والخل . والشروب : الندامى . يقول : هى فى لون اللحم النىء . (٤) ما بين المربعين ساقط من ش .

Marfat.com

وأنبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر . القشيري : وأشجار الوادى لا تسمى جنة وبستانا ولكن لما وقعت الثانية فى مقابلة الأولى أطلق لفظ الجنة ، وهو كقوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها »(١) . ويحتمل أن يرجع قوله « قليل » إلى جملة ما ذكر من الخمط والأثل والسدر .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ أى هذا التبديل جزاء كفرهم . وموضع «ذلك» نصب ؛ أى جزيناهم ذلك بكفرهم . ﴿وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورُ﴾ قراءة العامة « يُجازَى » بياء مضمومة وزاى مفتوحة، « الكفورُ » رفعًا على ما لم يُسمّ فاعله . وقرأ يعقوب وحفص وحمزة والكسائى : «نُجازِى» بالنون وكسر الزاى، « الكفورَ » بالنصب، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، قالا : لأن قبله « جَزَيْنَاهُمْ » ولم يقل جُوزُوا . النحاس : والأمر فى هذا واسع، والمعنى فيه بيّن، ولو قال قائل : خلق الله تعالى آدم صلى الله عليه وسلم من طين، وقال آخر : خُلق آدم من طين ، لكان المعنى واحدا .

مسألة — فى هذه الآية سؤال ليس فى هذه السورة أشدّ منه، وهو أن يقال : لم خصّ الله تعالى المجازاة بالكفور ولم يذكر أصحاب المعاصى؟ فتكلم العلماء فى هذا؛ فقال قوم: ليس يُجازَى بهذا الجزاء الذى هو الاصطلام(٢) والإهلاك إلا من كفر . وقال مجاهد: يجازى بمعنى يعاقب؛ وذلك أن المؤمن يكفّر الله تعالى عنه سيئاته ، والكافر يجازَى بكل سوء عمله ؛ فالمؤمن يُجْزَى ولا يُجازَى لأنه يثاب(٣) . وقال طاوس : هو المناقشة فى الحساب ، وأما المؤمن فلا يناقش الحساب . وقال قُطْرُب خلاف هذا ، فجعلها فى أهل المعاصى غير الكفار ، وقال : المعنى على من كفر بالنعم وعمل بالكبائر . النحاس : وأولى ما قيل فى هذه الآية وأجلّ ما روى فيها : أن الحسن قال مِثْلًا بمثل . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) راجع ج ١٦ ص ٣٨ فما بعد . (٢) الاصطلام : الاستئصال . (٣) فى نسخ الأصل : «لا يثاب» .

Marfat.com

يقول : "من حوسب هلك" فقلت : يانبيّ الله ، فأين قوله جلّ وعزّ : «فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً» [(١)] ؟ قال : "إنما ذلك العرض ومن نوقش الحساب هلك" . وهذا إسناد صحيح ، وشرحه : أن الكافر يكافأ على أعماله ويحاسب عليها ويحبط ما عمِـل من خير ؛ ويبيّن هذا قوله تعالى فى الأول : «ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَـا كَفَرُوا» وفى الثانى : «وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورُ» ومعنى «يُجَازَى» : يكافأ بكل عَمَل عَمِله ، ومعنى «جزيناهم» . وفّيناهم ؛ فهذا حقيقة اللغة ، و إن كان « جازى » يقع بمعنى « جزى » مجازا .

قوله تعـالى : وَجَعَلْنَـا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَـا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ قال الحسن : يعنى بين اليمن والشام . والقُرى التى بورك فيها : الشام والأُرْدُن وفِلَسْطين . والبركة : قيل إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية بورك فيها بالشجر والثمر والمـاء . ويحتمل أن يكون « بَارَكْنَا فِيهَا » بكثرة العدد . ﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ قال ابن عباس : يريد بين المدينة والشام . وقال قتادة : معنى « ظَاهِرَةً » : متصلة على طريق ، يغـدون فيَقيلون فى قرية ويروحون فيبيتون فى قرية . وقيل : كان على كل مِيل قريةٌ بسوق ، وهو سبب أمن الطريق . قال الحسن : كانت المرأة تخرج معها مِغْزَلها وعلى رأسها مِكْتَلُها ثم تلتهى بمغزلها فلا تأتى بيتها حتى يمتلئ مِكْتَلها من كل الثمـار ، فكان ما بين الشام واليمن كذلك . وقيل «ظَاهِرَةً» أى مرتفعة ، قاله المبرد . وقيل : إنما قيل لها « ظَاهِرَةً » لظهورها ، أى إذا خرجْتَ عن هذه ظهرت لك الأخرى ، فكانت قرى ظـاهرة أى معروفة ، يقال : هـذا أمر ظاهر أى معروف . ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ أى جعلنا السير بين قراهم و بين القرى التى باركنا فيها سَـيْراً مقدّرا من منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قـرية ، أى جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل فى قرية والمبيت فى قرية أخرى . وإنمـا يبالغ الإنسان فى السير لعـدم الزاد والمـاء

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٧٠

Marfat.com

ولخوف الطريق ، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة ونزل أينما أراد . ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ أى وقلنا لهم سيروا فيها، أى فى هذه المسافة فهو أمر تمكين ، أى كانوا يسيرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين ، فهو أمر بمعنى الخبر ، وفيه إضمار القول . ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ ظرفان ﴿آمِنِينَ﴾ نصب على الحال . وقال : «لَيَالِيَ وَأَيَّامًا» بلفظ النكرة تنبيها على قِصر أسفارهم؛ أى كانوا لا يحتاجون إلى طول السفر لوجود ما يحتاجون إليه . قال قتادة : كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظِماء ، وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر فى أمان لا يحرك بعضهم بعضا ، ولو لقى الرجلُ قاتِلَ أبيه لا يحرّكه .

قوله تعالى : ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى : ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ لما بَطِروا وطغَوْا وسئموا الراحة ولم يصبروا على العافية تمنَّوا طول الأسفار والكَدْح فى المعيشة؛ كقول بنى إسرائيل: «فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا»(١) الآية . وكالنضر بن الحارث حين قال: «اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ»(٢) فأجابه الله تبارك وتعالى، وقُتل يوم بدر بالسيف صَبْرًا(٣)؛ فكذلك هؤلاء تبدّدوا فى الدنيا ومُزّقوا كل مُمَزّق، وجعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الرواحل ويتزودون الأزواد . وقراءة العامة « رَبَّنَا » بالنصب على أنه نداء مضاف، وهو منصوب لأنه مفعول به، لأن معناه : ناديْت ودعوْت . «بَاعِدْ» سألوا المباعدة فى أسفارهم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن مُحيْصن وهشام عن ابن عامر: « رَبَّنا » كذلك على الدعاء « بَعِّد » من التبعيد . النحاس : وباعد وبعّد واحد فى المعنى، كما تقول : قارب وقرّب . وقرأ أبو صالح ومحمد بن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم

(١) راجع جـ ١ ص ٤٢٢ فما بعد . (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٩٨

(٣) يقال للرجل إذا شدت يداه ورجلاه أو أمسكه رجل آخر حتى يضرب عنقه أو حبس على القتل حتى يقتل : قتل صبرا .

Marfat.com

ويعقوب، ويروى عن ابن عباس: «رَبُّنَا» رفعًا «بَاعَدَ» بفتح العين والدال على الخبر، تقديره: لقد باعد ربُّنا بين أسفارنا، كأن الله تعالى يقول: قَرَّبنا لهم أسفارهم فقالوا أَشَرًا وبَطَرًا: لقد بُوعدت علينا أسفارنا. واختار هذه القراءة أبو حاتم قال: لأنهم ما طلبوا التبعيد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب بَطَرًا وعجبا مع كفرهم. وقراءة يحيى بن يَعْمَر وعيسى بن عمر وتروى عن ابن عباس «رَبَّنَا بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا» بشدّ العين من غير ألف، وفسرها ابن عباس قال: شكوا أن ربهم باعد بين أسفارهم. وقراءة سعيد بن أبي الحسن أخى الحسن البصرى «رَبَّنَا بُعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا». «رَبَّنَا» نداء مضاف، ثم أخبروا بعد ذلك فقالوا: «بَعُدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا» ورفع «بين» بالفعل، أى بعدما يتصل بأسفارنا. وروى الفراء وأبو إسحاق قراءة سادسة مثل التى قبلها فى ضم العين إلا أنك تنصب «بين» على ظرف، وتقديره فى العربية: بعد سيرنا بين أسفارنا. النحاس: وهذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال إحداها أجود من الأخرى، كما لا يقال ذلك فى أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، ولكن خبّر عنهم أنهم دعوا ربهم أن يبعد بين أسفارهم بَطَرًا وأَشَرًا، وخبّر عنهم أنهم لما فعل ذلك بهم خبروا به وشكوا، كما قال ابن عباس. ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أى بكفرهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أى يُتحدّث بأخبارهم، وتقديره فى العربية: ذوى أحاديث. ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أى لما لحقهم ما لحقهم تفرقوا وتمزقوا. قال الشعبي: فلحقت الأنصار بيثرب، وغسّان بالشام، والأسد بعُمَان، وخُزاعة بتِهامة، وكانت العرب تضرب بهم المثل فتقول: تفرقوا أيدى سبا وأيادى سبأ، أى مذاهب سبأ وطرقها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ الصبار الذى يصبر عن المعاصى، وهو تكثير صابر يمدح بهذا الاسم. فإن أردت أنه صَبَر عن المعصية لم يستعمل فيه إلا صبار عن كذا. ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه، وقد مضى هذا المعنى فى «البقرة»(1).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

(1) راجع جـ ١ ص ٣٧١ و ٣٩٧

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ فيه أربع قراءات : قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر ويروى عن مجاهد، «وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ» بالتخفيف « إبليسُ » بالرفع « ظَنَّهُ » بالنصب ؛ أى فى ظنه . قال الزجاج : وهو على المصدر ؛ أى صدق عليهم ظنًّا ظنه إذ صدق فى ظنه؛ فنصب على المصدر أو على الظرف . وقال أبو علىّ : « ظنَّه » نصب لأنه مفعول به؛ أى صدق الظن الذى ظنه إذ قال : « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ »[1] وقال : « لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ »[2]؛ ويجوز تعدية الصدق إلى المفعول به ، ويقال : صدق الحديثَ ، أى فى الحديث . وقرأ ابن عباس ويحيى بن وثّاب والأعمش وعاصم وحمزة والكسائى : «صدّق» بالتشديد « ظنَّه » بالنصب بوقوع الفعل عليه . قال مجاهد : ظن ظنا فكان كما ظن فصدق ظنه . وقرأ جعفر بن محمد وأبو الهجهاج[3] « صدَق عليهم » بالتخفيف « إبليسَ» بالنصب «ظنُّه» بالرفع . قال أبو حاتم : لا وجه لهذه القراءة عندى ، والله تعالى أعلم . وقد أجاز هذه القراءة الفرّاء وذكرها الزجاج وجعل الظن فاعل «صدق» « إبليسَ » مفعول به ؛ والمعنى : أن إبليس سوّل له ظنه فيهم شيئا فصدق ظنــه ، فكأنه قال : ولقد صدَق عليهم ظن إبليسَ . و«على» متعلقة بـ « صدق » ، كما تقول : صدقت عليك فيما ظننته بك، ولا تتعلق بالظن لاستحالة تقدم شىء من الصلة على الموصول . والقراءة الرابعة : « وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إبليسُ ظَنُّهُ » برفع إبليس والظن ، مع التخفيف فى « صدق » على أن يكون ظنه بدلا من إبليس وهو بدل الاشتمال . ثم قيل : هذا فى أهل سبأ ، أى كفروا وغيّروا وبدّلوا بعد أن كانوا مسلمين إلا قوما منهم آمنوا برسلهم . وقيل : هــذا عام ، أى صدق إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع الله تعالى ؛ قاله مجاهد . وقال الحسن : لمـا أهبط آدم عليه السلام من الجنة ومعه حوّاء وهبط إبليس قال إبليس : أمّا إذ أصبتُ من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف ! فكان ذلك ظنا من إبليس ، فأنزل الله تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ » . وقال ابن عبـاس : إن إبليس قال : خُلقت من نار وخُلق آدم من طين

(١) راجع جـ ٧ ص ١٧٤ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٧

(٣) كذا فى نسخ الأصل وكتاب إعراب القرآن للنحاس . وفى روح المعانى والبحر المحيط : « أبوا لجهجاه » .

Marfat.com

والنار تحرق كل شيء « لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (١) » فصدق ظنه عليهم . وقال زيد بن أسلم : إن إبليس قال يارب أرأيت هـؤلاء الذين كرمتهم وشرّفتهـم وفضّلتهم علىّ لا تجـد أكثرهم شاكرين، ظنا منه فصدق عليهم إبليس ظنه . وقال الكلبي : إنه ظن أنه إن أغواهم أجابوه وإن أضلهم أطاعوه، فصدق ظنه . ﴿ فَاتَّبَعُوهُ ﴾ قال الحسن : ما ضربهم بسوط ولا بعصا وإنما ظن ظنا فكان كما ظن بوسوسته . ﴿ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ نصب على الاستثناء، وفيه قولان : أحدهما أنه يراد به بعض المؤمنين، لأن كثيرا من المؤمنين من يذنب وينقاد لإبليس في بعض المعاصي، أي ماسلم من المؤمنين أيضا إلا فريق وهو المعنى بقوله تعالى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ (١) » . فأما ابن عباس فعنـه أنه قال : هم المؤمنون كلهم، فـ « مـن » على هذا للتبيين لا للتبعيض، فإن قيل : كيف علم إبليس صدق ظنه وهو لا يعـلم الغيب ؟ قيل له : لمـا نفذ له في آدم مانفذ غلب على ظنه أنه ينفذ له مثل ذلك في ذريته، وقد وقع له تحقيق ما ظن . وجواب آخر وهو ما أجيب من قوله تعالى : « وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ (١) » فأعطى القوة والاستطاعة، فظن أنه يملكهم كلهم بذلك، فلما رأى أنه تاب على آدم وأنه سيكون له نسل يتبعونه إلى الجنة وقال : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » علم أن له تبعا ولآدم تبعا، فظن أن تبعه أكثر من تبع آدم، لمـا وُضع في يديه من سلطان الشهوات، ووضعت الشهوات في أجواف الآدميين، فخـرج على ما ظن حيث نفخ فيهم وزيّـن في أعينهم تلك الشهوات، ومدّهم إليها بالأماني والخدائع، فصدق عليهم الظن الذي ظنه، والله أعلم .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِـمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي لم يقهـرهم إبليس على الكفر، وإنما كان منه الدعاء والتزيين . والسلطان : القوّة . وقيل الحجة، أي لم تكن له حجة يستتبعهم

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٧ فـا بعد و ص ٢٨ .

Marfat.com

بها، و إنما اتبعوه بشهوة وتقليد وهوى نفس، لا عن حجة ودليل. ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ ﴾ يريد علم الشهادة الذى يقع به الثواب والعقاب، فأما الغيب فقد علمه تبارك وتعالى. ومذهب الفرّاء أن يكون المعنى : إلا لنعلم ذلك عندكم ، كما قال : « أَيْنَ شُرَكَائِىَ »(1) على قولكم وعندكم، وليس قوله : « إِلَّا لِنَعْلَمَ » جواب « وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ » فى ظاهره إنما هو محمول على المعنى؛ أى وما جعلنا له سلطانا إلا لنعلم، فالاستثناء منقطع، أى لا سلطان له عليهم ولكنا ابتليناهم بوسوسته لنعلم ، فـ « إلا » بمعنى لكن . وقيل هو متصل، أى ما كان له عليهم من سلطان ، غير أنا سلّطناه عليهم ليتم الابتلاء . وقيل : « كَانَ » زائدة ؛ أى وماله عليهم من سلطان ، كقوله : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ »(2) أى أنتم خير أمة . وقيل : لما اتصل طرف منه بقصة سبأ قال : وما كان لإبليس على أولئك الكفار من سلطان . وقيـل : وما كان له فى قضائنا السابق سلطان عليهم . وقيـل : « إِلَّا لِنَعْلَمَ » إلا لنظهر ، وهو كما تقـول : النـار تحرق الحطب ، فيقول آخر لا بل الحطب يحرق النـار، فيقـول الأول تعـال حتى نجـرّب النار والحطب لنعلم أيهما يحرق صاحبه ، أى لنظهر ذلك و إن كان معلوما لهم ذلك . وقيـل : إلا لتعلموا أنتم . وقيل: أى ليعلم أولياؤنا والملائكة؛ كقوله : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ »(3) أى يحاربون أولياء الله ورسوله . وقيل: أى ليميز؛ كقوله : « لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » وقد مضى هـذا المعنى فى « البقـرة »(4) وغيرها . وقرأ الزهرى « إِلَّا لِيُعْلَمَ » على ما لم يسم فاعله . ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى أنه عالم بكل شىء . وقيـل : يحفظ كل شىء على العبد حتى يجازيه عليه .

قوله تعـالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(1) راجع جـ ١٠ ص ٩٨ . (2) راجع جـ ٤ ص ١٧٠ .
(3) راجع جـ ٦ ص ١٤٧ فما بعد . (4) راجع جـ ٢ ص ١٥٦ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى هـذا الذى مضى ذكره من أمر داود وسليمان وقصة سبأ من آثار قدرتى، فقل يا محمد لهؤلاء المشركين هل عند شركائكم قدرة على شيء من ذلك . وهذا خطاب توبيخ، وفيـه إضمار : أى ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة لكم من دون الله لتنفعكم أو لتدفع عنكم ماقضاه الله تبارك وتعالى عليكم، فإنهم لا يملكون ذلك، و﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ أى ما لله من هـؤلاء من معين على خلق شيء ، بل الله المنفرد بالإيجاد، فهو الذى يُعبَد، وعبادة غيره محال .

قوله تعـالى : وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ ﴾ أى شفاعة الملائكة وغيرهم . ﴿ عِنْدَهُ ﴾ أى عندَ الله . ﴿ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ قراءة العامة « أَذِنَ » بفتح الهمزة، لذكر الله تعالى أولا . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى « أُذِنَ » بضم الهمزة على ما لم يسم فاعله . والآذن هو الله تعالى . و « مَن » يجوز أن ترجع إلى الشافعين، ويجوز أن ترجع إلى المشفوع لهم . ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : خُلِّى عن قلوبهم الفزع . قطرب : أخرج ما فيها من الخوف . مجاهد : كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة ؛ أى إن الشفاعة لا تكون من أحد هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصـنام ؛ إلا أن الله تعـالى يأذن للأنبياء والملائكة فى الشفاعة وهم على غاية الفزع من الله؛ كما قال : « وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ »[1] . والمعنى : أنه إذا أذن لهم فى الشفاعة وورد عليهم كلام الله فزعوا؛ لمـا يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف أن يقع فى تنفيـذ ما أذن لهم فيـه تقصير ، فإذا سُرِّىَ عنهم قالوا للملائكة فوقهم وهم الذين يوردون عليهم الوحى بالإذن : ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ أى ماذا أمر الله به » فيقولون لهم : ﴿ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ وهو أنه أذن لكم فى الشفاعة للمؤمنين . ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ فله أن يحكم فى عباده بما

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨١ .

Marfat.com

يريد . ثم يجوز أن يكون هذا إذنا لهم فى الدنيا فى شفاعة أقوام ، ويجوز أن يكون فى الآخرة . وفى الكلام إضمار ؛ أى ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ففزع لما ورد عليه من الإذن تهيبا لكلام الله تعالى، حتى إذا ذهب الفزع عن قلوبهم أجاب بالانقياد . وقيل : هذا الفزع يكون اليوم للملائكة فى كل أمر يأمر به الرب تعالى ؛ أى لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم اليوم فزعون ، مطيعون لله تعالى دون الجمادات والشياطين . وفى صحيح الترمذى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : " اذا قضى الله فى السماء أمرا ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانا لقوله كأنها سلسلة على صَفْوان(١) فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير — قال — والشياطين بعضهم فوق بعض " قال : حديث حسن صحيح . وقال النوّاس بن سمعان قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله إذا أراد أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى أخذت السموات منه رجفة أو رِعدة شديدة خوفا من الله تعالى فإذا سمع أهل السموات ذلك صعِقوا وخروا لله تعالى سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله تعالى ويقول له من وحْيه ما أراد ثم يمرّ جبريل بالملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا ياجبريل فيقول جبريل قال الحق وهو العلى الكبير — قال — فيقول كلهم كما قال جبريل فينتهى جبريل بالوحى حيث أمره الله تعالى " . وذكر البيهقى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ » قال : كان لكل قبيل من الجن مقعد من السماء يستمعون منه الوحى، وكان إذا نزل الوحى سمع له صوت كإمرار السلسلة على الصَّفْوان، فلا ينزل على أهل سماء إلا صَعِقوا فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير ، ثم يقول يكون العام كذا ويكون كذا فتسمعه الجن فيخبرون به الكهنة والكهنةُ الناسَ [يقولون] يكون العامَ كذا وكذا فيجدونه كذلك ؛ فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم دُحروا بالشُّهب فقالت العرب حين لم تخبرهم الجن بذلك : هلك من فى السماء ، فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيرا ، وصاحب البقر ينحر كل يوم بقرة ،

(١) الصفوان : الصخر الأملس .

Marfat.com

وصاحب الغنم يخر كل يوم شاة؛ حتى أسرعوا فى أموالهم فقالت ثقيف وكانت أعقلَ العرب: أيها الناس! أمسكوا على أموالكم، فإنه لم يمت من فى السماء، وإن هذا ليس بانتثار، ألستم ترون معالمكم من النجوم كما هى والشمس والقمر والليل والنهار! قال فقال إبليس: لقد حدث فى الأرض اليوم حَدَث، فأتونى من تربة كل أرض فأتوه بها، فجعل يَشُمّها فلما شم تربة مكة قال من ها هنا جاء الحَدَث؛ فنصتوا فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث. وقد مضى هذا المعنى مرفوعا مختصرا فى سورة «الحجر»[1]، ومعنى القول أيضا فى رميهم بالشهب وإحراقهم بها، ويأتى فى سورة «الجن»[2] بيان ذلك إن شاء الله تعالى. وقيل: إنما يفزعون من قيام الساعة. وقال الكلبي وكعب: كان بين عيسى ومحمد عليهما السلام فترة خمسمائة وخمسون سنة لا يجيء فيها الرسل، فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم كلم الله تعالى جبريل بالرسالة، فلما سمعت الملائكة الكلام ظنوا أنها الساعة قد قامت، فصعقوا مما سمعوا، فلما انحدر جبريل عليه السلام جعل يمر بكل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رءوسهم ويقول بعضهم لبعض ماذا قال ربكم فلم يدروا ما قال ولكنهم قالوا قال الحق وهو العلى الكبير، وذلك أن محمدا عليه السلام عند أهل السموات من أشراط الساعة. وقال الضحاك: إن الملائكة المعقِّبات الذين يختلفون إلى أهل الأرض يكتبون أعمالهم، يرسلهم الرب تبارك وتعالى، فإذا انحدروا سمع لهم صوت شديد فيحسب الذين هم أسفل من الملائكة أنه من أمر الساعة، فيخرون سُجّدا ويَصْعقون حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة. وهذا تنبيه من الله تعالى وإخبار أن الملائكة مع اصطفائهم ورفعتهم لا يمكن أن يشفعوا لأحد حتى يؤذن لهم، فإذا أذن لهم وسمعوا صَعِقوا، وكان هذه حالهم، فكيف تشفع الأصنام أو كيف تؤملون أنتم الشفاعة ولا تعترفون بالقيامة. وقال الحسن وابن زيد ومجاهد: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين. قال الحسن ومجاهد وابن زيد: فى الآخرة عند نزول الموت، إقامة للحجة عليهم قالت الملائكة لهم: ماذا قال ربكم فى الدنيا قالوا الحق وهو العلي الكبير، فأقروا

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠.
(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٠ فما بعد.

Marfat.com

حين لا ينفعهم الإقرار، أى قالوا قال الحق . وقراءة العامة « فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ » . وقرأ ابن عباس « فَزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ » مسمّى الفاعل وفاعله ضمير يرجع إلى اسم الله تعالى . ومن بناه للمفعول فالجار والمجرور فى موضع رفع ، والفعل فى المعنى لله تبارك وتعالى . والمعنى فى القراءتين: أزيل الفزع عن قلوبهم ، حسبما تقدم بيانه . ومثله : أشكاه ، إذا أزال عنه ما يشكوه . وقرأ الحسن : « فُزِعَ » مثل قراءة العامة ، إلا أنه خفف الزاى ، والجار والمجرور فى موضع رفع أيضا ؛ وهو كقولك : انصرف عن كذا إلى كذا . وكذا معنى « فُرِغَ » بالراء والغين المعجمة والتخفيف غير مسمى الفاعل ، رويت عن الحسن أيضا وقتادة . وعنهما أيضا «فَرَغَ» بالراء والغين المعجمة مسمى الفاعل ، والمعنى: فرغ الله تعالى قلوبهم أى كشف عنها ، أى فرغها من الفزع والخوف ، وإلى ذلك يرجع البناء للمفعول على هذه القراءة . وعن الحسن أيضا « فرّغ » بالتشديد .

قوله تعالى : قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لما ذكر أن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة مما يقدر عليه الرب قرر ذلك فقال: قل يا محمد للمشركين « مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من يخلق لكم هذه الأرزاق الكائنة من السموات ؛ أى عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع . «وَالْأَرْضِ» أى الخارجة من الأرض عن الماء والنبات — أى لا يمكنهم أن يقولوا هذا فِعْلُ آلهتنا — فيقولون لا ندرى ، فقل إن الله يفعل ذلك الذى يعلم ما فى نفوسكم . وإن قالوا : إن الله يرزقنا فقد تقررت الحجة بأنه الذى ينبغى أن يعبد . ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ هذا على وجه الإنصاف فى الحجة ؛ كما يقول القائل : أحدنا كاذب ، وهو يعلم أنه صادق وأن صاحبه كاذب . والمعنى : ما نحن وأنتم على أمر واحد ، بل على أمرين متضادين ، وأحد الفريقين مهتدٍ وهو نحن والآخر ضالّ وهو أنتم ؛

Marfat.com

فكذّبهم بأحسن من تصريح التكذيب ، والمعنى : أنتم الضالون حين أشركتم بالذى يرزقكم من السموات والأرض . « أَوْ إِيَّاكُمْ » معطوف على اسم « إنّ » واو عطف على الموضع لكان « أو أنتم » ويكون « لَعَلَى هُدًى » للأول لا غير . وإذا قلت : « أَوْ إِيَّاكُمْ » كان للثانى أولى ، وحذفت من الأول ، ويجوز أن يكون للاول ، وهو اختيار المبرد ، قال : ومعناه معنى قول المستبصر لصاحبه على صحة الوعيد والاستظهار بالحجة الواضحة : أحدنا كاذب ، قد عرف المعنى ، كما تقول : أنا أفعل كذا وتفعل أنت كذا وأحدنا مخطئ ، وقد عرف أنه هو المخطئ ، فهكذا « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُـدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » . و « أَوْ » عند البصريين على بابها وليست للشك ، ولكنها على ما تستعمله العرب فى مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين وهو عالم بالمعنى . وقال أبو عبيدة والفراء : هى بمعنى الواو ، وتقديره : وإنا على هدى وإياكم فى ضلال مبين . وقال جرير :

أثعلبةَ الفوارس أو رياحًا * عدلْتَ بهم طُهَيَّةَ والرِّبابا(١)

يعنى أثعلبة ورياحا . وقال آخر :

فلما اشتد أمر الحرب فينا * تأملنا رياحا أو رزاما

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ﴾ أى اكتسبنا ، ﴿ وَلَا نُسْأَلُ ﴾ نحن أيضا ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى إنما أقصد بما أدعوكم إليه الخير لكم ، لا أنه ينالنى ضرر كفركم ، وهذا كما قال : « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »(٢) والله مجازى الجميع . فهذه آية مهادنة ومتاركة ، وهى منسوخة بالسيف . وقيل : نزل هذا قبل آية السيف .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾

(١) رواية الديوان وكتاب سيبويه : « والخشابا » .
(٢) راجع ج ٢٠ ص ٢٢٩ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يريد يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى يقضى فيثيب المهتدى و يعاقب الضال ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ ﴾ أى القاضى بالحق ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوال الخلق . وهذا كله منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ يكون « أَرُونِيَ » هنا من رؤية القلب ، فيكون «شُرَكَاء» المفعول الثالث ، أى عرفونى الأصنام والأوثان التى جعلتموها شركاء لله عز وجل ، وهل شاركت فى خلق شىء ، فبينوا ما هو ؟ و إلا فلم تعبدونها . ويجوز أن تكون من رؤية البصر ، فيكون « شُرَكَاء » حالا . ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس الأمر كما زعمتم . وقيل : إن « كَلَّا » ردّ لجوابهم المحذوف ، كأنه قال : أرونى الذين ألحقتم به شركاء . قالوا : هى الأصنام . فقال كلا ، أى ليس له شركاء ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى وما أرسلناك إلا للناس كافة أى عامة ؛ ففى الكلام تقديم وتأخير . وقال الزجاج : أى وما أرسلناك إلا جامعا للناس بالإنذار والإبلاغ . والكافة بمعنى الجامع . وقيل : معناه كافا للناس ، تكفهم عما هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام . والهاء للمبالغة . وقيل : أى إلا ذا كافة ، فحذف المضاف ، أى ذا منع للناس من أن يشذوا عن تبليغك ، أو ذا منع لهم من الكفر ، ومنه ؛

Marfat.com

كف الثوب، لأنه ضم طرفيه . ﴿ بَشِيرًا ﴾ أى بالجنة لمن أطاع . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ من النار لمن كفر . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما عند الله وهم المشركون ؛ وكانوا فى ذلك الوقت أكثر من المؤمنين عددا . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴾ يعنى موعدكم لنا بقيام الساعة . ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فقال الله تعالى : ﴿قُل﴾ لهم يا محمد : ﴿ لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ فلا يغرنكم تأخيره . والميعاد الميقات . ويعنى بهذا الميعاد وقت البعث وقيل وقت حضور الموت؛ أى لكم قبل يوم القيامة وقت معين تموتون فيه فتعلمون حقيقة قولى . وقيل : أراد بهذا اليوم يوم بدر ؛ لأن ذلك اليوم كان ميعاد عذابهم فى الدنيا فى حكم الله تعالى . وأجاز النحويون « ميعادُ يومٌ » على أن يكون « ميعادٌ » ابتداءو « يومٌ » بدل منه ، والخبر « لكم » . وأجازوا « ميعادٌ يومًا » يكون ظرفا ، وتكون الهاء فى « عنه » ترجع إلى « يوم » ولا يصح « ميعادُ يومَ لا تستأخرون » بغير تنوين ، وإضافة « يوم » الى ما بعده إذا قدرت الهاء عائدة على اليوم ، لأن ذلك يكون من إضافة الشيء إلى نفسه من أجل الهاء التى فى الجملة . ويجوز ذلك على أن تكون الهاء للميعاد لا لليوم .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يريد كفار قريش . ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قال سعيد عن قتادة : « وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » من الكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقيل من الآخرة . وقال ابن جُريج : قائل ذلك أبو جهل بن هشام . وقيل : إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد في كتابنا فسلوه، فلما سألوه فوافق ما قال أهل الكتاب قال المشركون : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع ؛ وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم، فظهر بهذا تناقضهم وقلة علمهم . ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن حالهم فيما لهم فقال ﴿ ولو ترى ﴾ يا محمد ﴿ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي محبوسون في موقف الحساب ، يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا في الدنيا أخلاء متناصرين . وجواب « لو » محذوف ؛ أي لرأيت أمرا هائلا فظيعا . ثم ذكر أي شيء يرجع من القول بينهم فقال : ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ في الدنيا من الكافرين ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم القادة والرؤساء ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي أغويتمونا وأضللتمونا . واللغة الفصيحة « لَوْلَا أَنْتُمْ » ومن العرب من يقول « لولاكم » حكاها سيبويه ؛ تكون « لولا » تخفض المضمر ويرتفع المظهر بعدها بالابتداء ويحذف خبره . ومحمد بن يزيد يقول : لا يجوز « لولاكم » لأن المضمر عقيب المظهر ، فلما كان المظهر مرفوعا بالإجماع وجب أن يكون المضمر أيضا مرفوعا . ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى ﴾ هو استفهام بمعنى الإنكار، أي ما رددناكم نحن عن الهدى، ولا أكرهناكم . ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ أي مشركين مصرين على الكفر . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ المكر أصله في كلام العرب الاحتيال والخديعة، وقد مكر به يمكر فهو ماكر ومكّار . قال الأخفش : هو على تقدير : هذا مكر الليل والنهار . قال النحاس : والمعنى — والله أعلم — بل مكركم في الليل والنهار، أي مسارتكم إيانا ودعاؤكم لنا إلى الكفر حملنا على هذا . وقال سفيان الثوري : بل عملكم في الليل والنهار . قتادة : بل مكركم بالليل والنهار صدنا ؛ فأضيف المكر إليهما لوقوعه فيهما،

Marfat.com

وهو كقوله تعالى : « إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ »(١) فأضاف الأجل إلى نفسه ، ثم قال : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً »(٢) إذ كان الأجل لهم . وهذا من قبيل قولك : ليله قائم ونهاره صائم . قال المبرد : أى بل مكركم الليل والنهار ، كما تقول العرب : نهاره صائم وليله قائم . وأنشد لجرير :

لقد لُمْتِنَا يا أمَّ غَيْلان فى السُّرَى * ونِمتِ وما ليـلُ المَطِىّ بنـائم

وأنشد سيبويه : * فنام ليلى وتجلّى همى *

أى نمت فيه . ونظيره : « وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا »(٣) . وقرأ قتادة : « بل مكرٌ الليلَ والنهارَ » بتنوين « مكر » ونصب « الليـل والنهار » ، والتقـدير : بل مكر كائن فى الليل والنهـار ، فحذف . وقـرأ سعيد بن جبير « بَلْ مَكَرُّ » بفتح الكاف وشـدّ الراء بمعنى الكرور ، وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف . ويجـوز أن يرتفع بفعل مضمر دلّ عليـه « أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ » كأنهم لمـا قالوا لهم أنحن صددناكم عن الهدى قالوا بل صدّنا مكر الليـل والنهار . وروى عن سـعيد بن جبير « بَلْ مَكَرُّ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » قال : مرّ الليلُ والنهار عليهم فغفلوا . وقيل : طول السلامة فيهما كقوله « فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ »(٤) . وقرأ راشد « بل مَكَرَّ الليل والنهار » بالنصب ، كما تقول : رأيته مَقْدَمَ الحاج ، وإنما يجوز هذا فيما يعرف ، لوقلت : رأيته مقدمَ زيد ، لم يجز ؛ ذكره النحاس . ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ أى أشباها وأمثالا ونظراء . قال محمد بن يزيد : فلانٌ نِدُّ فلانٍ ، أى مثله . ويقال نَديد ؛ وأنشد :

أيمـا تجعلون إلىّ نـدّا * وما أنتم لذى حسب نَديد

وقد مضى هذا فى البقرة »(٥) . ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ ﴾ أى أظهروها ، وهو من الأضداد يكون بمعنى الإخفاء والإبداء . قال امرؤ القيس :

تجـاوزت أحراسا وأهوال مَعْشِر * علىّ حـراصا لو يُسِرّون مَقْتَـلى(٦)

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٩٩ فما بعد .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠١ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٦٠ .
(٤) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٨ فما بعد .
(٥) راجع جـ ١ ص ٢٣٠ .
(٦) هذه رواية البيت كما فى نسخ الأصل والديوان وروايته كما فى المعلقات : تجاوزت أحراسا اليها ومعشرا * على حراصا لو يشرون مقتلى « يشرون » بالشين المعجمة : يظهرون .

Marfat.com

وروى « يُسِرون » . وقيل : « وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ » أى تبينت الندامة فى أسرار وجوههم .
قيل : الندامة لا تظهر، وإنما تكون فى القلب، وإنما يظهر ما يتولد عنها ، حسبما تقدم
بيانه فى سورة « يونس ، وآل عمران »(١) . وقيل : إظهارهم الندامة قولهم : « فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً
فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »(٢) . وقيل : أسروا الندامة فيما بينهم ولم يجهروا القول بها ؛ كما قال : « وَأَسَرُّوا
النَّجْوَى »(٣) . ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِى أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الأغلال جمع غُلّ ، يقال : فى رقبته
غُلّ من حديد . ومنه قيل للمرأة السيئة الخلق : غُلّ قَمِل ، وأصله أن الغُلّ كان يكون من
قِدّ وعليه شعر فيَقْمَل . وغَللتُ يده إلى عنقه ؛ وقد غُلّ فهو مغلول ؛ يقال : ماله أُلّ وغُلّ(٤) .
والغُلّ أيضا والغُلّة : حرارة العطش ، وكذلك الغليل ؛ يقال منه : غُلّ الرجلُ يُغَلّ غَلَلًا فهو
مغلول ، على ما لم يسم فاعله ؛ عن الجوهرى . أى جعلت الجوامع فى أعناق التابعين
والمتبوعين . قيل من غير هؤلاء الفريقين . وقيل يرجع « الَّذِينَ كَفَرُوا » إليهم . وقيل :
تم الكلام عند قوله : « لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ » ثم ابتدأ فقال : « وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ » بعد ذلك فى أعناق
سائر الكفار . ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فى الدنيا .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا
بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى
تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ
ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ
فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٥٢ (٢) راجع جـ ١٣ ص ١١٧ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢١٥
(٤) أل : دفع فى قفاه . وغل : جن ؛ فوضع فى عنقه الغل .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ قال قتادة : أي أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها وقادة الشر للرسل : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ أي فضّلنا عليكم بالأموال والأولاد ، ولو لم يكن ربكم راضيا بما نحن عليه من الدّين والفضل لم يخوّلنا ذلك . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ لأن من أحسن إليه فلا يعذبه ، فرد الله عليهم قولهم وما احتجوا به من الغنى فقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أي يوسعه ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يقتّر ، أي إن الله هو الذي يفاضل بين عباده في الأرزاق امتحانا لهم ، فلا يدلّ شيء من ذلك على ما في العواقب ، فسَعة الرزق في الدنيا لا تدلّ على سعادة الآخرة ، فلا تظنوا أموالكم وأولادكم تغني عنكم غدًا شيئا . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ هذا لأنهم لا يتأملون . ثم قال تأكيدا : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ﴾ قال مجاهد : أي قُرْبى . والزُّلْفة القربة . وقال الأخفش : أي إزلافا ، وهو اسم المصدر ، فيكون موضع « قُرْبَى » نصبا ، كأنه قال بالتي تقربكم عندنا تقريبا . وزعم الفراء أن « التي » تكون للأموال والأولاد جميعا . وله قول آخر وهو مذهب أبي إسحاق الزجاج ، يكون المعنى : وما أموالكم بالتي تقربكم عندنا ، ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ، ثم حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه . وأنشد الفراء :

نحن بما عندنا وأنت بما * عندك راضٍ والرأيُ مختلفُ

ويجوز في غير القرآن : باللتين وباللاتي وباللواتي وباللّذَين و بالّذين ، للأولاد خاصة ، أي لا تزيدكم الأموال عندنا رفعة ودرجة ، ولا تقربكم تقريبا . ﴿ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ قال سعيد بن جبير : المعنى إلا من آمن وعمل صالحا فلن يضره مالُه وولدُه في الدنيا . وروى ليث عن طاوس أنه كان يقول : اللهم ارزقني الإيمان والعمل ، وجنّبني المالَ والولد ، فإني سمعت فيما أوحيتَ « وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا » .

قلت : قول طاوس فيه نظر ، والمعنى والله أعلم : جنّبني المال والولد المطْغِيَيْن أو اللذين لا خير فيهما ؛ فأما المال الصالح والولد الصالح للرجل الصالح فنِعم هذا ! وقد مضى هذا في « آل عمران

Marfat.com

ومريم ، والفرقان »[1] . و « مَن » فى موضع نصب على الاستثناء المنقطع ، أى لكن من آمن وعمل صالحًا فإيمانه وعمله يقرّبانه منى . وزعم الزجاج أنه فى موضع نصب بالاستثناء على البدل من الكاف والميم التى فى « تقربكم » . النحاس : وهذا القول غلط ؛ لأن الكاف والميم للمخاطب فلا يجوز البدل ، ولو جاز هذا لجاز : رأيتك زيدا . وقول أبى إسحاق هذا هو قول الفراء ، إلا أن الفراء لا يقول بدل لأنه ليس من لفظ الكوفيين ، ولكن قوله يئول إلى ذلك ، وزعم أن مثله « إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »[1] يكون منصوبا عنده بـ « ينفع » . وأجاز الفراء أن يكون « مَن » فى موضع رفع بمعنى : ماهو إلا من آمن ، كذا قال ، ولست أحصّل معناه .

﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ يعنى قوله : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا »[2] فالضعف الزيادة ، أى لهم جزاء التضعيف ، وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول . وقيل : لهم جزاء الأضعاف ، فالضعف فى معنى الجمع ، و إضافة الضعف إلى الجزاء كإضافة الشيء إلى نفسه ، نحو : حق اليقين ، وصلاة الأولى . أى لهم الجزاء المضعَّف ، للواحد عشرة إلى ما يريد الله من الزيادة .

وبهذه الآية استدلّ من فضّل الغنى على الفقر . وقال محمد بن كعب : إن المؤمن إذا كان غنيًّا تقيًّا آتاه الله أجره مرتين بهذه الآية . ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ قراءة العامة « جَزَاءُ الضِّعْفِ » بالإضافة . وقرأ الزهرى ويعقوب ونصر بن عاصم « جزاءً » منوّنا منصوبا « الضعفُ » رفعا ؛ أى فأولئك لهم الضعف جزاء ، على التقديم والتأخير . « وجَزَاءُ الضِّعْفِ » على أن يجازوا الضعف . و « جزاءٌ الضعفُ » مرفوعان ، الضعفُ بدل من جزاء . وقرأ الجمهور أيضا « فى الغُرُفَات » على الجمع ، وهو اختيار أبى عبيد؛ لقوله : «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا »[1] . الزمخشرى : وقرئ « فِي الغرفاتِ » بضم الراء وفتحها وسكونها . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب وحمزة وخلف «فى الغرفة» على التوحيد ؛ لقوله تعالى : « أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ »[1] . والغرفة قد يراد بها اسم الجمع واسم الجنس . قال ابن عباس : هى غرف

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٢ و جـ ١١ ص ٨٠ و جـ ١٣ ص ٨٢ و ص ١١٤ و ٣٥٩ .
(٢) راجع ٧ ص ١٥٠

Marfat.com

من ياقوت وزبرجد ودُرّ . وقد مضى بيان ذلك[1] . ﴿ آمِنُونَ ﴾ أى من العذاب والموت والأسقام والأحزان . ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا ﴾ فى إبطال أدلتنا وحجتنا وكتابنا . ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ معاندين ، يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم . ﴿ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أى فى جهنم تحضرهم الزبانية فيها .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ كرر تأكيدا ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المغترين بالأموال والأولاد إن الله يوسّع على من يشاء ويضيّق على من يشاء ، فلا تغتروا بالأموال والأولاد بل أنفقوها فى طاعة الله ، فإن ما أنفقتم فى طاعة الله فهو يخلفه . وفيه إضمار ، أى فهو يخلفه عليكم ؛ يقال : أخلف له وأخلف عليه ، أى يعطيكم خلفه وبدله ، وذلك البدل إما فى الدنيا وإما فى الآخرة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مامن يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهمّ أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا " . وفيه أيضا عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، " إن الله قال لى أَنفق أنفق عليك ... " الحديث . وهذه إشارة إلى الخلف فى الدنيا بمثل المنفق فيها إذا كانت النفقة فى طاعة الله . وقد لايكون الخلف فى الدنيا فيكون كالدعاء ـــ كما تقدّم[2] ـــ سواء فى الإجابة أو التكفير أوالادخار ؛ والادخار ها هنا مثله فى الأجر .

مسألة ـــ روى الدَّارَقُطْنِيّ وأبو أحمد بن عَدِيّ عن عبد الحميد الهلالى عن محمد بن المُنْكَدِر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كل معروف صدقة وما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وَقَى به الرجل عِرضَه فهو صدقة وما أنفق الرجل

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٠٤ و جـ ١٣ ص ٨٣ و ٣٥٩ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٠٨ فما بعد .

Marfat.com

من نفقة فعلى الله خلفها إلا ما كان من نفقة فى بنيان أو معصية ". قال عبد الحميد : قلت لابن المنكدر : « ما وقى الرجل عرضه » ؟ قال : يعطى الشاعر وذا اللسان . عبد الحميد وثقه ابن معين .

قلت : أما ما أنفق فى معصية فلا خلاف أنه غير مثاب عليه ولا مخلوف له . وأما البنيان فما كان منه ضروريا يكن الإنسان ويحفظه فذلك مخلوف عليه ومأجور ببنيانه . وكذلك كحفظ بنيته وستر عورته ، قال صلى الله عليه وسلم : " ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال ، بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وجلف الخبز والماء ". وقد مضى هذا المعنى فى « الأعراف »[1] مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ لما كان يقال فى الإنسان : إنه يرزق عياله ، والأمير جنده ؛ قال : « وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » والرازق من الخلق يرزق ، لكن ذلك من مال يملك عليهم ثم ينقطع ، والله تعالى يرزق من خزائن لا تفنى ولا تتناهى . ومن أخرج من عدم إلى الوجود فهو الرازق على الحقيقة ، كما قال : « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ »[2] .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ[3] جَمِيعًا ﴾ هذا متصل بقوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ »[4] . أى لو تراهم فى هذه الحالة لرأيت أمرا فظيعا . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد هو وأمته . ثم قال : ولو تراهم أيضا « يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا » العابدين والمعبودين ، أى نجمعهم للحساب ﴿ ثُمَّ نَقُولُ[3] لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ . قال سعيد عن قتادة : هذا

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٩ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٥٥
(٣) قوله « نحشرهم ، نقول » بالنون قراءة نافع . (٤) راجع ص ٣٠٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

ٱستفهام ؛ كقوله عز وجل لعيسى: « أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ »(١). قال النحاس : فالمعنى أن الملائكة صلوات الله عليهم إذا كذبتهم كان فى ذلك تبكيت لهم ؛ فهو ٱستفهام توبيخ للعابدين . ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيها لك . ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ أى أنت ربنا الذى نتولاه ونطيعه ونعبده ونُخلص فى العبادة له . ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ أى يطيعون إبليس وأعوانه . وفى التفاسير : أن حيًّا يقال لهم بنو مُلَيح من خزاعة كانوا يعبدون الجن، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم، وأنهم ملائكة ، وأنهم بنات الله ؛ وهو قوله : « وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا »(٢) .

قوله تعالى : فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا ﴾ أى شفاعة ونجاة . ﴿ وَلَا ضَرًّا ﴾ أى عذابا وهلاكا . وقيل : أى لا تملك الملائكة دفع ضرّ عن عابديهم ؛ فحذف المضاف . ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ يجوز أن يقول الله لهم أو الملائكة : ذوقوا .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ ﴾ يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم . ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ أى أسلافكم من

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٧٤ .   (٢) راجع جـ ١٥ ص ١٣٤

Marfat.com

الآلهة التي كانوا يعبدونها . ﴿ وَقَالُوا مَا هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى ﴾ يعنون القرآن ؛ أى ما هو إلا كذب مختلق . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ فتارة قالوا سحر، وتارة قالوا إفك . ويحتمل أن يكون منهم من قال سحر ومنهم من قال إفك .

قوله تعالى : وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ أى لم يقرءوا فى كتاب أوتوه بطلان ما جئت به، ولا سمعوه من رسول بعث إليهم، كما قال : « أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون »[(1)] فليس لتكذيبهم وجه يتشبث به ولا شبهة متعلق كما يقول أهل الكتاب و إن كانوا مبطلين : نحن أهل كتاب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله ، ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله الحق : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى كذب قبلهم أقوام كانوا أشد من هؤلاء بطشا وأ كثر أموالا وأولادا وأوسع عيشا ، فأهلكتهم كثمود وعاد . ﴿ وَمَا بَلَغُوا ﴾ أى ما بلغ أهل مكة ﴿ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ تلك الأمم . والمعشار والعُشر سواء ، لغتان . وقيل : المعشار عشر العشر . الجوهرى : ومعشار الشيء عشره ، ولا يقولون هذا فى شيء سوى العشر . وقيل : ما بلغ الذين من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم ؛ حكاه النقاش . وقيل : ما أعطى الله تعالى من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان . قال ابن عباس : فليس أمة أعلم من أمته ، ولا كتاب أبين من كتابه . وقيل : المعشار هو عشر العشير ، والعشير هو عشر العشر فيكون جزءا من ألف جزء . الماوردى : وهو الأظهر ، لأن المراد به المبالغة فى التقليل . ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى عقابى فى الأمم ، وفيه محذوف وتقديره : فأهلكناهم فكيف كان نكيرى .

(1) راجع ج ١٦ ص ٧٤

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ تمم الحجة على المشركين ؛ أى قل لهم يا محمد : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ ﴾ أى أذكركم وأحذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه . ﴿ بِوَاحِدَةٍ ﴾ أى بكلمة واحدة مشتملة على جميع الكلام ، تقتضى نفى الشرك و إثبات الإله . قال مجاهد : هى لا إله إلا الله ؛ وهذا قول ابن عباس والسّدى . وعن مجاهد أيضا : بطاعة الله . وقيل : بالقرآن ؛ لأنه يجمع كل المواعظ . وقيل : تقديره بخصلة واحدة ، ثم بينها بقوله : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ فتكون « أَنْ » فى موضع خفض على البدل من « وَاحِدَة » ، أو فى موضع رفع على إضمار مبتدأ ، أى هى أن تقوموا . ومذهب الزجاج أنها فى موضع نصب بمعنى لأن تقوموا . وهذا القيام معناه القيام إلى طلب الحق لا القيام الذى هو ضد القعود ، وهو كما يقال : قام فلان بأمر كذا ؛ أى لوجه الله والتقرب إليه . وكما قال تعالى : « وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ »(١) . ﴿ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ أى وُحدانًا ومجتمعين ؛ قاله السّدى . وقيل : منفردا برأيه ومشاورا لغيره ، وهذا قول مأثور . وقال القُتَبِى : مناظرا مع غيره ومفكرا فى نفسه ، وكله متقارب . و يحتمل رابعا أن المَثْنَى عمل النهار والفرادى عمل الليل ، لأنه فى النهار معانٌ وفى الليل وحيد ، قاله الماوردى . وقيل : إنما قال : « مَثْنَى وَفُرَادَى » لأن الذهن حجة الله على العباد وهو العقل ، فأوفرهم عقلا أوفرهم حظا من الله ، فإذا كانوا فرادى كانت فكرة واحدة ، و إذا كانوا مثنى تقابل الذهنان فتراءى من العلم لهما ما أضعف على الانفراد ، والله أعلم . ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ الوقف عند أبى حاتم وابن الأنبارى على « ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا » . وقيل : ليس هو بوقف ، لأن المعنى : ثم تتفكروا هل جربتم على صاحبكم كذبا ، أو رأيتم فيه جنة ، أو فى أحواله من

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٠٢ .

Marfat.com

فساد ، أو اختلف إلى أحد ممن يدّعى العلم بالسحر ، أو تعلّم الأقاصيص وقرأ الكتب ، أو عرفتموه بالطمع فى أموالكم ، أو تقدرون على معارضته فى سورة واحدة ؛ فإذا عرفتم بهذا الفكر صدقه فما بال هذه المعاندة . ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . ورَهْطَكَ مِنهم الْمُخْلَصِين »[1] خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصّفا فهتف : ياصباحاه[2] ؟ فقالوا : من هذا الذى يهتِف ! ؟ قالوا محمد ؛ فاجتمعوا إليه فقال : " يا بنى فلان يا بنى فلان يا بنى عبدمناف يابنى عبد المطلب — فاجتمعوا إليه فقال — أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مُصدِّقِيّ " ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : " فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد " . قال فقال أبو لهب : تبًّا لك ! أمَا جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قال فنزلت هذه السورة : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ[3] وَقَدْ تَبَّ » كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى جُعْل على تبليغ الرسالة ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أى ذلك الجُعْل لكم إن كنت سألتكموه ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى رقيب وعالم وحاضر لأعمالى وأعمالكم ، لا يخفى عليه شىء فهو يجازى الجميع .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴾ أى يبيّن الحجة ويظهرها . قال قتادة : بالحق بالوحى . وعنه : الحق القرآن . وقال ابن عباس : أى يقذف الباطل بالحق علامُ الغيوب .

---

(١) قال القسطلانى فى قوله « ورهطك منهم المخلصين » : هو من عطف الخاص على العام ، وكان قرآنا فنسخت تلاوته . (٢) قوله : « ياصباحاه » بسكون الهاء ، وهى كلمة يقولها المستغيث ؛ وأصلها إذا صاحوا للغارة لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ، ويسمون الغارة يوم الصباح . (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٢٣٤ .

Marfat.com

وقرأ عيسى بن عمر « عَلَّامَ الغيوب » على أنه بدل، أى قل إن ربى علام الغيوب يقذف بالحق . قال الزجاج . والرفع من وجهين على الموضع، لأن الموضع موضع رفع، أو على البدل مما فى يقذف . النحاس : وفى الرفع وجهان آخران : يكون خبرا بعد خبر، و يكون على إضمار مبتدأ . وزعم الفراء أن الرفع فى مثل هذا أكثر فى كلام العرب إذا أتى بعد خبر « إنّ » ومثله « إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ »[(1)] وقرئ : « الغُيوبُ » بالحركات الثلاث ، فالغُيوب كالبيوت، والغِيوب[(2)] كالصبور، وهو الأمر الذى غاب وخَفِىَ جدًّا .

قوله تعالى : قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ قال سعيد عن قتادة : يريد القرآن . النحاس : والتقدير جاء صاحب الحق ؛ أى الكتاب الذى فيه البراهين والحجج . ﴿ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ ﴾ قال قتادة : الشيطان؛ أى ما يخلق الشيطان أحدًا . ﴿ وَمَا يُعِيدُ ﴾ فـ « ما » نَفْىٌ . ويجوز أن يكون استفهاما بمعنى أىّ شىء؛ أى جاء الحق فأىّ شىء بقى للباطل حتى يعيده و يبدئه؛ أى فلم يبق منه شىء، كقوله : « فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ »[(3)] أى لا ترى .

قوله تعالى : قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ﴾ وذلك أن الكفار قالوا تركت دين آبائك فضللت . فقال له : قل يا محمد إن ضللت كما تزعمون فإنما أضل على نفسى . وقراءة العامة « ضَلَلت » بفتح اللام . وقرأ يحيى بن وَثّاب وغيره : « قُلْ إِنْ ضَلِلت » بكسر اللام وفتح الضاد من « أَضَلُّ »، والضلال والضلالة ضدّ الرشاد . وقد ضلَلت (بفتح اللام) أضل

---

(1) راجع جـ ١٥ ص ٢٢٥ . (2) عبارة روح المعانى : « ... الغيوب (بالكسر) كالبيوت » . وعبارة البحر : « ... أما الضم فجمع غيب ، وأما الكسر فكذلك استثقلوا ضمتين والواو فكسروا لتناسب الكسر مع الياء والضمة التى على الياء مع الواو ، وأما الفتح ففعول للمبالغة كالصبور » .

(3) راجع جـ ١٨ ص ٢١٦ .

Marfat.com

(بكسر الضاد)، قال الله تعالى : « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي » فهذه لغة نجد وهي الفصيحة . وأهل العالية يقولون « ضَلِلت » بالكسر « أَضَل »(١)، أي إثم ضلالتي على نفسي. ﴿ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ من الحكمة والبيان ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أي سميع ممن دعاه قريب الإجابة . وقيل وجه النظم : قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ويبين الحجة، وضلالُ من ضل لا يبطل الحجة، ولو ضللت لأضررت بنفسي، لا أنه يبطل حجة الله، وإذا اهتديت فذلك فضل الله إذ ثبتني على الحجة إنه سميع قريب .

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ ﴾ ذكر أحوال الكفار في وقت مايضطرون فيه إلى معرفة الحق . والمعنى : لو ترى إذا فزعوا في الدنيا عند نزول الموت أو غيره من بأس الله تعالى بهم؛ روى معناه عن ابن عباس . الحسن : هو فزعهم في القبور من الصيحة . وعنه أن ذلك الفزع إنما هو إذا خرجوا من قبورهم؛ وقاله قتادة . وقال ابن مُغَفَّل : إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة . السدي : هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة فلم يستطيعوا فرارا ولا رجوعا إلى التوبة . سعيد بن جُبير : هو الجيش الذي يخسف بهم في البيداء فيبقى منهم رجل فيخبر الناس بما لقي أصحابه فيفزعون، فهذا هو فزعهم. ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ فلا نجاة؛ قاله ابن عباس . مجاهد : فلا مهرب . ﴿ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أي من القبور . وقيل : من حيث كانوا، فهم من الله قريب لا يَعْزُبون عنه ولا يفوتونه . وقال ابن عباس : نزلت في ثمانين ألفا يغزون في آخر الزمان الكعبة ليَخْرِبوها، وكما يدخلون البيداء يخسف بهم؛ فهو الأخذ من مكان قريب .

قلت : وفي هذا المعنى خبر مرفوع عن حذيفة وقد ذكرناه في كتاب التذكرة ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب — : " فبيناهم

(١) في مختار الصحاح : « بالكسر فيهما » والذي في اللسان : « ضللت بالكسر أضل » .

Marfat.com

كذلك إذ خرج عليهم السفياني من الوادي اليابس في فورة ذلك حتى ينزل دمشق فيبعث جيشين ، جيشا إلى المشرق ، وجيشا إلى المدينة ، فيسير الجيش نحو المشرق حتى ينزلوا بأرض بابل في المدينة الملعونة والبقعة الخبيثة — يعني مدينة بغداد ، قال — فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ويفتضون أكثر من مائة امرأة ويقتلون بها ثلاثمائة كبش[1] من ولد العباس ، ثم يخرجون متوجهين إلى الشام فتخرج راية هدى من الكوفة فتلحق ذلك الجيش منها على ليلتين[2] فيقتلونهم لا يفلت منهم مخبر ويستنقذون ما في أيديهم من السبي والغنائم ويحل جيشه الثاني بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام ولياليها ثم يخرجون متوجهين إلى مكة حتى إذا كانوا بالبيداء بعث الله جبريل عليه السلام فيقول ياجبريل آذهب فأبدهم فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم ، وذلك قوله تعالى : «وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ» فلا يبقى منهم إلا رجلان أحدهما بشير والآخر نذيروهما من جهينة ، ولذلك جاء القول : وعند جهينة الخبر اليقين . وقيل : « أُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ » أي قبضت أرواحهم في أماكنها فلم يمكنهم الفرار من الموت ، وهذا على قول من يقول : هذا الفزع عند النزع . ويحتمل أن يكون هذا من الفزع الذي هو بمعنى الإجابة ؛ يقال : فزع الرجل أي أجاب الصارخ الذي يستغيث به إذا نزل به خوف . ومنه الخبر إذا قال للأنصار : " إنكم لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع " . ومن قال : أراد الخسف أو القتل في الدنيا كيوم بدر قال : أخذوا في الدنيا قبل أن يؤخذوا في الآخرة . ومن قال : هو فزع يوم القيامة قال : أخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها . وقيل : « أُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ » من جهنم فألقوا فيها .

قوله تعالى : وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أي بالقرآن . وقال مجاهد : بالله عز وجل . الحسن : بالبعث . قتادة : بالرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال

(١) كبش القوم : رئيسهم ، وسيدهم ، وحاميتهم ، والمنظور إليه فيهم .　(٢) في كتاب التذكرة « على ميلين » .

Marfat.com

ابن عباس والضحاك : التناوش الرجعة ؛ أى يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا ، وهيهات من ذلك ! ومنه قول الشاعر :

تمنَّى أن تئوب إلىَّ مَىٌّ * وليس إلى تناوشها سبيل

وقال السُّدى : هى التوبة ؛ أى طلبوها وقد بَعُدت ، لأنه إنما تقبل التوبة فى الدنيا . وقيل : التناوش التناول ؛ قال ابن السِّكيت : يقال للرجل إذا تناول رجلا ليأخذ برأسه ولحيته : ناشه ينوشه نَوْشاً . وأنشد :

فهى تنوش الحوض نَوْشاً من عَلَا * نَوْشاً به تَقْطع أجوازَ الفَلا (1)

أى تتناول ماء الحوض من فوق وتشرب شربا كثيرا ، وتقطع بذلك الشرب فلوات فلا تحتاج إلى ماء آخر . قال : ومنه المناوشة فى القتال ؛ وذلك إذا تدانى الفريقان . ورجل نَوُوش أى ذو بطش . والتناوش . التناول : والانتياش مثله . قال الراجز :

* كانت تنوش العنق انتياشا *

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يقول : أنَّى لهم تناول الإيمان فى الآخرة وقد كفروا فى الدنيا . وقرأ أبو عمرو والكسائى والأعمش وحمزة : «وأنى لهم التناؤش» بالهمز . النحاس : وأبو عبيدة يستبعد هذه القراءة ؛ لأن « التناؤش » بالهمز البعد ، فكيف يكون : وأنى لهم البعد من مكان بعيد . قال أبو جعفر : والقراءة جائزة حسنة ، ولها وجهان فى كلام العرب ، ولا يتأول بها هذا المتأول البعيد . فأحد الوجهين أن يكون الأصل غير مهموز ، ثم همزت الواو لأن الحركة فيها خفية ، وذلك كثير فى كلام العرب . وفى المصحف الذى نقلته الجماعة عن الجماعة « وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (2) » والأصل « وُقِّتت » لأنه مشتق من الوقت . ويقال فى جمع دار : أدؤر . والوجه الآخر ذكره أبو إسحاق قال : يكون مشتقا من النئيش وهو الحركة فى إبطاء ؛ أى من أين لهم الحركة فيما قد بَعُد ؛ يقال : نأشت الشىء أخذته

(1) البيت لغيلان بن حريث : والضمير فى قوله « فهى » الإبل . وتنوش الحوض : تتناول ملأه . وقوله : « من علا » أن من فوق . يريد أنها عالية الأجسام طوال الأعناق ؛ وذلك النوش الذى تناله هو الذى يعينها على قطع الفلوات . والأجواز : جمع جوز وهو الوسط .

(2) راجع جـ ١٩ ص ١٥٥ .

Marfat.com

من بُعْد والنئيش : الشيء البطيء . قال الجوهري : التناؤش (بالهمز) التأخر والتباعد . وقد نأشت الأمر أنأشه نأشا أخرته ؛ فانتأش . ويقال : فعله نئيشا أي أخيرا . قال الشاعر :

تمنّى نئيشا أن يكون أطاعني * وقد حدثت[1] بعد الأمور أمور

وقال آخر :

قعدت زمانا عن طلابك للعلا * وجئت نئيشا بعد ما فاتك الخُبُر[2]

وقال الفراء : الهمز وترك الهمز في التناؤش متقارب ؛ مثل : ذِمتُ[3] الرجلَ وذَأَمْته أي عبته . ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي من الآخرة . وروى أبو إسحاق عن التميمي عن ابن عباس قال : « وأنّى لهم » قال : الرّد ، سألوه وليس بحين ردّ .

قوله تعالى : وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ ﴾ أي بالله عز وجل . وقيل : بمحمد ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعني في الدنيا . ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ العرب تقول لكل من تكلم بما لا يحقّه[4] : هو يقذف ويرجم بالغيب . ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ على جهة التمثيل لمن يرجم ولا يصيب ، أي يرمون بالظن فيقولون : لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ، رَجْمًا منهم بالظن ؛ قاله قتادة . وقيل : « يقذفون » أي يرمون في القرآن فيقولون : سحر وشعر وأساطير الأولين . وقيل : في محمد ؛ فيقولون ساحر شاعر كاهن مجنون . ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي إن الله بعّد لهم أن يعلموا صدق محمد . وقيل : أراد البعد عن القلب ، أي من مكان بعيد عن قلوبهم . وقرأ مجاهد « ويُقذَفون بالغيب » غير مسمّى الفاعل ، أي يُرمون به . وقيل : يقذف به إليهم من يغويهم ويضلهم .

(١) في اللسان مادة نأش : « ويحدث من بعد ... » . (٢) في ش ، ك : « الخير » بالياء المثناة .
(٣) في اللسان : ذامه يذيمه ذيما وذاما عابه ، وذمته أذيمه وأذمته وذممته ، كله بمعنى .
(٤) حق الأمر يحقه وأحقه : كان منه على يقين .

Marfat.com

قوله تعالى : وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ قيل : حيل بينهم و بين النجاة من العذاب . وقيل: حيل بينهم و بين ما يشتهون فى الدنيا من أموالهم وأهليهم . ومذهب قتادة أن المعنى أنهم كانوا يشتهون لما رأوا العذاب أن يقبل منهم أن يطيعوا الله جل وعز و ينتهوا إلى ما يأمرهم به الله فحيل بينهم وبين ذلك ؛ لأن ذلك إنما كان فى الدنيا وقد زالت فى ذلك الوقت . والأصل « حُوِل » فقلبت حركة الواو على الحاء فانقلبت ياء ثم حذفت حركتها لثقلها . ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ ﴾ الأشياع جمع شِيَع، وشِيَع جمع شيعة . ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى بمن مضى من القرون السالفة الكافرة . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ ﴾ أى من أمر الرسل والبعث والجنة والنار . وقيل : فى الدين والتوحيد ، والمعنى واحد . ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أى يستراب به ، يقال : أراب الرجل أى صار ذا ريبة ، فهو مريب . ومن قال هو من الريب الذى هو الشك والتهمة قال : يقال شكٌّ مريب ؛ كما يقال : عجبٌ عجيب وشعر شاعر ؛ فى التأكيد .

ختمت السورة ، والحمد لله رب العالمين .

سورة فاطر

مكية فى قول الجميع ، وهى خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يجوز فى « فاطر » ثلاثة أوجه : الخفض على النعت ، والرفع على إضمار مبتدأ ، والنصب على المدح . وحكى سيبويه : الحمد لله أهل الحمد [مثله](١) وكذا « جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ » . والفاطر : الخالق . وقد مضى فى «يوسف»(٢) وغيرها . والفَطْر . الشق عن الشيء ؛ يقال : فطرته فانفطر . ومنه : فَطَر نابُ البعير طلع ، فهو بعير فاطر . وتفطّر الشيء تشقق . وسيف فُطار ، أى فيه تشقق . قال عنترة :

وسيفى كالعقيقة فهو كِمْعِى * سـلاحى لا أَفَـلّ ولا فُطَارا(٣)

والفطر : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : كنت لا أدرى ما «فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى أنا ابتدأتها . والفَطْر . حلب الناقة بالسبابة والإبهام . والمراد بذكر السموات والأرض العالم كله ، ونبّه بهذا على أن من قدر على الابتداء قادر على الإعادة . ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ ﴾ لا يجوز فيه التنوين ، لأنه لمـا مضى . ﴿ رُسُلًا ﴾ مفعول ثان ، ويقال على إضمار فعل ؛ لأن « فاعلا » إذا كان لمـا مضى لم يعمل فيـه شيئا ، وإعماله على أنه مستقبل حذف التنوين منه تخفيفا . وقـرأ الضحاك « الحمد لله فطر السمواتِ والأرض » على الفعل المـاضى . « جاعِلِ الملائِكةِ رسلا » الرسل منهـم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، صلى الله عليهم أجمعين . وقـرأ الحسن : « جَاعِلُ الملائكة » بالرفع . وقرأ خُليد بن نشيط « جعل الملائكة » وكله ظاهر . ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾ نعت ، أى أصحـاب أجنحة . ﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾(٤) أى اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة . قال قتادة : بعضهم له جناحان ، وبعضهم ثلاثة ، وبعضهم أربعة؛ ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون من الأرض إلى السماء ، وهى مسيرة كذا فى وقت واحد ، أى جعلهم رسلا . قال يحيى بن سـلام : إلى الأنبياء . وقال السدّى : إلى العباد برحمة أو نقمة . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه

(١) زيادة من كتاب النحاس يقتضيها السياق . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٩ ، جـ ٦ ص ٣٩٧

(٣) عقيقة البرق : شعاعه . والكمع (بكسر فسكون) والكميع : الضجيع . (٤) فى كتاب البحر : « وقيل أولى أجنحة » معترض ، و« مثنى » حال ، والعامل فعل محذوف يدل عليه « رسلا » ؛ أى يرسلون مثنى وثلاث ورباع » .

Marfat.com

السلام له ستمائة جناح . وعن الزهري أن جبريل عليه السلام قال له : " يا محمد ، لو رأيت إسرافيل إن له لاثني عشر ألف جناح منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب و إن العرش لعلى كاهله و إنه في الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوَصَع — والوصع عصفور صغير — حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته " . و « أُولُو » اسم جمع لذو ، كما أن هؤلاء اسم جمع لذا ، ونظيرهما في المتمكنة : المخاض[1] والخلفة . وقد مضى الكلام في « مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » في « النساء »[2] وأنه غير منصرف . ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ أي في خلق الملائكة ، في قول أكثر المفسرين ؛ ذكره المهدوي . وقال الحسن : « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ » أي في أجنحة الملائكة ما يشاء . وقال الزهري وابن جريج : يعني حسن الصوت . وقد مضى القول فيه في مقدمة الكتاب[3] . وقال الهيثم الفارسي : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في منامي ، فقال : " أنت الهيثم الذي تُزَيِّن القرآن بصوتك جزاك الله خيرا " . وقال قتادة : « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ » الملاحة في العينين والحسن في الأنف والحلاوة في الفم . وقيل : الخط الحسن . وقال مهاجر الكَلاعي قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الخط الحسن يزيد الكلام وضوحا " . وقيل : الوجه الحسن . وقيل في الخبر في هذه الآية : هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن ؛ ذكره القُشَيري . النقاش : هو الشعر الجَعْد[4] . وقيل : العقل والتمييز . وقيل : العلوم والصنائع . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من النقصان والزيادة . الزمخشري : والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق ؛ من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام في الأعضاء ، وقوة في البطش ، وحصافة في العقل ، وجزالة في الرأي ، وجرأة في القلب ، وسماحة في النفس ، وذلاقة في اللسان ، ولباقة في التكلم ، وحسن تأتٍّ[5] في مزاولة الأمور ؛ وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف .

---

(١) المخاض : الحوامل من النوق ، واحدتها خلفة على غير قياس ولا واحد لها من لفظها ؛ كما قالوا لواحدة النساء : امرأة ، ولواحدة الإبل : ناقة أو بعير .

(٢) راجع جـ ٥ ص ١٥ فما بعد .

(٣) راجع (باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى) .

(٤) ما فيه التواء وتقبض . أو القصير منه .

(٥) تأتى فلان لحاجته : إذا ترفق لها وأتاها من وجهها .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٢)

قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ وأجاز النحويون فى غير القرآن « فلا ممسك له » على لفظ « ما » و « لها » على المعنى . وأجازوا « وما يُمْسِك فلا مُرْسِلَ لها » . وأجازوا « ما يفتحُ الله للناس من رحمة » (بالرفع) تكون « ما » بمعنى الذى . أى إن الرسل بُعثوا رحمة للناس فلا يقدر على إرسالهم غير الله . وقيل : ما يأتيهم به الله من مطر أو رزق فلا يقدر أحد أن يمسكه ، وما يمسك من ذلك فلا يقدر أحد على أن يرسله . وقيل : هو الدعاء؛ قاله الضحاك . ابن عباس : من توبة . وقيل : من توفيق وهداية .

قلت : ولفظ الرحمة يجمع ذلك؛ إذ هى منكرة للإشاعة والإبهام، فهى متناولة لكل رحمة على البدل، فهو عام فى جميع ما ذكر . وفى موطأ مالك : أنه بلغه أن أبا هريرة كان يقول إذا أصبح وقد مُطر الناس : مُطرنا بنَوْء الفتح، ثم يتلو هذه الآية « مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا » . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) تقدم .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (٣)

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ معنى هذا الذكر الشكرُ . ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ يجوز فى « غير » (٢) الرفع والنصب والخفض، فالرفع من وجهين : أحدهما — بمعنى هل من خالق إلا الله ؛ بمعنى ما خالق إلا الله . والوجه الثانى — أن يكون نعتاً على الموضع ؛ لأن المعنى : هل خالق غير الله ، و « من » زائدة . والنصب على الاستثناء .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣١ .
(٢) فى ش، وك . « يجوز فى القرآن الرفع ... » الخ وفى ح : « فى غير القرآن » .

Marfat.com

والخفض على اللفظ . قال حُميد الطويل : قلت للحسن : من خلق الشر ؟ فقال سبحان الله ! هل من خالق غير الله جل وعز، خلق الخير والشر . وقرأ حمزة والكسائى : « هَلْ مِنْ خَالِقٍ غيرِ اللهِ » بالخفض . الباقون بالرفع . ﴿ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى المطر . ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ أى النبات . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ من الأَفْك (بالفتح) وهو الصرف ؛ يقال : ما أفكك عن كذا ، أى ما صرفك عنه . وقيل : من الإفك (بالكسر) وهو الكذب ، ويرجع هذا أيضا إلى ما تقدم ؛ لأنه قول مصروف عن الصدق والصواب ، أى من أين يقع لكم التكذيب بتوحيد الله . والآية حجة على القدرية لأنه نفى خالقا غير الله وهم يثبتون معه خالقين ، على ما تقدم فى غير موضع .

قوله تعالى : وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ يعنى كفار قريش . ﴿ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعزى نبيه ويسليه صلى الله عليه وسلم ، وليتأسى بمن قبله فى الصبر . ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ قرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن مُحَيْصن وحميد والأعمش وحمزة ويحيى والكسائى وخلف (بفتح التاء) على أنه مسمى الفاعل . واختاره أبو عبيد لقوله تعالى : « أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ »[1] الباقون « تُرْجَع » على الفعل المجهول .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ هذا وعظ للمكذبين للرسول بعد إيضاح الدليل على صحة قوله : إن البعث والثواب والعقاب حق . ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ قال سعيد بن جُبير : غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة،

(١) راجع جـ ١٦ ص ٥٤ فما بعد .

Marfat.com

حتى يقــول : يا ليتنى قدّمت لحيــاتى . ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَـرُورُ ﴾ قال ابن السكيت وأبو حاتم : « الغَرور » الشيطان . وغرور جمع غَرّ، وغَرّ مصدر . ويكون « الغَرور » مصدرا وهو بعيد عند غير أبي إسحاق؛ لأن « غررته » متعدّ، والمصدر المتعدّى إنمــا هو على فَعْل؛ نحو : ضربته ضربا ، إلا فى أشياء يسيرة لا يقاس عليها؛ قالوا : لزمته لُزوما، ونَهَكه المرض نُهوكا . فأما معنى الحرف فأحسن ما قيل فيــه ما قاله سعيد بن جبير ، قال : الغرور بالله أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصى ثم يتمنّى على الله المغفرة . وقراءة العامة « الغَرور » (بفتح الغين) وهو الشيطان ؛ أى لا يغترنكم بوساوسه فى أنه يتجاوز عنكم لفضلكم . وقرأ أبو حَيْوة وأبو السَّمال العدوى ومحمد بن السَّمَيْقَع « الغُرور » (برفع الغين) وهو الباطل؛ أى لا يغترنكم الباطل . وقال ابن السكيت : والغُرور (بالضم) ما اغترّ به من متاع الدنيا . قال الزجاج : ويجـوز أن يكون الغرور جمع غارّ؛ مثـل قاعد وقعود . النحاس : أو جمـع غَرّ، أو يُشبّه بقولهم : نهكه المرض نهوكا ولزمه لزوما . الزمخشرى : أو مصدر « غره » كاللزوم والنهوك .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِـذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَـا يَدْعُوا حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِـلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِـذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أى فعـادوه ولا تطيعوه . ويدلكم على عداوته إخراجه أباكم من الجنــة ، وضمانه إضلالكم فى قــوله : « وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ [(١)] » الآية . وقوله : « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ [(٢)] » الآية . فأخبرنا جل وعز أن الشيطان لنا عدو مبين، واقتص علينا قصته، وما فعل بأبينا آدم صلى الله عليــه وسلم، وكيف انتدب لعداوتنا وغرورنا من قبـل وجودنا و بعده، ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا ممـا فيه هلاكنا . وكان الفضيل بن عياض يقول : يا كذاب

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٨٨ فما بعد . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٧٤ .

Marfat.com

يا مُغْتَرّ ، اتق الله ولا تَسُبَّ الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر . وقال ابن السماك : يا عجبا لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ! وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته ! وقد مضى هذا المعنى في « البقرة »[1] مجودا . و « عدوّ » في قوله : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ » يجوز أن يكون بمعنى معادٍ ، فيثنى ويجمع ويؤنث . ويكون بمعنى النسب فيكون موحدا بكل حال ؛ كما قال جل وعز : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي »[2] . وفي المؤنث على هـذا أيضا عدو . النحاس : فأما قول بعض النحويين إن الواو خفية فجاءوا بالهاء فخطأ ، بل الواو حرف جلد . ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ ﴾ كفت « ما » « إنّ » عن العمل فوقع بعـدها الفعل . ﴿ حِزْبَهُ ﴾ أى أشـياعه . ﴿ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ فهذه عداوته . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ يكون « الَّذِينَ » بدلا « مِنْ أَصْحَابِ » فيكون في موضـع خفض ، أو يكون بدلا من « حِزْبَهُ » فيكون في موضع نصب ، أو يكون بدلا من الواو فيكون في موضع رفـع . وقول رابع وهو أحسنها — يكون في موضع رفع بالابتداء ويكون خبره « لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » ؛ وكأنه سبحانه بيّن حال موافقته ومخالفته ، ويكون الكلام قد تمّ في قوله : « مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » ثم ابتدأ فقال : « الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ في موضع رفع بالابتداء أيضا ، وخبره ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ أى لذنوبهم . ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وهو الجنة .

قوله تعالى : أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ « مَنْ » في موضع رفع بالابتداء ، وخبره محذوف . قال الكسائي : والذي يدل عليه قوله تعالى : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ » فالمعنى : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ذهبت نفسك عليهم حسرات . قال : وهذا كلام

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٠٩ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٠٨ فما بعد .

Marfat.com

عربيّ طريف لا يعرفه إلا قليـل . وذكره الزمخشريّ عن الزجاج . قال النحاس : والذى قاله الكسائى أحسن ما قيل فى الآية ، لمـا ذكره من الدلالة على المحذوف ، والمعنى أن الله جل وعز نهى نبيّه عن شدة الاغتمام بهم والحزن عليهم ، كما قال جل وعز : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ »(١) قال أهل التفسير : قاتِل . قال نصر بن عليّ : سألت الأصمعيّ عن قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فى أهل اليمن : " هم أرقُّ قلوبًا وأبخع طاعةً " مامعنى أبخع ؟ فقال : أنصح . فقلت له : إن أهل التفسـير مجاهدا وغيرَه يقولون فى قـول الله عز وجل : « لعلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ » : معناه قاتِل نفسك . فقال : هو من ذاك بعينه ، كأنه من شدة النصح لهم قاتل نفسه . وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير ، مجازه : أفمن زُيّن له سوء عمله فرآه حَسَنًا ، فلا تَذْهب نفسُك عليهـم حسرات ، فإن الله يضلّ من يشاء ويهـدى من يشاء . وقيل : الجواب محذوف ؛ المعنى أفمن زين له سوءُ عمله كمن هدى ، ويكون يدل على هذا المحذوف « فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » . وقرأ يزيد بن القَعْقاع : «فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ» وفى « أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ » أربعة أقوال ، أحدها — أنهم اليهود والنصارى والمجوس ؛ قاله أبو قِلابة . ويكون « سُوءُ عَمَلِهِ » معاندة الرسول عليه الصلاة والسلام . الثانى — أنهم الخوارج ؛ رواه عمـر بن القـاسم . فيكون « سُـوءُ عَمَلِهِ » تحريف التأويل . الثالث — الشيطان ؛ قاله الحسن . ويكون « سُـوءُ عَمَلِهِ » الإغواء . الرابع — كفار قريش ؛ قاله الكلبى . ويكون « سُوءُ عَمَـلِهِ » الشرك . وقال : إنها نزلت فى العاص بن وائل السّهْمى والأسود بن المطلب . وقال غيره : نزلت فى أبى جهل بن هشام . ﴿فَرَآهُ حَسَنًا﴾ أى صوابا ؛ قاله الكلبيّ . وقيل : جميلا .

قلت : والقول بأن المراد كفار قريش أظهرالأقوال ؛ لقوله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ »(٢) ، وقـوله : « وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ »(٣) ، وقـوله : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا »(١) ، وقوله : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ »(٤) ،

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٥٣ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٣٧ . (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٨٤ .
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٨٧ فما بعد .

Marfat.com

وقوله فى هذه الآية : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ » . وهذا ظاهر بيّن، أى لا ينفع تأسفك على مقامهم على كفرهم ، فإن الله أضلهم . وهـذه الآية تردّ على القدرية قولهم على ما تقدم؛ أى أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسنا تريد أن تهديه، وإنما ذلك إلى الله لا إليك، والذى إليك هو التبليغ . وقرأ أبو جعفر وشيبة وابن مُحَيْصِن : « فَلَا تُذْهِب » بضم التاء وكسر الهـاء « نفسَك » نصبا على المفعول ، والمعنيان متقاربان . « حَسَرَاتٍ » منصوب مفعول من أجله؛ أى فلا تذهب نفسك للحسرات . و « عَلَيْهِمْ » صلة « تذهب » ، كما تقول : هلك عليه حُبًّا ومات عليه حزنا . وهو بيان للتحسر عليه . ولا يجـوز أن يتعلق بالحسرات؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته . ويجوز أن يكون حالا كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر؛ كما قال جرير :

مَشقَ الهواجِرُ لحمَهُنّ مع السُّرَى * حتى ذَهَبْنَ كَلاكِلًا وصُدُورا

يريد : رجعن كَلاكِلًا وصدورا؛ أى لم يبق إلا كلاكلها وصدورها . ومنه قول الآخر :

فعـلى إثرهم تسـاقط نفسى * حسرات وذكرهم لى سـقام

أو مصدرا . ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَـا يَصْنَعُونَ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾

قوله تعـالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ مَيِّت ومَيْت واحد، وكذا مَيِّتة ومَيْتة؛ هذا قول الحُذّاق من النحويين . وقال محمد بن يزيد : هذا قول البصريين، ولم يستثن أحدا، واستدلّ على ذلك بدلائل قاطعة . وأنشد :

ليس من مات فاستراح بِمَيْتٍ * إنمـا المَيت ميّت الأحيـاء

إنمـا المَيْت من يعيش كئيبـا * كاسِـفًا بالُه قليـل الرجاء

Marfat.com

قال : فهل ترى بين مَيّت ومَيْت فرقا، وأنشد :

هَيْنون لَيْنون أيسارٌ بنــو يَسَر * سُــواس مَــكْرُمة أبنـاء أيْسار

قال : فقد أجمعوا على أن هَيْنون ولَيْنون واحد ، وكذا مَيّت ومَيْت، وسَيّد وسَيْد . قال : « فَسُقْنَاهُ » بعــد أن قال : « وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَــلَ الرِّيَاحَ » وهو من باب تلوين الخطاب . وقال أبو عبيدة : سبيله « فَتَسُوقُه » ، لأنه قال : « فَتُثِيرُ سَحَاباً » . الزمخشرى : فإن قلت : لم جاء « فتثير » على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟ قلت : لتحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح السحابَ، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية ؛ وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تُستغرب، أو تهمّ المخاطب أو غير ذلك ؛ كما قال تأبّط شرًّا

بأنى قــد لقيت الغول تهوى * بِسَهْب كالصــحيفة صحصحان (١)

فأضربهــا بلا دَهش فخــرت * صريعا لليــدين وللجــران (٢)

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التى تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يُبصرهم إياها، ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدّة . وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت، لمـّا كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : « فسقنا » و « أحيينا » معــدولا بهما عن لفظة الغيبة إلى ما هو أدخل فى الاختصاص وأدل عليــه . وقراءة العــامة « الرياح » . وقرأ ابن مُحَيْصن وابن كثير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائى « الريح » توحيدا . وقد مضى بيان هذه الآية والكلام فيها مستوفى (٣) . ﴿ كَذَلِكَ النُّشُــورُ ﴾ أى كذلك تُحيَوْن بعــد ماَمتم ؛ من نشر الإنسان نشورا . فالكاف فى محل الرفع ؛ أى مثل إحياء الموت نشر الأموات . وعن أبى رزين العقيلى قال : قلت يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى ، وما آية ذلك فى خلقــه ؟ قال : "أمَا مررتَ بوادى أهلِك مُمْحِلًا ثم مررت به يهتز خَضِرا" قلت : نعم يا رسول الله . قال "فكذلك يحيى الله الموتى وتلك آيته فى خلقه" وقد ذكرنا هذا الخبر فى « الأعراف (٤) » وغيرها .

(١) السهب (بالفتح) : الفضاء المستوفى البعيد الأطراف . والصحيفة : الكتاب . والصحصحان (بالفتح) : المستوى من الأرض . (٢) الجران (بالكسر) : مقدّم العنق من مذبح البعير إلى منحره .

(٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٨ . (٤) راجع جـ ٧ ص ٢٣٠ .

Marfat.com

قوله تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ التقدير عند الفراء : من كان يريد علم العزة . وكذا قال غيره من أهل العلم . أى من كان يريد علم العزة التى لا ذلة معها؛ لأن العزة إذا كانت تؤدّى إلى ذلة فإنما هى تعرض للذلّة ، والعزةُ التى لا ذُلّ معها لله عز وجل . ﴿ جَمِيعًا ﴾ منصوب على الحال . وقدّر الزجاج معناه : من كان يريد بعبادته الله عز وجل العزّةَ — والعزة له سبحانه — فإن الله عز وجل يُعزه فى الآخرة والدنيا .

قلت : وهذا أحسن، وروى مرفوعا على ما يأتى . ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ ظاهر هذا إيئاس السامعين من عزته، وتعريفهم أن ما وجب له من ذلك لا مطمع فيه لغيره ؛ فتكون الألف واللام للعهد عند العالمين به — سبحانه — وبما وجب له من ذلك، وهو المفهوم من قوله الحق فى سورة يونس : « وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ »(١) . ويحتمل أن يريد سبحانه أن ينبه ذوى الأقدار والهمم مِن أين تنال العزة ومن أين تُستحق؛ فتكون الألف واللام للاستغراق، وهو المفهوم من آيات هذه السورة . فمن طلب العزة من الله وصدقه فى طلبها بافتقار وذل، وسكون وخضوع، وجدها عنده — إن شاء الله — غير ممنوعة ولا محجوبة عنه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "من تواضع لله رفعه الله" . ومن طلبها من غيره وَكَله إلى من طلبها عنده . وقد ذكر قوما طلبوا العزة عند من سواه فقال : « الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا »(٢) . فأنباك صريحا لا إشكال فيه أن العزة له يُعزّ بها من يشاء ويُذل من يشاء . وقال صلى الله عليه وسلم مفسّرا لقوله « مَنْ كَانَ يُرِيدُ

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٥٩ .

(٢) راجع جـ ٥ ص ٤١٦ فما بعد .

Marfat.com

العِزَّة فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا » : ” من أراد عز الدارين فليطع العزيز“ . وهذا معنى قول الزجاج . ولقد أحسن من قال :

وإذا تذلّلت الرقاب تواضعا * منـا إليـك فعـزّها فى ذلها

فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر، ويدخل دار العزة — ولله العزة — فليقصد بالعزة الله سبحانه والاعتزازَ به؛ فإنه من اعتز بالعبد أذله الله، ومن اعتز بالله أعزه الله .

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ وتم الكلام . ثم تبتدئ ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ على معنى : يرفعه الله، أو يرفع صاحبه . ويجوز أن يكون المعنى : والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ فيكون الكلام متصلا على ما يأتى بيانه . والصعود هو الحركة إلى فوق ، وهو العروج أيضا . ولا يتصوّر ذلك فى الكلام لأنه عَرَض ، لكن ضرب صعوده مثلا لقبوله ؛ لأن موضع الثواب فوق ، وموضع العذاب أسفل . وقال الزجاج : يقال ارتفع الأمر إلى القاضى أى علمه؛ فهو بمعنى العلم . وخص الكلام والطيب بالذكر لبيان الثواب عليه . وقوله : « إِلَيْهِ » أى إلى الله يصعد . وقيل : يصعد إلى سمائه والمحل الذى لا يجرى فيه لأحد غيره حكم . وقيل : أى يحمل الكتاب الذى كتب فيه طاعات العبد إلى السماء . و « الْكَلِمُ الطَّيِّبُ » هو التوحيد الصادر عن عقيدة طيّبة . وقيل : هو التحميد والتمجيد، وذكر الله ونحوه . وأنشدوا :

لا ترض من رجل حلاوةَ قوله * حتى يُزَيِّن ما يقـول فَعالُ
فإذا وزنت فَعاله بمقاله * فتـوازَنَا فإخاء ذاك جَمالُ

وقال ابن المُقَفَّع : قول بلا عمل، كثريد بلا دسم، وسحاب بلا مطر، وقوس بلا وتر . وفيه قيل :

لا يكون المقال إلا بفعلٍ * كلُّ قولٍ بلا فعالٍ هَبَاءُ
إنّ قولًا بلا فعالٍ جميل * ونكاحًا بلا وَلِيّ سواء

Marfat.com

وقرأ الضحاك «يُصعد» بضم الياء. وقرأ جمهور الناس «الكَلِم» جمع كلمة. وقرأ أبو عبد الرحمن «الكلام» .(١)

قلت : فالكلام على هذا قد يطلق بمعنى الكَلِم و بالعكس؛ وعليه يخرج قول أبى القاسم : أقسام الكلام ثلاثة ؛ فوضع الكلام موضع الكلم ، والله أعلم . ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : المعنى والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب . وفى الحديث "لا يقبل الله قولا إلا بعمل ، ولا يقبل قولا وعملا إلا بنيّة ، ولا يقبل قولا وعملا ونية إلا بإصابة السنة". قال ابن عباس : فإذا ذكر العبدُ اللهَ وقال كلاما طيّبا وأدّى فرائضه ، ارتفع قوله مع عمله ، و إذا قال ولم يؤدّ فرائضه ردّ قوله على عمله . قال ابن عطية : وهذا قول يردّه معتقد أهل السنة ولا يصح عن ابن عباس . والحق أن العاصى التارك للفرائض إذا ذكر الله وقال كلاما طيبا فإنه مكتوب له متقبَّل منه ، وله حسناته وعليه سيئاته ، والله تعالى يتقبل من كل من اتقى الشرك . وأيضا فإن الكلام الطيب عمل صالح ، و إنما يستقيم قول من يقول : إن العمل هو الرافع للكلم ، بأن يتأول أنه يزيده فى رفعه وحسن موقعه إذا تعاضد معه . كما أن صاحب الأعمال من صلاة وصيام وغير ذلك ، إذا تخلل أعماله كَلِمٌ طيّب وذكر الله تعالى كانت الأعمال أشرف ؛ فيكون قوله : « وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » موعظة وتذكرة وحَضًّا على الأعمال . وأما الأقوال التى هى أعمال فى نفوسها ؛ كالتوحيد والتسبيح فمقبولة . قال ابن العربى : « إن كلام المرء بذكر الله إن لم يقترن به عمل صالح لم ينفع ؛ لأن من خالف قوله فعله فهو وبال عليه . وتحقيق هذا : أن العمل إذا وقع شرطا فى قبول القول أو مرتبطا ، فإنه لا قبول له إلا به ، و إن لم يكن شرطا فيه فإن كلمه الطيب يكتب له ، وعمله السّيئ يكتب عليه ، وتقع الموازنة بينهما ، ثم يحكم الله بالفوز والربح والخسران » .

قلت : ما قاله ابن العربى تحقيق . والظاهر أن العمل الصالح شرط فى قبول القول الطيّب . وقد جاء فى الآثار " أن العبد إذا قال : لا إله إلا الله بنية صادقة نظرت الملائكة

(١) فى روح المعانى : « وقال ابن عطية : وقرأ الضحاك « يصعد » بضم الياء ولم يذكر مبنيا للفاعل ولا مبنيا للمفعول ، ولا إعراب ما بعده » .

Marfat.com

إلى عمله ، فإن كان العمل موافقا لقوله صعدا جميعا، و إن كان عمله مخالفا وقف قوله حتى يتوب من عمله ". فعلى هذا العملُ الصالح يرفع الكلمَ الطيّب إلى الله . والكناية فى « يرفعه » ترجع إلى الكلم الطيب . وهـذا قول ابن عباس وشَهْر بن حَوْشَب وسعيد بن جُبير ومجاهد وقتادة وأبى العالية والضحاك . وعلى أن « الكلم الطيب » هو التوحيـد، فهو الرافع للعمل الصالح؛ لأنه لا يقبل العمل الصالح إلا مع الإيمـان والتوحيد . أى والعمل الصالح يرفعـه الكلم الطيب؛ فالكناية تعود على العمل الصالح . وروى هـذا القول عن شَهْر بن حَوْشَب قال : « الكلم الطيب » القـرآن « والعمل الصالح يرفعـه » القرآن . وقيل : تعود على الله جل وعز ؛ أى أن العمل الصالح يرفعـه الله على الكَلِم الطيّب؛ لأن العمل تحقيـق الكَلِم ، والعامل أكثر تعبًـا من القائل، وهـذا هو حقيقة الكلام؛ لأن الله هو الرافع الخـافض . والثانى والأوّل مجاز ، ولكنه سائغ جائز . قال النحاس : القول الأوّل أولاها وأصحها لعلو من قال به، وأنه فى العربية أولى ؛ لأن القـرّاء على رفع العمل . ولو كان المعنى : والعمل الصالح يرفعـه الله، أو العمل الصالح يرفعه الكلم الطيّب[1] ، لكان الاختيار نصب العمـل . ولا نعلم أحدا قرأه منصوبا إلا شيئا رُوِى عن عيسى بن عمر أنه قال : قرأه أناس « والعملَ الصالحَ يرفعه الله » . وقيل : والعمل الصالح يرفع صاحبه ، وهو الذى أراد العزة وعلم أنهـا تُطلب من الله تعالى ؛ ذكره القشيرىّ .

الثانيـــة — ذكروا عند ابن عباس أن الكلب يقطع الصلاة، فقرأ هذه الآية : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » . وهذا استدلال بعموم على مذهب السلف فى القول بالعموم، وقد دخل فى الصلاة بشروطها، فلا يقطعها عليه شىء إلا بثبوت ما يوجب ذلك؛ من مثل ما انعقدت به من قرآن أو سنة أو إجماع . وقد تعلق من رأى ذلك بقوله عليـه السلام : " يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسـود " فقلت : ما بال الكلب الأسود من الكلب الأبيض من الكلب الأحمر؟ فقال : " إن الأسود شيطان " خرجه مسلم[2] . وقد

---

(١) فى الأصول : «يرفع» .

(٢) أورد المؤلف هذا الحديث بمعناه لا بلفظه .

Marfat.com

جاء ما يعارض هـذا ، وهو ما خرّجه البخارى عن ابن أخى ابن شهـاب أنه سأل عمه عن الصلاة يقطعها شيء ؟ فقال : لا يقطعها شيء، أخبرنى عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : لقد كان رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقوم فيصلى من الليل، وإنى لمعترضة بينه و بين القبلة على فراش أهله .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ذكر الطبرى فى (كتاب آداب النفوس) : حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال حدّثنا سـفيان عن لَيْث بن أبى سليم عن شَهْر بن حَوْشَب الأشعرى فى قوله عز وجل : « وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُـورُ » قال : هم أصحاب الرياء ؛ وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة . وقال أبو العالية : هم الذين مكروا بالنبيّ صـلى الله عليه وسلم لـمـا اجتمعوا فى دار الندوة . وقال الكلبى : يعنى الذين يعملون السيئات فى الدنيا . مقاتل : يعنى الشرك، فتكون «السّيئات» مفعولة . و يقال : بار يبور إذا هلك و بطل . وبارت السوق أى كسدت، ومنه : نعوذ بالله من بوار الأيِّم (١) . وقـوله : « وَكُنْتُمْ قَـوْمًا بُورًا (٢) » أى هلكى . والمكر : ما عمل على سبيل احتيال وخديعة . وقد مضى فى « سـبأ (٣) » .

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَـةٍ ﴾ قال سعيد عن قتـادة قال : يعنى آدم عليه السلام ، والتقدير على هذا : خلق أصلكم من تراب . ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ قال : أى التى أخرجها من ظهور آبائكم . ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قال : أى زوّج بعضكم بعضا ، فالذكر زوج الأنثى ليتم البقاء فى الدنيـا إلى انقضاء مدّتها . ﴿ وَمَا تَحْمِـلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ

(١) الأيم : التى لا زوج لهـا . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٦٩ فـا بعد .
(٣) راجع ص ٣٠٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ أى جعلكم أزواجا فيتزوج الذكر بالأنثى فيتناسلان بعلم الله ، فلا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به ، فلا يخرج شيء عن تدبيره . ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ سماه معمّرا بمـا هو صائر إليـه . قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : « وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ » إلا كتب عمـره، كم هو سنة كم هو شهرا كم هو يوما كم هو ساعة؛ ثم يكتب فى كتاب آخر : نقص من عمـره يوم ، نقص شهر ، نقص سـنة ، حتى يستوفى أجله . وقاله سـعيد بن جبير أيضا، قال : فمـا مضى من أجله فهو النقصان، وما يستقبل فهو الذى يعمره ؛ فالهاء على هـذا للعمر . وعن سعيد أيضا : يكتب عمره كذا وكذا سنة ، ثم يكتب فى أسفل ذلك : ذهب يوم ، ذهب يومان ، حتى يأتى على آخره . وعن قتادة : المعمّر من بلغ ستين سـنة ، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة . ومذهب الفرّاء فى معنى « وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ » أى ما يكون من عمره « وَلَا يُنْقَصُ من عُمُرِهِ » بمعنى معمر آخر، أى ولا ينقص الآخر من عمره إلا فى كتاب . فالكناية فى «عمره» ترجع إلى آخر غير الأول . وكنّى عنه بالهاء كأنه الأول، ومثله قولك : عندى درهم ونصفه، أى نصف آخر . وقيل : إن الله كتب عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع، وتسعين إن عصى، فأيهما بلغ فهو فى كتاب . وهـذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام : " من أحبّ أن يُبْسَط له فى رزقه ويُنْسأ[1] له فى أثره فليصل رحمه " أى أنه يكتب فى اللوح المحفوظ : عمر فلان كذا سـنة، فإن وصل رحمـه زيد فى عمره كذا سـنة . فبيّن ذلك فى موضع آخر من اللوح المحفـوظ ، إنه سيصل رحمـه فمن اطلع على الأول دون الثانى ظن أنه زيادة أو نقصان . وقد مضى هـذا المعنى عند قوله تعـالى : « يَمْحُـو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ[2] » والكناية على هذا ترجع إلى العمر . وقيـل : المعنى وما يعمّر من معمّر أى هرم، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا فى كتاب؛ أى بقضاء من الله جل وعز . روى معناه عن الضحاك واختاره النحاس، قال : وهو أشبهها بظاهر التنزيل . وروى نحوه عن ابن عباس . فالهاء على هـذا يجوز أن تكون للعمّر ، ويجوز أن تكون لغير

---

(١) ينسأ : يؤخر . والأثر : الأجل؛ لأنه تابع للحياة فى أثرها .

(٢) راجع جـ ٩ ص ٣٢٩ .

Marfat.com

المعمر . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى كتابة الأعمال والآجال غير متعذر عليه . وقراءة العامة « يُنْقَص » بضم الياء وفتح القاف . وقرأت فرقة منهم يعقوب « يَنْقُص » بفتح الياء وضم القاف ، أى لا ينقص من عمره شيء . يقال ، نقص الشيءُ بنفسه ونقصه غيرُه ، وزاد بنفسه و زاده غيره ، متعدّ ولازم . وقرأ الأعرج والزهرى « مِن عُمْره » بتخفيف الميم . وضمها الباقون . وهما لغتان مثل السُّحْق والسُّحُق . و « يَسِيرٌ » أى إحصاء طويل الأعمار وقصيرها لا يتعذر عليه شيء منها ولا يعزب . والفعل منه : يَسُر . ولو سميت به إنسانا انصرف ؛ لأنه فعيل .

قوله تعالى : وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قال ابن عباس : « فُرَاتٌ » حلو، و« أُجَاجٌ » مرّ . وقرأ طلحة : « هذا مَلِح أجاج » بفتح الميم وكسر اللام بغير ألف . وأما المالح فهو الذى يجعل فيه الملح . وقرأ عيسى وابن أبى إسحاق «سيغ شرابه» مثل سيد وميت . ﴿ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ لا اختلاف فى أنه منهما جميعا . وقد مضى فى « النحل » الكلام فيه (١) .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ مذهب أبى إسحاق أن الحلية إنما تستخرج من الملح ، فقيل منهما لأنهما مختلطان . وقال غيره : إنما تستخرج الأصداف التى فيها الحلية من الدر وغيره من المواضع التى فيها العذب والملح نحو العيون ، فهو مأخوذ منهما ؛ لأن فى البحر عيونا عذبة ، وبينهما يخرج اللؤلؤ عند التمازج . وقيل :

(١) راجع جـ ١٠ ص ٨٥ .

Marfat.com

من مطر السماء . وقال محمد بن يزيد قولا رابعا ، قال : إنما تستخرج الحلية من الملح خاصة . النحاس : وهذا أحسنها وليس هذا عنده ، لأنهما مختلطان ، ولكن جمعا ثم أخبر عن أحدهما كما قال جل وعز : «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ»(١) . وكما تقول : لو رأيت الحسن والحجاج لرأيت خيرا وشرًّا . وكما تقول : لو رأيت الأصمعي وسيبويه لملأت يدك لغة ونحوًا . فقد عرف معنى هذا ، وهو كلام فصيح كثير ، فكذا : «وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا» فاجتمعا في الأول وانفرد الملح بالثاني .

الثالثــة — وفي قوله : «تَلْبَسُونَهَا» دليـل على أن لباس كل شيء بحسبه ؛ فالخاتم يجعل في الإصبع ، والسوار في الذراع ، والقلادة في العنق ، والخلخال في الرجل . وفي البخاري والنسائي عن ابن سيرين قال قلت لعبيدة : افتراش الحرير كلبسه ؟ قال نعم . وفي الصحاح عن أنس " فقمت على حصير لنا قد اسودّ من طول ما لبس " . الحديث .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ قال النحاس : أي ماء الملح خاصة ، ولولا ذلك لقال فيهما . وقد مخرت السفينة تمخر إذا شقت المـاء . وقد مضى هذا في « النحل »(٢) . ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال مجاهـد : التجارة في الفُلك إلى البلدان البعيـدة في مدّة قريبة ؛ كما تقدّم في « البقرة »(٣) . وقيل : ما يستخرج من حليته ويصاد من حيتانه . ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ما آتاكم من فضله . وقيل : على ما أنجاكم من هوله .

قوله تعـالى : يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

قوله تعـالى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ تقدّم في « آل عمران »(٤) وغيرها . ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ تقـدّم في « لقمان »(٥) بيـانه .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٠٨ فـا بعد . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٨٩ . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ فـا بعد .
(٤) راجع جـ ٤ ص ٥٦ . (٥) راجع ص ٧٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ أى هـذا الذى من صنعه ما تقرر هو الخـالق المدبر، والقادر المقتدر، فهو الذى يعبـد . ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى الأصنام . ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ أى لا يقدرون عليـه ولا على خلقه . والقِطمير : القشرة الرقيقـة البيضاء التى بين التمرة والنواة، قاله أكثر المفسرين . وقال ابن عباس : هو شق النواة، وهو اختيار المبرّد، وقاله قتادة . وعن قتادة أيضا : القِطمير القِمْع الذى على رأس النواة . الجوهرى : ويقال هى النكتة البيضاء التى فى ظهر النواة، تنبت منها النخلة .

قوله تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ أى إن تستغيثوا بهم فى النوائب لا يسمعوا دعاءكم ؛ لأنها جمادات لا تبصر ولا تسمع . ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ إذ ليس كل سامع ناطقا . وقال قتادة : المعنى لو سمعوا لم ينفعوكم . وقيـل : أى لو جعلنا لهم عقـولا وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم ، ولمـا استجابوا لكم على الكفر . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أى يجحدون أنكم عبدتموهم ، ويتبرءون منكم . ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين ممـا يعقل؛ كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين ؛ أى يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقا، وأنهم أمروكم بعبادتهم ؛ كما أخبر عن عيسى بقوله : « مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ »[1] . ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضا، أى يحييها الله حتى تخـبر أنها ليست أهـلا للعبادة . ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ هو الله جل وعز؛ أى لا أحد أخبر بخلق الله من الله ، فلا ينبئك مثله فى عمله[2] .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾

(١) راجع ج ٦ ص ٣٧٤ .   (٢) فى ب و ح : « علمه » .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى المحتاجون إليه فى بقائكم وكل أحوالكم . الزمخشرى : « فإن قلت لِمَ عرّف الفقراء ؟ قلت : قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدّة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم؛ لأن الفقر مما يتبع الضعف ، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر ؛ وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف فى قوله : «وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا»(١) ، وقال : « اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ »(٢) ولو نكّر لكان المعنى : أنتم بعض الفقراء . فإن قلت : قد قوبل « الفقراء » بـ « الغنىّ » فما فائدة « الحميد » ؟ قلت : لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم ، وليس كل غنىّ نافعا بغناه إلا إذا كان الغنىّ جوادا منعمًا ، وإذا جاد وأنعم حمده المنعَم عليهم واستحق عليهم الحمد — ذكر « الحميد » ليدلّ به على أنه الغنىّ النافع بغناه خلقه، الجواد المنعم عليهم، المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه » . وتخفيف الهمزة الثانية أجود الوجوه عند الخليل ، ويجوز تخفيف الأولى وحدها وتخفيفهما وتحقيقهما جميعا . ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ ﴾ تكون « هو » زائدة، فلا يكون لها موضع من الإعراب، وتكون مبتدأة فيكون موضعها رفعاً .

قوله تعـالى : إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ فيه حذف؛ المعنى إن يشأ [أن](٣) يذهبكم يذهبكم ؛ أى يفنيكم . ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى أطوع منكم وأزكى . ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أى ممتنع عسير متعذر . وقد مضى هذا فى « إبراهيم »(٤) .

قوله تعـالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

(١) راجع جـ ٥ ص ١٦٨ (٢) راجع جـ ٦ ٤ من هذا الجزء .
(٣) زيادة عن النحاس . (٤) راجع جـ ٩ ص ٣٥٤

Marfat.com

تـدم الكلام فيه ، وهو مقطوع ممـا قبله . والأصل « تَوْزَر »[(١)] حذفت الواو اتباعا ليزر . ﴿ وازِرةٌ ﴾ نعت لمحذوف ، أى نفس وازرة . وكذا ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا ﴾ قال الفراء : أى نفس مثقلة أو دابة . قال : وهذا يقع للذكر والمؤنث . قال الأخفش : أى وإن تدع مثقلة إنسانا إلى حِملها وهو ذنوبها . والحِمل ما كان على الظهر ، والحَمل حمل المرأة وحمل النخلة ؛ حكاهما الكسائى بالفتح لا غير . وحكى ابن السِّكيت أن حمل النخلة يفتح ويكسر . ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ التقدير على قول الأخفش : ولو كان الإنسان المدعو ذا قربى . وأجاز الفراء ولو كان ذو قربى . وهذا جائز عند سيبويه ، ومثله « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ »[(٢)] فتكون « كان » بمعنى وقع ، أو يكون الخبر محذوفا ؛ أى وإن كان فيمن تطالبون ذو عسرة . وحكى سيبويه : الناس مجزيُّون بأعمالهم إن خير فخير ، على هذا . وخيرا فخـير ، على الأول . وروى عن عكرمة أنه قال : بلغنى أن اليهودى والنصرانى يرى الرجل المسلم يوم القيامة فيقول له : ألم أكن قد أسديت إليـك يدًا ، ألم أكن قد أحسنت إليك ؟ فيقول بلى . فيقول : أنفعنى ؛ فلا يزال المسلم يسأل الله تعالى حتى ينقص من عذابه . وأن الرجل ليأتى إلى أبيه يوم القيامة فيقول : ألم أكن بك بارًا ، وعليك مشفقًا ، وإليك محسنًا ، وأنت ترى ما أنا فيه ، فهب لى حسنة من حسناتك ، أو احمل عنى سيئة ؛ فيقول : إن الذى سألتنى يسير ، ولكنى أخاف مثل ما تخاف . وأن الأب ليقول لابنه مثل ذلك فيرد عليه نحوًا من هذا . وأن الرجل ليقول لزوجته : ألم أكن أحسن العِشرة لكِ ، فاحملى عنى خطيئة لعلى أنجو ؛ فتقول : إن ذلك ليسير ولكنى أخاف ممـا تخاف منه . ثم تلا عكرمة : « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » . وقال الفُضيل بن عياض : هى المرأة تلق ولدها فتقول : يا ولدى ، ألم يكن بطنى لك وعاء ، ألم يكن ثديى لك سقاء ، ألم يكن حجرى لك وطاء ؛ فيقول : بلى يا أماه ؛ فتقول : يا بنىّ ، قد أثقلتنى ذنوبى فاحمـل عنى منها ذنبا واحدا ؛ فيقول : إليكِ عنى يا أماه ، فإنى بذنبى عنكِ مشغول .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٧ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٧١ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ أى إنما يقبل إنذارك من يخشى عقاب الله تعالى، وهو كقوله تعالى : « إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ »(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ﴾ أى من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه . وقرئ : « ومن ازَّكَّى فإنما يَزَّكَّى لنفسه » . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى إليه مرجع جميع الخلق .

قوله تعالى : وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ أى الكافر والمؤمن والجاهل والعالم . مثل : « قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ »(٢) . ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴾ قال الأخفش سعيد : « لا » زائدة ؛ والمعنى ولا الظلمات والنور، ولا الظل والحرور . قال الأخفش : والحرور لا يكون إلا مع شمس النهار، والسَّموم يكون بالليل، وقيل بالعكس . وقال رُؤْبة ابن العجاج : الحرور تكون بالنهار خاصة، والسموم يكون بالليل خاصة، حكاه المهدوى . وقال الفرّاء : السموم لا يكون إلا بالنهار، والحرور يكون فيهما . النحاس : وهذا أصح ؛ لأن الحرور فعول من الحرّ، وفيه معنى التكثير، أى الحرّ المؤذى .

قلت : وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قالت النار ربِّ أكل بعضى بعضا فأذَنْ لى أتنفس فأذن لها بنَفَسين نَفَس فى الشتاء ونفس فى الصيف فما وجدتم من برد أوزمهرير فمن نَفَس جهنم وما وجدتم من حر أو حرور فمن نفس جهنم " . وروى من حديث الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة : " فما تجدون من الحرّ فمن

(١) راجع ص ٩ من هذا الجزء فما بعد آية ١١ سورة يس . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٢٧ .

Marfat.com

سمومها وشدّة ما تجدون من البرد فمن زمهريرها " وهذا يجمع تلك الأقوال ، وأن السموم والحرور يكون بالليل والنهار ؛ فتأمله . وقيل : المراد بالظل والحرور الجنة والنار ؛ فالجنة ذات ظل دائم، كما قال تعالى : « أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا »(١) والنار ذات حرور، وقال معناه السُّدّى . وقال ابن عباس : أى ظل الليل، وحرّ السموم بالنهار . قُطْرُب : الحرور الحر، والظل البرد . ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ قال ابن قُتيبة : الأحياء العقلاء، والأموات الجهال . قال قتادة : هذه كلها أمثال؛ أى كما لا تستوى هذه الأشياء كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى يُسمع أولياءه الذين خلقهم لجنته . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ أى الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم؛ أى كما لا تُسمع من مات، كذلك لا تُسمع من مات قلبه . وقرأ الحسن وعيسى الثقفىّ وعمرو ابن ميمون : « بِمُسْمِعِ مَن فِي القبورِ » بحذف التنوين تخفيفا؛ أى هم بمنزلة [أهل] القبور فى أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه .

قوله تعالى : إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾

أى رسول منذر؛ فليس عليك إلا التبليغ، ليس لك من الهدى شىء إنما الهدى بيد الله تبارك وتعالى .

قوله تعالى : إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى بشيرا بالجنة أهل طاعته، ونذيرا بالنار أهل معصيته . ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أى سلف فيها نبىّ . قال ابن جريج : إلا العرب .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ .

Marfat.com

قوله تعـالى : وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ يعنى كفار قريش . ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أنبياءهم ، يسلّى رسـوله صلى الله عليـه وسلم . ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالمعجزات الظاهرات والشرائع الواضحات . ﴿ وَبِالزُّبُرِ ﴾ أى الكتب المكتوبة . ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أى الواضح . وكرر الزبر والكتاب وهمـا واحد لاختلاف اللفظين . وقيـل : يرجع البينات والزبر والكتاب إلى معنى واحد ، وهو ما أنزل على الأنبياء من الكتب . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى كيف كانت عقوبتى لهم . وأثبت وَرْش عن نافع وشيبة الياء فى « نكيرى » حيث وقعت فى الوصل دون الوقف . وأثبتها يعقوب فى الحالين ، وحذفها الباقون فى الحالين . وقد مضى هذا كله ، والحمد لله .

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ هـذه الرؤية رؤية القلب والعلم ؛ أى ألم ينته علمك ورأيت بقلبك أن الله أنزل ؛ فـ « أنّ » واسمها وخبرها سدّت مسدّ مفعولى الرؤية . ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ ﴾ هو من باب تلوين الخطاب . ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ نصبت « مُخْتَلِفًا » نعتا لـ« ثَمَرَاتٍ » . ﴿ أَلْوَانُهَا ﴾ رفع بمختلف ، وصلح أن يكون نعتًا لـ« ثمرات » لمـا عاد عليـه من ذكره . ويجـوز فى غير القرآن رفعـه ؛ ومثله رأيت رجلا خارجا أبوه .

Marfat.com

﴿ بِهِ ﴾ أى بالماء وهو واحد، والثمرات مختلفة . ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ الجدد جمع جُدّة ، وهى الطرائق المختلفة الألوان ، وإن كان الجميع حجرا أو ترابا . قال الأخفش : ولو كان جمع جديد لقال : جُدُد (بضم الجيم والدال) نحو سرير وسرر .

وقال زهير :

كأنه أسفع الخدين ذو جُدُدٍ * طاوٍ ويرتع بعد الصيف عُريانا

وقيل : إن الجدد القِطع ، مأخوذ من جددت الشيء إذا قطعته ؛ حكاه ابن بحر . قال الجوهرى : والجُدّة الخُطّة التى فى ظهر الحمار تخالف لونه . والجُدّة الطريقة ، والجمع جدد ؛ قال تعالى : « وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا » أى طرائق تخالف لون الجبل . ومنه قولهم : ركب فلان جُدّةً من الأمر؛ إذا رأى فيه رأيا . وكساء مجدّد : فيه خطوط مختلفة . الزمخشرى : وقرأ الزهرى « جدد » بالضم جمع جديدة، وهى الجدّة؛ يقال : جديدة وجُدُد وجدائد ؛ كسفينة وسفن وسفائن . وقد فسّر بها قول أبى ذُؤيب :

* جَوْنُ السَّراةِ له جدائد أربعُ (١) *

وروى عنه « جَدَد » بفتحتين ، وهو الطريق الواضح المسفر، وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض . ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ ﴾ وقرئ : « والدواب » مخففا . ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ : « وَلَا الضَّالِين » لأن كل واحد منهما فرّ من التقاء الساكنين . فحرّك ذلك أولها، وحذف هذا آخرها؛ قاله الزمخشرى . ﴿ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ أى فيهم الأحمر والأبيض والأسود وغير ذلك ، وكل ذلك دليل على صانع مختار . وقال : « مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ » فذكّر الضمير مراعاة لـ« من » ؛ قاله المؤرّج . وقال أبو بكر بن عياش : إنما ذكر الكناية لأجل أنها مردودة إلى « ما » مضمرة ؛ مجازه : ومن الناس ومن الدواب ومن الأنعام ما هو مختلف ألوانه ، أى أبيض وأحمر وأسود . ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ قال أبو عبيدة : الغربيب الشديد السواد ؛ ففى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : ومن الجبال

---

(١) صدر البيت : * والدهر لا يبقى على حدثانه *

Marfat.com

سود غرابيب . والعرب تقول للشديد السواد الذى لونه كلون الغراب : أسود غربيب . قال الجوهرى : وتقول هذا أسود غربيب ؛ أى شديد السواد . وإذا قلت : غرابيب سود ، تجعل السود بدلا من غرابيب لأن توكيد الألوان لا يتقدم . وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : " إن الله يبغض الشيخ الغربيب " يعنى الذى يخضب بالسواد . قال امرؤ القيس :

العين طامحة واليد سابحة * والرِّجْل لافحة والوجه غربيب (١)

وقال آخر يصف كَرْمًا :

ومن تعاجيب خلق الله غاطيةٌ * يُعصَر منها مُلاحِيٌّ وغربيب (٢)

﴿كَذَٰلِكَ﴾ هنا تمام الكلام؛ أى كذلك تختلف أحوال العباد فى الخشية، ثم استأنف فقال : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ يعنى بالعلماء الذين يخافون قدرته ؛ فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية ، كما روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » قال : الذين علموا أن الله على كل شىء قدير . وقال الربيع بن أنس : من لم يخش الله تعالى فليس بعالِم . وقال مجاهد : إنما العالم من خشى الله عز وجل . وعن ابن مسعود : كفى بخشية الله تعالى علما وبالاغترار جهلا . وقيل لسعد ابن إبراهيم : مَن أفقه أهل المدينة؟ قال أتقاهم لربه عز وجل . وعن مجاهد قال : إنما الفقيه من يخاف الله عز وجل . وعن على رضى الله عنه قال : إن الفقيه حقّ الفقيه من لم يُقنط

---

(١) هذه رواية الأصول . والبيت كما ورد فى ديوانه طبع مطبعة الاستقامة :

واليد سابحة والرجل ضارحة * والعين قادحة والمتن ملحوب

والماء منهمر والشدّ منحدر * والقصب مضطمر واللون غربيب

قوله « سابحة » يعنى إذا جرى فرسه مد يديه فكأنه سابح فى الماء . وضرحت الدابة برجلها : رمحت . وقدحت العين : غارت . والمتن : الظهر . وقوله « سلحوب » بالسين ، وفسر بأنه أملس قليل اللحم . وهذا التفسير لم نجده لهذه الكلمة فى المظان التى بين أيدينا . والرواية فيه « ملحوب » بالميم . ولحب متن الفرس وعجزه : املاس فى حدور . ومتن لحوب . و « والشدّ » العدو . و « القصب » بالضم : الخصر . و « مضطمر » ضامر .

(٢) الغاطية : الشجرة التى طالت أغصانها وانبسطت على الأرض . و « ملاحىّ » : أبيض .

Marfat.com

الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم فى معاصى الله تعالى ، ولم يؤمنهم من عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ؛ إنه لا خير فى عبادة لا علم فيها ، ولا علم لا فقه فيه ، ولا قراءة لا تدبر فيها . وأسند الدارمى أبو محمد عن مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم — ثم تلا هذه الآية — إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ . إن الله وملائكته وأهل سمواته وأهل أرضيه والنونَ فى البحر يُصلون على الذين يعلّمون الناس الخير" الخبر مرسل . قال الدارمى : وحدثنى أبو النعمان حدثنا حماد ابن زيد عن يزيد بن حازم قال حدثنى عمى جرير بن زيد[(١)] أنه سمع تُبَيْعًا يحدّث عن كعب قال : إنى لأجد نعت قوم يتعلمون لغير العمل ، ويتفقهون لغير العبادة ، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، ويلبسون جلود الضأن ، قلوبهم أمرّ من الصبر ؛ فبى يغترّون ، وإياى يخادعون ، فبى حلفت لأتيحنّ لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران . خرّجه الترمذى مرفوعا من حديث أبى الدرداء وقد كتبناه فى مقدمة الكتاب[(٢)] . الزمخشرى : فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ » بالرفع « مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ » بالنصب ، وهو عمر بن عبد العزيز ، وتُحكى عن أبى حنيفة . قلت : الخشية فى هذه القراءة استعارة ، والمعنى : إنما يجلّهم ويعظمهم كما يُجَلّ المهيب المخشىّ من الرجال بين الناس من بين جميع عباده . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ تعليل لوجوب الخشية ، لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم ، وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم . والمعاقِب والمثيب حقّه أن يخشى .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)

(١) فى الأصول : « جرير بن يزيد » وهو تحريف راجع تهذيب التهذيب وسنن الدارمى .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٩ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ هذه آية القراء العاملين العالمين الذين يقيمون الصلاة الفرض والنفل ، وكذا في الإنفاق. وقد مضى في مقدمة الكتاب ما ينبغي أن يتخلق به قارئ القرآن (١). ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴾ قال أحمد بن يحيى : خبر « إن » « يرجون » . ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ قيل : الزيادة الشفاعة في الآخرة . وهذا مثل الآية الأخرى : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ — إلى قوله — وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » (٢) ، وقوله في آخر النساء : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » وهناك بيناه (٣) . ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ للذنوب . ﴿ شَكُورٌ ﴾ يقبل القليل من العمل الخالص ، ويثيب عليه الجزيل من الثواب .

قوله تعالى : وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يعني القرآن . ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٦ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٧٩ .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٦

Marfat.com

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ هذه الآية مشكلة ؛ لأنه قال جل وعز : ﴿ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ثم قال : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ وقد تكلم العلماء فيها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . قال النحاس : فمن أصح ما روى فى ذلك ما روى عن ابن عباس « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ » قال : الكافر، رواه ابن عُيَيْنة عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس أيضا . وعن ابن عباس أيضا «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ» قال : نجت فرقتان، ويكون التقدير فى العربية : فمنهم من عبادنا ظالم لنفسه ؛ أى كافر . وقال الحسن : أى فاسق . ويكون الضمير الذى فى « يَدْخُلُونَهَا » يعود على المقتصد والسابق لا على الظالم . وعن عكرمة وقتادة والضحاك والفراء أن المقتصد المؤمن العاصى ، والسابق التقى على الإطلاق . قالوا : وهذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة الواقعة : « وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً »[1] الآية . قالوا وبعيد أن يكون ممن يصطفى ظالم . ورواه مجاهد عن ابن عباس . قال مجاهد : « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ » أصحاب المشأمة ، « وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ » أصحاب الميمنة ، « وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ» السابقون من الناس كلهم . وقيل : الضمير فى « يَدْخُلُونَهَا » يعود على الثلاثة الأصناف ، على ألا يكون الظالم هاهنا كافرا ولا فاسقا . وممن روى عنه هذا القول عمر وعثمان وأبو الدرداء، وابن مسعود وعقبة بن عمرو وعائشة، والتقدير على هذا القول : أن يكون الظالم لنفسه الذى عمل الصغائر . و(المقتصد) قال محمد بن يزيد : هو الذى يعطى الدنيا حقها والآخرة حقها ؛ فيكون « جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا » عائدا على الجميع على هذا الشرح والتبيين ؛ وروى عن أبى سعيد الخدرى . وقال كعب الأحبار : استوت مناكبهم ــ ورب الكعبة ــ وتفاضلوا بأعمالهم . وقال أبو إسحاق السَّبِيعى : أما الذى سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج . وروى أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال : " كلهم فى الجنة " . وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سابِقُنا سابق ومُقْتَصِدُنا ناج وظالمنا مغفور له " . فعلى هذا القول يقدر مفعول الاصطفاء من قوله : « أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٩٨

Marfat.com

ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا » مضافا حُذف كما حذف المضاف فى « وَٱسْأَلِ ٱلْقَـرْيَةَ »(١) أى اصطفينا دينهم، فبقى اصطفيناهم؛ فحذف العائد إلى الموصول كما حذف فى قوله : « وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُـكُمْ »(١) أى تزدريهم . فالاصطفاء إذًا موجه إلى دينهم، كما قال تعـالى : « إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَى لَـكُمُ ٱلدِّينَ »(٢) . قال النحاس : وقول ثالث — يكون الظالم صاحبَ الكبائر، والمقتصد الذى لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته؛ فيكون : « جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا » للذين سبقوا بالخيرات لا غير . وهـذا قول جماعة من أهل النظر؛ لأن الضمير فى حقيقة النظر لمـا يليه أولى .

قلت : القول الوسط أَوْلاها وأصحها إن شاء الله؛ لأن الكافر والمنافق لم يصطفَوا بحمد الله، ولا اصطفى دينهم . وهذا قول ستة من الصحابة، وحسْبُك . وستزيده بيانا و إيضاحا فى باقى الآية .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ أَوْرَثْنَـا ٱلْكِتَابَ ﴾ أى أعطينا . والميراث عطاء حقيقةً أو مجازا؛ فإنه يقال فيما صار للإنسان بعد موت آخر . و « الكتابَ » هاهنا يريد به معانى الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده، وكأن الله تعالى لمـا أعطى أمة محمد صلى الله عليه وسلم القرآن، وهو قد تضمن معانى الكتب المنزلة، فكأنه ورّث أمة محمد عليه السلام الكتاب الذى كان فى الأمم قبلنا . ﴿ ٱصْطَفَيْنَا ﴾ أى اخترنا . واشتقاقه من الصفو، وهو الخلوص من شوائب الكدر . وأصله اصتفَونا، فأبدلت التاء طاء والواو ياء . ﴿ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قيل المراد أمة محمد صلى الله عليه وسلم، قاله ٱبن عباس وغيره . وكان اللفظ يحتمل جميع المؤمنين من كل أمة، إلا أن عبارة توريث الكتاب لم تكن إلا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، والأُوَل لم يرثوه . وقيل : المصطفَوْن الأنبياء، توارثوا الكتاب بمعنى أنه انتقل عن بعضهم إلى آخر، قال الله تعالى : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ »(٣)، وقال : « يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ »(٤) فإذا جاز أن تكون النبوّة موروثة فكذلك الكتاب . ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ من وقع فى صغيرة . قال ٱبن عطية : وهذا

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ و ص ٢٧ . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٤ فما بعد .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ١٦٣ فما بعد . (٤) راجع جـ ١١ ص ٧٣ فما بعد .

Marfat.com

قول مردود من غير ماوجه . قال الضحاك : معنى « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ » أى من ذريّتهم ظالم لنفسه وهو المشرك . الحسن : من أممهم، على ما تقدّم ذكره من الخلاف فى الظالم . والآية فى أمّة محمد صلى الله عليه وسلم . وقد آختلفت عبارات أرباب القلوب فى الظالم والمقتصد والسابق، فقال سهل بن عبد الله : السابق العالم، والمقتصد المتعلم، والظالم الجاهل . وقال ذو النون المصرى : الظالم الذاكر الله بلسانه فقط ، والمقتصد الذاكر بقلبه ، والسابق الذى لا ينساه . وقال الأنطاكى : الظالم صاحب الأقوال ، والمقتصد صاحب الأفعال ، والسابق صاحب الأحوال . وقال آبن عطاء : الظالم الذى يحب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد الذى يحبه من أجل العقبى ، والسابق الذى أسقط مراده بمراد الحق . وقيل : الظالم الذى يعبد الله خوفا من النار ، والمقتصد الذى يعبد الله طمعا فى الجنة ، والسابق الذى يعبد الله لوجهه لا لسبب . وقيل : الظالم الزاهد فى الدنيا، لأنه ظلم نفسه فترك لها حظا وهى المعرفة والمحبة، والمقتصد العارف، والسابق المحب . وقيل : الظالم الذى يجزع عند البلاء، والمقتصد الصابر على البلاء ، والسابق المتلذذ بالبلاء . وقيل : الظالم الذى يعبد الله على الغفلة والعادة، والمقتصد الذى يعبده على الرغبة والرهبة، والسابق الذى يعبده على الهيبة . وقيل : الظالم الذى أُعطِىَ فمَنَع ، والمقتصد الذى أُعطِىَ فبذَل ، والسابق الذى مُنع فشكر وآثر . يروى أن عابِدَيْن التقيا فقال : كيف حال إخوانكم بالبصرة ؟ قال : بخير، إن أُعطوا شكروا وإن مُنعوا صبروا . فقال : هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ ! عُبّادنا إن مُنعوا شكروا وإن أُعطوا آثروا[(1)] . وقيل : الظالم من آستغنى بماله ، والمقتصد من آستغنى بدينه ، والسابق من آستغنى بربه . وقيل : الظالم التالى للقرآن ولا يعمل به ، والمقتصد التالى للقرآن ويعمل به ، والسابق القارئ للقرآن العامل به والعالم به . وقيل : السابق الذى يدخل المسجد قبل تأذين المؤذن، والمقتصد الذى يدخل المسجد وقد أذّن ، والظالم الذى يدخل المسجد وقد أقيمت الصلاة ؛ لأنه ظلم نفسه الأجر فلم يحصّل لها ما حصّله غيره . وقال بعض أهل العلم فى هذا : بل السابق الذى يدرك الوقت والجماعة فيدرك الفضيلتين ، والمقتصد الذى إن فاتته الجماعة لم يفرط

(1) الزيادة من ك .

Marfat.com

فى الوقت، والظالم الغافل عن الصلاة حتى يفوت الوقت والجماعة، فهو أولى بالظلم . وقيل : الظالم الذى يحب نفسه ، والمقتصد الذى يحب دينه ، والسابق الذى يحب ربه . وقيـل : الظالم الذى ينتصف ولا يُنصف، والمقتصد الذى ينتصف ويُنصف، والسابق الذى يُنصف ولا ينتصف . وقالت عائشة رضى الله عنها : السابق الذى أسلم قبل الهجرة، والمقتصد من أسلم بعد الهجرة، والظالم من لم يسلم إلا بالسيف؛ وهم كلهم مغفور لهم .

قلت : ذكر هـذه الأقوال وزيادةً عليها الثعلبيّ فى تفسـيره . وبالجمـلة فهم طرفان وواسطة ، وهو المقتصد الملازم للقصد وهو ترك الميل ؛ ومنه قول جابر بن حُنَيّ التَّغْلِبِيّ :

نعاطى الملوك السِّلم ما قصدوا لنـا * وليس علينـا قتلهـم بمحـرّم

أى نعاطيهم الصلح ماركبوا بنا القصد، أى ما لم يجوروا، وليس قتلهم بمحرّم علينا إن جاروا؛ فلذلك كان المقتصد منزلةً بين المنزلتين، فهو فوق الظالم لنفسه ودون السابق بالخيرات . ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْـلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ يعنى إتياننا الكتاب لهم . وقيـل : ذلك الاصطفاء مع علمنا بعيوبهم هو الفضل الكبير . وقيل : وعدُ الجنة لهؤلاء الثلاثة فضل كبير .

الثالثـة — وتكلم النـاس فى تقـديم الظالم على المقتصـد والسابق فقيل : التقـديم فى الذكر لا يقتضى تشريفا ؛ كقوله تعـالى : « لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ »[(1)] . وقيل : قدم الظالم لكثرة الفاسقين منهم وغلبتهم، وأن المقتصدين قليـل بالإضافة إليهم ، والسابقين أقل من القليـل ؛ ذكره الزمخشرى ولم يذكره غيره . وقيـل : قدّم الظالم لتأكيد الرجاء فى حقه، إذ ليس له شيء يتكل عليه إلا رحمة ربه . واتكل المقتصد على حسن ظنه، والسابق على طاعته . وقيل : قدّم الظالم لئلا ييأس من رحمة الله، وأخّر السابق لئلا يعجب بعمله . وقال جعفر بن محمد بن على الصادق رضى الله عنه : قدّم الظالم ليخبر أنه لا يتقرب إليه إلا بصرف رحمته وكرمه ، وأن الظلم لا يؤثر فى الاصطفائية إذا كانت ثَمّ عناية ، ثم ثنّى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكر الله، وكلهم فى الجنة

(١) راجع ج ١٨ ص ٤٤٠ .

Marfat.com

بحرمة كلمة الإخلاص : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وقال محمد بن على الترمذى : جمعهم فى الاصطفاء إزالةً للعلل عن العطاء ؛ لأن الاصطفاء يوجب الإرث ، لا الإرث يوجب الاصطفاء ، ولذلك قيل فى الحكمة : صحح النسبة ثم ادّع فى الميراث . وقيل : أخّر السابق ليكون أقرب إلى الجنات والثواب ، كما قدّم الصوامع والبيع فى « سورة الحج »(١) على المساجد ، لتكون الصوامع أقربَ إلى الهدم والخراب ، وتكون المساجد أقرب إلى ذكر الله . وقيل : إن الملوك إذا أرادوا الجمع بين الأشياء بالذكر قدّموا الأدنى ؛ كقوله تعالى : « لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »(٢) ، وقوله : « يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ »(٣) ، وقوله : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ » .

قلت : ولقد أحسن من قال :

وغاية هـذا الجود أنت وإنما * يوافى إلى الغايات فى آخر الأمر

الرابعة — قوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ جمعهم فى الدخول لأنه ميراث ، والعاق والبار فى الميراث سواء إذا كانوا معترفين بالنسب ؛ فالعاصى والمطيع مقرون بالرب . وقرئ : « جَنَّةُ عَدْنٍ » على الإفراد ، كأنها جنة مختصة بالسابقين لقلتهم ؛ على ما تقدّم . و « جَنَّاتِ عَدْنٍ » بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر ؛ أى يدخلون جنات عدن يدخلونها . وهذا للجميع ، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى . وقرأ أبو عمرو « يُدخَلونها » بضم الياء وفتح الخاء . قال : لقوله « يُحَلَّوْنَ » . وقد مضى فى « الحج » الكلام فى قوله تعالى : « يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ »(٤) .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ قال أبو ثابت : دخل رجل المسجد فقال اللهم ارحم غُربتى وآنس وحدتى ويسر لى جليسا صالحا . فقال أبو الدرداء : لئن كنت صادقا فلأنا أسعد بذلك منك ، سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : " « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ

(١) راجع جـ ١٢ ص ٦٨ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٠٩ .
(٣) راجع جـ ١٦ ص ٤٨ . (٤) راجع جـ ١٢ ص ٢٨ .

Marfat.com

الَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ» ـ قال ـ فيجيء هذا السابق فيدخل الجنة بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا ، وأما الظالم لنفسه فيحبس فى المقام و يوبخ ويقرع ثم يدخل الجنة فهم الذين قالوا : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ » " . وفى لفظ آخر " وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون فى طول المحشر ثم هم الذين يتلقاهم[1] الله برحمته فهم الذين يقولون « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ــ إلى قوله ــ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ » " . وقيل : هو الذى يؤخذ منه فى مقامه ؛ يعنى يكفّر عنه بما يصيبه من الهمّ والحزن ، ومنه قوله تعالى : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ[2] » يعنى فى الدنيا . قال الثعلبي : وهـذا التأويل أشبه بالظاهر ؛ لأنه قال : « جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا » ، ولقوله : « الَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا » والكافر والمنافق لم يصطفَوْا .

قلت : وهذا هو الصحيح ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " ومَثَـل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر " . فأخبر أن المنافق يقرؤه ، وأخبر الحق سبحانه وتعالى أن المنافق فى الدرك الأسفل من النار ، وكثير من الكفار واليهود والنصارى يقرءونه فى زماننا هذا . وقال مالك : قد يقرأ القرآن من لا خير فيه . والنَّصَب : التعب . واللُّغوب : الإعياء .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

(١) كذا فى ش وح . وفى ب . وك : « يتلافاهم » . (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٩٦

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ لما ذكر أهل الجنة وأحوالهم ومقالتهم ، ذكر أهل النار وأحوالهم ومقالتهم . ﴿ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ مثل : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا »(١) . ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ مثل : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ »(٢) . ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أى كافر بالله ورسوله . وقرأ الحسن « فيموتون » بالنون ، ولا يكون للنفى حينئذ جواب ، ويكون « فيموتون » عطفا على « يُقْضَى » تقديره لا يقضى عليهم ولا يموتون ؛ كقوله تعالى : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ »(٣) . قال الكسائى : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » بالنون فى المصحف لأنه رأس آية و « لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا » لأنه ليس رأس آية . ويجوز فى كل واحد منهما ما جاز فى صاحبه . ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أى يستغيثون فى النار بالصوت العالى . والصراخ الصوت العالى ، والصارخ المستغيث ، والمصرخ المغيث . قال :

كنا إذا ما أتانا صارخ فـزِعٌ * كان الصراخُ له قرعَ الظَّنابيب(٤)

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا ﴾ أى يقولون ربنا أخرجنا من جهنم وردّنا إلى الدنيا . ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ قال ابن عباس : نقل : لا إله إلا الله . وهو معنى قولهم : ﴿ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أى من الشرك ؛ أى نؤمن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية ، ونمتثل أمر الرسل . ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ هذا جواب دعائهم ؛ أى فيقال لهم ، فالقول مضمر . وترجم البخارى : (باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه فى العمر لقوله عز وجل « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ » يعنى الشيب) حدثنا عبد السلام بن مطهّر قال حدثنا عمر بن على قال حدثنا مَعْن بن محمد الغفارى عن سعيد بن أبى سعيد المَقْبُرِىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة " . قال الخطّابى : « أعذر إليه » أى بلغ به أقصى العذر ، ومنه قولهم : قد

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٢٧ (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٥٣ (٣) راجع جـ ١٩ ص ١٦٤

(٤) البيت لسلامة بن جندل . والظنابيب (جمع الظنبوب) وهو مسمار يكون فى جبة السنان .

Marfat.com

أعذر من أنذر؛ أى أقام عذر نفسه فى تقديم نذارته . والمعنى : أن من عمره الله ستين سنة لم يبق له عذر؛ لأن الستين قريب من معترك المنايا ، وهو سنّ الإنابة والخشوع وترقّب المنية ولقاء الله تعالى؛ ففيه إعذار بعد إعذار، الأوّل بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، والموَتان[1] فى الأربعين والستين . قال عليّ وابن عباس وأبو هريرة فى تأويل قوله تعالى « أوَ لم نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فيهِ مَن تَذَكَّرَ » : إنه ستون سنة . وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال فى موعظته : "ولقد أبلغ فى الإعذار من تقدّم فى الإنذار وإنه لينادى منادٍ من قِبل الله تعالى أبناء الستين « أو لم نعمركم ما يتذكّر فيهِ من تذكّر وجاءكم النـذير» " . وذكر الترمذى الحكيم من حديث عطاء بن أبى رَباح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة نودى أبنـاء الستين وهو العمر الذى قال الله « أوَ لم نعمّركم ما يتذكّر فيهِ من تذكّر » " . وعن ابن عباس أيضا أنه أربعون سـنة . وعن الحسن البصرى ومسروق مثله . ولهذا القول أيضا وجه ، وهو صحيح ؛ والحجة له قوله تعالى : « حتى إذا بلَغ أشُدَّه وبلَغ أربعِين سنةً » الآية[2] . ففى الأربعين تناهى العقل ، وما قبل ذلك وما بعـده منتقص عنه[3] ، والله أعلم . وقال مالك : أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم ويخالطون الناس ، حتى يأتى لأحدهم أربعون سـنة ، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيهم الموت . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « الأعراف »[4] . وخرّج ابن ماجه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال : " أعمار أمّتى ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من تجاوز ذلك " .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ وقرئ « وجاءتكم النُّذُر » واختلف فيه؛ فقيل القرآن . وقيل الرسول؛ قاله زيد بن على وابن زيد . وقال ابن عباس وعكرمة وسفيان ووكيع والحسين ابن الفضل والفرّاء والطبرى : هو الشيب . وقيل : النذيرُ الحُمَّى . وقيـل : موت الأهل والأقارب . وقيل : كمال العقل . والنذير بمعنى الإنذار .

(١) الموتان (بضم الميم وفتحها وسكون الواو) : الموت .
(٢) راجع جـ ١٦ ص ١٩٤
(٣) كيف هذا وقد عاش صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين سنة ؟ ؟
(٤) راجع جـ ٧ ص ٢٧٦

Marfat.com

قال : فالشيب والحُمّى وموتُ الأهل كلُّه إنذار بالموت ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " الحُمّى رائدُ الموت " . قال الأزهرى : معناه أن الحمى رسول الموت، أى كأنها تُشعر بقدومه وتُنذر بمجيئه . والشيب نذير أيضا ؛ لأنه يأتى فى سنّ الاكتهال، وهو علامة لمفارقة سنّ الصِّبَا الذى هو سِنُّ اللهو واللعب . قال :

رأيت الشيب من نُذُرِ المنايا * لصاحبه وحسْبُك مِن نذير

وقال آخر :

فقلت لها المشيبُ نذيرُ عمرى * ولست مسودا وجه النذير

وأما موت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان فإنذار بالرحيل فى كل وقت وأوان، وحين وزمان . قال :

وأراك تحملهم ولستَ تردّهم * فكأننى بك قد حُمِلت فلم تُرَدّ

وقال آخر :

الموت فى كل حين ينشر الكَفَنَا * ونحن فى غفلة عمّا يُرادُ بنا

وأما كمال العقل فبِه تُعرف حقائق الأمور و يفصل بين الحسنات والسيئات ؛ فالعاقل يعمل لآخرته و يرغب فيما عند ربه ؛ فهو نذير . وأما محمد صلى الله عليه وسلم فبعثه الله بشيرًا ونذيرًا إلى عباده قطعًا لحججهم ؛ قال الله تعالى : « لِئلا يكون لِلناسِ على اللهِ حجةٌ بعد الرسلِ »(1) ، وقال : « وما كنا معذِّبين حتى نَبْعَثَ رسولًا »(2) .

قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا ﴾ يريد عذاب جهنم ؛ لأنكم ما اعتبرتم ولا اتّعظتم . ﴿ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ أى مانع من عذاب الله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾

(1) راجع جـ ٦ ص ١٨ . (2) راجع ١٠ ص ٢٣٠ .

Marfat.com

تقدّم معناه فى غير موضع . والمعنى : علم أنه لو ردّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحًا ، كما قال : « ولو رُدُّوا لعَادُوا لِمَا نُهُوا عنه»(١) . و ﴿ عالِمُ ﴾ إذا كان بغير تنوين صلح أن يكون للماضى والمستقبل ، وإذا كان منوّنا لم يجز أن يكون للماضى .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ ﴾ قال قتادة : خَلَفًا بعد خَلَف ، قَرْنًا بعد قرن . والخلف هو التالى للتقدّم ، ولذلك قيل لأبى بكر: ياخليفة الله ؛ فقال : لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا راض بذلك . ﴿ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أى جزاء كفره وهو العقاب والعذاب . ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ أى بُغضًا وغضبًا . ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أى هلاكًا وضلالًا .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ « شركاءكم » منصوب بالرؤية ، ولا يجوز رفعه ، وقد يجوز الرفع عند سيبويه فى قولهم : قد علمت زيدا أبو من هو ؟ لأن زيدًا فى المعنى مستفهم عنه . ولو قلت : أرأيت زيدا أبو من هو ؟ لم يجز الرفع . والفرق بينهما أن معنى هـذا أخبرنى عنه ، وكذا معنى هـذا أخبرونى عن شركائكم الذين تدعون من

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠٩

Marfat.com

دون الله ، أعبدتموهم لأن لهم شركة فى خلق السموات ، أم خلقوا من الأرض شيئا ! ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ أى أم عندهم كتاب أنزلناه إليهم بالشركة . وكان فى هذا ردٌّ على من عبد غير الله عز وجل ؛ لأنهم لا يجدون فى كتاب من الكتب أن الله عز وجل أمر أن يُعْبَد غيره . ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم « على بيّنة » بالتوحيد ، وجمع الباقون . والمعنيان متقاربان إلا أن قراءة الجمع أولى ؛ لأنه لا يخلو من قرأه « على بينةٍ » من أن يكون خالف السواد الأعظم ، أو يكون جاء به على لغة من قال : جاءنى طلحت ، فوقف بالتاء ، وهذه لغة شاذة قليلة ؛ قاله النحاس . وقال أبو حاتم وأبو عبيد : الجمع أولى لموافقته الخط ، لأنها فى مصحف عثمان « بينات » بالألف والتاء . ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أى أباطيل تغرّ ، وهو قول السادة للسِّفْلة : إن هذه الآلهة تنفعكم وتقربكم . وقيل : إن الشيطان يَعِد المشركين ذلك . وقيل : وعدهم بأنهم ينصرون عليهم .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ۚ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤١)

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ لما بيّن أن آلهتهم لا تقدر على خلق شىء من السموات والأرض بيّن أن خالقهما وممسكهما هو الله ، فلا يوجد حادث إلا بإيجاده ، ولا يبقى إلا ببقائه . و « أن » فى موضع نصب بمعنى كراهة أن تزولا ، أو لئلا تزولا ، أو يحمل على المعنى ؛ لأن المعنى أن الله يمنع السموات والأرض أن تزولا ، فلا حاجة على هذا إلى إضمار ، وهذا قول الزجاج . ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ قال الفرّاء : أى ولو زالتا ما أمسكهما من أحد . و « إن » بمعنى ما . قال : وهو مثل قوله : « وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ »[1] . وقيل : المراد زوالها

---

(١) راجع ص ٤٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

يوم القيامة . وعن إبراهيم قال : دخل رجل من أصحاب ابن مسعود إلى كعب الأحبار يتعلم منـه العلم ، فلمـا رجع قال له ابن مسعود : ما الذى أصبت من كعب ؟ قال سمعت كعبًا يقول : إن السماء تدور على قُطْب مثل قطب الرَّحَى ، فى عمود على منكب مَلَك ؛ فقال له عبد الله : وددتُ أنك انقلبت براحلتك ورحلها ، كذب كعب ، ما ترك يهوديّتـه ! إن الله تعـالى يقول : « إن الله يُمسك السمواتِ والأرضَ أن تزولا » إن السـموات لا تدور ، ولو كانت تدور لكانت قد زالت . وعن ابن عباس نحوه ، وأنه قال لرجل مقبل من الشام : من لقيت به ؟ قال كعبا . قال : وما سمعتـه يقول ؟ قال : سمعته يقـول : إن السموات على منكب مَلَك . قال : كذب كعب ، أما ترك يهوديّته بعـدُ ! إن الله تعـالى يقول : « إن الله يُمسك السموات والأرض أن تزولا » والسموات سـبع والأرضون سبع ، ولكن لمـا ذكّرهما أجراهما مجرى شيئين ، فعادت الكناية إليهما ، وهو كقوله تعالى : « أَنَّ السَّمواتِ والأرضَ كانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَـا [(١)] » ثم ختم الآية بقوله : « إنه كان حليماً غفوراً » لأن المعنى فيما ذكره بعض أهل التأويل : أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا من كفر الكافرين ، وقولهم اتخذ الله ولدا . قال الكلبي : لمـا قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، كادت السـموات والأرض أن تزولا عن أمكنتهما ، فمنعهما الله ، وأنزل هـذه الآية فيه ؛ وهو كقوله تعـالى : « لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تكادُ السمواتُ يتفطَّرنَ منه [(٢)] » الآية .

قوله تعـالى : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّـا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَـلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِـدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْـدِيلًا وَلَن تَجِـدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْـوِيلًا ﴿٤٣﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٢ .　(٢) راجع جـ ١١ ص ١٥٥ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، حين بلغهم أن أهل الكتاب كذّبوا رسلهم ، فلعنوا مَن كذب نبيّه منهم ، وأقسموا بالله جل اسمه ﴿ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ أى نبىّ ﴿ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ يعنى ممن كذّب الرسل من أهل الكتاب . وكانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بنى إسرائيل ، فلما جاءهم ما تمنّوه وهو النذير من أنفسهم ، نفروا عنه ولم يؤمنوا به . ﴿ اسْتِكْبَارًا ﴾ أى عُتُوًّا عن الإيمان ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ أى مكر العمل السيئ وهو الكفر وخَدْع الضعفاء ، وصدّهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم . وأنّث « مِن إحدى الأمم » لتأنيث أُمّة ؛ قاله الأخفش . وقرأ حمزة والأخفش « ومكر السَّيِّءْ ولَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ » فحذف الإعراب من الأول وأثبته فى الثانى . قال الزجاج : وهو لحن ؛ وإنما صار لحنًا لأنه حذف الإعراب منه . وزعم المبرّد أنه لا يجوز فى كلام ولا فى شعر ؛ لأن حركات الإعراب لا يجوز حذفها ، لأنها دخلت للفرق بين المعانى . وقد أعظم بعض النحويين أن يكون الأعمش على جلالته ومحله يقرأ بهذا ، قال : إنما كان يقف عليه ، فغلط من أدّى عنه ، قال : والدليل على هذا أنه تمام الكلام ، وأن الثانى لما لم يكن تمام الكلام أعرب باتفاق ، والحركة فى الثانى أثقل منها فى الأول لأنها ضمة بين كسرتين . وقد احتج بعض النحويين لحمزة فى هذا بقول سيبويه ، وأنه أنشد هو وغيره :

* إذا اعوججن قلتُ صاحبْ قوِّمِ[1] *

وقال الآخر :

فاليومَ أشربْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ * إثمًا من الله ولا واغلِ[2]

---

(١) تمامه : * بالدوّ أمثال السفين العوّم *

الدوّ : الصحراء . وأمثال السفين : رواحل محملة تقطع الصحراء قطع السفين البحر .

(٢) البيت لامرئ القيس . والمستحقب : المكتسب للإثم الحامل له . والواغل : الداخل على القوم يشربون ولم يدع . قال هذا حين قتل أبوه ونذر ألا يشرب الخمر حتى يثأر به ، فلما أخذ ثأره حلت له بزعمه فلا يأثم فى شربها إذ قد وفى بنذره فيها .

Marfat.com

وهذا لا حجة فيه؛ لأن سيبويه لم يجزه، وإنما حكاه عن بعض النحويين، والحديث إذا قيل فيه عن بعض العلماء لم يكن فيه حجة، فكيف وإنما جاء به على وجه الشذوذ ولضرورة الشعر وقد خولف فيه . وزعم الزجاج أن أبا العباس أنشده :

* إذا اعوججن قلت صاح قــوم *

وأنه أنشــــد :

* فاليــوم أشرب غير مستحقِبٍ *

بوصل الألف على الأمر؛ ذكر جميعه النحاس . الزمخشري : وقرأ حمــزة « ومكر السَّيِّئْ » بسكون الهمزة، وذلك لاستثقاله الحركات، ولعــله اختلس فظن سكونا، أو وقف وقفـة خفيفة ثم ابتدأ « ولا يحيق » . وقرأ ابن مسعود « ومَكْرًا سيئًا » . وقال المهدوي : ومن سكّن الهمزة من قوله : « ومكر السيئ » فهو على تقدير الوقف عليه، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، أو على أنه أسكن الهمزة لتوالي الكسرات والياءات، كما قال :

* فاليــوم اشرب غير مستحقب *

قال القشيري : وقرأ حمزة « ومكر السيئْ » بسكون الهمزة، وخطّأه أقوام . وقال قوم : لعله وقف عليه لأنه تمــام الكلام، فغلط الراوي وروى ذلك عنه في الإدراج؛ وقد سبق الكلام في أمثال هذا، وقلنا : ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأه فلا بدّ من جوازه، ولا يجــوز أن يقال : إنه لحن، ولعــل مراد من صار إلى التخطئـة أن غيره أفصح منه، وإن كان هو فصيحا . ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ أي لا ينزل عاقبة الشرك إلا بمن أشرك . وقيل : هذا إشارة إلى قتلهم ببدر .

وقال الشاعر :

وقد دفعوا المنيــة فاستقلت * ذراعًا بعــد ما كانت تحيق

أي تنزل، وهذا قول قُطْرُب . وقال الكلبي : « يَحِيق » بمعنى يُحيط . والحَوْق الإحاطة، يقال : حاق به كذا أي أحاط به . وعن ابن عباس أن كعبًا قال له : إني أجد في التــوراة «من حفر لأخيه حُفرةً وقع فيها» ؟ فقال ابن عباس : فإني أوجِدُك في القرآن ذلك . قال : وأين ؟ قال : فاقرأ «ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهلِهِ» . وفي أمثال العرب « من حفر لأخيه

Marfat.com

جُبًّا وَقَع فيه مُنْكَبًّا » وروى الزُّهرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لا تَمكر ولا تُعِن ماكرًا فإن الله تعالى يقول : « ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهلِهِ » ، ولا تَبغ ولا تُعِنْ باغيًا فإن الله تعالى يقول : « فمَن نكَث فإنما ينكُث على نفسِهِ » وقال تعالى : « إنما بَغيكم على أنفسِكم » " وقال بعض الحكماء :

يأيها الظالم فى فعله * والظلم مردود على من ظلم

إلى متى أنت وحتى متى * تُحصى المصائب وتنسى النِّعم

وفى الحديث " المكر والخديعة فى النار " . فقوله : " فى النار " يعنى فى الآخرة تدخل أصحابها فى النار ؛ لأنها من أخلاق الكفار لا من أخلاق المؤمنين الأخيار ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فى سياق هذا الحديث : "وليس من أخلاق المؤمن المكر والخديعة والخيانة" . وفى هذا أبلغ تحذير عن التخلق بهذه الأخلاق الذميمة ، والخروج عن أخلاق الإيمان الكريمة .

قوله تعالى : ﴿ فهل ينظُرونَ إلَّا سُنَّةَ الأوَّلين ﴾ أى إنما ينتظرون العذاب الذى نزل بالكفار الأولين . ﴿ فلن تجد لِسُنَّةِ اللهِ تبديلا ولن تجد لِسُنةِ اللهِ تحويلًا ﴾ أى أجرى الله العذاب على الكفار ، ويجعل ذلك سُنة فيهم ، فهو يعذب بمثله من استحقه ، لا يقدر أحد أن يبدّل ذلك ، ولا أن يحوّل العذاب عن نفسه إلى غيره . والسُّنّة الطريقة ، والجمع سُنَن . وقد مضى فى « آل عمران »(١) وأضافها إلى الله عز وجل . وقال فى موضع آخر : ﴿ سُنَّةَ مَن قد أرسلنا قبلك مِن رُسُلِنا ﴾(٢) فأضاف إلى القوم لتعلّق الأمر بالجانبين ؛ وهو كالأجل ، تارة يضاف إلى الله ، وتارة إلى القوم ؛ قال الله تعالى : « فإن أجل الله لآتٍ »(٣) وقال : « فإذا جاء أجلهم » .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٢١٦ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٢ . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٦ .

Marfat.com

بين السنة التي ذكرها؛ أي أو لم يروا ما أنزلنا بعاد وثمود، وبمدين وأمثالهم لما كذبوا الرسل، فتدبروا ذلك بنظرهم إلى مساكنهم ودورهم، وبما سمعوا على التواتر بما حلّ بهم، أفليس فيه عبرة وبيان لهم؛ ليسوا خيرًا من أولئك ولا أقوى، بل كان أولئك أقوى؛ دليله قوله: ﴿وكانوا أشدَّ منهم قُوَّةً وما كان اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شيءٍ في السّموات ولا في الأرض﴾ أي إذا أراد إنزال عذاب بقوم لم يعجزه ذلك. ﴿إنه كان عليمًا قديرًا﴾.

قوله تعالى: وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ الناسَ بِما كَسَبُوا﴾ يعني من الذنوب. ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾ قال ابن مسعود: يريد جميع الحيوان مما دَبَّ ودَرَج. قال قتادة: وقد فُعل ذلك زمن نوح عليه السلام. وقال الكلبي: ﴿مِنْ دابّةٍ﴾ يريد الجنّ والإنس دون غيرهما؛ لأنهما مُكَلَّفان بالعقل. وقال ابن جرير والأخفش والحسين بن الفضل: أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم.

قلت: والأول أظهر، لأنه عن صحابي كبير. قال ابن مسعود: كاد الجُعَل أن يُعذب في جُحره بذنب ابن آدم. وقال يحيى بن أبي كثير: أمَر رجل بالمعرف ونَهى عن المنكر، فقال له رجل: عليك بنفسك؛ فإن الظالم لا يضر إلا نفسه. فقال أبو هريرة: كذبت؟ والله الذي لا إله إلا هو — ثم قال — والذي نفسي بيده إن الحُبارَى لتموت هُزْلًا في وَكرها بظلم الظالم. وقال الثُّمالي ويحيى بن سلام في هذه الآية: يحبس الله المطر فيهلك كل شيء. وقد مضى في «البقرة» نحو هذا عن عكرمة ومجاهد في تفسير «ويَلْعَنُهم اللاعنون»(١) هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجَدْب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم. وذكرنا هنالك حديث البَراء

(١) راجع جـ ٢ ص ١٨٦ طبعة ثانية.

Marfat.com

مدينة العلم دار العلوم محمدية
لور آباد - فتح گڑھ - سہالکوٹ

ابن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « ويلعنهم اللاعنون » قال : " دواب الأرض " . ﴿ وَلٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قال مقاتل : الأجل المسمى هو ما وعدهم فى اللوح المحفوظ . وقال يحيى : هو يوم القيامة . ﴿ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ ﴾ أى بمن يستحق العقاب منهم ﴿ بَصِيرًا ﴾ . ولا يجوز أن يكون العامل فى « إذا » « بصيرا » كما لا يجوز : اليوم إن زيدا خارج . ولكن العامل فيها « جاء » لشبهها بحروف المجازاة، والأسماء التى يجازَى بها يعمل فيها ما بعدها . وسيبويه لا يرى المجازاة بـ « إذا » إلا فى الشعر، كما قال[1] :

إذا قَصُرت أسيافنا كان وصلها * خُطانا إلى أعدائنا فنضارب

ختمت سورة « فاطر » والحمد لله

(١) البيت لقيس بن الحطيم الأنصارى راجع جـ ١ ص ٢٠١ طبعة ثانية أو ثالثة .

تم بعون الله تعالى الجزء الرابع عشر من تفسير القرطبى،

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الخامس عشر، وأوله :

« سورة يٰس »

من الأصول التى راجعنا عليها هذا الجزء والذى قبله نسخة خطية فى مكتبة حضرة الأستاذ أحمد خيرى نجل المرحوم خيرى باشا ، تفضل حضرته فأعارنا إياها .

وقد كان لهذه النسخة فضل كبير فى تيسير السبيل أمامنا ، فجزاه الله خير الجزاء ما

حققه

أحمد عبد العليم

البردونى

Marfat.com

استدراك

تقدم فى الجزء الثالث ص ٩٣ عند الكلام على قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم » :

إنما الأرحام أرضون لنا محترثات * فعلينا الزرع فيها وعلى الله النبات

وصواب إنشاده :

إنما الأرحام أر * ضون لنا محترثات

فعلينا الزرع فيها * وعلى الله النبات

محققه

أحمد عبد العليم البردونى

Marfat.com